

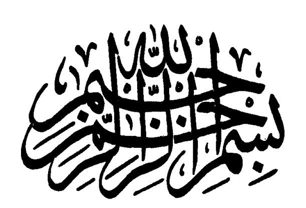
للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء
إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي
المتوفى سنة ٧٧٤هـ

أشرف على تحقيقه: فضيلة الشيخ
مصطفى بن العدوي

خرج أحاديث هذا الجزء:
أبو يحيى محمد بن أحمد بن عبده

الجزء الحادي عشر

دار ابن رجب


بسم الله الرحمن الرحيم

البداية والنهاية

٣

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م

رقم الإيداع : ٢٠٤٥١ / ٢٠٠٤
I.S.B.N. : 977 - 390 - 042 - 8

دار ابن رجب طبع. نشر. توزيع

فارسكور : تليفاكس ٠٠٢٠٥٧٤٤١٥٥٠ جوال : ٠١٢٢٣٦٨٠٠٢
المنصورة : شارع جمال الدين الأفغاني هاتف : ٠٠٢٠٥٠٢٣١٢٠٦٨

خلافة الواثق هارون بن المعتصم

بويع له بالخلافة قبل أن مات أبوه المعتصم يوم الأربعاء لثمانٍ خلون من ربيع الأوّل من هذه السنة - أعني سنة سبع وعشرين ومائتين - ويُكنّىٰ بأبي جعفر، وأمُّه أمُّ ولدٍ روميَّةٌ يقال لها: قراطيسُ. وقد خرجتْ في هذه السنة قاصدةً الحجَّ، فماتتْ بالحيرة، ودفنتْ بالكوفة في دار داود بن عيسىٰ، وذلك لأربع خلون من ذي القعدة من هذه السنة، وكان الذي أقام للناس الحجَّ في هذه السنة جعفر بن المعتصم.

ومن توفي في هذه السنة من المشاهير:

ملك الروم توفيلُ بن ميخائيل، وكانتْ مدةُ ملكه ثِنتي عشرةَ سنةً، فملكت بعده امرأته تدورة، وكان ابنها ميخائيلُ بن توفيل صغيرًا.

وفيها توفِّي: بشْرٌ الحافي، الزاهدُ المشهورُ، وهو بشر بن الحارث بن عبدالرحمن بن عطاء بن هلال بن ماهان بن عبدالله المروزيُّ، أبو نصرٍ الزاهدُ المعروفُ بالحافي، نزيلُ بغداد.

قال ابن خلِّكان: وكان اسم جدِّه عبدالله بعبور، أسلم علىٰ يدي عليِّ بن أبي طالب.

قلتُ: وكان مولده ببغداد سنة خمسين ومائةٍ، وسمع بها شيئًا كثيرًا من حمّاد بن زيد، وعبدالله ابن المبارك، وابن مهديٍّ، ومالك، وأبي بكر بن عيّاشٍ، وغيرهم.

وعنه جماعةٌ؛ منهم أبو خيثمة زهير بن حرْبٍ، وسريُّ السَّقطيُّ، والعبّاسُ بن عبدالعظيم، ومحمد بن حاتم.

قال محمد بن سعد: سمع بشرٌ كثيرًا، ثم اشتغل بالعبادة، واعتزل الناس ولم يحدِّثْ. وقد أثنىٰ عليه غير واحد من الأئمة في عبادته وزهده وورعه ونسكه وتقشُّفه.

قال الإمام أحمد يوم بلغه موته: لم يكنْ له نظيرٌ إلا عامر بن عبد قيس، ولو تزوَّج لكان قد تمَّ أمره. وقال إبراهيم الحربيُّ: ما أخرجتْ بغدادُ أتمَّ عقلاً، ولا أحفظ للسانه منه، ما عرف له غيبةٌ لمسلم، وكان في كلِّ شعرةٍ منه عقْلٌ، ولو قسم عقله علىٰ أهل بغداد لصاروا عقلاء، وما نقص من عقله شيءٌ.

وذكر غير واحد: أنّ بشرًا كان شاطرًا في بدء أمره، وأن سبب توبته أنه وجد رقعةً فيها اسم الله، عزَّ وجلَّ، في أتون حمّام، فرفعها ورفع طرفه إلىٰ السماء وقال: سيِّدي، اسمك ههنا ملقّىً يداس! ثم ذهب إلىٰ عطّارٍ، فاشترىٰ بدرهم غاليةً، وضمخ تلك الرُّقْعة منها، ووضعها حيث لا تنال، فأحيا الله قلبه، وألهمه رشده، وصار إلىٰ ما صار إليه من العبادة والزَّهادة.

ومن كلامه: من أحبَّ الدنيا فليتهيَّأْ للذُّلِّ. وكان بشرٌ يأكل الخبز وحده، فقيل له: بماذا تأتدمُ؟ فقال: أذكر العافية فأجعلها أدْمًا. وكان لا يلبس نعلاً بل يمشي حافيًا، طرق يومًا بابًا، فقيل: من؟

فقال: بشرٌ الحافي. فقالتْ جاريةٌ صغيرةٌ: أما وجد هذا دانقين يشتري بهما نعلاً، ويستريح من هذا الاسم. قالوا: وكان سبب تركه النعل أنَّه جاء إلى حذَّاء، فطلب منه شراكًا لنعله، فقال له: ما أكثر كلفتكم على الناس! فطرح النعْلَ من يده، وخلع الأخرى من رجله وحلف لا يلبسُ نعلاً أبدًا.

قال ابن خلِّكان: وكانتْ وفاتُه يوم عاشوراء. وقيل: في رمضان ببغداد. وقيل: بمروَ. قلت: الصحيحُ ببغداد في هذه السنة. وقيل: في سنة ستٍّ وعشرين. والأولُ أصحُّ. والله أعلم.

وحين مات اجتمع في جنازته أهل بغداد عن بكرة أبيهم، فأخرج من بعد صلاة الفجر، فلم يستقرَّ في قبره إلا بعد العتمة، وكان عليُّ بن المدينيِّ وغيره من أئمة الحديث يصيحُ بأعلى صوته في الجنازة: هذا والله شرف الدنيا قبل شرف الآخرة. وروي أنَّ الجنَّ كانت تنوح عليه في بيته الذي كان يسكنُ فيه، وأنَّه رآه بعضهم في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي ولكلِّ من شهد جنازتي، ولكلِّ من أحبَّني إلى يوم القيامة.

وذكر الخطيب البغداديُّ أنَّه كان له أخواتٌ ثلاثٌ؛ وهنَّ: مخَّةُ، ومضغةُ، وزبدةُ. وكلُّهن عابداتٌ زاهداتٌ مثله، وأشدُّ ورعًا أيضًا. ذهبتْ إحداهنَّ فاستأذنتْ على أحمد بن حنبل، رحمه الله، فقالتْ: إنِّي ربما طفئ السِّراجُ وأنا أغزلُ، فإذا كان ضوءُ القمر غزلتُ فيه، فعليَّ عند البيع أن أميز هذا من هذا؟ فقال لها: إنْ كان بينهما فرْقٌ فأعلمي به المشتري. وقالت له مرةً إحداهُنَّ: ربما تمرُّ بنا مشاعل بني طاهر في الليل ونحن نغزلُ، فنغزلُ الطَّاقَ والطاقين والطاقات، فخلِّصْني من ذلك. فأمرها أن تتصدَّق بذلك الغزل كلِّه لما اشتبه عليها من معرفة ذلك المقدار. وسألته عن أنين المريض أفيه شكوى؟ قال: لا، إنما هو شكوى إلى الله، عزَّ وجلَّ. ثم خرجتْ فقال لابنه عبدالله: يا بنيَّ، اذهبْ خلفها، فاعلم لي من هذه المرأةُ؟ قال عبدالله: فذهبت وراءها، فإذا هي قد دخلتْ دار بشر الحافي، وإذا هي أختُه.

وروى الخطيبُ البغداديُّ أيضًا عن زبدة قالتْ: جاء ليلةً أخي بشرٌ، فدخل برجله في الدار، وبقيت الأخرى خارج الدار، فاستمرَّ كذلك ليلته حتى أصبح، فقلتُ له: فيم تفكرت ليلتك؟ فقال: تفكرت في بشر النصرانيِّ، وبشر اليهوديِّ، وبشر المجوسيِّ، وفي نفسي - واسمي بشرٌ - فقلتُ: ما الذي سبق منك حتى خصَّك بالإسلام من بينهم؟ فتفكَّرتُ في تفضُّله عليَّ، وحمدته على أن جعلني من خاصته، وألبسني لباس أحبابه.

وقد ترجمه الحافظ ابن عساكر، فأطنب وأطيب وأطال من غير ملالٍ، وقد ذكر ابن عساكر أشعارًا حسنةً، وذكر أنَّ كان يتمثَّلُ بهذه الأبيات:

تعاف القذى في الماء لا تستطيعه ... وتكرعُ في حوض الذُّنوب فتشربُ
وتؤثر من كلِ الطعام ألذَّه ... ولا تذكرُ المختارَ من أين يكسبُ
وترقد يا مسكين فوق نمارق ... وفي حشوها نارٌ عليك تلهَّبُ
فحتَّى متى لا تستفيقُ جهالةً ... وأنت ابن سبعين بدينك تلعبُ

ومن توفي فيها من الأعيان:

أحمد بن عبدالله بن يونس البربوعيُّ. **وإسماعيل** بن عمرو البجليُّ. **وسعيد** بن منصور، صاحب السُّنن المشهورة التي لا يشاركه في مثلها إلا القليل. ومحمد بن الصباح الدُّولابيُّ، وله سننٌ أيضًا. **وأبو الوليد** الطيالسيُّ. **وأبو الهذيل** العلاف، المتكلمُ المعتزليُّ.

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين ومائتين

في رمضان منها خلع الخليفة الواثقُ على أشناس الأمير وتوَّجه وألبسه وشاحين من جوهر.

وحجَّ بالناس في هذه السنة محمد بن داود الأميرُ. وغلا السِّعرُ على الناس في طريق مكة جدًا، وأصابهم حرٌّ شديدٌ وهم بعرفة، ثم بردٌ شديدٌ، ومطرٌ عظيمٌ، في ساعةٍ واحدةٍ، ونزل عليهم وهم بمنًى مطرٌ لم ير مثله، وسقطتْ قطعةٌ من الجبل عند جمرة العقبة، فقتلتْ جماعةً من الحجّاج.

قال ابن جرير: وفيها مات أبو الحسن المدائنيُّ في منزل إسحاق بن إبراهيم الموصليِّ، وحبيب بن أوس الطائيُّ، أبو تمام الشاعر.

قلت: أمَّا أبو الحسن عليُّ بن محمد المدائنيُّ، أحد أئمة هذا الشأن، وإمام الأخباريِّين في زمانه، فتقدَّم ذكر وفاته قبل هذه السنة، فالله أعلم.

أمَّا أبو تمام الطائيُّ الشاعرُ: صاحب الحماسة التي جمعها في فصل الشتاء بهمذان في دار وزيرها، فهو حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس بن الأشجِّ بن يحيى بن مرينا بن سهم بن خلجان بن مروان بن دفافة بن مرِّ بن سعد بن كاهل بن عمرو بن عديِّ بن عمرو بن الحارث بن طيِّئ - وهو جلهمةُ - بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، أبو تمام الطائيُّ الشاعرُ الأديب المشهورُ.

ونقل الخطيب، عن محمد بن يحيى الصُّوليِّ أنَّه حكى عن بعض الناس أنَّهم قالوا: أبو تمام، حبيب بن تدرس النصرانيِّ فسمَّاه أبو تمام أوسًا بدل تدرس. قال ابن خلِّكان: وأصله من قرية جاسم من عمل الجيدور بالقرب من طبريَّة، وكان بدمشق يعمل عند حائكٍ، ثم سار إلى مصر في شبيبته. وابن خلِّكان أخذ ذلك من «تاريخ الحافظ ابن عساكر»، وقد ترجم أبا تمام ترجمةً حسنةً. وقال الخطيبُ البغداديُّ: وهو شاميُّ الأصل، وكان بمصر في حداثته يسقي الماء في المسجد الجامع، ثم جالس الأدباء، فأخذ عنهم وتعلم منهم، وكان فطنًا فهمًا، وكان يحبُّ الشعر، فلم يزلْ يعانيه حتى قال الشعر فأجاد، وشاع ذكره وسار شعره، وبلغ المعتصم خبره، فحمله إليه وهو بسُرَّ من رأى، فعمل فيه قصائد، فأجازه المعتصمُ وقدَّمه على شعراء وقته، فقدم بغداد، فجالس الأدباء، وعاشر العلماء، وكان موصوفًا بالظَّرف وحسنِ الأخلاق وكرمِ النفس، وقد روى عنه أحمد بن أبي طاهر وغيره أخبارًا مسندةً. قال القاضي ابن خلِّكان: كان يحفظ أربع عشرة ألف أرجوزة للعرب، غير

القصائد والمقاطيع، وغير ذلك. وكان يقال: في طيِّئ ثلاثةٌ؛ حاتم في كرمه، وداود الطائيُّ في زهده، وأبو تمام في شعره. قلت: وقد كان الشعراء في زمانه جماعةً؛ فمن مشاهيرهم: أبو الشِّيص، ودعبل بن عليٍّ، وابن أبي قيس، وقد كان أبو تمام من خيارهم دينًا وأدبًا وأخلاقًا. ومن رقيق شعره قوله:

يا حليف النَّدى ويا توءمَ الجُو ... دِ ويا خير من حبوتُ القريضا
ليت حُمَّاك بي وكان لك الأجـ ... ـرُ فلا تشتكي وكنتُ المريضا

وقد ذكر الخطيبُ عن إبراهيم بن محمد بن عرفة أنَّ أبا تمام توفِّي في سنة ثمانٍ وعشرين ومائتين. وكذا قال ابن جرير. وحكي عن بعضهم أنَّه توفِّي في سنة إحدى وثلاثين، وقيل: سنة ثنتين وثلاثين. فالله أعلم.

وكانت وفاته بالموصل، وبُنيتْ على قبره قُبَّةٌ. وحكى الصوليُّ، عن الوزير محمد بن عبدالملك الزيَّات أنه قال يرثيه:

نبأٌ أتى من أعظم الأنباء ... لما ألمَّ مُقَلْقِلُ الأحشاءِ
قالوا حبيبٌ قد ثوى فأجبتُهم ... ناشدتُكُم لا تجعلوه الطائي

وقال غيره:

فُجِع القريضُ بخاتم الشعراء ... وغديرُ روضتها حبيبُ الطائي
ماتا معًا فتجاورا في حفرةٍ ... وكذاك كانا قبلُ في الأحياء

وقد جمع الصُّوليُّ شعرَ أبي تمام على حروفِ المعجم. قال القاضي ابن خلِّكان: وقد امتدح أحمد ابن المعتصم - ويقال: ابن المأمون - بقصيدته التي يقول فيها:

إقدامُ عمرو في سماحة حاتمٍ ... في حلم أحنفَ في ذكاء إياسِ

فقال له بعضُ الحاضرين: أتقولُ هذا لأمير المؤمنين، وهو أكبرُ قدرًا من هؤلاء. فأطرقَ ساعةً، ثم قال:

لا تنكروا ضربي له من دونه ... مثلاً شرودًا في النَّدى والباسِ
فالله قد ضرب الأقلَّ لنوره ... مثلاً من المشكاة والنِّبراسِ

فلمَّا أخذوا منه القصيدة لم يجدوا فيها هذين البيتين، وإنَّما قالهما ارتجالاً.

فقال بعضهم: لا يعيشُ هذا بعد هذا إلا قليلاً. فكان كذلك. قال القاضي: وقد زعم بعضهم أنَّ هذه القصيدة امتدح بها بعض الخلفاء، فأقطعه الموصل، فأقام بها أربعين يومًا. وليس هذا بصحيح، ولا أصل له، وإنْ كان قد لهج به بعض الناس كالزمخشريِّ وغيره. وقد أورد له الحافظ ابن عساكر أشياء مستظرفةً من شعره الرائق ونظمه الفائق؛ فمن ذلك قوله:

ولو كانت الأرزاقُ تجري على الحجَا ... هلكنَ إذًا من جهلهنَّ البهائمُ
ولم يجتمعْ شرقٌ وغربٌ لقاصدٍ ... ولا المجدُ في كفِّ امرئٍ والدَّراهمُ

ومنه قوله:

وما أنا بالغيران من دون عرسه ... إذا أنا لم أصبحْ غيورًا على العلمِ
طبيب فؤادي مذ ثلاثين حجَّةً ... ومذهبُ همِّي والمفرِّجُ لِلغَمِّ

وممن توفي فيها من الأعيان:

أبو نصر التمَّارُ. والعيشيُّ. وأبو الجهْم. ومسدَّدٌ. وداود بن عمرو الضَّبِّيُّ. ويحيىٰ بن عبدالحميد الحمَّانيُّ.

ثم دخلت سنة تسع وعشرين ومائتين

في هذه السنة أمر الواثقُ بالله بضرب الدوّاوين، واستخلاص الأموال منهم؛ فمنهم من ضرب ألف سوطٍ، ومنهم من أخذ منه ألفُ ألفِ دينارٍ ودون ذلك، وجاهر الوزيرُ محمد بن عبدالملك لسائر ولاةِ الشُّرَطِ بالعداوة، فكشفوا وحبسوا، ولقوا جهدًا عظيمًا، وجلس إسحاقُ بن إبراهيم للنَّظر في أمرهم، وأقيموا للناس، وافتضحوا فضيحةً بليغةً، وكان سبب ذلك أنَّ الواثقَ جلس ليلةً في دار الخلافة فسُمِرَ عنده، فقال: هل منكم أحدٌ يعرفُ سبب عقوبة جدِّي الرشيد للبرامكة؟ فقال بعض الحاضرين: نعم يا أمير المؤمنين، كان سبب ذلك أنَّ الرشيد عرضتْ عليه جاريةٌ، فأعجبه جمالها، فساوم سيِّدَها فيها، فقال: يا أمير المؤمنين، إنِّي أقسمت بكلِّ يمينٍ أن لا أبيعها بأقلَّ من مائة ألف دينار. فاشتراها منه بها، وبعث إلىٰ يحيىٰ بن خالدٍ الوزير؛ ليبعث بها إليه من بيت المال، فاعتلَّ بأنَّها ليستْ عنده، فأرسل الرشيدُ يؤنِّبه، ويقول: أليس في بيت مالي مائةُ ألف دينار؟! وألحَّ في طلبها، فقال يحيىٰ بن خالد: أرسلوها إليه دراهم ليستكثر ذلك، ولعلَّه يردُّ الجارية. فبعثوا بمائة ألف دينارٍ دراهم، ووضعوها في طريق الرشيد وهو خارجٌ إلىٰ الصلاة، فلمّا اجتاز بها رأىٰ كومًا من دراهم، فقال: ما هذا؟ قالوا: ثمنُ الجارية. فاستكثر ذلك، وأمر بخزنها عند بعض خدمه في دار الخلافة، وأعجبه جمع المال في حواصله، ثم شرع في تتبُّع أموال بيت المال، فإذا البرامكةُ قد استهلكوها، فجعل يهُمُّ بأخذهم تارةً ويحجمُ أخرىٰ، حتىٰ كان في بعض الليالي سمر عنده رجلٌ يقال له: أبو العود. فأطلق له ثلاثين ألف درهمٍ، فذهب إلىٰ الوزير يحيىٰ بن خالد بن برمكَ، فماطله بها مدَّةً طويلةً، فلمّا كان في بعض الليالي في السَّمَرِ عرّض أبو العُودِ في ذلك للرشيدِ بقولِ عمرَ بنِ أبي ربيعةَ:

وعـدت هندٌ ومـا كـادت تعدْ ليت هنداً أنجزتنا ما تعدْ
واستبدَّت مرةً واحدةً إنَّما العاجزُ من لا يستبدْ

فجعل الرشيدُ يكرِّرُ قوله :

إنَّما العاجزُ من لا يستَبِدْ

ويعجبه ذلك، فلمَّا كان الصباح دخل عليه يحيىٰ بن خالدٍ، فأنشده الرشيدُ هذين البيتين، وهو يستحسنهما ففهم ذلك يحيىٰ بن خالدٍ، وخاف وسأل عن من أنشد ذلك للرشيد؟ فقيل له: أبو العود. فبعث إليه فأنجز له الثلاثين ألفًا، وأعطاه من عنده عشرين ألفًا، وكذلك ولداه الفضلُ، وجعفرٌ، فما كان عن قريبٍ حتىٰ أخذ الرشيد البرامكة، وكان من أمره وأمرهم ما كان.

فلمَّا سمع ذلك كلَّه الواثقُ أعجبه ذلك، وجعل يكرِّرُ قول الشاعر:

إنَّما العاجزُ من لا يستبد

ثم بطش بالكتَّاب علىٰ إثْرِ ذلك، وأخذ منهم أموالاً عظيمةً جداً.

وحجَّ بالناس في هذه السنةِ محمد بن داود، وهو أمير الحجيج في السنين الماضية.

وممن توفي فيها من الأعيان:

خلف بن هشام البزَّار، أحد مشاهير القرَّاء. وعبدالله بن محمد المسنديُّ. ونعيم بن حمَّاد الخزاعيُّ، أحد أئمة السُّنَّة بعد أن كان من أكابر الجهميَّة، وله المصنَّفات المشهورة في الفتن وغيرها. ودينار بن عبدالله، المنسوب إليه النسخة المكذوبة عنه أو منه، وهي عالية الإسناد إليه، ولكنَّها موضوعةٌ.

ثم دخلت سنة ثلاثين ومائتين

في جمادىٰ منه خرجتْ بنو سليمٍ حول المدينة النَّبويَّة، فعاثوا في الأرض فساداً، وأخافوا السُّبُل، وقاتلهم أهل المدينة، فهزموا أهلها، واستحوذوا علىٰ ما بين المدينة ومكة وتلك المناهل والقرىٰ، فبعث إليهم الواثق بغا الكبير أبا موسىٰ التُّركيَّ في جيش، فقاتلهم في شعبان، فقتل منهم خمسين فارسًا، وأسر مثلهم، وانهزم بقيَّتهم، فدعاهم إلىٰ الأمان، وأن يكونوا علىٰ حكم أمير المؤمنين، فاجتمع إليه منهم خلْقٌ كثيرٌ، فدخل بهم المدينة، وسجن رءوسهم في دار يزيد بن معاوية، وخرج إلىٰ الحجِّ في هذه السنة، وشهد معه الموسم إسحاق بن إبراهيم بن مصعبٍ، نائبُ العراق.

وحجَّ بالناس فيها محمد بن داود المتقدِّمُ.

وفي هذه السنة توفِّي:

عبدالله بن طاهر بن الحسين، نائب خراسان، وما والاها من البلدان، وكان خراج ما تحت يده ثمانية وأربعين ألف ألف درهم، فولَّىٰ الخليفة ابنه طاهرًا، وكانت وفاةُ عبدالله بن طاهر الأمير بعد

موت أشناس التركيِّ بتسعة أيام، وذلك يوم الإثنين لإحدىٰ عشرة ليلةً خلتْ من شهر ربيع الأوَّل من هذه السنة.

وقد حكىٰ القاضي ابن خلِّكان أنَّه توفِّي سنة ثمانٍ وعشرين بمروَ، وقيل: بنيسابور. وكان كريمًا جوادًا ممدَّحًا، وله شعرٌ حسنٌ أورد له منه. قال: وقد ولي نيابة مصر بعد العشرين ومائتين.

وذكر الوزيرُ أبو القاسم بن المغربيِّ أن البطيخ العبد اللاَّويَّ الذي بمصرَ منسوبٌ إلىٰ عبدالله بن طاهر هذا. قال القاضي ابن خلِّكان: إمَّا أنَّه كان يستطيبُه، أو لأنَّه أوَّلُ من زرعه هناك. والله أعلم.

ومن جيِّد شعره:

اغتفرْ زلَّتي لتحرز فضل الشُّـ ... ـشكْر منِّي ولا يفوتُكَ أجري
لا تكلني إلى التوسُّل بالعُذْ ... رِ لعلِّي أنْ لا أقوم بعذري

ومن شعره أيضًا قوله:

نحنُ قومٌ تلينُنا الحدقُ النُّجْـ ... ـلُ على أنَّنا نلينُ الحديدا
طوعَ أيدي الظِّباء تقتادُنا العيـ ... ـنُ ونقتادُ بالطِّعان الأسودا
نملكُ الصِّيدَ ثم تملكُنا البيـ ... ـضُ المصوناتُ أعينًا وخدودا
تتَّقي سُخْطَنا الأسودُ ونخشىٰ ... سخط الخشف حين يُبدي الصُّدُودا
فترانا يوم الكريهة أحرا ... رًا وفي السِّلْم للغواني عبيدًا

قال القاضي ابن خلِّكان: وكان خزاعيًّا من موالي طلحة الطلحات الخزاعيِّ.

وقد كان أبو تمام يمدحه، فدخل إليه مرَّةً فاعتاقه الثلجُ بهمذان، فصنَّف كتاب الحماسة عند بعض رؤسائها.

ورُوىٰ له الحافظ ابن عساكر، ولمَّا ولاه المأمونُ نيابة بلاد الشام وديار مصر صار إليها، وقد رسم له بما في ديار مصر من الحواصل، فحمل إليه وهو في أثناء الطريق ثلاثةُ آلاف ألف دينارٍ، ففرَّقها كلَّها في مجلس واحدٍ وأنَّه لمَّا واجه مصر نظر إليها فاحتقرها، وقال: قبَّح الله فرعون، ما كان أخسَّه وأضعف همَّته حين ملك هذه القرية، وقال: أنا ربُّكم الأعلىٰ.

وممن توفي فيها:

عليُّ بن الجعد الجوهريُّ. ومحمد بن سعدٍ، كاتبُ الواقديِّ، وله كتاب «الطبقات» وغيره من المصنفات. وسعيد بن محمد الجَرْميُّ، رضي الله عنهم أجمعين.

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين ومائتين

فيها: وقعتْ مفاداةٌ بجماعةٍ من المسلمين الذين كانوا بأيدي الروم علىٰ يدي الأمير خاقان الخادم، وذلك في المحرَّم من هذه السنة، وكان عدَّةُ الأسارىٰ الذين استنقذوا من أيدي الكفَّار أربعة آلافٍ

وثلاثمائة واثنين وستِّين أسيرًا. ولله الحمد والمنَّةُ.

وفيها كان مقتل أحمد بن نصر الخزاعيِّ، رحمه الله وأكرم مثواه، وكان سبب ذلك أنَّ هذا الرجل - وهو أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعيُّ - وجدُّه مالك بن الهيثم من أكبر الدعاة في الناس إلى دولة بني العباس، وكانت له وجاهةٌ ورياسةٌ، وكان أبوه نصر بن مالك يغشاه أهل الحديث، وقد بايعه العامَّةُ في سنة إحدىٰ ومائتين على القيام بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر حين كثرت الدُّعَّارُ والشُّطَّارُ في أرجاء بغداد في زمان غيبة المأمون عن بغداد، كما قدمنا بسط ذلك، وبه تعرفُ سويقةُ نصر ببغداد.

وكان أحمد بن نصر هذا من أهل العلم والدِّيانة والعمل الصالح والاجتهاد في الخير، ومن أئمة المسلمين وأهل السُّنَّة الآمرين بالمعروف والنَّاهين عن المنكر، وكان ممّن يدعو إلى القول بأنّ القرآن كلام الله منزَّلٌ غير مخلوقٍ، وكان هارونُ الواثقُ من أشدِّ الناس في القول بخلْق القرآن، يدعو إليه ليلاً ونهارًا، سرًّا وجهارًا؛ اعتمادًا على ما كان أبوه المعتصمُ وعمُّه المأمونُ عليه في ذلك من غير دليل ولا برهانٍ، ولا حُجَّةٍ ولا بيانٍ، ولا سُنَّةٍ ولا قرآنٍ، فقام أحمد بن نصر هذا يدعو إلى الله، وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقول بأنَّ القرآنَ كلام الله منزَّلٌ غيرُ مخلوقٍ، في أشياء كثيرةٍ دعا الناس إليها، فاجتمع عليه جماعةٌ من أهل بغداد، والتفَّ عليه من الألوف أعدادٌ، وانتصب للدعوة إلى أحمد بن نصر هذا رجلان؛ وهما أبو هارون السَّرَّاج يدعو أهل الجانب الشرقيِّ، وطالبٌ يدعو أهل الجانب الغربيِّ.

ولمّا كان شهرُ شعبان من هذه السنة انتظمت البيعةُ لأحمد بن نصر الخزَاعيِّ في السرِّ على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والخروج على السلطان لبدعته ودعوته إلى القول بخلق القرآن. فتواعدوا على أنّه في الليلة الثالثة من شهر شعبان - وهي ليلة الجمعة - يضرب طبلٌ في الليل، فيجتمعُ الناسُ الذين بايعوا في مكان اتفقوا عليه، وأنفق طالبٌ وأبو هارون في أصحابه دينارًا دينارًا، فكان في جملة من أعطوه رجلان من بني أشرسَ، وكانا يتعاطيان الشَّرابَ، فلمّا كانت ليلةُ الخميس شربا في قوم من أصحابهم، واعتقدا أنّ تلك الليلة هي ليلةُ الوعْد، وكان ذلك قبله بليلةٍ، فقاما يضربان على طبلٍ في الليل؛ ليجتمع إليهما الناسُ، فلم يجئْ أحدٌ، وانخرم النِّظامُ، وسمع الحرسُ في الليل، فأعلموا نائبَ السَّلْطنة - وهو محمد بن إبراهيم بن مصعبٍ نائبُ أخيه إسحاق بن إبراهيم؛ لغيبته عن بغداد - فأصبح الناسُ متخبطين، واجتهد نائبُ السلطنة على إحضار ذينك الرجلين فأحضرا فعاقبهما، فأقرَّا على أحمد بن نصر في الحال فطلبه، وأخذ خادمًا له فاستقرَّه، فأقرَّ بما أقرَّ به الرجلان، فجمع جماعةً من رءوس أصحاب أحمد بن نصر معه، وأرسل بهم إلى الخليفة بسُرَّ من رأى، وذلك آخر يوم من شعبان من هذه السنة، فأحضر له جماعةً من الأعيان، وحضر القاضي أحمد بن أبي دُوادٍ المعتزليُّ، ولم يظهرْ منه على أحمد بن نصر عتْبٌ، فلمّا أوقف أحمد بن نصر بين

يدي الخليفة الواثق لم يعاتبه على شيءٍ مّا كان منه في أمر مبايعة العامة له على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأعرض عن ذلك كلِّه، وقال له: ما تقول في القرآن؟ فقال: هو كلام الله. قال: أمخلوقٌ؟ قال: هو كلام الله. وكان أحمد بن نصر قد استقتل وحضر وقد تحنَّط وتنوَّر، فقال له الواثقُ: فما تقولُ في ربِّكَ، أتراه يوم القيامة؟ فقال: يا أميرَ المؤمنين، قد جاء القرآنُ والأخبارُ بذلك، قال الله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. وقال رسول الله ﷺ: «إنكم ترون ربَّكم يوم القيامة كما ترون هذا القمر لا تضامُّون في رؤيته»[1] فنحن على الخبر. زاد الخطيبُ في إيراده: فقال الواثقُ: ويحك، أيرى كما يرى المحدودُ المتجسِّمُ؟ ويحويه مكانٌ ويحصره الناظر؟ أنا أكفُرُ بربٍّ هذه صفتُه.

قلت: وهذا الذي قاله الخليفة الواثقُ لا يردُ، ولا يلزمُ، ولا يردُّ به مثل هذا الخبر الصحيح. والله أعلم.

ثم قال أحمد بن نصر الخزاعيُّ للواثق: وحدَّثني سفيان بحديثٍ يرفعه: «إنَّ قلبَ ابن آدم بين أُصبعين من أصابع الله يقلبه»[2] وكان النبيُّ ﷺ يقول: «يا مقلب القلوب ثبتْ قلبي على دينك»[3] فقال له إسحاق بن إبراهيم: ويلك، انظرْ ما تقول. فقال: أنت أمرتني بذلك. فأشفق إسحاق من ذلك، وقال: أنا أمرتك بذلك؟ قال: نعم، أنت أمرتني أن أنصح له. فقال الواثقُ لمن حوله: ما تقولون في هذا؟ فأكثروا القول فيه؛ فقال عبدالرحمن بن إسحاق ـ وكان قاضيًا على الجانب الغربيِّ فعزل، وكان موادًّا لأحمد بن نصر قبل ذلك: يا أمير المؤمنين، هو حلال الدم. وقال أبو عبدالله الأرمنيُّ صاحب أحمد بن أبي دوادٍ: اسقني دمه يا أمير المؤمنين. فقال الواثقُ: يأتي على ما تريد. وقال القاضي أحمد بن أبي دوادٍ: يا أمير المؤمنين، هو كافرٌ يستتابُ، لعلَّ به عاهةً، أو نقص عقلٍ. فقال الواثقُ: إذا رأيتموني قمتُ إليه فلا يقومنَّ أحدٌ معي، فإنِّي أحتسبُ خُطايَ. ثم نهض إليه بالصمصامة ـ وقد كانتْ سيفًا لعمرو بن معديكرب الزُّبَيْديِّ أهديتْ لموسى الهادي في أيام خلافته، وكانت صفيحةً موصولةً في أسفلها، مسمورةً بثلاثة مسامير ـ فلمَّا انتهى إليه ضربه بها على عاتقه

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٤) ومسلم (٦٣٣) ولكن من حديث جرير وليس فيه القصة.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ٨٢) وابن أبي عاصم في «السنة» (٢١٩) بإسناد حسن من حديث أبي إدريس الخولاني عن النواس بن سمعان بإسناد صحيح وأخرجه ابن أبي عاصم من حديث سبرة الفاكه.
وأخرجه ابن أبي عاصم (٢٢١) من حديث أبي إدريس عن نعيم بن همار قال سمعت رسول الله ﷺ ومحتمل أن يكون لأبي إدريس في الحديث شيخين والفاظهم متقاربة.

(٣) حديث صحيح: أخرجه عبد بن حميد (١٥٣٢) والطيالسي (١٧١٣) من حديث أم سلمة وفي إسناده شهر بن حوشب متكلم فيه.
وقد تقدم قبله إثبات هذا الدعاء ضمن حديث النواس بن سمعان وأخرجه أحمد (٦/ ٢٥٠ ـ ٢٥١) من حديث عائشة وثم شواهد له أخرى.

وهو مربوطٌ بحبل قد أوقف على نطع، ثم ضربه أخرى على رأسه، ثم طعنه بالصمصامة في بطنه فسقط، رحمه الله، صريعًا على النِّطع ميِّتًا، فإنا لله وإنَّا إليه راجعون.

ثم انتضى سيما الدِّمشقيُّ سيفه فضرب عنقه، وحزّ رأسه، وحمل معترضًا حتى أتي به الحظيرةَ التي فيها بابكُ الخرَّميُّ، فصلب فيها، وفي رجليه زوجُ قيودٍ، وعليه سراويل وقميصٌ، وحمل رأسه إلى بغداد، فنصب في الجانب الشرقيِّ أيامًا، وفي الجانب الغربيِّ أيامًا، وعنده الحرسُ في الليل والنهار، وفي أذنه رقْعةٌ مكتوبٌ فيها: هذا رأس الكافر المشرك الضالِّ أحمد بن نصر، ممَّن قتل على يدي عبدالله هارون الإمام الواثق بالله أمير المؤمنين بعد أن أقام عليه الحجَّة في خلْق القرآن، ونفْي التشبيه، وعرض عليه التوبة، ومكَّنه من الرجوع إلى الحقِّ فأبى إلا المعاندة والتصريح، فالحمدُ لله الذي عجَّله إلى ناره وأليم عقابه بالكفر، فاستحلَّ بذلك أمير المؤمنين دمه ولعنه.

ثم أمر الخليفة الواثقُ بتتبُّع رءوس أصحابه، فأخذ منهم نحوًا من سبعةٍ وعشرين رجلاً، فأودعوا في السجون وسمُّوا الظلمة، ومنعوا أن يزورهم أحدٌ وقيِّدوا بالحديد، ولم يجرَ عليهم شيءٌ من الأرزاق التي كانتْ تجرى على المحبوسين، وهذا ظلمٌ عظيمٌ. هذا ملخصُ ما قاله ابن جرير، رحمه الله.

وقد كان أحمد بن نصر هذا، رحمه الله، من أكابر العلماء العاملين، وممَّن كان قائمًا بالأمر بالمعروف والنهْي عن المنكر، وسمع الحديث من حماد بن زيد، وسفيان بن عيينة، وهشيم بن بشير، وكانتْ عنده مصنَّفاته كلُّها، وسمع من الإمام مالك بن أنس أحاديث جيدةً، ولم يحدِّثْ بكثير من حديثه.

وحدث عنه أحمد بن إبراهيم الدورقيُّ، وأخوه يعقوب بن إبراهيم، ويحيى بن معين، وذكره يومًا فترحَّم عليه، وقال: قد ختم الله له بالشهادة، وقد كان لا يحدِّث؛ يقول: لستُ أهل ذاك. وأحسن يحيى بن معين الثناء عليه.

وذكره الإمامُ أحمد بن حنبل يومًا فقال: رحمه الله، ما كان أسخاه لقد جاد بنفسه لله عزَّ وجلَّ.

وقال جعفر بن محمد الصائغ: بصر عيناي وإلا فعميتا، وسمع أذناي وإلا فصُمَّتا أحمد بن نصرٍ الخزاعيَّ حيث ضربتْ عنُقُه، يقول رأسه: لا إله إلا الله.

وقد سمعه بعض الناس، ورأسه مصلوبٌ يقرأ على الجذع: ﴿ **الٓمٓ (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ** ﴾ [العنكبوت: ١، ٢].

قال: فاقشعرَّ جلدي. ورآه بعضهم في النوم فقال له: ما فعل بك ربُّكَ؟ فقال: ما كانتْ إلا غفْوَةَ حتى لقيت الله، عزَّ وجلَّ، فضحك إليَّ.

ورأى بعض الناس في المنام رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر، وقد مرُّوا على الجذع الذي عليه

رأسُ أحمد بن نصر، فلمّا حاذوه أعرض رسول الله ﷺ بوجهه الكريم عنه، فقيل له: يا رسول الله، ما لك أعرضت عن أحمد بن نصر؟ فقال: استحياءً منه حين قتله رجلٌ من أهل بيتي».

ولم يزل رأس أحمد بن نصر منصوبًا ببغداد من يوم الخميس الثامن والعشرين من شعبان من هذه السنة - أعني سنة إحدى وثلاثين ومائتين - إلى بعد عيد الفطر بيوم أو يومين من سنة سبع وثلاثين ومائتين، فجمع بين رأسه وجثّته، ودفن بالجانب الشرقيّ من بغداد بالمقبرة المعروفة بالمالكيَّة، رحمه الله، وذلك **بأمر** المتوكل على الله الذي ولي الخلافة بعد أخيه الواثق بالله، وقد دخل عبدالعزيز بن يحيى الكنانيُّ - صاحب كتاب «الحيدة» - على أمير المؤمنين المتوكل على الله، وكان من خيار الخلفاء؛ لأنّه أحسن الصنيع لأهل السنَّة، بخلاف أخيه الواثق، وأبيه المعتصم، وعمِّه المأمون، فإنّهم أساءوا إلى أهل السنَّة، وقرَّبوا أهل البدع والضلال من المعتزلة وغيرهم، فأمره أن ينزل جثّة أحمد بن نصر، ويدفنه ففعل، وقد كان المتوكل يكرم الإمامَ أحمد بن حنبل إكرامًا زائدًا جدًا، كما سيأتي بيانه في موضعه.

والمقصود أنّ عبدالعزيز الكنانيَّ قال للمتوكّل: يا أمير المؤمنين، ما رئي أعجبُ من أمر الواثق؛ قتل أحمد بن نصر وكان لسانه يقرأ القرآن إلى أن دفن. فوجد المتوكلُ من ذلك، وساءه ما سمع في أخيه الواثق، فلمّا دخل عليه الوزير محمد بن عبدالملك بن الزَّيَّات، قال له المتوكلُ: في قلبي من قتل أحمد بن نصر. فقال: يا أمير المؤمنين، أحرقني الله بالنار إنْ قتله أميرُ المؤمنين الواثقُ إلا كافرًا. ودخل عليه هرثمةُ فقال له في ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين، قطّعني الله إرْبًا إرْبًا إنْ قتله الواثقُ إلا كافرًا. ودخل عليه القاضي أحمد بن أبي دوادٍ، فقال له مثل ذلك، فقال: ضربني الله بالفالج إنْ قتله الواثقُ إلا كافرًا. قال المتوكلُ: فأمّا ابن الزَّيات فأنا أحرقتُه بالنار، وأمّا هرثمةُ فإنّه هرب وتبدَّى، فاجتاز خزاعة فعرفه رجلٌ من الحيِّ، فقال: يا معشرَ خزاعة، هذا الذي قتل ابن عمكم أحمد بن نصر فقطِّعوه فقطَّعوه إرْبًا إرْبًا. وأمّا ابن أبي دوادٍ فقد سجنه الله في جلده - يعني بالفالج - ضربه الله به قبل موته بأربع سنين، وصودر من صلْب ماله بمالٍ جزيل جدًا، كما سيأتي بيانُ ذلك في موضعه.

وروى أبو داود في كتاب «المسائل»، عن أحمد بن إبراهيم الدَّوْرَقيِّ، عن أحمد بن نصر قال: سألتُ سفيان بن عيينة: «القلوب بين أصبعين من أصابع الله، وإنّ الله يضحك ممّن يذكره في الأسواق». فقال: ارووُها كما جاءتْ بلا كيف.

وفي هذه السنة كان الواثقُ قد عزم على الحجِّ، واستعدَّ لذلك، فذكر له أنّ الماء بالطريق قليلٌ، فترك الحجَّ عامئذٍ.

وفيها: تولَّى جعفرُ بن دينارٍ نيابة اليمن، فسار إليها في أربعة آلاف فارس.

وفيها: عدا قومٌ من العامَّة على بيت المال، فأخذوا منه شيئًا من الذَّهب والفضَّة، فأخذوا وسجنوا.

وفيها: ظهر خارجيٌّ ببلاد ربيعة، فقاتله نائبُ الموصل فكسَره، وانهزَم بقيَّةُ أصحابه.

وفيها : قدم وصيفٌ الخادمُ بجماعةٍ من الأكراد نحو من خمسمائة في القيود، كانوا قد أفسدوا في الطرقات وقطعوها، فأطلق الخليفةُ لوصيفٍ الخادم خمسةً وسبعين ألف دينار، وخلع عليه خلعةً سنيَّةً.

وفي هذه السنة قدم خاقانُ الخادمُ من بلاد الروم، وقد تمَّ الصلحُ والمفاداةُ بينه وبين الروم، وقدم معه جماعةٌ من رءوس أهل الثُّغور، فأمر الواثقُ بامتحانهم في القول بخلْق القرآن، وأنَّ الله لا يُرَىٰ في الآخرة، فأجابوا إلا أربعةً، فأمر الواثقُ بضرْب أعناقهم إن لم يجيبوا بمثل ما أجاب به بقيَّتُهم. وأمر الواثقُ أيضًا بامتحان الأسارىٰ المسلمين الذين فُودي عنهم بذلك، فمن أجاب إلىٰ القول بخلْقِ القرآن وأن الله لا يرىٰ في الآخرة فُودِي، وإلا ترك في أيدي الكفّار، وهذه بدعةٌ صلعاءُ شنعاءُ عمياءُ صمّاءُ، لا مستند لها من كتاب ولا سنَّةٍ ولا عقلٍ صحيح، بل الكتابُ والسنةُ والعقلُ الصحيحُ بخلافها، كما هو مقرَّرٌ في موضعه، وبالله المستعانُ.

وكان وقوعُ المفاداةِ عند نهرٍ يقالُ له: اللامسُ. عند سلُوقيَة بالقربِ من طرسوسَ، بدلُ كلِّ مسلم أو مسلمةٍ في أيدي الروم، أو ذمِّيٍّ أو ذمِّيَّةٍ كان تحتَ عقْدِ المسلمين أسيرٌ من الروم كان بأيدي المسلمين ممَّن لم يسلمْ، فنصبوا جسرين على النهر، فإذا أرسل الرومُ رجلاً أو امرأةً في جسْرهم فانتهىٰ إلىٰ المسلمين كبَّر وكبَّر المسلمون. ويرسلُ المسلمون أسيرًا من الروم علىٰ جسْرهم، فإذا انتهىٰ إليهم تكلَّم بكلامٍ يشبهُ التكبير أيضًا، ولم يزالوا كذلك مدَّةَ أربعة أيامٍ، بدلُ كلِّ نفسٍ نفسٌ، ثم بقي مع خاقان جماعةٌ من الروم الأسارىٰ، فأطلقهم للروم؛ ليكون له الفضلُ عليهم.

قال ابن جرير: في هذه السنة مات الحسن بن الحسين، أخو طاهر بن الحسين بطبرستان في شهر رمضان. وفيها مات الخطَّابُ بن وجه الفُلْس. وفيها مات أبو عبدالله بن الأعرابيِّ الرواية يوم الأربعاء لثلاث عشْرة خلتْ من شعبان، وهو ابن ثمانين سنةً. وفيها ماتتْ أمُّ أبيها بنتُ موسىٰ، أختُ عليِّ بن موسىٰ الرِّضا. وفيها مات مخارقٌ المغَنِّي، وأبو نصر أحمد بن حاتمٍ راويةُ الأصمعيِّ، وعمرو بن أبي عمرو الشيبانيُّ، ومحمد بن سعدان النحويُّ.

قلت: وممن توفي فيها من الأعيان أيضًا:

أحمد بن نصر الخزاعيُّ، كما ذكرنا. وإبراهيم بن محمد بن عرعرة. وأميَّةُ بن بسطام. وأبو تمام الطائيُّ الشاعر في قولٍ، والمشهور ما تقدَّم. وكامل بن طلحة. ومحمد بن سلام الجمحيُّ. وأخوه عبدالرحمن. ومحمد بن منهالٍ الضريرُ. ومحمد بن منهالٍ، أخو حجَّاج. وهارون بن معروفٍ. والبويطيُّ، صاحب الشافعيِّ، مات في السِّجْنِ مقيَّدًا حتىٰ يقول بخلقِ القرآنِ، فامتنع من ذلك، رحمه الله. ويحيىٰ بن عبدالله بن بُكَيْرٍ، راوي الموطأ عن مالك.

ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين ومائتين

فيها: عاثتْ قبيلةٌ - يقال لها: بنو نُمَيْرٍ باليمامةِ في الأرض فسادًا، فكتب الواثقُ إلىٰ بغا الكبير وهو مقيمٌ بأرض الحجاز، فحاربهم فقتل منهم جماعةً، وأسر منهم آخرين، وهزم بقيَّتهم، ثم التقىٰ مع بني تميم وهو في ألفَيْ فارسٍ وهم في ثلاثة آلافٍ، فكانت، بينهم حروبٌ طويلةٌ، ثم كان الظَّفَرُ له عليهم آخرًا، وذلك في النِّصف من جمادىٰ الآخرة، ثم عاد بعد ذلك كلِّه إلىٰ بغداد ومعه من أعيان رءوس العرب في الأسر والقيود، وقد قتل من أشرافهم في الوقائع المتقدِّم ذكرها ما ينيفُ علىٰ ألفيْ رجلٍ من بني سلَيْم ونميرٍ، وكلاب، ومرَّة، وفزارة، وثعْلبةَ، وطيِّئ، وتميمٍ، وغيرهم.

وفي هذه السنة أصاب الحجيج في الرجوع عطشٌ شديدٌ حتىٰ بيعت الشَّرْبةُ بالدنانير الكثيرة، ومات خلقٌ كثيرٌ من العطش، رحمهم الله.

وفيها: أمر الواثقُ بترْكِ جبايةِ أعشار سُفُنِ البحر.

وفاةُ الخليفة أبي جعفر هارون الواثق بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهديِّ ابن أبي جعفر المنصور عبدالله ذي الدَّوانيق بن محمد الإمام بن عليٍّ السَّجَّاد بن عبدالله بن عبَّاس بن عبدالمطلب الهاشميِّ العباسيِّ، كان هلاكه في ذي الحجَّة من هذه السنة بعلَّة الاستسقاء، فلم يقدرْ علىٰ حضور العيد عامئذٍ، فاستناب في الصلاة بالناس قاضيه أحمد ابن أبي دوادٍ الإياديَّ المعتزليَّ. وكانت وفاتُه لستٍّ بقين من ذي الحجَّة، وذلك أنَّه قوي به الاستسقاءُ فأُقْعد في تنّور قد أُحمِيَ له بحيثُ يمكنُ إجلاسُه فيه؛ ليسكُنَ وجعُه، فلان عليه أمره بعض الشيءِ فلمّا كان من الغد أمر بأن يحمَىٰ أكثرَ من العادة فأُجلس فيه، ثم أُخرج فوضع في محفَّةٍ، فحمل فيها وحوله أُمراؤُه ووزراؤه وقاضيه، فمات وهو محمولٌ فيها، فما شعروا حتىٰ سقط جبينُه علىٰ المِحَفَّةِ وهو ميْتٌ، فغمَّض القاضي عينَيهِ بعدَ ذلك، وهو الذي وَلي غسله والصلاة عليه، ودفنه في قصر الهادي. وكان أبيض اللون مشْربًا حمرةً، جميلاً ربْعَةً حسَنَ الجسمِ، قائمَ العين اليُسرىٰ، فيها نكتةٌ بيضاءُ، وكان مولده سنة ستٍّ وتسعين ومائةٍ بطريقِ مكة، فمات وهو ابن ستٍّ وثلاثين سنةً، وكانت مدَّةُ خلافته خمس سنين وتسعة أشهرٍ وخمسة أيّامٍ، وقيل: سبعة أيامٍ وثنتَي عشْرَةَ ساعةً. وكان قد جمع أصحاب النُّجوم في زمانه حين اشتدَّت علَّته؛ لينظروا في مولده وما تقتضيه صناعةُ النُّجوم كمْ تدومُ أيامُ دولته، فاجتمع عنده من رءوسهم جماعةٌ؛ منهم الحسن بن سهلٍ، والفضلُ بن إسحاق الهاشميُّ، وإسماعيلِ بن نوبخْتَ، ومحمد بن موسىٰ الخوارزميُّ المجوسيُّ القُطْرُبُّليُّ، وسندٌ صاحب محمد بن الهيثم، وعامةُ من يتكلّمُ في النجوم، فنظروا في مولده، وما يقتضيه الحالُ عندهم، ثم أجمعوا أنَّه يعيشُ دهرًا طويلاً، وقدَّروا له خمسين سنةً مستقبَلةً فلم يلبثْ بعد قولهم إلا عشرةَ أيامٍ حتىٰ مات. ذكره الإمامُ أبو جعفر بن جريرٍ الطبريُّ، رحمه الله.

قال ابن جرير: وذكر الحسين بن الضَّحَّاك أنَّه شهد الواثق بعد أن مات المعتصمُ بأيَّام، وقد قعد مجلسًا كان أول مجلس قعده، فكان أوّل ما غُنِّي به في ذلك المجلس أن تغنَّتْ شاريَةُ، جاريةُ إبراهيم ابن المهديِّ:

ما درى الحاملون يوم استقلّوا ... نعشَه للثَّواء أمْ للقاء
فليقلْ فيكَ باكياتُكَ ما شئـ ... ـن صباحًا وعندَ كلِّ مساءَ

قال: فبكَىٰ وبكَيْنا حتىٰ شغلنا البكاءُ عن جميع ما كُنّا فيه، ثم اندفع بعضهم يغنِّي:

ودِّعْ هريرةَ إنَّ الركبَ مرتحِلُ ... وهلْ تطيقُ وداعًا أيُّها الرَّجُلُ؟!

فازداد والله بكاؤه، وقال: ما سمعتُ كاليوم قطُّ تعزيةً بأبٍ ونعْيَ نفسٍ. ثم ارفضَّ ذلك المجلسُ.

وروىٰ الخطيبُ البغداديُّ أنَّ دعبِلَ بن عليٍّ الشاعرَ لمّا تولَّىٰ الواثقُ عمَد إلىٰ طُومارٍ، فكتَب فيه أبيات شعر، ثم جاء إلىٰ الحاجب فدفعه إليه، وقال: أقرِئْ أميرَ المؤمنين السلام، وقُلْ: هذه أبياتٌ امتدَحكَ بها دعْبِلٌ. فلمّا فضَّها الواثقُ إذا فيها:

الحمدُ لله لا صَبْرٌ ولا جَلَدُ ... ولا عزاءٌ إذا أهلُ الهوَىٰ رَقَدوا
خليفةٌ ماتَ لم يحزَنْ له أحَدٌ ... وآخرٌ قامَ لم يفرَحْ به أحَدُ
فمرَّ هذا ومرَّ الشُّؤمُ يتبَعُهُ ... وقامَ هذا فقامَ الوَيلُ والنَّكَدُ

قال: فتطلَّبه الخليفةُ بكُلِّ ما يمكنُه، فلم يقدرْ عليه حتَّىٰ مات الواثقُ.

وروىٰ أيضًا أنَّه لمّا استخلف الواثقُ ابن أبي دوادٍ علىٰ الصلاة في يوم العيد فرجع إليه، قال: كيف كان عيدُكم يا أبا عبدالله؟ فقال: كُنّا في نهارٍ لا شمس فيه. فضحك وقال: يا أبا عبدالله، أنا مؤيَّدٌ بكَ.

قال الخطيبُ: وكان ابنُ أبي دُوادٍ قد استولىٰ علىٰ الواثق، وحمله علىٰ التَّشديد في المحنَة، ودعا الناسَ إلىٰ القول بخلق القرآن. قال: ويُقال: إنَّ الواثقَ رَجَع عن ذلك قبْلَ موته، فأخبَرني عبيدُالله ابنُ أبي الفتح، أخبَرنا أحمدُ بنُ إبراهيمَ بن الحسن، ثنا إبراهيمُ بن محمد بن عرفةَ، حدَّثني حامدُ بنُ العباس، عن رجلٍ، عن المهتدىٰ أنَّ الواثقَ مات، وقد تابَ من القول بخلق القرآن.

وروىٰ أنَّ الواثقَ دخل عليه يومًا مؤدِّبُه فأكرَمَهُ إكرامًا كثيرًا، فقيل له في ذلك، فقال: هذا أول منْ فتق لساني بذكر الله، وأدْناني من رحمة الله.

وكتب إليه بعضُ الشعراء:

جذَبْتُ دواعيَ النفسِ عن طلب الغنى ... وقلتُ لها عفِّي عن الطَّلَب النَّزْر
فإنَّ أميرَ المؤمنينَ بكَفِّه ... مدارُ رَحَى الأرزاقِ دائبةً تجْري

فوقَّع له في رُقْعَتِه: جذبتْكَ نفسُكَ عن امتهانها، ودعتكَ إلى صَوْنِها، فخُذْ ما طلبته هنيئًا. وأجزل له العطاء.

ومن شعره قوله:

هي المقاديرُ تجري في أعنَّتِها ... فاصبرْ فليسَ لها صبرٌ على حال

ومن شعر الواثق قوله:

تنحَّ عن القبيح ولا تُرِدْهُ ... ومن أوليته حُسنًا فزِدْهُ
ستُكفَى من عدوِّكَ كلَّ كيدٍ ... إذا كادَ العدوُّ ولمْ تَكِدْهُ

وقال القاضي يحيى بنُ أكثمَ: ما أحسنَ أحدٌ من خلفاء بني العباس إلى آل أبي طالبٍ ما أحسن إليهم الواثقُ، ما مات وفيهم فقيرٌ. ولمّا احتُضِر الواثقُ جعَل يردِّدُ هذين البيتين:

الموتُ فيه جميعُ الخلق مُشترِكُ ... لا سُوقةٌ منهمُ يَبْقَى ولا مَلكُ
ما ضرَّ أهْلَ قليلٍ في تَفاقُرِهِمْ ... وليسَ يُغْني عن الأمْلاكِ ما مَلَكُوا

ثم أمر بالبُسُط فطويت ثم ألْصَق خدَّه بالأرض، وجعل يقول: يا من لا يزولُ ملكه ارحمْ من قد زال ملكه. وقال بعضهم: لما احتضر الواثقُ ونحن حوله غشي عليه، فقال بعضُنا لبعضٍ: انظروا هَلْ قضَى نحبَه؟ قال: فدَنَوْتُ من بينهم إليه لأنْظرَ هلْ هدأ نفسُه، فأفاق فلحظ إليَّ بعينه فرجعتُ القهقرى؛ خوفًا منه، فتعلَّقت قائمةُ سيْفي في شيءٍ فكدتُ أن أهلكَ، فما كان عن قريبٍ حتى مات، وأُغلِق عليه البابُ الذي هو فيه، وبقي فيه وحده، واشتغلوا عن تجهيزه بالبيْعة لأخيه جعفرٍ المتوكِّل، وجلستُ أنا أحرسُ البابَ فسمعتُ حركةً من داخلِ البيت، فدخَلتُ فإذا جُرَذٌ قد أكل عيْنَه التي لحظ إليَّ بها، وما كان بين الحالين إلا اليسيرُ.

وكانت وفاتُه بسُرَّ منْ رأى التي كان يسكُنُها في القصْرِ الهارونيِّ، في يوم الأربعاء لستٍّ بقين من ذي الحِجَّةِ من هذه السَّنة - أعني سنةَ ثنْتين وثلاثينَ ومائتين - عن ستٍّ وثلاثين سنةً، وقيل: عن ثنْتين وثلاثين سنةً. وكانت مدَّةُ خلافته خمسَ سنين وتسعة أشهرٍ وخمسة أيام، وقيل: خمسَ سنين وشهرين وأحد وعشرين يومًا. وصلَّى عليه أخوه المتوكِّلُ على الله، واللهُ أعلمُ.

خلافة المتوكل على الله

جعفر بن المعتصم بالله

بويع له بالخلافة بعد أخيه هارون الواثق، وكانت بيعتُه وقت زوالِ الشمس من يوم الأربعاءِ لستٍّ بقين من ذي الحِجَّةِ، وكانت الأتراكُ قد عزَموا على توليَةِ محمد بن الواثق فاستصغروه فتركوه، وعدَلوا إلى جعفرٍ هذا، وكان عمْرُه إذْ ذاك ستًّا وعشرين سنةً، وكان الذي ألبسه خِلْعَةَ الخلافةِ أحمدُ

ابن أبي دوادٍ القاضي، وهو أولُ من سلَّم عليه بالخلافة، وبايعه الخاصَّةُ، ثم العامَّةُ، وكانوا قد اتَّفقوا على تسميته بالمنتصر بالله إلى صبيحة يوم الجمعة، فقال أحمدُ بنُ أبي دوادٍ: قد رأيتُ أن يُلقَّبَ أميرُ المؤمنين بالمتوكِّل على الله. فاتَّفقوا على ذلك، وكتب به إلى الآفاق، وأمر بإعطاء الشاكريَّة من الجُند ثمانيَةَ شهورٍ، وللمغاربة أربعةَ شهورٍ، ولغيرهم ثلاثةَ شهورٍ، واستَبشَرَ الناسُ به.

وقد كان المتوكِّلُ رأى في منامه في حياة أخيه هارونَ الواثقِ كأنَّ شيئًا نزَل عليه من السماء مكتوبٌ فيه: جعفرٌ المتوكِّلُ على الله، فعبَّرها، فقيل له: هي الخلافةُ. فبلغ ذلك أخاه الواثقَ فسجنه حينًا، ثم أرسله.

وحجَّ بالناس في هذه السنة محمد بن داود أمير مكة، شرَّفها الله.

وفيها توفي من الأعيان:

الحكم بن موسى. وعمرو بن محمدٍ النَّاقدُ.

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين ومائتين

في يوم الأربعاء سابع صفر منها أمر الخليفةُ المتوكِّلُ على الله بالقبض على محمد بن عبدالملك بن الزيَّات وزير الواثق، وكان المتوكِّلُ يبغضُه لأمورٍ؛ منها أنَّ أخاه الواثق تغضَّب عليه في بعض الأوقات وكان ابن الزيات يزيدُ الواثقَ غضبًا على أخيه، فبقي ذلك في نفسه منه، ثم كان الذي استرضى الواثق عليه أحمد بن أبي دوادٍ فحظِي لذلك عنده في أيام ملكه، ومن ذلك أنَّ ابن الزيات كان قد أشار بخلافة محمد بن الواثق بعد أبيه، ولفَّ عليه الناس، وجعفرٌ المتوكِّلُ في جنب دار الخلافة، فلم يتمَّ الأمر إلا لجعفر المتوكل على الله، على رغم أنف ابن الزيَّات، فلهذا أمر بالقبض عليه سريعًا فطلبه، فركب بعد غدائه يظنُّ أنَّ الخليفة بعث إليه، فأتتْ به الرسل إلى دار إيتاخ أمير الشُّرطة فاحتيط عليه وقيِّد، وبعثوا في الحال إلى داره فأخذ جميع ما كان فيها من الأموال واللآلئ والجواهر والحواصل والجواري والأثاث، ووجدوا في مجلسه الخاصِّ به آلات الشراب، وبعث الخليفةُ إلى حواصله وضياعه بسائر الأماكن فاحْتيطَ عليها، وأمر به أن يعذَّبَ؛ فمُنع من الطعام، وجعلوا يساهرونه كلَّما أراد الرُّقادُ نخس بالحديد، ثم وضع بعد ذلك كله في تنُّورٍ من خشبٍ فيه مساميرُ قائمةٌ في أسفله فأُقيم عليها، ووكل به من يمنعه من الرُّقاد، فمكث كذلك أيَّامًا حتى مات وهو كذلك.

ويقال: إنَّه أخرج من التَّنُّور وفيه رمقٌ، فضرب على بطنه، ثم على ظهره حتى مات وهو تحت الضَّرب. ويقال: إنَّه أحرق، ثم دفعت جثَّتُه إلى أولاده فدفنوه، فنبشت عليه الكلابُ فأكلت لحمه وجلده، سامحه الله، وكانت وفاته لإحدى عشرة من ربيع الأوَّل منها.

وكان قيمةُ ما وجد له من الحواصل نحواً من تسعين ألف ألف دينارٍ، وقد قدَّمنا أنَّ المتوكل سأله

عن قتل أخيه الواثق أحمد بن نصر الخزاعيَّ، فقال له: يا أمير المؤمنين، أحرقني الله بالنار إن كان الواثقُ قتله يوم قتله إلا وهو كافرٌ. قال المتوكِّلُ: فأنا أحرقتُه بالنار.

وفي جمادىٰ الأولىٰ منها فلج أحمد بن أبي دواد القاضي المعتزليُّ، فلم يزلْ كذلك حتىٰ مات بعد أربع سنين وهو كذلك، كما دعا علىٰ نفسه كما تقدَّم. ثم غضب المتوكلُ علىٰ جماعةٍ من الكتَّاب والعمال، وأخذ منهم أموالاً جزيلةً جدًا.

وفيها: ولَّىٰ المتوكِّلُ ابنه محمدًا المنتصرَ الحجازَ واليمن، وعقد له علىٰ ذلك كلِّه في رمضان منها.

وفيها: عمد ملك الروم ميخائيلُ بن توفيل إلىٰ أمِّه تدورة فأقامها بالشمس، وألزمها الدَّيرَ، وقتل الرجل الذي اتهمها به، وكان ملكها ستَّ سنين. وحجَّ بالناس في هذه السنة محمد بن داود أمير مكة، حرسها الله وشرَّفها.

وفيها توفي:

إبراهيم بن الحجّاج الساميُّ. وحبَّان بن موسىٰ المروزيُّ. وسليمانُ بن عبدالرحمن الدِّمشقيُّ. وسهل بن عثمان العسكريُّ. ومحمد بن سماعة القاضي. ومحمد بن عائذٍ الدمشقيُّ، صاحب «المغازي». ويحيىٰ بن أيوب المقابريُّ. ويحيىٰ بن معين، أحد أئمة الجرْح والتعديل، وأستاذُ أهلِ صناعةِ الحديث في زمانه.

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين ومائتين

فيها: خرج محمد بن البعيث بن الجليس عن الطاعة في بلاده من أذرَبيجان، وأظهر أنَّ المتوكل قد مات، والتفَّ عليه جماعةٌ من أهل تلك الرساتيق، ولجأ إلىٰ مدينة مرند فحصَّنها، وجاءته البعوثُ من كلِّ جانب، وأرسل إليه المتوكل جيوشًا يتبع بعضها بعضا، فنصبوا علىٰ بلده المجانيق من كل جانب، وحاصروه محاصرةً عظيمةً جدًا، وقاتلهم مقاتلةً هائلةً، وصبر هو وأصحابه صبرًا بليغًا، وقدم بغا الشَّرابيُّ لمحاصرته، فلم يزلْ به حتَّىٰ أسره واستباح أمواله وحرمه، وقتل خلقًا من رءوس أصحابه، وأسر سائرهم، وانحسمتْ مادة ابن البعيث، ولله الحمد. وفي جمادىٰ الأولىٰ منها خرج المتوكلُ إلىٰ المدائن.

وفيها: حجَّ إيتاخُ أحدُ الأمراء الكبار، وهو والي مكة والمدينة والموسم، ودُعِي له علىٰ المنابر، وقد كان إيتاخُ هذا غلامًا خزريًا، طباخًا لرجلٍ يقال له: سلامٌ الأبرشُ. فاشتراه منه المعتصمُ في سنة تسع وتسعين ومائة، فرفع منزلتهٔ، وحظِي عنده، وكذلك الواثقُ من بعد أبيه، ضمَّ إليه أعمالاً كثيرةً، وكذلك عامَلَه المتوكِّلُ علىٰ الله أيضًا وذلك لرُجْلة إيتاخَ وشهامته ونهضته، ولَّما كان في هذه السنة شرب ليلةً مع المتوكلِ فعربد عليه المتوكلُ فهمَّ إيتاخُ بقتْله، فلمَّا كان الصباحُ اعتذر المتوكِّلُ إليه، وقال له: أنت أبي وأنت ربَّيْتَني. ثم دسَّ إليه من يُشيرُ عليه بأن يستأذنَ للحَج، فاستأذن، فأذن له، وأمَّره

علىٰ كلِّ بلدةٍ يحُلُّ بها، وخرج القوَّادُ في خدمته إلىٰ طريق الحجِّ حين خرج، وولَّى المتوكِّلُ الحجابة لوصيفٍ الخادم عوضًا عن إيتاخ.

وحجَّ بالنَّاس فيها محمد بن داود أمير مكة، وهو أمير الحجيج من سنين متقدِّمة.

وفيها توفي من الأعيان:

أبو خيثمة زهير بن حرب. وسليمان بن داود الشَّاذكُونيُّ، أحد الحفَّاظ. وعبدالله بن محمد النُّفيليُّ. وأبو الربيع الزَّهرانيُّ. وعليُّ بن عبدالله بن جعفر المدينيُّ، شيخ البخاريِّ في صناعة الحديث. ومحمد بن عبدالله بن نمير. ومحمد بن أبي بكر المقدَّميُّ. والمعافىٰ الرَّسْعنيُّ. ويحيىٰ بن يحيىٰ الليثيُّ، راوي الموطأ للمغاربة عن مالك بن أنس.

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين ومائتين

في جمادىٰ الآخرة منها كان هلاك إيتاخ في السِّجن، وذلك أنَّه رجع من الحجِّ فتلقَّتْه هدايا الخليفة، فلمَّا اقترب يريد دخول سامرَّاء التي فيها أمير المؤمنين بعث إليه إسحاق بن إبراهيم - نائب بغداد - عن أمر الخليفة يستدعيه إليها؛ ليتلقَّاه وجوهُ النَّاس وبني هاشم، فدخلها في أبَّهَةٍ عظيمةٍ، فقبض عليه إسحاق بن إبراهيم، وعلىٰ ابنيه - مظفَّرٍ ومنصور - وكاتبيْه - سليمان بن وهب وقدامة بن زياد النصرانيِّ - فأسلم تحت العقوبة، وكان هلاك إيتاخ بالعطش، وذلك أنَّه أكل أكْلاً كثيرًا بعد جوع شديد، ثمَّ استسقىٰ الماء فلم يسقَ حتىٰ مات ليلة الأربعاء لخمس خلون من جمادىٰ الآخرة منها. ومكث ولداه في السِّجن مدة خلافة المتوكل، فلمّا وليَ المنتصرُ - ولدُ المتوكِّل - أخرجهما.

وفي شوال منها قدم بغا سامرًا ومعه محمد بن البعيث وأخواه صقرٌ وخالدٌ، ونائبُه العلاء، ومعهم من رءوس أصحابه نحوٌ من مائةٍ وثمانين إنسانًا، فأدخلوا علىٰ الجمال ليراهم النَّاسُ، فلمَّا أوقفَ ابن البعيث بين يدي المتوكِّل أمر بضرْبِ عنُقه، فأُحضر السيفُ والنِّطْعُ، وجاء السيَّافون فوقفوا حوله، فقال له المتوكِّلُ: ويلك، ما دعاك إلىٰ ما فعلت؟ فقال: الشِّقْوةُ يا أمير المؤمنين، وأنت الحبلُ الممدودُ بين الله وبين خلقه، وإنَّ لي فيك لظنَّيْنِ، أسبقهما إلىٰ قلبي أولاهما بك؛ وهو العفوُ. ثم اندفع يقول بديهةً:

أَبَىٰ النَّاسُ إلا أنَّكَ اليومَ قاتلي ... إمامَ الهدىٰ والصفحُ بالمرء أجملُ
وهل أنا إلاَّ جِبْلَةٌ من خطيَّةٍ ... وعفوُكَ من نور النبوَّةِ يُجْبَلُ
فإنَّكَ خيرُ السابقينَ إلىٰ العُلا ... ولا شكَّ أنْ خيرَ الفَعالَين تفعلُ

فقال المتوكلُ: إنَّ معه لأدبًا. ثم عفا عنه، ويقال: بلْ شفع فيه المعتزُّ بن المتوكل، فشفعه فيه. ويقال: بل أودع في السجن في قيودٍ ثقيلةٍ، فلم يزلْ فيه حتىٰ هرب بعد ذلك، وقد قال حين هرب:-

كم قد قضيت أموراً كان أهملها	غيري وقد أخذ الإفلاس بالكظم
لا تعذليني فيما ليس ينفعني	إليك عنِّي جرى المقدارُ بالقَلَم
سأتلفُ المال في عسرٍ وفي يُسُرٍ	إنَّ الجوادَ الذي يُعْطِي على العَدَمِ

وفيها: أمر المتوكل على الله أهلَ الذِّمة أن يتميَّزوا عن المسلمين في لباسهم وعمائمهم وثيابهم، وأن يتطيلسوا بالمصبوغ بالعسَلي، وأن يكون على غلمانهم رقاعٌ مخالفةٌ للون ثيابهم من خلفهم ومن بين أيديهم، وأن يلزموا بالزنانير الخاصرة لثيابهم كزنانير الفلاَّحين اليوم، وأن يحملوا في رقابهم كراتٍ من خشبٍ كثيرةً، وأن لا يركبوا خيلاً، ولتكُنْ رَكُبُهم من خشبٍ إلى غير ذلك من الأمور المذلَّة لهم المهينة لنفوسهم، وأن لا يستعملوا في شيءٍ من الدَّواوين التي يكون لهم فيها حكمٌ على مسلم، وأمر بتخريب كنائسهم المحدثة، وبتضييق منازلهم المتَّسعة، فيؤخذ منها العشرُ، وأن يعمل ما كان متَّسعًا كبيرًا مسجدًا، وأمر بتسوية قبورهم بالأرض، وكتب بذلك إلى سائر الأقاليم والآفاق، وإلى كلِّ بلدٍ ورُستاقٍ.

وفيها خرج رجلٌ يقال له: محمود بن الفرج النَّيسابُوريُّ. وهو ممَّن كان يتردَّدُ إلى خشبة بابك الخرَّميِّ وهو مصلوبٌ، فيقعُدُ قريبًا منه، وذلك بقُرْب دار الخلافة من سرَّ منْ رأى، فادَّعى أنَّه نبيٌّ، وأنَّه ذو القرنين، وقد اتَّبَعَه على هذه الضلالة ووافقه في هذه الجهالة جماعةٌ قليلون، وهم سبعةٌ وعشرون رجلاً، وقد نظم لهم كلامًا في مصحفٍ له ـ قبَّحه الله ـ زعم، لعنه الله ـ أنَّ جبريل، عليه السلام، جاءه به من الله، فأخذ فرفعَ أمره إلى المتوكل فأمر به فضرب بين يديه بالسِّياط؛ فاعترف بما نسب إليه، وما هو معوِّلٌ عليه، وأظهر التوبة من ذلك والرُّجُوع عنه، فأمر الخليفةُ كلَّ واحدٍ من أتباعه أن يصفعه عشرَ صفعاتٍ ففعلوا، فعليه وعليهم لعنَةُ ربِّ الأرض والسماوات، ثم اتفق موته في يوم الأربعاء لثلاثٍ خلون من ذي الحجَّة من هذه السَّنة.

وفي يوم السبت لثلاث بقين من ذي الحجَّة من هذه السنة المباركة أخذ الخليفة المتوكلُ على الله العهدَ من بعده لأولاده الثلاثة وهم: محمدٌ المنتصر، ثم أبو عبدالله المعتزُّ ـ واسمه محمدٌ، وقيل: الزُّبيرُ ـ ثم لإبراهيم وسمّاه المؤيَّدَ بالله، ولم يلِ هذا الخلافة. وأعطى كلَّ واحد منهم طائفةً من البلاد يكون نائبًا عليها ونوابه فيها، ويضرب له السكَّةَ بها، وقد عين ابن جرير ما لكلِّ واحدٍ منهم من البلدان والأقاليم والرَّساتيق، وعقد لكلِّ واحدٍ منهم لواءين؛ لواءً أسود للعهد، ولواءً أبيض للعمالة، وكتب بينهم كتابًا بالرضا منهم بمبايعة الأمراء والكبراء لهم على ذلك وكان يومًا مشهودًا.

وفيها: في شهر ذي الحجَّة هذا منها تغيَّر ماءُ دِجْلَةَ إلى الصُّفْرة ثلاثة أيام، ثم صار في لون ماء المدود، ففزع الناس لذلك.

وفيها: أتي المتوكل بيحيى بن عمر بن زيد بن عليٍّ بن الحسين بن عليٍّ بن أبي طالب من بعض النَّواحي، وكان قد اجتمع إليه قومٌ من الشيعة فأمر بضربه فضرب ثمانيَ عشرة مقرعةً ثم حبس في المطبق.

وحجَّ بالناس محمد بن داود.

قال ابن جرير: وفيها توفي إسحاق بن إبراهيم صاحب الجسْرِ - يعني نائب بغداد - في يوم الثلاثاء لسبع بقين من ذي الحجَّةِ، وصيِّر ابنه محمدٌ مكانه، وخلع عليه خمسُ خلعٍ، وقُلِّدَ سيفًا.

قلت: وقد كان له في نيابة بغداد والعراق من زمن المأمون، وهو من أكبر الدُّعاة تبعًا لسادته وكبرائه، إلى القول بخلق القرآن.

وفيها توفي:

إسحاق بن إبراهيم بن ماهان الموصليُّ النديم، الأديب ابن الأديب النادر الشَّكل في وقته، المجموع الفضائل من كلِّ فنٍّ يعرفه أبناءُ عصره، من الفقه والحديث والجدل والكلام واللغة والشِّعْرِ، وإنَّما اشتهر بالغناء؛ لأنَّه لم يكنْ له في الدُّنيا نظيرٌ فيه.

قال المعتصمُ: كان إسحاق إذا غنَّى يخيَّلُ إليَّ أنَّه قد زيد في ملكي. وقال المأمونُ: لولا اشتهاره بالغناء لولَّيْتُه القضاء؛ لما أعلمُه من عفَّته ونزاهته وأمانته.

وله شعرٌ حسنٌ، وديوانٌ كبيرٌ. وكان عنده كتُبٌ كثيرةٌ من كلِّ فنٍّ.

توفي في هذه السَّنة، قال ابن خلِّكان: وقيل: في التي بعدها.

وقد ترجمه الحافظُ ابن عساكرَ ترجمةً حافلةً، وذكر عنه أشياء حسنةً، وأشعارًا بديعةً رائقةً، وحكايات مدهشةً يطولُ استقاؤها. فمن غريب ذلك أنَّه غنَّى يومًا ليحيى بن خالد بن برمَكَ فوقَّعَ له بألفِ ألفٍ، ووقَّع له ابنه جعفرٌ بمثلها، وابنه الفضْلُ بمثلها، في حكايةٍ طويلةٍ.

قلت:

وممن توفي في هذه السنة من الأعيان:

سريج بن يونس. وشيبان بن فرُّوخ. وعبيدُ الله بن عمر القواريريُّ. وأبو بكر بن أبي شيبة، أحد الأعلام وأئمة الإسلام، وصاحب «المصنَّفِ» الذي لم يصنِّفْ أحدٌ مثله قطُّ، لا قبله ولا بعده.

ثم دخلت سنة ست وثلاثين ومائتين

فيها: أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي بن أبي طالب، وما حوله من المنازل والدُّور، ونودي في الناس: من وجد ههنا بعد ثلاثة أيام رفع إلى المطبق. فلم يبق هناك بشرٌ، واتُّخِذ ذلك الموضع مزرعةً تحرثُ وتستغلُّ.

وفيها: حجَّ بالناس محمدٌ المنتصرُ بن المتوكِّل.

وفيها توفي:

محمد بن إبراهيم بن مصعب، سمَّه ابن أخيه محمد بن إسحاق بن إبراهيم، وكان محمد بن إبراهيم هذا من الأمراء الكبار.

وفيها توفي:

الحسن بن سهل الوزير، والد بوران زوجة المأمون التي تقدم ذكرها، وكان من سراة الناس ورؤسائهم. ويقال: إن إسحاق بن إبراهيم توفي في هذه السَّنَةِ، فاللهُ أعلم.

وفيها توفي:

أبو سعيد محمد بن يوسف المروزيُّ فجأةً، فولي ابنه يوسفُ مكانه على نيابة أرمينية.

وفيها توفي أيضًا:

إبراهيم بن المنذر الحزاميُّ. ومصعب بن عبدالله الزُّبيريُّ. وهدبة بن خالد القيسيُّ. وأبو الصَّلْتِ الهرويُّ، أحدُ الضُّعَفَاءِ.

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين ومائتين

فيها: قبض يوسف بن محمد بن يوسف، نائبُ أرمينية على البطريق الكبير بها وبعثه إلى نائب الخليفة، واتفق بعد بعثه إياه، أن سقط ثلجٌ عظيمٌ على تلك البلاد، فتحزَّب أهل ذلك البطريق، وجاءوا فحاصروا البلد التي بها يوسف بن محمد، فخرج إليهم؛ ليقاتلهم، فقتلوه وطائفةً كبيرةً من المسلمين الذين معه، وهلك كثيرٌ من الناس في الثلج من شدَّة البرد، ولما بلغ المتوكِّلَ ما وقع من هذا الأمر الفظيع؛ أرسل إلى أهل تلك الناحية بُغا الكبير في جيشٍ كثيفٍ جدًّا، فقتل من أهل تلك الناحية - ممَّن حاصر المدينة، وقتل الأميرُ - نحوًا من ثلاثين ألفًا وأَسَرَ منهم طائفةً كبيرةً، ثم سار إلى بلاد الباق من كورة البَسْفُرْجانَ، وسلك إلى مدنٍ كثيرةٍ كبارٍ، ومهَّدَ الممالك، ووطَّدَ البلادَ والنَّواحِيَ.

وفي صفر من هذه السنة غضب المتوكِّل على أحمد بن أبي دوادٍ القاضي المعتزليِّ، وكان على المظالم فعزله عنها، واستدعى بيحيى بن أكثم فولاَّه قضاء القضاة والمظالم أيضًا.

وفي ربيع الأوَّل أمر الخليفةُ بالاحتياط على ضياع ابن أبي دوادٍ، وأخذ ابنه أبا الوليد محمد بن أحمد بن أبي دوادٍ، فحبسه في يوم السَّبتِ لثلاثٍ خلون من ربيع الآخر، وأمر بمصادرته، فحمل مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار، ومن الجواهر النَّفيسة ما يقوم بعشرين ألف دينارٍ ثم صولح على ستَّةَ عشرَ ألفَ ألفِ درهم، وكان ابن أبي دوادٍ قدْ أصابه الفالجُ - كما ذكرنا - ثم نفَى أهله من سامرَّا إلى بغدادَ مهانينَ.

قال ابن جرير: فقال في ذلك أبو العتاهية:

لو كنت في الرأي منسوبًا إلى رشدٍ ... وكان عزمُكَ عزمًا فيه توفيقُ
لكان في الفقه شغلٌ لو قنعتَ به ... عن أن تقُولَ كتابُ الله مخلوقُ
ماذا عليك وأصلُ الدين يجمَعُهُمْ ... ما كان في الفرع لولا الجهلُ والمُوقُ

وفي يوم عيد الفطرِ منها أمر المتوكّلُ بإنزالِ جثَّةِ أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعيِّ، والجمع بين رأسه وجسده، وأن يسلَّمَ إلى أوليائه، ففرح النَّاسُ بذلك فرحًا شديدًا، واجتمع من العامة في جنازته خلقٌ كثيرٌ جدًّا، وجعلوا يتمسَّحون بها، وبأعواد نعشه وكان يومًا مشهودًا، ثم أتوْا إلى الجذعِ الذي صُلب عليه فجعلوا يتمسَّحون به، وأرهج العامَّةُ في ذلك فرحًا وسرورًا، فكتب المتوكلُ إلى نائبه يأمره بردْعهم عن تعاطي مثل ذلك، وعن المغالاة في البشر، ثم كتب إلى الآفاق بالمنع من الكلام، في مسألة الكلام والكفِّ عن القول بخلْق القرآن، وأظهر إكرام الإمام أحمد بن حنبلٍ واستدعاه من بغداد إليه، فاجتمع به فأكرمه، وأمر له بجائزةٍ سنيَّةٍ فلم يقبلْها، وخلع عليه خلعةً سنيَّةً من ملابسه، فاستحيا منه أحمدُ كثيرًا، فلبسها إلى الموضع الذي كان نازلاً فيه، ثم نزعها نزعًا عنيفًا وهو يبكي، رحمَه الله تعالى.

وجعل المتوكّلُ في كلِّ يوم يرسلُ إليه من طعامه الخاصِّ يظنُّ أنَّه يأكُلُ منه، وكان الإمام أحمد لا يأكل لهم طعامًا، بل كان صائمًا، مواصلاً يطوي تلك الأيّامَ كلَّها؛ لأنَّه لا يتيسَّرُ له شيءٌ يرتضي أكله، ولكن كان ابناه صالحٌ وعبدالله يقبلان تلك الجوائز، وهو لا يشعرُ بشيءٍ من ذلك، ولولا أنَّهم أسرعوا الأوبَة إلى بغدادَ لخُشيَ على أحمد أن يموتَ جوعًا.

وارتفع شأنُ السُّنَّةِ جدًّا في أيام المتوكّلِ - عفا الله عنه - وكان لا يولّي أحدًا إلا بعد مشُورة الإمام أحمد بن حنبلٍ، وكانت ولايةُ يحيى بن أكْثَمَ قضاءَ القُضاة موضع ابن أبي دوادٍ عن مشورته أيضًا، وقد كان يحيى بن أكثمَ هذا من أئمَّة السُّنَّة، وعلماء الناس، ومن المعظِّمين للكتاب والسنَّة والفقه والحديث واتِّباع الأثرِ، وكان قد ولّى من جهته حيّان بن بشْرٍ قضاءَ الشَّرْقيَّة، وسوَّارَ بن عبدالله العنبريَّ قضاءَ الجانب الغربيِّ، وكلاهما كان أعورَ، فقال في ذلك بعض أصحاب ابن أبي دُوَادٍ:

رأيت من الكبائر قاضيين	هما أحْدوثَةٌ في الخافقَيْن
هم اقتسما العمى نصْفين قدًّا	كما اقتسَما قضاءَ الجانبَيْن
وتحسب منهما من هزَّ رأسًا	لينظرَ في مواريث ودَيْن
كأنَّك قد وضعت عليه دنًّا	فتَحْتَ بُزَالَهُ من فرْد عَيْن
هما فَألُ الزَّمان بهُلك يحيى	إذ افتتَحَ القضاءَ بأعْورَيْن

وغزَا الصَّائفةَ في هذه السَّنَةِ عليُّ بنُ يحيى الأرْمنيّ.

وحجَّ بالنَّاس فيها عليُّ بن عيسى بن جعفرِ بن أبي جعفرٍ المنْصُورِ، أميرُ الحجاز.

وفيها توفي: حاتمٌ الأصمُّ. وعبدالأعلى بن حمَّادٍ. وعبيدالله بن معاذٍ العنبريُّ. وأبو كامل الفضيْلُ بن الحسين الجحْدَريُّ.

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين ومائتين

في ربيع الأول منها حاصر بغا مدينة تفْلِيسَ، وعلىٰ مقدِّمته زَيرَكُ التُّرْكِيُّ، فخرج إليه صاحبُ تفْلِيسَ إسحاقُ بن إسماعيل فقاتله، فأُسر إسحاقُ، فأمر بغا بضرب عنقه وصلبه، وأمر بإلقاء النار في النِّفط إلىٰ نحو المدينة، وكان أكثرُ بنائها من خشب الصَّنَوْبَرِ، فأحرَق أكثرها، وأحرق من أهلها نحواً من خمسين ألف إنسانٍ، وطفئت النار بعد يومين؛ لأنَّ نار الصنوبر لا بقاء لها، ودخل الجندُ فأسروا من بقي من أهلها، واستلبوهم حتىٰ استلبوا الموتىٰ، ثم سار بغا إلىٰ مدنٍ أخرىٰ ممَّن كان يمالئ أهلها مع من قتل نائب أرمينية يوسف بن محمد بن يوسف، أخذًا بثأره وعقوبةً لمن تجرَّأ عليه.

وفيها: جاءت الفرنج في نحو من ثلاثمائة مركبٍ، قاصدين ديار مصر من ناحية دمياط، فدخلوا فجأةً فقتلوا من أهلها خلقًا كثيرًا، وحرقوا المسجدَ الجامع والمنبر، وأسروا من النِّساء نحوًا من ستِّمائة امرأةٍ؛ من المسلمات مائةٌ وخمسةٌ وعشرون، والباقيات من نساء القبْط، وأخذوا من الأسلحة والأمتعة والمغانم شيئًا كثيرًا جدًّا، وفرَّ الناس منهم في كلِّ جهةٍ، فكان من غرق في بحيرة تنِّيس أكثر ممَّن أسروه، ثمَّ رجعوا علىٰ حميَّةٍ، ولم يعرضْ لهم أحدٌ حتىٰ رجعوا بلادهم، لعنهم الله وقبَّحهم.

وفي هذه السنة غزا الصَّائفَةَ عليُّ بنُ يحيىٰ الأرمنيُّ. وحجَّ بالناس أميرُ السنة التي قبلها.

وفيها توفي:

إسحاق بن راهويه، أحد الأعلام وعلماء الإسلام، والمجتهدين من الأنام. وبشر بن الوليد، الفقيه الحنفيُّ. وطالوتُ بن عبّادٍ. ومحمد بن بكَّارٍ بن الرَّيان. ومحمد بن الحسين البُرْجُلانيُّ. ومحمد بن أبي السَّريِّ العَسْقلانيُّ.

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين ومائتين

في المحرم منها زاد المتوكِّلُ في التغليظ علىٰ أهل الذِّمَّةِ في التميُّزِ في اللِّباس عن المسلمين، وأكد الأمر بتخريب الكنائسِ المحدثةِ في الإسلام.

وفيها: نفَىٰ المتوكِّلُ عليَّ بن الجهم إلىٰ خُراسانَ.

وفيها: اتفق شعانينُ النصارىٰ ويومُ النيروز في يوم واحد وهو يومُ الأحدِ لعشرين ليلةً خلت من ذي القعدة، وزعمت النَّصارىٰ أنَّ هذا لم يتَّفقْ مثلُه في الإسلام إلا في هذا العام.

وغزا الصَّائفةَ عليُّ بن يحيىٰ المذكورُ.

وفيها: حجَّ بالناس عبدالله بن محمد بن داود بن عيسىٰ بن موسىٰ بن محمد بن عليٍّ والي مكة.

قال ابن جرير: وفيها توفِّي أبو الوليد محمد بن القاضي أحمد بن أبي دوادٍ الإياديُّ المعتزليُّ.

قلت: وممن توفي فيها من الأعيان:

داود بن رشيد. وصفوان بن صالح مؤذِّنُ أهل دمشق. وعبدالملك بن حبيبٍ الفقيه المالكيُّ، أحد المشاهير. وعثمانُ بن أبي شيبة، صاحب «التفسير» و«المسند» المشهور. ومحمد بن مهران الرازيُّ. ومحمود بن غيلان. ووهبُ بن بقيَّة.

وأحمد بن عاصم الأنطاكيُّ، أبو عليٍّ الواعظُ الزاهدُ، أحدُ العبَّاد، له كلامٌ حسنٌ في الزُّهد ومعاملات القلوب، قال أبو عبدالرحمن السُّلَمِيُّ: كان من طبقة الحارث المحاسبيِّ، وبشرٍ الحافي. وكان أبو سليمان الدَّارانيُّ يسمِّيه جاسوس القلوب؛ لحدَّة فِراسته.

روىٰ عن أبي معاوية الضَّرير وطبقته، وعنهُ أحمد بنُ أبي الحواريِّ، ومحمود بن خالدٍ، وأبو زرعةَ الدمشقيُّ، وغيرهم.

روىٰ عنه أحمد ابن أبي الحواريِّ، عن مخلد بن الحسين، عن هشام بن حسّان، قال: مررتُ بالحسن البصريِّ وهو جالسٌ وقت السَّحَرِ، فقلتُ: يا أبا سعيدٍ، مثلُك يجلسُ في هذا الوقت؟! قال: إنِّي قد توضَّأتُ فأردتُها أن تقوم فتُصلِّيَ، فأبت عليَّ، وأرادتني على أن تنامَ فأبيتُ عليْهَا.

ومن مستجاد كلامه؛ قوله: إذا أردتَ صلاحَ قلبِك فاستعِنْ عليه بحفظ لسانك. وقال: من الغنيمة الباردةِ أن تُصلِحَ ما بقيَ من عمرِكَ، فيُغفَرَ لك ما مضىٰ منه. وقال: يسيرُ اليقينِ يُخرِجُ الشَّكَّ كلَّه من القلبِ، ويَسِيرُ الشَّكِّ يخرِجُ اليقينَ كلَّه منه. وقال: من كان باللهِ أعرفَ كان له أخوف. وقال: خيرُ صاحبٍ لك في دنياك الهمُّ، يقطعك عن الدنيا، ويوصلك إلىٰ الآخرةِ. ومن شعره، رحمه الله:

همـمتُ ولم أعْـزِمْ ولـو كنتُ صـادقًـا ... عـزَمتُ ولكـن الفطـانَ شـديدُ
ولو كـان لي عـقلٌ وإيقـانُ مـوقنٍ ... لما كنتُ عن قـصـدَ الطَّريقِ أَحِيـدُ
ولا كـان في شكٍّ اليـقين مطَامِـعِي ... ولكنْ عنِ الأقـدَارِ كَـيفَ أَحِيـدُ

ومن شعرِه أيضًا:

داعـيـاتُ الهَـوَى تَخفُّ علَيْنَا ... وخـلافُ الهـوَىَ علينا ثقـيلُ
فُـقِـد الصـدقُ في الأمـاكنِ حتَّى ... وصَـفُـهُ اليـومَ مـا عليـه دَلِيلُ
لا نرى خـائفًـا فـيلزَمَنا الخـو ... فُ ولا صَـادقًـا بما قـد يقَـولُ
فـبـقـينا مـذبـذبين حَـيَـارَى ... نَطلُبُ الصِّـدَقَ مـا إليـه سـبـيلُ

ومن شعره أيضًا:

هـوِّنْ عليكَ فكُلُّ الأمـرِ ينقطِعُ ... وخـلِّ عنكَ عنـانَ الهـمِّ يندفـعُ
فَكُلُّ همٍّ لـه من بَعْـده فَـرَجٌ ... وكلُّ كـرْبٍ إذَا مَـا ضَـاقَ يتَّسِعِ
إنَّ البَـلاَءَ وإنْ طَالَ الزَّمَـانُ بِهِ ... الموتُ يَقْطَعُهُ أو سَـوْفَ يَنقطِعُ

وقد أطال الحافِظُ ابنُ عساكرَ ترجمَتَه، ولم يؤرِّخْ وفاتَه، وإنما ذكَرتُه ههنا تقريبًا، والله أعلم بالصواب.

سنة أربعين ومائتين من الهجرة النبوية

فيها : عدا أهلُ حمصَ على عاملهم أبي المُغيثِ موسى بن إبراهيمَ الرافقيِّ، وكان قد قتل رجلاً من أشرافهم فقتلوا جماعةً من أصحابه، وأخرجوه من بين أظهرهم، فبعث إليهم المتوكلُ أميرًا عليهم، وقال للسفير معه : إنْ قبلوا وإلا فأعلمْني . فقبلوه، فعمل فيهم الأعاجيبَ، وأهانهم غايةَ الإهانة .

وفيها : عزل المتوكلُ يحيى بن أكثمَ القاضي عن قضاء القضاة، وصادره بما مبلغه ثمانون ألف دينارٍ، وأخذ منه أراضيَ كثيرةً في أرض البصرة، وولَّى مكانه جعفر بن عبدالواحد بن جعفر بن سليمان بن عليٍّ، على قضاء القضاة .

قال ابن جرير : وفي المحرَّم منها توفي أحمد ابن أبي دوادٍ بعد ابنه بعشرين يومًا .

وهذه ترجمة أحمد ابن أبي دواد القاضي

هو أحمد ابن أبي دوادٍ - واسمه الفَرَجُ، وقيل : دُعميٌّ . والصحيحُ أنَّ اسمه كنيتُه - ابن جرير القاضي، أبو عبدالله الإياديُّ المعتزليُّ .

قال ابن خلكان في نسبه : هو أبو عبدالله أحمد بن أبي دوادٍ فرج بن جرير بن مالك بن عبدالله ابن عبّاد بن سلاّم بن عبد هند بن عبد لخم بن مالك بن قنص بن منعة بن برجان بن دوس بن الدُّئِلِ بن أميَّةَ بن حذاقة بن زهْرِ بن إيادِ بن نزار بن معدِّ بن عدنانَ .

قال الخطيبُ : ولي ابن أبي دوادٍ قضاء القضاة للمعتصم، ثم للواثق، وكان موصوفًا بالجود والسَّخاء وحسن الخلقِ ووفُورِ الأدب، غيرَ أنَّه أعلن بمذهب الجهميَّة، وحمل السلطان على امتحان الناس بخَلْقِ القرآن . قال الصُّوليُّ : لم يكنْ بعد البرامكة أكرمُ منه، ولولا ما وضع من نفسه من محبَّة المحنة لاجتمعت عليه الألسُنُ . قالوا : وكان مولده في سنة ستِّين ومائةٍ، وكان أسنَّ من يحيى ابن أكثمَ بعشرين سنةً .

قال ابن خلِّكان : وأصلُه من بلاد قِنَّسْرين، وكان أبوه تاجرًا يفدُ إلى الشام، ثم أخذ ولده هذا معه إلى العراق، فاشتغل بالعلم، وصحب هيَّاجَ بن العلاء السُّلَميَّ، أحد أصحاب واصل بن عطاءٍ، فأخذ عنه الاعتزال، وذكر أنَّه كان يصحبُ يحيى بن أكثمَ القاضيَ، ويأخذُ عنه العلمَ، ثم سرَدَ لَهُ ترجمةً طويلةً في كتاب « الوفيات » .

وقد امتدحه بعضُ الشعراء، فقال :

رسولُ الله والخلفاءُ منّا ... ومنّا أحمدُ بن أبي دواد

فرد عليه بعضُ الشُّعراء، فقال :

فقُلْ للفاخرينَ على نزارٍ ... وهم في الأرض سَاداتُ العبادِ

رسولُ الله والخلفاءُ منّا ... ونبرأُ من دَعيٍّ بني إيادِ

وما منّا إيادٌ إذ أقرَّت ... بدعوةِ أحمدَ بن أبي دوادِ

فلمّا بلغ ذلك أحمد ابن أبي دوادٍ قال: لولا أنّي أكرهُ العقوبة لعاقبتُ هذا الشاعر عقوبةً ما فعلها أحدٌ. وعفا عنه.

قــال الخطيب: حدَّثني الأزهريُّ، ثنا عمر بن أحمد الواعظُ، حدَّثنا عمر بن الحسن بن عليٍّ بن مالكٍ، حدَّثني جرير بن أحمد أبو مالكٍ، قال: كان أبي - يعني أحمد بن أبي دوادٍ - إذا صلَّى رفع يديه إلى السَّماء، وخاطب ربَّه، وأنشأ يقول:

مـا أنتَ بالسَّـبب الضـعـيف وإنَّـما … نُجْحُ الأمـور بقُـوَّة الأسـبـاب
واليـوم حـاجـتُنا إليكَ وإنَّـما … يُدعَى الطبـيبُ لسـاعـةِ الأوْصـاب

ثمَّ روَى الخطيبُ أن أبَا تمّام دخَل علىٰ أحمدَ بن أبي دُوادٍ يومًا فقال له:

أحسَبُك عاتبًا. فقال: إنَّما يُعتَبُ علىٰ واحدٍ، وأنتَ الناسُ جميعًا. فقال له: أنَّى لكَ هذه؟ فقال: من قول أبي نُواسٍ:

ولـيـس لـلـه بـمـسـتـنـكَـرٍ … أن يـجـمَـعَ العـالَـمَ في واحـد

وامتدحهُ أبو تمّام يومًا، فقال:

لقـد أنستْ مسـاوىَ كلِّ دهْرٍ … محـاسنُ أحـمـد بن أبي دواد
ومـا سـافـرتُ في الآفـاق إلاَّ … ومن جَـدْواك راحـلَتي وزادي
يُقـيـمُ الظنُّ عندَك والأمـانـي … وإنْ قلِقتْ رِكـابِيَ فيَ البـلاد

فقال له: هذا المعنىٰ تفرَّدتَ به، أو أخذتَه من غيرك فقال: هو لي غيرَ أنِّي ألْمَمتُ بقول أبي نُواسٍ:

وإن جـرَت الألفـاظُ يومًـا بمـدحـة … لغـيـرك إنسـانًا فـأنتَ الذي نَعني

وقال محمد بن يحيىٰ الصُّوليُّ: ومن مختار مديح أبي تمّام لأحمد بن أبي دوادٍ قوله:

أأحـمـدُ إنَّ الحـاسـدينَ كـثـيـرُ … ومـا لك إن عُـدَّ الكرامُ نظيـرُ
حـلـلـتَ محـلاً فاضلاً متـقدِّمًا … من المجد والفـخـرُ القـديمُ فَخُـورُ
فكلُّ غنيٍّ أوْ فـقـيـر فـإنَّه … إليك وإن نالَ السـمـاءَ فـقـيـرُ
إليك تناهَى المجـدُ من كلِّ وجـهـة … يَصـيـرُ فـمـا يعـدُوكَ حيثُ تصيـرُ
وبـدرُ إيـاد أنـتَ لا ينـكـرونَـهُ … كـذاكَ إيـادٌ للأنام بُـدُورُ
تجنَّبتَ أن تُدعَى الأمـيـرَ تواضُـعًـا … وأنتَ لمن يُدْعَى الأمـيـرَ أمـيـرُ
فـمـا من ندًى إلا إليك محـلُّه … ولارفـعـة إلا إليك تسـيـرُ

قلت: قد أخطأ الشاعرُ في هذا خطأً كبيرًا، وأفحش في المبالغة كثيرًا. وقال أحمد بن أبي دوادٍ يومًا لبعضهم: لم لا تسألُني؟ فقال له: لأنِّي لو سألتُك أعطيتُك ثمن ما تُعطِيني. فقال له: صدقتَ.

وأرسل إليه بخمسة آلاف درهم.

وقال ابنُ الأعرابيِّ: سأل رجلٌ ابن أبي دوادٍ أن يحمله على عير، فقال: يا غلامُ، أعطِه عَيرًا وبغلاً وبرذَونًا وفرسًا وجاريةً. ثم قال له: لو أعلَمُ مركوبًا غيرَ هذا لأعطيتُك. ثم أورد الخطيبُ بأسانيده عن جماعةٍ من الناس أخبارًا تدلُّ على كرمه وفصاحته وأدبه وحلمِه ومبادرتِه إلى قضاءِ الحاجاتِ، وعظيمِ منزلتِه عندَ الخلفاءِ.

وذكر عن محمّدٍ المهتدي بن الواثق أن شيخًا دخل يومًا على الواثق، فسلَّم فلم يرُدَّ عليه الواثقُ، بل قال: لا سلَّم الله عليك. فقال: يا أمير المؤمنين، بئس ما أدَّبك معلمُك؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦]. فلا حيَّيتني بأحسن منها ولا رددتها. فقال ابن أبي دوادٍ: يا أمير المؤمنين، الرَّجلُ متكلِّمٌ. فقال: ناظِرْهُ. فقال ابن أبي دوادٍ: ما تقول يا شيخُ في القرآن، أمخلوقٌ هو؟ فقال الشيخُ: لم تُنصِفْني؛ المسألةُ لي. فقال: قل. فقال: هذا الذي تقوله، علمه رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمر، وعثمانُ، وعليٌّ أوْ ما علموه؟ فقال: لم يعلموه. قال: فأنت علمت ما لمْ يعلموا؟ فخجل وسكت. ثم قال: أقلني، بل علموه. قال: فلمَ لا دعَوا النَّاسَ إليه كما دعَوتهم أنت، أمَا وسِعك ما وسِعهم؟ فسكَت ابنُ أبي دوادٍ، وأمَر الواثقُ له بجائزةٍ نحوٍ من أربعمائة دينارٍ. قال المهتدي: فدخل أبي المنزل واستلقى على قفاه، وجعل يكرِّرُ قول الشيخ على نفسه، ويقول: أما وسعك ما وسعهم؟ ثم أمر بإطلاق الرَّجل وإعطائه أربعمائة دينارٍ وردِّه إلى بلاده، وسقط من عينِه ابن أبي دوادٍ ولم يمتحنْ بعده أحدًا. رواها الخطيبُ البغداديُّ في «تاريخه» بإسنادٍ فيه بعض من لا أعرِفُه، وساقها مطوَّلةً وفيها نكارةٌ.

وقد أنشَد ثعلبٌ، عن أبي الحجَّاج الأعرابيِّ أنَّه قال في ابنِ أبي دوادٍ:

نكَستَ الدِّينَ يا ابن أبي دواد ... فأصبح من أطاعكَ في ارتدادِ
زعمت كلام ربِّك كان خلقًا ... أما لك عند ربِّكَ من معادِ
كلام الله أنزله بعلمٍ ... وأنزله على خيرِ العبادِ
ومن أمسى ببابك مستضيفًا ... كمن حلَّ الفلاةَ بغيرِ زادِ
لقد أطرفتَ يا ابن أبي دوادٍ ... بقولِكَ إنني رَجلٌ إيادِي

ثم قال الخطيب: أنبأ القاضي أبو الطيِّب طاهرُ بن عبدالله الطبريُّ قال: أنشدنا المعافى بن زكريّا الجريريُّ، عن محمد بن يحيى الصُّوليِّ لبعضهم يهجو ابن أبي دوادٍ:

لو كنت في الرأي منسوبًا إلى رشَدٍ ... وكان عزمُكَ عزْمًا فيه توفيقُ
لكان في الفقه شغلٌ لو قنعتَ بهِ ... عن أن تقولَ كتابُ الله مخلوقُ
ماذا عليك وأصلُ الدينِ يجمَعُهم ... ما كان في الفرعِ لا في الجهلِ والموقِ

وقد تقدَّمت هذه الأبياتُ.

وروى الخطيبُ عن يحيى الجَلاَّء، أو عليِّ بن الموفَّق، أنه قال: ناظَرني رجلٌ من الواقفيَّة في خلقِ القرآن، فنالني منه ما أكرهُ، فلمّا أمسَيتُ أتيتُ امرأتي، فوضَعتْ لي العَشاءَ فلم أقدرْ أنْ أنال منه شيئًا، ونمتُ فرأيتُ رسول الله ﷺ في المسجد الجامع، وهناك حلقةٌ فيها أحمد بن حنبلٍ وأصحابه، وحلقةٌ فيها ابن أبي دوادٍ وأصحابُه فجعَل رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ﴾ [الانعام: ٨٩]. ويشيرُ إلى حلقة ابن أبي دوادٍ ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الانعام: ٨٩]، ويشيرُ إلى حلقة أحمد بن حنبلٍ وأصحابه رحمهم الله.

وقال بعضهم: رأيت في المنام ليلة مات ابن أبي دوادٍ كأنَّ قائلاً يقول: هلك الليلة أحمد بن أبي دوادٍ. فقلتُ له: وما سببُ هلاكه؟ فقال: إنه أغضب الله عليه فغضبَ عليه من فوق سبع سماواتٍ.

وقال بعضهم: رأيتُ في تلك الليلة كأنَّ النَّارَ زفَرت زَفْرةً عظيمةً، فخرَج منها اللهبُ، فقلتُ: ما هذا؟ فقيل: هذه اتُّخذت لابن أبي دوادٍ.

وقد كان موتُه في يوم السَّبتِ لسبع بقين من المحرَّم من هذه السنةِ، وصلَّى عليه ابنُه العبّاسُ، ودُفِن في داره ببغداد وعمره يومئذٍ ثمانونَ سنةً، وابتلاه اللهُ بالفالج قبلَ موته بأربع سنين، وبقي طريحًا في فراشه لا يقدر على أن يحرِّكَ شيئًا من جسده.

وقد دخل عليه بعضُهم فقال: والله ما جئتُك عائدًا وإنَّما جئتُ لأحمَدَ الله على أن سجنك في جسدك. وقدْ صُودر في العام الماضي بأموالٍ جزيلةٍ جدًا، كما تقدَّم بيانُه.

قال ابن خلِّكان: كان مولدُه في سنة ستين ومائةٍ. قلتُ: فعلى هذا يكونُ أسنَّ من أحمد بن حنبلٍ، ومن يحيى بن أكثمَ الذي ذكر ابن خلِّكان أنَّه كان سببَ اتصال ابن أبي دوادٍ بالخليفة المأمون، فحظي عنده، بحيثُ إنَّه أوصى به أخيه المعتصم، فولاه المعتصمُ القضاء وعزل ابن أكثم، وكان لا يقطع أمرًا دونه، فكان عنده خصِّيصًا؛ ولاه القضاء والمظالمَ، وكان ابن الزيَّات الوزيرُ يبغضه، وجرَتْ بينهما منافساتٌ وهجوٌ، كما تقدَّم، وقد بالغ ابن خلكان في ترجمته ومدحه، وذكر من مآثره ومحاسنه فأطنب وأكثر وما أطيب، ولم يذكرْ شيئًا من مساوئه، بل ذكر امتحانه للإمام أحمد ابن حنبلٍ ذكرًا موجزًا بأطراف الأنامل، وهي المحنةُ التي هي أسُّ ما بعدها من المحن، والفتنةُ التي فتحتْ على الناس باب الفتن.

ثمَّ ذكر ابن خلكان ما ضرب به من الفالج، وما صودر به من المال الرابح، وأن ابنه أبا الوليد محمدًا صودر بألف ألف دينارٍ، وأنه مات قبل أبيه بشهرٍ.

وأمَّا الحافظ ابن عساكرٍ، فإنه بسَط القولَ في ترجمته وشرَحها شرحًا مليحًا. وقد كان الرجلُ أديبًا فصيحًا كريمًا جوادًا ممدّحًا، يؤثِرُ العطاءَ على المنعِ، والتفرقةَ على الجمع، وقدْ روى ابنُ عساكرَ

بإسناده أنَّه جلَس يومًا مع أصحابه ينتظرون خروج الواثق، فقال ابن أبي دوادٍ: إنه ليعجبني هذان البيتان:

ولي نظرةٌ لو كان يحبلُ ناظرٌ بنظرته أنثى لقد حبِلت منِّي
فإن ولدتْ ما بينَ تسعةِ أشهرٍ إلى نظرتي ابنًا فإنَّ ابنها منِّي

وممن توفي فيها من الأعيان:

أبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبيُّ، أحد الفقهاء المشاهير. قال الإمامُ أحمد: هو عندنا في مسلاخ الثوريِّ. وخليفة بن خيَّاطٍ، أحدُ أئمةِ التاريخ. وسويد بن سعيد الحدثانيُّ. وسويد بن نصر. وعبدالسلام بن سعيد، الملقبُ بسحنونٍ، أحد فقهاء المالكية المشهورين. وعبدالواحد بن غياثٍ. وقتيبة بن سعيدٍ، شيخُ أئمة السُّنَّة. وأبو العميثل عبدالله بن خليد، كاتب عبدالله بن طاهرٍ وشاعره، كان عالمًا باللغة وله فيها مصنَّفاتٌ عديدةٌ، أورد منها القاضي ابن خلِّكان جملةً، ومن شعره يمدحُ عبدالله بن طاهر:

يا من يحاولُ أن تكونَ صفاتُهُ كصفات عبدالله أنصتْ واسمعِ
فلأنصحنَّكَ في المشورة والذي حجَّ الحجيجُ إليه فاسمعْ أوْدَعِ
اصدقْ وعفَّ وبرَّ واصبرْ واحتملْ واصفَحْ وكَافِ ودارِ واحلُمْ واشجَعِ
والطُفْ ولِنْ وتأنَّ وارفقْ واتَّئدْ واحزمْ وجِدَّ وحَامِ واحملْ وادفَعِ
فلقد محضتك إنْ قبلتَ نصيحتي وهديتُ للنَّهْجِ الأسدِّ المَهْيَعِ

أمَّا سحنون المالكيُّ، صاحب المدوَّنة، فهو أبو سعيد عبدالسلام بن سعيد بن حبيب بن حسَّان بن هلال بن بكار بن ربيعة التنُوخيُّ، أصله من مدينة حمص، فدخل به أبوه مع جندها بلاد المغرب، فأقام بها، وانتهتْ إليه رياسةُ مذهب مالك هنالك، وكان قد تفقَّه على ابن القاسم، وسببُه أنَّه قدم أسدُ بن الفرات المالكيُّ من بلاد العراق إلى بلاد مصر، فسأل عبدالرحمن بن القاسم صاحب مالك عن أسئلة كثيرةٍ، فأجابه عنها، فعقلها عنه ودخل بها بلاد المغرب، فانتسخها منه سحنُونٌ، ثم قدم على ابن القاسم مصر، فأعاد أسئلته عليه فزاد فيها ونقص، ورجع عن أشياء منها، فرتَّبها سحنونٌ، ورجع بها إلى بلاد المغرب.

وكتب معه ابن القاسم إلى أسد بن الفرات أن يعرض نسخته على نسخة سحنون ويصلحها بها، فلم يقبلْ، فدعا عليه ابن القاسم، فلم ينتفعْ به ولا بكتابه، وصارت الرحلةُ إلى سحنون، وانتشرت عنه المدوَّنةُ، وساد أهل ذلك الزمان، وتولَّى القضاء بالقيروان إلى أن توفي في هذه السنة عن ثمانين سنةً، رحمه الله.

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين ومائتين

في جمادىٰ الآخرة من هذه السَّنة وثب أهلُ حمص أيضًا علىٰ عاملهم محمد بن عبدويه فأرادوا قتله، وساعدهم نصارىٰ أهلها أيضًا عليه، فكتب إلىٰ الخليفة يعلمه بذلك، فكتب إليه يأمُرُه بمناهضتهم، وكتب إلىٰ متولِّي دمشق أن يمدَّه بجيش من عنده؛ ليساعده علىٰ أهل حمصَ، وكتب إليه أن يضرب ثلاثةً منهم - معروفين بالشرِّ - بالسِّياط حتَّىٰ يموتوا، ثمَّ يصلبهم علىٰ أبواب البلد، وأن يضرب عشرين آخرين منهم؛ كلَّ واحد ثلاثمائة ثلاثمائة، وأن يرسلهم إلىٰ سامرًا مقيَّدينَ في الحديد، وأنْ يخرج كلَّ نصرانيٍّ بها، ويهدم كنيستها العظمىٰ التي إلىٰ جانب المسجد الجامع، ويضيفها إليه، وأمر له بخمسين ألف درهم، وللأمراء الذين ساعدوه بصلاتٍ سنيَّةٍ، فامتثل ما أمره به الخليفةُ فيهم.

وفيها أمر الخليفةُ المتوكِّلُ علىٰ الله بضرب رجلٍ من أعيان أهل بغداد يقال له: عيسىٰ بن جعفر بن محمد بن عاصم، فضرب ضربًا شديدًا مبرِّحًا، يقال: إنه ضربَ ألف سوطٍ حتىٰ مات. وذلك أنَّه شهد عليه سبعة عشرَ رجلاً عندَ قاضي الشرقيَّة أبي حسَّانَ الزِّياديِّ أنه يشتمُ أبا بكر وعمر وعائشة وحفصة، رضي الله عنهم أجمعين. فرفع أمره إلىٰ الخليفة، فجاء كتاب الخليفة إلىٰ محمد بن عبدالله بن طاهر بن الحسين، نائب بغداد، يأمره أن يضرب هذا الرجل بين الناس حدَّ السَّبِّ، ثم يضرب بالسِّياط حتىٰ يموت، ويلقىٰ في دجلة ولا يصلَّىٰ عليه، ليرتدعَ بذلك أهلُ الإلحادِ والمعاندةِ. ففعلَ معه ذلك، قبَّحَه الله ولعنه.

ومثلُ هذا يُكفَّرُ - إن كان قد قذف عائشة أمَّ المؤمنين - بالإجماع، وفي منْ قذف من سواها من أمهات المؤمنين قولان، والصحيحُ أنَّه يكفَّرُ أيضًا؛ لأنَّهنَّ أزواج رسول الله ﷺ، ورضي عنهن.

قال ابن جرير: وفي هذه السَّنة انقضَّت الكواكبُ ببغداد وتناثرتْ، وذلك ليلة الخميس، لليلة خلتْ من جمادىٰ الآخرة. قال: وفيها مطر الناس في آب مطرًا شديدًا جدًا. قال: وفيها مات شيءٌ كثيرٌ من الدَّوابِّ والبقر. قال: وفيها أغارت الرُّومُ علىٰ عين زربةَ، فأسروا من بها من الزُّطِّ وأخذوا نساءهم وذراريَّهم ودوابَّهم. قال: وفيها كان الفداءُ بين المسلمين والرُّوم في بلاد طرسوس بحضرة قاضي القضاة جعفر بن عبدالواحد، عن إذن الخليفة له في ذلك، واستنابته ابن أبي الشَّوارب. وكانت عدَّةُ الأسرىٰ من المسلمين سبعمائةٍ وخمسةً وثمانين رجلاً، ومن النِّساء مائةً وخمسًا وعشرين امرأةً، وقد كانت أمُّ الملك تدُورةُ - لعنها الله - عرضت النَّصرانيَّةَ علىٰ من كان في يدها من الأسارىٰ - وكانوا نحوًا من عشرين ألفًا - فمن أجابها إلىٰ النصرانيَّة وإلا قتلتْه، فقتلتْ اثنَيْ عشرَ ألفًا، وتنصَّر بعضهم، وبقي منهم هؤلاء الذين فدوا وهم قريبٌ من التِّسعمائة؛ رجالاً ونساءً.

وفيها أغارت البُجَةُ علىٰ حرسٍ من أرض مصر، وقد كانت البُجَةُ لا يغزون المسلمين قبلَ هذا؛

لهُدْنة كانت لهم من المسلمين، فنقضوا الهدنة وصرَّحوا بالمخالفة.

والبُجَةُ طائفةٌ من سودان بلاد المغرب، وكذا النُّوبةُ والفرويَّةُ، وبينوزُ، وزعروينُ، ويكسومُ وأممٌ كثيرون لا يعلمهم إلا الله الذي خلقهم. وفي بلاد هؤلاء معادنُ الذهب والجوهر، وكان عليهم حملٌ في كلِّ سنةٍ إلى ديار مصر من هذه المعادن، فلمَّا كانت دولةُ المتوكِّل امتنعوا من أداء ما عليهم سنينَ متعددةً، فكتب نائبُ مصر ـ وهو يعقوبُ بن إبراهيم الباذغيسيُّ، مولى الهادي وهو المعروفُ بقَوْصَرَةَ ـ بذلك كلِّه إلى المتوكِّل، فغضب المتوكِّلُ من ذلك غضبًا شديدًا، وشاور في أمر البُجَة، فقيل له: يا أمير المؤمنين، إنَّهم قومٌ أهلُ إبلٍ وبادية، وإنَّ بلادهم بعيدةٌ ومَعْطشةٌ، ويحتاجُ الجيشُ الذَّاهبون إليها أن يتزوَّدوا لمقامهم بها طعامًا وماءً. فصدَّه ذلك عن البعث إليهم، ثم بلغه أنَّهم يغيرون على أطراف الصعيد، وخشي أهلُ مصر على أنفسهم منهم، فجهَّزَ لحربهم محمد بن عبدالله القُمِّيَّ، وجعل إليه نيابة تلك البلاد كلِّها المتاخمة لأرضهم، وكتب إلى عمَّال مصر أن يعينوه بجميع ما يحتاج إليه من الطعام وغير ذلك، فتخلص معه من الجيوش الذين انضافوا إليه من تلك البلاد حتى دخل بلادهم في عشرين ألف فارس وراجل، وحمل معه الطعام والإدام في مراكبَ سبعةٍ، وأمر الذين هم بها أن يلجِّجوا بها في البحر ثم يوافوه بها إذا توسَّط بلاد البُجَة، ثم سار حتى دخل بلادهم، وجاوز معادنهم، وأقبل إليه ملكُ البُجَةِ ـ واسمه: عليُّ بابا ـ في جمع عظيم أضعاف من مع محمد بن عبدالله القُمِّيِّ، وهم قومٌ مشركون يعبدون الأصنام، فجعل الملكُ يطاولُ المسلمين في القتال لعلَّه تنفدُ أزوادهم، فيأخذونهم بالأيدي، فلمَّا نفد ما عند المسلمين وطمع فيهم السودان يسَّر الله ـ وله الحمد ـ بوصول تلك المراكب وفيها من الطعام والتَّمر والزَّيت وغير ذلك مما يحتاجون إليه شيءٌ كثيرٌ جدًّا، فقسمه الأمير بين المسلمين بحسب حاجاتهم، فيئس السودانُ من هلاك المسلمين جوعًا، فشرعوا في التَّأهُّب لقتال المسلمين، وكانوا يركبون على إبلٍ شبيهةٍ بالهُجُنِ زَعِرَةٍ جدًّا كثيرة النِّفَار، لا تكادُ ترى شيئًا ولا تسمعُ شيئًا إلا جفلتْ منه. فلمَّا كان يوم الحرب عمد الأميرُ إلى جميع الأجراس التي معهم في الجيش، فجعلها في رقاب الخيل، فلمَّا كانت الوقعْةُ حمل المسلمون حملةَ رجلٍ واحدٍ، فهرَب السودانُ فرارَ رجلٍ واحدٍ، ونفَرت إبلُهم من أصوات تلكَ الأجْراس في كلِّ وجهٍ، وتفرَّقوا شَذَرَ مَذَرَ، واتَّبَعهُم المسلمون يقتِّلون من شاءُوا، لا يمتنعُ منهم أحدٌ، فلا يعلم عدد من قتل منهم إلا اللَّه عزَّ وجلَّ. ثم أصبحوا وقد اجتمعوا رجَّالةً، فكبسهم القُمِّيُّ من حيث لا يشعرون، قتل عامَّة من بقي منهم، وأخذ الملك بالأمان، وأدَّى ما كان عليه من الحمل، وأخذه معه أسيرًا إلى الخليفة، وكانت هذه الوقعةُ في أول يوم من هذه السَّنَة، وكان وصوله إلى الخليفة في أواخر هذه السنة، فولاه الخليفة على بلاده كما كان، وجعل إلى ابن القُمِّيِّ أمْرَ تلك النَّاحية، والنظرَ في أمرها، ولله الحمد والمنَّةُ.

قال ابن جرير: ومات في هذه السَّنَة يعقوبُ بن إبراهيم، المعروفُ بقوصرَّةَ في جمادى الآخرة.

قلت: وهذا الرجل كان نائبًا على الدِّيار المصرية من جهة المتوكِّل على الله. قال: وحجَّ بالناس في

هذه السنة عبدالله بن محمد بن داود، وحجَّ جعفر بن دينارٍ فيها وهو والي طريقِ مكَّةَ وأحداث الموسم ولم يتعرّضْ ابن جريرٍ لوفاة أحدٍ من المحدِّثينَ في هذه السَّنة.

وقد توفي فيها من الأعيان:

الإمام أحمد بن حنبل. وجبارة بن المغلِّس الحمَّانيُّ. وأبو توبة الحلبيُّ. والحسن بن حمَّاد، سجَّادةُ. ويعقوب بن حميْدٍ بن كاسبٍ.

ولنذكر شيئا من أخبار الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، وفضائله ومناقبه ومآثره على سبيل الاختصار

فنقول وبالله المستعانُ: هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبدالله بن حيَّانَ بن عبدالله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازنِ بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب ابن عليٍّ بن بكر بن وائلٍ بن قاسطٍ بن هنْبِ بن أفْصَىَ بن دعْميٍّ بن جديلة بن أسدَ بن ربيعةَ بن نزارٍ بن معدٍّ بن عدنانَ بن أدٍّ بن أدَدٍ بن الهَمَيْسَع بن حَمَلٍ بنِ النَّبْتِ بنِ قيْدارٍ بن إسماعيل بن إبراهيمَ الخليل، عليهما السلام، أبو عبدالله الشَّيْبانيُّ ثم المرْوَزِيُّ ثم البَغْداديُّ، هكذا ساق نسبه الحافظ الكبيرُ أبو بكر البيهقيُّ -رحمه الله- في الكتاب الذي جمعه في مناقب الإمام أحمد، عن شيخه الحافظ أبي عبدالله الحاكم صاحب «المستدرك».

وروي عن صالح بن الإمام أحمد، قال: رأىٰ أبي هذا النسب في كتابٍ لي، فقال: وما تصنع بهذا؟ولم ينكر النَّسبَ. قالوا: وقدمَ به أبوه من مرْوَ وهو حمْلٌ، فوضعتْه أمُّه ببغداد في ربيع الأوّل من سنة أربع وستِّين ومائةٍ، وتوفِّي أبوه وهو ابن ثلاثين سنةً، فكفلتْه أمُّه. قال صالحٌ عن أبيه: فثقبتْ أُذُنيَّ وجعلتْ فيهما لؤلؤتَيْنِ، فلمّا كبِرْتُ دفعتهما إليَّ فبعتهما بثلاثين درهمًا.

وتُوفِّي أبو عبدالله أحمد بن حنبلٍ يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الأوَّل من سنةِ إحدىٰ وأربعين ومائتين، وله من العُمرِ سبعٌ وسبعون سنةً؛ رحمه الله.

وقد كان في حداثته يختلف إلىٰ مجلس القاضي أبي يوسفَ، ثم ترَك ذلك وأقبلَ علىٰ سماع الحديث، فكان أوَّلُ طلَبِه للحديثِ وأوّلُ سماعه من مشايخه في سنة تسع وسبعين ومائةٍ، وله من العمر ستَّ عشْرة سنةً، وأوّلُ حجَّةٍ حجَّها في سنة سبعٍ وثمانين ومائةٍ، ثم في سنة إحدىٰ وتسعين. وفيها حجَّ الوليدُ بن مسلمٍ، ثم في سنة ستٍّ وتسعين، وجاور إلىٰ سنة سبعٍ وتسعين، ثم حجَّ في سنة ثمانٍ وتسعين، وجاورَ إلىٰ سنة تسعٍ وتسعين، سافر إلىٰ عند عبدالرَّزَّاق باليمن، فكتب عنه هو ويحيىٰ بنُ معينٍ، وإسحاق بن راهويه.

قال الإمام أحمدُ: حجَجْتُ خمس حجج؛ منها ثلاث راجلاً، أنفقْتُ في إحدىٰ هذه الحجج

ثلاثين درهمًا. قال: وقد ضللتُ في بعض هذه الحجج عن الطريق وأنا ماشٍ، فجعلت أقول: يا عباد الله، دُلُّوني على الطريق، فلم أزلْ أقولُ ذلك حتى وقفتُ على الطريق. قال: وخرجتُ إلى الكوفة فكنتُ في بيتٍ تحتَ رأسي لبنةٌ، ولو كان عندي خمسونَ درْهمًا؛ كنتُ رحلتُ إلى جرير بن عبدالحميد إلى الريِّ، وخرج بعض أصحابنا ولم يمكنِّي الخروج؛ لأنَّه لم يكنْ عندي شيءٌ.

وقال ابنُ أبي حاتم، عن أبيه، عن حرملة: سمعتُ الشَّافعيَّ يقول: وعدني أحمد بن حنبلٍ أن يقدمَ عليَّ مصرَ فلم يقْدمْ. قال ابن أبي حاتم: يشْبه أن تكونَ خِفَّةُ ذات اليد حالتْ بينه وبين الوفاءِ بالعدَة.

وقد طاف أحمدُ بن حنبل في البلاد والآفاق، وسمعَ من مشَايخ العصْر، وكانوا يجلُّونه ويحترمونه في حال سماعه منهم.

وقد سرد شيخُنا في «تهْذيبه» أسماءَ شيوخه مرتَّبينَ على حروف المعْجَم، وكذلك الرُّواة عنه.

قال الحافظُ أبو بكر البيهقيُّ، بعد أن ذكر جماعةً من شُيوخ الإمام أحمدَ: وقد أكثر أحمدُ بن حنبل في «المسنَد» وغيرهُ الرِّواية عن الشَّافعيِّ، وأخذ عنه جملةً من كلامه في أنساب قريشٍ وأخذ عنه من الفقْه ما هو مشهورٌ. وحين توفِّي أحمدُ وجَدُوا في تَرِكَته رسالتي الشَّافعيِّ؛ القديمة والجديدَة.

قلتُ: قد أفردُ ما رواه الإمام أحمد، عن أبي عبدالله الشَّافعيِّ، وهي أحاديثُ لا تبلُغُ عشرينَ حديثًا؛ ومن أحسن ما روِّيناه عن الإمام أحمد، عن الإمام الشافعيِّ، عن الإمام مالك بن أنسٍ عن الزُّهريِّ، عن عبدالرحمن بن كعب بن مالكٍ، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «نَسَمَةُ المؤْمنِ طائرٌ تعلَّقَ في شَجَرِ الجنَّة حتى يرْجعَه الله إلى جَسَده يومَ يبعثُه».

وقد قال الشافعيُّ لأحمد لمَّا اجتمع به في الرِّحلة الثانية إلى بغداد بعد سنة تسعين ومائة، وعمرُ أحمد إذا ذاك نيِّفٌ وثلاثون سنةً، قال له: يا أبا عبدالله، إذا صحَّ عندكم الحديث فأعلمْني به؛ أذهبُ إليه حجازيًّا كان أو شاميًّا أو عراقيًّا أو يمنيًّا. يعني أنه لا يقول بقول فقهاء الحجاز الذين لا يقبلون إلا رواية الحجازيِّين وينزلون أحاديث من سواهم منزلة أحاديث أهل الكتاب، وقول الشَّافعيِّ له هذه المقالة تعظيمٌ لأحمد وإجلالٌ له، وإنَّه عنده بهذه المثابة، إذا صحَّحَ أو ضعف، يرجعُ إليه في ذلك. وقد كان الإمام أحمد بهذه المثابة عند الأئمة والعلماء، كما سيأتي ثناء الأئمة عليه واعترافهم له بعُلُوِّ المكانة وارتفاع المنزلة في العلم والحديث، رحمهم الله. وقد بَعُدَ صيتُه في زمانه واشتهر اسمُه في شبيبته في الآفاق.

ثم حكى البيهقيُّ كلام أحمد في الإيمان، وأنَّه قولٌ وعملٌ يزيد وينقُصُ، وكلامه في أنَّ القرآن كلام الله غيرُ مخلوقٍ، وإنكاره على من يقول: إنَّ لفظه بالقرآن مخلوقٌ، يريد به القرآن. قال: وفيما حكى أبو عمارة وأبو جعفر، أخبرنا أحمد ـ شيخُنا ـ السَّرَّاجُ، عن أحمد بن حنبلٍ أنَّه قال: اللفظُ محدثٌ. واستدلَّ بقوله: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. قال: فاللفظُ؛

كلامُ الآدميِّين. وروىٰ غيرهما عن أحمد أنَّه قال: القرآنُ كيف ما تصرَّف فيه غير مخلوقٍ، وأمَّا أفعالنا فهي مخلوقةٌ.

قلت: وقد قرَّر البخاريُّ هذا المعنىٰ في أفعال العباد، وذكره أيضًا في «الصحيح»، واستدلَّ بقوله ﷺ: «زيِّنوا القرآنَ بأصواتكم» (١) ولهذا قال غير واحد من الأئمة: الكلامُ كلامُ الباريء، والصوتُ صوتُ القاريء. وقد قرَّر البيهقيُّ ذلك أيضًا.

وروىٰ البيهقيُّ من طريق إسماعيل بن محمد بن إسماعيل السُّلميِّ، عن أحمد أنَّه قال: من قال القرآنُ محدثٌ، فهو كافرٌ. ومن طريق أبي الحسنِ الميْمُونيِّ، عن أحمد أنَّه أجاب الجَهْميَّة حين احتجُّوا عليه بقوله تعالىٰ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢]. قال: يحتمل أن يكون تنزيله إلينا هو المحدث، لا الذكر نفسه هو المحدث.

وعن حنبل، عن أحمد أنَّه قال: يحتمل أن يكون ذكرًا آخر غير القرآن، وهو ذكر رسول الله ﷺ، أو وعظُه إيَّاهُم. ثم ذكر البيهقيُّ كلام الإمام أحمد في إثبات رؤية الله في الدَّار الآخرة، واحتجَّ بحديث صهيْبٍ في الرُّؤيَة (٢)، وهي الزيادةُ، وكلامه في نفي التشبيه وتركِ الخوْضِ في الكلام والتمسُّك بما وردَ في الكتاب والسُّنَّة من الآثار عن النبيِّ ﷺ وأصحابه. وروىٰ البيْهقيُّ، عن الحاكم، عن أبي عمرو ابن السمَّاك، عن حنبلٍ، أنَّ أحمد بن حنبلٍ تأوّل قول الله تعالىٰ: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]. أنه جاء ثوابه. ثم قال البيهقيُّ: وهذا إسنادٌ لا غبارَ عليه.

وقال الإمامُ أحمد: حدثنا أبو بكر بنُ عيَّاشٍ، ثنا عاصمٌ، عن زرٍّ، عن عبدالله - هو ابن مسعود - قال: ما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسنٌ، وما رأوْه سيِّئًا فهو عند الله سيءٌ (٣). وقد رأىٰ الصحابةُ جميعًا أن يستخلفُوا أبا بكر رضي الله عنه، إسنادٌ صحيحٌ. قلت: وهذا الأثرُ فيه حكايةُ إجماعٍ عن الصحابة في تقديم الصِّدِّيق، رضي الله عنه، والأمر كما قاله ابن مسعودٍ، رضي الله عنه، وقد نصَّ علىٰ ذلك غيرُ واحدٍ من الأئمة. وقد قال الإمامُ أحمد بن حنبلٍ حينَ اجتازَ بحمْصَ، وقد حمل إلىٰ المأمون في زمن المحنة، ودخل عليه عمرو بن عثمان الحمْصيُّ، فقال له: ما تقولُ في الخلافة؟ فقال الإمامُ أحمدُ: أبو بكر ثم عمرُ ثم عثمانُ ثم عليٌّ، ومن قدَّم عليًّا علىٰ عثمان فقد أزْرَىٰ بأصحابِ الشُّورَىٰ؛ لأنَّهم قدَّمُوا عثمانَ، رضي الله تعالىٰ عنهم أجمعين.

---

(١) **صحيح**: عن حميد بن عبد الرحمن عن الأعمش عن طلحة عن عبد الرحمن بن عوسجة عن البراء أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٣) ورجاله ثقات.

وقد تُوبع الأعمش عند الحاكم (١/ ٥٧٤) والبيهقي في «الشعب» (٢١٤٠).

(٢) **حديث صحيح**: أخرجه مسلم (١٨١) باب إثبات رؤية المؤمنين.

(٣) **إسناده حسن إن شاء الله**: أخرجه أحمد (١/ ٣٧٩) بهذا الإسناد واختلف في هذا الحديث علىٰ عاصم بن بهولة =

فصل في ورعه وتقشفه وزهده،

رحمه الله ورضي عنه

روىٰ البيْهَقيُّ من طريق المزنيِّ، عن الشافعيِّ أنَّه قال للرشيد: إنَّ اليمن تحتاج إلىٰ قاضٍ. فقال له: اخترْ رجلاً نولِّه إيَّاها. فقال الشافعيُّ لأحمد بن حنبلٍ، وهو يتردَّدُ إليه في جملة من يأخُذُ عنه: ألا تقبلُ قضاء اليمن. فامتنع من ذلك امتناعًا شديدًا، وقال: إنِّي إنَّما أختلفُ إليك لأجل العلمِ المزهِّدِ في الدُّنيا، أفتأمُرُني، أن أَلِيَ القضاءَ؟ ولولا العلمُ لما أكلِّمُك بعد اليوم. فاستحيىٰ الشافعيُّ منه.

وروي أنَّه كان لا يصلِّي خلف عمِّه إسحاق بن حنبلٍ ولا خلفَ بنيه، ولا يكلمُهم أيضًا؛ لأنَّهم أخذوا جائزة السّلطان.

ومكث مرَّةً ثلاثة أيام لا يجدُ ما يأكله حتىٰ بعث إلىٰ بعض أصحابه فاستقْرض منه دقيقًا، فعرف أهله حاجته إلىٰ الطعام فعجَّلوا وعجنوا وخبزُوا له سريعًا، فقال: ما هذه العجَلَةُ! كيف خبزتُم سريعًا؟ فقالوا: وجدْنا تنُورَ بيتِ صالحٍ مسجوراً فخبزْنا لك فيه. فقال: ارفعوا. ولم يأكلْ، وأمر بسدِّ بابه إلىٰ دارِ صالحٍ. قال البيْهَقِيُّ: لأنَّ صالحًا أخذ جائزة المتوكِّل علىٰ الله.

وقال عبدالله: مكث أبي بالعسكر عند الخليفة ستَّةَ عشر يومًا لم يأكلْ فيها إلا ربع مدٍّ سويقًا، يفطرُ بعد كلِّ ثلاث ليالٍ علىٰ سفَّةٍ منه حتىٰ رجع إلىٰ بيته، ولم ترجعْ إليه نفسه إلا بعد ستَّة أشهرٍ. وقد رأيتُ موقيْه دخلتا في حدقتيه.

قال البيهقي: وقد كان الخليفة يبعثُ لمائدته شيئًا كثيرًا، وكان أحمد لا يتناول من طعامه شيئًا.

وبعث الخليفةُ المأمونُ مرَّةً ذهبًا؛ ليقسمَ علىٰ أصحاب الحديث، فما بقيَ منهم أحدٌ إلا أخذ، إلا

= فرواه أبو بكر بن عياش وابن عيينة علىٰ هذا الوجه الذي ذكره المؤلف وخالفهما المسعودي وحمزة الزيات فروياه عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله وخالفهم نصربن أبي الأشعث كما في «مسند الطيالسي» (٢٤٣) و«علل الدارقطني» ورواه عن عاصم عن المسيب بن رافع ومسلم بن صبيح عن عبد الله به ونصير ثقة وعاصم قال العجلي فيه: يختلف عليه في حديث زر وأبي وائل.

ورواه الأعمش واختلف عليه أيضًا.

فرواه عبد السلام بن حرب عن الأعمش عن شقيق عن عبد الله وخالفه ابن عيينة فرواه عن الأعمش عن مالك بن الحارث عن عبد الله به وأورده الدارقطني في «العلل» (٥/ ٦٦ ـ ٦٧) ولم يرجح طريقًا فيه وأخرجه الخطيب في «بداية المتفقه» (٤٤٦) من طريق أبي معاوية عن الأعمش عن مالك بن الحارث عن عبد الرحمن بن يزيد قال فقال عبد الله . . . فذكره والحديث قد روي عن أنس مرفوعًا بإسنادٍ ساقط كما قال ابن عبد الهادي فيما نقله عن العجلوني في «كشف الخفا» (٢/ ٢٤٥).

ورجح البيهقي في «المدخل» طريق ابن عياش الذي هو في صدر التخريج فقال: ورواية ابن عياش أشبه ا. هـ. انظر نصب الراية (٤/ ١٣٣) قلت «محمد» ترجيحه قوي وعليه فإن إسناده حسن. وفي حالة صحته فمحمول علىٰ «المسلمين» الذين هم أولىٰ في الحكم بهذا فاللفظ عام أريد به الخاص والله أعلم.

أحمد بن حنبل فإنَّه أبَى .

وقال سليمانُ الشَّاذَكُونيُّ: حضرتُ أحمد وقد رهن سطلاً له عند فاميٍّ باليمن، فلمَّا جاءه بفكاكه أخرج إليه سطلين فقال: خُذْ متاعَكَ. فاشتبَه عليه أيُّهما الذي له، فقال له: أنت في حلٍّ منه ومن الفكَاك. وتَرَكه.

وحكى عبدالله قال: كنَّا في زمن الواثق في ضيقٍ شديدٍ، فكتب رجلٌ إلى أبي: إنَّ عندي أربعة آلاف درهم ورثتها من أبي وليست صدقةً، ولا زكاةً، فإن رأيت أن تقبلها منِّي. فامتنع من ذلك، وكرَّر عليه فأبى، فلمَّا كان بعد حين ذكرنا ذلك فقال: لو كنَّا قبلناها كانت قد ذهبَتْ.

وعرض عليه بعض التُّجَّار عشرة آلاف درهم ربحها من بضاعةٍ جعلها باسمه فأبَى أن يقبلها، وقال: نحن في كفايةٍ، وجزاك الله عن قصدكَ خيراً. وعرض عليه تاجرٌ آخرُ ثلاثة آلاف دينارٍ، فامتنع من قبولها وقامَ وتركه.

ونفدتْ نفقةُ أحمد وهو في اليمن، فعرض عليه شيخه عبدالرزَّاق ملءَ كفِّه دنانيرَ، فقال: نحنُ في كفايةٍ، ولم يقبلها. وسرقتْ ثيابُه وهو باليمن فجلس في بيته وردَّ عليه البابَ، فافتقده أصحابه فجاءوا إليه فسألُوه فأخبرهم، فعرضوا عليه ذهبًا فلم يقبله ولم يأخذْ منهم إلا ديناراً واحدًا؛ ليكتبَ لهم به فكتب لهم بالأجر، رحمه الله.

وقال أبو داود: كانت مجالسُ أحمد مجالس الآخرة، لا يذكرُ فيها شيءٌ من أمر الدُّنيا، وما رأيتُ أحمد بن حنبلٍ ذكر الدُّنيا قطُّ.

وروى البيهقيُّ أنَّ أحمد سُئِلَ عن التَّوكُّل فقال: هو قطْعُ الاستشراف باليَأْسِ من الناس. فقيلَ له: هل من حُجَّةٍ على هذا؟ قالَ: نعم، إنَّ إبراهيم لَّما رميَ به في النَّارِ من المَنْجنيقِ عرض له جبريلُ فقال: هل لك من حاجةٍ؟ فقال: أمَّا إليك فلا. قال: فسلْ من لك إليه حاجةٌ. فقال: أحبُّ الأمْرينِ إليَّ أحبُّهما إليه.

وعن أبي جعفر محمد بن يعقوب الصَّفَّار قال: كنَّا مع أحمد بن حنبلٍ بسُرَّ منْ رأىٰ، فقلنا: ادْعُ الله لنا. فقال: اللهمَّ إنك تعلمُ أنَّا نعلمُ أنَّك لنا على أكثر مما نحبُّ فاجعلنا على ما تحبُّ. ثم سكت. فقلنا: زِدْنَا. فقال: اللهم إنا نسألُك بالقدرة التي قلتَ للسماوات والأرض: ﴿ **ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** ﴾ [فصلت: ١١]. اللهمَّ وفقْنا لمرضاتك، اللهمَّ إنا نعوذ بك من الفقر إلا إليك، ونعوذ بك من الذُّلِّ إلا لك، اللهمَّ لا تكثرْ لنا فنطغى، ولا تقلَّ علينا فننسى، وهبْ لنا من رحمتك وسعة رزقك ما يكون بلاغًا لنا في دنيانا وغنًى من فضْلك.

قال البيهقيُّ: وفي حكاية أبي الفضل التَّميميِّ عن أحمد: وكان دعاؤه في السُّجُود: اللهمَّ من كان من هذه الأمَّة على غير الحقِّ وهو يظنُّ أنَّه على الحقِّ فردَّه إلى الحقِّ ليكون من أهل الحقِّ. وكان يقول: اللهمَّ إن قبلتَ من عصاة أمَّة محمد ﷺ فداءً فاجعلني فداءً لهم.

وقال صالح بن أحمد: كان أبي لا يدعُ أحداً يستقي له الماء للوضوء، بلْ كان يلي ذلك بنفسه، فإذا خرج الدَّلْوُ ملآنَ قال: الحمد لله. فقلت: يا أبَهْ، ما الفائدةُ في ذلك؟ فقال: يا بُنَيَّ، أما سمعتَ قول الله، عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠]. والأخبار عنه في هذا الباب كثيرةٌ جداً.

وقد صنّف في الزُّهد كتاباً حافلاً عظيماً لم يسبقْ إلى مثله، ولم يلحقه أحدٌ فيه. والمظنونُ بل المقطوعُ به أنَّه إنما كان يأخذُ بما أمكنه من ذلك، رحمه الله، وأكرم مثواه، وجعل جنَّةَ الفردوسِ منقلَبَه ومأواه.

وقال إسماعيل بن إسحاقَ السَّرَّاجُ: قال لي أحمدُ بن حنبلٍ: هل تستطيعُ أن تُرِيَني الحارثَ المحُاسبيَّ إذا جاء منزلك؟ فقلتُ: نعم، وفرحتُ بذلك، ثم ذهبتُ إلى الحارث فقلتُ: إنِّي أحبُّ أن تحضرَ الليلة أنتَ وأصحابُك. فقال: إنَّهم كثيرٌ فأحضرْ لهم التمرَ والكُسْبَ. فلمَّا كان بين العشاءين جاءوا وكان الإمامُ أحمد قد سبقهم فجلس في غرفة بحيث يراهم ويسمع كلامهم ولا يرونه، فلمّا صلوا العشاء لم يصلُّوا بعدها شيئاً، حتى جاءوا فجلسُوا بين يدَيِ الحارث سكوتاً كأنّما على رءوسهم الطيرُ، حتى كان قريباً من نصف الليل، ثم سأله رجلٌ عن مسألةٍ، فشرع الحارثُ يتكلمُ فيما يتعلّق بالزُّهد والوعْظِ، فجعلَ هذا يبكي، وهذا يئنُّ، وهذا يزعق، قال: فصعدتُ إلى الغرفة، فإذا الإمامُ أحمد بن حنبل يبكي حتى كاد يغشى عليه، ثم لم يزالوا كذلك حتى الصَّباح، فلمَّا أراد الانصراف قلت: كيف رأيت هؤلاء يا أبا عبدالله؟ فقال: ما رأيتُ أحداً يتكلَّمُ في الزّهد مثل هذا الرجل، وما رأيت مثل هؤلاء، ومع هذا فلا أرى لك أن تجتمع بهم.

قال البيهقيُّ: يحتملُ أنَّه كره له صحبتهم؛ لأنَّ الحارث بن أسدٍ، وإن كان زاهداً، لكنَّه كان عنده شيءٌ من علم الكلام، وكان أحمدُ يكرهُ ذلك، أو كره له صحبتهم، من أجل أنَّه لا يطيق سلوك طريقتهم وما هم عليه من الزُّهْدِ والورع. قلتُ: بل إنَّما كره ذلك؛ لأنَّ في كلام بعض هؤلاء من التقشُّفِ الذي لم يردْ به الشَّرعُ، والتَّدْقيق والتقير والمحاسَبَة البليغَة ما لم يأت به أمرٌ؛ ولهذا لمّا وقف أبو زرعةَ الرَّازيُّ على كتاب الحارث بن أسدٍ المُسمَّى «بالرِّعاية» قال: هذا بدْعةٌ. ثم قال للرَّجُلِ الذي جاءه به: عليك بما كان عليه مالكٌ، والثَّوريُّ، والأوزاعيُّ، والليثُ بن سعدٍ، ودعْ هذا فإنَّه بدْعَةٌ.

وقال إبراهيم الحربيُّ: سمعتُ أحمد بن حنبل يقول: إن أحببتَ أن يدوم الله لك على ما تحبُّ فدمْ له على ما يحبُّ. وكان يقول: الصبرُ على الفقر مرتبةٌ لا ينالها إلا الأكابرُ. وكان يقول: الفقرُ أشرف من الغنى، فإنَّ الصَّبرَ عليه أعظمُ مرارةً، وانزعاجه أعظمُ حالاً من الشكر. وقال: لا أعدلُ بفضْلِ الفقْرِ شيئاً. وكان يقول: على العبد أن يقبَلَ الرزقَ بعدَ اليأسِ، ولا يقبَلُه إذا تقدَّمه طمعٌ أو استشرافٌ. وكان يحبُّ التقلُّلَ طلباً لخفَّة الحساب.

وقال إبراهيم: قال رجلٌ لأحمد: هذا العلم تعلمته لله؟ فقال: هذا شرطٌ شديدٌ، ولكنْ حبِّبَ

إليَّ شيءٌ فجمعته.

وروى البيهقيُّ أنَّ رجلاً جاء إلى الإمام أحمد فقال: إنّ أمّي زمنةٌ مقعَدَةٌ منذُ عشرين سنةً، وقد بعثتني إليك لتدعو الله لها، فكأنَّه غضب من ذلك، وقال: نحن أحوج أن تدعُو هي لنا. ثم دعا الله عزَّ وجلَّ لها. فرجع الرَّجلُ إلى أمِّه فدقَّ الباب فخرجتْ إليه على رجليها، وقالت: قد وهبني الله العافية.

ورويَ أن سائلاً سأل فأعطاهُ الإمامُ أحمد قطعةً، فقام رجلٌ إلى السائل فقال: هبْني هذه القطعة حتى أعطيَكَ عِوَضها، ما يساوي درهمًا. فأبَى فرقَّاه إلى خمسين وهو يَأبَى، فقال: إنِّي أرجُو من بركتها ما ترجُوه أنتَ من بركتها.

قال البيهقيُّ رحمه الله:

باب ذكر ما جاء في محنة أبي عبد الله أحمد بن حنبل، رضي الله عنه

في أيام المأمون، ثم المعتصم، ثم الواثق بسبب القرآن، وما أصابه من الحبس الطويل والضرب الشديد، والتهديد بالقتل بسوء العذاب وأليم العقاب، وقلَّة مبالاته بما كان منهم من ذلك إليه، وصبره عليه، وتمسُّكه بما كان عليه من الدِّين القويم والصراط المستقيم.

وكان أحمد عالمًا بما ورد بمثل حاله من الآيات المتلُوَّة، والآثار المأثورة، وبلغه ما أوصي به في المنام واليقظة، فرضيَ وسلَّم إيمانًا واحتسابًا، وفاز بخير الدُّنيا ونعيم الآخرة، وهيَّأه الله بما آتاهُ من ذلك لبلوغ أعلى منازلِ أهل البلاء في الله من أولياء الله، وألحق به محبِّيه فيما نال من كرامة الله تعالى، إن شاء الله من غير بليَّةٍ، وبالله التوفيقُ والعصْمةُ.

قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ① أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ② وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣]. وقال الله تعالى في وصية لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]. في آي سواها في معنى ما كتبْنا.

وقد روى الإمام أحمد المتحنُ في «مسنده» قائلاً فيه: حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن عاصم بن بهدلةَ، سمعتُ مصعب بن سعدٍ، يحدِّث عن سعد قال: سألت رسول الله ﷺ: أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ فقال: «الأنبياءُ، ثمَّ الأمثلُ فالأمثلُ، يُبْتلى الرجلُ على حسب دينه فإن كان رقيق الدِّين ابْتُليَ على حسب ذلك، وإن كان صُلْبَ الدِّين ابْتُليَ على حَسَب ذلك وما يزالُ البلاءُ بالرَّجل حتى يمشيَ في الأرض وما عليه خطيئةٌ»[1]. وقد

---

(١) إسناده حسن: أخرجه أحمد (١/ ١٧٣) بهذا الإسناد وهو حسن لحال عاصم بن بهدلة فهو حسن الحديث.

روىٰ مسلمٌ في صحيحه قال: حدَّثنا عبدالوهاب الثَّقفيُّ، ثنا أيُّوبُ، عن أبي قلابةَ، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثٌ من كنَّ فيه فقد وجد حلاوة الإيمان؛ من كان الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما، وأن يحبَّ المرء لا يحبُّه إلا لله، وأن يقذفَ في النَّار أحبُّ إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه**». وأخرجاه في الصحيحين[1].

وقال أبو القاسم البغويُّ: حدَّثنا أحمد بن حنبل، ثنا أبو المغيرة، ثنا صفوانُ بن عمرو السَّكْسكيُّ، ثنا عمرو بن قيسٍ السَّكُونيُّ، ثنا عاصمُ بن حميدٍ، قال: سمعتُ معاذ بن جبل يقول: إنَّكم لم تروْا إلا بلاءً وفتنةً، ولن يزدادَ الأمرُ إلا شدَّةً، ولا الأنفُسُ إلا شُحًّا. وبه، قال معاذٌ: «لن تروا من الأئمة إلا غِلظَةً ولن ترَوا أمرًا يهولُكُم ويشتدُّ عليكم إلا حضر بعده ما هو أشدُّ منه». قال البغويُّ: سمعتُ أحمد يقول: اللهمَّ رضينا. يمُدُّ بها صوته.

وروى البيهقيُّ، عن الربيع قال: بعثني الشافعيُّ بكتاب من مصر إلى أحمدَ بن حنبل، فأتيتُه وقد انفتَل من صلاة الفجر، فدفعتُ إليه الكتاب فقال: أقرأته؟ فقلتُ: لا. فأخذه فقرأه فدمعت عيناه، فقلتُ: يا أبا عبدالله، وما فيه؟ فقال: يذكر أنَّه رأىٰ رسول الله ﷺ في المنام، فقال له: «اكتبْ إلىٰ أبي عبدالله أحمد بن حنبل، واقرأ عليه منِّي السلام، وقل له: إنَّك ستمتحنُ، وتدعىٰ إلى القول بخلق القرآن فلا تجبهم، يرفع الله لك علمًا إلىٰ يوم القيامة. قال الربيع: فقلتُ: حلاوة البشارة. فخلع قميصه الذي يلي جلده فأعطانيه، فلمَّا رجعتُ إلى الشافعيِّ أخبرته فقال: إنِّي لستُ أفجعُكَ فيه، ولكنْ بُلَّه بالماء وأعطنيه حتَّىٰ أتبرَّك به[2].

ذكر ملخص الفتنة والمحنة مجموعًا من كلام أئمة السنة، رحمهم الله وأثابهم الجنة

قد ذكرنا فيما تقدَّم أنَّ المأمون كان قدْ اجتمع به واستحوذ عليه جماعةٌ من المعتزلة، فأزاغُوه عن طريق الحقِّ إلى الباطل، وزيَّنوا له القول بخلق القرآن، ونفْيِ الصِّفات عن الله عزَّ وجلَّ.

قال الحافظُ البيهقيُّ: ولم يكنْ في الخلفاء قبله - لا من بني أميَّةَ ولا من بني العبَّاس - خليفةٌ إلا علىٰ منهج السَّلف حتىٰ وليَ هو الخلافةَ، فاجتمع به هؤلاء فحملوه علىٰ ذلك. قالوا: واتفق خروجُه إلىٰ طرسوسَ لغزو بلاد الروم، فعنَّ له أن يكتبَ إلىٰ نائب بغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعبٍ يأمره أن يدعو الناس إلى القوْل بخلقِ القرآن، واتفق ذلك في آخرِ عمره قبل موته بشهورٍ من سنة ثمانيَ عشْرةَ ومائتين.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٣) وهو في «صحيح البخاري» (١٦).

(٢) **قصة ضعيفة:** قال شيخ الإسلام ابن تيمية فيما نقله عنه ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (٢/ ١٣): كذبوا علىٰ الإمام أحمد حكايات في السنة والورع، و ذكر هذه الحكاية وحكاية امتناعه من الخبز الذي خبز في بيت صالح ابنه لماتولىٰ القضاء.

فلمَّا وصل الكتابُ ـ كما ذكرنا ـ استدعىٰ جماعةً من أئمّة الحديث فدعاهم إلىٰ ذلك فامتنعوا، فتهدَّدهم بالضَّرب وقطع الأرزاق، فأجابَ أكثرُهم مكرهين، واستمرَّ علىٰ الامتناع في ذلك الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ، ومحمد بن نوحٍ الجُنْدَيْسابوريُّ، فحملا علىٰ بعيرٍ، وسيَّرهما إلىٰ الخليفة عن أمره بذلك، وهما مقيَّدانِ متعادلان في محْمِل علىٰ بعيرٍ واحد، فلمَّا كانوا ببلاد الرَّحْبَة جاء رجلٌ من الأعراب من عبَّادهم يقال له: جابر بن عامر. فسلَّم علىٰ الإمام أحمد، وقال له: يا هذا، إنَّك وافدُ الناس، فلا تكنْ مشئومًا عليهم، وإنَّك رأس الناس اليوم، فإيَّاك أنْ تُجيبَ فيجيبوا، وإنْ كنت تحبُّ الله فاصبرْ علىٰ ما أنت فيه، فإنَّ ما بينك وبين الجنَّة أنْ تقتلَ، وإنَّك إن لم تقتلْ تمتْ، وإنْ عشْتَ عشْتَ حميدًا.

قال الإمام أحمد: فكان ذلك ما قوَّىٰ عَزْمي علىٰ ما أنا فيه من الامتناع من ذلك. فلمّا اقتربوا من جيش المأمون، ونزلوا دونه بمرحلةٍ جاء خادمٌ، وهو يمسح دموعه بطرف ثيابه وهو يقول: يعزُّ عليَّ يا أبا عبدالله أنَّ المأمون قد سلَّ سيفًا لم يسُلَّه قبل ذلك، وبسط نطْعًا لم يبسُطْه قبل ذلك، وأنَّه يقسمُ بقرابته من رسول الله ﷺ، لئن لم تجبه إلىٰ القول بخلق القرآن ليقتُلنَّك بذلك السَّيف. قال: فجثا الإمامُ أحمد علىٰ رُكبتيْه ورمق بطرْفه إلىٰ السماء، ثم قال: سيِّدي، غرَّ حلمُك هذا الفاجرَ حتىٰ يتجبَّرَ علىٰ أوليائك بالضربِ والقتلِ، اللهمَّ فإن يكُنِ القرآنُ كلامُك غيرَ مخلوقٍ فاكفنا مُؤْنتَه. قال فجاءهم الصريخُ بموت المأمونِ في الثُّلُث الأخير من الليل.

قال أحمد: ففرحتُ بذلك، ثم جاء الخبر بأن المعتصمَ قد ولي الخلافةَ، وقد انضمَّ إليه أحمد ابنُ أبي دوادٍ، وأنَّ الأمرَ شديدٌ، فردُّونا إلىٰ بغداد في سفينةٍ مع بعض الأسارىٰ، ونالني معهم أذًىٰ كثيرٌ، وكان في رجليه القيودُ، ومات صاحبُه محمد بن نوح في الطريق، وصلَّىٰ عليه أحمدُ، فلمَّا رجع أحمدُ إلىٰ بغداد، دخلها وهو مريضٌ، وذلك في رمضان، فأودع السِّجنَ نحواً من ثمانيةٍ وعشرين شهرًا. وقيل: نيِّفًا وثلاثين شهرًا. ثم أخرج إلىٰ الضرب بين يدي المعتصم، كما سيأتي إن شاء الله تعالىٰ وبه الثقةُ. وقد كان الإمامُ أحمدُ هو الذي يصلِّي بأهل السِّجنِ وعليه قيودُه في رجليه.

ذكر ضربه، رضي الله عنه، بين يدي المعتصم

لما أحضره المعتصم من السجن زيد في قيوده قال أحمد: فلم أستطيع أن أمشي بها، فربطتها في التِّكة وحملتُها بيدي، ثم جاءوني بدابّةٍ فحملت عليها فكدتُ أنْ أسقط علىٰ وجهي من ثقلِ القيود، وليس معي أحدٌ يمسكني، فسلم الله حتىٰ جئنا دار الخلافة، فأدخلتُ في بيتٍ وأغلق عليَّ، وليس عندي سراجٌ، فأردتُ الوضوء فمددتُ يدي، فإذا إناءٌ فيه ماءٌ فتوضَّأتُ منه، ثم قمت أُصلِّي، ولا أعرفُ القبلة، فلمّا أصبحتُ إذا أنا علىٰ القبلة، ولله الحمدُ. قال: ثم دعيتُ فأدخلتُ علىٰ المعتصم، فلمّا نظر إليَّ، وعنده ابن أبي دوادٍ قال: أليس قد زعمتم أنه حدث السنّ، وهذا شيخٌ مكتهلٌ؟ فلمّا

دنوتُ منه، وسلَّمتُ قال لي: ادنُه. فلم يزلْ يدنيني حتى قربتُ منه، ثم قال: اجلسْ. فجلستُ وقد أثقلني الحديدُ، فمكثتُ ساعةً، ثم قلتُ: يا أمير المؤمنين، إلامَ دعا إليه ابن عمِّك رسول الله ﷺ؟ قال: إلى شهادة أن لا إله إلا الله. قلتُ: فإنِّي أشهدُ أن لا إله إلا الله. قال: ثم ذكرتُ له حديث ابن عبّاس في وفد عبد القيس، ثم قلتُ: فهذا الذي دعا إليه رسول الله ﷺ. قال: ثم تكلَّم ابن أبي دوادٍ بكلامٍ لم أفهمه، وذلك لأني لم أتفقَّهْ كلامه، ثم قال المعتصمُ: لولا أنّك كنت في يد من كان قبلي لم أتعرَّضْ إليك، ثم قال: يا عبدالرحمن، ألم آمرك أنْ ترفع المحنة؟ قال أحمد: فقلتُ: الله أكبر، هذا فرجٌ للمسلمين. ثم قال: ناظروه، يا عبدالرحمن، كلمه. فقال لي عبدالرحمن: ما تقولُ في القرآن؟ فلم أُجبْه، فقال المعتصمُ: أجبْه. فقلتُ: ما تقولُ في العلم؟ فسكتَ، فقلتُ. القرآنُ منْ علم الله، ومن زعم أن علم الله مخلوقٌ فقد كفَر بالله. فسكت، فقالوا فيما بينهم: يا أمير المؤمنين، كفَّرك وكفَّرنا. فلم يلتفتْ إلى ذلك، فقال عبدالرحمن: كان الله ولا قرآن؟ فقلتُ: كان الله ولا علم؟ فسكت. فجعلوا يتكلَّمون من ههنا وههنا، فقلتُ: يا أمير المؤمنين، أعطوني شيئًا من كتاب الله، أو سنَّة رسول الله حتى أقول به، فقال ابن أبي دوادٍ: وأنت لا تقول إلا بهذا وهذا؟ فقلتُ: وهل يقومُ الإسلام إلا بهما؟

وجرتْ بينهما مناظراتٌ طويلةٌ، واحتجُّوا عليه بقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]. وعنه في ذلك أجوبةٌ بحدث إنزاله، أو ذكرٌ غير القرآن محدثٌ ـ كما تقدّم ـ ورشّح هذا بقوله: ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١] ـ يعني به القرآن ـ بخلاف الذكر فإنّه غيرُ القرآن. وبقوله: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]. وأجاب بما حاصله أنه عامٌّ مخصوصٌ بقوله: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥]. فقال ابن أبي دوادٍ: هو والله يا أمير المؤمنين ضالٌّ مضلٌّ مبتدعٌ، وهؤلاء قضاتُك والفقهاء فسلهم. فقال لهم: ما تقولون فيه؟ فأجابوا بمثل ما قال ابن أبي دوادٍ، ثم أحضروه في اليوم الثاني فناظروه أيضًا، ثم في اليوم الثالث فناظروه أيضًا، وفي ذلك كلِّه يعلو صوته عليهم، وتغلبُ حجَّتُه حججهم. قال: فإذا سكتوا فتح الكلام عليهم ابن أبي دوادٍ، وكان من أجهل الناس بالعلم والكلام، وقد تنوَّعتْ بهم المسائلُ في المجادلة، ولا علم لهم بالنقْل، فجعلوا ينكرون الآثار، ويردُّون الاحتجاج بها.

وقال أحمد: سمعت منهم مقالات لم أكن أظنُّ أن أحدًا يقولها، وقد تكلَّم معي برغُوثٌ بكلام طويل ذكر فيه الجسم وغيره بما لا فائدة فيه، فقلتُ: لا أدري ما تقول، إلا أنِّي أعلم أن الله أحدٌ صمدٌ، ليس كمثله شيءٌ، فسكت عنِّي.

وقد أوردت لهم حديث الرؤية في الدار الآخرة، فحاولوا أن يضعفوا إسناده، ويلفقوا عن بعض المحدثين كلامًا يتسلقون به إلى الطعن فيه، وهيهات، ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥٢]. وفي غبون ذلك كله يتلطف به الخليفة، ويقول: يا أحمد، أجبْني إلى هذا حتى أجعلك من

خاصَّتي، وممَّن يطأ بساطي. فأقول: يا أمير المؤمنين، يأتوني بآية من كتاب الله، أو سنَّة عن رسول الله ﷺ حتى أُجيبهم إليها.

واحتجّ أحمد عليهم حين أنكروا الاحتجاج بالآثار بقوله تعالى، حكايةً عن إبراهيم: ﴿**يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا**﴾ [مريم: ٤٢]. وبقوله: ﴿**وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا**﴾ [النساء: ١٦٤]. وبقوله: ﴿**إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي**﴾ [طه: ١٤] وبقوله: ﴿**أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ**﴾ [الأعراف: ٥٤]. وبقوله: ﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾ [النحل: ٤٠]. إلى غير ذلك من الآيات. فلمّا لم يقُمْ لهم معه حُجَّةٌ عدلوا إلى استعمال جاه الخليفة في ذلك، فقالوا: يا أمير المؤمنين، هذا كافرٌ ضالٌّ مضلٌّ. وقال له إسحاق بن إبراهيم نائبُ بغداد: يا أمير المؤمنين، ليس من تدبير الخلافة أن تخلِّيَ سبيله، ويغلبَ خليفتين، فعند ذلك حمي واشتدَّ غضبُه، وكان ألينهم عريكةً، وهو يظنُّ أنهم على شيء. قال أحمد: فعند ذلك قال لي: لعنك الله، طمعتُ فيك أن تجيبني فلم تجبْني. ثم قال: خذوه واخلعُوه واسحبوه.

قال أحمدُ: فأخذت وسحبت وخلعتُ وجيءَ بالعقابين والسِّياط، وأنا أنظر، وكان معي شعرٌ من شعر النبي ﷺ، مصرورٌ في ثوبي، فجرَّدوني منه، وصرتُ بين العقابين، فقلت: يا أمير المؤمنين، الله الله، إن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحلُّ دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله إلا بإحدى ثلاث...**»[1] وتلوت الحديث، وإنّ رسول الله ﷺ قال: «**أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منِّي دماءهم وأموالهم**[2]».

فبم تستحلُّ دمي، ولم آت شيئًا من هذا؟ يا أمير المؤمنين، اذكر وقوفك بين يدي الله تعالى كوقوفي بين يديك. فكأنَّه أمسك، ثم لم يزالوا يقولون له: يا أمير المؤمنين، إنّه ضالٌّ مضلٌّ كافرٌ. فأمر بي فأُقمت بين العقابين، وجيء بكرسيٍّ فأقمت عليه، وأمرني بعضهم أن آخذ بيديَّ بأيِّ الخشبتين فلم أفهمْ، فتخلَّعتْ يداي، وجيءَ بالضَّرّابين، ومعهم السِّياطُ فجعل أحدهم يضربني سوطين، ويقول له ـ يعني المعتصم: شدَّ، قطع الله يدك! ويجيء الآخر فيضربني سوطين ثم الآخر كذلك، فضربوني أسواطًا فأغمي عليّ، وذهب عقلي مرارًا، فإذا سكن الضرب يعود إليّ عقلي، وقام المعتصمُ إليّ يدعوني إلى قولهم فلم أُجبْه، وجعلوا يقولون: ويحك، الخليفةُ على رأسك. فلم أقبل، فأعادوا الضرب، ثم عاد إليَّ فلم أُجبْه، فأعادوا الضرب، ثم جاء إليَّ الثالثة، فدعاني فلم أعقلْ ما قال من شدَّة الضرب، ثم أعادوا الضرب فذهب عقلي فلم أحسَّ بالضرب، وأرعبه ذلك من أمري، وأمر بي فأطلقتُ، ولم أشعرْ إلا وأنا في حجرةٍ من بيتٍ، وقد أطلقت الأقياد من رجلي، وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين من رمضان من سنة إحدى وعشرين ومائتين، ثم أمر الخليفة

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٧٨) ومسلم (١٦٧٦).

(٢) أخرجه البخاري وغيره.

بإطلاقه إلى أهله، وكان جملة ما ضرب نيِّفًا وثلاثين سوطًا، وقيل: ثمانين سوطًا. لكنْ كان ضربًا مبرِّحًا شديدًا جدًا.

وقد كان الإمام أحمد رجلاً طوالاً رقيقًا أسمر اللون كثير التواضع، رحمه الله، ورضي عنه، وأكرم مثواه.

ولما حمل من دار الخلافة إلى دار إسحاق بن إبراهيم، وهو صائمٌ، أتوه بسويقٍ وماءٍ؛ ليفطرَ من الضَّعف فامتنع من ذلك، وأتمَّ صومه، وحين حضرتْ صلاة الظُّهر صلَّى معهم، فقال له ابن سماعةَ القاضي: صلَّيت في دمك؟ فقال له أحمد: قد صلَّى عمر وجرحه يثعَبُ دمًا[1]. فسكتَ.

ويروى أنَّه لما أقيم ليضربَ انقطعت تكَّةُ سراويله، فخشي أن يسقُطَ سراويلُه فتنكشفَ عورتُه، فحرَّك شفتَيه بدُعاءٍ فعاد سراويله كما كان. ويروى أنه قال: يا غيَّاث المستغيثين، يا إله العالمين، إنْ كنتَ تعلمُ أنِّي قائمٌ لك بحقٍّ فلا تهتكْ لي عورةً.

ولما رجع إلى منزله جاءه الجرايحيُّ فقطع لحمًا ميِّتًا من جسده، وجعل يداويه، والنَّائبُ يبعث كثيرًا في كلِّ وقتٍ يسأل عنه، وذلك أنَّ المعتصم ندم على ما كان منه إلى أحمد ندمًا كثيرًا، وجعل يسأل النائب عنه، والنائبُ يستعلمُ خبره، فلمّا عوفي فرح المعتصمُ والمسلمون بذلك، ولما شفاه الله بالعافية بقي مدةً، وإبهاماه يؤذيهما البردُ، وجعل كلَّ من سعى في أمره في حلٍّ إلا أهل البدعة، وكان يتلو في ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [النور: ٢٢]. ويقول: ماذا ينفعك أن يعذب أخوك المسلم في سبيلك؟ وقد قال الله تعالى: ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ [الشورى: ٤٠]. وينادى يوم القيامة: «ليقمْ من أجره على الله». فلا يقوم إلا من عفا. وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ أقسمُ عليهن: ما نقص مالٌ من صدقة، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا، ومن تواضع لله رفعه الله»[2].

وكان الذين ثبتوا على المحنة فلم يجيبوا بالكلِّيَّة أربعةً؛ أحمد بن حنبلٍ وهو رئيسهم، ومحمد بن نوح بن ميمون الجُنْدَيْسَابوريُّ، ومات في الطريق حين ذهب هو وأحمد إلى المأمون، ونعيم بن حمّاد الخزاعيُّ، وقد مات في السِّجْن، وأبو يعقوب البويطيُّ، وقد مات في سجن الواثق على القول بخلق القرآن، لم يجبهم إلى ذلك. وكان مثقلاً بالحديد، وأوصى أن يدفن فيها، وأحمد بن نصر الخزاعيُّ، وقد ذكرنا كيفية قتله، رحمه الله، في أيام الواثق.

---

(١) **صحيح عن عمر**: أخرجه مالك في «الموطأ» ص٣٩ عن هشام بن عروة عن أبيه أن المسور بن مخرمة أخبره أنه دخل على عمر بن الخطاب من الليلة التي طعن فيها، فأيقظ عمر لصلاة الصبح فقال عمر: نعم لاحظ في الإسلام لمن ترك الصلاة فصلى عمر وجرحه يثعب دمًا.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٨).

ذكر ثناء الأئمة على الإمام
أحمد بن حنبل المعظم المبجل

قال البخاريُّ: لمَّا ضرب أحمد بن حنبل كنا بالبصرة فسمعت أبا الوليد الطيالسيَّ يقول: لو كان هذا في بني إسرائيل لكان أحدوثةً.

وقال إسماعيل بن الخليل: لو كان أحمد بن حنبلٍ في بني إسرائيل لكان عجبًا.

وقال المزنيُّ: أحمد بن حنبل يوم المحنة، وأبو بكر يوم الرِّدَّة، وعمر يوم السَّقيفة، وعثمان يوم الدار، وعليٌّ يوم صفِّينَ.

وقال حرملةُ: سمعت الشافعيَّ يقول: خرجتُ من العراق فما خلَّفتُ بها رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أورع ولا أتقىٰ من أحمد بن حنبلٍ.

وقال شيخه يحيى بن سعيد القطان: ما قدم عليَّ من بغدادَ أحدٌ أحبُّ إليَّ من أحمد بن حنبل.

وقال قتيبةُ: مات سفيانُ الثوريُّ ومات الورعُ، ومات الشافعيُّ وماتت السُّنَنُ، ويموت أحمد بن حنبلٍ وتظهر البدعُ. وفي روايةٍ قال قتيبةُ: إنّ أحمد بن حنبلٍ قام في الأمة مقام النُّبوَّةِ.

قال البيهقيُّ: يعني في صبره علىٰ ما أصابه من الأذىٰ في ذات الله، عزَّ وجلَّ.

وقال أبو عمر بن النَّحّاس ـ وذكر أحمد يومًا ـ فقال: رحمه الله في الدِّين ما كان أبصره، وعن الدُّنيا ما كان أصبره، وفي الزهد ما كان أخبره، وبالصالحين ما كان ألحقه، وبالماضين ما كان أشبهه، عُرِضتْ له الدُّنيا فأباها، والبِدَعُ فنفاها.

وقال بشرُ بنُ الحارثِ الحافي بعد ما ضرب أحمد بن حنبل: أدخل أحمدُ الكيرَ فخرج ذهبًا أحمر.

وقال الميمونيُّ: قال لي عليُّ بن المدينيِّ بعد ما امتحن أحمد، وقبل أن يمتحن: يا ميمونيُّ، ما قام أحدٌ في الإسلام ما قام أحمد بن حنبلٍ. فعجبتُ من هذا عجبًا شديدًا وذهبت إلىٰ أبي عبيدِ القاسم ابن سلام، فحكيت له مقالة عليٍّ بن المدينيِّ، فقال: صدق، إنّ أبا بكر الصدِّيق وجدَ يوم الردة أنصارًا وأعوانًا، وإنَّ أحمد بن حنبل لم يكنْ له أنصارٌ ولا أعوانٌ. ثم أخذ أبو عبيدٍ يطري أحمد، ويقول: لستُ أعلم في الإسلام مثله.

وقال إسحاق بن راهويه: أحمد بن حنبل حجَّةٌ بين الله وبين عبيده في أرضه.

وقال عليُّ بن المدينيِّ: إذا ابتليتُ بشيءٍ فأفتاني أحمد بن حنبل لم أبالِ إذا لقيت ربِّي كيف كان. وقال عليٌّ أيضًا: إنِّي اتخذت أحمد بن حنبل حجَّةً فيما بيني وبين الله، عزَّ وجلَّ، ثم قال: ومن يقوىٰ علىٰ ما يقوىٰ عليه أبو عبدالله؟

وقال يحيى بن معين أيضًا: كان في أحمد بن حنبلٍ خصالٌ ما رأيتها في عالم قطُّ، كان محدِّثًا،

وكان حافظًا، وكان عالمًا، وكان ورعًا، وكان زاهدًا، وكان عاقلاً.

وقال يحيى بن معين أيضًا: أراد الناس منّا أن نكون مثل أحمد بن حنبل، والله ما نقوىٰ أن نكون مثل أحمد، ولا نطيقُ سلوك طريقه.

وقال محمد بن يحيى الذُّهْلِيُّ: اتخذت أحمد بن حنبل حجّةً فيما بيني وبين الله عزَّ وجلَّ. وقال هلال بن العلاء الرَّقِّيُّ: منَّ الله علىٰ هذه الأمة بأربعة؛ بالشافعيِّ فهم الأحاديث وفسَّرها، وبيّن المجمَلَ من المفسَّر، والخاصَّ من العامِّ، والناسخ من المنسوخ، وبأبي عبيدٍ عرَّف الغريب وفسَّره، وبيحيىٰ بن معين نفىٰ الكذب عن الأحاديث، وبأحمد بن حنبل ثبت في المحنة، لولا هؤلاء الأربعةُ لهلك الناس.

وقال أبو بكر بن أبي داود: أحمد بن حنبل مقدمٌ علىٰ كلِّ من حمل بيده قلمًا ومحْبَرَةً؛ يعني في عصره.

وقال أبو بكر محمد بن محمد بن رجاء: ما رأيت مثل أحمد بن حنبل، ولا رأيت من رأىٰ مثله.

وقال أبو زرعة الرَّازيُّ: ما أعرف في أصحابنا أسود الرَّأس أفقه منه.

وروىٰ البيهقيُّ عن الحاكم، عن يحيىٰ بن محمد العنبريِّ قال: أنشدنا أبو عبدالله البوشَنْجيُّ في أحمد بن حنبلٍ رحمه الله:

إن ابن حنبل إن سألت إمامنا ... وبه الأئمَّةُ في الأنام تمسَّكوا
خلف النبيَّ محمَّدًا بعد الألى ... كانوا الخلائفَ بعده واستهلكوا
حذْوَ الشِّراك على الشِّراك وإنّما ... يحذُو المثالَ مثالُهُ المتمسِّكُ

وقد ثبت في «الصحيح» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يزال طائفةٌ من أمَّتي ظاهرين على الحقِّ لا يضرُّهم من خذلهم ولا منْ خالفهم حتى يأتي أمرُ الله، وهم كذلك». قال عبدالله بن المبارك وأحمد ابن حنبلٍ وغيرهما: هم أهلُ الحديث.

وروىٰ البيهقيُّ، عن أبي سعدٍ المالينيِّ، عن ابن عديٍّ، عن أبي القاسم البغويِّ، عن أبي الربيع الزهرانيِّ، عن حمَّاد بن زيدٍ، عن بقيَّة بن الوليد، عن معان بن رفاعة، عن إبراهيم بن عبدالرحمن العذريِّ. ح قال البغويُّ: وحدثني زيادُ بن أيوب، حدثنا مبشِّرٌ، عن معانٍ، عن إبراهيم بن عبدالرحمن العذريِّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «يحمل هذا العلم من كلِّ خلفٍ عدوله ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين». وهذا الحديث مرسلٌ، وإسناده فيه ضعفٌ، والعجب أنَّ ابن عبدالبرِّ صححه، واحتجَّ به علىٰ عدالة كلِّ من نسب إلىٰ حمل العلم، والإمامُ أحمد من أئمَّة أهل العلم، رحمه الله، وأكرَمَ مثواه.

ذكر ما كان من أمر الإمام أحمد بعد المحنة

حين أخرج من دار الخلافة بعد الضرب صار إلى منزله فدووي حتى برئ، ولله الحمد والمنة. ولزم منزله فلا يخرج منه لا إلى جماعة ولا جمعة، وامتنع من التحديث، وكانت غلته من ملك له؛ في كل شهر سبعة عشر درهمًا ينفقها على عياله، ويتقنع بذلك، رحمه الله، صابرًا محتسبًا. ولم يزل كذلك مدة خلافة المعتصم، وكذلك في أيام ابنه محمد الواثق.

فلما ولي المتوكل على الله جعفر بن المعتصم استبشر الناس بولايته، فإنه كان محبًا للسنة وأهلها، ورفع المحنة عن الناس، وكتب إلى الآفاق أن لا يتكلم أحد في القول بخلق القرآن، ثم كتب إلى نائبه ببغداد - وهو إسحاق بن إبراهيم - أن يبعث بأحمد بن حنبل إليه، فاستدعى إسحاق بالإمام أحمد إليه، فأكرمه إسحاق وعظمه؛ لما يعلم من إعظام الخليفة له وإجلاله إياه، وسأله فيما بينه وبينه عن القرآن، فقال له الإمام أحمد: سؤال تعنت أو استرشاد؟ فقال: بل سؤال استرشاد: فقال: هو كلام الله منزل غير مخلوق. فسكن إلى قوله في ذلك، ثم جهزه إلى الخليفة بسر من رأى ثم سبقه إليه.

وبلغه أن أحمد بن حنبل اجتاز بابنه محمد بن إسحاق فلم يأته ولم يسلم عليه، فغضب إسحاق ابن إبراهيم من ذلك وشكاه إلى الخليفة، فقال المتوكل: يرد وإن كان قد وطئ بساطي. فرجع الإمام أحمد من الطريق إلى بغداد، وقد كان الإمام أحمد متكرهًا لذلك، ولكن لم يهن ذلك على كثير من الناس، وإنما كان رجوعه عن قول إسحاق بن إبراهيم الذي كان هو السبب في ضربه.

ثم إن رجلاً من المبتدعة يقال له: ابن الثلجي وشى إلى الخليفة شيئًا، فقال: إن رجلاً من العلويين قد ضوى إلى منزل أحمد بن حنبل، وهو يبايع له الناس في الباطن. فأمر الخليفة نائب بغداد أن يكبس منزل الإمام أحمد من الليل. فلم يشعروا إلا بالمشاعل قد أحاطت بالدار من كل جانب، حتى من فوق الأسطحة، فوجدوا الإمام أحمد جالسًا في داره مع عياله، فسألوه عما ذكر عنه، فقال: ليس عندي من هذا علم، وليس من هذا شيء ولا هذا من نيتي، وإني لأرى طاعة أمير المؤمنين في السر والعلانية، وفي عسري ويسري، ومنشطي ومكرهي، وأثرة علي، وإني لأدعو الله له بالتسديد والتوفيق في الليل والنهار. في كلام كثير، قال: ففتشوا منزله حتى مكان الكتب وبيوت النساء والأسطحة وغيرها فلم يروا شيئًا. فلما بلغ المتوكل ذلك وعلم براءته مما نسب إليه؛ علم أنهم يكذبون عليه كثيرًا، فبعث إليه يعقوب بن إبراهيم المعروف بقوصرة - وهو أحد الحجبة - بعشرة آلاف درهم من الخليفة، وقال: هو يقرأ عليك السلام ويقول لك: استنفق هذه. فامتنع من قبولها، فقال: يا أبا عبدالله، إني أخشى من ردك إياها أن يقع وحشة بينك وبينه، والمصلحة لك قبولها. فوضعها عنده ثم ذهب، فلما كان من آخر الليل استدعى الإمام أحمد أهله وبني عمه وعياله، وقال: لم أنم هذه الليلة من هذا المال. فجلسوا معه، وكتبوا أسماء جماعة من المحتاجين من أهل الحديث،

وغيرهم من أهل بغداد والبصرة، ثم أصبح ففرَّقها في الناس ما بين الخمسين إلى المائة والمائتين، ولم يبْقِ منها درهمًا، وأعطىٰ منها لأبي كريْبٍ؛ وأبي سعيدِ الأشَجِّ، وتصدَّق بالكيس الذي كانتْ فيه، ولم يعط منها لأهله شيئًا، وهم في غاية الفقر والحاجة، وجاء بنيٌّ ابنه فقال: أعطني درهمًا. فنظرَ أحمد إلىٰ ابنه صالح، فتناول صالحٌ قطعةً فأعطاها الصبيَّ، فسكت أحمد، رحمه الله.

وبلغ الخليفة أنَّه قد تصدَّق بالجائزة كلِّها حتىٰ لم يبق منها شيئًا، وأنَّه تصدَّق بكيسها، فقال عليُّ ابن الجهم: يا أمير المؤمنين، إنَّه قد قبلها منك وتصدَّق بها عنك، وما يصنع أحمد بالمال؟ إنَّما يكفيه رغيف. فقال: صدقْتَ.

فلمّا مات إسحاق بن إبراهيم وابنه محمدٌ، ولم يكنْ بينهما إلا القريب، وتولَّىٰ نيابة بغداد عبدالله ابن إسحاق، كتب المتوكلُ إليه، أن يحمل إليه الإمام أحمد، فقال لأحمد في ذلك. فقال: إنِّي شيخٌ كبيرٌ وضعيفٌ. فردَّ الجواب علىٰ الخليفة بذلك، فأرسل يعزم عليه لتأتيَنِّي، وكتب إلىٰ أحمد يقول له: إنِّي أحبُّ أن آنسَ بقرْبك وبالنظر إليك، ويحصل لي بركةُ دعائك. فسار إليه الإمام أحمد -وهو عليلٌ- في بنيه وبعض أهله، فلمّا قارب العسْكرَ تلقَّاه وصيفٌ الخادمُ في موكب عظيم، فسَلَّم وصيفٌ علىٰ الإمام أحمد، فردَّ السلام، ثم قال له وصيفٌ: قد أمكنك الله من عدوِّك ابن أبي دواد. فلم يردَّ عليه جوابًا، وجعل ابنه يدعو الله للخليفة ولوصيفٍ. فلمّا وصلوا إلىٰ العسْكَرِ بسرَّ من رأىٰ، أنزل أحمد في دار إيتاخَ، فلمّا علمَ بذلك ارتحل منها، وأمر أن يستكرىٰ له دارٌ غيرها.

وكان رءوس الأمراء من كلِّ يومٍ يحضرون عنده، ويبلِّغونه عن الخليفة السلام، ولا يدخلون عليه حتىٰ يخلعوا ما عليهم من الزينة والسلاح، وبعث إليه الخليفة بالمفارش الوطيئة وغيرها من الآلات التي تليقُ بتلك الدار العظيمة.

وأراد منه الخليفة أن يقيم هناك ليحدث الناس عوضًا عما فاتهم منه في أيام المحنةِ وما بعدها من السنين الماضية المتطاولة، وهو محجوبٌ في داره، لا يخرجُ إلىٰ جماعة ولا إلىٰ جمعةٍ أيضًا، فاعتذرَ إليهم بأنَّه عليلٌ وأسنانُه تتحرَّكُ وهو ضعيفٌ. وكان الخليفة يبعث إليه في كلِّ يومٍ مائدةً فيها ألوانُ الأطعمةِ والفاكهةِ والثلجُ، ما يقاوم مائةً وعشرين درهمًا في كل يوم، والخليفة يحسبُ أنَّه يأكلُ من ذلك، ولم يكنْ أحمد يطعمُ شيئًا من ذلك بالكُلِّيَّة، بل كان صائمًا يطوي، فمكث ثمانية أيَّام لم يستطعمْ بطعامٍ، ومع ذلك هو عليلٌ، ثم أقسَمَ عليه ولده حتىٰ شربَ قليلاً من السَّويقِ بعد ثمانية أيام. وجاءه عبيدالله بن يحيىٰ بن خاقان بمالٍ جزيل من الخليفة؛ جائزةً له، فامتنع من قبولها، فألحَّ عليه الأمير فلم يقبلْ، فأخذها الأمير ففرَّقها علىٰ بنيه وأهله، وقال: إنه لا يمكن أن تردَّ علىٰ الخليفة جائزته. وكتب الخليفةُ لأهله وأولاده في كلِّ شهر بأربعةِ آلاف درهم، فمانع أبو عبدالله في ذلك، فقال الخليفة: لابدَّ من ذلك، وما هذا إلا لولدك. فأمسك أبو عبدالله عن ممانعته، ثم أخذ يلوم أهله وعمَّه وبني عمِّه، وقال لهم: إنَّما بقي لنا أيامٌ قلائلُ، وكأنَّنا وقد نزل بنا الموت، فإمّا إلىٰ جنة، وإمّا

إلى نار، فنخرج من الدُّنيا وبطوننا قد أخذتْ من مال هؤلاء. في كلام طويل يعظهم به. فاحتجُّوا عليه بالحديث الصحيح: «**ما جاءك من هذا المال وأنت غير سائل ولا مستشْرف فخذه**»(١) وبأنَّ ابن عمر وابن عباس قبلا جوائز السلطان. فقال: ما هذا وذاك سواءً، ولو أعلم أنَّ هذا المال أخذَ من حقِّه، وليس فيه ظلمٌ ولا جورٌ لم أُبالِ.

ولمّا استمرَّ ضعف أبي عبدالله جعل المتوكلُ يبعث إليه بابن ماسويْه المتطبِّب لينظرَ في مرضه، فرجع إليه فقال: يا أمير المؤمنين، إن أحمد بن حنبل ليس به علَّةٌ في بدنه، وإنَّما علَّته من قلة الطعام وكثرة الصيام والعبادة. فسكت المتوكلُ، ثم سألتْ أمُّ الخليفة منه أن ترىٰ الإمام أحمد، فبعث المتوكلُ إليه يسأله أن يجتمعَ بابنه المعتزِّ ويدعو له، ويكون في حجره. فتمنَّعَ من ذلك، ثم أجاب إليه؛ رجاء أن يعجِّلَ برجوعه إلىٰ أهله ببغداد. وبعث الخليفة إليه بخِلْعَةٍ سنِيَّةٍ ومرْكُوبٍ من مراكيبه، فامتنع من ركوبه؛ لأنَّه عليه ميثرة نمورٍ، فجيء ببغْلٍ لبعض التُّجار فركبه، وجاء إلىٰ مجلس المعتزِّ، وقد جلس الخليفة وأمُّه في ناحيةٍ في ذلك المجلس، من وراء سترٍ رقيقٍ. فلمّا جاء أحمد قال: السلام عليكم. وجلس ولم يسلمْ عليه بالإمرة، فقالتْ أمُّ الخليفة: الله الله يا بُنيَّ في هذا الرجل! تردُّه إلىٰ أهله، فإنَّ هذا ليس ممَّن يريد ما أنتم فيه. وحين رأىٰ المتوكلُ أحمد قال لأمِّه: يا أُمَّه، قد أنارَت الدارُ.

وجاء الخادمُ ومعه خِلْعَةٌ سَنِيَّةٌ مبطَّنةٌ وثوبٌ وقلنْسُوةٌ وطيلسانٌ، فألبسها الإمام أحمد بيده، وأحمد لا يتحرَّكُ بالكلِّية. قال الإمام أحمد: لمّا جلستُ إلىٰ المعتزِّ قال مؤدِّبُه: أصلح الله الأمير، هذا الذي أمر الخليفةُ أن يكون مؤدِّبَك. فقال: إنْ علَّمني شيئًا تعلَّمتُه. قال أحمد: فعجِبْتُ من ذكائه في صغره؛ لأنَّه كان صغيرًا جـدًّا. ثم خرج أحمد عنهم وهو يستغفر الله، ويستعيذ بالله من مقته وغضبه.

ثم بعد أيامٍ أذن له الخليفة بالانصراف، وهيَّأ له حرَّاقةً فلم يقبلْ أن ينحدرَ فيها، بل ركب في زورقٍ فدخل بغداد مختفيًا، وأمر أن تباع تلك الخِلْعةُ، وأن يتصدَّق بثمنها علىٰ الفقراء والمساكين. وجعل أيّامًا يتألَّمُ من اجتماعه بهم ويقول: سلمتُ منهم طول عمري ثم ابتليت بهم في آخره.

وكان قد جاع عندهم جوعًا عظيمًا كثيرًا حتىٰ كاد يهلك من الجوع. وقد قال بعض الأمراء للمتوكل علىٰ الله الخليفة: يا أمير المؤمنين، إنَّ أحمد بن حنبل لا يأكل لك طعامًا، ولا يشرب لك شرابًا، ولا يجلسُ علىٰ فرشك، ويحرِّمُ ما تشربه. فقال لهم: والله لو نشرَ المعتصمُ، وكلمني في أحمد ما قبلتُ منه. وجعلتْ رسلُ الخليفة تفد إليه في كل يوم؛ تستعلم أخباره وكيف حاله. وجعل يستفتيه في أموال ابن أبي دواد فلا يجيب بشيءٍ. ثم إنَّ المتوكل أخرج ابن أبي دوادٍ من سرَّ من رأىٰ إلىٰ بغداد بعد أن أشهد عليه نفسه ببيع ضياعه وأملاكه وأخذ أمواله كلِّها.

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٦٤) وغيره.

قال عبدالله بن أحمد: وحين رجع أبي من سامرّا إلى بغداد وجدنا عينيه قد دخلتا في موقيه، وما رجعتْ إليه نفسه إلا بعد ستَّة أشهر. وامتنع أن يدخل بيت قرابته، أو يدخل بيتًا هم فيه، أو ينتفعَ بشيء مّما هم فيه؛ لأجل قبولهم أموال السلطان.

وكان مسير أحمد إلى المتوكِّل في سنة سبع وثلاثين ومائتين، ثم مكث إلى سنة وفاته، قلَّ يومٌ إلا ورسالةُ المتوكل تفدُ إليه في أمور يشاوره فيها، ويستشيره في أشياء تقع له.

ولّما قدم المتوكل بغداد بعث إليه ابن خاقان ومعه ألف دينار؛ ليفرقها على من يرى، فامتنع من قبولها وتفرقتها، وقال: إن أمير المؤمنين قد أعفاني مما أكره فردَّها.

وكتب رجلٌ رقعةً إلى المتوكل يقول فيها: يا أمير المؤمنين، إنَّ أحمد بن حنبل يشتمُ آباءك ويرميهم بالزَّندقة. فكتب فيها المتوكل: أمَّا المأمونُ فإنَّه خلط فسلَّط الناس على نفسه، وأمّا أبي المعتصمُ فإنّه كان رجل حرْبٍ، ولم يكنْ له بصرٌ بالكلام، وأمَّا أخي الواثقُ فإنَّه استحقَّ ما قيل فيه. ثم أمر أن يضرب هذا الرجل الذي رفع إليه الرقعة مائتي سوط، فأخذه عبدالله بن إسحاق بن إبراهيم فضربه خمسمائة سوطٍ، فقال له الخليفةُ: لمَ ضربته خمسمائة سوطٍ؟ فقال: مائتين لطاعتك ومائتين لطاعة الله ورسوله، ومائةً لكونه قذف هذا الشيخ؛ الرجل الصالح أحمد بن حنبلٍ.

وقد كتب الخليفةُ إلى الإمام أحمد يسأله عن القول في القرآن؛ سؤال استرْشادٍ واستفادةٍ لا سؤال تعنُّتٍ ولا امتحانٍ ولا عنادٍ، فكتب إليه أحمد، رحمه الله، رسالةً حسنةً، فيها آثارٌ عن الصحابة وغيرهم، وأحاديثُ مرفوعةٌ، وقد أوردها ابنه صالحٌ في المحنة التي ساقها، وهي مرويَّةٌ عنه، وقد نقلها غيرُ واحد من الحفّاظ.

ذكر وفاة الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله

قال ابنه صالحٌ: كان مرضه في أول شهر ربيع الأوَّل من سنة إحْدى وأربعين ومائتين، ودخلت عليه يوم الأربعاء ثانيَ ربيع الأول، وهو محمومٌ يتنفَّسُ الصَّعداءَ وهو ضعيفٌ، فقلتُ: يا أبت ما كان غَداؤُك؟ فقال: ماءُ الباقلاَّ. ثم ذكر كثرة مجيء الناس من الأكابر وعموم الناس لعيادته، وكثرةَ جزَعِ الناس عليه، وكان معه خُرَيقةٌ فيها قُطَيْعاتٌ ينفقُ على نفسه منها، وقد أمر ولده عبدالله أن يطالبَ سكانَ ملكه وأن يُكفِّرَ عنه كفّارة يمينٍ، فأخذ شيئًا من الأجرة فاشترى تمرًا وكفَّر عن أبيه، وفضل منْ ذلك ثلاثةُ دراهم. وكتب الإمامُ أحمد وصيته:

(بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به أحمد بن محمد بن حنبلٍ، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحقِّ ليظهره على الدين كلِّه ولو كره المشركون. وأوصى منْ أطاعه من أهله وقرابته أن يعبدوا الله في العابدين، وأن يحمدوه في الحامدين، وأن ينصحوا لجماعة المسلمين، وأوصي أنِّي قد رضيتُ بالله ربًّا وبالإسلام دينًا

وبمحمد نبيًّا، وأوصي أنَّ لعبد الله بن محمد المعروف بفوران عليَّ نحوًا من خمسين دينارًا، وهو مصدَّقٌ فيما قال فيقضَى ما له عليَّ منْ غَلَّة الدار، إن شاء الله، فإذا استوفى أُعطِي ولدُ صالح كلُّ ذكر وأنثى عشرةَ دراهم».

ثم استدعى بالصبيان من ورثته فجعل يدعو لهم، وكان قد ولد له صبيٌّ قبلَ موته بخمسين يومًا فسمّاه سعيدًا، وكان له ولدٌ آخر اسمه محمدٌ قد مشى حين مرض الإمام أحمد، فدعاه فالتزمه وقبَّله، ثم قال: ما كنتُ أصنَعُ بالولد على كبر السنِّ؟ فقيل له: ذريةٌ تكونُ بعدك يدعون لك. قال: وذاك. وجعل يحمد الله، عزَّ وجلَّ. وقد بلغه في مرضه عن طاووس أنه كان كره الأنين في المرض، فترك الأنين فلم يئنَّ حتى كانت الليلةُ التي توفِّي في صبيحتها، وكانت ليلة الجمعةِ الثانيَ عشرَ من ربيع الأول من هذه السنة، فأنَّ حين اشتد عليه الوجعُ. وقد روي عن ابنه عبدالله، ويُروى عن صالح، وقد يكون عن كلٍّ منهما أنه قال: لَمَّا احتضر أبي، رحمه الله، جعل يكثر أن يقول: لا بعد، لا بعد، فقلت: يا أبت، ما هذه اللفظةُ التي لهجت بها في هذه الساعة؟ فقال: يا بنيَّ، إن إبليس واقفٌ في زاوية البيت وهو عاضٌّ على أُصبُعِه وهو يقول: فُتَّني يا أحمدُ؟ فأقول: لا بعد لا بعدُ. يعني أنَّه لا يفوتُه حتى تخرجَ رُوحُه من جسده على التوحيد، كما جاء في بعض الأحاديث، قال إبليسُ: يا ربِّ، وعزَّتك وجلالك ما أزالُ أُغويهم ما دامتْ أرواحهم في أجسادهم. فقال: وعزَّتي وجلالي ولا أزالُ أغفرُ لهم ما استغفروني.

وأحسن ما كان من أمره أنه أشار إلى أهله أن يوضِّئوه فجعلوا يوضِّئونه وهو يشيرُ إليهم أن خلِّلوا أصابعي، وهو يذكر الله في جميع ذلك، فلما أكملوا الوضوء توفيٍّ رحمه الله ورضي عنه.

وقد كانت وفاة الإمام أحمد، رضي الله تعالى عنه، صبيحة يوم الجمعة حين مضى نحوٌ من ساعتين من النهار، فاجتمع الناس في الشوارع، وبعث محمد بن عبدالله بن طاهر حاجبه ومعه غلمانٌ يحملون مناديل فيها أكفانٌ، وأرسل يقولُ: هذا نيابةٌ عن الخليفة، فإنه لو كان حاضرًا لبعث بهذا. فأرسل أولاده يقولون: إنَّ أمير المؤمنين كان قد أعفاه في حياته ممّا يكره، وهذا مِمَّا يكره، وأبوا أن يكفِّنوه في تلك الأثواب، وأتوا بثوب كان قد غزلته جاريته، فكفَّنوه فيه، واشتروا معه عوزَ لفافةٍ وحنوطًا، واشتروا له راوية ماءٍ، وامتنعوا أن يغسِّلوه بماءٍ من بيوتهم؛ لأنه كان قد هجر بيوتهم فلا يأكلُ منها ولا يستعير من أمتعتهم شيئًا، وكان لا يزال متغضِّبًا عليهم؛ لأنهم كانوا يتناولون ما رتِّب لهم على بيت المال، وهو في كلِّ شهر أربعةُ آلاف درهم، وكانوا عالةً فقراء. وحضر غسْله نحوٌ من مائةٍ من بيت الخلافة من بني هاشم، فجعلوا يقبِّلون بين عينيه، ويدعون له، ويترحَّمون عليه. وخرج الناس بنعشه والخلائق حوله من الرجال والنساء ما لا يعلم عددهم إلا الله، ونائب البلد محمد بن عبدالله بن طاهر واقفٌ في الناس، فتقدَّم خطواتٍ فعزَّى أولاد الإمام أحمد فيه، وكان هو الذي أمَّ الناس في الصلاة عليه، وقد أعاد جماعةٌ من الناس الصلاة على القبر بعد الدفن من أجل ذلك، ولم

يستقرَّ في قبره، رحمه الله، إلا بعد صلاة العصر وذلك لكثرة الخلق.

وقد روى البيهقيُّ وغير واحد أن الأمير محمد بن عبدالله بن طاهر أمر بحزْر الناس، فوجدوا ألف ألف وثلاثمائة ألف، وفي رواية: وسبعمائة ألف سوى من كان في السُّفن. وأقلُّ ما قيل: سبعمائة ألف.

وقال ابن أبي حاتم: سمعت أبا زرعةَ يقول: بلغني أن المتوكِّلَ أمر أن يمسح الموضع الذي وقف الناسُ عليه حيثُ صلِّيَ على أحمد بن حنبل، فبلغ مقام ألفي ألف وخمسمائة ألف.

قال الحافظ أبو بكر البيهقيُّ، عن الحاكم: سمعت أبا بكر أحمد بن كامل القاضي يقول: سمعت محمد بن يحيى الزَّنْجانيَّ، سمعت عبدالوهاب الورَّاق يقول: ما بلغنا أنَّ جمعًا في الجاهلية والإسلام كان أكثر من الجمع على جنازة أبي عبدالله.

وقال أبو محمد عبدالرحمن بن أبي حاتم: حدَّثني محمد بن العباس المكيُّ، سمعت الورْكانيَّ - جار أحمد بن حنبل - قال: أسلم يوم مات أحمدُ عشرون ألفًا من اليهود والنصارى والمجوس، ووقع المأتم في المسلمين واليهود والنصارى والمجوس. وفي بعض النسخ: أسلم عشرةُ آلاف بدل عشرين ألفًا. فالله أعلم.

وقال الدَّارقُطنيُّ: سمعت أبا سهل بن زياد، سمعت عبدالله بن أحمد يقول: سمعت أبي يقول: قولوا لأهل البدع: بيننا وبينكم الجنائز. وقد صدَّق الله قوله في هذا، فإنه، رحمه الله، كان إمام السنة في زمانه، وعيونُ مخالفيه أحمد بن أبي دواد القاضي لم يحتفلْ أحدٌ بموته، ولا شيَّعَه أحدٌ من الناس إلا القليل، وكذلك الحارثُ بن أسد المحاسبيُّ مع زهده وورعه وتنقيره ومحاسبته نفسه في خطراته وحركاته، لم يصلِّ عليه إلا ثلاثةٌ، أو أربعةٌ من الناس، فلله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ.

وقد روى البيهقيُّ، عن حجَّاج بن محمد الشاعر أنه قال: ما كنتُ أُحبُّ أن أُقتلَ في سبيل الله ولم أصلِّ على الإمام أحمد. وروي عن رجل من أهل العلم أنه قال يوم دفنَ أحمدُ: دفن اليوم سادس خمسة؛ وهم أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليٌّ، وعمر بن عبدالعزيز، رحمهم الله. وكان عمرُه، رحمه الله، يوم توفِّي سبعًا وسبعين سنةً وأيامًا أقلَّ من شهر.

ذكر ما رئي من المنامات الصالحة التي رآها الإمام أحمد ورئيت له

وقد صحَّ في الحديث: «لم يبق من النبوة إلا المبشِّراتُ وفي رواية إلاَّ الرؤيا الصالحةُ - يراها المؤمنُ أو ترى له»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٩٠) ومسلم (٤٧٩) من حديث ابن عباس.

وروى البيهقيُّ، عن الحاكم، سمعت عليَّ بن حمشاذ، سمعت جعفر بن محمد بن الحسين، سمعت سلمة بن شبيب يقول: كنا عند أحمد بن حنبل وجاءه شيخٌ ومعه عكَّازةٌ فسلَّم وجلس، فقال: من منكم أحمد بن حنبل؟ فقال أحمد: أنا، ما حاجتك؟ فقال: ضربت إليك من أربعمائة فرسخ، أريت الخضرَ في المنام فقال لي: سرْ إلى أحمد بن حنبل وسلْ عنه، وقل له: إن ساكنَ العرش والملائكة راضون عنك بما صبرتَ نفسك لله، عزَّ وجلَّ. وعن أبي عبدالله محمد بن خزيمة الاسكندرانيِّ قال: لما مات أحمد بن حنبل اغتممتُ غمًّا شديدًا، فرأيته في المنام وهو يتبختر في مشيته فقلت له: يا أبا عبدالله، أيُّ مشية هذه؟ فقال: مشيةُ الخدّام في دار السلام. فقلت: مافعل الله بك؟ قال: غفر لي وتوّجني، وألبسني نعلين من ذهب، وقال لي: يا أحمد، هذا بقولك: القرآنُ كلامي. ثم قال لي: يا أحمد، ادعُني بتلك الدعوات التي بلغتك عن سفيان الثوريِّ وكنت تدعو بهنَّ في دار الدنيا. قال: قلتُ: يا ربَّ كلِّ شيء، بقدرتك على كلِّ شيء، اغفر لي كلَّ شيء، حتى لا تسألني عن شيء. فقال لي: يا أحمد، هذه الجنةُ قمْ فادخلها. فدخلتُ، فإذا أنا بسفيان الثوريِّ وله جناحان أخضران يطير بهما من نخلة إلى نخلة، وهو يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤]. قال: فقلت له: ما فعل بشرٌ الحافي؟ فقال: بخٍ بخٍ، ومن مثل بشر؟ تركته بين يدي الجليل وبين يديه مائدةٌ من الطعام والجليلُ مقبلٌ عليه وهو يقول: كلْ يا من لم يأكلْ، واشربْ يا من لم يشربْ، وانعمْ يا من لم ينعمْ. أو كما قال. وقال أبو محمد بن أبي حاتم، عن محمد بن مسلم بن وارة قال: لما مات أبو زرعة رأيته في المنام، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: قال ليَ الجبارُ: ألحقوه بأبي عبدالله، وأبي عبدالله، وأبي عبدالله؛ مالكٍ، والشافعيِّ، وأحمد بن حنبل. وقال عثمانُ بن خرَّزاذ الأنطاكيُّ: رأيت في المنام كأنّ القيامة قد قامتْ وقد برز الربُّ لفصل القضاء، وكأنَّ مناديًا ينادي من تحت بطنان العرش: أدخلوا أبا عبدالله، وأبا عبدالله، وأبا عبدالله، وأبا عبد الله الجنة. قال فقلت لملك إلى جانبي: منْ هؤلاء؟ فقال: مالكٌ، والثوريُّ، والشافعيُّ، وأحمد بن حنبل. وقال أبو بكر بن أبي خيثمة، عن يحيى ابن أيوب المقدسيِّ قال: رأيت رسول الله ﷺ في النوم وهو نائمٌ وعليه ثوبٌ مغطًى، وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين يذبَّان عنه. وتقدَّم في ترجمة أحمد بن أبي دواد عن يحيى الجلاّء أنه رأى كأنّ أحمد بن حنبل في حلْقة بالمسجد الجامع وأحمد بن أبي دواد في حلقة أخرى، وكأنَّ رسول الله ﷺ واقفٌ بين الحلقتين وهو يتلو هذه الآية: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ﴾. ويشيرُ إلى حلقة ابن أبي دواد وأصحابه ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الانعام: ٨٩]. ويشيرُ إلى أحمد بن حنبل وأصحابه.

ثم دخلت سنة ثنتين وأربعين ومائتين

فيها كانت زلازل هائلةٌ في البلاد، فمن ذلك ما كان بمدينة قومس، تهدَّمت منها دورٌ كثيرةٌ، ومات من أهلها نحوٌ من خمسةٍ وأربعين ألفًا وستَّةٍ وتسعين نفسًا، وكانت باليمن وخراسان وفارس والشام وغيرها من البلاد زلازلُ منكرةٌ.

وفيها أغارت الرومُ على بلاد الجزيرة، فانتهبوا شيئًا كثيرًا وأسروا نحوًا من عشرة آلاف من الذَّراريِّ، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وحجَّ بالناس فيها عبدُ الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم الإمام بن محمد بن عليٍّ نائبُ مكَّة.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الحسن بن عليِّ بن الجعد، قاضي مدينة المنصور.

وأبو حسَّان الزِّياديُّ، قاضي الشرقيَّة. واسم أبي حسّان الزياديِّ الحسنُ بن عثمان بن حماد بن حسَّانَ بن عبدالرحمن بن يزيد البغداديُّ، سمع الوليد بن مسلم، ووكيع بن الجرّاح، والواقديَّ، وخلقًا سواهم. وعنه أبو بكر ابن أبي الدُّنيا، وعليُّ بن عبدالله الفرغانيُّ الحافظ المعروفُ بكَعَط وجماعةٌ. ترجمه الحافظُ ابن عساكر في «تاريخه». قال: وليس هو من سلالة زياد بن أبيه، إنما تزوَّج بعض أجداده، بأمِّ ولدٍ لزياد، فقيل له: الزياديُّ. ثم أورد من حديثه بسنده عن جابر: «**الحلالُ بيِّنٌ والحرامُ بيِّنٌ**» الحديث[1]. وروى عن الخطيب أنه قال: كان من العلماء الأفاضل من أهل المعرفة والثقة والأمانة، ولي قضاءَ الشرقيَّة في خلافة المتوكلِ، وله تاريخٌ حسنٌ، وله حديثٌ كثيرٌ. وقال غيره: كان صالحًا دينًا قد عمل الكتُبَ، وكانت له معرفةٌ بأيام الناس، وله تاريخٌ حسنٌ، وكان كريمًا مفضالاً.

وقد ذكر ابن عساكر عنه أشياء حسنةً؛ منها أنه أنفذ إليه بعض أصحابه يذكر أنَّه قد أصابته ضائقةٌ في عيدٍ من الأعياد، ولم يكنْ عنده غيرُ مائة دينارٍ، فأرسلها بصرَّتها إليه، ثم سأل ذلك الرجل صاحبٌ له أيضًا يشكو مثل تلك الحال، فأرسل بها إليه، وكتب أبو حسَّان إلى ذلك الرجل الذي أخذ المائة يستقرضُ منه شيئًا، وهو لا يشعرُ بالأمر، فأرسل إليه بالمائة في صرَّتها، فلمّا رآها تعجَّب من أمرها وركب إليه وسأله عن ذلك، فذكر أنَّ فلانًا أرسلها إليه، فاجتمع الثلاثة واقتسموا المائة دينارٍ، رحمهم الله وجزاهم عن مروءاتهم خيرًا.

وأبو مصعب الزُّهري، أحد رواة «الموطأ» عن مالك. وعبدالله بن ذكوان، أحد القراء المشاهير. ومحمد بن أسلم الطوسيُّ. ومحمد بن رمح. ومحمد بن عبدالله بن عمار الموصليُّ، أحد أئمة الجرح والتعديل. والقاضي يحيى بن أكثم.

---

(١) **صحيح**: من حديث أخرجه البخاري ومسلم من حديث النعمان بن بشير.

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين ومائتين

في ذي القعدة منها توجَّه المتوكلُ على الله من العراق قاصداً مدينة دمشق؛ ليجعلها دار إقامته ومحلَّة إمامته، فأدركه عيد الأضحى وهو بمدينة بَلَدَ فضحَّى بها، وتأسَّف أهل العراق على ذلك، فقال في ذلك يزيدُ بن محمد المهلَّبيُّ:

أظنُّ الشــــام تشــــمتُ بالعـــــراق	إذا عــــــزمَ الإمـــــامُ على انطلاق
فــــإنْ تَدَع العــــراق وســــاكنيهـــــا	فــقــــد تُبلى المليــحـــةُ بالطَّلاقِ

وحجَّ بالناس فيها عبدُ الصمد المذكورُ في التي قبلها وهو نائبُ مكة.

قال ابن جرير: وفيها توفِّي إبراهيم بن العباس، فوليَ ديوان الضِّياع الحسن بن مخلد بن الجرّاح خليفة إبراهيم في شعبان. قلت: إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول الصُّوليُّ، الشاعر الكاتبُ المشهورُ، هو عم محمد بن يحيى الصُّوليِّ، وكان جدُّه صولٌ ملك جرجان، وكان أصله منها، ثم تمجَّس ثم أسلم على يديْ يزيد بن المهلَّب بن أبي صفرة. ولإبراهيم هذا ديوانُ شعرٍ ذكره ابن خلكانَ، واستجاد من شعره أشياء؛ منها قوله:

ولربَّ نازلة يضــيق بهـــا الفـــتى	ذرعــاً وعند الله منهــا مخــرجُ
ضــاقت فلمَّا اســتحكمتْ حلقاتهـا	فُــرجتْ وكــان يظنُّهــا لا تفــرجُ

ومنها قوله:

كنـت السَّــــــواد لمقلتـي	فـــبكى عليكَ الناظرُ
من شـــاء بعـــدكَ فليمُتْ	فــعليك كنتُ أحـــاذرُ

ومن ذلك ما كتب به إلى وزير المعتصم محمد بن عبدالملك بن الزَّيَّات:

وكنت أخي بإخـــاء الزمـــانِ	فلمّـا نبـا صـرْتَ حـرباً عـوانا
وكنـتُ أذمُّ إليـك الزمــــانَ	فـأصـبـحتُ منك أذمُّ الزمـانا
وكنتُ أعــــدُّكَ للنائبـــاتِ	فــهـا أنا أطلبُ منك الأمـانا

وله:

لا يمنعنَّكَ خـفضَ العـيشِ في دَعَـةٍ	نـزوعُ نـفـسٍ إلـى أهـلٍ وأوطــانِ
تلقى بكلِّ بلادٍ إن حللت بهـا	أهلاً بأهلٍ وجيــرانًا بجيــرانِ

وكانت وفاته في منتصف شعبان من هذه السنة بسُرَّ من رأى، رحمه الله.

قال: ومات هاشم بن بنجور في ذي الحجَّة.

قلت: وفيها توفي: أحمد بن سعيد الرباطي. والحارث بن أسدٍ المحاسبيُّ، أحدُ أئمة الصوفية. وحرملةُ بن يحيى التُّجيبيُّ، صاحبُ الشافعي. وعبدالله بن معاوية الجمحيُّ. ومحمد بن عمر العدنيُّ. وهارون بن عبدالله الحمَّالُ. وهنَّادُ بن السَّريِّ.

ثم دخلت سنة أربع وأربعين ومائتين

في صفر منها دخَل الخليفةُ المتوكِّلُ إلى مدينة دمشقَ في أُبَّهَة الخلافة، وكان يومًا مشهودًا ـ وكان عازمًا على الإقامة بها ـ وأمَر بنقلِ دواوين المُلك إليها، وأمَر ببناء القصور بها، فبُنيتْ بطريق داريّا، فأقام بها مدةً، ثم إنَّه استوخَمها، ورأى أنَّ هواءَها باردٌ نَدِيٌّ وماءَها ثقيلٌ بالنسبة إلى هواء العراق ومائه، ورأى الهواءَ بها يتحرَّكُ من بعد الزَّوال في زمن الصيف، فلا يزالُ في اشتدادٍ وغُبارٍ إلى قريب من ثُلُث الليل، ورأى كثرةَ البراغيث بها، ودخَل عليه فصلُ الشتاء فرأى من كثرة الأمطار والثلوج أمرًا عجيبًا، وغلَت الأسعارُ وهو بها، وانقطَعت الأجلابُ بسبب كثرة الأمطار والثلوج، فضجِر منها، فجهَّز بُغًا إلى بلاد الروم، ثم رجَع في آخر السنة إلى سامَرًّا بعدَ ما أقامَ بدمشقَ شهرين وعشرةَ أيام، فاللهُ أعلَمُ.

وفي هذه السنة أُتِي المتوكِّلُ بالحَرْبة التي كانت تُحمَلُ بينَ يَدَي رسول الله ﷺ يومَ العيد وغيرَه، وقد كانت للنجاشيِّ فوهَبها للزُّبير بن العوَّام، فوهَبها الزبيرُ للنبيِّ ﷺ، فلما صارت إلى المتوكل على الله فرح بها فرحًا شديدًا، وأمرَ صاحبَ الشرطة أن يحملَها بينَ يدَيه كما كانت تُحمَلُ بينَ يَدَي رسول الله ﷺ.

وفيها غضبَ المتوكِّلُ على الطبيب بَخْتَيْشُوعَ ونفاهُ وأخَذ مالَه.

وحجَّ بالناس فيها عبدُ الصمد المذكور قبلَها.

واتفَقَ في هذه السنة يومُ عيد الأضحَى وعيد الفطر لليهود وشعانين النَّصارَى، وهذا أمرٌ عجيبٌ غريبٌ.

وممن توفِّي فيها من الأعيان:

أحمدُ بْنُ منيع، و **إسحاقُ** بْنُ موسى الخَطْمِيُّ، **وحُمَيْدُ** بْنُ مَسْعَدَةَ، **وعبدُ الحميد** بْنُ بيَانٍ، **وعليُّ** ابنُ حُجر، **والوزيرُ محمدُ** بْنُ عبد الملك بن الزَّيَّات، **ويعقوبُ** بْنُ السِّكِّيت صاحبُ إصلاح المنطق.

ثم دخلت سنة خمس وأربعين ومائتين

فيها أمَر المتوكلُ ببناء مدينة المَاحُوزَة وحَفْر نهر لها، فيقالُ: إنَّه أنفق على بنائها وبناء قصر للخلافة فيها يقال له: اللؤلؤةُ. ألفَي ألف دينار.

وفي هذه السنة وقَعتْ زلازلُ كثيرةٌ في بلادٍ شتَّى، فمن ذلك بمدينة أنطاكيَةَ بحيثُ سقَط فيها ألفٌ وخمسُمائة دارٍ، وانهدَم من سورها نيِّفٌ وتسعونَ بُرْجًا، وسُمعتْ من كُوَى دُورها أصواتٌ مُزعجةٌ جدًّا، فخرَجوا من منازلهم سراعًا يُهْرَعُون، وسقَط الجبلُ الذي إلى جانبها الذي يُقالُ له الأقْرَعُ، فساخ في البَحْرِ، فهاج البحرُ عندَ ذلك وارتفَعَ منه دُخَانٌ أسودُ مظلمٌ مُنتِنٌ، وغار نهرٌ على فرسخ

منها، فلا يُدْرَىٰ أين ذهَب. ذكرَ أبو جعْفرِ بنُ جريرٍ، قال: وسمع فيها أهلُ تِنِّيسَ ضجةً دائمةً طويلةً مات منها خلقٌ كثيرٌ. قال: وزُلزلت فيها بالسُ والرَّقَّةُ وحرَّانُ ورأسُ العَيْنِ وحِمْصُ ودمشْقُ والرُّها وطَرَسُوسُ والمَصِّيصَةُ، وأذَنَةُ، وسواحلُ الشَّام، ورجفت اللاذِقيَّةُ فما بقِي منها منزلٌ إلا انهدَم، ولا بقِيَ من أهلها إلاَّ اليسيرُ، وذهَبت جَبَلةُ بأهلها.

وفيها غارتْ مُشَاشُ - عينٌ بمكةَ - حتىٰ بلَغ ثَمَنُ القِرْبَةِ بمكةَ ثمانينَ درهمًا. حتىٰ بعَث المتوكلُ فأنفَقَ عليها. قال: وفيها مات إسحاقُ بنُ أبي إسرائيلَ، وسَوَّارُ بنُ عبدِ القاضي، وهلالٌ الرَّازيُّ، وفيها هلكَ نجاحُ بنُ سلمةَ، كان على ديوانِ التوقيعِ، وقد كان حظيًا عندَ المتوكِّلِ، ثم جرَتْ له كائنةٌ أفضَت به إلىٰ أن أمَر المتوكِّلُ بأخذِ أمواله وأملاكِه وحواصله، وقد أورَد قصتَه ابنُ جَريرٍ مطولةً.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

أحْمدُ بنُ عبدةَ الضَّبِّيُّ، وأبو الحسنِ القوَّاسُ؛ مُقرِئُ مكةَ، وأحمدُ بنُ نصرٍ النَّيسَابُوريُّ، وإسحاقُ ابن أبي إسرائيلَ، وإسماعيلُ بنُ موسىٰ، ابنُ بنتِ السُّدِّيِّ، وذو النُّونِ المصريُّ، وسوّارٌ القاضي، وعبدُ الرحمنِ بنُ إبراهيمَ؛ دُحَيْمٌ، ومحمدُ بنُ رافعٍ، وهشامُ بنُ عمَّارٍ، وأبو تُرابٍ النَّخْشَبِيُّ.

وابنُ الرَّاوَنْديِّ الزِّنْديقُ، أحمدُ بنُ يحيىٰ بنِ إسحاقَ، أبو الحسينِ بنُ الرَّاوَنْديِّ، نسبةً إلىٰ قريةٍ ببلادِ قاسَانَ ثم نشَأ ببغدادَ، كان بها يصنِّفُ الكُتُبَ في الزَّندقةِ، وكانت لدَيه فضيلةٌ، لكنه استعمَلها فيما يضُرُّه ولا ينفعُه في الدُّنيا والآخرة. وقد ذكَرنا له ترجمةً مطولةً حَسَبَ ما ذكرَها ابنُ الجَوزيِّ، وإنَّما ذكَرناه ههنا؛ لأنَّ القاضيَ ابنَ خَلِّكان ذكَر أنَّه تُوفِّي في هذه السنة، وقد تلبَّس عليه ولم يُجرِّحْه بشيءٍ أصلاً، بل مدَحه فقال: أبو الحسينِ أحمدُ بنُ يحيىٰ بنِ إسحاقَ الراوَنْديُّ العالمُ المشهورُ، له مقالةٌ في علمِ الكلامِ، وكان مِن الفضلاءِ في عصرِه، وله مِن الكتُبِ المصنَّفةِ نحوٌ من مائةٍ وأربعةَ عشَر كتابًا، منها كتابُ «فضيحةِ المعتزلة»، وكتابُ «التاج»، وكتاب «الزُّمردة»، وكتابُ «القصب» وغيرُ ذلك، وله محاسنُ ومحاضراتٌ مع جماعةٍ مِن علماءِ الكلامِ، وقد انفرَد بمذاهبَ نقَلها عنه أهلُ الكلامِ في كتبِهم، تُوفِّي سنةَ خمسٍ وأربعينَ ومائتين، برحبةِ مالكِ بنِ طَوْقٍ التغلبيِّ، وقيل: ببغدادَ. وتقديرُ عمرِه أربعونَ سنةً، وذُكر في «البستان» أنه تُوفِّي سنةَ خمسين، فاللهُ أعلمُ، هذا لفظُه بحروفه. وإنَّما أرَّخ ابنُ الجَوْزيِّ وفاتَه في سنة ثمانٍ وتسعينَ ومائتين، وسيأتي له ترجمةٌ مطوَّلةٌ.

ذو النون المصريُّ؛ ثوبانُ بنُ إبراهيمَ - وقيل: الفيضُ بنُ إبراهيمَ - أبو الفيضِ المصريُّ، أحدُ المشايخِ المذكورين في رسالة القشيريِّ، وقد ترجَمه القاضي ابنُ خَلِّكانَ في «الوفيات»، وذكَر شيئًا من فضائله وأحواله، وأرَّخ وفاتَه في هذه السنةِ، وقيل: في التي بعدَها، وقيلَ: في سنةِ ثمانٍ وأربعين ومائتين. واللهُ أعلمُ.

وهو معدودٌ في جملةِ مَن روَىٰ الموطَّأ عن مالكٍ. وذكَره ابنُ يونُسَ في «تاريخِ مصرَ»، وقال: كان أبوه نوبيًّا، وقيل: مِن أهلِ إخْميمَ، وكان حكيمًا فصيحًا، قيل: وسُئِل عن سببِ توبتِه، فذكَر أنه

رأىٰ قُنبرةً عَمياءَ نزَلت من وكرِها فانشقَّتْ الأرضُ عن سُكُرَّجَتَيْن من ذهَبٍ وفضةٍ في إحداهما سِمسمٌ، وفي الأخرىٰ ماءٌ، فأكلْتُ من هذه، وشربتُ من هذه، وقد شُكي مرَّةً إلىٰ المتوكلِ فأحضرَه من مصرَ إلىٰ العراقِ، فلمّا دخَل عليه وعَظه فأبكاه، فردَّه مُكرَمًا إلىٰ بلدِه، فكان بعدَ ذلك إذا ذُكر عندَه بكىٰ عليه.

ثم دخلت سنة ست وأربعين ومائتين

في يوم عاشوراءَ منها دخَل المتوكلُ المَاحُوزةَ، فنزَل بقَصرِ الخلافة منها، واستدْعَىٰ بالقُرَّاءِ، ثم بالمُطرِبينَ، وأعطَىٰ وأطلَقَ، وكان يومًا مشهودًا.

وفي صفر منها وقَع الفداءُ بينَ المسلمين والروم، ففُودِي من المسلمين نحوٌ من أربعة آلاف أسير.

وفي شعبانَ منها مُطرتْ بغدادُ مطرًا عظيمًا استمرَّ نحوًا من أحدٍ وعشرينَ يومًا، ووقَعَ بأرضِ بَلْخَ مطرٌ ماؤُه دمٌ عبيطٌ.

وفيها حجَّ بالناسِ محمد بنُ سليمانَ الزَّيْنبيُّ، وحجَّ فيها من الأعيانِ محمدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ، وولي هو أمرَ المَوسِم.

وممن تُوفِّي فيها من الأعيان:

أحمدُ بنُ إبراهيمَ الدَّوْرَقيُّ، **والحُسينُ** بنُ الحسنِ المَروَزيُّ، **وأبو عُمرَ** الدُّوريُّ؛ أحدُ القراء المشاهير، **ومحمدُ** بنُ مُصَفَّىٰ الحِمْصيُّ.

ودعْبلُ بنُ عليِّ بن رزين بن سليمانَ الخُزاعيُّ، مولاهم، الشاعرُ الماجنُ، البليغُ في المدحِ، وفي الهجاء أكثرُ. قال: حضَر يومًا عندَ سهلِ بن هارونَ الكاتبِ وكان بخيلاً، فاستدعَىٰ بغَدائه فإذا ديكٌ في قَصعةٍ، وإذا هو عاسٍ لا يقطَعُه سكِّينٌ، ولا يعمَلُ فيه ضِرْسٌ، فُقد رأسُه، فقال للطباخ: ويلَك، ماذا صنَعتَ به؟ أين رأسُه؟ قال: ظنَنتُ أنك لا تأكلُه فألقيتُه. فقال: ويحَك، واللهِ إنِّي لأعيبُ علىٰ مَن يُلقِي الرجلَيْن فكيف بالرأس، وفيه الحواسُّ الأربعُ، ومنه يصوِّتُ وبه فُضِّل، وعيناه يُضرَبُ بهما المثلُ، وعُرْفُه وبه يُتبرَّكُ، وعظمُه أهشُّ العظام، فإن كنتَ رغِبتَ عن أكله فأحضِرْه. فقال: لا أدري أين هو؟. فقال: بل أنا أدري، هو في بطنك، قاتلك اللهُ.

أحمدُ بن أبي الحَوَاريِّ، واسمُه عبدُ الله بنُ ميمونِ بنِ عبّاسِ بنِ الحارث، أبو الحسنِ التَّغلبيُّ الغَطَفانيُّ؛ أحدُ الزهادِ المشهورين، والعبَّادِ المذكورين، والأبرارِ المشكورين، ذوي الأحوالِ الصالحة، والكراماتِ الصادقة، أصلُه من الكوفة، وسكَن دمَشقَ، وتتلمَذَ للشيخِ أبي سليمانَ الدَّارانيِّ، رحمهما اللهُ. وروَىٰ الحديثَ عن سفيانَ بنِ عُيَيْنةَ، ووكيعٍ، وأبي أسامةَ، وخلقٍ. وعنه أبو داودَ، وابنُ ماجه، وأبو حاتمٍ، وأبو زُرعةَ الدِّمَشقيُّ، وأبو زرعةَ الرازيُّ، وخلقٌ كثيرٌ. ذكَره أبو حاتمٍ فأثنَىٰ عليه. وقال يحيىٰ بنُ مَعينٍ: إنِّي لأظُنُّ أن اللهَ يسقِي أهلَ الشامِ به. وكان الجُنَيْدُ بنُ محمدٍ

يقولُ: هو ريحانةُ الشام.

وقد روىٰ الحافظُ ابنُ عساكرَ أنَّه كان قد عاهدَ أبا سليمانَ الدَّارانيَّ ألا يُغضبَه ولا يخالفَه، فجاءَه يومًا وهو يحدِّثُ الناسَ فقال: يا سيِّدي، قد سجَروا التنُّورَ فماذا تأمُرُ؟ فلم يَرُدَّ عليه أبو سليمانَ؛ لشغله بالناس، ثم أعادَها أحمدُ ثانيةً وثالثةً، فقال له في الثالثة: اذهَبْ فاقعُدْ فيه. ثم اشتغَل أبو سليمانَ في حديث الناس ثم استفاق فقال لِمَن حضَره: إنِّي قلتُ لأحمدَ: اذهَبْ فاقعُدْ في التنُّورِ، وإنِّي أخشَىٰ أن يكونَ قد فعَل ذلك، فقوموا بنا إليه. فذهَبوا فوجَدوه جالسًا في التنُّورِ، ولم يحترقْ منه شَعْرةٌ واحدةٌ.

وروىٰ أيضًا أنَّ أحمدَ بنَ أبي الحوَاريِّ أصبَح ذاتَ يومٍ وقد وُلِدَ له ولدٌ، ولا يملِكُ شيئًا يُصلِحُ به الولدَ، فقال لخادمه: اذهَب فاستَدِنْ لنا وَزْنةً من دقيقٍ، فبينما هو في ذلك إذ جاءَه رجلٌ بمائتَي درهمٍ فوضَعها بينَ يدَيه، فدخَل عليه رجلٌ في تلك الساعة فقال: يا أحمدُ، إنَّه قد وُلِدَ لي الليلةَ ولدٌ ولا أملِكُ شيئًا، فرفَع أحمدُ طَرْفَه إلىٰ السماء وقال: يا مولايَ، هكذا بالعَجَلة! وقال للرجُلِ: خذْ هذه الدراهمَ لك، ولم يأخذْ منها درهمًا، واستدانَ لأهله دقيقًا.

وروىٰ عنه خادمُه أنه خرَج إلىٰ الثغرِ للرِّباط، فما زالت الهدايا تفدُ إليه من بَكرةِ النهارِ إلىٰ الزوالِ، ثم فرَّقها كلَّها إلىٰ وقتِ الغروبِ، ثم قال لي: كُنْ هكذا لا ترُدَّ علىٰ الله شيئًا، ولا تدَّخِرْ عنه شيئًا.

ولما جاءت المحنةُ زمَنَ المأمونِ إلىٰ دمشقَ بخلقِ القرآنِ، عُيِّن فيها أحمدُ بن أبي الحواريِّ، وهشامُ ابنُ عمارٍ، وسليمانُ بنُ عبدِ الرحمنِ، وعبدُ الله بنُ ذكوانَ، فكلُّهم أجابوا إلاَّ أحمدَ بنَ أبي الحواريِّ، فحُبِس بدارِ الحجارة، ثم هُدِّدَ فأجاب توريَةً مُكرَهًا، ثم أُطلِق رحمه اللهُ. وقد قام ليلةً بالثَّغرِ يكررُ هذه الآية: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. حتىٰ أصبحَ، وقد ألقَىٰ كتُبَه في البحرِ، وقال: نِعْمَ الدليلُ كُنت لي علىٰ الله وإليه، ولكنَّ الاشتغالَ بالدليلِ بعدَ معرفةِ المدلول عليه والوصولِ إليه محالٌ. ومن كلامه: لا دليلَ علىٰ الله سواه، وإنما يُطلبُ العلمُ لآدابِ الخدمة. وقال: مَن عرَف الدنيا زهِد فيها، ومَن عَرف الآخرةَ رغِب فيها، ومَن عرَف اللهَ آثَر رضاه. وقال: مَن نظَر إلىٰ الدنيا نظَرَ إرادةٍ وحُبٍّ لها أخرَج اللهُ نورَ اليقينِ والزهدَ من قلبه. وقال أيضًا: قلتُ لأبي سليمانَ الدارانيِّ في ابتداءِ أمْري: أوْصني. فقال: أمستوصٍ أنت؟ قلت: نعم إن شاء اللهُ تعالىٰ. فقال: خالِفْ نفسَك في كلِّ مرادٍ لها؛ فإنَّها الأمَّارةُ بالسوء، وإياك أن تحقِرَ أحدًا من المسلمين، واجعلْ طاعةَ الله دثارًا، والخوفَ منه شعارًا، والإخلاصَ زادًا، والصدقَ جُنَّةً، واقبَلْ منِّي هذه الكلمةَ الواحدةَ ولا تفارِقْها ولا تغفُلْ عنها: إنَّه مَن استَحْيَىٰ من الله في كلِّ أوقاته وأحواله وأفعاله، بلَّغه إلىٰ مقامِ الأولياءِ من عباده. قال: فجعَلتُ هذه الكلماتِ أمامي، ففي كلِّ وقتٍ أذكرُها وأطالبُ نفسي بها. والصحيحُ أنَّه مات في هذه السنةِ، وقيل: في سنةِ ثلاثين ومائتين. وقيل غيرُ ذلك، فاللهُ أعلمُ.

ثم دخلت سنة سبع وأربعين ومائتين

في شوال منها كان مقتَلُ الخليفة المتوكل على الله على يَدَيْ ولده المنتصر، وكان سببَ ذلك أنَّه أمَر ابنَه عبدَ الله المعتزَّ الذي هو وليُّ العهد من بعده أن يخطُبَ بالناس في يوم جمعة، فأدَّاها أداءً عظيمًا بليغًا، فبلَغ ذلك من المنتصر كلَّ مبلغ، وحنق على أبيه وأخيه، ثم اتفق أن أحضَره أبوه بين يَدَيه فأهانَه وأمَر بضَرْبه في رأسه وصَفْعِه، وصرَّح بعزله عن ولاية العهد من بعد أخيه، فاشتَدَّ أيضًا حنَقُه أكثرَ ممَّا كان. فلَمَّا كان يومُ عيد الفطر خطَب الخليفةُ المتوكلُ على الله بالناس وعندَه بعضُ التَّشكِّي من علَّةٍ به، ثم عدَل إلى خيام قد ضُربتْ له؛ أربعةُ أميال في مثلها، فنزَل هناك ثم استَدْعَى في يوم ثالث الشهر بندمائه، وكان على عادته في سَمَره وحضرته وشُرْبه، ثم تمالأ ولدُه المنتصرُ وجماعةٌ من الأمراء على الفتك به، فدخَلُوا عليه في ليلة الأربعاء لأربع خَلَوْنَ من شوال - ويقال: من شعبانَ - من هذه السنة، وهو على السِّماط، فابتَدَرُوه بالسيوف فقتَلُوه، ثم ولَّوا بعدَه ولدَه المنتصرَ، على ما سنذكُرُه.

وهذه ترجمة المتوكل على الله

جعفرُ بنُ المعتصم بن هارونَ الرشيد بن محمد المهديِّ بن أبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن عليِّ بن عبد الله بن العباس، أبو الفضل المتوكلُ. وأمُّه أمُّ ولد يقالُ لها: شجاعُ. وكانت من سَرَوات النِّساء سخاءً وحَزْمًا. كان مولدُه بفم الصِّلح سنةَ سبع ومائتين، وبُويع له بالخلافة بعدَ أخيه الواثق في يوم الأربعاء لستٍّ بقينَ من ذي الحجَّة سنةَ ثنتين وثلاثين ومائتين، كما تقدَّم. وروَى الخطيبُ من طريقه، عن يحيى بن أكثمَ، عن محمد بن عبد الوهاب، عن سفيانَ، عن الأعمش، عن موسى بن عبد الله بن يزيدَ، عن عبد الرحمن بن هلال، عن جرير بن عبد الله، عن النبيِّ ﷺ فقال: «مَن حُرِم الرفقَ حُرِم الخيرَ». ثم أنشأ المتوكِّلُ يقولُ:

الرفقُ يمنٌ والأناةُ سعادةٌ	فاستأنِ في رفقٍ تُلاقِ نَجاحا
لا خيرَ في حزمٍ بغيرِ رَوِيَّةٍ	والشكُّ وهنٌ إن أردتَ سَراحا

وقال الحافظُ ابنُ عساكرَ في تاريخه: وحدَّث عن أبيه المعتصم، ويحيى بن أكثمَ القاضي، وروَى عنه عليُّ بنُ الجهم الشاعرُ، وهشامُ بنُ عمَّار الدمشقيُّ، وقدم دمشقَ في خلافته، وابتَنَى بها قصرًا بأرض داريَّا. وقال يومًا لبعضهم: إنَّ الخلفاءَ كانت تتصعَّبُ على الرَّعيَّة لتُطيعَها، وإنِّي ألينُ لهم ليُحبُّوني ويُطيعُوني. وقال أحمدُ بنُ مروانَ المالكيُّ: ثنا أحمدُ بنُ عليٍّ البصريُّ قال: وجَّه المتوكلُ إلى أحمدَ بن المُعَذَّل وغيره من العلماء، فجمَعهم في داره ثم خرَج عليهم فقام الناسُ كلُّهم إليه غيرَ أحمدَ بن المُعَذَّل، فقال المتوكلُ لعُبيد الله: إنَّ هذا لا يرَى بيعَتَنا؟ فقال له: بلى يا أميرَ المؤمنين، ولكن

في بَصَره سوءٌ. فقال أحمدُ بنُ المعذَّل: يا أميرَ المؤمنين، ما في بصري سوءٌ، ولكن نزَّهتُكَ من عذابِ الله، قال النبيُّ ﷺ: «مَنْ أحبَّ أنْ يتمثَّلَ له الرجالُ قيامًا فليتبوَّأْ مقعدَهُ من النَّار»[1] فجاء المتوكلُ فجلَس إلى جنبِه.

وروى الخطيبُ البغداديُّ: أنَّ عليَّ بنَ الجَهْم دخَل على المتوكلِ وفي يدِه دُرَّتان يُقلِّبهما، فأنشدَه قصيدتَه التي يقولُ فيها:

وإذا مـررْتَ بـبـئـر عُـروةَ فـاسـقِـني من مـائِـهـا

فأعطاه التي في يمينه وكانت تساوي مائةَ ألفٍ، ثم أنشدَه:

بِسُرَّ مَن رَا أميرُ عدلٍ تَغْرِفُ من بحرِه البحارُ
يُرجَى ويُخشَى لكُلِّ خَطْبٍ كـأنَّـهُ جَـنَّـةٌ ونـارٌ
المُلكُ فيه وفي بَنيهِ ما اختلفَ الليلُ والنهارُ
يَداهُ في الجُودِ ضَرَّتانِ عليه كلتاهما تَغارُ
لم تأتِ منهُ اليمينُ شيئًا إلا أتَتْ مثلَهُ اليسارُ

قال: فأعطاه التي في يسارِه أيضًا. وقال الخطيبُ: وقد رُويتْ هذه الأبياتُ عن عليِّ بن هارون، للبُحتريِّ في المتوكلِ.

وروى ابنُ عساكرَ عن عليِّ بنِ الجَهْم قال: وقفَت قبيحةُ حظيَّةُ المتوكِّلِ بينَ يدَيْه وقد كتبَتْ على خدِّها بالغالية: جعفرٌ، فتأمَّلَ ذلك، ثم أنشأ يقولُ:

وكاتبةٍ في الخَدِّ بالمسْك جعفرًا بنفسي مَخَطُّ المسْك من حيثُ أثَّرا
لئنْ أوْدَعَتْ سَطرًا من المِسْكِ خَدَّها لقدْ أوْدَعَتْ قلبي من الحُبِّ أسْطُرا
فيا مَنْ مُناها في السَّريرة جعفرٌ سَقَى اللهُ مِنْ سُقيا ثَناياكِ جَعْفرًا
ويا مَنْ لِمَمْلُوكٍ لمِلكِ يَمِينِه مطيعٍ لهُ فيما أسَرَّ وأظْهَرا

قال: ثم أمَرَ المتوكلُ عريبًا فغنَّت به. وقال الفتحُ بنُ خاقانَ: دخلتُ يومًا على المتوكلِ فإذا هو مُطرقٌ مفكِّرٌ، فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين، ما لَكَ مُفكِّرًا؟ فوالله ما على الارضِ أطيبُ منكَ عيشًا، ولا أنعمُ منكَ بالاً، فقال: أطيبُ منِّي عيشًا رجلٌ له دارٌ واسعةٌ، وزوجةٌ صالحةٌ، ومعيشةٌ حاضرةٌ، لا يعرِفُنا فنُؤْذِيَه، ولا يحتاجُ إلينا فنَزْدَرِيَه.

وقد كان المتوكلُ مُحبَّبًا إلى رعيتِه، قائمًا بالسُّنَّة فيهم، وقد شبَّهه بعضُهم بالصِّدِّيقِ في ردِّه على أهلِ الرِّدَّة، حتى رجَعُوا إلى الدِّينِ، وبعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ حينَ ردَّ مظالمَ بني أميةَ، وهو أظهَرَ السُّنَّةَ بعدَ البدعةِ، وأخمَدَ البدعةَ بعدَ انتشارِها واشتهارِها، فرحِمه اللهُ.

---

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ٩٣) والبخاري في «الأدب المفرد» (٩٧٧) وقد تقدم.

وقد رآه بعضُهم في المنام بعدَ موته وهو جالسٌ في نورٍ، فقال: آلمتوكلُ؟! فقال: المتوكلُ، قال: فما فعَل بكَ ربُّكَ؟ قال: غفَر لي، قلتُ: بماذا؟ قال: بقليلٍ من السُّنَّة أحييتُها.

وروَىٰ الخطيبُ عن صالحِ بنِ أحمدَ أنَّه رأىٰ في منامه ليلةَ ماتَ المتوكلُ كأنَّ رجلاً يصعَدُ به إلىٰ السماء، وقائلاً يقولُ:

ملكٌ يقادُ إلىٰ مَليكٍ عادلٍ ... مُتفضِّلٍ في العَفْوِ ليس بجائرِ

ورُوِي عن عمرِو بنِ شيبانَ الحلبيِّ قال: رأيتُ ليلةَ قُتِل المتوكلُ قائلاً يقولُ:

يا نائمَ العينِ في أقطارِ جُثمانِ ... أفِضْ دُموعَكَ يا عمرُو بنَ شيبانِ
أمَا ترى الفِئةَ الأرجاسَ ما فعَلُوا ... بالهاشميِّ وبالفتحِ بنِ خاقانِ
وافَى إلى اللهِ مَظلومًا فضجَّ له ... أهلُ السمواتِ من مَثْنَىٰ ووُحْدانِ
وسَوْفَ تأتيكُمُ أُخرىٰ مُسوَّمةٌ ... تَوقَّعُوها لها شأنٌ من الشَّانِ
فابكُوا على جعفرٍ وارثُوا خليفتَكُم ... فقد بكاهُ جميعُ الإنسِ والجانِ

قال: فأصبحتُ فأخبَرتُ الناسَ، فجاء نَعْيُه أنَّه قُتِل في تلك الليلة. قال: ثم رأيتُه بعدَ هذا بشهرٍ، وهو واقفٌ بينَ يَدَي اللهِ عزَّ وجلَّ، فقلتُ: ما فعَل بك ربُّك؟ فقال: غفر لي، قلتُ: بماذا؟ قال: بقليلٍ من السُّنة أحييتُها، قلتُ: فما تصنَعُ ههنا؟ قال: أنتَظِرُ ابني محمدًا أخاصمُه إلىٰ اللهِ الحليمِ العظيمِ الكريمِ.

وقد ذكَرْنا قريبًا كيفيةَ مقتَلِه، وأنَّ ابنَه محمدًا المستنصرَ مالأ جماعةً من الأمراءِ علىٰ قتلِه فقُتِل في ليلةِ الأربعاءِ أوَّلَ الليلِ، لأربعٍ خلَتْ من شوالٍ من هذه السنةِ - أعني سنةَ سبعٍ وأربعينَ ومائتين - بالمتوكليةِ، وهي الماحوزةُ. وصُلِّيَ عليه يومَ الأربعاء، ودُفِن بالجَعْفَريَّةِ، وله من العمر أربعونَ سنةً، وكانت مُدَّةُ خلافتِه أربعَ عشْرَةَ سنةً وعشْرَةَ أشهرٍ وثلاثةَ أيامٍ. وكان أسمرَ، حسنَ العينينِ، نحيفَ الجسمِ، خفيفَ العارِضَينِ، أقربَ إلىٰ القِصَرِ، واللهُ سبحانَه أعلمُ.

خلافة محمد المنتصر بن المتوكل

قد تقدَّم أنَّه تمالأ هو وجماعةٌ من الأمراءِ علىٰ قتْلِ أبيه، وحينَ قُتِل الخليفةُ المتوكِّلُ بُويِع له بالخلافةِ في الليلِ، فلمّا كان الصباحُ من يومِ الأربعاءِ رابعِ شوّالٍ أُخِذَت له البيعةُ من العامَّةِ، وبعَث إلىٰ أخيه المعتزِّ فأحضَره إليه فبايعَه المعتزُّ، وقد كان المعتزُّ هو وَلِيَّ العهدِ قبلَه، ولكنْ أكرَهَه فسلَّم وبايَع، فلمّا أُخِذت البيعةُ له كان أوَّلَ ما تكلَّم به أنَّه اتَّهم الفتْحَ بنَ خاقانَ علىٰ قتْلِ أبيه، وقُتِل الفتْحُ أيضًا، ثم بعَث البيعةَ له إلىٰ الآفاقِ.

وفي ثاني يومٍ من خلافتِه وَلَّىٰ المظالمَ لأبي عَمْرةَ أحمدَ بنِ سعيدٍ، مولَىٰ بني هاشمٍ، فقال الشاعرُ:

يا ضَيعةَ الإسلامِ لمّا وَلِي مَظالمَ الناسِ أبو عَمْرَهْ
صُيِّرَ مأمونًا على أمّةٍ وليس مأمونًا على بَعْرَهْ

وكانت البيعةُ له بالمتوكّليّة، وهي الماحوزَةُ، فأقام بها عشَرةَ أيام ثم تحوَّل هو وجميعُ قوّادِه وحشَمِه منها إلى سَامَرّاءَ.

وفي ذي الحجّة مِن هذه السنة أخرَج المنتصرُ عمَّه عليَّ بنَ المعتصم من سامَرّاءَ إلى بغدادَ، ووَكَّلَ به.

وحجَّ بالناسِ محمدُ بنُ سليمانَ الزَّيْنَبيُّ.

وممّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

إبراهيمُ بنُ سعيدٍ الجوهَرِيُّ. وسفيانُ بنُ وكيعِ بنِ الجرّاح. وسَلَمَةُ بنُ شَبيب.

وأبو عثمانَ المازنيُّ النَّحْويُّ، واسمُه: بكرُ بنُ محمدِ بنِ عثمانَ البصْريُّ، شيخُ النُّحاة في زمانه. أخَذ عن أبي عُبيدةَ والأصمعيِّ وأبي زيدٍ الأنصاريِّ وغيرِهم، وأخَذ عنه أبو العباسِ المُبَرِّدُ وأكثَرَ عنه، وللمازنيِّ مصنفاتٌ كثيرةٌ في هذا الشأن، وكان شبيهًا بالفقهاء، وَرِعًا زاهدًا ثقةً مأمونًا.

روَىٰ عنه المبرِّدُ أنَّ رجلاً مِن أهلِ الذِّمَّة طلب منه أن يقرأَ عليه كتابَ سيبَوَيْهِ ويُعطيَه مائةَ دينار، فامتنَع مِن ذلك، فلامَه بعضُ الناسِ في ذلك، فقال: إنَّما ترَكْتُ هذا لِمَا فيه من آياتِ الله تعالىٰ. فاتَّفَق بعدَ هذا أنَّ جاريةً غنَّتْ بحضْرَةِ الواثق:

أظَلومُ إنَّ مُصابَكم رَجُلاً ردَّ السَّلامَ تحيَّةً ظُلْمُ

فاختَلَف مَن بحضْرَةِ الواثقِ في إعرابِ هذا البيت، وهل يكونُ «رجلاً» مرفوعًا أو منصوبًا، وبِمَ نُصِبَ؟ أهو اسمٌ أو ماذا؟ وأصرَّت الجاريةُ على أنَّ المازنيَّ حفَّظَها هذا هكذا، قال: فأرسَل الخليفةُ إليه، فلمّا مثَل بينَ يدَيْه قال له: أنتَ المازنيُّ؟ قال: نعم. قال: من مازنِ تميمٍ، أم مِن مازنِ ربيعةَ، أم مِن مازنِ قيسٍ؟ فقلتُ: مِن مازنِ ربيعةَ. فأخَذ يكلِّمُني بلُغَتي، فقال: بَاسْمُكَ؟ وهم يقلِبونَ الباءَ ميمًا والميمَ باءً، فكرِهتُ أن أقولَ: مكرٌ. فقلتُ: بكرٌ. فأعجَبه إعراضِي عن المَكْرِ إلى البَكْرِ، وعرَف ما أردْتُ. فقال: علامَ تنصبُ رجلاً؟ فقلتُ: لأنَّه معمولُ المصدرِ؛ «مصابَكم». فأخذ اليزيديُّ يعارِضُه، فعَلاه المازنيُّ بالحُجَّة، فأطلقَ له الخليفةُ ألفَ دينارٍ وردَّه إلى أهله مُكرَّمًا. فعوَّضَه اللهُ عن المائةِ دينارٍ - لمّا ترَكها للهِ سبحانَه، ولم يمكِّنِ الذِّميَّ مِن قراءةِ الكتاب؛ لأجلِ ما فيه من القرآن - ألفَ دينارٍ؛ عشَرةَ أمثالها.

وروَى المبرِّدُ عنه قال: أقرَأْتُ رجلاً كتابَ سيبويهِ إلى آخرِه، فلمَّا انتهَىٰ قال لي: أمّا أنتَ أيُّها الشيخُ، فجزَاك اللهُ خيرًا، وأمَّا أنا، فوالله ما فهِمتُ منه حرفًا.

تُوفِّي المازنيُّ في هذه السنة، وقيل: في سنةِ ثمانٍ وأربعين ومائتين، وأغربَ مَن قال: سنة ستٍّ وثلاثينَ. فاللهُ أعلمُ بالصواب.

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائتين

ففيها أغزىٰ المنتصرُ وصيفًا التُّركيَّ الصائفةَ لقتال الروم؛ وذلك أنَّ ملكَ الروم قصَد بلادَ الشام، فعندَ ذلك جهَّز المنتصرُ وصيفًا وجهَّز معه جيشًا كثيفًا ورجالاً وعُدَدًا، وأمَر له بنفقاتٍ كثيرةٍ، وأمَره إذا فرَغ من قتال الروم أن يُقيمَ بالثَّغرِ أربعَ سنينَ، وكتَب له إلىٰ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ، نائبِ العراقِ كتابًا عظيمًا فيه آياتٌ كثيرةٌ في التحريضِ للناسِ علىٰ القتالِ والترغيبِ فيه.

وفي ليلةِ السبت لسبعٍ بقينَ من صفَرٍ من هذه السنة المباركة خلَع أبو عبدِ الله محمدٌ المعتزُّ والمؤيَّدُ إبراهيمُ - أخوا أميرِ المؤمنينَ، وَليَّا العهدِ - أنفسَهما من الخلافة، وأشهَدَا عليهما بذلك، وأنَّهما عاجزانِ عن الخلافة، وأنَّ المسلمين في حلٍّ من بيعتهما، وذلك بعدَ ما تهدَّدَهما أخوهما المنتصرُ، وتوعَّدَهما بالقتْلِ إن لم يفعَلاَ ذلك، ومقصودُه توليةُ ابنه عبدِ الوهابِ بإشارةِ أمراءِ الأتراكِ بذلك، وخطَب بذلك علىٰ رءُوسِ الأشهادِ بحضْرةِ القوّادِ والقضاةِ وأعيانِ بني هاشمٍ والناسِ عامَّةً، وكتَب بذلك إلىٰ الآفاقِ والأقاليم؛ ليعلَموا بذلك ويخطُبوا له بذلك علىٰ المنابرِ، ويتوالَىٰ علىٰ محالِّ الكتابةِ - واللهُ غالبٌ علىٰ أمرِه - فأرادَ أن يَسْلُبَهما المُلكَ ويجعَلَه في عَقِبِه، والأقدارُ تُكَذِّبُه وتخالفُه؛ وذلك أنَّه لم يستَكْمِلْ بعدَ قتْلِ أبيه سوىٰ ستةِ أشهرٍ، ففي أواخرِ صفَرٍ من هذه السنةِ عرَضَتْ له علَّةٌ، كان فيها حتْفُه، علىٰ ما سنذكُرُه.

وقد كان المنتصرُ رَأَىٰ في منامه كأنَّه يصعَدُ سُلَّمًا، فبلَغ إلىٰ آخرِ خمسٍ وعشرين درجةً، فقصَّها علىٰ بعضِ المعبِّرينَ، فقال له: هذه خمسٌ وعشرون سنةً تلي فيها الخلافةَ. وإذا بها مدَّةُ عمْرِه، وقد استكْمَلَها في هذه السنة. وقال بعضُهم: دخَلنا عليه يومًا فإذا هو يَبكي وينتحبُ شديدًا، فسأله بعضُ أصحابه عن بُكائه، فقال: رأيتُ أبي المتوكِّلَ في منامي هذا وهو يقولُ: ويلكَ يا محمدُ قتَلْتَني وظلَمْتَني وغصبْتَني خلافتي، واللهِ لا مُتِّعْتَ بها بعدي إلاّ أيامًا يسيرةً ثم مَصيرُك إلىٰ النار. قال: فما أملكُ عيْني ولا جزَعي. فقال له بعضُ أصحابه من الغرّارينَ الذين يَغرُّونَ الناسَ ويَفتِنُونَهم: هذه رُؤْيا وهي تصدُقُ وتكْذِبُ، فقُمْ بنا إلىٰ الشراب؛ ليذهَبَ همُّك وحَزَنُك. فأمَر بالشرابِ فأُحضِر، وجاء ندماؤه، فأخَذ في الخمرِ وهو مُنكَسِرُ الهِمَّةِ، ومازال كذلك مَكْسُورًا حتىٰ مات.

وقد اختَلفوا في علَّته التي كان فيها هَلاكُه، فقيل: إنَّه أصابه داءٌ في رأسه فقُطِّر في أُذُنِه دُهْنٌ، فلمّا وصَل إلىٰ دماغه عُوجِلَ بالموت. وقيل: بل وَرِمتْ مَعِدتُه فانتَهىٰ الوَرَمُ إلىٰ قلبه فماتَ. وقيل: بل أصابَتْه ذُبْحةٌ فاستمرَّتْ به عشرةَ أيامٍ فماتَ. وقيل: بل فصدَه الحجَّامُ بمِفْصَدٍ مسمومٍ فمات من يومه.

قال ابنُ جرير: أخبرَني بعضُ أصحابنا أنَّ هذا الحجَّامَ رجَع إلىٰ منزله وهو محمُومٌ، فدَعا تلميذًا له ليفصِدَه فأخَذ مباضِعَ أستاذِه فاختار منها أجودَها، فإذا به ذلك المبضَعُ المسمومُ الذي فصَد به الخليفةَ،

ففصَدَ أُستاذَه وهو لا يَشْعُرُ، وأنسَى اللهُ سبحانَه الحجَّامَ، فما ذكَر حتى رآه قد فصَدَه به، وتحكَّم فيه السُّمُّ، فاوصَى عندَ ذلك ومات من يومِه.

وذكَر ابنُ جرير أنَّ أمَّ الخليفة دخَلت عليه وهو في مرضِه الذي ماتَ فيه، فقالت له: كيفَ حالُك؟ فقال: ذهَبتْ مني الدُّنيا والآخرةُ.

ويقال: إنَّه أنشَد لمَّا أُحيطَ به وأَيِسَ من الحياة وهو في السياق:

فما فَرِحتْ نفسي بدُنيا أصَبْتُها ولكنْ إلى الربِّ الكريم أصيرُ

فمات يومَ الأحدِ لخمسٍ مضَيْنَ من ربيع الآخرِ من هذه السنة، وقتَ صلاة العصرِ، عن خمسٍ وعشرين سنةً، قيل: وستَّةِ أشهر. ولا خلافَ أنَّه إنَّما وَلِي الخلافةَ ستَّةَ أشهرٍ لا أزيدَ منها.

وذكَر ابنُ جريرٍ عن بعضِ أصحابِه أنَّه لم يزَلْ يسمَعُ الناسَ يقولونَ - العامَةَ وغيرَهم حينَ وَلِي المنتصرُ -: إنَّه لا يَمْكُثُ في الخلافةِ سوى ستَّةِ أشهرٍ، كما مكَث شيرَوَيْه بنُ كِسْرَى حينَ قتَل أباه لأجلِ المُلك، وكذلك وقَع سواءً.

وقد كان المنتصرُ أعينَ أقنَى قصيرًا مَهيبًا جيِّدَ البَدنِ، وهو أولُ خليفةٍ من بني العباسِ أُبرِزَ قبرُه، وذلك بإشارةِ أمِّه حَبَشيَّةَ الروميَّةِ.

ومن جيِّد كلامه قولُه: واللهِ ما عزَّ ذو باطلٍ قطُّ، ولو طلَع القمرُ من جَبينِه، ولا ذَلَّ ذو حقٍّ قطُّ، ولو أصفَقَ العالَمُ عليه.

خلافة المستعين بالله

وهو أبو العباسِ أحمدُ بنُ محمدِ بنِ المُعتصم، بُويعَ له بالخلافة يومَ مات المُنتصرُ، بايعَه عمومُ الناس، ثم خرَجتْ عليه شرْذِمَةٌ من الأتراك يقولُونَ: يا معتزُّ، يا منصورُ. فالْتَفَّ عليهم خلقٌ، وقامَ بنصْرِ المُسْتَعينِ جمهورُ الجيشِ، فاقْتتَلُوا قتالاً شديدًا أيامًا، فقُتِل خلقٌ من الفريقينِ، وانْتُهبتْ أماكنُ كثيرةٌ من بغدادَ، وجرَتْ فتنٌ كثيرةٌ جدًّا، ثم استَقرَّ الامرُ للمُستعينِ فعزَل وولَّى، وقطَع ووصَل، وأمَر ونَهَى.

وفيها مات بُغا الكبيرُ في جُمادَى الآخرةِ، فولَّى الخليفةُ مكانَه ولدَه مُوسى بنَ بُغا، وقد كانت له همَّةٌ عاليةٌ، وآثارٌ ساميةٌ، وغزَواتٌ في المشارقِ والمغاربِ مُتواليَةٌ.

وفي هذه السنة ابتاعَ المستعينُ من أبي عبدِ الله المعتزِّ شيئًا كثيرًا من المتاعِ والأثاث والضِّياعِ، بما قيمتُه عشرَةُ آلافِ ألفِ دينارٍ وعَشْرُ حبَّاتِ جَوْهَرٍ، ومن إبراهيمَ بما قيمتُه ثلاثةُ آلافِ ألفِ دينارٍ وثلاثُ حبَّاتٍ.

وفيها عدَا أهلُ حِمْصَ على عاملِهم فأخرَجُوه من بين أظهُرِهم، فبعَث إليهم المستعينُ فأخَذ منهم مائةَ رجلٍ من سرَاتِهم، وأمرَ بهَدْمِ سُورِهم.

وفيها حجَّ بالناسِ محمدُ بنُ سُلَيمانَ الزَّيْنَبيُّ.

وفيها توفِّي من الأعيان:

أحمدُ بنُ صالحٍ. والحُسينُ بنُ عليٍّ الكَرابيسيُّ. وعبدُ الجبّارِ بنُ العَلاءِ. وعبدُ الملكِ بنُ شُعيبٍ. وعيسى بنُ حَمّادٍ. ومحمدُ بنُ حُمَيْدٍ الرَّازيُّ. ومحمدُ بنُ زُنْبورٍ. ومحمدُ بنُ العَلاءِ أبو كُرَيبٍ. ومحمدُ بنُ يزيدَ أبو هشامٍ الرِّفاعيُّ.

وأبو حاتمٍ السِّجِسْتانيُّ، واسمُه سهلُ بنُ محمدِ بنِ عُثمانَ بنِ يزيدَ الجُشَميُّ، أبو حاتمٍ السِّجستانيُّ النحويُّ اللغويُّ، صاحبُ المُصنَّفاتِ الكثيرةِ، وكان بارعًا في اللغةِ، اشتغل فيها على أبي عُبَيْدةَ والأصمعيِّ، وأكثرَ الرِّوايةَ عن أبي زيدٍ الأنصاريِّ، وأخذ عنه المُبَرِّدُ، وابنُ دُرَيدٍ، وغيرُهما.

وكان عبدًا صالحًا، كثيرَ الصدقةِ والتِّلاوةِ، يتصدَّقُ كلَّ يومٍ بدينارٍ، ويقرأُ في كلِّ أُسبوعٍ خَتْمةً، وله شعرٌ كثيرٌ؛ منه قولُه:

أبرَزوا وجهَهُ الجميـ	ـلَ ولامُوا مَن افْتُتِنْ
لو أرادوا صِيانَتي	سَتَروا وجهَهُ الحَسَنْ

قال ابنُ خَلِّكانَ: وكانت وفاتُه في المحرمِ. وقيل: في رجَبٍ من هذه السنةِ.

ثم دخلت سنة تسع وأربعين ومائتين

في يومِ الجمعةِ النصفِ من رجَبٍ منها التقَى جمعٌ من المسلمين، وخلقٌ من الرومِ بالقُربِ من مَلَطْيَةَ، فاقتتلوا قتالًا عظيمًا، قُتِل من الفريقَين خلقٌ كثيرٌ، وقُتِل أميرُ المسلمينَ عمرُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ الأقْطَعِ، وقُتِل معَه ألفا رجُلٍ من المسلمين، وكذلك قُتِل الأميرُ عليُّ بنُ يَحْيى الأَرْمَنيُّ في طائفةٍ من المسلمينَ أيضًا، فإنَّا للهِ وإنا إليه راجعون، وقد كان هذان الأميران من أكبرِ أنصارِ الإسلامِ.

ووقَعتْ فتنةٌ عظيمةٌ ببغدادَ في أوَّلِ يومٍ من صفَرٍ من هذه السنةِ، وذلك أنَّ العامَّةَ كرِهوا جماعةً من الأمراءِ الذين قد تغلَّبوا على أمرِ الخلافةِ، وقتَلوا المُتوكِّلَ، واستضعَفوا المُنتصِرَ والمُستعينَ بعدَه؛ فنهَضوا إلى السِّجنِ، فأخرَجوا مَن فيه، وجاءُوا إلى الجسرِ فقطَعوه، وضرَبوا الآخرَ بالنارِ فأحرَقوه، ونادَوا بالنَّفيرِ، فاجتَمع خلقٌ كثيرٌ وجمٌّ غفيرٌ، ونهَبوا أماكنَ مُتعدِّدةً، وذلك بالجانبِ الشرقيِّ من بَغدادَ، ثم جمَع أهلُ اليَسارِ من أهلِ بغدادَ أموالًا كثيرةً؛ لتُصرَفَ إلى مَن ينهَضُ إلى ثُغورِ الرومِ لقتالِهم عِوضًا عن مَن قُتِل من المسلمينَ هناك، فأقبَل خلقٌ كثيرٌ من نواحي الجبالِ والأهوازِ وفارِسَ، وغيرِها لغَزْوِ الرومِ، وذلك أنَّ الخليفةَ والجيشَ تأخَّروا عن النُّهوضِ، فغضِبتِ العامَّةُ من ذلك، وفعَلوا ما ذكَرْنا.

ولتِسْعٍ بَقِينَ من ربيعٍ الأوَّلِ نهَض عامَّةُ أهلِ سامَرَّا إلى السِّجنِ، فأخرَجوا مَن فيه، وجاءَهم قومٌ من الجيشِ، يقالُ لهم: الزُّرافةُ. فهزَمتهم العامَّةُ، فركِب عندَ ذلك وصيفٌ وبُغَا الصغيرُ وعامَّةُ

الأتراك، فقتَلوا من العامَّة خلقًا كثيرًا، وجرَت فتَنٌ طويلةٌ كثيرةٌ، ثم سكَنَتْ.

وفي النِّصف من ربيع الآخر وقَعتْ فتنةٌ بينَ الأتراك، وذلك أنَّ الخليفةَ المستعينَ كان قد فوَّض أمرَ الخلافة والتصرُّفَ في أموال بيت المال إلى ثلاثة؛ وهم أُتامشُ التركيُّ، وكان أخَصَّ مَن عندَه، وهو بمنزلةِ الوزير، وفي حِجْره العبّاسُ بنُ المُستعين يُربِّيه، ويُعلِّمُه الفُروسيَّةَ. وشاهَكُ الخادمُ، وأمُّ الخليفة، وكان لا يمنَعُها شيئًا تريدُه، وكان لها كاتبٌ يقالُ له: سَلَمةُ بنُ سعيدٍ النَّصْرانيُّ. فاقبَل أُتامشُ فأسرَفَ في أخذِ الأموالِ حتى لم يُبقِ ببيتِ المالِ شيئًا، فغضبت الأتراكُ من ذلك وغارت منه، فاجتمعوا عليه عند ذلك، وركِبوا إليه وأحاطوا بقصرِ الخلافة، وهو عندَ المستعين، ولم يُمكنْه منعُه منهم، ولا دفعهم عنه، فأنزلوه صاغرًا فقتَلوه، وانتَهَبوا أموالَه وحَواصِلَه ودُورَه، واستوزَر الخليفةُ بعدَه أبا صالح عبدَ الله بنَ محمدِ بنِ يَزْدادَ، وولَّى بُغَا الصغيرَ فِلَسْطينَ، وولَّى وصيفًا الأَهْوازَ، وجرَىٰ خَبْطٌ كبيرٌ ووَهْنٌ كثيرٌ من أمرِ الخليفة.

وتحرَّكتِ المغاربةُ بسامَرَّا في يوم الخميسِ لثلاثٍ خَلونَ من جُمادَىٰ الآخرة، فكانوا يجتمِعون فيركَبون، ثم يتفرَّقون.

وفي يوم الجمُعة لخمسٍ بَقِينَ من جُمادَىٰ الأُولَىٰ، وهو اليومُ السادسَ عشَرَ من تَمُّوزَ، مُطِرَ أهلُ سامَرَّا مطرًا عظيمًا برَعدٍ وبَرْقٍ، والغيمُ مُطْبِقٌ، والمطرُ مُستَهِلٌ كثيرٌ من أوَّلِ النهارِ إلى اصفرارِ الشمس. وفي ذي الحِجَّة أصابَ أهلَ الرَّيِّ زَلزَلةٌ شديدةٌ جدًا، ورَجْفَةٌ هائلةٌ تهدَّمَتْ منها الدورُ، ومات منها خلقٌ كثيرٌ، وخرَج بقيَّةُ أهلها إلى الصحراء.

وحجَّ بالناسِ في هذه السنة عبدُ الصَّمَدِ بنُ موسى بنِ محمد بنِ إبراهيمَ الإمامُ، وهو والي مكَّةَ.

وممَّن تُوفِّي من الأعيان:

أيوبُ بنُ محمدٍ الوَزّانُ. **والحسنُ** بنُ الصَّباحِ البَزّارُ، صاحبُ كتاب «السُّنَن». **ورَجاءُ** بنُ مُرَجًّى الحافظُ. **وعبَّادُ** بنُ حُمَيدٍ، صاحبُ «المسند»، و«التفسير» الحافل. **وعمرو** بنُ عليٍّ الفَلّاسُ.

وعليُّ بنُ الجَهْم بنِ بدرِ بنِ الجَهْم بنِ مسعودِ بنِ أسَدٍ القرشيُّ السامِيُّ من ولدِ سامَةَ بنِ لُؤَيٍّ-الخُراسانيُّ، ثم البغداديُّ، أحدُ الشعراء المشهورين، وأهلِ الدِّيانة المعتبَرين.

وله ديوانُ شعرٍ فيه أشعارٌ حسَنةٌ، وكان فيه تحامُلٌ على عليِّ بنِ أبي طالب، رضيَ اللهُ عنه، وكان له خُصوصيَّةٌ بالمُتوكِّل، ثم غضِب عليه فنفَاه إلى خُراسانَ، وأمَر نائبَه بها أن يَنصِبَه يومًا. مُجرَّدًا، ففعَل به ذلك، ومن مُستجادِ شعرِه:

بَلاءٌ ليس يَعدِلُه بَلاءٌ ... عَداوةُ غيرِ ذي حسَبٍ ودينِ
يُبيحُكَ منه عِرضًا لم يَصُنْهُ ... ويَرتَعُ منك في عِرضٍ مَصُونِ

وإنَّما قال ذلك في مَرْوانَ ابنِ أبي حَفْصةَ حينَ هجاه، فقال في هجائه له:

لعمرُكَ ما الجهمُ بنُ بُدرٍ بشاعرٍ ... وهذا عليٌّ بعدَه يدَّعي الشِّعْرا
ولكنْ أبي قد كان جارًا لأمِّهِ ... فلمَّا ادَّعَى الأشعارَ أوهمَني أمْرَا

كان عليُّ بنُ الجَهْمِ قد قدِم الشامَ، ثم عاد قاصدًا العراقَ، فلمَّا جاوَز حلَبَ ثار عليه أناسٌ مِن بني كَلْبٍ، فقاتَلهم فجُرِح جُرحًا بليغًا فكان فيه حَتْفُه، فوُجِد بينَ ثيابِه رُقْعَةٌ مكتوبٌ فيها:

يا رَحْمتا للغريبِ في البلدِ النَّـ ... ـازِحِ ماذا بنفسِه صَنَعا؟
فارَقَ أحْبابَهُ فما انْتفَعُوا ... بالعَيْشِ مِن بَعدِه وما انتفَعا

وكانتْ وفاتُه بهذا السَّبَبِ في هذهِ السنةِ، رحِمه اللهُ.

سنة خمسين ومائتين من الهجرة

فيها كان ظهورُ أبي الحُسينِ يحيىٰ بنِ عمرَ بنِ يحيىٰ بنِ حُسينِ بنِ زَيْدِ بنِ عليٍّ بنِ الحُسينِ بنِ عليٍّ ابنِ أبي طالبٍ بالكوفةِ، وأمُّه أمُّ الحسينِ فاطمةُ بنتُ الحُسينِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ إسماعيلَ بنِ عبدِ اللهِ بنِ جعفرِ بنِ أبي طالبٍ، وذلك أنَّه أصابَته فاقةٌ شديدةٌ فرحَل إلىٰ سامَرّا، فسأَل وصيفًا أن يُجرِيَ عليه رِزْقًا، فأغلَظ له القولَ، فرجَع إلىٰ أرضِ الكوفةِ فاجتمَع عليه خلقٌ مِن الأعرابِ، وخرَج إليه خلقٌ مِن أهلِ الكُوفَةِ، فنزَل علىٰ الفَلُّوجةِ وقد كثُر الجمعُ معَه، فكتَب محمدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ نائبُ العراقِ إلىٰ عاملِ الكوفةِ - وهو أيُّوبُ بنُ الحسنِ بنِ موسىٰ بنِ جعفرِ بنِ سليمانَ - يأمُرُه بمقاتلتِه. ودخَل يحيىٰ بنُ عمرَ قبلَ ذلك في طائفةٍ مِن أصحابِه إلىٰ الكوفةِ، فاحتَوىٰ علىٰ بيتِ مالِها، فلم يجدْ فيه سوىٰ ألفَيْ دينارٍ وسبعين ألفَ درهمٍ، وظهَر أمرُه بالكوفةِ، وفتَح السِّجنين وأطلَق مَن فيهما، وأخرَج نُوَّابَ الخليفةِ منها، وأخَذ أموالَهم واستحوَذ عليها، واستحكَم أمرُه بها، والتَفَّ عليه خلقٌ مِن الزَّيديَّةِ وغيرِهم، ثم خرَج مِن الكوفةِ إلىٰ سَوادِها، ثم كرَّ راجعًا إليها، فتلقَّاه عبدُ الرحمنِ بنُ الخطّابِ المُلقَّبُ وَجْهَ الفُلْسِ، فقاتلَه قتالاً شديدًا، فانهزَم وجهُ الفُلسِ، ودخَل يحيىٰ بنُ عمرَ الكوفةَ ودعَاه إلىٰ الرِّضا مِن آلِ محمدٍ، وقوِي أمرُه جدًّا، وصار إليه جماعةٌ مِن الناسِ مِن أهلِ الكوفةِ وغيرِها، وتولّاه أهلُ بغدادَ مِن العامَّةِ وغيرِهم ممَّن يُنسَبُ إلىٰ التَّشيُّعِ، وأحبُّوه أكثرَ ممَّا كانوا يحبّون أحدًا مِن الخارجين مِن أهلِ البيتِ، وشرَع في تحصيلِ السلاحِ، وإعدادِ آلاتِ الحربِ، وجمعِ الرِّجالِ، وقد خرَج نائبُ الكوفَةِ، منها وهو الحسينُ بنُ إسماعيلَ إلىٰ ظاهرِها، واجتمَع إليه أمدادٌ كثيرٌ مِن جهةِ الخليفةِ ومحمدِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ، واستراحوا وجمَّت خيولُهم، فلمَّا كان اليومُ الثالثَ عشرَ مِن رجَبٍ أشارَ مَن أشارَ علىٰ يحيىٰ بنِ عمرَ ممَّن لا رأيَ له، أنْ يركَبَ فيناجزَ الحسينَ بنَ إسماعيلَ ويَكبِسَ جيشَه، فركِب في جيشٍ كثيرٍ فيه خلقٌ مِن الفرسانِ والمُشاةِ أيضًا مِن عامَّةِ أهلِ الكوفةِ بغيرِ أسلحةٍ، فساروا فلمَّا انتهَوا إليهم نهَضوا إليهم، فاقتتَلوا قتالاً شديدًا في ظلْمَةِ آخرِ الليلِ، فما طلَع الفجرُ إلاَّ وقد انكشَف أصحابُ يَحْيَىٰ بنِ عمرَ وداستَهم الخيولُ، ووجَدوا يحيىٰ بنَ

عمرَ قد تقنْطَر به فرسُه وطُعِن في ظهره فحزُّوا رأسَه، وحمَلوه إلى الأمير، فبعَثه إلى محمد بن عبـد الله بن طاهر، فأرسَله إلى الخليفة من الغد مع رجُلٍ يقال له: عمرُ بنُ الخطّاب - أخي عبد الرحمن بن الخطاب - فنُصِب بسامرّا ساعةً من النهار، ثم بعثه إلى بَغْداد؛ ليُنصَبُ عندَ الجسر، فلم يُمكِنْ ذلك من كثرة العامّة، فجُعِل في خزائن السلاح، ولمّا جيءَ برأس يحيى بن عمرَ إلى محمد بن عبد الله بن طاهر دخَل الناسُ يُهنِّئونه بالفتح والظَّفَر، فدخَل عليه أبو هاشم داودُ بنُ الهيثم الجَعْفَريُّ فقال له: أيُّها الأمير، إنَّك لتُهنَّى بقتل رجلٍ لو كان رسولُ الله ﷺ حيًّا لعُزِّي به. فما ردَّ عليه شيئًا، ثم خرَج أبو هاشم الجعفريُّ وهو يقول:

يا بَني طاهرٍ كُلُوهُ وَبِيئًا ... إنَّ لحمَ النبيِّ غيرُ مَرِيِّ
إنَّ وِتْرًا يكونُ طالبَه اللـ ... ـهُ لَوِتْرٌ نَجاحُه بالحَرِيِّ

وكان الخليفةُ المستعينُ قد وجَّه أميرًا إلى الحُسين بن إسْماعيلَ نائب الكوفة، فلمّا قُتِل يَحْيى بنُ عمرَ دخَلوا الكُوفةَ، فأراد ذلك الأميرُ أنْ يضعَ في أهْلها السيفَ، فمنَعه الحُسينُ، وأمَّنَ الأسودَ والأبيضَ، وأطفأ اللهُ هذه الفتْنةَ.

ثم خرج آخر من أهل البيت أيضًا

فلمّا كان رمضانُ من هذه السنة خرَج الحسنُ بنُ زَيد بن محمد بن إسماعيلَ بن الحَسن بن زيد بن الحسن بن عليٍّ بن أبي طالب بناحية طَبَرِسْتانَ، وكان سبَبَ ذلك أنَّه لمّا قُتِل يَحْيى بنُ عمرَ أقطَع المستعينُ لمحمد بن عبد الله بن طاهر طائفةً من أرض تلك الناحية، فبعَث كاتبًا له يقال له: جابرُ بنُ هارونَ. وكان نصرانيًّا؛ ليتَسلَّمَ تلك الأراضي، فلمّا انتهَى إليهم كرِهوا ذلك جدًّا، وراسَلوا الحسَنَ ابنَ زيد هذا، فجاء إليهم فبايَعوه، والتفَّ عليه جملةُ الدَّيْلَم وجماعةُ الأمراء في تلك النواحي، فركِبَ فيهم ودخَل آمُلَ طَبَرِسْتانَ وأخَذها قهرًا، وجبَى خَراجَها، واستَفحَل أمرُه جدًّا، ثم خرَج منها طالبًا لقتال سُلَيمانَ بن عبد الله أمير تلك النَّواحي، فالتقَيا هنالك، وكانت بينَهما حروبٌ، ثم انْهزَم سُلَيمانُ هزيمةً مُنْكرةً، وترَك أهلَه ومالَه ولم يرجعْ دونَ جُرْجانَ، فدخَل الحسَنُ بنُ زيد ساريَةَ، فاستَحوَذ على ما بها من الأموال والحواصل، وسيَّر أهلَ سُلَيمانَ إليه على مراكبَ مُكرَمين، واجتمَع للحسن بن زيد إمرةُ طَبَرِسْتانَ بكَمالها، ثم بعَث إلى الرَّيِّ فأخَذها أيضًا، وأخرَج منها الطاهريَّةَ، وصار له إلى حدِّ هَمَذانَ، ولمّا بلَغ خبَرُه المُستعينَ - وكان مُدبِّرَ مُلْكه يومئذٍ وصيفٌ التُّركيُّ - اغْتَمَّ لذلك جدًّا، واجتهَد في بَعْث الجُيوش والأمداد لقتال الحسن بن زيد هذا.

وفي يوم عرفةَ من هذه السنة ظهرَ بالرَّيِّ أحمدُ بنُ عيسى بن حسين الصغير بن عليٍّ بن الحُسين بن عليٍّ بن أبي طالب، وإدْريسُ بنُ موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن حسن بن حسَن بن عليٍّ بن أبي طالب، فصلَّى بالناس يومَ العيد أحمدُ بنُ عيسى هذا، ودعا إلى الرِّضا من آل محمد،

فحاربه محمدُ بنُ عليٍّ بنِ طاهرٍ، فهزَمه أحمدُ بنُ عيسى واستفحَل أمرُه.

وفيها: وثَب أهلُ حِمْص على عاملِهم الفضلِ بنِ قارَنَ أخي المازيارِ بنِ قارَنَ فقتَلوه في رجَبٍ، فوَجَّه المُستَعينُ إليهم موسى بنَ بُغا الكبيرِ، فاقْتَتلوا بأرضِ الرَّسْتَنِ، فهزَمهم وقتَل جماعةً من أهْلِها، وأحْرَق أماكنَ كثيرةً منها، وأسَر أشْرافَ أهْلِها.

وفيها: وثَبت الشاكريَّةُ والجُنْدُ في أرضِ فارسَ على عبدِ الله بنِ إسْحاقَ بنِ إبراهيمَ، فهرَب منهم فانتهَبوا دارَه، وقتَلوا محمدَ بنَ الحسَنِ بنِ قارَنَ، وفيها غَضِبَ الخليفةُ على جعفرِ بنِ عبدِ الواحدِ، ونفاه إلى البصرةِ.

وفيها: أُسقطتْ مَرْتَبَةُ جماعةٍ من الأُمَويِّينَ في دارِ الخلافةِ. وحجَّ بالناسِ فيها جعفرُ بنُ الفضلِ أميرُ مكَّةَ، شرَّفها اللهُ.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعْيان:

أبو الطاهرِ أحمدُ بنُ عمرِو بنِ السَّرْحِ. **والبَزِّيُّ**، أحدُ القُرَّاءِ المشاهيرِ. **والحارثُ** بنُ مِسكينٍ. **وأبو حاتمٍ السِّجِسْتانيُّ** أحدُ أئمةِ اللغةِ. **وعبَّادُ** بنُ يَعْقوبَ الرَّواجِنيُّ. **وعمرُو** بنُ بَحْرٍ الجاحظُ، صاحبُ الكلامِ والمُصَنَّفاتِ. **وكَثيرُ** بنُ عُبَيْدٍ الحِمْصيُّ. **ونَصْرُ** بنُ عليٍّ الجَهْضَميُّ.

ثم دخلت سنةُ إحدى وخمسين ومائتين

فيها: اجْتَمَع رأيُ المُستَعينِ وبُغا الصغيرِ ووَصيفٍ على قَتْلِ باغرَ التُّرْكيِّ، وكان من القوَّادِ الكبارِ الذين باشَروا قتْلَ المُتوكِّلِ، وقد اتَّسَع إقْطاعُه وكثُرتْ أعْمالُه، فقُتِل ونُهِبتْ دارُ كاتبِه دُلَيلِ بنِ يعقوبَ النصرانيِّ، ونُهِبتْ أموالُه وحواصلُه، فركب الخليفةُ في حَرَّاقَةٍ من سامَرَّا إلى بغدادَ؛ فاضْطَربَت الأمورُ بسَبَبِ خُروجِه إليها، وذلك في خامسِ المحرَّمِ، فنزَل الخليفةُ دارَ محمدِ بنِ عبدِ الله بنِ طاهرٍ.

وفي هذه السنةِ وقَعتْ فتْنَةٌ شَنْعاءُ بينَ جُنْدِ بَغْدادَ وجُنْدِ سامَرَّا، ودَعا أهلُ سامَرَّا إلى بيعةِ المعتزِّ، واستَقرَّ أمرُ أهلِ بغدادَ على المستعينِ، وأُخرِج المعتزُّ وأخوه المؤيَّدُ من السِّجنِ فبايَع أهلُ سامَرَّا المعتزَّ، واستَحوذَ على حَواصلِ بيتِ المالِ بها؛ فإذا فيها خمسُمائةِ ألفِ دينارٍ، وفي خزانةِ أُمِّ المستعينِ ألفُ ألفِ دينارٍ، وفي حَواصلِ العباسِ بنِ المستعينِ ستُّمائةِ ألفِ دينارٍ، واستَفحَل أمرُ المعتَزِّ بسامَرَّا، وأمَر المستعينُ لمحمدِ بنِ عبدِ الله بنِ طاهرٍ أن يُحصِّنَ بغدادَ ويعمَلَ في السُّورَيْنِ والخندقِ، وغرِم على ذلك ثلاثَمائةِ ألفِ دينارٍ وثلاثينَ ألفَ دينارٍ، ووكَّلَ بكلِّ بابٍ أميرًا يحفَظُه، ونصَبَ على السُّورِ خمسةَ مجانيقَ، منها واحدٌ كبيرٌ جدًّا يقالُ له: الغَضْبانُ. وستَّ عَرادَاتٍ، وأعَدُّوا آلاتِ الحربِ والحصارِ والعُدَدَ، وقُطِعت القناطرُ من كلِّ ناحيةٍ؛ لئلاَّ يصِلَ الجيشُ إليهم.

وكتَب المعتزُّ إلى محمدِ بنِ عبدِ الله بنِ طاهرٍ يدعُوه إلى الدخولِ معه في أمْرِه، ويُذكِّرُه ما كان أخَذه عليهم أبوه المتوكِّلُ من العُهودِ والمواثيقِ أن تكونَ الخلافةُ بعدَ المنتصرِ له، فلم يلتَفتْ إليه بل ردَّ

عليه واحتَجَّ بحُجَجٍ يطولُ ذِكرُها.

وكتَب كلٌّ واحدٍ مِن المستعينِ والمعتزِّ إلى موسى بنِ بُغا الكبيرِ وهو مُقيمٌ بأطرافِ الشامِ لحربِ أهلِ حِمصَ يدعُوه إلى نفسِه، وبعَث إليه بألويةٍ يَعقِدُها لمَن اختارَ مِن أصحابِه، وكتَب إليه المستعينُ يأمُرُه بالمسيرِ إليه إلى بغدادَ، ويأمُرُه أن يستنيبَ في عملِه، فركِبَ مسرعًا فسار إلى سامَرًّا فكان مع المعتزِّ على المستعينِ، وكذلك هرَبَ عبدُ اللهِ بنُ بغا الصغيرِ مِن عندِ أبيه، مِن بغدادَ إلى سامَرّا، وكذلك غيرُه مِن الأمراءِ والأتراكِ.

وعقَد المعتزُّ لأخيه أبي أحمدَ بنِ المتوكِّلِ على حربِ المستعينِ، وجهَّز معه جيشًا لذلك، فسارَ في خمسةِ آلافٍ مِن الأتراكِ وغيرِهم نحوَ بغدادَ، وصلَّى بعُكبَرا يومَ الجُمُعةِ، ودعَا لأخيه المعتزِّ، ثم وصَل إلى بغدادَ في ليلةِ الأحدِ لسبعٍ خلَوْنَ مِن صفَرٍ، فاجتَمَعتِ العساكرُ هُنالكَ، وقد قال رجلٌ يقالُ له: باذنجانَةُ. كان في عسكرِ أبي أحمدَ:

يا بَني طاهرٍ أتَتْكم جُنودُ الـ	ـلهِ والموتُ بينها مَنْثورُ
وجُيوشٌ أمامَهُنَّ أبو أحـ	ـمدَ نِعْمَ المولَى ونِعْمَ النصيرُ

ثم جرَتْ بينَهما حروبٌ طويلةٌ وفتنٌ مَهُولَةٌ جدًّا قد ذكَرها ابنُ جريرٍ مُطوَّلَةً، ثم بعَث المعتز مع مُوسى بنِ أشناسَ ثلاثةَ آلافٍ مددًا لأخيه أبي أحمدَ بنِ المتوكِّلِ، فوصَلوا لليلةٍ بقِيَتْ مِن ربيعٍ الأوَّلِ، فوقَفوا في الجانبِ الغربيِّ عندَ بابِ قُطْرُبُّلَ، وأبو أحمدَ وأصحابُه على بابِ الشَّمّاسيَّةِ، والحربُ مُستَعِرَةٌ والقِتالُ كثيرٌ، والقتلُ واقعٌ.

قال ابنُ جريرٍ: وذُكِر أنَّ المعتزَّ كتَب إلى أخيه أبي أحمدَ يلُومُه على التَّقصيرِ في قِتالِ أهلِ بغدادَ، فكتَب إليه أبو أحمدَ:

لأمْرِ المنايا علينا طَريقُ	وللدَّهْرِ فينا اتساعُ وضيقُ
فأيَّامُنا عِبَرٌ للأنامِ	فمنها البُكُورُ ومنها الطُّروقُ
ومنها هَنَاتٌ تُشيبُ الوليدَ	ويَخْذُلُ فيها الصديقَ الصديقُ
وسورٌ عريضٌ له ذِرْوَةٌ	تَفُوتُ العُيونَ وبَحْرٌ عميقُ
قِتالٌ مُبِيدٌ وسَيْفٌ عَتيدٌ	وخَوْفٌ شديدٌ وحِصْنٌ وَثيقُ
وطولُ صِياحٍ لداعي الصَّباحِ الـ	ـسلاحَ السلاحَ فما يَسْتَفيقُ
فهذا طَرِيحٌ وهذا جَريحٌ	وهذا حَرِيقٌ وهذا غَريقُ
وهذا قَتيلٌ وهذا تَليلٌ	وآخرُ يشْدَخُهُ المَنْجَنيقُ
هناك اغْتِصابٌ وثَمَّ انْتِهابٌ	ودُورٌ خَرابٌ وكانتْ تَرُوقُ
إذا ما سَمَوْنا إلى مَسْلَكٍ	وجَدْناه قد سُدَّ عنا الطَّريقُ
فباللهِ نبْلُغُ ما نَرتَجيهِ	وباللهِ ندفَعُ ما لا نُطيقُ

قال ابنُ جَرير: هذا الشعرُ يُنشَدُ لعليِّ بنِ أُميَّةَ في فتنَةِ المخلُوعِ والمأمُونِ.

وقد استمرَّت الفتنةُ والقتالُ ببغدادَ بينَ أبي أحمدَ أخي المعتزِّ وبينَ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ نائبِ المستعينِ، والبَلَدُ محصُورٌ وأهلُه في ضيقٍ شديدٍ جدًّا، بقيَّةَ شُهورِ هذه السنَةِ، وقُتِل من الفريقينِ خلقٌ كثيرٌ في وَقَعاتٍ مُتعدِّداتٍ، وأيامٍ نَحِساتٍ؛ فتارَةً يظهَرُ أصْحابُ أبي أحمدَ ويأخذُون بعضَ الأبوابِ، فتَحْمِلُ عليهم الطاهريَّةُ فيُزيحُونَهم عنها، ويقْتُلون منهم خلْقًا، ثم يتراجَعون إلى مَواقفِهم ويُصابِرُونَهم مُصابَرةً عظيمةً، لكنَّ أهلَ بغدادَ كلُّ ما لهم إلى ضَعْفٍ بسَببِ قِلَّةِ الميرَةِ والجَلَبِ إلى داخلِ البلدِ.

ثم شاع بينَ العامَّةِ أنَّ محمدَ بنَ عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ يريدُ أن يَخْلَعَ المستَعينَ ويُبايعَ للمعتزِّ، وذلك في أواخرِ السنَةِ، فتنَصَّلَ مِن ذلك، واعْتذَرَ إلى الخليفةِ وإلى العامَّةِ، وحلَف بالأيْمانِ الغليظَةِ، فلم تَبْرَأْ ساحتُه مِن ذلك حقَّ البَراءَةِ عندَ العامَّةِ، واجْتَمَعَت العامَّةُ والغَوْغاءُ إلى دارِ ابنِ طاهرٍ والخليفةُ نازلٌ بها، فسألُوا أن يَبرُزَ لهم الخليفةُ ليَرَوْه ويسألُوه عن ابنِ طاهرٍ؛ أهو راضٍ عنه أم لا؟ وما زالَت الضَّجَّةُ والأصواتُ مرتفعةً حتى برزَ الخليفةُ مِن فَوْقِ المكانِ الذي هم فيه، وعليه السَّوادُ ومِن فوقِه البُرْدَةُ النَّبَوِيَّةُ وبيَدِه القَضيبُ، وقال لهم فيما خاطَبَهم به: أقْسَمْتُ عليكم بحقِّ صاحبِ هذه البُرْدَةِ والقَضيبِ، لَمَا رَجَعْتُم إلى مَنازلِكم ورضِيتُم عن ابنِ طاهرٍ؛ فإنَّه غيرُ متَّهَمٍ لَدَيَّ. فسكَتَ الغَوْغاءُ ورجَعوا إلى مَنازلِهم، ثم انتقَل الخليفةُ مِن دارِ ابنِ طاهرٍ إلى دارِ رِزْقٍ الخادمِ، وذلك في أوائلِ شهرِ ذي الحجَّةِ، وصلَّى بهم العيدَ يومَ الأضْحَى في الجزيرةِ التي بحذاءِ دارِ ابنِ طاهرٍ، وبرزَ الخليفةُ يومَئذٍ للناسِ وبينَ يَدَيْه الحرْبَةُ، وعليه البُرْدَةُ وبيَدِه القَضيبُ، وكان يومًا مشْهُودًا ببغدادَ على ما بأَهْلِها مِن الحِصارِ وغَلاءِ الأسعارِ المُتَرْجَمَينِ عن لباسِ الجُوعِ والخوْفِ، نسْألُ اللهَ العافيةَ في الدنيا والآخرةِ.

ولمَّا تفاقَمَ الأمرُ، واشتَدَّ الحالُ، وضاقَ المجالُ، وجاعَ العِيالُ، وجهَدَ الرِّجالُ، شرَعَ ابنُ طاهرٍ يُظْهِرُ ما كان كامنًا في نفْسِه مِن خَلْعِ المستَعينِ، فجَعَل يُعَرِّضُ له بذلك ولا يُصَرِّحُ، ثم كاشَفَه به وأظْهَرَه له، وناظَرَه فيه، وقال له: إنَّ المصْلَحةَ تقْتَضِي أن تُصالحَ عن الخلافةِ على مالٍ تأخذُه سَلَفًا وتعْجيلًا، وأن يكونَ لك مِن الخَراجِ في كلِّ عامٍ ما تختارُه وتحتاجُه. ولم يزَلْ يفْتِلُ له في الذِّرْوَةِ والغاربِ حتى أجابَ إلى ذلك وأنابَ. فكتَب بما اشْتَرطَه المستعينُ في خَلْعِه نفْسَه مِن الخلافةِ كتابًا. فلمَّا كان يومُ السبتِ لعَشْرٍ بَقِينَ مِن ذي الحجَّةِ ركِبَ محمدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ إلى الرُّصافَةِ، وجمَع القُضاةَ والفُقَهاءَ وأدْخَلَهم على المستَعينِ فَوْجًا فَوْجًا، يَشْهَدونَ عليه أنَّه قد صيَّرَ أمْرَه إلى محمدِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ، وكذلك جماعةَ الحُجَّابِ والخَدَمِ، ثم تسلَّمَ منه جَوْهَرَ الخلافةِ، وأقامَ عندَ المُستَعينِ إلى هَوِيٍّ مِن الليلِ. وأصبح الناسُ يذْكُرونَ ويتنَوَّعُونَ فيما يقولُونَ مِن الأراجيفِ. وأمَّا ابنُ طاهرٍ، فإنَّه أرْسَل بالكتابِ مع جماعةٍ مِن الأُمراءِ إلى المعتزِّ بسامَرَّا، فلمَّا قَدِموا عليه بذلك أكْرَمَهم وخلَع عليهم، وأجازَهم فأسْنَى جَوائزَهم، وسيأْتي ما كان مِن أمْرِه أوَّلَ السَّنةِ الداخلَةِ.

وفي هذه السنةِ في ربيع الأول منها كان ظهورُ رجُلٍ من أهلِ البيتِ أيضًا بأرضِ قَزْوينَ وزَنْجانَ؛ وهو الحسينُ بنُ أحمدَ بنِ إسْماعيلَ بنِ محمدِ بنِ إسماعيلَ الأرْقَطِ بنِ محمدِ بنِ عليِّ بنِ الحسينِ بنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ، ويُعرَفُ بالكَوْكَبِيِّ. وسيأتي ما كان من أمْرِه هناك.

وفيها: خرَج إسْماعيلُ بنُ يُوسُفَ العَلَوِيُّ، وهو ابنُ أختِ مُوسى بنِ عبدِ اللهِ الحسَنِيِّ. وسيأتي ما كان من أمْرِه، أيضًا.

وفيها: خرج بالكُوفَةِ أيضًا رجلٌ من الطَّالبِيِّينَ؛ وهو الحسينُ بنُ محمدِ بنِ حَمْزَةَ بنِ عبدِ اللهِ بنِ حُسينِ بنِ عليِّ بنِ الحُسينِ بنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ، فوَجَّه إليه المُستعينُ مُزاحِمَ بنَ خاقَانَ، فاقْتَتلا فهُزِمَ العلَوِيُّ وقُتل مِن أصْحابِه بشَرٌ كثيرٌ، ولَمَّا دخَل مُزاحِمٌ الكُوفَةَ حرَق بها ألفَ دارٍ ونَهَب أمْوالَ الذين خرَجوا معه، وباعَ بعضَ جَوارِي الحُسينِ بنِ محمدٍ هذا - وكانت مُعْتَقَةً - على بابِ المسجدِ الجامعِ.

وفيها: ظهَر إسْماعيلُ بنُ يُوسُفَ بنِ إبْراهيمَ بنِ موسى بنِ عبدِ اللهِ بنِ الحسنِ بنِ الحسنِ بنِ عليِّ ابنِ أبي طالبٍ بمَكَّةَ، فهرَبَ منه نائبُها جَعْفَرُ بنُ الفَضْلِ بنِ عيسى بنِ موسى، فانتَهبَ إسماعيلُ بنُ يوسفَ منْزِلَه ومنازلَ أصْحابِه، وقتَل جماعةً مِن الجُنْدِ وغيرَهم مِن أهلِ مكةَ، وأخَذ ما في الكعبةِ مِن الذهبِ والفِضَّةِ والطِّيبِ وكُسْوَةَ الكعبةِ، وأخَذ مِن الناسِ نحوًا مِن مائتَيْ ألفِ دينارٍ، ثم خرَج إلى المدينةِ النبويَّةِ، فهرَب منه عامِلُها عليُّ بنُ الحُسينِ بنِ إسماعيلَ، ثم رجَع إسْماعيلُ بنُ يُوسُفَ إلى مكَّةَ في رجَبٍ، فحصَرَ أهْلَها حتى هلَكوا جوعًا وعطَشًا، فبيعَ الخُبْزُ ثلاثُ أواقٍ بدِرْهَمٍ، واللحمُ الرِّطْلُ بأرْبعةٍ، وشَرْبةُ الماءِ بثَلاثَةِ دَراهِمَ، ولَقِي منه أهلُ مكَّةَ كلَّ بَلاءٍ، ثم رجَع عنهم إلى جُدَّةَ - بعدَ مُقامِ سبعةٍ وخمسين يومًا - فانتهَب أموالَ التُّجّارِ هنالك، وأخَذ المراكبَ وقطَع المِيرَةَ عن أهلِ مكةَ حتى جُلِبَتْ إليها مِن اليمنِ، ثم عادَ إلى مكَّةَ - لا جَزَاه اللهُ خيرًا عن المسلمين - فلمَّا كان يومُ عرَفَةَ، لم يُمكِّنِ الناسَ مِن الوقوفِ نَهارًا ولا ليْلًا، وقتَل مِن الحجيجِ ألفًا ومائةً، وسَلَبَهم أمْوالَهم ولم يَقِفْ بعرَفَةَ عامَئذٍ سِواه ومَن معه مِن أصحابِه، لا تقبَّلَ اللهُ منهم صَرْفًا ولا عَدْلًا.

وفيها تُوفِّي من الأعْيان:

إسْحاقُ بنُ منصورٍ الكَوْسَجُ. وحُمَيدُ بنُ زَنْجَوَيْهِ. وعمرُو بنُ عثمانَ بنِ كَثيرِ بنِ دينارٍ الحِمْصيُّ.

وأبو التَّقِيِّ هشامُ بنُ عبدِ الملكِ اليَزَنيُّ.

ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين ومائتين

«ذكر خلافة المعتز بالله بن المتوكل على الله بعد خلع المستعين نفسه»

استهلّتْ هذه السنةُ وقد استقرَّت الخلافةُ باسْم أبي عبد الله المُعتزِّ محمد بن جَعْفَر المُتوكِّل بن محمد المعتصم بن هارُونَ الرَّشيد بن محمد المهديِّ بن أبي جعفر المنصور، وقيل: إنَّ اسمَ المعتزِّ أحمدُ. وقيلَ: الزُّبَيْرُ. وهو الذي عوَّلَ عليه الحافظُ ابنُ عساكرَ وترْجمَه في «تاريخه». فلمَّا خلَع المُسْتَعِينُ - أحمدُ بنُ محمد المعتصم - نفْسَه من الخلافة وبايعَ للمعتزِّ، دعَا الخطباءُ يومَ الجُمُعة رابعَ المحرم من هذه السنَة بجَوامع بغدادَ على المنابر للخليفة المعتزِّ بالله. وانْتَقَل المستعينُ من الرُّصَافة إلى قَصْر الحسَن بن سَهْل هو وعيالُه ووَلَدُه وجَواريه، ووكَّلَ بهم سعيدَ بنَ رَجاء في جَماعَة معه، وأخَذ من المستَعين البُرْدَةَ والقَضيبَ والخاتَمَ، وبعَث بذلك إلى المعتزِّ، ثم أرسَل إليه المعْتزُّ يطلُبُ منه خاتَمَيْن من جَوْهَر ثمين بقيا عندَه يقالُ لأحَدهما: بُرْجٌ. وللآخر: جبَلٌ. فأرْسَلَهما. وطلَب المستَعينُ أنْ يسيرَ إلى مكَّةَ فلم يُمكَّنْ، فطلَبَ البصرةَ فقيل له: إنَّها وَبِيئَةٌ. فقال: إنَّ تَرْكَ الخلافَة أوْبَأُ منها. ثم أُذن له في المَسير إلى واسط، فخرَج ومعه حرَسٌ يُوصِلُونَه إليها نحوٌ من أرْبعمائة.

واسْتَوْزَرَ المُعْتزُّ أحمدَ بنَ أبي إسْرائيلَ، وخلَعَ عليه، وألْبسَه تاجًا على رأسه. ولَمَّا تمَهَّدَ أمرُ بغدادَ، واستقرَّت البيعةُ للمعتزِّ بها، ودَانَ له أهلُها واجتمَع شملُها، وقَدمَتها الميرَةُ من كلِّ جانب، واتَّسَع الناسُ في الأرزاق والأطْعمَة، ركبَ أبو أحمدَ منها في يوم السبت لاثْنَتَيْ عشْرَةَ ليلةً خلَت من المحرَّم إلى سامرَّا، وشيَّعه محمدُ بنُ عبد الله بن طاهر في وجوه القوَّاد، فخلَعَ أبو أحمدَ علي بن طاهر خمسَ خلَع وسيْفًا، وردَّه من الرُّوذبار.

وقد ذكر ابنُ جَرير مَدائحَ الشعراء في المعتزِّ وتَشَفِّيهم بخَلْع المستعين، فأكثرَ من ذلك جدًّا، فمن ذلك قولُ محمد بن مَرْوان بن أبي الجَنُوب بن مَرْوانَ في مدح المعتزِّ وذمِّ المستعين كما جرَتْ به عادَةُ الشعراء:

إنَّ الأمُورَ إلى المعتزِّ قد رجَعَتْ ... والمستَعينُ إلى حالاتِه رجَعا
وكانَ يعلَمُ أنَّ الملكَ ليس له ... وأنَّه لكَ لكن نفسَه خدَعا
ومالكُ المُلك مُؤتيه ونازعُه ... آتاكَ مُلكًا ومنه المُلكَ قد نزَعا
إنَّ الخلافةَ كانت لا تُلائمُه ... كانت كذات حَليل زُوِّجَت مُتَعا
ما كان أقبَحَ عندَ الناس بيعتَه ... وكان أحسَنَ قولَ الناس قد خُلعَا
ليت السَّفينَ إلى قاف دفَعْنَ به ... نفسي الفداءُ لملاح به دفَعا
كم ساسَ قَبلَك أمْرَ النّاس من ملك ... لو كانَ حُمِّلَ ما حُمِّلْتَه ظَلَعا
أمْسَى بك الناسُ بعدَ الضِّيق في سَعَة ... واللهُ يجعَلُ بعدَ الضِّيق مُتَّسَعا
واللهُ يدْفَعُ عنكَ السُّوءَ من مَلك ... فإنَّه بكَ عنَّا السُّوءَ قد دفَعا

وكتَب أميرُ المؤمنينَ المعتزُّ مِن سامرًّا إلى نائبِ بغدادَ محمدِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ أن يُسقطَ اسمَ وَصيفٍ وبُغا ومَن كان في رسمِهما في الدَّواوينِ، وعزَمَ على قتلِهما، ثم استُرْضِيَ عنهما، فرَضِيَ عنهما.

وفي رَجَبٍ مِن هذه السَّنَةِ خلَع المعتزُّ أخاه إبراهيمَ الملقَّبَ بالمُؤَيَّدِ مِن ولايةِ العَهْدِ وحبَسه، وأخاه أبا أحمدَ، بعدَما ضرَب المؤيَّدَ أربعين مَقْرَعَةً. ولمَّا كان يومُ الجُمُعةِ سابِعُه خطَب بخَلْعِه، وأمَره أنْ يكتُبَ كتابًا على نفسِه بذلك. وكانت وَفاتُه بعدَ ذلك بخمسةَ عشَرَ يومًا، فقيل: إنَّه أُدْرِجَ في لحافِ سَمُّورٍ وأُمْسِكَ طرَفاه حتى ماتَ غَمًّا. وقيل: بل ضُرِبَ بحجارةٍ مِن ثَلْجٍ حتى ماتَ بَرْدًا. وبعدَ ذلك كلِّه أُخرِجَ مِن السِّجنِ ولا أثَرَ به، فأُحضِرَ القُضاةُ والأعيانُ فأُشهِدُوا على موتِه مِن غيرِ سببٍ وليس به أثرٌ، ثم حُمِلَ على حمارٍ ومعه كفَنُه، فأُرسِل به إلى أُمِّه فدفَنَتْه.

ذِكرُ مقتلِ المستعين

في شوال من هذه السنة كتب المعتز إلى نائبه محمد بن عبد الله بن طاهر يأمره بتجهيز جيش نحو المستعين، فجهَّزَ أحمدَ بنَ طُولُونَ التُّرْكيَّ فوافاه، فأخرَجَه لستٍّ بَقِينَ مِن رمضانَ فقَدِم به القاطولَ لثلاثٍ مَضَيْنَ مِن شَوَّالٍ ثم قُتِل؛ فقيل: ضُرِبَ حتى ماتَ، وقيل: بل غُرِّقَ في دُجَيْلٍ، وقيلَ: بل ضُرِبتْ عُنُقُه.

وقد ذكَر ابنُ جَريرٍ أنَّ المُستَعينَ سأَل مِن سعيدِ بنِ صالحٍ التُّرْكيِّ حينَ أرادَ قتْلَه أن يُمهِلَه حتى يُصلِّيَ ركْعتَيْنِ، فأمْهلَه، فلمَّا كان في السجْدَةِ الأخيرةِ قتَلَه وهو ساجدٌ، ودفَن جُثَّتَه في مكانِ صلاتِه، وعفا أثَرَه، وحمَل رأسَه إلى المعتزِّ فدخَل به عليه وهو يلْعَبُ بالشِّطْرَنْجِ، فقيل: هذا رأسُ المخلُوعِ. فقال: ضَعُوه حتى أفرُغَ مِن الدَّسْتِ. فلمَّا فرَغَ نظَر إليه، وأمَر بدَفْنِه، ثم أطلَق لسعيدِ بنِ صالحٍ الذي قتلَه خمسينَ ألفَ دِرْهَمٍ، ووَلَّاه مَعُونةَ البَصْرَةِ.

وفي هذه السنة ماتَ:

إسْماعيلُ بنُ يُوسُفَ العَلَويُّ الذي فعَل بمَكَّةَ ما فَعَلَ، وألحَد في حرمِ الله ما ألحدَ - كما تقدَّم - فأهْلَكه اللهُ في هذه السنةِ عاجلًا ولم يُنْظِرْه. **وأحمدُ** بنُ محمدٍ المعتصمِ، وهو المُسْتَعِينُ باللهِ كما تقدَّم. **وإسحاق** بنُ بُهلولٍ، **وزيادُ** بنُ أيُّوبَ، **ومحمدُ** بنُ بَشَّارٍ، بُنْدارٌ، **ومحمدُ** بنُ المُثَنَّى الزَّمِنُ، **ويَعقُوبُ** بنُ إبراهيمَ الدَّوْرَقِيُّ.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين ومائتين

في رجَبٍ منها عقَد المعتزُّ لموسى بنِ بُغا الكبيرِ على جيشٍ قريبٍ مِن أربعةِ آلافٍ؛ ليذْهَبُوا إلى قتالِ عبدِ العزيزِ بنِ أبي دُلَفَ بناحيةِ هَمَذَانَ؛ وذلك لأنَّه خرَج عن الطاعةِ، وهو في نحْوٍ مِن عشرينَ ألفًا، فهزَمُوا عبدَ العزيزِ في أواخرِ هذا الشهرِ هزيمةً فظيعةً. ثم كانت بيْنَهما وَقْعَةٌ أخرَىٰ في رمضانَ عندَ

الكَرَج فهزَمَ عبدُ العزيز أيضًا، وقُتِل من أصحابه بشرٌ كثيرٌ، وأسَروا ذَراريَّ كثيرةً حتى أسَروا أمَّ عبدِ العزيز، وبعثُوا إلى الخليفة سبعينَ حِملاً مِنَ الرُّءوسِ وأعلامًا كثيرةً، وأُخِذ من عبدِ العزيزِ ما كان استَحوذَ عليه من بلادِ الخليفة.

وفي رمضانَ منها خلَع المعتزُّ على بُغا الشرابيِّ، وألْبَسه التاجَ والوِشاحَيْن.

وفي يوم عيدِ الفطرِ كانتْ وَقْعَةٌ هائلةٌ عندَ البوازيج؛ وذلك أنَّ رجلاً يُقالُ له: مُساورُ بنُ عبدِ الحميدِ حكَمَ فيها والْتَفَّ عليه نحوٌ من سبعمائةٍ من الخوارجِ، فقصَد له رجلٌ يقالُ له: بُنْدارٌ الطَّبَريُّ في نحوٍ من ثلاثمائةٍ من أصحابِه، فالتقَوا في هذا اليومِ فاقْتَتَلُوا قتالاً شديدًا، فقُتِل من الخوارج نحوٌ من خمسينَ، وقُتِل من أصحابِ بُندارٍ مائتان، وقيل: وخمسونَ رجلاً. وقُتِل بُنْدارٌ في مَنْ قُتِل، رحمه اللهُ. ثم صمَدَ مُساورٌ إلى حُلْوانَ، فقاتلَه أهلُها، وأعانَهم حُجَّاجُ أهلِ خُراسانَ، فقتَلَ مُساورٌ منهم نَحْوًا من أربعمائةِ إنسانٍ، قبَّحَه اللهُ. وقُتِل من أصحابِه جماعةٌ كثيرون أيضًا. ولثَلاثٍ بقِينَ من شَوَّالٍ قُتِل وَصيفٌ التُّركيُّ، وأرادَت العامَّةُ أن تَنْهَبَ دارَه بسامَرَّا ودُورَ أولاده، فلم يُمكِنْهم ذلك، وجعَل الخليفةُ المعتزُّ ما كان إليه إلى بُغا الشرابيِّ.

وفي ليلة أربعَ عشْرَةَ من ذي القَعدة من هذه السَّنَة خسَف القمرُ حتى غابَ أكثرُه وغرِقَ نورُه، وعندَ انتهاءِ خُسوفه ماتَ محمدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ نائبُ العراقِ ببغدادَ. وكانت علَّتُه قُروحًا في رأسه وحَلْقه فذَبَحتْه، ولمَّا أُتِي به ليُصلَّى عليه اختَلَف أخوه عُبَيْدُ الله وابنُه طاهرٌ، أيهما يُصلِّي عليه، وتَنازَعا حتى جُذِبت السُّيوفُ وتَرامَى الناسُ بالحجارة، وصاحت الغَوْغاءُ: يا طاهرُ، يا منْصورُ. فمالَ عبيدُ الله إلى الشرقيَّة ومعه القُوَّادُ وأكابِرُ الناسِ، فدخَل دارَه وكان أخوه قد أوْصَى إليه. وحينَ بلَغ المُعْتَزَّ ما وقَع بعَث بالخِلَع والولايةِ إلى عُبَيدِ الله بنِ عبد الله بنِ طاهرٍ، فأَطْلَق عُبيدُ الله للذي قَدِمَ بالخِلَع خمسينَ ألفَ درهمٍ.

وفيها: نفَى الخليفةُ المُعْتَزُّ أخاه أبا أحمدَ من سُرَّ مَنْ رأَى إلى واسطٍ، ثم إلى البَصْرَة، ثم رُدَّ إلى بغدادَ، فأُنزِل في الشرقيَّة في قصرِ دينارِ بنِ عبدِ الله.

وفيها: نُفِي عليُّ بنُ المعتصم إلى واسطٍ، ثم رُدَّ إلى بَغْدادَ أيضًا.

وفي يوم الإثنين سَلْخ ذي القَعْدة التقَى موسى بنُ بُغا الكبيرِ هو والحسينُ بنُ أحمدَ الكَوْكَبيُّ الطَّالبيُّ الذي خرَج في سنة إحدَى وخمسينَ عندَ قَزْوينَ، فاقْتَتَلا قتالاً شديدًا، ثم هُزِم الكَوْكَبيُّ وأخَذ موسى بنُ بُغا قَزْوينَ، وهرَبَ الكَوْكَبيُّ إلى الدَّيْلَم. وذكَر ابنُ جَريرٍ عن بعضِ مَن حضَر هذه الوقعةَ أنَّ الكَوكبيَّ حينَ الْتقَى أمَر أصحابَه أنْ يَتترَّسُوا بالحَجَف، فكانت السِّهامُ لا تعْمَلُ فيهم، فأمَر موسى ابنُ بُغا أصحابَه عندَ ذلك أنْ يطرَحُوا ما معهم مِن النِّفْط بالأرضِ، ثم جاولُوهم وأرَوْهم أنَّهم قد انهزَمُوا منهم، فتَبِعَهم أصْحابُ الكوكبيِّ، فلمَّا توَسَّطُوا الأرضَ التي فيها النِّفْطُ أمَر عندَ ذلك بإلْقاءِ النارِ فيه، فجعَلت النارُ تحرِقُ أصْحابَ الكَوْكَبيِّ، ففَرُّوا سِراعًا هاربينَ، وكَرَّ عليهم موسى وأصْحابُه

فقتلوا منهم مَقْتَلةً عظيمةً، وهرَب الكوكَبِيُّ إلى الدَّيْلَم، وتسلَّم موسى بنُ بُغا قَزْوين.

وفيها حجَّ بالناسِ عبدُ الله بنُ محمدِ بنِ سليمانَ الزَّيْنَبِيُّ.

وممَّن تُوفِّي من الأعيان:

أبو الأشعَث. وأحمدُ بنُ سعيدٍ الدَّارميُّ.

وسَريٌّ السَّقطيُّ، أحدُ كبارِ مَشايخِ أئمةِ الصوفيَّةِ، وهو السَّريُّ بنُ المُغَلِّسِ أبو الحسنِ السَّقَطيُّ البَغداديُّ، تلميذُ مَعْروفٍ الكَرْخيِّ، حدَّث عن هُشيمٍ، وأبي بكرِ بنِ عَيَّاشٍ، وعليِّ بنِ غُرابٍ، ويحيى بنِ يَمانٍ، ويزيدَ بنِ هارونَ، وغيرِهم. وعنه ابنُ أختِه الجُنَيْدُ بنُ محمدٍ، وأبو الحسَنِ النُّوريُّ، ومحمدُ بنُ الفَضْلِ بنِ جابرٍ السَّقَطيُّ، وجماعةٌ.

وكانت له دكَّانٌ يتَّجِرُ فيها، فمرَّتْ به جاريةٌ قد انكَسَر إناءٌ كان معها تشتري فيه شيئًا لسادَتِها، فجعلَت تبكي، فأعطاها سريٌّ شيئًا تشتَري به بَدلَه، فنَظر مَعْروفٌ إليه وما صنَع بتلك الجاريةِ، فقال له: بغَّضَ اللهُ إليك الدُّنيا.

وقال سَريٌّ: مرَرْتُ في يومِ عيدٍ، فإذا مَعروفٌ ومعه صبيٌّ صَغيرٌ شَعِثُ الحالِ، فقلتُ: ما هذا؟ فقال: هذا كان واقفًا والصِّبيانُ يلْعَبون وهو مُنكسِرٌ، فقلتُ له: ما لَكَ لا تلْعَبُ؟ فقال: أنا يتيمٌ ولا شيء معي أشْتَري به جَوْزًا ألْعَبُ به. فأخَذْتُه لأَجْمَع له نَوًى يشتري به جَوْزًا يفرَحُ به، فقلْتُ: ألاَ أكْسُوه وأُعْطِيه شيئًا يشْتري به جَوْزًا؟ فقال: أوَ تَفعَلُ؟ فقلتُ: نعم. فقالَ: خُذْه، أغْنَى اللهُ قلبَك. قال: فسويت الدُّنيا عندي أقلَّ شيء.

وكان عندَه مرَّةً لَوزٌ، فساوَمَه رجلٌ على الكُرِّ بثلاثةٍ وستِّينَ دينارًا، ثم ذهَب الرجلُ، فإذا اللَّوْزُ يُساوِي الكُرُّ منه تسْعينَ دينارًا، فقال له: إنِّي أشْتَري منك الكُرَّ بتسْعينَ دينارًا. فقال: إنِّي ساوَمْتُكَ بثلاثةٍ وستِّينَ، وإنِّي لا أبيعُه إلاَّ بذلك. فقال الرجلُ: وأنا أشْتَري منك بتسْعينَ. فقال: لا أبيعُه إلاَّ بما ساوَمْتُك عليه. فقال الرجلُ: إنَّ مِنَ النُّصْحِ ألاَّ أشْتَريَ منك إلاَّ بتسعينَ دينارًا. وذهَب فلم يَشْتَرِ منه.

وجاءَت امرأةٌ يومًا إلى سَريٍّ فقالتْ: إنَّ ابني قد أخَذه الحرسُ، وإنِّي أُحبُّ أن تبْعَثَ إلى صاحبِ الشُّرْطة لئلاَّ يُضرَبَ. فقام فكبَّر وطوَّل في الصَّلاة، وجَعَلَت المرأةُ تحْتَرقُ في نفْسها، فلمَّا انْصرفَ من الصلاةِ قالتِ المرأةُ: اللهَ اللهَ في ولَدي. فقالَ هاأنذا في حاجتِك. فما قام من مَجلسِه حتى جاءَت امرأةٌ إلى تلك المرأة فقالتْ: أبشِري، فقد أَطْلَقَ المُتولِّي ولدَك. فانْصرَفتْ إليه. وقال سَريٌّ: أشْتَهي أنْ آكُلَ أكْلَةً ليس لله عليَّ فيها تَبِعَةٌ، ولا لأحَدٍ عليَّ فيها مِنَّةٌ، فما أجدُ إلى ذلك سبيلاً. وفي روايةٍ قال: إنِّي لأشتَهي البَقْلَ منذُ ثلاثينَ سنَةً، فما أقْدِرُ عليه. وعن السَّريِّ أنَّه قال: احْتَرقَ سُوقُنا، فقَصدْتُ المكانَ الذي فيه دكَّاني، فتلَقَّاني رجلٌ فقال: أبْشِرْ؛ فإنَّ دُكَّانَك قد سَلِمَتْ. فقلتُ: الحمدُ لله. ثم تذكَّرتُ ذلك التَّحْميدَ، فأنا أسْتغفرُ اللهَ منه منذُ ثلاثينَ سنةً. رواها الخطيبُ.

وقال السَّريُّ: صلَّيتُ وِرْدي ذاتَ ليلةٍ ثم مدَدْتُ رِجلي في المحْراب، فنُوديتُ: يا سَرِيُّ، كذا تجالسُ المُلوكَ؟ قال: فضمَمْتُ رِجْلي ثم قلتُ: وعِزَّتكَ لا مدَدْتُ رِجْلي أبدًا. وقال الجُنَيْدُ بنُ محمدٍ: ما رأيتُ أعْبدَ لله من السَّريِّ السَّقَطيِّ؛ أتَتْ عليه ثمانٍ وتسعونَ سنةً ما رُئِيَ مُضْطَجِعًا إلاَّ في عِلَّةِ الموت. وقال الخطيبُ: عن أبي نُعَيْمٍ، عن جَعْفَرٍ الخُلْديِّ، عن الجُنَيْدِ بنِ محمدٍ قال: دخلتُ عليه أعُودُه، فقلتُ: كيفَ تجدُكَ؟ فقال: كيف أشْكُو إلى طَبيبي ما بي، والذي قد أصابَني من طَبيبي.

قال: فأخَذْتُ المِرْوَحَةَ أُروِّحُه، فقال لي: كيفَ يَجِدُ روحَ المِرْوَحَةِ مَن جوفُه يَحْترِقُ من داخلٍ؟ ثم أنشأَ يقولُ:

القلبُ مُحْترقٌ والدَّمْعُ مُسْتَبِقُ ... والكَرْبُ مُجْتمِعٌ والصَّبْرُ مُفْتَرِقُ
كيفَ القَرارُ على مَنْ لا قَرارَ لَهُ ... ممَّا جَناهُ الهَوى والشَّوقُ والقَلَقُ
يا رَبِّ إنْ كانَ شيءٌ فيهِ لي فَرَجٌ ... فامْنُنْ عليَّ به ما دامَ بي رَمَقُ

قال: وقلتُ له: أوْصني. قال: لا تَصْحَبِ الأشْرارَ، ولا تَشْتَغِلْ عنِ الله بمُجالَسةِ الأخْيار.

وقد ذكرَ الخطيبُ وفاتَه يومَ الثلاثاء لستٍّ خَلَوْنَ من رمضانَ سنةَ ثلاثٍ وخمسينَ ومائتَيْنِ بعدَ أذانِ الفجرِ، ودُفِن بعدَ العصرِ. قال: ودُفِن بمَقْبرةِ الشُّونيزيَّة، وقبْرُه ظاهرٌ معْروفٌ، وإلى جنْبِه قبرُ الجُنَيْدِ. ورُوِيَ عن القاضي، عن أبي عبيدِ بنِ حَرْبويَه قال: رأيتُ سَرِيًّا في المنام، فقلتُ: ما فعَلَ اللهُ بكَ؟ فقال: غفَرَ لي ولكُلِّ مَن شهِد جنازَتي. قلتُ: فإنِّي ممَّنْ حضرَ جنازَتَكَ وصلَّى عليكَ. قال: فأخرَجَ دُرْجًا فنظَر فيه، فلم يرَ فيه اسْمِي، فقلتُ: بلَى، قد حضَرْتُ، فإذا اسْمِي في الحاشية.

وحكَى ابنُ خَلِّكانَ قوْلاً؛ أنَّ سَرِيًّا تُوفِّي سنةَ إحْدَى وخمسين. وقيل: سنةَ ستٍّ وخَمْسينَ. فاللهُ أعلمُ. قال ابنُ خَلِّكان: ومما كان يُنْشِدُه السَّرِيُّ، رحمه اللهُ:

إذا ما شكَوتُ الحُبَّ قالتْ كَذَبْتَني ... فَما لي أرَى الأعْضاءَ منكَ كَواسِيَا
فلا حُبَّ حتى يَلصَقَ الجِلدُ بالحَشَا ... وتُذْهَلَ حتَّى لا تُجِيبَ المُنادِيَا

ثم دخلت سنة أربع وخمسين ومائتين

فيها: أمَرَ الخليفةُ المعتَزُّ بقتلِ بُغا الشرابيِّ، ونصَب رأسَه بسامَرَّا ثم ببَغْدادَ، وحُرِّقَتْ جثَّتُه، وأُخذتْ أمْوالُه وحَواصلُه.

وفيها: وَلِيَ أحمدُ بنُ طولونَ الديارَ المصريَّةَ، وهو باني الجامعِ المَشْهُورِ بها.

وحجَّ بالناسِ فيها عليُّ بنُ الحُسينِ بنِ إسماعيلَ بنِ العباسِ بنِ محمدٍ.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

زيادُ بنُ يحيى الحَسَّانيُّ، وعليُّ بنُ محمدِ بنِ عليِّ بنِ موسى الرِّضا، يومَ الاثنينِ لأربَعٍ بقِينَ من جُمادَى الآخرةِ ببَغْدادَ. وصلَّى عليه أبو أحمدَ بنُ المُتوكِّلِ في الشارعِ المَنْسوبِ إلى أبي أحمدَ، ودُفِنَ

بداره ببَغْدادَ. ومحمدُ بنُ عبدِ اللهِ المُخَرِّميُّ. ومُؤَمَّلُ بنُ إهابٍ.

وأمّا أبو الحسَنِ عليٌّ الهادي، فهو ابنُ محمدٍ الجَواد بن عليٍّ الرِّضَا بن مُوسَى الكاظم بن جَعْفَر الصادق بن محمدٍ الباقر بن عليٍّ زَيْن العابدين بن الحُسَيْن الشَّهيد بن عليِّ بن أبي طالب، أحَدُ الأئمَّةِ الاثنَيْ عَشَرَ، وهو والدُ الحسَنِ بنِ عليٍّ العسكَريِّ المُنتظَرِ عند الفرقَةِ الضَّالَّة الجاهلية الكاذبة الخاطئة.

وقد كان عابدًا زاهدًا، نقَله المُتوكِّلُ إلى سامَرًّا، فأقام بها أزيدَ من عِشْرين سنةً بأشهُرٍ، ومات بها في هذه السنة.

وقد ذُكر للمتوكِّل أنَّ بمنزله سلاحًا وكُتُبًا كثيرةً من الناسِ، فأرسَل فكبسه، فوجَدوه جالسًا مُستَقبِلَ القِبْلَة، وعليه مِدْرَعَةٌ من صُوفٍ، وهو على بسيطِ الأرضِ ليس دونَها حائلٌ، فأخَذوه كذلك فحمَلوه إلى المُتوكِّلِ، وهو على شَرابِه، فلمّا مثُل بينَ يديه أجَلَّه وعظَّمه، وأجلَسه إلى جانبه، وناوَله الكأسَ الذي في يده، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّه لم يُخالِطْ لحمي ودمي قطُّ، فأعْفِني منه. فأعْفاه، ثم قال له: أنشِدْني شعرًا. فأنشدَه:

باتوا على قُلَلِ الأجْبالِ تحْرُسُهمْ	غُلْبُ الرجالِ فما أغْنَتْهُمُ القُلَلُ
واستُنْزِلوا بعدَ عِزٍّ عن معاقلِهم	فأُودِعوا حُفَرًا يا بئسَ ما نزَلوا
ناداهُمُ صارخٌ من بعدِ ما قُبِروا	أينَ الأسِرَّةُ والتِّيجانُ والحُلَلُ
أينَ الوُجوهُ التي كانت مُنعَّمةً	من دُونِها تُضرَبُ الأستارُ والكِلَلُ
فأفصَحَ القبْرُ عنهمْ حينَ ساءَلَهمْ	تلكَ الوُجوهُ عليها الدُّودُ يَقْتَتِلُ
قد طالَ ما أكلُوا دَهْرًا وما شَربوا	فأصبَحوا بعدَ طُولِ الأكلِ قد أُكلوا

قال: فبكَى المُتوكِّلُ حتى بلَّ الثَّرى، وبكَى مَن حولَه بحضرَتِه، وأمَر برفعِ الشَّرابِ، وأمَر له بأربعةِ آلافِ دينارٍ، وردَّه إلى منزِلِه مُكرمًا، رحِمَه اللهُ.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين ومائتين

فيها كانت وقعَةٌ بين مُفْلِحٍ، وبين الحسنِ بنِ زيدٍ الطَّالبيِّ، فهزَمَه مُفلِحٌ ودخَل آمُلَ طَبَرِسْتانَ وحرَق منازلَ الحسنِ بنِ زيدٍ، ثم سار وراءَه إلى الدَّيْلَم.

وفيها كانت مُحاربَةٌ شديدةٌ بينَ يعقوبَ بنِ الليثِ وبينَ عليِّ بنِ الحُسينِ بنِ قُرَيشِ بنِ شِبْلٍ، فبعَثَ عليُّ بنُ الحسينِ رجلًا من جهتِه يقالُ له: طَوْقُ بنُ المغلِّسِ، فصابَرَه أكثرَ من شهرٍ، ثم ظفر يعقوبُ بطوقٍ فأسَره وأسَر وُجوهَ أصحابِه، ثم سارَ إلى عليِّ بنِ الحُسينِ هذا فأسَره أيضًا، وأخَذ بلادَه - وهي كَرْمانُ - فأضافَها إلى ما بيدِه من مملكةِ سِجِسْتَانَ، ثم بعَث يعقوبُ بنُ الليثِ بهديَّةٍ سَنِيَّةٍ إلى المُعْتَزِّ باللهِ؛ دَوابَّ وبُزاةٍ وثيابٍ فاخرةٍ.

وفيها ولَّى الخليفةُ سليمانَ بنَ عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ نيابةَ بغدادَ والسَّوادِ في ربيعٍ الأوَّلِ منها.

وفيها أخذ صالحُ بنُ وصيفٍ أحمدَ بنَ إسرائيلَ كاتبَ المُعتزِّ، والحسنَ بنَ مَخْلَدٍ كاتبَ قَبيحةَ أمِّ المُعتزِّ، وأبا نوحٍ عيسى بنَ إبراهيمَ، وكانوا قد تمالَئُوا على أكلِ أموالِ بيتِ المالِ، وكانُوا دوَاوينَ، وغيرَهم، فضربَهم، وأخذ خُطوطَهم بأموالٍ جزيلةٍ يحملونها، وذلك بغيرِ رضًا من المعتزِّ في الباطنِ، واحْتِيطَ على أموالِهم وحواصلِهم وضياعِهم، وسمَّوا الكُتَّابَ الخَوَنَةَ، وولَّى الخليفةُ عن قَهرِ غيرِهم.

وفي رجَبٍ من هذه سنةٍ ظهَر عيسى بنُ جعفرٍ، وعليُّ بنُ زيدٍ الحَسَنيَّانِ بالكوفةِ، وقتلا بها عبدَ اللهِ بنَ محمدِ بنِ داودَ بنِ عيسى، واستفحَل أمرُهما بها.

مقتل الخليفة المعتز بالله

ولثلاثٍ بَقِينَ من رجَبٍ من هذه السنَةِ خُلِعَ الخليفةُ المُعْتَزُّ باللهِ، ولليْلتَيْنِ مضَتا من شعبانَ أُظهِر موتُه. وكان سببَ خلْعِه أنَّ الجُندَ اجتمَعوا فطلَبوا منه أرزاقَهَم، فلم يكُنْ عندَه ما يُعْطِيهم، فسأَل من أمِّه أنْ تُقرِضَه مالاً يدفَعُهم عنه به فلم تُعطِه، وأظهرَت أنه لا شيء عندَها، فاجتمَع الأتراكُ على خَلْعِه، فأرسَلوا إليه؛ ليخرُجَ إليهم، فاعتذَر بأنّه قد شرِب دواءً، وأنّ عندَه ضَعْفًا، ولكن ليدخُلْ إليَّ بعضُكم. فدخَل إليه بعضُ الأُمَراءِ، فتناوَلوه بالدبابيسِ يضربونه، وجَرُّوا برجلِه، وأخرَجوه وعليه قميصٌ مُخرَّقٌ ملَطَّخٌ بالدَّمِ، فأقاموه في وَسَطِ دارِ الخلافةِ في حرٍّ شديدٍ حتى جعَل يراوحُ بينَ قدَميه من شدَّةِ الحرِّ، وجعَل بعضُهُم يلطِمُه، وهو يبكِي، ويقولُ له الضاربُ: اخلَعْها والناسُ مُجتمِعون. ثم أدخَلوه حُجرةً مُضيَّقًا عليه فيها.

وما زالوا عليه بأنواعِ العذابِ حتى خلَع نفسَه من الخلافةِ، وولَّى بعده المُهتَدي باللهِ، كما سيأتي، ثم سلَّموه إلى مَن يسومُه سُوءَ العذابِ بأنواعِ المُثْلاتِ، ومُنِع من الطعامِ والشَّرابِ ثلاثةَ أيامٍ حتى جعَل يطلُبُ شربَةً من ماءِ البئرِ فلم يُسْقَ، ثم أدخَلوه سرَبًا فيه جصٌّ جيرٍ فدَسُّوه فيه، فأصبَح ميِّتًا، فاستَلُّوه من الجصِّ سليمَ الجسَدِ، فأشهَدوا عليه جماعةً من الأعيانِ أنّه مات، وليس به أثرٌ، وكان ذلك في اليومِ الثاني من شعبانَ من هذه السنَةِ، وكان يومَ السبتِ، وصلَّى عليه المُهْتَدي باللهِ، ودُفِنَ مع أخيه المُنتصرِ إلى جانبِ قصرِ الصَّوامعِ، عن أربعٍ وعشرين سنةً.

وكانت خلافتُه أربعَ سنينَ وستَّةَ أشهُرٍ وثلاثةً وعشرينَ يومًا، وكان طويلاً جَسيمًا وَسيمًا، أقْنَى الأنفِ، مُدَوَّرَ الوجهِ، حسَنَ الضَّحكِ، أبيضَ، أسودَ الشَّعْرِ جَعْدَه كثيفَه، كثيفَ اللِّحْيَةِ، حسَنَ العينَينِ والوجهِ، ضَيِّقَ الجبينِ، أحمرَ الوجنتَينِ، رحمه اللهُ.

وقد أثْنَى الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ على جَوْدَةِ ذهْنِه، وحُسنِ فَهمِه وأدَبِه حينَ دخَل عليه في حياةِ أبيه المتوكِّلِ بسامَرَّا، كما قدَّمْنا في ترجمةِ الإمامِ أحمدَ.

وروَى الخطيبُ البغداديُّ، عن عليِّ بنِ حربٍ قال: دخَلتُ على المعتزِّ باللهِ فما رأيتُ خليفةً

أحسنَ وجهًا منه، فلمّا رأيتُه سجدتُ، فقال: يا شيخُ، تسْجُدُ لأحدٍ من دون الله؟ فقلتُ: حدَّثنا أبو عاصم الضَّحّاكُ بنُ مَخْلَدٍ النَّبِيلُ، ثنا بكّارُ بنُ عبدِ العزيزِ بنِ أبي بَكْرَةَ، عن أبيه، عن جدِّه. أنَّ رسولَ الله ﷺ كان إذا رأىٰ ما يفرَحُ به، أو بُشِّرَ بما يسُرُّه، سَجَدَ شُكْرًا لله، عزَّ وجلَّ[1].

وقال الزُّبيرُ بنُ بكّارٍ: صِرْتُ إلىٰ المعتزِّ وهو أميرٌ، فلمّا سمع بقُدومي خرَج مُستعجلاً إليَّ فعثَر، فأنشأ يقولُ:

يموتُ الفتىٰ من عثرةٍ بلسانه ... وليسَ يموتُ المرءُ من عثرةِ الرِّجلِ
فعثرتُه من فيه ترمي برأسه ... وعثرتُهُ في الرِّجْلِ تَبْرا علىٰ مَهْلِ

وذكَر الحافظُ ابنُ عساكرَ: أنَّ المُعْتَزَّ لمّا حذَق القرآنَ في حياة أبيه المُتوكِّل اهتمَّ أبوه لذلك، واجتمَعت الأمراءُ والكُبَراءُ والرُّؤساءُ بسُرَّ مَنْ رَأىٰ، واختلفوا لذلك أيامًا عديدةً، وجرَتْ أحوالٌ عظيمةٌ. ولمّا جلَس وهو صبيٌّ علىٰ المِنْبَرِ وسلَّم علىٰ أبيه بالخلافَة، وخطبَ الناسَ نُثِرَت الجواهرُ في الصواني، والذهبُ والفضةُ علىٰ الخواصِّ والعَوامِّ بدارِ الخلافة، فكان قيمَةُ ما نُثِر من الجواهرِ ما يُساوي مائةَ ألفِ دينارٍ، ومثْلَها ذَهَبًا، وألفَ ألفِ درهمٍ، غيرَ ما كان من خِلَعٍ وأسمطةٍ وأقمشةٍ مما يفوتُ الحصرَ، وكان وقتًا مشهودًا لم يكُنْ سرورٌ بدارِ الخلافَة أبْهَجَ منه ولا أحسنَ، وخلَعَ الخليفةُ علىٰ أمِّ ولده المعتزِّ - وهي قَبيحةُ - خِلَعًا سَنِيَّةً، وأعطاها وأجْزلَ لها العَطاءَ، وكذلك خلَع علىٰ مُؤَدِّبِ المُعتزِّ - وهو محمدُ بنُ عِمرانَ - من الجوهرِ والذهبِ وغيرِ ذلك شيئًا كثيرًا جدًا، واللهُ سبحانَه وتعالىٰ أعلَمُ.

خلافةُ المُهْتَدي باللهِ أبي عبد الله محمد بن الواثق هارونَ بن المعتصم، وكانتْ بيعتُه يومَ الأربعاء لليلةٍ بقِيَتْ من رجَبٍ من هذه السنَةِ بعدَ خلعِ المعتزِّ نفسَه بينَ يدَيه، وإشْهادِه علىٰ نفسه بأنّه عاجزٌ عن القيامِ بأمرِ الخلافة، وأنَّه قد رغب إلىٰ أن يقومَ بأعْبائها محمدُ بنُ الواثقِ بالله، ثم مدَّ يدَه فبايعَه قبلَ الناسِ كلِّهم، ثم بايَعه الخاصَّةُ، ثم كانتْ بيعةُ العامَّةِ، وكُتِبَ علىٰ المعتزِّ كتابٌ أشهد عليه فيه بالخَلْعِ والعجْزِ، والمُبايعَةِ للمُهْتَدي.

وفي آخرِ يومٍ من رَجَبٍ هذا وقعَتْ ببغدادَ فتْنَةٌ هائلةٌ، وثَبت فيها العامَّةُ علىٰ نائبِها سليمانَ بنِ عبدِ الله بنِ طاهرٍ ودعَوا إلىٰ بيْعَةِ أبي أحمدَ بنِ المتوكِّلِ أخي المعتَّزِ، وذلك لعدَمِ علمِ أهلِ بغدادَ بما وقَع بسَامَرّا من بيْعَةِ المهتدي باللهِ بنِ الواثقِ، وقُتِل من أهلِ بغدادَ وغرِق منهم خلقٌ كثيرٌ، ثم لمّا بايَع

---

(١) ضعيف من هذا الوجه: أخرجه أبو داود (٢٧٧٤) وغيره من هذا الطريق.
وبكار بن عبد العزيز متكلم فيه وقد استُنكر هذا الحديث عليه فقد أورده ابن عدي في «الكامل» في ترجمته (٢/ ٤٣).
لكن مشروعية السجود ثابتة في عدة شواهد انظر تخريجها في «ارواء الغليل» (١/ ٢٢٧-٢٢٩) فلتراجع. ثم خرج - رحمه الله - طرفًا كبيرًا عقب هذا عن بعض الصحابة حاصلة أنهم سجدوا حين بشروا بالبشارات الحسنة.

النّاسُ بيعةَ العامَّة للمهتدي بالله في سابعِ شعبانَ، وبلَغ أهلَ بغدادَ ذلك، سكَنوا واستقرَّت الأمورُ واستقلَّ المهتدي بالخلافة، ولله الحمدُ.

وفي رمضانَ من هذه السنَة ظهَر عندَ قَبيحَةَ أمِّ المعتزِّ أموالٌ عظيمةٌ، وجَواهرُ نفيسةٌ؛ كان من جملة ذلك ما يُقاربُ ألفَيْ ألفِ دينار، ومن الزُّمُرُّدِ الذي لم يُرَ مثلُه مقْدارُ مَكُّوك، ومنَ الحبِّ الكِبارِ مَكُّوكٌ، وكَيْلَجَةٌ ياقُوتٍ أحمرَ مما لم يُرَ مثلُه أيضًا. وقد كانتْ قبلَ ذلك مختفيةً عندَ صالحِ بنِ وصيفٍ، ثم نزَحتْ عنه، فكانت تدعُوا عليه؛ تقولُ: اللهم أخزِ صالحَ بنَ وصيفٍ، كما هتَك ستري، وقتَل ولدي، وبدَّد شَملي، وأخَذ مالي، وغرَّبني عن بلدي، وركِب الفاحشةَ منِّي. هذا وقد كانَ الأتراكُ قد طلَبوا من ابنِها المعتزِّ خمسينَ ألفَ دينارٍ تُصْرَفُ في أرْزاقِهم، وضَمِنوا له أنْ يقتُلوا صالحَ بنَ وصيفٍ، فلم يكُنْ عندَه من ذلك شيء، فطلَبَ من أمِّه قَبيحَةَ، ـ قبَّحَها اللهُ ـ أن تُقرِضَه ذلك، فأظهَرَت أنَّه لا شيءَ عندَها. ثم لمّا قُتِل ابنُها ـ وكان ما كانَ ـ ظهَر عندَها من الأموالِ ما ذكَرْنا. وقد كانَ لها من الغَلاَّت في كلِّ سنَةٍ ما يعدلُ عشَرَةَ آلافِ ألفِ دينارٍ.

واسْتقرَّت الخلافَةُ للمهتدي بالله، وكان ـ ولله الحمدُ ـ خليفةً صالحًا. قال يومًا للأُمَراء: إنِّي ليسَتْ لي أُمٌّ لها من الغلاَّت ما يقاوِمُ عشَرَةَ آلافِ ألفِ دينارٍ، ولستُ أريدُ إلاَّ القوتَ فقطْ، ولا أريدُ فضلاً على ذلك إلاَّ لإخْوَتي، فإنَّهم قدمسَّتْهم الحاجةُ.

وفي يوم الخميسِ لثَلاثٍ بَقِينَ من رمضانَ أمَر صالحُ بنُ وَصيفٍ بضربِ أحمدَ بنِ إسرائيلَ الذي كان وزيرًا، وأبي نوحٍ عيسى بنِ إبراهيمَ الذي كان نصرانيًا فأظهَر الإسلامَ، وكان كاتبَ قَبيحةَ، فضُرِبَ كلُّ واحدٍ منهما خمسَمائة سَوْطٍ بعدَ استخلاصِ أموالِهما، ثم طِيف بهما على بغلَين مُنكَّسَين فماتا وهما كذلك، ولم يكُن ذلك عن رِضَا المُهتدي بالله، ولكنْ لا يقدرُ على الإنكارِ على صالحِ ابنِ وَصيفٍ في بادئِ الأمرِ.

وفي رمضانَ في هذه السنَة وقَعتْ فتنةٌ ببَغْدادَ أيضًا بينَ محمدِ بنِ أوْسٍ ومَن اتَّبَعه من الشاكريَّة والجُند وغيرِهم، وبينَ العامَّة والرَّعاع، فاجتمَع من العامَّة نحوٌ من مائة ألفٍ، وكان بينَ الناسِ قتالٌ بالنِّبالِ والرِّماحِ والسيوفِ، وقُتِل خلقٌ كثيرٌ، ثم انهزَم محمدُ بنُ أوسٍ وأصحابُه، فنهبَت العامَّةُ ما وجَدوا من أموالِه، وكان منه شيءٌ يعدلُ ألفَيْ ألفٍ، أو نحوَ ذلك.

ثم اتَّفَق الحالُ على إخراجِ محمدِ بنِ أوْسٍ من بغدادَ إلى أينَما أراد من سائرِ البلادِ فخرَج منها خائفًا طريدًا؛ وذلك لأنَّه لم يكُنْ عند الناسِ مرْضيَّ السِّيرةِ بل كان جبَّارًا عَنيدًا، وشيْطانًا مَريدًا، وفاسقًا شديدًا، وأمرَ الخليفةُ المهتدي بالله بأنْ يُنفَى القيانُ والمغنِّيون من سامَرَّا، وأمَرَ بقتلِ السِّباعِ والنُّمورِ التي في دارِ السلطانِ، والكلابِ المُعدَّة للصيدِ أيضًا، وإبطالِ المَلاهي، وردِّ المظالمِ، وأن يُؤمَرَ بالمعروفِ ويُنْهَى عن المُنكَر، وجلَس للعامَّة.

وكانت ولايتُه والدنْيَا كلُّها من أرضِ الشامِ وغيرِها مفترقةٌ، ثم استَدْعَى الخليفةُ المهتدي موسى بنَ

بُغا الكبيرِ إلى حضرته؛ ليتقوَّىٰ به علىٰ مَن عندَه مِن الأتراك؛ لتجتمعَ كلمةُ الخلافة واعتذَر مِن استدعائه بما هو فيه مِن الجهادِ بتلك البلادِ.

ذكرُ خارجيٍّ آخرَ ادَّعى أنَّه مِن أهلِ البيت، ظهر بالبصرة

وفي النصفِ مِن شَوَّالٍ مِن هذه السنة ظهَر رجلٌ بظاهرِ البَصرة زعَم أنَّه عليُّ بنُ محمدِ بنِ أحمدَ ابنِ عيسىٰ بنِ زيدِ بنِ عليِّ بنِ الحسينِ بنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ، ولم يكُنْ صادقًا في دعْواه هذا النَّسبَ، وإنَّما كان عبقَسيًّا - مِن عبدِ القَيْسِ - واسمُه عليُّ بنُ محمدِ بنِ عبدِ الرَّحيم، وأمُّه قُرَّةُ بنتُ عليِّ بنِ رَحيبِ بنِ محمدِ بنِ حكيمٍ مِن بني أسد بنِ خُزَيمةَ، وأصلُه مِن قريَةٍ مِن قُرَىٰ الرَّيِّ. قالَه ابنُ جريرٍ.

قال: وقد خرَج أيضًا في سنةِ تسعٍ وأربعينَ ومائتَين بالبحرين، فادَّعَىٰ أنَّه عليُّ بنُ محمدِ بنِ الفضلِ بنِ الحُسينِ بنِ عبدِ الله بنِ عبّاسِ بنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ، فدَعا الناسَ بهَجَرَ إلى طاعتِه، فاتَّبَعه جماعةٌ مِن أهلِها، فوقَع بسببِه قتالٌ كثيرٌ، وفتَنٌ كِبارٌ، وحروبٌ كثيرةٌ ومنتشرةٌ.

ولمَّا خرَج خرْجتَه هذه الثانيةَ بظاهرِ البصرةِ التفَّ عليه خلْقٌ مِن الزَّنْجِ الذينَ كانوا يكسَحون السِّباخَ، فعبَر بهم دِجْلَةَ فنزَل الدِّيناريَّ، وكان يزْعمُ لبعضِ الجهَلةِ مِن أتباعه أنَّه يحيَىٰ بنُ عمرَ أبو الحسينِ المقتولُ بناحيةِ الكوفة، وكان يدَّعي أنَّه حفظ سُورًا مِن القرآنِ في ساعةٍ واحدةٍ جرَىٰ بها لسانُه لا يحفَظُها غيرُه في مدةٍ؛ وهُنَّ سُبْحانَ، والكَهْفُ، وص، وأنَّه فكَّر يومًا، وهو في الباديَةِ إلىٰ أيِّ البلادِ يصيرُ، فخوطِبَ مِن سحابةٍ أنْ يقْصِدَ إلىٰ البصرَةِ، فقصَدَها، ولمَّا اقترَب منها وجَد أهلَها مُفترِقين على شُعبتَين؛ سَعْديَّةٍ وبِلاليَّةٍ، فطمع أن ينضمَّ إليه إحداهما فيستعينَ بها علىٰ الأخرىٰ فلم يقدِرْ على ذلك، فارْتَحَل إلىٰ بغدادَ فأقامَ بها سنَةً، وانتَسب بها إلىٰ محمدِ بنِ أحمدَ بنِ عيسىٰ بنِ زيدٍ، وكان يزعُمُ بها أنَّه يعلَمُ ما في ضمائرِ أصحابِه، وأنَّ اللهَ يُعلِمُه بذلك، فتبِعه علىٰ ذلك جَهَلةٌ من الطَّغَامِ، وطائفةٌ مِن رَعاعِ الناسِ العَوامِّ.

ثم عادَ إلىٰ أرضِ البصرةِ في رمضانَ مِن هذه السنة فاجتمَع معه بشَرٌ كثيرٌ، ولكنْ لم يكُنْ معَهم عُدَدٌ يُقاتلون بها فأتاهم. جيشٌ مِن ناحيةِ البصرةِ فاقتَتَلوا جميعًا، فلم يكُنْ في جيشِ هذا الخارجيِّ سوَىٰ ثلاثةِ أسْيافٍ وأولئك الجيشُ معهم عَدَدٌ وعُدَدٌ ولبوسٌ، ومع هذا هزم أصحابُ هذا الخارجيِّ ذلك الجيشَ وكانوا في أربعةِ آلافِ مُقاتلٍ، ثم مضَىٰ نحوَ البَصرةِ بمَن معَه، فأهْدَىٰ له رجلٌ مِن أهلِ جُبَّا فرَسًا، فلم يجِدْ لها سَرْجًا ولا لجامًا، فألقَىٰ عليها حبْلاً وركِبها، وشنَقَ حنَكها بليفٍ، ثم صادَر رجلاً فتهدَّده بالقتلِ، فأخذ منه مائةً وخمسينَ دينارًا وألفَ درهمٍ، فكان هذا أوَّلَ مالٍ غنِمه مِن هذه البلادِ، وأخَذ مِن آخرَ ثلاثةَ بَراذينَ، وأخذ مِن موضعٍ آخرَ شيئًا من الأسلحةِ والأمتعةِ، فسار في

جيشه قليلُ سلاحٍ وخيولٍ، ثم جرَت بينَه وبينَ جيوشٍ من جهةِ نائبِ البَصرةِ وقَعاتٌ مُتعدِّدةٌ، يهزِمُهم فيها وكلما لأمرِه يقوىٰ ويتزايدُ أصحابُه ويعظُمُ جيشه، وهو مع ذلك لا يتعرَّضُ لأموالِ الناسِ، وإنَّما يريدُ أخْذَ أموالِ السلطانِ.

وقد انهزَم أصحابُه في بعضِ تلك الحروبِ هزيمةً فظيعةً ثم تراجَعُوا إليه، واجتمَعوا حولَه، ثم كَرُّوا إلىٰ أهلِ البصرةِ فهزَموهم، وقتَلوا منهم خلقًا وأسَروا آخرين، فكان لا يُؤتَىٰ بأحدٍ من الأسْرىٰ إلاَّ قتَله، ثم قَوِي أمرُه بعدَ ذلك، وخافه أهلُ البصرةِ، وبعَث الخليفةُ إليها مددًا يكونون لهم علىٰ صاحبِ الزَّنْجِ - هذا الخارجيِّ قبَّحه اللهُ - ثم أشار عليه رءوسُ أصحابِه أن يهجُمَ بهم علىٰ أهلِ البصرةِ، فيدخُلونها عَنوةً، فهجَّن آراءَهم، وقال: بل نكونُ منها قريبًا حتىٰ يكونوا هم الذين يطْلُبونَنا إليها، ويخْطُبوننا عليها. وسيأتي ما كانَ من أمرِه، وأمرِ أهلِ البَصْرَةِ في السَّنَةِ المُسْتقبَلةِ، إن شاء اللهُ تعالىٰ.

وحجَّ بالناسِ في هذه السنةِ عليُّ بنُ الحسينِ بنِ إسماعيلَ بنِ العبّاسِ بنِ محمدِ بنِ عليِّ بنِ عبدِ اللهِ ابنِ عباسٍ.

وممَّن تُوفِّي في هذه السنة من الأعيان:

الجاحظُ المتكلِّمُ المُعتزليُّ، وإليه تُنسَبُ الفرْقةُ الجاحظيَّةُ منهم، وهو أبو عثمانَ عمرُو بنُ بحرِ بنِ محبوبٍ الكنانيُّ، اللَّيثيُّ البصريُّ، المعروفُ بالجاحظِ، لجحوظِ عينَيه، ويقالُ له: الحدَقيُّ. وكان شنيعَ المَنْظَرِ، سيِّئَ المَخْبَرِ، رديءَ الاعتقادِ، يُنسَبُ إلىٰ البدعةِ، وربَّما جاوَز به بعضُهم إلىٰ الانحلالِ حتىٰ يُقالَ في المثلِ: يا ويحَ مَن كفَّره الجاحظُ. واللهُ أعلَمُ بحالِه. وكان بارعًا فاضلاً، قد أتقنَ علومًا كثيرةً، وصنَّف كتبًا جَمَّةً، تدلُّ علىٰ قوةِ ذهْنِه وجَودةِ تصرُّفِه. ومن أجَلِّ كتُبِه كتابُ «الحَيوانِ»، وكتابُ «البَيانِ والتَّبيينِ».

قال ابنُ خَلِّكانَ: وهما أحسنُ مُصنَّفاتِه وأمتعُها، وقد أطال ترجمتَه بحكاياتٍ ذكَرها عنه. وذكَر أنَّه أصابهُ الفالجُ في آخرِ عُمْرِه، وحكَىٰ عنه أنَّه قال: أنا من جانبي الأيسرِ مفلوجٌ، لو قُرِض بالمَقاريضِ ما علمتُ به، وجانبي الأيمنُ مُنَقْرَسٌ فلو مرَّتْ به الذُّبابَةُ لألمتُ، وبي حَصاةٌ، وأشدُّ ما عليَّ سِتٌّ وتسْعُون سنةً. وكان يُنشِدُ:

أتَرْجُو أن تكونَ وأنتَ شَيْخٌ ... كما قد كنتَ أيامَ الشَّبابِ
لقدْ كَذَبَتْكَ نفسُكَ ليسَ ثَوْبٌ ... دَريسٌ كالجديدِ من الثِّيابِ

وعبدُ اللهِ بنُ عبدِ الرحمنِ أبو محمدٍ الدَّارميُّ، صاحبُ المسندِ المشهورِ، وقد سمِعْناه بعُلُوٍّ. **وعبدُ اللهِ بنُ هاشمٍ الطُّوسيُّ**. **والخليفةُ أبو عبدِ اللهِ محمدٌ المعتزُّ باللهِ بنُ جعفرٍ** المتوكِّلِ علىٰ اللهِ في رجَبٍ - كما تقدَّم -. **ومحمدُ بنُ عبدِ الرَّحيمِ الملقَّبُ صاعِقَةَ**.

ومحمدُ بنُ كَرَّام، المتكلمُ الذي تُنسَبُ إليه الفرقَةُ الكَرَّاميَّةُ. وقد نُسب إليهم جوازُ وَضْعِ الأحاديث على الرسول ﷺ وأصحابه وغيرهم؛ وهو محمدُ بنُ كَرّام - بفتح الكاف وتشديد الرّاء، على وَزْنِ جَمَّال - بن عِراق بن حزابَةَ بن البَرَاء، أبو عبد الله السِّجستانيُّ العابدُ، يقالُ: إنَّه من بني نزار. ومنهم مَن يقولُ: محمدُ بنُ كِرَام - بكسر الكاف وتخفيف الرّاء - جمعُ كريم. وفرَّق البيهقيُّ بينهما، فجعَل الذي يُنسَب إليه الكرَّاميةُ - بفتح الكاف وتشديد الراء - وهو الذي سكَن بيتَ المَقدس إلى أنْ مات بها، وجعَل الآخرَ شيْخًا من أهلِ نَيْسَابُورَ. والصحيحُ الذي يظْهَرُ من كلام الحاكم أبي عبد الله الحافظ، والحافظ أبي القاسم بن عساكرَ أنَّهما واحدٌ.

وقد روَىٰ ابنُ كَرَّام عن عليِّ بن حجَر، وعليِّ بن إسْحاقَ الحَنظليِّ السَّمرقنديِّ، سمع منه التفسيرَ عن محمد بن مَروانَ، عن الكَلْبيِّ، وإبْراهيمَ بن يُوسُفَ الماكيَانيِّ، ومالك بن سُلَيمانَ الهَرَويِّ، وأحمدَ بن حَرْبٍ، وعَتيق بن محمد الجُرَشيِّ، وأحمدَ بن الأزهر النَّيسابوريِّ، وأحمدَ بن عبد الله الجُوَيْباريِّ، ومحمد بن تميم الفارِيَانيِّ - وكانا كذابَيْن وضَّاعَيْن - وغيرهم.

وعنه محمدُ بنُ إسْماعيلَ بن إسْحاقَ، وأبو إسْحاقَ بنُ سُفْيانَ، وعبدُ الله بنُ محمد القِيراطيُّ، وإبراهيمُ بنُ الحَجَّاج النَّيْسابوريُّ.

وذكَر الحاكمُ: أنَّه حُبِس في حَبْس طاهر بن عبد الله، فلمّا أطلَقه ذهَب إلى ثُغور الشام، ثم عاد إلى نَيسابُورَ، فحبَسَه محمدُ بنُ طاهر بن عبد الله، فطال حبسُه، وكان يتأهَّبُ لصلاة الجمعة، ويأتي إلى السَّجَّان، فيقولُ: دعْني أخرُجْ إلى الجُمُعَة. فيمنَعُه السَّجّانُ، فيقولُ: اللَّهُمَّ إنك تعلَمُ أنَّ المنعَ من غيري. وقال غيرُه: أقام ببيت المقدس أربعَ سنين، وكان يجلسُ للوعظ عندَ العمود الذي عند مَشْهَد عيسىٰ، عليه السلامُ، واجْتمَعَ عليه خَلْقٌ كثيرٌ، ثم تبيَّنَ لهم أنَّه يقولُ: إنَّ الإيمانَ قولٌ بلا عمل. فتركَه أهلُها، ونفَاه مُتولِّيها إلى غَوْر زغرَ فماتَ بها، ونُقل إلى بيت المَقدِس، وكانت وفاتُه في صَفَر من هذه السنَة.

وقال الحاكمُ: تُوفِّي ببيت المَقْدس ليلاً، ودُفن بباب أريحَا عندَ قُبور الأنبياء، عليهم السلامُ، وله ببيت المقدس من الأصْحاب نحوٌ من عشْرين ألفًا. واللهُ أعلمُ.

ثم دخلت سنة ست وخمسين ومائتين

في صبيحة يوم الإثنين الثاني عشرَ من المحرَّم قدِم موسىٰ بنُ بُغا الكبير إلى سامَرَّا، فدخَلَها في جيشٍ هائل، قد عبَّاه مَيْمنَةً ومَيْسرَةً وقلْبًا وجَناحَيْن، فقصَد دارَ الخلافة التي فيها المُهْتَدي بالله جالسٌ للعامَّة؛ لكشف المَظالم، واستأذنوا عليه فتمادىٰ الإذْنُ ساعةً وتأخَّر عنهم، فظَنُّوا في أنفُسهم أنَّ الخليفةَ إنَّما طلَبهم خديعةً منه؛ ليُسلِّطَ عليهم صالحَ بنَ وَصيف، فدخَلوا عليه هَجْمًا فجعَلوا يُراطِنُونَهم بالتُّركيِّ، ثم عزَموا فأقامُوه من مجْلسه، وانْتَهَبُوا ما كان فيه، ثم أخذُوه مُهانًا إلى دار

أخرىٰ، فجعل يقولُ لموسىٰ بن بُغا: ما لَكَ ويحكَ؟! إنّي إنَّما جئتُ بك لأتقوَّىٰ بك على صالح بن وَصيف. فقالَ: لا بأسَ عليكَ، احلفْ لي أنَّكَ لا تريدُ لي خلافَ ما أظهرتَ. فحلَف له الخليفةُ، فطابَت أنفسُهم، وبايَعُوه بَيْعةً ثانيةً مُشافَهةً، وأخذوا عليه العُهودَ والمَواثيقَ أنْ لا يُماليَ صالحًا عليهم، واصْطَلحوا على ذلك، ثم بعثوا إلى صالح بن وصيف؛ ليَحْضُرَهم للمُناظرة في أمرِ المُعتَزِّ ومَن قتَله صالحُ بنُ وصيفٍ من الكُتَّاب وغيرهم، فوعَدهم أنْ يأتيهم، ثم اجْتَمَع بجماعةٍ من الأُمَراء من أصْحابه، وأخَذ يتأهَبُ لجمعِ الجُيوش عليه، ثم اختفَىٰ من لَيْلَته، فلم يدْرِ أحدٌ أين ذهَب في تلك الساعَة، فبعَث المُناديَة عليه في أرْجاء البلد، وتهدَّد مَن أخْفاه، فلم يزَلْ في خَفاءٍ إلى أواخرِ صفر، علىٰ ما سَنَذْكُرُ.

وردَّ سليمانُ بنُ عبدِ الله بن طاهرٍ إلىٰ نيابة بغدادَ، وسُلِّم الوزيرُ عبدُ الله بنُ محمدِ بن يَزْدادَ إلى الحسنِ بن مَخْلدٍ الذي كان أرادَ صالحُ بنُ وصيفٍ قتْلَه مع ذَيْنكَ الرجلَيْن، فبَقِي في السجنِ حتى رجَع إلى الوزارة.

ولما أبطَأ خبرُ صالح بن وصيفٍ علىٰ موسىٰ بن بُغا وأصحابه قال بعْضُهم لبعضٍ: اخلَعُوا هذا الرجلَ - يعنون المهتديَ بالله - فقال بعضُهم: أتقتُلُونَ رجلاً صَوَّامًا قوَّامًا، لا يشْرَبُ النبيذَ، ولا يأتي الفَواحِشَ؟! والله إنَّ هذا ليس كغيره، ولا يُطاوعُكُمُ الناسُ عليه. وبلَغ ذلك الخليفةَ، فخرَج إلى الناسِ وهو مُتقلِّدٌ سيْفًا، فجلَس على السَّرِير واستدْعَىٰ بموسىٰ بن بُغا وأصْحابه، فقال: قد بلَغني ما تَمالأتُم عليه من أمْرِي، وإنِّي والله ما خرَجْتُ إليكم إلاَّ وأنا مُتحنِّطٌ، وقد أوصيتُ إلى أخي بولَدي، وهذا سيْفي، والله لأَضْربَنَّ به ما استمسكَ قائمُه بيَدي، والله لئنْ سَقطَ من شَعْري شعْرةٌ ليَهْلِكَنَّ، أو ليَذْهَبَنَّ بها أكثَرُكم، أمَا دينٌ؟! أمَا حَياءٌ؟! أما رِعةٌ؟! كم يكونُ هذا الخلافُ على الخُلَفاء، والإقدامُ والجُرْأةُ على الله؟! سَواءٌ عندكم مَن قصَد الإبقاءَ عليكم، ومَن كان إذا بلَغه هذا عنكم دعا بأرْطالِ الشَّراب، فشربها؛ سروراً بمكروهكم، واذهبوا فانظروا في منزلي ومَنازلِ إخْوَتي ومَن يتَّصلُ بي؛ هل فيها من آلات الخلافة أو فُرُشها شيءٌ غيرُ ما يكونُ في بُيوت آحاد الناس، وتقولونَ: إنِّي أعلَمُ علْمَ صالحٍ، وهل هو إلا كَواحدٍ منكم؟ فاذهَبوا فاعلَموا علْمَه فابْلُغوا شفاءَ نفُوسكم منه، وأمَّا أنا فلستُ أعلَمُ علمَه. قالوا: فاحْلفْ لنا على ذلك. فقال: أمَّا اليمينُ فإنِّي أبْذُلُها لكم، ولكنِّي أُؤَخِّرُها حتى تكونَ بحَضْرَة الهاشميِّينَ والقُضاة والمُعَدِّلينَ وأصْحاب المَراتب في غَدٍ، إذا صلَّيتُ صلاةَ الجُمعة. قال: فكأنَّهم لأنُوا لذلك قليلاً.

ولَمَّا كان يومُ الأحَد لثمانٍ بقِين من صفر ظفرُوا بصالح بن وصيفٍ، فقُتلَ وجيءَ برأسه إلى المُهْتَدي بالله، وقد انْفَتَل من صلاة المغرب، فلم يَزِدْ على أنْ قال: وارُوه. ثم أخَذ في تسْبيحه وذكْره. ولَمَّا أصبَح الصباحُ من يوم الإثنين رُفعَ الرأسُ على رُمْحٍ ونُودي عليه في أرْجاء البلد، هذا جزاءُ مَن قتَلَ مَوْلاه. وما زال الأمرُ مُضْطربًا حتى تفاقم الأمرُ، وعَظُمَ الخطْبُ.

ذكرُ خلع المهتدي وولايةِ المعتمدِ أحمدَ بنِ المتوكل، وإيرادُ شيءٍ من فضائلِ المهتدي

لَمَّا بلَغ موسىٰ بنَ بُغا أنَّ مُساورًا الشَّاريَ قد عاث بتلك الناحية ركبَ إليه في جيشٍ كثيفٍ ومعه مُفلحٌ وبايكباكُ التُّركيُّ، فاقتَتَلُوا هم ومُساورٌ الخارجيُّ، فلم يظفَرُوا منه بشيء يعجبُهم، وهرَب منهم وأعجَزهم، وكان قد فعَل قبلَ مجيئهمُ الأفاعيلَ المنكرةَ. والمقصودُ أنَّ الخليفةَ المهتديَ بالله أرادَ أنْ يُخالفَ بينَ كلمة الأتراك، فكتَب إلىٰ بايكباكَ أنْ يتسلَّمَ الجيشَ من موسىٰ بن بُغا، ويكونَ هو الأميرَ علىٰ الناس، وأنْ يُقبِلَ بهم إلىٰ سَامَرَّا، فلمَّا وصَل إليه الكتابُ أقرَأه موسىٰ بنَ بُغا، فاشتَدَّ غضبُه علىٰ المهتدي، واتَّفَقا عليه وقصَدا إليه بَلَدَ سامَرَّا، وترَكا ما كانا فيه. فلمَّا بلَغ ذلك المُهتديَ استخدَم مِن فوره جُنْدًا من المَغاربة والفَراغنَة والأشْروسنيَّة والأزكشيَّة والأتراك أيضًا، وركب في جيشٍ كثيفٍ، فلمّا سمِعُوا به رجَع موسىٰ بنُ بُغا إلىٰ طريق خُراسانَ، وأظهَر بايكباكُ السمعَ والطاعةَ، فدَخَل في ثاني عشَرَ رجَبٍ إلىٰ الخليفة سامعًا مُطيعًا، فلما أُوقفَ بينَ يدَيْه وحوله الأمراءُ والسادةُ من بني هاشمٍ، شاورَهم فيه، فقال له صالحُ بنُ عليِّ بنِ يعقوبَ بنِ أبي جعفرٍ المنصورِ: يا أميرَ المؤمنين، لم يبلُغ أحدٌ من الخُلَفاء في الشجاعة والإقدام ما بلَغت، وقد كان أبو مسلم الخراسانيُّ شرًّا من هذا وأكثَرَ جُنْدًا، ولَمَّا قتَلَه أبو جعفرٍ المنصورُ سكَنت الفتْنَةُ وخَمَد صوتُ أصحابِه. فأمَر عندَ ذلك المهتدي بالله بضربِ عُنُقِ بايكباكَ، ثم ألقَىٰ رأسَه إلىٰ الأتراك، فلمَّا رأَوْا ذلك أعظَمُوه وأصبَحُوا من الغدِ مُجتمعين علىٰ أخيه طغوتيا، فخرَجَ إليهم الخليفةُ فيمَن معه، فلمَّا التقَوا خامَرَت الأتراكُ الذينَ كانوا مع الخليفة إلىٰ أصحابِهم، وصاروا ألْبًا واحدًا علىٰ الخليفة وأصحابه، فقتَل منهم نحوًا من أربعة آلافٍ، ثم حمَلُوا عليهم فهزَمُوهم وانهزَم المهتدي بالله وبيَده السيفُ صَلْتًا، وهو يُنادي: يا أيُّها الناسُ، انْصرُوا خليفتَكم. فدخَل دارَ أحمدَ بن جُمَيلٍ صاحبِ المعونة، فوضَع فيها سلاحَه ولبِسَ البَياضَ، وأرادَ أنْ يذْهبَ فيَختَفيَ، فعاجَله أحمدُ بنُ خاقانَ فيها فأخَذه قبلَ أنْ يَذْهبَ، ورُمِي بسهمٍ، وطُعِن في خاصرتِه، وحُمِل علىٰ دابَّةٍ وخلفَه سائسٌ، وعليه قميصٌ وسَراويلُ حتىٰ حصَل في دارِ أحمدَ بنِ خاقانَ، فجعَلَ من هناك يصفَعُونه ويبزُقُون في وجْهه، وأخَذوا خطَّه بستِّمائة ألف دينارٍ، وسلَّمُوه إلىٰ رجلٍ فلم يزَلْ يطأُ خُصيتَيْه حتّىٰ ماتَ رحمه اللهُ. وذلك يومَ الخميسِ لاثْنَتَيْ عشْرَةَ ليلةً بَقيتْ من رجبٍ.

وكانت خلافتُه أقلَّ من سنةٍ بخمسة أيام، ووُلد في سنَةِ تسْعَ عشْرَةَ، وقيل: خمسَ عشْرَةَ ومائتَيْن. وصلَّىٰ عليه جعفرُ بنُ عبدِ الواحدِ، ودُفِن بمَقْبرة المنتصرِ بنِ المتوكلِ، وكان أسمرَ رقيقًا، أَجْلَىٰ، حسنَ اللحيةِ، أشهَبَ، حسنَ العينينِ، عظيمَ البطنِ، عريضَ المَنكبين، قصيرًا، طويلَ اللحيةِ، يُكنَىٰ أبا عبدِ الله.

قال الخطيبُ: وكان من أحسنِ الخُلَفاء مذهبًا، وأجملهم طريقةً، وأظهرِهم ورَعًا، وأكثرِهم عبادةً، وإنَّما روىٰ حديثًا واحدًا، ثم أسْنَد عنه، قال: حدَّثني عليُّ بنُ أبي هاشم بن طِبْراخَ، عن محمد بن الحسَنِ الفَقيه، عن ابن أبي ليْلَىٰ، عن داودَ بن عليٍّ، عن أبيه، عن ابن عبَّاس، قال:

قال العبَّاسُ: يا رسولَ الله، ما لَنا في هذا الأمر؟ قال: «ليَ النُّبوَّةُ، ولكم الخلافَةُ، بكم يُفْتَحُ هذا الأمرُ، وبكم يُخْتَمُ». وقال للعبَّاس: «مَنْ أحبَّكَ نالتْهُ شَفَاعتي، ومَنْ أبْغَضكَ لاَ نالتْهُ شفاعَتي».

وروىٰ الخطيبُ أنَّ رجلاً استعدىٰ المُهْتَديَ علىٰ خَصْمِه، فحكَم بيْنَهما بالعدْل، فأنْشَأ الرجلُ يقولُ:

حكَّمْتُموهُ فقضَىٰ بينَكم ... أبْلَجُ مثلُ القمرِ الزاهرِ
لا يقبَلُ الرِّشْوةَ في حُكْمه ... ولا يُبالي غَبَنَ الخاسرِ

فقال له المُهْتَدي بالله: أمَّا أنتَ أيُّها الرجلُ، فأحْسَنَ اللهُ مَقالتَك، وأمَّا أنا فإنِّي ما جلَسْتُ حتى قرأتُ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. قال: فبكَىٰ الناسُ حولَه. فما رُئي باكيًا أكثرَ من ذلك اليوم.

وقال بعضُهم: سرَد المُهْتَدي الصومَ منذُ ولِي إلىٰ أن قُتل رحمه اللهُ. وكان يحبُّ الاقْتداءَ بما سلَكه عمرُ بنُ عبد العزيز الأُمَويُّ في أيام خلافَته من الورَعِ والتَّقَشُّفِ وكثرة العبادَة وشدَّة الاحْتياط.

وقال أحمدُ بنُ سعيد الأُمَويُّ: كنَّا جلُوسًا بمَكَّةَ وعندي جماعةٌ ونحن نَبحَثُ في النحو وأشْعار العرب، إذْ وقفَ علينا رجلٌ مجنونٌ، فأنْشأ يقولُ:

أمَا تَستَحْونَ اللهَ يا مَعْدنَ الجهلِ ... شُغلتمْ بذا والناسُ في أعظمِ الشُّغلِ
إمامُكمْ أضْحَىٰ قتيلاً مُجدَّلاً ... وقد أصْبَح الإسْلامُ مُفْتَرقَ الشَّمْلِ
وأنتمْ على الأشْعارِ والنحوِ عُكَّفٌ ... تضِجُّونَ بالأصْواتِ في قلَّة العقلِ

قال: فنظَرنا وأرَّخْنا ذلك اليومَ فإذا المُهْتَدي بالله قد قُتل في ذلك اليوم، وكان يومَ الإثنين لأرْبعَ عشْرَةَ بَقِيتْ من رجبٍ سنةَ ستٍّ وخمْسينَ ومائتيْن.

خلافة المعتمد على الله أحمدَ بن المتوكِّل على الله، ويُعرفُ بابن فِتْيان

بُويعَ له بالخلافة يومَ الثلاثاء لثلاثَ عشْرَةَ خلت من رجبٍ من سنة ستٍّ وخمسين ومائتين في دار الأمير يارجوخَ، وذلك قبلَ خلعِ المُهتدي بأيامٍ، ثم كانتْ بيعةُ العامَّة يومَ الإثنين لثَمانٍ بقين من رجب.

ولعَشْرٍ بَقِينَ من رجبٍ دخَل مُوسَىٰ بنُ بُغَا ومُفْلحٌ إلىٰ سُرَّ مَنْ رأىٰ، فنزَل موسىٰ في داره وسكَن

الناسُ، وخَمَدت الفتنةُ هنالك.

وأمَّا صاحبُ الزَّنجِ المُدَّعِي أنَّه عَلَويٌّ فهو مُحاصِرٌ للبَصْرةِ، والجُيوشُ الخليفيَّةُ في وجْهِه دُونَها، وهو في كلِّ وقتٍ يقهَرُها، ويغْنَمُ ما يَفِدُ إليهم في المراكبِ من الأطعمةِ وغيرِها، واستحوَذ بعدَ ذلك على الأُبُلَّةِ وعبَّادانَ وغيرِهما من البلاد، وخاف منه أهلُ البَصرَةِ خوفًا شديدًا، وكلُّ ما لأمرِه يقوَىٰ، ولجيوشِه تكثُرُ، ولعددِه يتزايدُ، ولم يزَلْ ذلك دأبَه إلى انسلاخها.

وفي هذه خرَج رجلٌ آخرُ بالكوفةِ يقالُ له: عليُّ بنُ زَيْدٍ الطَّالبيُّ، وجاءَه جيشٌ من جهةِ الخليفةِ فكسَره الطَّالبيُّ، واستفْحَل أمرُه بالكُوفَةِ وقويتْ شوكتُه، وتفاقَم أمرُه.

وفيها وثَب محمدُ بنُ واصلٍ التَّميميُّ على نائبِ فارسَ الحارثِ بنِ سيما الشرابيِّ، فقتَله واستحوَذ على بلادِ فارسَ.

وفي رمضانَ منها تغلَّب الحسنُ بنُ زيدٍ الطالبيُّ على بلادِ الرَّيِّ، فتوجَّه إليه موسى بنُ بُغا في شوَّالٍ من عندِ المعتمد، وخرَج الخليفةُ لتوْديعِه.

وفيها كانت وَقْعَةٌ عظيمةٌ على بابِ دمشقَ بينَ أماجورَ نائبِ دمشقَ، ولم يكُنْ معه إلا قريبٌ من أربعمائةِ فارسٍ، وبينَ ابنِ لعيسى بنِ الشيخِ، وهو في قريبٍ من عشرينَ ألفًا، فهزَمَه أماجورُ. وجاءتْ من الخليفةِ ولايةٌ لابنِ الشيخِ؛ بلادَ أرْمينيَةَ على أنْ يتركَ أهلَ الشامِ، فقبِل ذلك وانصَرف عنهم.

وحجَّ بالناسِ في هذه السنةِ محمدُ بنُ أحمدَ بنِ عيسى بنِ أبي جعفرٍ المنْصُورِ، وكان في جملةِ الحُجاجِ أبو أحمدَ بنُ المُتوكِّلِ، فتعجَّل وعجَّل السيرَ إلى سامرَّا، فدخَلها ليلةَ الأربعاءِ لثلاثَ عَشْرةَ بقيتْ من ذي الحجَّةِ من هذه السنَةِ.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

الخليفةُ المُهْتدي بالله في رجَب، كما تقدَّم.

والزُّبيْرُ بنُ بَكَّارِ بنِ عبدِ الله بنِ مُصْعَبِ بنِ ثابتِ بنِ عبدِ الله بنِ الزُّبيرِ بنِ العوَّامِ، القُرشيُّ الزُّبيْريُّ، قاضي مكَّةَ، قَدِم بغْدادَ وحدَّث بها، وله كتابُ «أنسابِ قُرَيشٍ»، وكان من أعلمِ الناسِ بذلك، وكتابُه في ذلك حافلٌ جدًّا. وقد روَىٰ عنه ابنُ ماجه وغيرُه، وقد وثَّقه الدَّارَقُطْنيُّ والخطيبُ وأثنَى عليه وعلى كتابه. وتُوفِّي بمكَّةَ عن أربَعٍ وثمانينَ سنةً في ذي القَعْدَةِ من هذه السنَةِ، ودُفن بمكةَ رحمه اللهُ.

البُخاريُّ صاحبُ «الصَّحيح»، وقد ذكَرْنا له ترجمةً حافلةً في أوَّلِ شرْحِنا «الصَّحيحه»، ولنذكُرْ هُنا نُبْذَةً يسيرةً من ذلك، فنقولُ وبالله المستَعانُ: هو محمدُ بنُ إسْماعيلَ بنِ إبْراهيمَ بنِ المُغيرةِ بنِ بَرْدِزْبَهَ، ويقال: بَذْدُزْبَهَ، الجُعْفيُّ مولَاهم، أبو عبدِ الله البُخاريُّ الحافظُ، إمامُ أهلِ الحديثِ في زمانِه، والمُقْتدَىٰ به في أوَانِه، والمُقدَّمُ على سائرِ أضْرابِه وأقْرانِه، وكتابُه «الصَّحيحُ» يُستَسْقى بقراءتِه

الغَمام، واجْمَع على قَبُوله وصِحَّة ما فيه أهلُ الإسْلام.

وُلِدَ البُخاريُّ، رَحِمه اللهُ، في ليلة الجُمُعة الثالثَ عشرَ من شوَّالٍ سنةَ أربَعٍ وتسْعينَ ومائةٍ، ومات أبوه وهو صغيرٌ، فنشَأ في حجْرِ أمِّه، فألهَمَه اللهُ حفْظَ الحديثِ وهو في المَكْتَبِ، وقرأ الكُتُبَ المشهورةَ وهو ابنُ ستَّ عشْرَةَ سنةً حتى قيل: إنَّه كان يحْفَظُ وهو صبيٌّ سَبْعِينَ ألفَ حديثٍ سَرْدًا. وحَجَّ وعُمْرُه ثَماني عشْرَةَ سنةً، فأقامَ بمكَّةَ يطْلُبُ بها الحديثَ، ثم ارتحلَ بعدَ ذلك إلى سائرِ مشايخ الحديثِ في البُلدانِ التي أمْكنَه الرِّحْلةُ إليها، وكتَبَ عن أكثَرَ من ألفِ شيخٍ، وروَى عنه خلائقُ وأمَمٌ.

وقد روَى الخطيبُ البغداديُّ عن الفِرَبْريِّ، أنَّه قال: سمعَ «الصَّحيحَ» من البُخاريِّ معي نحْوٌ من تسعينَ ألفًا، لم يَبْقَ منهم أحدٌ غيري.

وقد رُوِيَ «البُخاريُّ» من طريقِ الفِرَبْريِّ - كما هي روايةُ الناسِ اليومَ من طريقِه - وحَمَّادِ بنِ شاكرٍ، وإبراهيمَ بنِ مَعْقِلٍ، وطاهرِ بنِ محمدِ بنِ مَخْلَدٍ، وآخرُ مَن حدَّث عنه به أبو طَلْحَةَ منْصورُ بنُ محمدِ ابنِ عليٍّ البَزْدَويُّ النَّسَفيُّ، وقد تُوفِّي النَّسَفيُّ هذا في سنَةِ تسْعٍ وعشْرينَ وثلاثمائةٍ، ووثَّقه الأميرُ أبـــو نصْرِ بنُ مَاكُولا. وممن روَى عن البُخاريِّ مُسْلمٌ في غيرِ «الصَّحيحِ»، وكان مسلمٌ يَتَلْمذُ له ويُعظِّمُه، وروَى عنه التِّرْمذيُّ في «جامعه»، والنَّسائيُّ في «سُنَنِه» في قولِ بعْضِهم.

وقد دخَلَ بغْدادَ ثَمانَ مرَّاتٍ، وفي كلٍّ منها يجتمعُ بالإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ فيَحُثُّه أحمدُ على المُقامِ ببغدادَ، ويلُومُه على الإقامَةِ بخُرَاسَانَ.

وقد كان البُخاريُّ يستَيْقظُ في الليلةِ الواحدةِ من نوْمِه فيُوري السِّراجَ، ويكتُبُ الفائدةَ تمرُّ بخاطرِه ثم يُطْفِئُ سراجَه، ثم يقومُ مرَّةً أُخرى حتى كان يَتعدَّدُ ذلك منه قريبًا من عشْرينَ مرَّةً.

وقد كان أُصيبَ بصرُه وهو صغيرٌ، فرأتْ أمُّه إبراهيمَ الخليلَ، عليه الصلاةُ والسلامُ، فقال: يا هذه، قد ردَّ اللهُ على ولَدِك بصرَه بكثْرَةِ دُعائك، أو قال: بُكائك. فأصبَح وهو بصيرٌ.

وقال البُخاريُّ: فكَّرْتُ البارحَةَ فإذا أنا قد كتَبْتُ في مصنَّفاتي نحوًا من مائتَيْ ألفِ حديثٍ مُسْنَدَةً. وكان يحْفَظُها كلَّها.

ودخل مرَّةً إلى سَمَرْقَنْدَ فاجتمَع به أربعُمائةٍ من عُلماءِ الحديثِ بها، فركَّبُوا له أسانيدَ وأدخَلُوا إسْنادَ الشامِ في إسْنادِ العراقِ، وخلَطوا الرجالَ في الأسانيدِ، وجعَلُوا مُتُونَ الأحاديثِ على غيرِ أسانيدِها، ثم قرءُوها على البُخاريِّ، فردَّ كلَّ حديثٍ إلى إسْنادِه، وقوَّمَ تلك الأحاديثَ والأسانيدَ كلَّها، وما تَعلَّقوا عليه بسَقْطةٍ في إسْنادٍ ولا في متْنٍ. وكذلك صنَع بمائةِ مُحدِّثٍ من أهلِ بغدادَ.

وقد ذكَرُوا أنَّه كان ينظُرُ في الكتابِ مرَّةً واحدةً فيحفَظُ ما فيه من نَظْرةٍ واحدةٍ، والأخْبارُ عنه في هذا المعنى كثيرةٌ.

وقد أثْنَى عليه عُلَماءُ زمانِه من شيوخِه وأقْرانِه؛ فقال الإمامُ أحمدُ: ما أخرجَت خُراسَانُ مثلَه. وقال عليُّ بنُ المَدينيِّ: لم يرَ البُخاريُّ مثلَ نفْسِه. وقال إسْحاقُ بنُ راهَوَيْه: لو كان في زَمَنِ الحسَنِ

لاحْتاجَ الناسُ إليه لمعرفته بالحديث وفقهه. وقال أبو بكرِ بنُ أبي شَيْبَةَ ومحمدُ بنُ عبدِ الله بنِ نُمَيْر: ما رأينا مثله. وقال عليُّ بنُ حُجْر: لا أعلَمُ مثْلَه. وقال محمودُ بنُ النضر أبو سَهْل الشافعيُّ: دخَلتُ البصرةَ والشامَ والحجازَ والكُوفَةَ، ورأيتُ عُلماءَها كلَّما جرَىٰ ذكرُ محمدِ بنِ إسْماعيلَ البُخاريِّ فضَّلُوه على أنفُسِهم. وقال أبو العبَّاسِ الدَّغُوليُّ: كتبَ أهلُ بَغْدادَ إلى البُخاريِّ:

المسلمونَ بخيرٍ ما حَيِيتَ لهم ... وليس بعدَك خيرٌ حينَ تُفْتَقَدُ

وقال الفلاَّسُ: كلُّ حديثٍ لا يَعرِفُه البخاريُّ فليسَ بحديث، وقال نُعَيمُ بنُ حمَّادٍ هو فقيهُ هذه الامة وكذا قالَ يعقوبُ بنُ إبراهيمَ الدورقيُّ ومنهم من فضَّلَه في الفقه والحديث على الإمام أحمدَ بن حنبلٍ وإسحاقَ بنِ راهويه.

وقال قُتيبةُ بنُ سعيد: رُحِلَ إليَّ من شرقِ الأرْضِ وغربِها، فما رحَل إليَّ مثلُ محمدِ بنِ إسماعيلَ البُخاريِّ. وقال رَجاءُ بنُ مُرَجًّى: فضْلُ البُخاريِّ على العُلماءِ - يعني في زمانه - كفَضْلِ الرِّجال على النِّساء. وقال: هو آيةٌ من آياتِ الله يمشي على الأرض. وقال أبو محمدٍ عبدُ الله بنُ عبدِ الرحمنِ الدَّارِميُّ: محمدُ بنُ إسْماعيلَ البُخاريُّ أفْقَهُنا وأعْلَمُنا وأغْوَصُنا وأكثرُنا طلبًا.

وقال إسْحاقُ بنُ راهَوَيْه: هو أبصَرُ منِّي. وقال أبو حاتمٍ الرَّازيُّ: محمدُ بنُ إسْماعيلَ أعلَمُ مَن دخَلَ العراقَ. وقال عُبيدٌ العِجْلُ: رأيتُ أبا حاتمٍ وأبا زُرْعةَ يجْلسانِ إليه يَستمعانِ ما يقولُ، ولم يكُن مُسلمٌ يبلُغُه، وكان أعلمَ من محمدِ بنِ يحيى الذُّهْلي بكذا وكذا، وكان دَيِّنًا فاضلاً يُحْسِنُ كلَّ شيء. وقال غيرُه: رأيتُ محمدَ بنَ يحيى الذُّهْليَّ يسألُ البُخاريَّ عن الأسامي والكُنَى والعِلَلِ، وهو يمرُّ فيه كالسَّهْم، كأنَّه يقرأُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].

وقال أحمدُ بنُ حَمْدونَ القَصَّارُ: رأيتُ مُسلمَ بنَ الحجَّاج جاءَ إلى البُخاريِّ فقبَّلَ بينَ عيْنَيْه، وقال: دَعْني حتى أُقَبِّلَ رِجْلَيْكَ يا أُستاذَ الأُستاذين، وسيِّدَ المُحدِّثين، وطبيبَ الحديثِ في عِلَله. ثم سألَه عن حديثِ كفَّارَةِ المجْلس، فذكَر له عِلَّتَه، فلمَّا فرَغ قال مسلمٌ: لا يُبْغِضُك إلاَّ حاسدٌ، وأشهَد أنَّه ليس في الدنيا مثلُك. وقال التِّرْمذيُّ: لم أرَ بالعراقِ ولا بخُراسانَ في معنى العِلَلِ والتاريخِ ومعرفةِ الأسانيدِ أعلمَ من البُخاريِّ. وكنَّا يومًا عندَ عبدِ الله بنِ منير، فقال للبُخاريِّ: جعَلكَ اللهُ زَيْنَ هذه الأُمَّة. قال التِّرْمذيُّ: فاستُجيبَ له فيه.

وقال ابنُ خُزَيْمَةَ: ما رأيتُ تحتَ أديمِ السماءِ أعلَمَ بحديثِ رسولِ الله ﷺ وأحْفَظَ له من محمدِ بنِ إسْماعيلَ البُخاريِّ. ولو ذهَبْنا نُسَطِّرُ ما أثنى عليه الأئمةُ في حفْظِه وإتْقانه وعلمِه وفقْهِه وورَعِه وزُهْدِه وتبحُّرِه لَطالَ علينا، ونحنُ على عَجَلٍ من أجْلِ الحوادثِ، وقد ذكَرنا ذلك مبسوطًا في أوَّلِ شرح «الصحيح»، واللهُ سُبحانه وتعالى هو المُستعانُ.

وقد كان البُخاريُّ، رَحِمه اللهُ، في غايَةِ الحياءِ والشجاعةِ والسَّخَاءِ والوَرَعِ والزُّهْدِ في الدنيا دار

الفناء، والرَّغبة في الآخرة دار البقاء. قال: أرجو أن ألقى الله وليس أحدٌ يُطالبني أنِّي اغتبْتُه. فذُكر له «التاريخ» وما ذكرَ فيه من الجَرْح والتَّعديل وغير ذلك، فقال: ليس هذا من هذا، قال النبيُّ ﷺ: «ائذَنُوا لَهُ، فَلَبِئسَ أَخُو العَشِيرَةِ». ونحنُ إنما روَيْنا ذلك روايةً، ولم نَقُلْه من عند أنفُسنا.

وقد كان، رحمه اللهُ، يُصلِّي في كلِّ ليلة ثلاثَ عشْرَةَ ركعةً، وكان يختمُ القرآنَ في كلِّ ليلةٍ من رمضانَ خَتْمَةً، وكانت له جِدَةٌ ومالٌ جيِّدٌ يُنفقُ منه سرًا وجَهْرًا، وكان يُكثرُ الصَّدَقَةَ بالليلِ والنهارِ سرًّا وعلانيةً، وكان مُستجابَ الدعْوة، مُسَدَّدَ الرَّمْية، شريفَ النفْس؛ بعثَ إليه بعضُ السلاطين ليأتيَه حتى يسمَعَ أولادُه عليه، فأرْسَلَ إليه: في بيْتِه يُؤتَى الحَكَمُ، إن كنتم تُريدُونَ ذلك فهلُمُّوا إليَّ. وأبَى أن يذهَبَ إليهم - وهو خالدُ بنُ أحمدَ الذُّهْليُّ، نائبُ الظاهريَّة ببُخارا - فبَقِي في نفْسِ الأمير من ذلك؛ فاتفَق أنْ جاءَه كتابٌ من محمد بن يحيى الذُّهْليِّ من نَيْسابورَ بأنَّ البُخاريَّ يقولُ بأن لَفْظَه بالقرآن مخلوقٌ - وكان قد وقَعَ بينَ محمد بن يحيى الذُّهْليِّ وبينَ البُخاريِّ في ذلك كلامٌ، وصنَّفَ البُخاريُّ في ذلك كتابَه «خلْقَ أفعال العباد» - فأرادَ أن يَصْرِفَ الناسَ عن السماعِ من البُخاريِّ، وقد كان الناسُ يُعظِّمُونَه جدًّا، وحينَ رجَع إليهم نَثَروا على رأسه الذهَبَ والفضةَ يومَ دخَلَ بُخارا عائدًا إلى أهْلِه، وكان له مجلسُ الإملاء بجامعها، فلم يقْبَلُوا من الأمير، فأمَر عندَ ذلك بنَفْيه من البلد، فخرَج منها ودَعا على خالدِ بنِ أحمدَ، فلم يَمْضِ شهرٌ حتى أمَرَ ابنُ طاهرٍ بأن يُنادَى على خالد بنِ أحمدَ على أتانٍ، وزالَ مُلْكُه وسُجِنَ في بَغْدادَ حتى ماتَ، ولم يَبْقَ أحدٌ ساعدَه على ذلك إلاَّ ابْتُلِيَ ببلاءٍ شديدٍ.

فنَزَحَ البُخاريُّ من بلده إلى بَلْدَةٍ يقالُ لها: خَرْتَنْكُ. على فَرْسَخَيْنِ من سَمَرْقَنْد، فنزَلَ عندَ أقاربَ له بها، وجعَلَ يدْعُو اللهَ أن يقبِضَه إليه حينَ رأى الفِتَنَ؛ كما جاءَ في الحديث: «وإذا أرَدْتَ بقَوْمٍ فِتْنَةً فتَوفَّنا إليْكَ غيرَ مَفْتُونينَ».

ثم اتَّفَقَ مرَضُه على إثْرِ ذلك، فكانت وفاتُه ليلةَ عيد الفطر، وكانت ليلةَ السبت، عندَ صلاةِ العشاء، وصُلِّي عليه يومَ العيد بعدَ الظهر من هذه السنة - أعْني سنَةَ ستٍّ وخمْسينَ ومائتين - وكُفِّنَ في ثلاثة أثواب بيض ليس فيها قميصٌ ولا عمامَةٌ، وَفْقَ ما أوْصَى به، وحينَ دُفِنَ فاحَتْ من قَبْره رائحةٌ غاليةٌ أطْيَبُ من المِسْك، فدامَ ذلك أيامًا، ثم علَتْ سَوارٍ بيضٌ مستطيلةٌ بحذاء قَبْره. وكان عُمْرُه يومَ ماتَ رحمه اللهُ، ثنْتَيْن وستِّينَ سنةً.

وقد ترَكَ، رَحِمُه اللهُ، بعدَه علْمًا نافعًا لجميع المسلمينَ، فعمَلُه فيه لم ينْقطعْ بل هو مَوْصُولٌ بما أسْدَاه من الصالحات في الحياة؛ وقد قالَ رسولُ الله ﷺ: «إذا مَاتَ ابنُ آدمَ انْقَطَعَ عَمَلُه إلاَّ من ثَلاث، من عِلْمٍ يُنتفَعُ به»[1] الحديث. رواهُ مسلمٌ.

وشَرْطُه في «صحيحه» هذا أعزُّ من شرْط كلِّ كتابٍ صُنِّفَ في «الصَّحيح»، لا يُوازيه فيه غيرُه، لا

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة.

«صحيحُ مسلمٍ» ولا غيرُه. وما أحسَنَ ما قالَ بعضُ الفُصحاءِ مِن الشعراء:

صحيحُ البُخاريِّ لو أنصَفُوهُ … لَمَا خُطَّ إلاَّ بماءِ الذهَبْ

هو الفَرْقُ بينَ الهُدَى والعَمَى … هو السَّدُّ بينَ الفتى والعَطَبْ

أسانيدُ مثلُ نُجومِ السماءِ … أمامَ مُتُونٍ كمِثلِ الشُّهُبْ

به قامَ ميزانُ دينِ الرسولِ … ودانَ به العُجْمُ بعدَ العَرَبْ

حِجابٌ من النارِ لا شَكَّ فيهِ … تَمَيَّزَ بينَ الرِّضا والغَضَبْ

وسِتْرٌ رقيقٌ إلى المُصْطفَى … ونَصٌّ مُبينٌ لكَشْفِ الرِّيَبْ

فيَا عالمًا أجْمَعَ العالمونَ … على فَضْلِ رُتْبَتِه في الرُّتَبْ

سَبَقْتَ الأئمةَ في ما جَمَعْتَ … وفُزْتَ على رَغْمِهم بالقَصَبْ

نفَيْتَ الضَّعيفَ مِن النّاقلينَ … ومَن كانَ مُتَّهَمًا بالكَذِبْ

وأبرزْتَ في حُسْنِ تَرْتيبِهِ … وتَبْويبِه عَجَبًا للعَجَبْ

فأعْطاكَ مَوْلاكَ ما تشْتَهِيهِ … وأجْزَلَ حظَّكَ فيما وَهَبْ

ثم دخلت سنة سبعٍ وخمسينَ ومائتين

فيها وَلَّىٰ الخليفةُ المُعْتَمِدُ علىٰ اللهِ ليَعْقُوبَ بنِ اللَّيْثِ بَلْخَ وطَخَارستانَ وما يَلي ذلك مِن كَرْمانَ وسِجِسْتانَ والسِّنْدِ وغيرِها.

وفي صفَرٍ منها عقَد المُعتمدُ لأخيه أبي أحمدَ علىٰ الكُوفةِ وطريقِ مكَّةَ والحرَمَيْنِ واليمنِ، وأضافَ إليه في رمضانَ نيابةَ بَغدادَ والسَّوادِ وواسِطٍ وكُورِ دِجْلَةَ والبصرةِ والأهْوازِ وفارسَ، وأذِنَ له أنْ يستنِيبَ في ذلك كلِّه.

وفيها تواقَعَ سعيدٌ الحاجبُ وصاحبُ الزَّنْجِ في أراضِي البَصْرَة، فهزَمه سعيدٌ الحاجبُ واسْتَنقذَ من يَده خلْقًا مِن النساءِ والذُّرِّيةِ، واسترْجَع منه أموالاً جزيلةً، وأذلَّ الزَّنْجَ غايةَ الإهانة والمذَلَّة. ثم إنَّ الزَّنْجَ بيَّتُوا سعيداً وجيْشَه فقَتَلوا منهم خلْقًا كثيراً، ويقالُ: إنَّ سعيدَ بنَ صالحٍ قُتلَ أيضًا. ثم التقَىٰ مع منْصورِ بنِ جَعْفَرٍ الخَيَّاطِ في جيشٍ كثيفٍ، فهزَمَهم هذا الخارجيُّ صاحِبُ الزَّنْجِ المُدَّعِي أنَّه طالبِيٌّ، وهو كاذبٌ.

قال ابنُ جرير: وفيها ظُفِرَ ببغدادَ - بموْضعٍ يُقالُ له: بِرْكَةُ زَلْزَلٍ - برَجُلٍ خنَّاقٍ قد قتلَ خلْقًا من النساءِ، فحُمِلَ إلىٰ المُعتمدِ فضُرب بينَ يَدَيْه ألْفَي سَوْطٍ وأرْبَعَمائةِ أرْزَنٍ، فلم يَمُتْ حتىٰ ضَرَبَ الجلاَّدُونَ أُنْثَيَيْه بخَشَبِ العُقابَيْنِ فماتَ، ورُدَّ إلىٰ بَغدادَ وصُلِبَ هنالك، ثم أُحرِقَتْ جُثَّتُه.

وفي ليلةِ الرابعَ عشَرَ مِن شوَّالٍ مِن هذه السَّنَةِ كسَفَ القمرُ وغابَ أكثرُه، وفي صَبيحَةِ هذا اليومِ دخَلَ جَيشُ الخبيثِ إلىٰ البَصْرةِ قَهْرًا، فقتَلوا من أهْلِها خَلْقًا كثيراً وهرَبَ نائبُها بُغْراجُ ومَن معه، وأحْرَقَتِ الزَّنْجُ جامعَ البَصْرَةِ ودُوراً كثيرةً وانْتَهَبُوها، ثم نادَىٰ فيهم إبْراهيمُ بنُ يحيىٰ المُهَلَّبيُّ أحدُ

أصحابِ الخارجيِّ: مَن أرادَ الأمانَ فلْيَحضرْ. فاجْتمَعَ خلقٌ كثيرٌ من أهلها فرأىٰ أنه قد أصاب فرصة فغدر بهم وأمر بقتلهم فلم يفلت منهم إلاَّ الشَّاذُّ، كانت الزَّنْجُ تحيطُ بالجماعة من أهلِ البَصْرةِ، ثم يقولُ بعضُهم لبعضٍ: كيلُوا - وهي الإشارةُ بيْنَهم إذا أرادوا قَتْلَ أحدٍ - فيَحْمِلُونَ عليهم بالسيوف فلا تَسْمَعُ إلاَّ تشهُّدَ أولئكَ وضَجيجَهم عندَ القتلِ، فإنَّا للهِ وإنا إليه راجعونَ، وهكذا كلُّ مَحلَّةٍ من مَحالِّ البَصْرَةِ في عدَّةِ أيامٍ، وهرَب الناسُ منهم كلَّ مَهْرَبٍ، وحرَّقُوا الكَلأَ من الجَبَلِ إلى الجبلِ، فحرقَتِ النارُ ما وَجدَتْ من شيءٍ؛ من إنْسانٍ أو بهيمةٍ أو أثاثٍ أو غيرِ ذلك، وأحْرَقُوا المسجدَ الجامعَ أيضًا، وقد قُتل في هؤلاءِ جماعةٌ كثيرةٌ من الأعيانِ والأدباءِ والفضلاءِ والمُحدِّثين والعلماءِ، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وكان هذا الخَبيثُ قد أوْقَعَ بأهلِ فارسٍ وقْعَةً عظيمةً، ثم بلَغه أنَّ أهلَ البصرةِ قد جاءَهم من المِيرَةِ شيءٌ كثيرٌ وقد اتسعُوا بعدَ الضِّيقِ فحسَدَهم على ذلك، فروَىٰ ابنُ جريرٍ عن مَن سمِعَه يقولُ: دَعَوْتُ اللهَ على أهلِ البصرةِ، فخوطِبْتُ فقيلَ لي: إنَّما أهلُ البصرةِ خُبْزَةٌ تأكلُها من جَوانبِها، فإذا انْكَسَر نصفُ الرغيفِ خَرِبتِ البَصْرةُ. فأوَّلْتُ ذلك بانكساف القَمرِ. وقد كان هذا شائعًا في أصحابه حتى وقَع الأمرُ طِبْقَ ذلك، ولا شكَّ أنَّ هذا كان معه شَيْطانٌ يُخاطِبُه، كما كان يأتي شيطانُ مُسيلمة إلى مُسيلمةَ. واللهُ أعلمُ.

ولَمَّا أوقَع أصحابُه من الزَّنْجِ وغيرِهم ما أوقعوا بأهلِ البصرةِ، قال لِمَنْ معه: إني صَبيحَةَ ذلك اليومِ دَعَوْتُ اللهَ على أهلِ البصرةِ، فرُفِعَتْ لي بينَ السماءِ والأرضِ ورأيْتُ أهلَها يُقْتَلُونَ، ورأيْتُ الملائكةَ تُقاتِلُ مع أصْحابي، وإنِّي لَمَنْصُورٌ على الناسِ، والملائكةُ تُقاتِلُ معي، وتُثَبِّتُ جُيوشِي، وتُؤيِّدُني في حُروبي.

ولَمَّا صار إليه العَلَويَّةُ الذين كانوا بالبَصْرَةِ انْتَسَبَ حينَئذٍ إلى يحيَى بنِ زَيْدٍ، وهو كاذبٌ في ذلك بالإجْماعِ؛ لأنَّ يَحْيَى بنَ زَيْدٍ لم يعقِبْ إلاَّ بِنْتًا ماتَتْ، وهي تَرْضَعُ، فقَبَّحَ اللهُ هذا اللعينَ، ما أكْذَبه وأفْجَرَه وأغْدرَه!

وفي مُسْتَهلِّ ذي القَعْدَةِ وجَّهَ الخليفةُ من سامَرَّا جيشًا كثيفًا مع الأميرِ محمدٍ المعْروفِ بالمولَّد لقتالِ صاحبِ الزَّنْجِ، فقبَض في طريقِه على سعيدِ بنِ أحمدَ الباهليِّ الذي كان قد تغلَّب على أرضِ البَطائحِ وأخافَ السُّبُلَ.

وفيها خالفَ محمدُ بنُ واصلٍ السلطانَ بأرضِ فارسَ وتغلَّب عليها.

وفيها وثَب رجلٌ من الرومِ يقالُ له: بسيلُ الصَّقْلَبيُّ. على مَلِكِ الرومِ ميخائيلَ بنِ تَوفيلَ، فقتَله واسْتَحوذَ على مَمْلَكَةِ الرومِ، وقد كان لميخائيلَ في مُلْكِ الرومِ أربَعٌ وعشْرونَ سنةً.

وحجَّ بالناسِ في هذه السنة الفَضْلُ بنُ إسْحاقَ بنِ إسماعيلَ بنِ العباسِ بنِ محمدِ بنِ عليٍّ العبَّاسِيُّ.

وممَّن توفي فيها من الأعيانِ:

الحسنُ بنُ عرفةَ بنِ يَزيدَ، صاحبُ الجزءِ المَشْهورِ المَرْويِّ، وقد جاوَز المائةَ بعَشْرِ سنينَ، وقيلَ:

بسَبْعٍ. وكان له عشرَةٌ مِن الوَلَدِ سمَّاهم بأسْماءِ العَشَرَةِ، رَضِيَ اللهُ عنهم. وقد وثَّقَه يَحْيَىٰ بنُ مَعِينٍ وغيرُه، وكان يَتَردَّدُ إلىٰ الإمامِ أحمدَ، وكان مولدُه في سنةِ خَمْسينَ ومائَةٍ، وتُوفِّي في هذه السنةِ عن مائَةٍ وسَبْعِ سنينَ.

زيدُ بنُ أخْزمَ الطَّائيُّ. والرُّؤاسيُّ، ذَبَحهُما الزَّنْجُ في جملةِ مَن قتَلُوا مِن أهلِ البَصْرَةِ، كما قدمنا قصتَّهم، قبَّحَهم اللهُ، وما قتَلوا مَن المسلمين رحِمهم الله. وعلي بنُ خشْرَمٍ، وأبو سعيدِ الأشجُّ؛ أحدُ مشايخِ مسلمٍ الذين يُكْثِرُ عنهم.

والعبَّاسُ بنُ الفرَجِ أبو الفَضْلِ الرِّياشِيُّ، النحويُّ اللغويُّ، كان عالمًا بأيامِ العربِ والسِّيَرِ، وكان كثيرَ الاطِّلاعِ، ثِقَةً عالمًا، روَىٰ عن الأصْمَعيِّ وأبي عُبَيْدةَ وغيرِهما، وعنه إبْراهيمُ الحَرْبيُّ، وأبو بكرِ ابنُ أبي الدُّنيا وغيرُهما. قُتِل الرياشيُّ بالبَصْرَةِ في هذه السنَةِ، قتلَه الزَّنْجُ فيمن قتَلُوا، ذكَرَه القاضي ابنُ خلِّكانَ في «الوفيات»، وحكَىٰ عنه، عن الأصْمَعِيِّ أنَّه قال: مرَّ بنا أعْرابيٌّ يَنْشُدُ ابْنَه، فقُلْنا له: صِفْه لنا. فقالَ: كأنَّه دُنَيْنيرٌ. فقُلْنا: لم نَرَه. فلم نَلْبَثْ أنْ جاء يحمِلُه علىٰ عُنُقه أُسَيِّدًا كأنَّه جُعَلٌ. فقلنا: لو سأَلْتَنا عن هذا لأرْشدْناكَ، إنَّه منذُ اليومِ يلعَبُ ههُنا مع الغِلْمانِ. ثم أنْشَد الأصْمَعِيُّ:

نِعْمَ ضَجِيعُ الفَتَى إذا بَرَدَ الـ ... ـلَيلُ سُحَيْرًا وقَرْقَفَ الصَّرِدُ
زَيَّنَها اللهُ في الفُؤادِ كما ... زُيِّنَ في عَيْنِ والِدٍ وَلَدُ

ثم دخلت سنة ثمانٍ وخمسين ومائتين

في يومِ الاثنينِ لعَشْرٍ بقينَ مِن ربيعِ الأوَّلِ عقَد الخليفةُ المعتمدُ علىٰ الله لأخِيه أبي أحمدَ علىٰ ديارِ مُضَرَ وقِنَّسْرينَ والعواصمِ، وجلَس يومَ الخميسِ مُسْتَهلَّ ربيعِ الآخرِ، فخلَع علىٰ أخيه وعلىٰ مُفلحٍ، ورَكِبا نحوَ البصرةِ في جيشٍ كثيفٍ في عددٍ وعُدَدٍ، فاقْتَتلُوا قِتالاً شديداً، فقُتِلَ مُفْلِحٌ للنصفِ مِن جُمادَىٰ الأُولَىٰ، أصابَه سهمٌ بلا نَصْلٍ في صَدْرِه، فأصبحَ ميِّتًا، وحُملتْ جثَّته إلىٰ سامَرَّا ودُفِنَ بها.

وفيها أُسِرَ يحيىٰ بنُ محمدٍ البَحْرانيُّ؛ أحدُ أمراءِ صاحبِ الزَّنْجِ الكِبارِ، وحُمل إلىٰ سامَرَّا، فضُرِبَ بينَ يدَيِ المُعْتَمِدِ مائَتَيْ سَوْطٍ، ثم قُطعتْ يدَاه ورِجْلاَه مِن خِلافٍ، ثم خُبِطَ بالسيوفِ ثم ذُبِحَ ثم أُحْرِقَ، وكان الذين أسَروه جيشَ أبي أحمدَ في وَقْعَةٍ هائلةٍ مع الزَّنْجِ، قبَّحَهم اللهُ. ولمَّا بلَغ خبَرُه صاحِبَ الزَّنْجِ أسِفَ علىٰ ذلك، ثم قال: لقد خُوطِبْتُ فيه، فقِيل لي: قتْلُه كان خيْراً لك؛ لأنَّه كان شَرِهًا يُخْفِي مِن المَغانِمِ خِيارَها. وقد كان هذا اللعينُ - أعني صاحِبَ الزَّنْجِ المدَّعي إلىٰ غيرِ أبيهِ يقولُ لأصْحابه: لقد عُرِضتْ عليَّ النُّبُوَّةُ فخفْتُ أنْ لا أقومَ بأعْبائِها، فلم أقْبَلْها.

وفي رَبيعِ الآخرِ منها وصلَ سعيدُ بنُ أحمدَ الباهِليُّ إلىٰ بابِ السلطانِ، فضُرِبَ سَبعَمائَةِ سوطٍ حتىٰ مات، ثم صُلِب.

وفيها قُتل قاضٍ وأرْبَعةٌ وعِشْرونَ رجلاً مِن أصْحابِ صاحبِ الزَّنْجِ عندَ بابِ العامَّةِ بسامَرَّا.

وفيها رجَع محمدُ بنُ واصلٍ إلى طاعَةِ السُّلطانِ، وحمَل خَراجَ فارسَ، وتَمهَّدَتِ الأُمورُ هناك، واستقَلَّتْ على السَّداد.

وفي أواخرِ رجَبٍ كانت بينَ أبي أحمدَ وبينَ الزنْجِ وَقْعَةٌ هائلةٌ، قُتل فيها خَلْقٌ من الفريقَين، ثم استَوْخَمَ أبو أحمدَ منْزِلَه، فتحيَّز إلى واسطٍ فنزلَها في أوائلِ شعبانَ، فوقعَتْ هناك زَلْزَلَةٌ شديدةٌ وهَدَّةٌ عظيمةٌ، تهدَّمَتْ بسببِ ذلك دُورٌ كثيرةٌ، ومات من الناسِ نحوٌ من عِشْرينَ ألفًا.

وفي هذه السنة وقع في الناسِ وَباءٌ شديدٌ ببَغدادَ وسَامَرًّا وواسطٍ وغيرِها من البلادِ. وحصَل للناسِ ببغْدادَ داءٌ يقالُ له: القُفَّاعُ. فإنَّا لله وإنا إليه راجعون.

وفي يومِ الخميسِ لسَبْعٍ خَلَوْنَ من رمضانَ، أُخِذَ رجلٌ من بابِ العامَّةِ بسَامَرًّا ذُكِر عنه أنَّه يَسُبُّ السَّلفَ، فضُرِبَ ألفَ سوطٍ حتى ماتَ.

وفي يومِ الجُمعةِ ثامنِه تُوفِّي الأميرُ يارْجُوخُ، فصَلَّى عليه أخو الخليفةِ أبو عيسى وحضَره جعفرُ بنُ المُعْتَمِدِ على الله.

وفيها كانتْ وقعةٌ هائلةٌ بينَ موسى بنِ بُغا وبينَ أصحابِ الحسنِ بنِ زَيْدٍ ببلادِ خُرَاسَانَ، فهزَمهم موسى بنُ بُغا هزيمةً فظيعةً.

وفيها كانت وقعةٌ بينَ مَسْرُورٍ البَلْخيِّ وبينَ مُساوِرٍ الخارجيِّ، فأسَر مَسْرورٌ من أصْحابِه جماعةً كثيرةً.

وفيها حجَّ بالناسِ الفَضْلُ بنُ إسْحاقَ المُتقدِّمُ.

وممن تُوفِّي فيها من الأعيان:

أحمدُ بنُ بُدَيْلٍ. وأحمدُ بنُ حَفْصٍ. وأحمدُ بنُ سِنانٍ القَطَّانُ. وأحمدُ بنُ الفُراتِ. وحُميدُ بنُ الربيعِ. ومحمدُ بنُ سَنْجَرَ، صاحبُ المسندِ. ومحمدُ بنُ يَحْيَى الذُّهْليُّ. ويحيى بنُ مُعاذٍ الرَّازيُّ.

ثم دخلت سنة تسع وخمسين ومائتين

في يومِ الجمُعةِ لأربعٍ بَقِينَ من ربيعٍ الآخرِ رجَع أبو أحمدَ بنُ المتوكِّلِ من واسطٍ إلى سَامَرًّا، وقد استَخْلَف على حَرْبِ الخبيثِ صاحبِ الزَّنْجِ محمدًا الملقَّبَ بالمولَّدِ، وكان شُجاعًا شَهْمًا.

وفيها بعَث الخليفةُ إلى كَنْجورَ نائبِ الكوفةِ جماعةً من القُوَّادِ فذبَحوه، وأخَذوا ما كان معه من المالِ، فإذا هو أربَعون ألفَ دينارٍ.

وفيها تغلَّب رجلٌ جَمَّالٌ يقالُ له: شَرْكَبُ. على مدينةِ مَرْوَ فانتهَبها مَن كان معَه من أتباعِه، وتفاقَم أمرُه هناك.

ولثلاثَ عشْرَةَ بقِيَتْ من ذي القَعْدَةِ توَجَّه موسى بنُ بُغا الكبيرِ من سامَرًّا لحربِ الخبيثِ، وخرَج الخليفةُ المعتمدُ لتوديعِه، وخلَع عليه عندَ مُفارقتِه له. وخرَج عبدُ الرحمنِ بنُ مُفلحٍ إلى بلادِ الأهوازِ

نائبًا عليها؛ وليكون عونًا لموسى بن بُغا على حرب صاحب الزَّنج الخبيث، لعنه اللهُ، فهزم عبدُ الرحمن بنُ مُفلح جيشًا للخبيث، وقتل من الزنج خلقًا كثيرًا، وأسر طائفةً كثيرةً منهم، وأرعبهم إرعابًا بليغًا بحيثُ لم يتجاسروا على مُواقفته مرَّةً ثانيةً، وقد حرَّضهم الخبيثُ كلَّ التحريض فلم ينجعْ ذلك فيهم.

ثم تواقع عبدُالرحمن بنُ مُفلح، وعليُّ بنُ أبانٍ المُهلَّبيُّ، وهو مُقدَّمُ جيوشِ صاحب الزَّنج، فجرت بينهما حروبٌ يطولُ شرحُها، ثم كانت الدائرةُ على الزَّنج، ولله الحمدُ والمنَّةُ، فرجع عليُّ بنُ أبانٍ إلى الخبيثِ مفلولاً مقهورًا مذمومًا مدحورًا، وبعث عبدُ الرحمن بنُ مُفلح بالأُسارى إلى سامرَّا، فبادر إليهم العامَّةُ فقتلوا أكثرَهم، وسلبوهم.

وفيها تدنَّى مَلِكُ الروم، لعنه اللهُ، إلى بلاد سُمَيْساطَ ثم إلى مَلَطْيَةَ، فقاتله أهلُها فهزموه، وقتلوا بِطْرِيقَ البَطارِقَةِ الذي كان معه، ورجع إلى بلاده خاسئًا وهو حسيرٌ.

وفيها دخل يعقوبُ بنُ اللَّيثِ إلى نَيْسابُورَ، فظفر بالخارجيِّ الذي كان بهراة ينتحلُ الخلافةَ منذُ ثلاثين سنةً، فقتله، وحُمل رأسُه على رُمحٍ، وطِيف به في الآفاقِ والأقاليمِ، ومعه رقعةٌ مكتوبٌ فيها ذلك.

وحجَّ بالناسِ في هذه السنةِ إبراهيمُ بنُ محمدِ بنِ إسماعيلَ بنِ جعفرِ بنِ سليمانَ بنِ عليِّ بنِ عبدِ الله بنِ عباسٍ.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

إبراهيمُ بنُ يعقوبَ بن إسحاقَ، أبو إسحاقَ الجُوزجَانيُّ، خطيبُ دمشقَ، وإمامُها وعالمُها، وله المُصنَّفاتُ المشهورةُ المفيدةُ، منها المترجَمُ فيه علومٌ غزيرةٌ وفوائدُ كثيرةٌ. وأحمدُ بنُ إسماعيلَ السَّهميُّ. وحجَّاجُ بنُ يُوسُفَ الشاعرُ. ومحمودُ بنُ آدمَ.

ثم دخلت سنة ستين ومائتين من الهجرة النبوية

فيها وقع غَلاءٌ عظيمٌ ببلادِ الإسلام كلِّها حتى أجلَى أكثرُ أهلِ البلدانِ منها ينتجعون غيرَها، ولم يَبْقَ بمكَّةَ أحدٌ من المجاورين ومَن يُشبِهُهم، حتى ارتحلوا إلى المدينة وغيرِها من البلادِ، وخرج نائبُ مكَّةَ منها، وبلغ كُرُّ الشَّعيرِ ببغدادَ مائةً وعشرينَ دينارًا، واستمرَّ ذلك شهورًا.

وفيها قتل صاحبُ الزَّنج المستحوذُ على البصرة عليَّ بنَ زَيْدٍ صاحبَ الكوفة.

وفيها أخذت الرومُ من المسلمين حصنَ لُؤْلُؤَةَ.

وفيها حجَّ بالناسِ إبراهيمُ بنُ محمدِ بنِ إسماعيلَ المذكورُ قبلَها.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

الحسَنُ بنُ محمدٍ الزَّعفرانيُّ، وعبدُ الرحمن بنُ بشرٍ. ومالكُ بنُ طَوْقٍ، الذي تُنسَبُ إليه رَحْبَةُ

مالك بن طوق.

وحُنَيْنُ بنُ إسحاقَ العبادي، الطبيبُ المشهورُ الذي عرَّبَ كتابَ إقْليدسَ، وحرَّرَه بعدَه ثابتُ بنُ قُرَّة. وعرَّبَ حُنَيْنٌ كتابَ «المَجَسْطِي» أيضًا، وغيرَ ذلك من كُتبِ الطبِّ من لُغةِ اليونانِ إلى لُغةِ العربِ، وكان المأمونُ شديدَ الاعتناءِ بذلك جدًّا، وكذلك جعفرٌ البَرمكيُّ قبلَه، ولحُنَيْنٍ مُصنَّفاتٌ كثيرةٌ في الطبِّ، وإليه تُنسبُ مَسائلُ حُنَيْنٍ، وكان بارعًا في فنِّه جدًّا، وكانت وفاتُه يومَ الثلاثاءِ لستٍّ خَلَوْنَ من صفرٍ من هذه السنة. قالَه ابنُ خَلِّكانَ.

ثم دخلت سنة إحدى وستين ومائتين

فيها انصرفَ الحسنُ بنُ زيدٍ من بلادِ الديْلَمِ طَبَرستانَ، وأحرقَ مدينةَ شالُوسَ؛ لمُمالأتهم يعقوبَ ابنَ اللَّيثِ عليه.

وفيها قتَل مُساورٌ الخارجيُّ يَحْيىٰ بنَ حَفْصٍ الذي كان يَلِي طريقَ خُراسانَ في جُمادىٰ الآخرةِ، فشخَص إليه مَسْرورٌ البَلْخيُّ، ثم تبِعه أبو أحمدَ بنُ المُتوكِّلِ، فتنحَّى مُساورٌ فلم يُلْحَقْ.

وفيها كانت وقْعَةٌ بينَ ابنِ واصلٍ الذي تغلَّب علىٰ فارسَ، وبينَ عبدِ الرحمنِ بنِ مُفلحٍ، فكسَره ابنُ واصلٍ وأسرَه، وقتَل طاشْتَمُرَ، واصطلَم الجيشَ الذي كان معهما، فلم يُفلِتْ منهم إلا اليسيرُ، ثم سارَ ابنُ واصلٍ إلىٰ واسطٍ يريدُ حربَ مُوسَىٰ بنِ بُغَا، فرجَع موسىٰ بنُ بُغَا إلىٰ بابِ السلطانِ، وسأل أن يُعفَىٰ من نيابةِ بلادِ المشرقِ لِمَا رأىٰ من كثرةِ المُتغلِّبين بها، فعُزِل عنها، ووَلِي ذلك أبو أحمدَ أخو الخليفةِ المعتمدِ.

وفيها سار أبو السَّاجِ لحربِ الزَّنجِ فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فكسَرتهمُ الزَّنجُ، ودخَلوا الأهوازَ، فقتَلوا خلقًا كثيرًا من أهلها وحرَقوا منازلَهم، ثم صُرِف أبو الساجِ عن نيابةِ الأهوازِ وحربِ الزَّنجِ، ووَلِي ذلك إبراهيمُ بنُ سيمَا.

وفيها تجهَّز مسرورٌ البلْخيُّ في جيشٍ لقتالِ الزَّنجِ أيضًا.

وفيها ولَّى الخليفةُ نصرَ بنَ أحمدَ بنِ أسدٍ السَّامانيَّ ما وراءَ نهرِ بَلْخَ، وكتَب إليه بذلك في شهرِ رمضانَ منها.

وفي شوَّالٍ من هذه السنةِ قصَد يعقوبُ بنُ اللَّيثِ إلىٰ ابنِ واصلٍ، فالتقيا في ذي القَعْدَةِ، فهزَمه يعقوبُ، وفلَّ عسكرَه، وأسَر خالَه، وطائفةً من حُرَمِه، وأخَذ من أمواله ما قيمتُه أربعونَ ألفَ ألفِ درهمٍ، وقتَل مَن كان يُمالئُه وينْصُرُه من أهلِ تلك البلادِ، وأطَّد تلك الناحيةَ، جزاه اللهُ خيرًا.

ولاثْنتَيْ عشْرَةَ ليلةً خلَتْ من شَوَّالٍ من هذه السنةِ ولَّى المُعتمدُ علىٰ اللهِ ولدَه جعفرًا العهدَ من بعدِه، وسمَّاه المُفَوِّضَ إلىٰ اللهِ، وولاَّه المغربَ، وضمَّ إليه مُوسىٰ بنَ بُغا، وولاَّه إفْريقيَّةَ، ومصْرَ، والشامَ، والجزيرةَ، والمَوْصِلَ وأرْمينيَةَ، وطريقَ خُراسانَ، وغيرَ ذلك، وجعَل الأمْرَ من بعدِ جعفرٍ

إلى أبي أحمدَ بنِ المُتَوَكِّلِ، ولقبه المُوَفَّقَ بالله، وولاه المشرقَ، وضمَّ إليه مسرورًا البَلْخيَّ، وولاه بَغْدادَ، والسَّوادَ، والكُوفَةَ، وطريقَ مكَّةَ، والمدينةَ، واليمنَ، وكَسْكَرَ، وكُورَ دِجْلَةَ، والأهوازَ، وفارسَ، وأصْبهانَ، وقُمَّ، والكرخَ، والدِّينَوَرَ، والرَّيَّ، وزَنْجانَ، والسِّنْدَ، وكتب بذلك مُكاتباتٍ وقُرِئتْ في الآفاقِ، وعُلِّقتْ منها نُسْخةٌ بالكعبة المعظَّمة.

وفيها حجَّ بالناسِ الفَضْلُ بنُ إسْحاقَ.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

أحمدُ بنُ سُلَيمانَ الرَّهاويُّ. وأحمدُ بنُ عبدِ الله العِجْليُّ. والحسَنُ بنُ أبي الشَّوارِبِ بمكَّةَ، وداودُ ابنُ القاسمِ الجَعْفَريُّ. وشُعَيْبُ بنُ أيُّوبَ، وعبدُ الله بنُ الواثقِ، أخو المُهْتَدي بالله. وأبو شُعَيْبٍ السُّوسيُّ. وأبو يَزيدَ البِسْطاميُّ، أحدُ أئمة الصوفيَّة. وعليُّ بنُ إشْكابَ، وأخوه محمدٌ، ومُسْلمُ بنُ الحجَّاج، صاحبُ «الصَّحيح»، رحمهم اللهُ تعالى.

وهذا ذِكْرُ شيءٍ مِنْ أخبارِ مسلم بنِ الحجّاج على سبيلِ الاختصار، رحمه اللهُ، وأكرَم مثواه

هو مسْلمُ بنُ الحجّاجِ بنِ مسلمٍ، أبو الحُسينِ القُشيريُّ النَّيسابُوريُّ، أحدُ الأئمة من حفّاظِ الحديث، صاحبُ «الصَّحيح» الذي هو تلْوُ «الصحيح» للبُخاريِّ عندَ أكثرِ العلماء، وذهَب المغاربةُ، وأبو عليٍّ النَّيسَابُوريُّ شيخُ الحاكمِ النَّيْسابوريِّ من المشارقَة إلى تفضيلِ «صحيح» مسلمٍ على «صحيح» البُخاريِّ، فإن أرادوا تقديمَه عليه في كونه ليس فيه شيء من التَّعليقات إلَّا القليلُ، وأنَّه يسُوقُ الأحاديثَ بتَمامها في موضعٍ واحدٍ، ولا يُقطِّعُها كتقطيعِ البُخاريِّ لها في الأبْواب، فهذا القَدْرُ لا يُوازي قُوَّةَ أسانيدِ البُخاريِّ، واختيارِه في تصحيحِ ما أوردَه في «جامعه» معاصرةَ الراوي لشيخه وسَماعَه منه في الجُملة، فإنَّ مسلمًا لا يشترطُ في كتابه الشرطَ الثاني، كما هو مُقرَّرٌ في علومِ الحديث، وقد بسَطْنا ذلك في أوّلِ شرحِ «البخاريِّ»، ولله الحمدُ والمنَّةُ، في ترجمةِ الإمامِ البخاريِّ، رحمه اللهُ.

والمقصودُ الآنَ أنَّ مُسْلمًا دخَل إلى العراقِ والحجازِ والشامِ ومِصرَ، وسمع من جماعةٍ كثيرين قد أورَدهم شيْخُنا الحافظُ المزِّيُّ في «تَهْذيبه» مُرتَّبين على حُروفِ المُعجم.

وروَى عنه جماعةٌ كثيرونَ؛ منهم الترمذيُّ في «جامعه» حديثًا واحدًا؛ وهو حديثُ محمدِ بنِ عَمْرٍو، عن أبي سَلَمةَ، عن أبي هريرةَ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أحْصُوا هلالَ شَعبانَ لرمضانَ». وصالحُ ابنُ محمَّدٍ جزَرَةُ، وعبدُ الرحمنِ بنُ أبي حاتمٍ، وابنُ خُزَيْمَةَ، وابنُ صاعدٍ، وأبو عَوانَةَ الإسْفَرايينيُّ.

وقال الخطيبُ البغداديُّ: أخبَرني محمدُ بنُ أحمدَ بنِ يَعْقُوبَ، أخبَرنا محمدُ بنُ نُعَيمٍ الضَّبِّيُّ، أخْبَرنا أبو الفضْلِ محمدُ بنُ إبْراهيمَ، سمعتُ أحمدَ بنَ سَلَمَةَ يقولُ: رأيتُ أبا زُرْعَةَ وأبا حاتمٍ يقدِّمان

مسلمَ بنَ الحجّاجِ في معْرفةِ الصَّحيحِ علىٰ مَشايخِ عصْرِهما.

وأخْبَرني ابنُ يعقُوبَ، أخبرَنا محمدُ بنُ نُعَيمٍ، سمعتُ الحسينَ بنَ محمدٍ الماسَرْجَسيَّ يقولُ: سمِعْتُ أبي يقول: سمِعتُ مُسْلِمَ بنَ الحجَّاجِ يقولُ: صنَّفتُ هذا «المسنَدَ الصَّحيحَ» مِن ثلاثِمائةِ ألف حديثٍ مسموعةٍ.

وروَىٰ الخطيبُ قائلاً: حدَّثني أبو القاسمِ عبدُ الله بنُ أحمدَ بنِ عليٍّ السُّوذَرْجَانيُّ بأَصْبهانَ، سمِعتُ محمدَ بنَ إسْحاقَ بنِ مَنْدَه، سمعتُ أبا عليٍّ الحسينَ بنَ عليٍّ النَّيسابُورِيَّ يقولُ: ما تحتَ أديمِ السماءِ أصحُّ مِن كتابِ مُسْلِمِ بنِ الحجَّاجِ في علمِ الحديث.

وقد ذُكر مسلمٌ عندَ إسْحاقَ بنِ راهوَيْه، فقال بالعَجَمِيَّةِ ما معْناه: أيُّ رجُلٍ كان هذا؟

وقال إسْحاقُ بنُ منصورٍ لمُسْلمٍ: لن نَعدَمَ الخيرَ ما أبْقاكَ اللهُ للمسلمين. وقد أثْنَىٰ عليه جماعةٌ مِن علماءِ أهلِ الحديث وغيرِهم.

وقال أبو عبدالله محمد بنُ يَعقوبَ الأخْرَمُ: قَلَّ ما يفُوتُ البُخاريَّ ومُسْلِمًا مّما يثْبُتُ في الحديث.

وروَىٰ الخطيبُ، عن أبي عمرٍو محمدِ بنِ أحمدَ بنِ حَمْدانَ الحِيريِّ قال: سألْتُ أبا العبّاسِ أحمدَ ابنَ سعيدِ بنِ عُقْدَةَ الحافظَ عن البُخاريِّ ومُسلمٍ، أيُّهما أعلمُ؟ فقال: كانَ البُخارِيُّ عالمًا ومسلمٌ عالمًا. فكرَّرتُ ذلك عليه مِرارًا، وهو يرُدُّ عليَّ هذا الجوابَ، ثم قال لي: يا أبا عَمْرٍو، قد يَقعُ للبُخاريِّ الغلَطُ في أهلِ الشامِ؛ وذلك أنَّه أخَذ كُتُبَهم فنظَر فيها، فرُبما ذكَر الواحدَ منهم بكُنيتِه، ويذْكُرُه في موضعٍ آخرَ باسْمِه، ويتوهَّمُ أنّهما اثنانِ، فأمّا مسلمٌ فقَلَّ ما يقَعُ له الغلَطُ لأنَّه كتَب المسانيدَ ولم يَكْتُبِ المقاطيعَ والمَراسيلَ.

قال الخطيبُ: إنَّما قفاَ مسلمٌ طريقَ البُخاريِّ، ونظَر في عِلْمِه، وحَذَا حَذْوَه، ولمَّا ورَد البُخارِيُّ نَيْسابُورَ في آخرِ أمرِه لازَمه مسلمٌ، وأدامَ الاخْتلافَ إليه. وقد حدَّثني عُبَيْدُ الله بنُ أحمدَ بنِ عُثْمانَ الصَّيْرَفيُّ قال: سمِعتُ أبا الحسَنِ الدَّارَقُطنيَّ يقولُ: لولا البُخاريُّ لَمَا ذهَب مسلمٌ ولا جاءَ.

قال الخطيبُ: وأخْبَرَني أبو بكرٍ المُنْكَدِريُّ، حدَثنا محمدُ بنُ عبدِ الله الحافظُ، حدَّثني أبو نَصْرِ بنِ محمدٍ الورَّاقُ، سمعتُ أبا حامدٍ أحمدَ بنَ حَمْدانَ القَصَّارَ، سمعتُ مُسْلِمَ بنَ الحَجَّاجِ، وجاءَ إلىٰ محمد بنِ إسْماعيلَ البُخارِيِّ فقبَّلَ بينَ عيْنَيْه، وقال: دعْني حتىٰ أُقبِّلَ رِجليكَ يا أُستاذَ الأُسْتاذِين، وسيِّدَ المُحدِّثين، وطبيبَ الحديث في عِلله، حدَّثك محمدُ بنُ سلاَّمٍ، حدَّثنا مَخْلَدُ بنُ يزيدَ الحرّانيُّ، حدَّثنا ابنُ جُرَيْجٍ، عن موسَىٰ بنِ عُقْبَةَ، عن سُهَيْلٍ، عن أبيه، عن أبي هُرَيْرَةَ، عن النبيِّ ﷺ في كفَّارةِ المجْلسِ، فما علَّته؟ فقال البُخاريُّ: هذا حديثٌ مليحٌ، ولا أعلَمُ في الدنْيا في هذا البابِ[1] غيرَ هذا الحديثِ، إلاَّ أنَّه معْلُولٌ؛ ثنَا به موسىٰ بنُ إسْماعيلَ، ثنَا وُهيبٌ، عن سُهَيْلٍ، عن عونِ بنِ عبدِ الله

---

(١) انظر «تاريخ بغداد» (١٣/ ١٠٣)

قوله في هذا الباب، وكأن الحافظ ابن حجر يخطئها فقال في «الفتح» (١٣/ ٥٥٤) وكأن الحاكم وهم في هذه اللفظة وهي قوله في هذا الباب وإنما هي بهذا الإسناد وهو كما قال.

قولَه، قال البُخاريُّ: وهذا أولَى؛ فإنَّه لا يُعْرَفُ لموسى بنِ عُقْبَةَ سماعٌ مِن سُهَيْلٍ. (١)

قلتُ: وقد أفرَدْتُ لهذا الحديثِ جُزْءًا على حِدَةٍ، وأورَدْتُ فيه طُرقَه وألْفاظَه ومَتْنَه وعِلَلَه، ولله الحمدُ والمِنَّةُ.

قال الخطيبُ: وقد كان مسلمٌ يُناضِلُ عنِ البُخاريِّ، رحمهما اللهُ. ثم ذكَر ما كان وقَع بينَ البُخاريِّ ومحمدِ بنِ يَحيى الذُّهْليِّ في مسألةِ اللفظِ بالقرآنِ في نَيسابورَ، وكيفَ نُودي على البخاريِّ بسببِ ذلك بنَيسابورَ، وأنَّ الذُّهليَّ قال يومًا لأهلِ مجلسه، وفيهم مسلمُ بنُ الحجَّاجِ: ألاَ مَن كان يقولُ بقولِ البخاريِّ في مسْألةِ اللفظِ بالقرآنِ فلْيعتزِلْ مجلسَنا. فنَهَض مسلمٌ مِن فَوْرِه إلى منزِله، وجمَع ما كان سمِعه مِن الذُّهليِّ جميعَه، وأرسَل به إليه، وترَكَ الرِّوايةَ عنِ الذُّهليِّ بالكُلِّيَّةِ، فلم يَروِ عنه شيئًا لا في «صحيحِه»، ولا في غيرِه، واسْتحكَمت الوَحْشَةُ بينَهما. هذا ولم يترُكِ البُخاريُّ محمدَ بنَ يَحْيَى الذُّهليَّ بل روَى عنه في «صحيحِه» وغيرِه وعذَره، رحمه اللهُ.

وقد ذكَر الخطيبُ سبَبَ موْتِ مسلمٍ، رحِمه اللهُ، أنَّه عُقِد له مجْلسٌ للمُذاكَرةِ، فسئِل يومًا عن حديثٍ لم يعرِفْه، فانْصرَفَ إلى منْزِله، فأوْقَد السِّراجَ، وقال لأهْله: لا يدخُلْ أحدٌ الليلةَ عليَّ. وقد أُهْدِيَتْ له سلَّةٌ مِن تمرٍ فهي عندَه؛ يأكُلُ منها تمرةً ويكْشِفُ حديثًا، ثم يأكُلُ أخرى، ويكشِفُ آخرَ، ولم يزَلْ ذلك دأبَه حتى أصبَح وقد أكلَ تلك السَّلَّةَ وهو لا يشعُرُ، فحصَل له بسَبَبِ ذلك ثِقَلٌ، ومرِض مِن ذلك حتى كانت وَفاتُه عَشيَّةَ يومِ الأحدِ، ودُفِن يومَ الإثنينِ لخَمْسٍ بَقِينَ مِن رجَبٍ سنَةَ إحْدَى وستِّينَ ومائتَين بنَيْسابُورَ، وكان مولدُه في السنَةِ التي تُوفِّي فيها الشافعيُّ؛ وهي سنَةُ أربعٍ ومائتَينِ، وكان عُمُرُه سبْعًا وخَمْسينَ سنةً. رحِمه اللهُ تعالى.

أبو يَزيدَ البسْطَاميُّ، اسمُه طَيْفُورُ بنُ عيسى بنِ آدمَ بنِ عيسى بنِ عليٍّ، أحدُ مَشايخِ الصوفِيَّةِ، وكان جَدُّه مجُوسيًّا فأسْلَم، وكان لأبي يَزيدَ أخوان صالحان عابدان وهو أجلُّ منهما، وقيل له: بأيِّ شيءٍ وصَلْتَ إلى هذه المعْرفةِ؟ فقال: ببَطْنٍ جائعٍ وبَدَنٍ عارٍ. وكان يقولُ: دعوْتُ نفْسي إلى طاعَةِ الله فلم تجِبْني، فمنَعْتُها الماءَ سنَةً. وقال أيضًا: إذا نظرتُم إلى الرجلِ أُعْطِيَ مِنَ الكَراماتِ حتى يرْتفعَ في الهواءِ، فلا تغْترُّوا به حتى تنْظُروا كيفَ تجِدُونَه عندَ الأمْرِ والنَّهْي وحفْظِ الحدُود وأداءِ الشريعَةِ. قال القاضي ابنُ خلِّكانَ: وله مَقاماتٌ كثيرةٌ ومُجاهَداتٌ مشْهورةٌ وكراماتٌ ظاهِرَةٌ، وكانت وفاتُه سنةَ

---

(١) **حديث قوي لشواهده:** وهو حديث مرويٌّ من عدة طرق عن جمع من الصحابة وتعليل البخاري لحديث أبي هريرة صحيح ومن هذه الطرق عن أبي برزة الأسلمي (٤٨٥٩) وإسناده حسن وقواه الحافظ في «الفتح» (١٣/ ٥٥٥) إلا أنه أعل بالإرسال ورجح ابن أبي حاتم في «العلل» (٢/ ١٦٩، ١٨٨) والدارقطني في «العلل» (٦/ ٣١٠) وأبو زرعة - فيما نقله عنه ابن أبي حاتم - المرسل وباقي شواهده عن عبد الله بن عمرو بن العاص موقوفًا، وجبير بن مطعم وحديثه رجاله ثقات والزبير بن العوام وحديثه سنده ضعيف، وعبد الله بن مسعود وحديثه ضعيف، والسائب بن يزيد وحديثه سنده صحيح، وأنس وحديثه سنده ضعيف، وعائشة وحديثها سنده قوي، وأبي سعيد الخدري وحديثه سنده صحيح ولكن لم يصرح برفعه وشواهد أخرى، أنظر «فتح الباري» لابن حجر، «والنكت» له (٢/ ٧٢٦ - وما بعدها) فأكثر فيه الفوائد.

إحْدَىٰ وستِّينَ ومائتَيْن رحمه اللهُ. قلتُ: قد حُكِيَ عنه كلماتٌ فيها شَطْحٌ، وقد تكلَّم كثيرٌ من العلماءِ من الصوفيَّةِ والفقهاءِ عليها؛ فمن مُتأوِّلٍ علىٰ المحاملِ البعيدةِ، أو قائلٍ: إنَّ هذا قاله في حالِ الاصْطِلامِ والسكرِ، ومِنَ مُبَدِّعٍ ومُخَطِّئٍ، واللهُ أعلمُ.

ثم دخلت سنة ثنتين وستين ومائتين

فيها قَدِمَ يعقوبُ بن اللَّيْثِ في جَحافِلَ فدخَل واسِطًا قَهْرًا، فخرَج الخليفةُ المُعتمدُ بنفسه من سامَرَّا لقتاله، فتَوسَّطَ بينَ بَغْدادَ وواسِطٍ، فانْتَدَبَ له أبو أحمدَ المُوَفَّقُ بالله أخو الخليفة، في جيشٍ عظيمٍ علىٰ ميْمَنَتِه موسىٰ بنُ بُغا، وعلىٰ مَيْسرَتِه مَسْرورٌ البَلْخيُّ، فاقْتَتلُوا في رجَبٍ من هذه السنة أيامًا قتالاً عظيمًا هائلاً، ثم كانت الغَلَبةُ علىٰ يَعْقُوبَ وأصْحابِه، وذلك يومَ عيدِ الشَّعانين. فقُتِل منهم خَلْقٌ كثيرون، وغَنِم منهم أبو أحمدَ شيئًا كثيرًا من الذهبِ والفضةِ والمسْكِ والدوابِّ. ويقالُ: إنَّهم وجَدُوا في جيشِ يَعْقُوبَ هذا رَاياتٍ عليها صُلْبانٌ. ثم انْصرفَ المعتمدُ إلىٰ المَدائنِ وردَّ محمدَ بنَ طاهرٍ إلىٰ نيابةِ بغدادَ، وأمَرَ له بخمسمائة ألف درْهَمٍ.

وفيها غلَب يعْقوبُ بنُ اللَّيْثِ علىٰ بلادِ فارسَ وهرَب ابنُ واصلٍ منها.

وفيها كانت حروبٌ كثيرةٌ بينَ صاحبِ الزِّنْجِ وجيشِ الخليفةِ.

وفيها وَلِيَ القَضاءَ عليُّ بنُ محمدِ بنِ أبي الشَّوارِبِ.

وفيها جُمِعَ للقاضي إسماعيلَ بنِ إسحاقَ قَضاءُ جانِبَيْ بَغْدادَ.

وفيها حجَّ بالناسِ الفَضْلُ بنُ إسْحاقَ العبَّاسيُّ.

قال ابنُ جرير: وفيها وقع بين الحناطين والجزّارين بمَكَّةَ، فاقْتَتلوا يومَ التَّرْويةِ أو قبلَه بيومٍ، فقُتِلَ منهم سَبْعَةَ عشرَ نفْسًا، وخافَ الناسُ أنْ يفُوتَهم الحجُّ بسببِهم، ثم توادَعُوا إلىٰ ما بعدَ الحجِّ.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

صالحُ بنُ عليِّ بنِ يعقوبَ بنِ المَنْصور في رَبيعٍ الآخرِ منها. **وعمرُ** بنُ شبَّةَ النُّمَيريُّ. **ومحمدُ** بنُ عاصمٍ. **ويعقوبُ** بنُ شَيْبَةَ، صاحبُ «المُسْنَدِ» الحافلِ المشْهُورِ. واللهُ أعلمُ.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين ومائتين

فيها جرَتْ حروبٌ كثيرةٌ مُنْتَشرَةٌ في بلدانٍ شتَّىٰ؛ فمنْ ذلك مَقْتَلةٌ عظيمةٌ في الزِّنْجِ، قبَّحَهم اللهُ، حصَرَهم في بعضِ المواقفِ بعضُ الأُمَراءِ من جهةِ الخليفةِ فقتَل المَوْجُودينَ عندَه عن آخرِهم، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

وفيها سلَّمَت الصَّقالبَةُ حصْنَ لُؤْلُؤَةَ إلىٰ طاغيَةِ الروم لعَنه اللهُ.

وفيها تغلَّبَ أخو شَرْكَبٍ الجَمَّالِ علىٰ نَيْسابُورَ، وأخْرَج منها عاملَها الحُسَيْنَ بنَ طاهرٍ، وأخَذ من

أهلها ثُلُثَ أموالِهم مُصادَرَةً، قبَّحه الله.

وحجَّ بالناسِ فيها الفَضْلُ بنُ إسْحاقَ العبَّاسيُّ.

ومِمَّن توفِّي فيها من الأعيان:

مُساوِرُ بنُ عبد الحميد الشَّاري الخارجيُّ، وقد كان من الأبطال المذكورين والشُّجْعانِ المشْهُورينَ، والْتَفَّ عليه خَلْقٌ من الأعْرابِ وغيرِهم، وطالتْ مدَّتُه حتىٰ قصَمَه اللهُ.

ووزيرُ الخلافة عبيدُ الله بنُ يَحْيَىٰ بن خاقانَ، صدَمَه في الميدانِ خادمٌ يقالُ له: رشيقٌ. فسقَط عن دابَّتِه علىٰ أمِّ رأسِه، فخرَج دِماغُه من أذُنَيْه وأنفِه، فمات بعدَ ثلاث ساعات، وصلَّىٰ عليه أبو أحمد الموفَّقُ بنُ المُتوكِّلِ ومشَىٰ في جنازَتِه، وذلك يومَ الجُمعة لعشرٍ خَلَوْنَ من ذي القَعْدَةِ من هذه السنَة، واسْتَوزَر من الغَدِ الحسَنَ بنَ مَخْلَدٍ، فلمَّا قدِمَ مُوسَىٰ بنُ بُغا سَامَرَّا عزَلَه واسْتوزَرَ مكانَه سُلَيْمانَ بنَ وَهْبٍ، وسُلِّمتْ دارُ عُبَيدِ الله بنِ يَحْيَىٰ بنِ خاقَانَ إلى الأميرِ المعْروفِ بكَيْغَلَغَ.

وأحمدُ بنُ الأزْهرِ. والحسنُ بنُ أبي الرَّبيعِ. ومُعاويةُ بنُ صالحٍ الأشْعَرِيُّ.

ثم دخلت سنة أربع وستين ومائتين

في المُحَرَّم منها عَسكَر أبو أحمدَ وموسَىٰ بنُ بُغا بسَامَرَّا، وخرَجا منها للَيْلَتَيْن مضتَا من صفَر، وخرَج المُعْتَمدُ لتَوْديعهما، وسارا فلمَّا وصَلا إلىٰ بَغْدادَ تُوفِّي الأميرُ مُوسَىٰ بنُ بُغا بها، وحُمِل إلىٰ سَامَرَّا ودُفِن بها.

وفيها وُلِّي محمدُ بنُ المولَّدِ واسطًا فحارَبه سُلَيمانُ بنُ جامعٍ نائبُها من جِهةِ الخبيثِ صاحبِ الزِّنْجِ، فهزَمه ابنُ المولَّدِ بعدَ حُروبٍ طويلةٍ بينَهما.

وفيها سار ابنُ الدَّيْرانيِّ إلىٰ مدينةِ الدِّينَوَرِ، فاجْتَمعَ عليه دُلَفُ بنُ عبدِ العزيزِ بنِ أبي دُلَفٍ، وابنُ عِياضٍ، فهزَمَاه ونَهَبا أمْوالَه ورجَع مَغْلولاً.

ولمَّا تُوفِّي مُوسَىٰ بنُ بُغا عزَل الخليفةُ المعتمدُ الوزيرَ الذي كان من جهَتِه؛ وهو سُلَيمانُ بنُ وهبٍ، وحبَسه مُقيَّدًا وأمرَ بنهبِ دُورِه ودُورِ أقْربائِه، وردَّ الحسَنَ بنَ مَخْلَدٍ إلى الوزارةِ، فبلَغَ ذلك أبا أحمدَ وهو ببَغْدادَ، فسارَ بمَنْ معه إلىٰ سَامَرَّا؛ فتحصَّن منه أخوه المعْتَمِدُ بجانبِها الغرْبيِّ، فلمَّا كان يومُ التَّرْوِيَةِ عبَر جيشُ أبي أحمدَ إلى الجانبِ الذي فيه المُعْتَمدُ، فلم يكُنْ بينَهم قتالٌ بلِ اصطَلَحُوا علىٰ رَدِّ سُلَيْمانَ بنِ وَهْبٍ إلى الوزارةِ، وهرَب الحسنُ بنُ مَخْلَدٍ فنُهِبتْ أمْوالُه وحَواصلُه، واخْتَفَىٰ أبو عيسَىٰ ابنُ المُتوَكِّلِ ثم ظَهَر، وهرَب جماعةٌ من الأُمراءِ إلى المَوْصِلِ؛ خوفًا من أبي أحمدَ.

وحجَّ بالناسِ فيها هارُونُ بنُ محمدِ بنِ إسْحاقَ بنِ مُوسَىٰ بنِ عيسَىٰ الهاشميُّ الكُوفيُّ.

ومِمَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

أحمدُ بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ وَهْبٍ. وإسْماعيلُ بنُ يَحْيَىٰ المُزَنيُّ، أحدُ رُواةِ الحديث عن الشافعيِّ من

أهلِ مصرَ، وقد تَرْجَمْنَاه في «طبَقاتِ الشافعيِّينَ». وترجَمه ابنُ خَلِّكان في «الوفيات» أيضًا فأحسَن وأطنَب وأطيَب.

وأبو زُرْعَةَ عُبَيْدُ الله بنُ عبد الكَريم الرَّازيُّ، أحدُ الحُفَّاظ المشهورين، قيل: إنَّه كان يحفظُ سبعَمائة ألف حديث. وكان فَقيهًا ورِعًا زاهدًا عابدًا خاشعًا مُتَواضعًا، أثنَى عليه أهلُ زَمانه بالحفظ والدِّيانة، وشهِدوا له بالتَّقدُّم على أقرانه، وكان في حال شَبيبته إذا اجْتمَع بأحمدَ بنِ حَنْبلٍ للمذاكرة يقتصرُ أحمدُ على الصَّلَوات المكْتُوبات، ولا يفعَلُ المَنْدُوبات اكْتفاءً بالمذاكرة عن ذلك. وكانت وفاتُه يومَ الإثنين سَلْخَ ذي الحِجَّة من هذه السنة، وكان مولدُه سنةَ مائتين، وقيل: سنةَ تسعين ومائة. وقد ذكَرنا ترْجمتَه مبْسُوطةً في «التَّكْميل».

ومحمدُ بنُ إسماعيلَ بنِ عُلَيَّةَ قاضي دمشقَ.

ويونُسُ بنُ عبدِ الأعْلَى الصَّدفيُّ المِصْريُّ، ممَّنْ روَى عن الشافعيِّ أيضًا، وقد ذكَرناه في «التَّكْميل»، وفي «الطَّبقات».

وقَبِيحَةُ أمُّ المُعْتزِّ، إحدَى حظايا المُتوكِّل على الله، جمَعتْ من الجواهرِ واللآلئ والذهبِ والمصاغ ما لم يُعهَدْ لمثلِها، ثم سُلِبتْ ذلك كلَّه، وقُتِل ولَدُها المُعْتزُّ لأجلِ نفقات الجُنْد، وشَحَّتْ عليه بخمسينَ ألفَ دينارٍ تُدارِئ بها عنه. وكانت وفاتُها في ربيعٍ الأوَّلِ من هذه السنة.

ثم دخلت سنة خمس وستين ومائتين

فيها كانت وَقْعةٌ بين ابنِ لَيْثَوَيْه عاملِ أبي أحمدَ على جُنْبُلاءَ وبينَ سُلَيمانَ بنِ جامعٍ، ظفر فيها ابنُ لَيْثَوَيْه بابنِ جامعٍ الذي مِن جهة الخبيث صاحبِ الزَّنْج، فقتَل خلقًا من أصْحابه وأصاب منهم سبعةً وأربعين أسيرًا، وحرَق له مَراكبَ كثيرةً، وغَنِم منهم أموالاً جَزيلةً، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

وفي المحرَّم من هذه السنَة حاصرَ أحمدُ بنُ طُولُونَ نائبُ الديارِ المصريَّة مدينةَ أنْطاكيَةَ، وفيها سيما الطَّويلُ، فلم يزَلْ حتى فتَحها بعدَ حروبٍ يطولُ ذكرُها، وقتَل سيما المذكورَ. وأقام بها حتى جاءَتْه هَدايَا ملكِ الرومِ وفي جُمْلَتها أُسارَى من المسلمين، مع كلِّ أسيرٍ مُصْحَفٌ، ومنهم عبدُ الله بنُ رَشيد ابنِ كاوسَ الذي كان عاملَ الثُّغورِ، فاجتمَع لأحمدَ بنِ طُولُونَ مُلكُ الشام بكَماله مع الديار المصْرية؛ لأنَّه لمَّا مات نائبُ دمشقَ أماجورُ، ركِب ابنُ طُولُونَ من مصرَ، فتلَقَّاه ابنُ أماجورَ إلى الرَّمْلة، فأقرَّه عليها، وسار إلى دمشقَ فدخَلها، ثم إلى حِمْصَ فتَسلَّمها، ثم إلى حَلَبَ فاستحوَذ عليها، ثم ركِب إلى أنْطاكيَةَ، فكان من أمْره ما تقدَّم. وكان أحمدُ بنُ طُولونَ قد استخلَف على الديار المصرية ابنَه العبَّاسَ، فلمَّا بلغَه قُدومُ أبيه عَلَيْه من الشام أخَذ ما كان في بيت المال من الحَواصل، ووازَره جماعةٌ على ذلك، فساروا إلى بَرْقةَ خارجًا عن طاعةِ أبيه، فبعَث إليه مَن أخَذه ذليلاً حقيرًا، ورَدُّوه إلى مصرَ فحبَسه، وقتَل جماعةً من أصحابه.

وفيها خرج رجلٌ يقالُ له: القاسمُ بنُ مَهارةَ علىٰ دُلَف بن عبد العزيز ابن أبي دُلَف العِجْليِّ، فقتَله واستحوذ علىٰ أصْبهانَ، فانتصر أصحابُ دُلَف له فقتَلوا القاسمَ هذا ورأسُوا عليهم أحمدَ بنَ عبد العزيز.

وفيها لحق محمدُ المولَّدُ بيَعْقُوبَ بنِ اللَّيْثِ فسار إليه في المحرَّم منها، فأمَر السلطانُ بنَهْب حواصله وأمْواله وأمْلاكه وضياعه.

وفيها دخَل صاحبُ الزنْج إلىٰ النُّعْمانية فقتَل وحرَّق، ثم سارَ إلىٰ جَرْجَرَايَا فانزعَج الناسُ، ودخَل أهلُ السَّواد إلىٰ بَغْدادَ فلجئوا إليها محصورين.

وفيها ولَّىٰ أبو أحمدَ عمرَو بنَ اللَّيْث خُراسانَ وفارسَ وأَصْبهانَ وسجِسْتانَ وكَرْمَانَ والسِّنْد، ووَجَّهه إليها بذلك وبالخلَع والتحف.

وفيها حاصَرت الزَّنْج تُستَرَ حتىٰ كادو يفتحونها، فَوافَاهم تكينُ البُخاريُّ، فلم يضَعْ ثِيابَ سفَره حتىٰ ناجَز الزنْجَ فهزَمَهم هزيمةً فظيعةً منكرةً جدًّا، وقتَل منهم خلقًا لا يُحصَون كثرةً، وهرَب أميرُهم عليُّ بنُ أبانٍ المُهلَّبيُّ مغلولاً مدحوراً مخذولاً. قال ابنُ جَرير: وهذه وَقْعَةُ باب كُودَكَ المشهورةُ. ثم إنَّ عليَّ بنَ أبانٍ المُهلَّبيَّ أخَذ في مكاتبة تكينَ واستمالَته إليه وإلىٰ صاحب الزَّنْج، فشرَع تكينُ في الإجابة إلىٰ ذلك، فبلَغ خبرُه مَسْرُورًا البَلْخيَّ، فسار نحوَه وأظهرَ له الامانَ حتىٰ أخَذه وقيَّدَه وتفرَّق جيْشُه عنه؛ فَفرْقةٌ صارَتْ إلىٰ الزَّنْج، وفرقةٌ إلىٰ محمد بن عُبَيد الله الكُرْديِّ، وفرقةٌ انضافتْ إلىٰ مَسْرُورٍ البلخيِّ بعدَ إعْطائه إياهم الأمانَ، وولَّىٰ مكانَه علىٰ عمالته أميرًا آخرَ يقالُ له: أغرتمشُ.

وحجَّ بالناس فيها هارُونُ بنُ محمد بنِ إسْحاقَ بنِ مُوسَىٰ بنِ عيسىٰ.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

أحمدُ بنُ مَنْصُورٍ الرَّماديُّ، راويةُ عبد الرَّزَّاق، وقد صَحِب الإمامَ أحمدَ، وكان يُعَدُّ منَ الأبْدال، تُوفِّي عن ثلاث وثمانين سنةً.

وسَعْدانُ بنُ نَصْر. وعبدُ الله بنُ محمد المُخَرِّميُّ. وعليُّ بنُ حَرْب الطَّائيُّ المَوْصليُّ. وأبو حَفْص النَّيسابُوريُّ عليُّ بنُ مُوَفَّقٍ الزاهدُ. ومحمدُ بنُ سَحْنُونَ.

قال ابنُ الأثير في «كامله»: وفيها قُتِل **أبو الفضْل العبَّاسُ بنُ الفَرَج الرِّياشيُّ** - صاحبُ أبي عُبَيْدَةَ والأصْمَعيِّ - قتَله الزَّنْجُ بالبَصْرة.

ويَعْقوبُ بنُ اللَّيْث الصفَّارُ، أحدُ الملُوك العُقَلاء الأبْطال، فتَح بلادًا كثيرةً؛ من ذلك بلَدُ الرُّخَّج التي كان بها مَلِكٌ يُحْمَلُ في سَرير من ذهَب علىٰ رُءوسِ اثْنَيْ عشَرَ رجلاً، وكان له بيتٌ في رأسِ جَبَلٍ عالٍ سمَّاه مَكَّةَ، فما زال حتىٰ قتَله وأخَذ بلَدَه وأسلَم أهلُها علىٰ يدَيْه، ولكنْ كان قد خرَج عن طاعَة الخليفة وقاتلَه أبو أحمدَ المُوَفَّقُ كما تقدَّم. ولَمَّا مات ولَّوا أخاه عمرَو بنَ اللَّيْث ما كان يَليه أخوه يَعْقوبُ مع شُرْطَة بَغْدادَ وسامرَّا، كما سيأتي.

ثم دخلت سنة ست وستين ومائتين

في صفر منها تغلَّب أساتكين على بلد الرَّيِّ وأخرج عاملَها منها، ثم مضى إلى قَزْوين فصالحَه أهلُها فدخلَها وأخذ منها أموالاً جزيلةً، ثم عاد إلى الرَّيِّ فمانَعه أهلُها عن الدُّخول إليها فقاتلهم ودخلَها قهرًا.

وفيها أغارتْ سَرِيَّةٌ من الروم على ناحية ديار رَبيعةَ فقتَلوا وسبوْا ومثَّلوا وأخذُوا نحوًا من مائتَيْن وخمسينَ أسيرًا، فنفَر إليهم أهلُ نَصيبينَ وأهلُ المَوْصلِ، فهربَتْ منهم الرومُ ورجَعُوا إلى بلادهم لعَنهم اللهُ.

وفيها ولِّيَ عمرُو بنُ اللَّيْث شُرطةَ بغدادَ وسَامَرَّا لعُبَيْد الله بنِ طاهر، وبعَث إليه أبو أحمدَ بالخِلْعَة وخلَع عليه عمرُو بنُ اللَّيْث أيضًا، وأهْدَىٰ إليه عَمُودَين من ذهب، وذلك مُضافًا إلى ما كان يَليه أخوه من البُلْدان.

وفيها سار أغرتمشُ لقتال عليِّ بنِ أبانٍ المُهَلَّبِيِّ بتُسْتَرَ، فأخَذ مَن كان في السِّجنِ من أصحاب عليِّ بنِ أبانٍ المُهَلَّبيِّ من الأُمَراء فقتَلهم عن آخرهم، ثم سار إلى عليِّ بنِ أبانٍ فاقتتلا قتالاً شديدًا في مرَّاتٍ عديدةٍ، كان آخرُها لعليِّ بنِ أبانٍ المُهَلَّبيِّ، قتَل خلقًا من أصحاب أغرتمشَ وأسَر بعْضَهم فقتَلهم، وبعَث برءوسهم إلى الخبيث صاحب الزَّنْج فنصَب رُءوسَهم على سور مدينَته، قبَّحه اللهُ.

وفيها وثَب أهلُ حِمْصَ على عاملِهم عيسى الكَرْخيِّ فقتَلُوه في شوَّالٍ منها.

وفيها دعا الحسنُ بنُ محمدِ بنِ جَعْفر بن عبد الله بنِ حسينٍ الأصغرُ العُقَيْقيُّ أهلَ طَبَرِسْتانَ إلى نفْسه وأظْهَرَ لهم أنَّ الحسنَ بنَ زيدٍ قد أُسر ولم يبْقَ مَن يقومُ بهذا الأمر غيرُه فبايعُوه، فلمَّا بلَغَ ذلك الحسنَ بنَ زيدٍ، قصدَه فقاتَله فقتَله ونهَبَ أموالَ مَن اتَّبعَه وحرَّقَ دُورَهم.

وفيها وقعَتْ فتْنَةٌ بالمدينة ونواحيها بينَ الجَعْفَرِيَّة والعَلَوِيَّة، وتغلَّبَ عليها رجلٌ من أهلِ البيت من سُلالة الحسَنِ بنِ زيدٍ الذي تغلَّبَ على طَبَرِسْتانَ، وجرَتْ شرورٌ كثيرةٌ هنالك بسبَبِ قَتْلِ الجَعْفَرِيَّة والعَلَوِيَّة يطولُ ذكْرُها.

وفيها وثَبَتْ طائفةٌ من الأعْراب على كُسْوَة الكَعْبة فانتهَبوها، وصار بعضُها إلى صاحب الزَّنْجِ، وأصاب الحجيجَ منهم شدَّةٌ عظيمةٌ وبلاءٌ شديدٌ.

وفيها أغارَت الرومُ أيضًا على ديار رَبيعَةَ.

وفيها دخَل أصْحابُ صاحب الزَّنْج إلى رَامَهُرْمُزَ فافتتَحُوها بعدَ قتالٍ طويلٍ.

وفيها دخَل ابنُ أبي الساج مكَّةَ، فقاتلَه المَخْزُوميُّ فقَهَره ابنُ أبي الساج وحرَّق دارَه واستَباحَ مالَه، وذلك يومَ التَّرْوِيَة في هذه السنَة، وقد جُعل إلى ابن أبي الساج إمرةُ الحرمين من جهة الخليفة.

وحجَّ بالناس في هذه السنة هارونُ بنُ محمدٍ المُتقدِّمُ ذكْرُه قبلَها.

وفيها عَمِل محمدُ بنُ عبدِ الرحمنِ الدَّاخلِ - خليفةُ الأندلُسِ وبلادِ المَغْرِبِ - مَراكِبَ في نَهْرِ قُرْطُبَةَ ليدْخُلَ بها إلى البحرِ المُحيطِ؛ لتَسيرَ الجُيوشُ في أطرافِه إلى بعضِ البلدانِ ليقاتلوهم، فلمَّا دخلَتِ المراكبُ البحرَ المُحيطَ تكسَّرَتْ وتقطَّعتْ ولم يَنْجُ مِن أهْلِها إلاَّ اليسيرُ وغرِقَ أكثرُهم.

وفيها الْتَقَى أسْطُولُ المسلمينَ وأسْطولُ الرومِ ببلادِ صِقِلِّيَّةَ فاقْتَتلُوا، فقُتِلَ مِن المسلمينَ خلقٌ كثيرٌ، فإنا لله وإنا إليه راجعونَ.

وفيهاحارب لُؤْلُؤٌ غُلامُ أحمدَ بنِ طُولُونَ لموسَى بنِ أتامشَ فكسرَ جيشَه وأسرَه لؤلؤٌ وبعثَ به إلى مولاه أحمدَ بنِ طولونَ نائبِ الشامِ ومِصْرَ وإفْريقيَّةَ مِن جهةِ الخلافةِ، ثم اقْتَتل لُؤلُؤٌ هذا وطائفةٌ مِن الرومِ، فقتَل مِن العدوِّ خلقًا كثيرًا.

قال ابنُ الأثيرِ: وفيها اشْتَدَّ الحالُ وضاقَ الناسُ ذَرْعًا بكثرةِ الهَيْجِ، وتغلَّبَ القُوَّادُ والأجْنادُ على كثيرٍ مِن البلادِ بسبَبِ ضَعْفِ الخليفةِ المعتمدِ، واشْتغالِ أخيه أبي أحمدَ بقتالِ الزَّنْجِ.

وفيها اشْتَدَّ الحرُّ في تِشْرِينَ الثاني جدًّا، ثم قَوِيَ به البردُ حتى جَمَدَ الماءُ.

ومِمَّن تُوُفِّيَ فيها مِن الأعيانِ:

إبراهيمُ بنُ أُورمَةَ. وصالحُ بنُ الإمامِ أحمدَ بنِ حَنْبَلٍ، قاضي أصْبهانَ. ومحمدُ بنُ شُجاعٍ الثَّلْجيُّ، أحدُ عُبَّادِ الجَهْمِيَّةِ. ومحمدُ بنُ عبدِ الملكِ الدَّقيقيُّ.

ثم دخلت سنة سبع وستين ومائتين

فيها وجَّه أبو أحمدَ المُوَفَّقُ ولدَه أبا العباسِ في نحْوٍ مِن عشَرةِ آلافِ فارسٍ وراجلٍ في أحسَنِ هيْئَةٍ، وأكملِ تجمُّلٍ لقتالِ الزَّنْجِ، فساروا نحْوَهم، فكانَ بينَهم مِن القتالِ والنِّزالِ في أوْقاتٍ مُتعدِّداتٍ، ووَقَعاتٍ مشْهوراتٍ ما يطولُ بسطُه، وقد استقْصاه الإمامُ أبو جعفرِ بنُ جريرٍ، رحِمه اللهُ في «تاريخِه» مَبْسوطًا.

وحاصِلُ ذلك أنَّه آلَ الحالُ، وانتهَى الحربُ والجِلادُ والجِدالُ والنِّزالُ إلى أن اسْتحوذَ أبو العبَّاسِ ابنُ الموَفَّقِ على ما كان استولَى عليه الزَّنْجُ ببلادِ واسطٍ وأراضي دِجْلَةَ، هذا وهو شابٌّ حدَثٌ لا خِبْرةَ له بالحربِ، ولكنْ سلَّمه اللهُ وغنَّمَه، وأعلَى كلمتَه، وسدَّدَ رَمْيَتَه، وأجابَ دعوتَه، وفتَح على يدَيْه، وأسْبغَ نِعمتَه عليه، وهذا الشابُّ هو الذي وليَ الخلافةَ بعدَ عمِّه المُعْتَمِدِ، ولُقِّبَ بالمعتضدِ كما سيأتي.

ثم ركِب أبو أحمدَ المُوَفَّقُ ناصرُ دينِ اللهِ مِن بغدادَ في صفَرٍ مِن هذه السنةِ في جُيوشٍ كثيفةٍ، فدخَل واسطًا في ربيعٍ الأوَّلِ منها، فتلَقَّاه ابنُه وأخبرَه عن الجيوشِ الذين معه، وما تحمَّلُوا مِن أعْباءِ الجهادِ، فخلَع عليه وعلى الأمراءِ كلِّهم خلَعًا سَنِيَّةً، ثم سارَ بجميعِ الجُيوشِ إلى صاحبِ الزَّنْجِ وهو بالمدينةِ التي أنْشأها، وسمَّاها المَنيعَةَ، فقاتَلوا دُونَها قتالاً عظيمًا فقهَرهم، ودخَلها عَنْوَةً وهرَبوا منها، فبعَث في آثارِهم جيْشًا فلَحِقوهم إلى البَطائحِ يقتُلونَ ويأسِرونَ، وغنِمَ أبو أحمدَ مِن المدينةِ شيئًا

كثيرًا، واستنقذَ من النساء المسلمات خمسةَ آلاف امرأة، وأمَر بإرسالهنَّ إلى أهاليهنَّ بواسط، ثم أمرَ بهَدْم سُورِ البلدِ وطمِّ خندقِها وجعلَها بَلْقَعًا بعدَما كانت للبَشَرِ مجْمَعًا، وعادَت يَبابًا بعد كونها للخبيث جَنَابًا.

ثم سارَ الموفَّقُ إلى المدينة التي يُقالُ لها: المَنْصُورةُ. من إنشاء الزَّنْج أيضًا وبها سلَيمانُ بنُ جامع، فحاصَرها وقاتلُوه دُونَها فقُتِل خلقٌ كثيرٌ من الفريقَين، ورمَى أبو العباس بنُ الموفَّق أحمدَ بنَ مَهْديٍّ بسهم فأصابَه في دماغه فقتلَه، وكان من أكابرِ أمَراء صاحب الزَّنْج، فشَقَّ ذلك عليه جدًّا، وأصبح الناسُ مُحاصرينَ مدينةَ الزَّنْج، وذلك يومَ السبت لثلاث بَقِينَ من ربيع الآخرِ والجُيوشُ المُوفَّقيَّةُ مُرَتَّبَةٌ أحسنَ ترتيب، فتقدَّمَ الموفَّقُ فصلَّى أربعَ رَكَعات، وابتَهَل إلى الله في الدعاء، واجتَهد في حصارِها، فهزَمَ اللهُ مُقاتِلَتَها، وانْتَهَى إلى خَنْدَقِها؛ فإذا هو قد حُصِّنَ غايةَ التَّحصين، وإذا هم قد جعَلوا حولَ البلدِ خمسةَ خَنادقَ وخمسةَ أسوارٍ، فجعَل كلَّما جاوزَ سُورًا قاتلوه دونَ الآخرِ فيقهَرُهم ويجُوزُه إلى الذي يَليه، حتى انْتهَى إلى البلدِ، فقتَل منهم خلقًا كثيرًا، وهرَب بقيَّتُهم وأسَر من نساءِ الزَّنْج ومن حلائلِ سليمانَ بنِ جامع وذويه نساءً كثيرةً وصبْيانًا، واستَنْقذَ من أيديهم من النساءِ المسلمات والصِّبْيانِ من أهلِ البصرةِ والكوفةِ وواسطٍ نحوًا من عشَرةِ آلافِ نسَمَةٍ فسيَّرَهم إلى أهاليهم، جزَاه اللهُ خيرًا. ثم أمَر بهدمِ خنادقِها وأسْوارِها وردْمِ خنادقِها وأنهارِها، وأقامَ بها سبعَةَ عشَرَ يومًا، وبعثَ في آثارِ مَن انْهزَمَ من الزَّنْج، فكان لا يُؤتَى بأحَدٍ منهم إلاَّ اسْتمالَه إلى الخيرِ برفقٍ ولينٍ وصَفْحٍ، وأضافَه إلى بعضِ الأمراء، وكان مقصودُه رُجوعَهم إلى الحقِّ، ثم ركِبَ إلى الأهْوازِ فأجْلاهم عنها، وطردهم منها، وقتَل خلْقًا كثيرًا من أشْرافهم؛ منهم أبو عيسى محمدُ بنُ إبراهيمَ البصريُّ، وكان رئيسًا فيهم مطاعًا، وغنِم شيئًا كثيرًا من أموالِهم، وكتَب الموفَّقُ إلى صاحبِ الزَّنْج، قبَّحَه اللهُ، كتابًا يدْعُوه إلى التوبَة والإنابة ممَّا ارْتكَبَه من المآثِم والمَظالم والمَحارم ودَعْوَى النبوةِ والرِّسالة وخَرابِ البُلدانِ واستحلالِ الفُروجِ والأموالِ، يَبذُلُ له الأمانَ إن هو رجَع إلى الحقِّ، فلم يرُدَّ عليه صاحبُ الزَّنْج جوابًا.

ذكرُ مسيرِ أبي أحمدَ الموفقِ إلى المدينةِ التي فيها صاحبُ الزنجِ، وهي المختارةُ؛ ليحاصرها

لمَّا كتَب أبو أحمدَ إلى صاحبِ الزَّنْج يدْعُوه إلى الحقِّ فلم يُجبه، استهانةً به، ركِب في جيوشٍ عظيمةٍ قريبٍ من خمسينَ ألفَ مُقاتلٍ قاصدًا إلى مدينته التي أنشأَها وسَمَّاها المختارةَ، فلمَّا انْتهَى إليها وجَدها في غايةِ الإحْكام، وقد حوَّط عليها من آلاتِ الحصارِ شيئًا كثيرًا، وقد الْتَفَّ على صاحبِ الزَّنْج نحوٌ من ثلاثمائة ألف مُقاتلٍ بسَيْفٍ ورُمْحٍ ومِقْلاعٍ، ومن يكثُرُ سَوادُهم، فقَدَّم الموفقُ ولَدَه أبا العبَّاسِ بينَ يدَيْه، فتقدَّم حتى وقَف تحتَ قصرِ الملكِ فحاصَرَه مُحاصَرةً لم يُرَ مثلُها، وتعجَّبَ الزَّنْجُ

من إقدامه وجرأته، مع صغر سنه، وحداثة عمره فتراكمت الزنوج عليه من كل مكان، فهزمهم، وأثبت بهبوذ أكبر أمرائه بالسهام والحجارة، ثم خامرت جماعة من أمراء صاحب الزنج وأجناده إلى الموفق، فأكرمهم وأعطاهم خلعًا سنية، فرغب إلى ذلك جماعة كثيرون فصاروا إليه، ثم ركب أبو أحمد الموفق في يوم النصف من شعبان، ونادى في الناس كلهم بالأمان إلا صاحب الزنج، فتحول خلق كثير من جيشه إلى أبي أحمد، ولله الحمد.

وابتنى الموفق تجاه مدينة صاحب الزنج مدينة سماها الموفقية، وأمر بحمل الأمتعة والتجارات إليها، فاجتمع بها من أنواع الأشياء وصنوفها ما لم يجتمع في بلد قبلها، وعظم شأنها، وامتلأت من المعايش والأرزاق وصنوف التجارات والسكان والدواب وغيرهم، وإنما بناها ليستعين بها على قتال صاحب الزنج، ثم جرت بينهم حروب عظيمة، وما زالت الحرب ناشبة بينهم حتى انسلخت هذه السنة وهم محاصرون البلد الخبيث ومن فيه، وقد تحول منهم خلق كثير فصاروا على صاحب الزنج بعد أن كانوا معه، فبلغ عددهم قريبًا من خمسين ألفًا من الأمراء الخواص والأجناد، والموفق وأصحابه - ولله الحمد - كل مالهم في زيادة وقوة ونصر وظفر.

وحج بالناس في هذه السنة هارون بن محمد بن إسحاق بن موسى بن عيسى الهاشمي.

وممن توفي فيها من الأعيان: إسماعيل سمويه. وإسحاق بن إبراهيم شاذان. وبحر بن نصر الخولاني. وعباس الترقفي. ومحمد بن حماد بن بكر بن حماد أبو بكر المقرئ صاحب خلف بن هشام البزار، ببغداد في ربيع الأول، ومحمد بن عزيز الأيلي. ويحيى بن محمد بن يحيى الذهلي حيكان، ويونس بن حبيب راوي «مسند أبي داود الطيالسي» عنه.

ثم دخلت سنة ثمان وستين ومائتين

في المحرم منها استأمن جعفر بن إبراهيم المعروف بالسجان - وكان من أكابر أمراء صاحب الزنج وثقاتهم في أنفسهم - الموفق فأمنه وفرح به وخلع عليه، وأمره فركب في سمرته فوقف تجاه قصر الملك، فنادى في الناس وأعلمهم بكذب صاحب الزنج وفجوره، وأنه في غرور هو ومن اتبعه، فاستأمن بسبب ذلك بشر كثير منهم، وبرد قتال الزنج عند ذلك إلى ربيع الآخر. فعند ذلك أمر الموفق أصحابه بمحاصرة السور، وأمرهم إذا نقبوا السور أن لا يدخلوا البلد حتى يأمرهم، فنقبوا السور حتى انثلم ثم عجلوا الدخول فدخلوا، فقاتلهم الزنج فهزمهم المسلمون وتقدموا إلى وسط المدينة، فجاءتهم الزنج من كل جانب وخرجت عليهم الكمائن من أماكن لا يهتدون إليها، فقتلوا من المسلمين خلقًا كثيرًا واستلبوهم، وفر الباقون، فلامهم أبو أحمد على مخالفته من العجلة، وأجرى الأرزاق على ذرية من قتل منهم، فحسن ذلك عند الناس جدًا، وظفر أبو العباس بن الموفق بجماعة من الأعراب وغيرهم، كانوا يجلبون الطعام إلى الزنج فقتلهم، وظفر ببهبوذ بن عبد الوهاب فقتله، وكان ذلك من أكبر الفتح عند المسلمين، وأعظم الرزايا عند الزنج، ولله الحمد.

وبعث عمرو بن الليث إلى أبي أحمد الموفق ثلاثمائة ألف دينار وخمسين منًا من مسك، وخمسين

مَنًّا مِن عَنْبَرٍ، ومائتي مَنٍّ مِن عُودٍ، وفضَّةً بقيمة مائة ألفٍ، وثِيابًا مِن وَشْيٍ وغِلْمانًا كثيرةً جدا.

وفيها خرَج مَلِكُ الرومِ المعْروفُ بابنِ الصَّقْلَبِيَّةِ فحاصَر أهلَ مَلَطْيَةَ، فأعانَهم أهلُ مَرْعَش، ففرَّ الخبيثُ خاسئًا.

وغزَا الصائفَةَ مِن ناحيةِ الثُّغورِ عامِلُ ابنِ طُولُونَ فقتَلَ مِن الرومِ سَبْعَةَ عشَرَ ألفًا.

وحجَّ بالناسِ فيها هارونُ بنُ محمدٍ الهاشميُّ المتقدِّمُ.

وفيها قُتِلَ أحمدُ بنُ عبدِ اللهِ الخُجُسْتانيُّ.

وفيها تُوفِّي من الأعْيان:

أحمدُ بنُ سيَّارٍ. وأحمَدُ بنُ شَيْبانَ. وأحمدُ بنُ يُونُسَ الضَّبِّيُّ، وعيسى بنُ أحمدَ البَلْخِيُّ، ومحمدُ ابنُ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ الحَكَمِ المصريُّ الفَقِيهُ المالِكيُّ، وقد صحِبَ الشافعيَّ وروَىٰ عنه.

ثم دخلت سنة تسعٍ وستينَ ومائتين

في هذه السنة اجْتَهد الموفَّقُ - وفَّقه اللهُ - في تخْريبِ سورِ مدينةِ صاحبِ الزَّنْجِ، فخرَّبَ منه شيئًا كثيرًا، وتمكَّن الجيوشُ مِن العُبورِ إلىٰ البلدِ، ولكنْ جاءَه في أثْناءِ هذه الحالةِ سَهْمٌ في صدْرِه مِن يدِ رجلٍ رُومِيٍّ يقالُ له: قِرْطَاسٌ. فكاد يقْتُلُه، فاضْطَرَبَ الحالُ لذلك وهو يتَجلَّدُ ويحضُّ على القِتالِ مع ذلك. وأقامَ ببلَدِه المُوفَّقِيَّةِ أيامًا يتداوَىٰ، واضطَرَبَت الأحْوالُ، وخافَ الناسُ جدًّا مِن صاحبِ الزَّنْج، وأشارُوا علىٰ الموفَّقِ بالمَسيرِ إلىٰ بَغْدادَ فلم يقبَلْ، وقويت علَّته ثم مَنَّ اللهُ عليه بالعافيةِ في شعبانَ، ففرِحَ المسلمونَ بذلك فرحًا شديدًا، فنهَضَ مُسْرِعًا إلىٰ الحِصارِ، فوجَد الخبيثَ قد رَمَّمَ كثيرًا ممَّا كان الموفَّقُ قد خرَّبَه وهدَمَه، فأمَر بتَخْريبِه وما حولَه وما قَرُبَ منه، ثم لازَم الحِصارَ وما انفكَّ حتىٰ فتحَ المدينةَ الغربيَّةَ، وخرَّبَ قُصورَ صاحبِ الزَّنْجِ ودُورَ أمَرائِه، واستَلَبَ مِن أمْوالِهم شيئًا كثيرًا، وغنِم ما لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ كثرَةً، وأسَرَ خلْقًا من نساءِ الزَّنْجِ، واستَنْقَذ مِن نساءِ المسلمينَ وصِبْيانِهم خلْقًا كثيرًا، فأمَر بردِّهم إلىٰ أهليهم مُكْرَمِينَ. وقد تحوَّلَ صاحبُ الزَّنْجِ إلىٰ الجانبِ الشرقيِّ وعمِلَ الجسورَ والقناطِرَ الحائلَةَ بينَه وبينَ وُصولِ السُّمَيْريّاتِ إليه، فأمرَ الموفَّق بتَخْريبِها وقطْعِ الجُسورِ، واسْتَمَرَّ الحِصارُ في هذه السَّنَة وما برِحَ حتىٰ تسلَّمَ الجانبَ الشرقيَّ أيضًا واسْتَحوَذَ علىٰ حَواصلِه وأمْواله، وفرَّ الخبيثُ ذاهبًا وكرَّ هاربًا وترَكَ حلائلَه وأوْلادَه وحواصِلَه، فأخَذَها الموفَّقُ، ولله الحمدُ والمنةُ. وشَرْحُ ذلك كلِّه يطولُ جدًّا. وقد حرَّرَه مَبْسُوطًا ابنُ جَريرٍ ولخَصَّه مبسوطًا ابنُ الأثيرِ، واخْتَصَره ابنُ كثيرٍ، واللهُ المُوَفِّقُ للصَّوابِ وإليه المرْجِعُ والمَآبُ.

ولَمَّا رأَىٰ الخليفةُ المُعْتَمِدُ أنَّ أخاه أبا أحمدَ قد استَحوذَ علىٰ أمورِ الخلافَةِ وصارَ هو الحاكِمَ الآمِرَ الناهِيَ الذي إليه تُجْلَبُ الأمْوالُ ويُحمَلُ الخَراجُ، وهو الذي يُوَلِّي ويعْزِلُ، كتَبَ إلىٰ أحمدَ بنِ طُولُونَ يشْكُو إليه ذلك، فكتَبَ إليه ابنُ طولُونَ أن يتَحوَّلَ إلىٰ عندِه ببلادِ مِصْرَ ووَعدَه النصْرَ والقيامَ معه، فاسْتَغْنَم غَيْبَةَ أخيه الموفَّقِ وركِبَ في جمادَىٰ الأُولَىٰ ومعه جماعةٌ مِن القُوَّادِ، وقد أرْصد له أحمدُ بنُ

طُولُونَ جيشًا بالرَّقَّة يتلقَّونَه، فلمَّا اجتازَ الخليفةُ بإسْحاقَ بنِ كِنْداجَ نائبِ المَوْصِلِ وعامَّة الجزيرة اعْتَقَله عندَه عن المسيرِ إلى ابنِ طُولُونَ، وقيَّد أعْيانَ الأُمَراء الذين معه، وعاتَبَ الخليفةَ ولامَه على هذا الصَّنيع أشدَّ اللَّوْم، ثم ألزمَه العَوْدَ إلى سَامَرَّا ومَن معه من الأُمراء، فرجَعُوا إليها في غايَة الذُّلِّ والإهانة.

ولمَّا بلَغ الموفَّقَ ذلك شكرَ سَعْيَ إسْحاقَ وولَّاه جميعَ أعمالِ أحمدَ بنِ طُولُونَ إلى أقْصَى بلادِ إفْريقيَّةَ، وكتَب إلى أخيه أن يَلْعَنَ ابنَ طُولُونَ في دارِ العامَّة، فلم يُمكِنِ المعتَمدَ إلَّا إجابتُه إلى ذلك، وهو كارهٌ، وكان ابنُ طُولُونَ قد قطَعَ ذكرَ المَوفَّقِ في الخُطَبِ وأسْقَطَ اسْمَه عن الطِّرازات.

وفيها في ذي القَعْدَة وقَعتْ فتنةٌ بمكَّةَ بينَ أصْحابِ الموفَّقِ وأصْحابِ ابنِ طُولُونَ، فقُتِل من أصْحابِ ابنِ طُولُونَ مائتانِ وهرَب بقيَّتُهم، واستَلَبَهم أصحابُ الموفَّقِ شيئًا كثيرًا.

وفيها قطعَت الأعْرابُ على الحَجيجِ الطريقَ، وأخَذُوا منهم خمسةَ آلافِ بعيرٍ بأحْمالها.

وفيها تُوفِّي: إبراهيمُ بنُ مُنْقذٍ الخوْلانيُّ، وأحمدُ بنُ مُخالدٍ مولَى المعتصمِ، وكان من دُعاة المعتزلَة، أخَذَ الكلامَ عن جَعْفَرِ بنِ مبشِّرٍ المُعتَزِليِّ. وسُلَيمانُ بنُ حَفْصٍ المعتزليُّ صاحبُ بِشْرٍ المريسيِّ وأبي الهُذَيْلِ العَلَّاف. وعيسى بنُ الشيخِ بنِ السليلِ الشَّيْبانيُّ نائبُ أرْمينيَةَ وديارِ بكْرٍ. وأبو فَرْوَةَ يزيدُ بنُ محمدٍ الرَّهاوِيُّ، أحَدُ الضُّعَفاء.

سنة سبعين ومائتين من الهجرة النبوية

فيها كان مَقْتَلُ صاحبِ الزَّنْجِ، قبَّحَه اللهُ، وذلك أنَّ الموفَّقَ لمَّا فرَغ من شأنِ مدينة صاحبِ الزَّنْجِ وهي المُختارةُ، واحتاز ما كان بها من الأموال، وقتَل من كان بها من الرجال، وسَبَى مَن وَجدَ فيها من النِّساءِ والأطْفال، وقد هرَب صاحبُ الزَّنْجِ عن حَوْمَةِ الجِلادِ والنِّزال، وسارَ إلى بعضِ البلاد طَرِيدًا شريدًا بشَرِّ حالٍ، عادَ المُوفَّقُ، وفَّقَه اللهُ، إلى مدينَتِه المَوَفَّقيَّةِ مُؤيَّدًا منصُورًا، وقَدِمَ عليه لُؤْلُؤَةُ غلامُ أحمدَ بنِ طُولُونَ مُنابِذًا لسيِّدِه سميعًا مُطيعًا للمُوفَّقِ، فكان وُرودُه عليه في ثالثِ المحرَّمِ من هذه السنَة، فأكرَمه وعظَّمه وأعطاه وخلَع عليه وأحسن إليه، وبعثَه طَليعَةً بينَ يدَيْه لقتالِ صاحبِ الزَّنْجِ، وركِبَ الموفَّقُ في الجيوشِ الكثيفةِ الهائلَة وراءَه، فقَصَدوا الخبيثَ وقد تحصَّنَ ببَلْدَةٍ أُخْرَى، فلم يزَلْ مُحاصِرًا له حتى أخْرَجَه منها ذَليلًا وهو صاغرٌ، واستَحْوذَ على ما كان بها من الأموالِ والمغانم، ثم بعَثَ السَّرايَا والجيوشَ وراءَه، فأسَروا عامَّةَ مَن كان معه من خاصَّتِه وحُماته؛ منهم سُلَيمانُ بنُ جامعٍ، فاستَبشَر الناسُ بأسْرِه وكبَّروا فرحًا بالنَّصرِ والفَتْحِ، وحمَلَ المُوفَّقُ بمَن معه حملةً واحدةً على أصْحابِ الخبيثِ فاستَحَرَّ فيهم القتْلُ، وما انْجلَت الحربُ حتى جاءَ البشيرُ بقَتْلِ الخبيث صاحبِ الزَّنْجِ في المعركة، وأُتِي برأسه مع غلامِ لُؤْلُؤَةَ فتَى أحمدَ بنِ طُولُونَ، فلمَّا تحقَّقَ الموفَّقُ أنَّه رأسُه بعدَ شَهادَة الأُمَراءِ الذين كانوا معه من أصْحابه بذلك، خرَّ ساجدًا لله، عزَّ وجلَّ، ثم انْكَفَأ راجعًا إلى الموفَّقيَّةِ، ورأسُ الخبيثِ تُحْمَلُ بينَ يدَيْه، وسُلَيمانُ معه أسيرٌ، فدخَلَ البلدَ وهو كذلك، وكان يومًا مَشْهودًا، وفرِحَ المسلمونَ بذلك في المشارقِ والمغارب، ثم جِيءَ بأنكلايَ ولَدِ صاحبِ الزَّنْجِ، وأبانَ بنِ عليٍّ

المُهَلَّبِيٌّ، مُسعِّرِ حربِهم، مأسُورَيْن، ومعهما قريبٌ من خمسة آلاف أسير، فتمَّ السرورُ، وهربَ قرْطاسٌ الذي رمى الموفَّقَ في صدْره بذلك السهم إلى رَامَهُرْمُزَ، فأُخذَ وبُعثَ به إلى الموفَّق فقتلَه أبو العبَّاسِ ولدُ الموفَّقِ. واستأمَن مَن بَقيَ من جيوشِ الزَّنْج فأمَّنهم الموفَّقُ، ونادَى في الناسِ بالأمان، وأن يرجعَ كلُّ مَن كان أُخرِجَ من ديارِه بسببِ فتنةِ الزَّنْج إلى أوطانِهم وبُلْدانِهم، ثم قدَّم ولدَه أبا العبَّاسِ بين يدَيْه إلى بغدادَ، ومعه رأسُ الخبيثِ يُحْمَلُ ليَراه أهلُ بغدادَ فدخَلها لثِنْتَيْ عشْرَةَ ليلةً بقيتْ من جُمادَىٰ الأُولَىٰ من هذه السنَة وكان يومًا مشهودًا ببغدادَ، وانْتَهتْ أيامُ صاحبِ الزَّنْج المُدَّعِي الكذَّابِ، قبَّحَه اللهُ.

وقد كان ظهورُه في يوم الأربعاء لأربَعٍ بقينَ من شهرِ رمضانَ سنةَ خمسٍ وخمسينَ ومائتيْن، وقُتِل يومَ السبتِ لليلتيْن خَلَتَا من صَفَرٍ سنةَ سبْعينَ ومائتين. وكانت دولَتُه أربَعَ عشْرَةَ سنةً وأربَعَةَ أشهرٍ وستَّةَ أيامٍ، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

وقد قيل في انقضاءِ دولةِ الزَّنْج وما كان من النصرِ عليهم أشْعارٌ كثيرةٌ؛ من ذلك قولُ يَحْيَىٰ بنِ محمدٍ الأسْلَميِّ:

أقُولُ وقد جاءَ البَشيرُ بوقْعَةٍ ... أعَزَّتْ منَ الإسْلام ما كان واهيَا
جَزَى اللهُ خيرَ الناسِ للناسِ بعدَما ... أُبيحَ حِمَاهُمْ خيرَ ما كان جَازِيَا
تَفَرَّدَ - إذْ لم ينصُرِ اللهَ - ناصرٌ ... بتَجْديد دين كان أصبَح باليَا
وتجديد مُلك قد وَهَى بعدَ عزِّهِ ... وأخذ بثارات تُبيرُ الأعاديَا
وردَّ عماراتٍ أُزيلَتْ وأُخْرِبَتْ ... ليرجعَ فيءٌ قد تُخُرِّمَ وافيَا
وترجعَ أمصارٌ أُبيحَتْ وأُحْرِقَتْ ... مرارًا فقد أمْسَتْ قَوَاءً عَوَافيَا
ويَشْفي صُدورَ المسلمينَ بوقْعَةٍ ... يُقَرُّ بها منَّا العيونَ البَواكيَا
ويُتلَى كتابُ الله في كلِّ مسجدٍ ... ويُلْقَى دعاءُ الطالبيِّنَ خاسيَا
فأعرَضَ عن أحْبابه ونعيمِهِ ... وعن لذَّة الدُّنيا وأصبَح عاريَا

وهي قصيدةٌ طويلةٌ، هذا طرفٌ منها.

وفي هذه السنة أقبَلَت الرومُ في مائة ألف مقاتلٍ، فنزَلوا قريبًا من طرَسوسَ، فخرَج إليهم المسلمون فبَيَّتوهم، فقَتَلوا منهم في ليلةٍ واحدةٍ حتى الصباحِ نحوًا من سبعين ألفًا من المقاتلة، ولله الحمدُ والمنةُ.

وقُتِل المُقدَّمُ الذي عليهم وهو بِطْرِيقُ البَطارقَة، وجُرِح أكثرُ الباقين، وغنِم المسلمون منهم غنيمةً عظيمةً؛ من ذلك سبعةُ صُلْبانٍ من ذهبٍ وفضَّةٍ، وصَليبُهم الأعظمُ عندَهم، وهو من ذهبٍ صامتٍ مُكَلَّلٍ بالجواهرِ، وأربعةُ كَراسٍ من ذهَبٍ، ومائتا كُرْسيٍّ من فضَّةٍ، وآنيَةٌ كثيرةٌ، وعشَرةُ آلاف عَلَمٍ من ديباجٍ، وغنِموا حريرًا كثيرًا وخمسةَ عشرَ ألفَ دابَّةٍ وسُروجًا وسلاحًا وسُيوفًا مُحلاَّةً، وشيئًا كثيرًا

جدًّا ولله الحمدُ والمنَّةُ أولاً وآخرًا.

وممَّن توفِّي فيها من الأعيان:

أحمدُ بنُ طولونَ، أبو العبَّاس أميرُ الديارِ المصرية، وباني الجامع بها، المنسوب إليه، وقد ملَك دمشقَ والعواصمَ والثُّغورَ مدةً طويلةً، وقد كان أبوه طولونُ من الأتراك الذين أهْدَاهم نوحُ بنُ أسَدِ ابنِ سامانَ السامانيُّ، عاملُ بُخارا إلى المأمونِ في سنةِ مائتين، ويقالُ: إلى الرشيدِ في سنة تسعين ومائة.

وُلد أحمدُ هذا في سنة أربعَ عشْرَةَ، وقيل: في سنة عشرين ومائتين.

ومات أبوه طُولونُ في سنة ثلاثين، وقيل: في سنة أربعين ومائتين.

وحكَى ابنُ خلِّكان أنَّه لم يكُنْ ابنَه وإنَّما تَبنَّاه. واللهُ أعلمُ.

وحكَى ابنُ عساكرَ أنَّه من جارية تركيَّة اسمُها هاشمُ.

ونشأ أحمدُ هذا في صيانةٍ وعفافٍ ودراسةٍ للقرآن العظيم، مع حُسْنِ الصوت، وكان يعيبُ على أولادِ الترك ما يرتكبُونه من المحرَّماتِ والأشياءِ المُنكَرات، وكانتْ أمُّه جاريةً اسمُها هاشمُ.

وحكَى الحافظُ ابنُ عساكرَ في «تاريخه» عن بعضِ مشايخِ مصرَ أنَّ طولونَ لم يكُنْ أباه، وإنَّما كان قد تبنَّاه، وأنَّه كان ظاهرَ النَّجابةِ من صغَره، وأنَّه اتَّفقَ أن بعثَه طولونُ في حاجة ليأتيَه بها من قصرِ الإمارة، فذَهَب، فإذا حَظيَّةٌ من حَظَايا أبيه مع بعضِ الخدَمِ في فاحشة، فأخَذ حاجتَه التي أمَره بها، وكَرَّ راجعًا إليه سريعًا، ولم يخبرْه بشيء ممَّا رأى من ذلك، فتوهَّمت الحظيَّةُ أنْ يكونَ أحمدُ قد أخبَر طُولُونَ بما رأى، فجاءَتْ إلى طولونَ فقالتْ: إنَّ أحمدَ جاءني الآنَ إلى المكان الفُلانيِّ وراوَدني عن نفْسِي، وانصرَفَتْ إلى قصرها، فوقَع في نفسه صِدْقُها، فاسْتَدْعَى أحمدَ، وكتَب معه كتابًا، وختَمه إلى بعْضِ الأمراء، أنْ إذا وصَل إليك حاملُ هذا الكتاب فاضرِبْ عُنُقَه، وابعَثْ برأسه سريعًا إليَّ. فذَهَب أحمدُ وهو لا يدري ما في الكتاب، فاجتاز في طريقه بقصرِ تلك الحَظِيَّة، فاستَدْعَتْه إليها، فقال: إنِّي مشغولٌ بهذا الكتاب لأُوصلَه إلى فلانٍ. فقالتْ: هَلُمَّ، فلي إليك حاجةٌ - وأرادَتْ أنْ تحبِسَه عندَها؛ ليكتُبَ لها كتابًا، لتُحَقِّقَ في ذِهْنِ المَلك ما ذكَرتْه من أمره، وأرسَلَتْ بذلك الكتابِ مع الخادمِ الذي كانت هي وإيَّاه على الفاحشة، وجلَس أحمدُ يكتُبُ لها الكتابَ، وذهَب ذلك الخادمُ إلى ذلك الأميرِ بالكتاب، فلمَّا قرَأه أمَر بضرْبِ عُنُقِه، وأرسَل برأسه إلى الملك طُولُونَ، فتعَجَّب الملكُ وقال: أين أحمدُ؟ فطُلب له، فقال: ويْحكَ، أخبِرْني كيف صَنَعْتَ منذُ خرَجتَ من بينِ يدَيَّ؟ فأخْبَرَه بما جرَى من الأمْر، ولَمَّا سمِعَتْ تلك الحَظِيَّةُ بأنَّ رأسَ الخادم قد أُتي به إلى الملك سُقط في يديها، وتوهَّمت أنَّ الملكَ قد تَحقَّق الحالَ، فقامَتْ إليه تعتَذرُ وتَسْتَغفرُ ممَّا وقَع منها مع الخادم، واعْتَرفَتْ بالحقِّ وبرأَتْ ساحةَ أحمدَ، فحظِي عندَه، وأوْصَى له بالمُلك من بعده.

ثم وَلِي نيابةَ الديارِ المصريَّة للمُعْتَزِّ، فدَخَلها يومَ الأربعاءِ لسَبْعٍ بقين من رمضانَ سنةَ أربعٍ وخمسين ومائتين، فأحْسَن إلى أهلها إحسانًا كثيرًا، وأنْفَق فيهم من بيت المال ومن صَدقاته، واسْتَغلَّ الديارَ المصريةَ في بعض السنينَ أربعةَ آلاف ألف دينارٍ، وبنَى بها الجامعَ، وغرِم عليه مائةَ ألف دينارٍ وعشرين ألفَ دينارٍ، وكان فراغُه في سنة تسعٍ وخمسين، وقيل: في سنة ستٍّ وستين. وكانت له مائدةٌ في كلِّ يومٍ يحضُرُها الخاصُّ والعامُّ، وكان يتصدَّقُ في كلِّ شهرٍ من خالص ماله بألف دينارٍ. وقال له وكيلُه يومًا: إنَّه تأتيني المرأةُ وعليها الإزارُ وبِذْلةٌ وهيئةٌ فتسألُني أفأُعْطيها؟ فقال: مَن مدَّ يدَه إليك فأعْطِه.

وكان من أحْفظ الناسِ لتلاوة القرآن، ومن أطْيَبِهم صوتًا به.

وقد قيل - فيما حكَاه ابنُ خلِّكانَ: إنَّه قتَل صَبْرًا نحوًا من ثمانية عشرَ ألفَ نفْسٍ. واللهُ أعلمُ. وبنَى البيمارستانَ، فغرِم عليه ستين ألفَ دينارٍ، وعلى الميدان مائةً وخمسين ألفًا، وكان له صَدقاتٌ كثيرةٌ جدًّا، وإحْسانٌ زائدٌ، ثم مَلَك دمشقَ بعدَ أميرِها أماجورَ في سنةِ أربعٍ وستين ومائتين، فأحْسَن إليهم أيضًا.

واتُّفِقَ أنَّه وقَع بها حريقٌ عندَ كنيسةِ مريمَ، فنَهَض بنَفْسه إليه ومعه أبو زُرْعَةَ عبدُ الرحمنِ بنُ عمرٍو الحافظُ الدِّمَشْقيُّ، وكاتبُه أبو عبد الله أحمدُ بنُ محمدٍ الواسطيُّ، ثم أمَر كاتبَه أنْ يُخرِجَ من مالِ الأميرِ سبعين ألفَ دينارٍ تُصرَفُ إلى أهلِ الدُّورِ والأموالِ التي أُحرِقتْ، فصُرِف إليهم جميعُ قيمةِ ما ذكَرُوه، وبَقِي أربعةَ عشرَ ألفَ دينارٍ، فأمَر بها أنْ تُوزَّعَ عليهم على قَدْرِ حِصَصِهم، ثم أمَر بمالٍ عظيمٍ يُفَرَّقُ على فقراءِ دمشقَ وغُوطَتِها، فأقَلُّ ما حصَل للفقيرِ دينارٌ، رحمه اللهُ.

ثم خرَج إلى أنْطاكيَةَ، فحاصَر بها صاحبَها سيما حتى قتَله، وتسلَّم البلدَ. كما ذكَرنا ذلك فيما تقدَّم. ثم كانت وفاتُه بمصرَ في أوائلِ ذي القَعْدَةِ من هذه السنة من علَّةٍ أصابَتْه من أكْلِ لبنِ الجَواميسِ، فأصابَه ذَرَبٌ، فداواه الأطباءُ، فلم يَقْبَلْ منهم، فكان يأكُلُ منه في الخُفْيَةِ، فمات. رحمه اللهُ.

وقد ترَك من الأمْوالِ والأثاثِ والدوابِّ شيئًا كثيرًا جدًّا؛ من ذلك عشَرَةُ آلافِ ألفِ دينارٍ، وكان له ثلاثةٌ وثلاثون ولدًا؛ منهم سبعةَ عشرَ ذكَرًا، فقام بالأمْرِ من بعدِه ولدُه خُمارَوَيه، وسيأتي ما كان من أمْرِه.

وكان له من الغِلْمان أربعةٌ وعشرونَ ألفَ غلامٍ، ومن الموالي سبعةُ آلافِ مَوْلًى، ومن البِغالِ والخيلِ والجمالِ شيءٌ كثيرٌ جدًّا.

قال ابنُ خَلِّكانَ: وإنَّما تغلَّب على البلادِ لاشتغالِ الموفَّقِ طلحةَ بنِ المتَوكِّلِ عنه بحربِ صاحبِ الزَّنْجِ، وقد كان الموَفَّقُ نائبَ أخيه المُعْتَمِدِ على الله - وهو والدُ المعتضدِ - رحمهم اللهُ.

وأحمدُ بنُ محمدِ بنِ عبدِ الكَريمِ بنِ سهلٍ الكاتبُ، صاحبُ كتابِ «الخَراجِ»، قاله ابنُ خَلِّكان.

وأحمدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ البَرْقيِّ. وأسيدُ بنُ عاصمٍ الجمَّالُ. وبَكَّارُ بنُ قُتَيْبَةَ المصْريُّ في ذي الحجَّةِ من هذه السنة.

والحسنُ بنُ زيد العَلَويُّ، صاحبُ طَبَرِسْتانَ في رجبٍ من هذه السنة، وكانت ولايتُه تسعَ عشْرَةَ سنةً وثمانيةَ أشهرٍ وستةَ أيامٍ، وقام بالأمْرِ من بعده أخوه محمدُ بنُ زيدٍ، وكان الحسَنُ بنُ زيدٍ كريمًا جَوَادًا مُمَدَّحًا يعرفُ الفقهَ والعربيةَ، قال له شاعرٌ في جملة قصيدةٍ مدَحه بها:

اللهُ فَـــردٌ وابنُ زيد فـــردُ

فقال له: وَيْلَك، لا تقلْ، هلاَّ قلتَ:

اللهُ فَـــردٌ وابنُ زيد عَـــبْـــدُ

ثم نزَل عن سريرِه، وخرَّ ساجدًا للهِ، عزَّ وجلَّ، وألْصَق خدَّه بالتراب، ولم يُعْطِ ذلك الشاعر شيئًا.

وامْتَدَحه بعضُهم فقال في أول قصيدته:

لا تَقُلْ بُشْـــرَى ولكن بُشْـــرَيَان عـــزَّةُ الدَّاعي ويومُ المهـــرجـــان

فقال له الحسنُ بنُ زيد: لو ابتدَأتَ بالمصْراع الثاني لكان أحْسَنَ، وأبعدَ لك أنْ تبتدئَ شعْرَكَ بحرف «لا». فقال له الشاعرُ: ليس في الدنيا كلمةٌ أجلُّ من قول: لا إلهَ إلا اللهُ. فقال: أصبْتَ. وأمَر له بجائزةٍ سَنِيَّةٍ.

والحسنُ بنُ عليِّ بنِ عَفَّانَ العامِرِيُّ.

وداودُ بنُ عليٍّ الأصبهانيُّ ثم البَغْداديُّ الفقيهُ الظاهريُّ، إمامُ أهلِ الظَّاهرِ، روَىٰ عن أبي ثَوْرٍ، وإبْراهيمَ بنِ خالدٍ، وإسْحاقَ بنِ راهَوَيْه، وسليمانَ بن حربٍ، وعبدِ الله بنِ سَلَمَةَ القَعْنَبِيِّ، ومُسَدَّدِ ابنِ مُسَرْهَدٍ، وغيرِ واحدٍ، وروَىٰ عنه ابنُه الفَقيهُ أبو بكرٍ بنُ داودَ، وزكريا بنُ يحيىٰ السَّاجِيُّ.

قال الخطيبُ: كان فقيهًا زاهدًا وفي كتُبه حديثٌ كثيرٌ، والروايةُ عنه عزيزةٌ جدًّا، وكانت وفاتُه ببغدادَ في هذه السنة، وكان مولدُه في سنةِ مائتين، وقيل: في سنة ثنتين ومائتين. وذكَر الشيخُ أبو إسحاقَ الشيرازيُّ في «طَبقاته» أنَّ أصلَه من أصْبهانَ، ووُلد بالكوفة، ونشَأ ببغدادَ وأنَّه انتهتْ إليه رياسةُ العلمِ بها، وكان يحضُرُ مجْلسَه أربعُمائة صاحبِ طَيْلسانٍ أخضرَ، وكان من المُتَعصِّبين للشافعيِّ، وصنَّف مناقبَه.

وقال غيرُه: كان حسَنَ الصلاة والتَّواضُع.

وقد قال الأزْديُّ: تُرِك حديثُه. ولم يُتابَع الأزْديُّ على ذلك.

لكن رُوي عن الإمام أحمدَ أنَّه تكلَّم فيه بسبب كلامه في القرآن، وأنَّ لفظَه به مخلوقٌ، كما نُسِب إلى الإمامِ البُخاريِّ، رحمه اللهُ. قلتُ: وقد كان من الفقهاء المَشْهُورين، ولكنْ حصرَ نفْسَه بنَفيِه القياسَ الصحيحَ، فضاقَ بذلك ذَرْعُه في أماكنَ كثيرةٍ من الفقْه، فلَزِمه القولُ بأشْياءَ قَطْعيَّةٍ صار

إليها بسبب اتِّباعه الظاهرَ المُجرَّدَ من غير تفهُّم لمعنَى النَّصِّ.

وقد اختَلف الفُقهاءُ القياسيونَ بعده في الاعْتداد بخلافه، وأنَّه هل ينْعَقِدُ الإجْماعُ بدونه مع خلافه أم لا؟ على أقْوالٍ ليس هذا موْضِعَ بَسْطها.

وممن تُوفِّي فيها:

الرَّبيعُ بنُ سُلَيْمانَ المُرَاديُّ صاحبُ الشافعيِّ وقد تَرْجَمْناه في «طبَقاتِ الشافعيَّة». **والقاضي بَكَّارُ بنُ قُتَيْبَةَ** الحاكمُ بالديارِ المصرية من سَنَة ستٍّ وأرْبَعينَ ومائتَيْن إلى أنْ تُوفِّيَ مسْجونًا في حبسِ أحمدَ بنِ طُولُونَ؛ لكَوْنِه لم يَخْلَع المُوَفَّقَ في سنَة سَبْعينَ، وكان عالمًا عابدًا زاهدًا كثيرَ التِّلاوَة والمُحاسبَة لنفْسه، وقد شغرَ منْصبُ القضاء بعدَه بمصرَ ثلاثَ سنينَ وقد بسَط ابن خَلِّكان ترجمتَه في الوفيات.

ابنُ قُتَيْبَةَ الدِّيْنَوَريُّ عبدُ الله بنُ مُسْلِم بن قُتَيْبَةَ الدِّينَوَريُّ قاضيها، النحويُّ اللغويُّ صاحبُ المُصنَّفات البديعة المُفيدَة المُحْتَوِيَة على علُوم جَمَّة نافعَة، اشتغَل ببَغدادَ، وسمعَ بها الحديثَ على إسْحاقَ بنِ راهَوَيْه، وطبَقَته، وأخَذ اللغةَ عن أبي حاتمٍ السِّجِسْتانيِّ وذَويه، وصنَّفَ وجمَع وألَّفَ الكتبَ الكثيرةَ؛ فمن ذلك كتابُ «المعارف»، و«أدب الكاتب» الذي شرَحه أبو محمدِ بنُ السِّيدِ البَطَلْيوسيُّ، وكتابُ «مُشْكِل القرآن والحديث»، و«غريب القُرآن والحديث»، و«عُيون الأخْبار»، و«إصْلاح الغَلَط»، وكتابُ «الخَيْل»، وكتابُ «الأنواء»، وكتابُ «المسائل والجوابات»، وكتابُ «المَيْسر والقداح»، وغيرُ ذلك. وكانت وفاتُه في هذه السنَة، وقيلَ: في التي بعدَها. ومولدُه في سنَة ثلاثَ عشْرَةَ ومائتين، ولم يجاوز السِّتِّين، وروَى عنه ولَدُه أحمدُ جميعَ مُصنَّفاته. وقد ولِي ولدُه أحمدُ قضاءَ مصْرَ سنَةَ إحْدَى وعِشْرينَ وثلاثمائة. وتُوفِّي بها بعدَ سنَة، رحمه اللهُ.

ومحمدُ بنُ إسْحاقَ بن جعفر الصاغانيُّ. **ومحمدُ بنُ مسلم** بن وارَةَ. **ومصعبُ بنُ أحمدَ** أبو أحمدَ الصُّوفيُّ وكان من أقْران الجُنَيْد.

وفيها تُوفِّي ملكُ الروم ابنُ الصَّقَلَبيَّة، لعنَه اللهُ.

وفيها ابْتدأ إسْماعيلُ بنُ مُوسَى ببِناء مدينة لارِدَةَ من بلاد الأنْدَلُس.

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين ومائتين

فيها عزَل الخليفةُ عمرَو بنَ اللَّيْث عن ولايَة خُراسانَ، وأمَر بلعنه على المنابر، وفوَّض أمرَ خُراسانَ إلى محمد بن طاهر، وبعَث جيشًا إلى عمرو بن اللَّيْث فهُزِم عمرٌو.

وفيها كانت وقعةٌ بينَ أبي العبَّاس المُعتضد بن المُوَفَّق أبي أحمدَ وبينَ خُمارَوَيْه بن أحمدَ بن طولونَ؛ وذلك أنَّ خُمارَوَيْه لما ملَك بعدَ أبيه بلادَ مصرَ والشام جاءَه جيشٌ من جهَة الخليفة، عليهم إسْحاقُ بنُ كِنْداجَ نائبُ الجزيرة وابنُ أبي الساج فقاتَلوه بأرْض شَيْزَرَ، فامْتَنع من تَسليم الشام إليهم، فاستنجَدوا بأبي العبَّاس بن المُوَفَّق، فقدمَ إليهم فكسَر جيش خُمارَوَيْه بن أحمدَ، وتسلَّمَ

دمشقَ، واحتازها، ثم سارَ نحوَ خُمارَوَيْه إلى بلاد الرَّملة عندَ ماءٍ عليه طَواحينُ، فاقتتلوا هنالك، فبذلك تُسَمَّى هذه وَقْعَةَ الطَّواحين، ثم كانت النَّوبةُ أولاً لأبي العبّاس على خُمارَويه، فهزَمه حتى هرَب خُمـارويه، لا يلوي على شيء، فلم يرجعْ حتى دخَلَ الديارَ المصـرية، فاقـبلَ أبو العبّـاس وأصحابُه على نَهبِ مُعسكرِهم، فبينَما هم كذلك إذ أقبَل كمينٌ لجيشِ خُمارَوَيْه وهم مشغولون بالغنيمة فوَضَعت المصريون فيهم السيوفَ، فقُتل خلقٌ كثيرٌ، وانهزَمَ الجيشُ، وهرَبَ أبو العبّاس المُعتَضِدُ، فلم يرجعْ حتى وصَل إلى دِمشقَ، فلم يفتَحْ له أهلُها بابَها، فانصرَف حتى وصَل إلى طَرَسوسَ، وبقي الجيشانِ المصريُّ والعراقيُّ يقتتلان، وليسَ في واحدٍ منهما أميرٌ. ثم كان الظَّفَرُ للمصريِّين؛ لأنَّهم أقاموا أبا العشائرِ أخا خُمارَوَيْه عليهم أميراً، فغَلَبوا بسبَبِ ذلك، واستقرَّت أيديهم على دمشقَ وسائرِ الشام، وهذه من أعْجَبِ الوَقَعات.

وفيها جرَت حروبٌ كثيرةٌ بأرضِ الأنْدَلُسِ من بلادِ المغرِب.

وفيها دخَل إلى المدينة النبويَّة محمدٌ وعليٌّ ابنا الحسينِ بنِ جعفرِ بنِ موسى بنِ جعفرِ بنِ محمدِ بنِ عليِّ بنِ الحُسَيْنِ بنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ، فقتَلا خلقًا كثيرًا من أهلها، وأخذا أموالاً جزيلةً، وتعطَّلت الصلَواتُ في المسجدِ النبويِّ أربعَ جُمَعٍ لم يحضُرِ الناسُ فيها جُمُعَةً ولا جَماعَةً، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

وجرَت بمكَّةَ فتنةٌ أخرى واقْتَتَلَ الناسُ على بابِ المسجدِ الحرامِ أيضًا.

وحجَّ بالناسِ في هذه السنةِ هارونُ بنُ محمدِ بنِ إسحاقَ العباسيُّ.

ومَن تُوفِّي فيها من الأعيان:

عباسُ بنُ محمدٍ الدُّوريُّ تلميذُ ابنِ مَعينٍ وغيرِه من أئمَّة الجرحِ والتَّعْديل، **وعبدُ الرحمنِ بنُ محمدِ بنِ مَنْصورٍ البَصْريُّ**، **ومحمدُ بنُ حمَّادٍ الطِّهْرانيُّ**، **ومحمدُ بنُ سِنَانٍ**، **ويُوسُفُ بنُ مُسلمٍ**.

وبُورَانُ بنتُ الحسنِ بنِ سهلٍ، زَوْجَةُ المأْمُونِ، ويقالُ: إنَّ اسْمَها خديجةُ، وبُورانُ لقَبٌ لها. والصحيحُ الأوَّلُ. عقَد عليها المأمونُ بفَمِ الصِّلْحِ سنةَ ثنتين ومائتَيْنِ، ولها عشرُ سنين، فنثَر أبوها على الناسِ يومَئذٍ بَنادِقَ المسْكِ، مَكْتوبٌ في ورقةٍ وسَطَ كلِّ بُنْدُقَةٍ اسمُ قَرْيَةٍ، أو ملْكٍ أو جاريَةٍ، أو غُلامٍ، أو فَرَسٍ، فمَن التقَط من ذلك شيئًا ملَكه، ونثَر على عامَّةِ الناسِ الدنانيرَ ونوافجَ المسكِ وبيضَ العنبرِ، وأنفقَ على المأمونِ وعسْكَرِه مدةَ مُقامه تلك الأيامَ خمسينَ ألفَ ألفِ درهمٍ. فلمَّا ترَحَّل المأمونَ عنه أطلَق له عشَرةَ آلافِ ألفِ درهمٍ، فأقطعَه فَمَ الصِّلْحِ، وبنَى بها في سنَةِ عشْرٍ. فلمَّا جلَس المأمونُ فرَشوا له حصيرًا من ذهَبٍ، ونثَروا على قدمَيْه ألفَ حبَّةِ جوهرٍ، وهناك تَوْرٌ من ذهَبٍ فيه شَمعةٌ من عَنْبرٍ زِنَةُ أربعينَ مَنًّا من عنبرٍ، فقال: هذا سرَفٌ. ونظَر إلى ذلك الحَبِّ على الحَصيرِ فقال: قاتَل اللهُ أبا نُوَاسٍ حيثُ يقولُ في صفةِ الخمرِ:

كــأنَّ صُــغْــرَى وكُبْــرَى مــن فَــواقــعِــهــا   حَــصـــبـــاءُ دُرٌّ عــلى أرضٍ مــنَ الــذَّهبِ

ثم أمرَ بالدُّرِّ فجُمع فوضَعه في حجرِها وقال: هذا نحْلَةٌ منِّي لك وسَلي حاجَتك. فقالت لها جدَّتُها: سَلي سيِّدَك فقد استَنْطَقَك. فقالت: أسأَلُ أميرَ المؤمنينَ أن يرْضَىٰ عن إبراهيمَ بنِ المَهْديِّ. فرضِي عنه، ثم أرادَ الاجْتماعَ بها فإذا هي حائضٌ، وكان ذلك في شهرِ رمضانَ، ثم تُوفِّي المأمونُ في سنة ثماني عشْرةَ ومائتَين، وتأخَّرَت هي من بعده حتىٰ كانتْ وفاتُها في هذه السنةِ، ولها ثمانونَ سنةً.

ثم دخلت سنة ثنتين وسبعين ومائتين

في جُمادَىٰ الأُولىٰ منها سارَ نائبُ قَزْوينَ وهو أذكوتكينُ في أربعةِ آلافِ مُقاتلٍ إلىٰ محمدِ بنِ زيدٍ العَلَويِّ صاحبِ طَبَرسْتانَ بعدَ أخيه الحسنِ بنِ زيدٍ، وهو بالرَّيِّ، في جيشٍ عظيمٍ من الدَّيْلَمِ وغيرِهم، فاقتتلوا قتالاً شديدًا فهزَمَه أذكوتكينُ وغَنم ما في مُعسكَرِه، وقتَل من أصحابِه ستَّةَ آلافٍ، ودخَل الرَّيَّ فأخَذ من أهلِها مائةَ ألفِ ألفِ دينارٍ، وفرَّق عُمَّالَه في نواحي الرَّيِّ.

وفيها وقَع بينَ أبي العباسِ بنِ المُوفَّقِ وبينَ صاحبِ ثغرِ طَرَسُوسَ - وهو يازمانُ الخادمُ - فثار أهلُ طَرسُوسَ علىٰ أبي العباسِ فأخرَجوه عنهم، فرجَع إلىٰ بغدادَ.

وفيها دخَل حَمْدانُ بنُ حَمْدونَ وهارونُ الشّاري مدينةَ المَوْصِلِ، وصلَّىٰ بهم الشاري في جامعِها الأعْظَمِ.

وفيها عاثت بنو شَيْبانَ في أرضِ المَوْصلِ وسعَوْا في الأرضِ فَسادًا.

وفيها تحرَّكت بَقيَّةُ الزَّنْجِ في أرضِ البصرَةِ، ونادَوا: يا أنكلايُ، يا منْصورُ.

وكان أنكلايُ ابن صاحبِ الزنجِ، وسُلَيمانُ بن جامعٍ، وأبانُ بنُ عليٍّ المُهلَّبيُّ، وجماعةٌ من وجوهِ أمرائِهم في حَبْسِ المُوفَّقِ، فبعَث إليهم، فقُتلوا وحُمِلت رُءوسُهم إليهم، وصُلِبتْ أبدانُهم ببَغدادَ، وسكَنَت الشُّرورُ.

وفيها صلَح أمرُ المدينة النبويَّة، وتراجَع الناسُ إليها، ولله الحمدُ.

وفيها جرَتْ حروبٌ كثيرةٌ ببلادِ الأنْدلُسِ، وتسلَّمَتِ الرومُ من المسلمين بلَدَيْنِ عظيمَين من الأندلُسِ، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها قَدِم صاعدُ بنُ مُخَلَّدٍ الكاتبُ من فارسَ إلىٰ واسطٍ، فأمَر المُوفَّقُ القُوّادَ أن يتلقَّوْه، فدخَل في أُبَّهَةٍ عظيمةٍ، ولكن ظهَر منه تِيهٌ وعُجْبٌ شديدٌ، فأمَر المُوَفَّقُ عمّا قريبٍ بالقَبْضِ عليه، وعلىٰ أهْلِه وأمْواله وحواصله، واستَكتَب مكانَه أبا الصَّقرِ إسماعيلَ بنَ بُلْبُلٍ.

وحجَّ بالناسِ فيها هارونُ بنُ محمدِ بنِ إسْحاقَ العبَّاسيُّ، أميرُ الحجِّ منذُ دَهْرٍ.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

إبراهيمُ بنُ الوَليدِ الجشّاشُ. وأحمدُ بنُ عبدِ الجبّارِ بنِ محمدِ بنِ عُطاردِ العُطارديُّ التَّميميُّ، راوي السِّيرةِ عن يونسَ بنِ بكيرٍ، عن محمدِ بنِ إسحاقَ بنِ يَسارٍ، وغيرِ ذلك. وأبو عُتْبةَ الحجازيُّ. وسُلَيمانُ بنُ سيف. وسُليمانُ بنُ وَهْبٍ الوزيرُ، في حبسِ الموفَّقِ. وشُعَيبُ بنُ بكّارٍ، يروي عن أبي عاصمٍ النَّبيلِ. ومحمدُ بنُ صالحِ بنِ عبدِ الرحمنِ الأنماطيُّ، ويُلقَّبُ بكَيْلَجةَ، هو من تلاميذِ يحيى ابنِ معينٍ. ومحمدُ بنُ عبدِ الوهابِ الفَرّاءُ. ومحمدُ بنُ عبيدِ اللهِ المُنادي. ومحمدُ بنُ عَوْفٍ الحِمْصيُّ.

وأبو مَعْشَرٍ المُنَجِّمُ، واسمُه جعفرُ بنُ محمدٍ البلْخيُّ، أستاذُ عصرِه في صناعةِ التَّنْجيمِ، وله فيه التصانيفُ المشهورةُ، كـ«المدخلِ»، و«الزِّيجِ»، و«الألوفِ» وغيرِها، وتكلَّم على ما يتعلَّقُ بالتَّسْييرِ وكذلك بالأحكام.

قال القاضي ابنُ خلِّكانَ: وله إصاباتٌ عجيبةٌ. ثم حكَى أنَّ بعضَ الملوكِ تطلَّبَ رجلاً، فذهَب ذلك الرجلُ فاختفَى وخاف من أبي مَعْشَرٍ المُنَجِّمِ أنْ يدُلَّ عليه الملكَ بصنعته، فعَمَد إلى طَسْتٍ فملأه دمًا، ووَضَع أسفلَه هاوَنًا، وجلَس على ذلك الهاوَنِ، فاستَدعَى الملكُ أبا معْشَرٍ، فضرَب رمْلَه وحرَّرَ أمرَه، ثم قال: هذا عجيبٌ! أجدُ هذا الرجلَ جالسًا على جبلٍ من ذهبٍ في وَسطِ بحرٍ من دمٍ، ولكنْ ليس هذا في الدنيا. ثم أعاد الضربَ فوَجَده كذلك، فتعَجَّب الملكُ أيضًا، ونادَىٰ في البلدِ بأمانِ المذكورِ، فلمّا مثَل بينَ يدَيِ الملكِ سأله أين اختفَى؟ فأخبَره بأمرِه، فتعجَّب الناسُ من ذلك.

قلتُ: والظاهرُ أنَّ الذي يُنسَبُ إلى جعفرِ بنِ محمدٍ الصادقِ من علمِ الزَّجرِ، والطرفِ، واختلاجِ الأعضاءِ ونحوِ ذلك، إنَّما هو منسوبٌ إلى جعفرِ بنِ محمدٍ هذا، وليس بالصادقِ. واللهُ أعلمُ.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين ومائتين

وفيها وقَع بينَ إسحاقَ بنِ كُنْداجَ نائبِ المَوْصلِ والجزيرةِ وبينَ صاحبِه ابنِ أبي السَّاجِ نائبِ قِنَّسْرينَ وغيرِها بعدَما كانا مُتَّفقَيْن، وكاتَب ابنُ أبي السَّاجِ خُمارَوَيْهِ صاحبَ مصرَ، وخطَب له ببلادِه، وقَدِم خُمارَوَيْهِ إلى الشامِ، فاجتمَع به ابنُ أبي السَّاجِ، ثم سار إلى إسحاقَ بنِ كُنْداجَ فتَواقعا، فانْهزَم ابنُ كُنْداجَ، وهرَب إلى قلعةِ مارْدينَ، فحاصرَه بها، ثم ظهرَ أمرُ ابنِ أبي السَّاجِ، واستحْوَذ على المَوْصلِ وبلادِ الجزيرةِ، وخطَب بها لخُمارَوَيْهِ، واستَفْحَل أمرُه جدًّا.

وفيها قبَض الموفَّقُ على لؤلؤٍ غُلامِ ابنِ طُولُونَ، وصادَره بأربعمائةِ ألفِ دينارٍ، وسجَنه، فكان يقولُ: ليس لي ذنبٌ إلا كثرةُ مالي. ثم أُخرِج بعدَ ذلك من السِّجنِ وهو فقيرٌ ذليلٌ، فعاد إلى الديارِ المصريةِ في أيامِ هارونَ بنِ خُمارَوَيْهِ، ومعه غلامٌ واحدٌ. وهذا جزاءُ كفرِ نعْمةِ سيِّدِه عليه.

وفيها عدَا أولادُ ملكِ الرومِ على أبيهم فقتَلوه، وتملَّك بعدَه أحدُ أولادِه.

وفيها كانتْ وفاةُ:

محمد بن عبد الرحمن بن الحكم الأُمويُّ، صاحب الأندلس عن خمس وستين سنةً، وكانت ولايتُه أربعًا وثلاثين سنةً وأحدَ عشرَ شهرًا، وكان أبيضَ مُشْرَبًا بحُمْرَةٍ، رَبْعَةً أوقصَ، يَخضِبُ بالحنَّاء والكَتَم، وكان عاقلاً لَبيبًا، وكان يُدرِكُ الأشياءَ المُشْتَبِهةَ، وخلَّف ثلاثًا وثلاثين ذكرًا، وقام بالأمرِ بعدَه ولدُه المُنذِرُ، فأحْسَنَ إلى الناسِ فأحبُّوه.

وفيها كانتْ وفاةُ:

خالد بن أحمدَ أبي الهيثم الذُّهْليُّ، الذي كان أميرَ خراسانَ في حبْسِ المُعتمدِ على الله، وهذا الرجلُ هو الذي أخرجَ البخاريَّ من بُخارا، فدعا عليه، فلم يُفلِحْ بعدَها، ولم يَبْقَ في الإمْرَةِ إلاَّ أقلَّ من شهرٍ حتى احْتِيطَ عليه وعلى أمْواله وحواصله، وأُرْكِب حمارًا ونُودي عليه في بلده، ثم سُجِن، فمات فيه في هذه السنة، وهذا جزاءُ مَنْ تعرَّض لأهلِ السنَّةِ وأئمةِ الحديثِ.

وممن تُوفِّي فيها ـ أيضًا ـ من الأعيان:

إسحاقُ بنُ سيَّارٍ. وحنبلُ بنُ إسحاقَ، ابنُ عمِّ الإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ، وأحدُ الرواةِ المشهورين عنه، على أنَّه قد اتُّهِم في بعضِ ما يرْويه ويحْكيه. واللهُ أعلمُ. وأبو أُمَيَّةَ الطَّرَسُوسيُّ. والفَتْحُ بنُ شُخْرُفٍ، أحدُ مشايخِ الصوفيَّةِ ذَوِي الأحْوالِ والكَراماتِ والمقاماتِ والكَلماتِ النافعَاتِ، ووَهِم ابنُ الأثيرِ في قوله في «كامله»: إنَّ أبا داودَ صاحبَ «السُّنَنِ» توفِّي في هذه السنة، بل في سنةِ خمسٍ وسبعين، كما سيأتي.

ابنُ ماجه القَزْوينيُّ، صاحبُ «السُّنَن»، وهو أبو عبدِ الله محمدُ بنُ يزيدَ، ابنُ ماجه القَزْوينيُّ مَوْلى ربيعةَ، صاحبُ كتابِ «السُّنَنِ» المشهورةِ، وهي دالةٌ على عملِه وعلْمِه وتبَحُّرِه واطِّلاعه واتِّباعه للسنةِ النبويةِ في الأصولِ والفروعِ، ويَشْتَمِلُ على اثنين وثلاثين كتابًا، وألفٍ وخَمْسِمائةِ بابٍ، ويَحْتَوِي على أربعةِ آلافِ حديثٍ، كلُّها جيادٌ سوى اليسيرِ.

وقد حُكِي عن أبي زُرْعَةَ الرَّازيِّ أنَّه انتقد منها بِضْعَةَ عشَرَ حديثًا، رُبَّما يقالُ: إنَّها موضوعةٌ، أو مُنْكَرَةٌ جدًا. وله تفْسيرٌ حافلٌ وتاريخٌ كاملٌ من لَدُنِ الصحابةِ إلى عصْرِه.

قال أبو يعْلَى الخليلُ بنُ عبدِ الله الخليليُّ القَزْوينيُّ: أبو عبدِ الله محمدُ بنُ يزيدَ، ويُعْرَفُ يزيدُ بماجه مَوْلَى رَبِيعَةَ، عالمٌ بهذا الشأنِ، صاحبُ التصانيفِ في التاريخِ، والسننِ، ارْتَحَل إلى العراقَيْنِ ومصْرَ والشامِ. ثم ذكَر طرَفًا من مَشايِخه، وقد ترْجَمْناهم في كتابِنا «التكميلِ»، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

قال: وقد روَى عنه الكِبارُ القدماءُ؛ ابنُ سِيبَوَيْه، ومحمدُ بنُ عيسى الصَّفَّارُ، وإسحاقُ بنُ محمدٍ، وعليُّ بنُ إبراهيمَ بنِ سَلَمَةَ القَطَّانُ، وجَدِّي أحمدُ بنُ إبراهيمَ، وسليمانُ بنُ يزيدَ.

وقال غيرُه: كانتْ وفاتُه يومَ الإثنين، ودُفِن يومَ الثلاثاءِ لثَمانٍ بَقِين من رمضانَ سنةَ ثلاثٍ وسبعين ومائتين عن أربعٍ وستين سنةً، وصلَّى عليه أخوه أبو بكرٍ، وتولَّى دفْنَه مع أخيه الآخرِ أبي عبدِ الله، وابنِه عبدِ الله بنِ محمدِ بنِ يزيدَ، رحمه اللهُ.

ثم دخلت سنة أربع وسبعين ومائتين

فيها نشبت الحربُ بينَ أبي أحمدَ الموفَّقِ وبينَ عمرِو بنِ الليثِ بفارسَ، فقصَدَه أبو أحمدَ، فهَرب منه عمرٌو من بلدٍ إلى بلدٍ، ويتبَعُه، ثم لم يقَعْ بينَهما قتالٌ ولا مواجَهةٌ، وقد تحيَّزَ إلى أبي أحمدَ الموفَّقِ مُقدَّمُ جيشِ عمرِو بنِ الليثِ، وهو أبو طَلْحَةَ شَرْكَبُ الجمَّالُ، ثم أراد العَوْدَ، فقبَض عليه أبو أحمدَ الموفَّقُ، وأباح مالَه لولَدِه أبي العباسِ المُعْتَضِدِ، وذلك بالقُرْبِ من شيرَازَ.

وفيها غَزَا يازَمانُ الخادمُ - نائبُ طَرَسوسَ - بلادَ الرومِ، فأوْغَل فيها فقتَل وغنِم وسلِم.

وفيها دخَل صدِّيقٌ الفَرْغانيُّ سامَرَّا، فنهَب دُورَ التجارِ بها، وكَرَّ راجعًا، وقد كان هذا الرجلُ ممَّن يحرُسُ الطُّرقاتِ، فترَك ذلك وأقبَل يقطَعُها، وضعُف الجندُ بسامَرَّا عن مقاومته.

وممَّن توفِّي فيها من الأعيانِ:

إبراهيمُ بنُ أحمدَ بنِ يحيى بنِ الأصمِّ، أبو إسحاقَ، قال ابنُ الجوزيِّ في «المنتظم»: كان حافظًا فاضلًا، روَى عن حَرْمَلَةَ وغيرِه، توفِّي في جُمادَى الآخرةِ من هذه السنة.

إسحاقُ بنُ إبراهيمَ بنِ زيادٍ، **أبو يعقوبَ** المقرئُ، حدَّث عن هُدْبَةَ، وعنه ابنُ مخلدٍ. تُوفِّي في ربيعٍ الأوَّلِ منها.

أيوبُ بنُ سليمانَ بنِ داودَ الصُّغْديُّ، يروي عن آدمَ بنِ أبي إياسٍ، وأبي اليَمانِ، وعليِّ بنِ الجَعْدِ، وعنه ابنُ صاعدٍ، وابنُ السَّمَّاكِ، وكان ثقةً، توفِّي في رمضانَ منها.

الحسنُ بنُ مُكْرَمِ بنِ حسَّانَ بنِ عليٍّ البزَّارُ، سمع عفَّانَ، وأبا النَّضْرِ، ويزيدَ بنَ هارونَ وغيرَهم، وعنه المَحَامليُّ، وابنُ مَخْلَدٍ، النَّجادُ، وكان ثقَةً. توفِّي في رمضانَ منها عن ثلاثٍ وسبعين سنةً.

خلفُ بنُ محمدِ بنِ عيسى، أبو الحسينِ الواسطيُّ، الملقَّبُ بكُرْدُوسٍ، روَى عن يزيدَ بنِ هارونَ وغيرِه، وعنه المَحَامليُّ، وابنُ مَخْلَدٍ. قال ابنُ أبي حاتمٍ: صدوقٌ. وقال الدَّارَقُطْنيُّ: ثقةٌ. تُوفِّي في ذي الحِجَّةِ منها وقد نيَّفَ على الثمانين.

عبدُ اللهِ بنُ رَوْحِ بنِ عبدِ اللهِ أبو محمدٍ المَدائنيُّ، المعروفُ بعَبْدُوسٍ، روَى عن شَبَابَةَ، ويزيدَ بنِ هارونَ، وعنه المَحَامليُّ، وابنُ السَّمَّاكِ، وأبو بكرٍ الشافعيُّ، وكان من الثِّقاتِ. تُوفِّي في جُمادَى الآخرةِ من هذه السنة.

عبدُ اللهِ بنُ أبي سعدٍ، أبو محمدٍ الورَّاقُ، أصلُه من بلْخَ، وسكَن بَغْدادَ، روَى عن سُرَيْجِ بنِ يونسَ، وعفَّانَ، وعليِّ بنِ الجَعْدِ، وغيرِهم، وعنه ابنُ أبي الدنيا، والبغَويُّ، والمَحَامليُّ، وكان ثقةً صاحبَ أخبارٍ وآدابٍ ومُلَحٍ، تُوفِّي بواسِطٍ في جُمادَى الآخرةِ منها عن سبعٍ وسبعين سنةً.

محمدُ بنُ إسماعيلَ بنِ زيادٍ، أبو عبدِ اللهِ، وقيل: أبو بكرٍ الدُّولَابيُّ، سمع أبا النَّضْرِ، وأبا اليَمانِ، وأبا مُسْهِرٍ، وعنه أبو الحسينِ بنُ المُنادِي، ومحمدُ بنُ مَخْلَدٍ، وابنُ السَّمَّاكِ، وكان ثقةً.

ثم دخلت سنة خمس وسبعين ومائتين

في المحرم منها وقع الخُلْفُ بينَ ابن أبي السَّاج وبينَ خُمارَوَيْه، فاقْتتلا عندَ ثَنيَّة العُقاب شرقيَّ دمشقَ، فغُلِب ابنُ أبي السَّاج وانهزَم، وكانتْ حواصلُه بحِمْصَ، فبعَث خُمارَوَيْه مَن سبَقَه إليها، فأخَذها ومنَع منه حِمْصَ، فذَهَب إلى حَلَبَ، فمنَعه خُمارَوَيْه، فسار إلى الرَّقَّة، فاتَّبعه، فذهَب إلى الموْصل، ثم انهزَم منها خوفًا من خُمارَوَيْه ووَصَل خُمارَوَيْه إلى بَلَد، واتَّخَذ له بها سَريرًا طويلَ القوائم، وكان يجلسُ عليه في الفرات، فعندَ ذلك طمع فيه إسحاقُ بنُ كنداجَ، فسار وراءَه؛ ليظْفَرَ منه بشيء فلم يقدِرْ، وقد التقَيا في بعضِ الأيام، فصَبَر له ابنُ أبي السَّاج صبْرًا عظيمًا، فسلِم وانصرَف إلى أبي أحمدَ الموفَّقِ ببَغْدادَ، فأكرَمه وخلَع عليه واستصْحَبه معه إلى الجبلِ، ورجَع إسْحاقُ ابنُ كنْداجَ إلى ديارِ بَكرٍ ومُضَرَ من الجزيرة.

وفي هذه السنة في شوالٍ منها سجَن أبو أحمدَ الموفقُ ابنَه أبا العباسِ المُعْتَضِدَ في دارِ الإمارة، وكان سببَ ذلك أنَّه أمَره بالمسيرِ إلى بعضِ الوجوهِ، فامتنَع أنْ يسيرَ إلاَّ إلى الشام التي كان عمُّه المعتمدُ ولَّاه إيَّاه، فغضب عليه وأمَر بسَجنه، فثارت الأمراء واختبطَتْ بغدادُ، وركب الموفَّقُ إلى بغدادَ، وقال للناس: أتظُنُّونَ أنَّكم أشفَقُ على ولَدِي منِّي؟ فسكَن الناسُ عندَ ذلك وتراجعوا إلى منازلِهم، ثم أفرَج عنه، ولله الحمدُ والمنةُ.

وفي هذه السنة سار رافعٌ إلى محمدِ بنِ زيدٍ أخي الحسنِ بنِ زيدٍ العَلويِّ، فأخذَ منه مدينةَ جُرْجانَ، فهرَب منه إلى أَسْتَراباذَ فحصَرَه بها سنتين، فغلا بها السِّعْرُ حتى بِيعَ الملْحُ بها وَزْنُ الدِّرهمِ بدرهمين، فهرَب محمدُ بنُ زيدٍ منها ليلاً إلى ساريةَ، ثم أخَذ منه رافعٌ بلادًا كثيرةً بعدَ ذلك في مدةٍ مُتَطاولةٍ.

وفي المحرم منها -أو في صفرٍ- كانتْ وفاةُ **المُنْذرِ بنِ محمدِ بنِ محمدِ بنِ عبدِ الرحمنِ الأُمَويِّ** صاحبِ الأنْدُلسِ عن ستٍّ وأربعينَ سنةً. وكانت ولايتُه سنةً وأحَدَ عشَرَ شهرًا وعشَرَةَ أيام، وكان أسمرَ طويلاً، بوجهه أثرُ جُدَرِيٍّ، جَوادًا مُمدَّحًا، يحبُّ الشعراءَ ويصلُهم بمالٍ كثيرٍ، وخلَّف من الأولادِ ستةَ ذكورٍ، وقامَ بالأمرِ من بعدِه أخوه عبدُ اللهِ بنُ محمدٍ، فامتلأتْ بلادُ الأنْدُلسِ في أيامه فتنًا وشرورًا حتى هلَك، كما سيأتي.

وممَّن توفِّي فيها من الأعيان:

أبو بكر أحمدُ بنُ محمدٍ الحَجَّاجُ المَرُّوذيُّ صاحبُ الإمام أحمدَ، كان من الأئمة الأذكياء، وكان أحمدُ يقدِّمُه على جميع أصْحابه ويأْنَسُ به ويَبْعثُه في الحاجَة ويقولُ: قلْ ما شئتَ. وهو الذي أغْمَض الإمامَ أحمدَ وكان فيمَنْ غسَّله أيضًا، وقد نقَل عن أحمدَ مَسائلَ كثيرةً، وحصَلتْ له رِفْعَةٌ عظيمةٌ، شيَّعه إلى سامَرَّا حينَ أراد الغزوَ خمسون ألفًا.

أحمدُ بنُ محمدِ بنِ غالبِ بنِ خالدِ بنِ مِرْدَاسٍ، أبو عبدِ اللهِ البَاهليُّ البَصْريُّ، المعْروفُ بغلامِ خليلٍ، سكَن بَغْدادَ، وروَىٰ عن سليمانَ بنِ داودَ الشَّاذَكونيِّ، وشَيْبانَ بنِ فَرُّوخَ، وقُرَّةَ بنِ حبيبٍ وغيرِهم، وعنه ابنُ السَّمَّاكِ، وابنُ مَخْلَدٍ وغيرُهما، وقد أنْكَر عليه أبو حاتمٍ وغيرُه أحاديثَ روَاها منْكَرةً عن شُيوخٍ مجهولين، قال أبو حاتمٍ: ولم يكُنْ ممَّن يفْتَعِلُ الحديثَ، كان رجلاً صالحًا. وكذَّبه أبو داودَ وغيرُ واحدٍ. وروَىٰ ابنُ عديٍّ عنه أنَّه اعتَرف بوضْعِ الحديثِ ليُرَقِّقَ به قلوبَ الناسِ. وكان عابدًا زاهدًا يقْتاتُ البَاقلاَّءَ الصِّرْفَ، وحينَ مات أُغْلقتْ أسْواقُ بَغْدادَ وحضَر الناسُ للصلاةِ عليه، ثم حُمِل في زَوْرَقٍ إلى البَصْرةِ فدُفِنَ بها، وكان ذلك في رجَبٍ من هذه السنة.

وأحمدُ بنُ مُلاعِبٍ، روَىٰ عن يحيىٰ بنِ معينٍ وغيرِه، وكان ثقةً دينًا عالمًا فاضلاً، انتشَر به علمٌ كثيرٌ من الحديثِ.

وأبو سعيدٍ الحسنُ بنُ الحسينِ بنِ عبدِ اللهِ السُّكَّريُّ النحْويُّ اللغويُّ، صاحبُ التصانيفِ.

وإسحاقُ بنُ إبراهيمَ بنِ هانئٍ، أبو يعقوبَ النَّيْسابُوريُّ، كان من أخِصَّاءِ أصحابِ الإمامِ أحمدَ، وعندَه اختفَىٰ في زمنِ المحْنَةِ.

وعبدُ اللهِ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ التَّميميُّ العَطَّارُ المَوْصليُّ، قال ابنُ الأثيرِ: كان كثيرَ الحديثِ، مُعَدَّلاً عندَ الحكامِ. ويحيىٰ بنُ أبي طالبٍ.

وأبو داودَ السِّجِسْتانيُّ صاحبُ «السُّنَنِ»، وهو سليمانُ بنُ الأشعثِ بنِ إسحاقَ بنِ بَشيرِ بنِ شدَّادِ ابنِ عمرِو بنِ عمرانَ، أبو داودَ الأزْديُّ السِّجِسْتانيُّ، أحدُ أئمَّةِ الحديثِ الرَّحَّالينَ الجوَّالين في الآفاقِ والأقاليمِ، جمعَ وصنَّف وخرَّج وألَّف، وسمع الكثيرَ عن مشايخِ البُلْدانِ في الشامِ ومصرَ والجزيرةِ والعراقِ وخُراسَانَ وغيرِ ذلك. وله «السُّنَنُ» المشْهُورةُ المُتداوَلةُ بينَ العُلَماءِ، التي قال فيها أبو حامدٍ الغَزاليُّ: يكْفِي المجتهدَ معْرِفَتُها من الأحاديثِ النبويَّةِ. وحدَّث عنه جماعةٌ؛ منهم ابنُه أبو بكرٍ عبدُ اللهِ، وأبو عبدِ الرحمنِ النَّسَائيُّ، وأحمدُ بنُ سلمانَ النَّجَّادُ، وهو آخرُ مَن روَىٰ عنه في الدنيا. سكَن أبو داودَ البصرةَ وقَدِمَ بغدادَ غيرَ مرَّةٍ وحدَّث بكتابِه «السُّنَنِ» بها، ويقالُ: إنَّه صنَّفه بها، وعرَضه على الإمامِ أحمدَ فاسْتَجادَه واسْتَحسنَه.

وقال الخطيبُ البغداديُّ: حدَّثني أبو بكرٍ محمدُ بنُ عليِّ بنِ إبراهيمَ القارِي الدِّيْنَوريُّ، بلفظِه، قال: سمعتُ أبا الحسينِ محمدَ بنَ عبدِ اللهِ بنِ الحسنِ الفرضيَّ، قال: سمعْتُ أبا بكرِ بنِ داسَه يقولُ: سمعتُ أبا داود يقولُ: كتبْتُ عن رسولِ اللهِ ﷺ خَمْسَمائةِ ألفِ حديثٍ، انْتَخَبْتُ منها ما ضمَّنْتُه هذا الكتابَ - يعني كتابَ «السُّنَنِ» - جمعْتُ فيه أرْبَعةَ آلافٍ وثمانمائةِ حديثٍ؛ ذكَرتُ الصحيحَ وما يُشْبِهُه

ويُقارِبُه، ويكفِي الإنسانَ لدينِه من ذلك أربَعَةُ أحاديثَ؛ أحَدُها قولُه عليه السلامُ: «الأعمالُ بالنِّيات»(١). والثاني قولُه: «مِنْ حُسْنِ إسْلامِ المَرْءِ تَرْكُه ما لا يَعْنيه»(٢). والثالثُ قوله: «لا يَكُونُ المُؤْمنُ مؤمنًا حتَّى يَرْضَى لأخيه ما يَرْضَى لنَفسه»(٣). والرابعُ قولُهُ: «الحَلالُ بيِّنٌ، والحَرَامُ بيِّنٌ، وبيْنَ ذلكَ أُمُورٌ مُشْتَبِهاتٌ»(٤). وحُدِّثْتُ عن عبدِ العزيزِ بنِ جعفرٍ الحنبليِّ أنَّ أبا بكرٍ الخَلاَّلَ قال: أبو داودَ سليمانُ بنُ الأشعثِ السِّجِسْتانيُّ الإمامُ المُقَدَّمُ في زَمانِه رجلٌ لم يسبِقْه إلىٰ معرفَته تخْريجَ العُلومِ وبصَرِه بمواضعِه أحدٌ من أهلِ زَمانِه، رجلٌ وَرِعٌ مُقدَّمٌ، قد سمعَ منه أحمدُ بنُ حنبلٍ حديثًا واحدًا كان أبو داودَ يذْكُره، وكان إبراهيمُ الأصْبهانِيُّ وأبو بكرِ بنُ صَدَقَةَ يرْفَعون مِن قدْرِه ويذْكُرونه بما لا يذكرون أحدًا في زَمانِه مِثْلَه. قلتُ: الحديثُ الذي كتَبه عنه وسمِعه منه الإمامُ أحمدُ هو ما رواه مِن حديثِ حَمَّادِ بنِ سَلَمَةَ، عن أبي العُشَراءِ الدَّارِمِيِّ، عن أبيه «أنَّ رسولَ الله ﷺ سُئلَ عن العَتِيرَةِ، فحَسَّنَها»(٥).

وقال إبراهيمُ الحَرْبيُّ وغيرُه: أُلِينَ لأبي داودَ الحديثُ كما أُلِينَ لداودَ الحديدُ. وقال غيرُه: كان أحدَ حُفَاظِ الإسْلامِ للحديثِ وعِلَلِه وسنَدِه، في أعْلىٰ درجةِ النّسكِ والعفافِ والصلاحِ والوَرَعِ، مِن فُرْسانِ الحديثِ. وقال غيرُه: كان ابنُ مسعودٍ يُشبَّهُ بالنبيِّ ﷺ. في هدْيِه ودَلِّه وسَمْتِه، وكان علقمةُ يُشْبِهُه، وكان إبراهيمُ يُشْبِهُ عَلْقَمَةَ، وكان منصورٌ يُشبِهُ إبراهيمَ، وكان سفيانُ يُشْبِهُ منصورًا، وكان وَكيعٌ يشبِهُ سفيانَ، وكان أحمدُ يشبِهُ وَكيعًا، وكان أبو داودَ يُشبه أحمدَ بنَ حنبلٍ.

وقال محمدُ بنُ بكر بن عبد الرَّزَّاق: كان لأبي داودَ كُمٌّ واسعٌ وكُمٌّ ضَيِّقٌ، فقيل له: ما هذا يرحَمُكَ اللهُ؟ فقال: هذا الواسعُ للكُتُبِ، والآخَرُ لا يُحتاجُ إليه.

وقد كان مولِدُ أبي داودَ في سنةِ ثِنْتَيْنِ ومائتَينِ، وتُوفِّي بالبَصْرَةِ يومَ الجمعةِ لأرْبَعَ عشْرَةَ بقِيَتْ مِن شَوَّالٍ سنةَ خمسٍ وسبعينَ ومائتينِ؛ عن ثلاثٍ وسَبْعينَ سنةً، ودُفِنَ إلىٰ جانبِ قَبْرِ سفيانَ الثَّوْرِيِّ.

وقد ذكَرْنا ترْجمتَه في كتابِنا «التَّكْميلِ»، وذكَرْنا ثَناءَ الأئمةِ عليه.

محمدُ بنُ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ أبو العَنْبَسِ الصَّيمَرِيُّ الشاعرُ، كان مُجيدًا في شعرِه، أديبًا، كثيرَ المُلَحِ، وكان هَجَّاءً، ومِن جيِّدِ شعرِه قولُه:

كم مريضٍ قد عاشَ مِن بعدِ يأسٍ … بعدَ موْتِ الطَّبيبِ والعوَّادِ
قد يُصادُ القَطَا فيَنْجُو سليمًا … ويَحُلُّ القضاءُ بالصَّيَّادِ

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم. (٢) حديثه مرسل وفيه كلام طويل.
(٣) أخرجه البخاري (١٣)، بلفظ «لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه».
(٤) أخرجه البخاري (٥٢) ومسلم من حديث النعمان بن بشير.
(٥) أخرجه الخطيب البغدادي (٩/ ٥٧) من طريق عبد الرحمن بن قيس أبي معاوية الزعفراني البصري عن حماد بن سلمة به وعبد الرحمن هذا كذبه ابن معين كما نقله عنه الذهبي في «الميزان» (٢/ ٥٨٣) وأورد الحديث في ترجمته.

ثم دخلت سنة ست وسبعين ومائتين

في المحرَّم منها أُعيدَ عمرُو بنُ الليث إلى شُرْطَة بغدادَ، وكُتب اسمُه على الفُرُشِ والمَقاعدِ والسُّتور، ثم أُسقطَ اسمُه في شوَّالٍ منها، وعُزلَ عن ذلك ووُلِّيَ عبيدُ الله بنُ طاهر.

وفيها ولَّى المُوفَّقُ ابنَ أبي الساج نِيابة أذْرَبيجَانَ. وفيها قصَد هارونُ الشَّاري الخَارجيُّ مدينةَ المَوْصِلِ، فنزَلَ شَرْقِيَّ دجلتِها، فحاصرَها، فخرَج إليه أشرافُ أهلها فاستَأْمَنُوه فأمَّنَهم، ورَجَع عنهم.

وحجَّ بالناسِ في هذه السنة هارونُ بنُ محمدٍ العباسيُّ أميرُ الحرَمَيْن والطائف، ولمَّا رجَع حُجّاجُ اليَمنِ نزَلُوا في بعضِ الأماكنِ، فجاءَهم سَيْلٌ فلم يشعُروا به حتى غرَّقهم كلَّهم، فلم يُفلِتْ منهم أحدٌ، فإنَّا لله وإنا إليه راجعونَ.

وذكَر ابنُ الجوزيِّ في «مُنْتَظَمِه» وابنُ الأثيرِ في «كامله»، أنَّ في هذه السنَة انْفَرجَ تلٌّ في أرضِ البَصْرَة يُعرفُ بتَلِّ بني شَقيقٍ عن سَبْعَة أقْبُرٍ في مثْلِ الحوْضِ، وفيه سبعةٌ، أبدانُهم صحيحةٌ وأكْفانُهم، يفوحُ منهم ريحُ المسْك، أحدُهم شابٌّ له جُمَّةٌ وعلى شفَتَيه بَلَلٌ كأنَّه قد شرِب ماءً، وكأنَّ عيْنَيه مُكَحَّلَتان، وبه ضَرْبةٌ في خاصرَته، وأراد بعضُ مَن حَضَره أن يأخذَ مِن شَعْرِه شيئًا فإذا هو قَويٌّ كشعْرِ الحيِّ.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

أحمدُ بنُ حازمِ ابنِ أبي غرَزَة، الحافظ صاحبُ «المُسْنَد» المشهورِ، له حديثٌ كثيرٌ وروايةٌ عاليةٌ.

وبَقِيُّ بنُ مَخْلَد، أبو عبد الرحمن الأندلسيُّ الحافظُ الكبيرُ، صاحبُ «المُسْنَد» المُبَوَّب على الفقْه، روَى فيه عن ألفٍ وستِّمائة صَحابيٍّ، وقد فضَّله ابنُ حزم على «مُسْنَد» الإمام أحمدَ، وعندي في ذلك نظَرٌ، والظاهرُ أنَّ «مُسْنَدَ أحمدَ» أجْودُ منه؛ فإنه ليس هو ببلادهم، ولا وقَع لهم روايتُه، ولو اطَّلع عليه ووقَف على ما فيه لَمَا فضَّل عليه مُسْنَدًا من المسندات، اللهُمَّ إلا أن يكونَ بَقِيٌّ قد سمع من أحمدَ جميعَ «المسند»، وزاد عليه، كما قد يسَّر اللهُ من الزيادات التي ألحقناها بـ«مسند» الإمام أحمدَ. ولله الحمدُ والمنَّةُ. وقد رحَل بقِيٌّ إلى العراق، فسمع من الإمام أحمدَ وغيرِه من أئمة الحديث بالعراق وغيرها، يزيدونَ على المائتَيْن بأرْبَعة وثمانينَ شيخًا، وله تصانيفُ أُخَرُ، وكان مع ذلك رجلاً صالحًا عابدًا، زاهدًا، مُجابَ الدعوة؛ ذكَر القُشيريُّ أنَّ امرأةً جاءَتْه، فقالتْ: إنَّ ابْني قد أسرَتْه الإفرنْجُ، وإنِّي لا أنامُ الليلَ مِن شوْقي إليه، ولي دُوَيْرَةٌ أُريدُ أنْ أبيعَها لأسْتَفكَّه، فإن رأيْتَ أنْ تَسيرَ إلى أحدٍ يأخذها لأسْعَى في فكاكه، فليس لي ليلٌ ولا نهارٌ، ولا صَبْرٌ ولا قَرارٌ. فقال: نَعم، انْصَرفي حتى ننظُرَ في ذلك إنْ شاء اللهُ. وأطْرَقَ الشيخُ وحرَّك شفَتَيْه يدْعُو اللهَ عزَّ وجلَّ، لولدها بالخَلاصِ، فذهبَت المرأةُ، فما كان إلاَّ عن قليلٍ حتى جاءَت وابْنُها معها، فقالتْ: اسْمَعْ خبرَه

يرْحَمْكَ اللهُ. فقال: كيفَ كان أمرُكَ؟ فقال: إنِّي كنتُ فيمَنْ يخْدُمُ الملكَ، ونحنُ في القُيود، فبَيْنَما أنا ذاتَ يوم أمْشِي إذْ سقَط القَيْدُ مِن رِجْلَيَّ، فأقْبَل المُوَكَّلُ بنا فشتَمَني، وقال: فكَكتَ القيدَ من رِجْليكَ؟ فقلتُ: لا والله ولكنَّه سقَط ولم أشْعُرْ. فجاءُوا بالحَدَّاد فأعاده وشدَّ مِسْمارَه وأيَّدَه، ثم قُمْتُ فسقَط أيضًا، فأعادُوه وأكَّدُوه، فسقَط أيضًا، فسألُوا رُهْبانَهم فقالُوا: له والدةٌ؟ فقلتُ: نعم. فقالوا: إنَّه قد استُجيبَ دُعاؤُها، أطْلِقوه. فأطْلَقُوني وخفَرُوني حتى وصلتُ إلى بلادِ الإسْلام. فسألَه بَقِيُّ بنُ مَخْلَدٍ عن السَّاعَةِ التي سقَط فيها القَيْدُ من رِجْلَيْه، فإذا هي الساعةُ التي دعَا فيها اللهَ له.

صاعدُ بنُ مَخْلد الكاتبُ، كان كثيرَ الصَّدقَة والصلاة، وقد أثْنَى عليه أبوالفَرَج ابنُ الجوزيِّ في «منتظَمِه»، وتكلَّم فيه ابنُ الأثير في «كامله»، وذكَرَ أنَّه كان فيه تِيهٌ وحُمْقٌ، وقد يُمْكِنُ الجمعُ بين القَوْلَيْن وهاتين الصِّفَتَيْن.

ابنُ قُتَيْبَةَ عبدُ الله بنُ مسلم بن قُتَيْبَةَ، أبو محمد الدِّيَنَوَريُّ، ثم البغداديُّ، أحدُ العُلَماء والأُدباء والحُفَّاظ الأذكياء روَىٰ عن إسحاقَ بن راهَوَيْه، وغيرِ واحدٍ، وله التصانيفُ المفيدةُ المشهورةُ الأنيقةُ؛ كـ: «غريب القرآن» و«مشكله» و«المعارف»، و«أدب الكاتب»، و«عيون الأخبار» وغيرِ ذلك، وكان ثقةً نبيلاً جليلاً من الأئمة، وكان أهلُ العلم يتَّهِمُونَ مَن لم يكُنْ في منْزله شيءٌ من تَصانيفه، وكان سبَبَ وفاته أنَّه أكَل لُقْمَةً من هريسة فإذا هي حارَّةٌ، فصاحَ صيحَةً شديدةً، ثم أُغْمي عليه إلى وقت الظهر، ثم أفاقَ ثم لم يزَلْ يتشهَّدُ إلى أنْ ماتَ وقتَ السَّحَر، أوَّلَ ليلةٍ من رجَب، من هذه السنَة، وقيلَ: إنَّه تُوفِّي في سنَة سَبْعينَ ومائتَيْن. والصحيحُ في هذه السنة.

عبدُالملك بنُ محمد بن عبد الله، أبو قِلابَةَ الرَّقاشيُّ، أحدُ الحُفَّاظ، وكان يُكْنَى بأبي محمدٍ، ولكنْ غلَبَ عليه لَقَبُ أبو قلابَةَ. سمِعَ يزيدَ بنَ هارونَ، ورَوْحَ بنَ عُبادَةَ، وأبا داودَ الطَّيالسيَّ وغيرَهم، وعنه ابنُ صاعدٍ والمَحامليُّ والبُخاريُّ وأبو بكر الشافعيُّ وغيرُهم، وكان صدُوقًا عابدًا، يُصلِّي في كلِّ يوم أربعمائةِ ركْعةٍ، وروَىٰ من حفْظه ستِّينَ ألفَ حديثٍ، غلطَ في بعْضها لا على سبيل العَمْد، وكانتْ وفاتُه في شوَّال من هذه السنة عن ستٍّ وثمانينَ سنَةً.

ومحمدُ بنُ أحمدَ بن أبي العوَّام، **ومحمدُ** بنُ إسماعيلَ الصَّائغُ، **ويزيدُ** بنُ عبد الصمد، **وأبو الرَّدَّاد المُؤَذِّنُ**، وهو عبدُ الله بنُ عبد السلام بن عبد الله بن الردَّاد، المُؤَذِّنُ صاحبُ المقياس بمصْرَ، الذي هو مُسَلَّمٌ إليه وإلى ذُرِّيَّته إلى يوْمنا هذا. قاله القاضي ابنُ خَلِّكان في «الوفيات».

ثم دخلت سنة سبع وسبعين ومائتين

فيها خطَبَ يا زمانُ نائبُ طرَسوسَ لخُمارَوَيْه؛ وذلك أنَّه هاداه بذهبٍ كثير وتُحَفٍ هائلة من حرير وغير ذلك.

وفيها قَدِمَ قائدٌ عظيمٌ من أصْحاب خُمارَوَيْه إلى بغدادَ.

وفيها وَلِيَ المظالمَ ببغدادَ يوسفُ بنُ يعقوبَ، ونُودِي في الناسِ: مَن كانتْ له مَظْلَمَةٌ ولو عندَ الأميرِ الناصرِ لدينِ اللهِ أبي أحمدَ الموفَّقِ، أو عندَ أحدٍ من الناسِ فَلْيَحْضُرْ.

وسارَ في الناسِ سيرةً حسنةً، وأظهرَ صرامَةً لم يُرَ مثلُها.

وحجَّ بالناسِ هارونُ بنُ محمدٍ الهاشميُّ.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

إبراهيمُ بنُ إسحاقَ بنِ أبي العَنْبَسِ أبو إسْحاقَ الكُوفيُّ قاضي بَغْدادَ بعدَ ابنِ سَماعَةَ. سمعَ يَعْلَى ابنَ عُبيدٍ وغيرَه، وحدَّثَ عنه ابنُ أبي الدنيا وغيرُه. تُوفِّي عن ثلاثٍ وتسعينَ سنةً، وكان ثقةً فاضلاً دَيِّنًا صالحًا.

أحمدُ بنُ عيسى أبو سعيد الخَرَّازُ، أحدُ مشاهيرِ الصوفيَّةِ بالعبادةِ والمجاهَدةِ والورَعِ والمُراقَبةِ، وله تصانيفُ في ذلك، وله كَرَاماتٌ وأحْوالٌ وصَبْرٌ على الشدائدِ وضيقِ الحالِ. وروَىٰ عن إبراهيمَ بنِ بشَّارٍ صاحبِ إبراهيمَ بنِ أدهمَ وغيرِه، وعنه عليُّ بنُ محمدٍ المصريُّ وجماعةٌ.

ومن جيِّدِ كلامِه قولُه - رحمه اللهُ -: إذا بَكَتْ أعْيُنُ الخائفين، فقدكاتَبوا اللهَ بدُموعِهم. وقولُه: العافيةُ تَسْتُرُ البَرَّ والفاجرَ، فإذا جاءتِ البلوىٰ تَبَيَّن عندَها الرجالُ. وقولُه: كلُّ باطنٍ يُخالفُه ظاهرٌ فهو باطلٌ. وقولُه: الاشْتغالُ بوقْتٍ ماضٍ تَضْيِيعُ وقْتٍ حاضرٍ. وقولُه: ذُنوبُ المُقَرَّبِينَ حسَناتُ الأبرارِ. وقال: الرِّضا قبلَ القَضاءِ تفْويضٌ، والرِّضا مع القَضاءِ تسْليمٌ.

وقد روَىٰ البَيْهَقيُّ بسنَدِه إليه أنَّه سُئِلَ عن قولِ النبيِّ ﷺ: «جُبِلَتِ القُلُوبُ على حُبِّ مَنْ أحسَنَ إليها». فقال: يا عجبًا لمَنْ لم يَرَ مُحْسِنًا غيرَ اللهِ، كيف لا يميلُ إليه بكُلِّيَّتِه؟! قلتُ: وهذا الحديثُ ليس بصحيحٍ، ولكنَّ كلامَه عليه أحْسَنُ.

وقال ابنُه سعيدٌ: طلَبْتُ من أبي دانِقَ فضَّةٍ، فقال: يا بُنَيَّ، اصْبِرْ فلو أحبَّ أبوكَ أنْ يركَبَ المُلوكُ إلى بابِه ما تأَبَّوا عليه.

وروَىٰ الحافظُ ابنُ عساكرَ عنه قال: أصابَني مرَّةً جُوعٌ شديدٌ فهمَمْتُ أن أسألَ اللهَ طَعامًا، فقلتُ: هذا يُنافي التَّوَكُّلَ، فهمَمْتُ أن أسألَه صبرًا، فهتَفَ بي هاتفٌ يقولُ:

ويزعُمُ أنَّه منَّا قريبٌ ... وأنَّا لا نُضيِّعُ مَن أتانا

ويسألُنا القِرَىٰ جُهْدًا وصَبْرًا ... كأنَّا لا نَراهُ ولا يَرانا

قال: فقمتُ ومشيتُ فَراسخَ بلا زادٍ.

وقال أبو سعيد الخرَّازُ: المحبُّ يَتعلَّلُ إلى محبوبِه بكلِّ شيءٍ، ولا يَتسلَّىٰ عنه بشيءٍ، يتَّبعُ آثارَه، ولا يَدَعُ استخبارَه، ثم أنشدَ:

أُسائلُكم عنها فهل من مُخَبِّرٍ ... فما لي بنُعْمَى بعدَ مكَّتنا علمُ

فلوْ كنتُ أدري أينَ خيَّمَ أهلُها ... وأيَّ بلادِ اللهِ إذ ظَعَنُوا أمُّوا

إذًا لَسَلَكْنا مَسْلَكَ الرِّيحِ خلفَها ... ولو أصبحتْ نُعْمَى ومن دونِها النَّجْمُ

وكانت وفاتُه في هذه السنة. وقيل: في سنة سَبْعٍ وأربعينَ. وقيل: في سنة ستٍّ وثمانينَ. والأوَّلُ أصحُّ.

عيسى بنُ عبد الله بن سنان بن دَلُّوَيْه بن موسى الطَّيالسيُّ الحافظُ، يُلَقَّبُ: زَغاث، سمع عَفَّانَ وأبا نُعَيْم، وعنه أبو بكر الشافعيُّ وغيرُ واحد، ووثَّقَه الدَّارَقُطْنيُّ. كانت وفاتُه في شَوَّالٍ من هذه السنة عن أربعٍ وثمانين سنةً.

أبو حاتم الرَّازيُّ محمدُ بنُ إدْريسَ بن المُنْذر بن داودَ بن مِهْرانَ، أبو حاتم الحَنْظَليُّ الرازيُّ، أحدُ أئمة الحُفَّاظ الأثبات العارفينَ بعِلَلِ الحديث والجرح والتعديل، وهو قَرينُ أبي زُرْعَة الرازيِّ، تغمَّدهما اللهُ برحمته، سمع الكثيرَ وطافَ الأقطارَ والأمصارَ، وروَىٰ عن خلقٍ من الكبار، وحدَّث عنه الرَّبيعُ بنُ سُلَيمانَ، ويونسُ بنُ عبد الأعلىٰ، وهما أكبرُ منه، وقَدِمَ بَغْدادَ فحدَّثَ بها، وروَىٰ عنه من أهْلِها إبْراهيمُ الحَرْبيُّ، وابنُ أبي الدُّنْيا، والمَحَامليُّ وغيرُهم.

قال لابْنه عبد الرحمن: يا بُنَيَّ، مشيْتُ علىٰ قدَمَيَّ في طلَب الحديث أكثرَ من ألف فَرْسَخ. وذُكرَ أنَّه لم يكُنْ له شيءٌ يُنفِقُ عليه في بعض الأحيان، وأنَّه مكَثَ ثلاثًا لا يأكُلُ شيئًا حتى استَقْرَضَ من بعض أصْحابِه نصْفَ دينار. وقد أثْنَىٰ عليه غيرُ واحدٍ من العُلَماء والفُقَهاء.

وكان يتحدَّىٰ مَن حضَر عندَه من الحُفَّاظ وغيرهم، ويقولُ: مَن أغْرَبَ عليَّ بحديثٍ واحدٍ صحيحٍ فله عليَّ درْهمٌ أتَصدَّقُ به. قال: ومُرادي أن أسمَعَ ما ليْسَ عندي، فلم يأتِ أحدٌ بشيءٍ من ذلك. وكان في جملة مَن حضَرَ ذلك أبو زُرْعَةَ الرازيُّ.

كانتْ وفاةُ أبي حاتم في شعبانَ من هذه السَّنَة.

محمدُ بنُ الحسين بن مُوسَى بن الحسَن أبو جَعْفَر الكُوفيُّ الخَزَّازُ المعْروفُ بالحُنَينيِّ، له مُسْنَدٌ كبيرٌ، روَىٰ عن عُبَيْد الله بن مُوسىٰ، والقَعْنَبيِّ، وأبي نُعَيْم، وغيرِهم، وعنه ابنُ صاعدٍ، والمَحَامليُّ وابنُ السَّمَّاك، وكان ثقةً صدُوقًا

محمدُ بنُ سعدانَ أبو جعْفَر البزازُ، سمعَ من أكثرَ من خَمْسمائة شيخ، ولكنْ لم يُحدِّثْ إلاَّ باليَسير، وتُوفِّي في شعبانَ منها. قال ابنُ الجَوْزيِّ: وثَمَّ محمدُ بنُ سعدانَ البَزَّازُ، عن القَعْنَبيِّ، وهو غيرُ مشْهورٍ، ومحمدُ بنُ سعدانَ النحويُّ مشْهورٌ. تُوفِّي في سنَة إحْدَىٰ وثلاثين ومائتين.

قال ابنُ الأثير في «كامله»: وتوفِّي فيها **يعْقُوبُ بنُ سُفْيانَ** بن جُوَانَ الإمامُ الفَسَويُّ، وكان يتشَيَّعُ. ويَعْقُوبُ بنُ يُوسُفَ بن مَعْقِلٍ الأمَويُّ مَوْلاهُم، والدُ أبي العباس أحمدَ الأصَمِّ. عُرَيبُ المُغَنِّيةُ المأْمونيَّةُ، قيل: إنَّها ابنةُ جعفَر بن يحْيَىٰ البَرْمَكيِّ. فأمَّا **يعقوبُ بنُ سُفْيانَ بن جُوَانَ** فهو أبو يُوسُفَ بنُ أبي مُعاويَةَ الفارسيُّ الفَسَويُّ، سمعَ الحديثَ الكثيرَ، وروَىٰ عن أكثرَ من ألف شيخ من الثِّقات؛ منهم هشامُ بنُ عمَّارٍ، ودُحَيْمٌ، وأبو الجُماهِر، وسُلَيمانُ بنُ عبد الرحمن الدمشقيون، وسعيدُ بنُ منصورٍ، وأبو عاصمٍ، ومَكِّيُّ بنُ إبْراهيمَ، وسُلَيمانُ بنُ حَرْبٍ، ومحمدُ بنُ كثيرٍ، وعُبَيْدُ الله بنُ

موسى، والقَعْنَبيُّ. وروىٰ عنه النَّسائيُّ في «سُنَنِه»، وأبو بكرٍ ابنُ أبي داودَ والحسَنُ بنُ سُفْيانَ، وابنُ خِراشٍ، وابنُ خُزَيْمَةَ وأبو عَوانَةَ الإسْفِرايِيني وخلقٌ سواهم، وصنَّفَ كتابَ «التاريخِ والمعرفةِ»، وغيرَه من الكتبِ المُفيدةِ النافعةِ، وقد رحَل في طَلَبِ الحديثِ إلى البلدانِ النائيةِ، وتغرَّبَ عن وطَنِه في ذلك نحوَ ثلاثينَ سنةً، وقد روىٰ ابنُ عساكرَ عنه أنَّه قال: كنتُ أكتُبُ في الليلِ على ضوءِ السِّراجِ في زَمنِ الرِّحلةِ، فبَيْنا أنا ذاتَ ليلةٍ إذ وقَع شيءٌ على بصَري فلم أُبصِرْ معه السِّراجَ، فجعَلْتُ أبْكي على ما فاتَني من ذَهابِ بصَري، وما يفُوتُني بسبَبِ ذلك من كتابةِ حديثِ رسولِ الله ﷺ، وما أنا فيه من الغُربَةِ، ثم غلَبَتْني عيْني فنِمْتُ، فرأيتُ رسولَ الله ﷺ في المنامِ. فقال: مالَكَ؟ فشكَوْتُ إليه ما أنا فيه من الغُرْبَةِ، وما فاتَني من كتابةِ السُّنَّةِ. فقال: «ادْنُ منِّي»، فدَنَوْتُ منه، فوضَع يدَه على عيْني، وجعَل كأنَّه يقرأُ شيئًا من القرآنِ، ثم استَيقظتُ فأبصَرْتُ وجلَسْتُ أُسبِّحُ اللهَ.

وقد أثْنَىٰ عليه أبو زُرْعَةَ الدِّمَشْقيُّ، والحاكمُ أبو عبدِ الله النَّيْسابُوريُّ وقال: هو إمامُ أهلِ الحديثِ بفارسَ، وقَدِمَ نَيْسابُورَ وسمعَ منه مَشايخُنا، وقد نسبَه بعضُهم إلى التَّشيُّعِ. وذكَر ابنُ عساكرَ أنَّ يَعْقُوبَ بنَ اللَّيْثِ صاحبَ فارسَ بلَغَه عنه أنَّه يتكلَّمُ في عُثْمانَ بنِ عفَّانَ، فأمَر بإحضارِه، فقال له وزيرُه: أيُّها الاميرُ، إنَّه لا يتكلَّمُ في شيْخِنا عُثْمانَ بنِ عفَّانَ السِّجْزيِّ، إنما يتكَّلمُ في عُثْمانَ بنِ عفَّانَ الصَّحابيِّ. فقال: دَعُوه ما لي وللصَّحابةِ، إنِّي إنَّما حَسِبْتُه يتكلَّمُ في شيْخِنا عُثْمانَ بنِ عفَّانَ السِّجْزيِّ.

قلتُ: وما أظنُّ هذا صحيحًا عن يَعْقُوبَ بنِ سُفْيانَ، فإنَّه إمامٌ مُحدِّثٌ كبيرُ القَدْرِ، وقد كانت وفاتُه قبلَ أبي حاتمٍ بشَهْرٍ في رجَبٍ من هذه السنةِ بالبَصْرَةِ، رحِمه اللهُ. وقد رآه بعضُهم في المنامِ فقال: ما فَعَل بك ربُّكَ؟ فقال: غفَرَ لي وأمَرني أن أُمْليَ الحديثَ في السماءِ كما كنتُ أُمْليه في الأرضِ، فجلَسْتُ للإمْلاءِ في السماءِ الرابعةِ، وجلَسَ حوْلي جماعةٌ من الملائكةِ؛ منهم جِبْريلُ يكتُبون ما أُمْليه من الحديثِ بأقلامِ الذهبِ.

وأما عُرَيبُ المأْمُونيَّةُ فقد ترْجَمها الحافظُ ابنُ عساكرَ في «تاريخِه» وحكَىٰ قولاً لبعضِهم أنَّها ابنةُ جَعْفَرِ بنِ يحيىٰ بنِ خالدٍ البَرْمَكيِّ، سُرِقتْ وهي صغيرةٌ عندَ ذَهابِ دَوْلَةِ البَرامكَةِ، وبِيعَتْ فاشْتَراها المأْمُونُ بنُ الرشيدِ، ثم روىٰ عن حمَّادِ بنِ إسْحاقَ، عن أبيه، أنَّه قال: ما رأيْتُ امْرأةً قطُّ أحسَنَ وجْهًا، وأدبًا وغناءً وضَرْبًا وشعرًا ولَعِبًا بالشِّطْرَنْجِ والنَّرْدِ منها، وما تشاءُ أنْ تجِدَ خَصْلَةً حسَنَةً طريفةً بارعةً في امْرأةٍ إلاَّ وجَدْتَها فيها. وقد كانتْ شاعرةً مُطْبِقةً فصيحةً بليغةً، وكان المأمونُ يتَعَشَّقُها، ثم أحبَّها بعدَه المُعْتَصِمُ، وكانت هي تتعشَّقُ لرجلٍ يقالُ له: محمدُ بنُ حامدٍ، وربَّما أدخلَتْه إليها في دارِ الخلافةِ، قبَّحها اللهُ، على ما ذكَره ابنُ عساكرَ عنها في «تاريخِه»، ثم تعشَّقَتْ صالحًا المُنْذريَّ، وتزوَّجَتْه سرًّا، وكانت تقولُ فيه الشعرَ، وربَّما غنَّتْه بينَ يدَي المُتوكِّلِ وهو لا يشْعُرُ فيمَنْ هو، فتَضْحَكُ جواريه من ذلك فتقولُ: يا سَحَّاقاتُ، هذا خيرٌ من عَمَلِكُنَّ. وقد أوْرَدَ ابنُ عساكرَ شيئًا كثيرًا من

شعرها، فمن ذلك قولُها لمَّا دخلَتْ على المتوكِّل تعودُه من حُمَّى أصابتْه فقالت:

أتوني فقالوا بالخليفة علَّةٌ ... فقلتُ ونارُ الشوقِ تُوقَدُ في صدري
ألا ليتَ بي حُمَّى الخليفة جعفرٍ ... فكانتْ بيَ الحُمَّى وكان له أجري
كفى حزنًا إنْ قيلَ حُمَّ فلم أمُتْ ... من الحزنِ إنِّي بعدَ هذا لذو صبرِ
جُعلتُ فداءً للخليفة جعفرٍ ... وذاكَ قليلٌ للخليفةِ من شُكرِ

ولمَّا عُوفي دخلَتْ عليه فغنَّتْه من قِيلها:

شُكرًا لأنعُمِ مَن عافاكَ من سَقَمِ ... دُمْتَ المُعافى من الآلامِ والسَّقَمِ
عادتْ بنورك للأيامِ بهجتُها ... واهتزَّ نَبْتُ رياضِ الجودِ والكَرَمِ
ما قامَ للدِّينِ بعدَ المصطفى مَلِكٌ ... أعفُّ منكَ ولا أرعَى على الذِّمَمِ
فعَمَّرَ اللهُ فينا جعفرًا ونَفَى ... بنُورِ سُنَّتِهِ عنَّا دُجَى الظُّلَمِ

ولها في عافيته أيضًا:

حَمِدْنا الذي عافَى الخليفةَ جعفرًا ... على رغمِ أشياخِ الضَّلالةِ والكُفرِ
وما كانَ إلاَّ مثلَ بدرٍ أصابَهُ ... كسوفٌ قليلٌ ثم أجلَى عنِ البدرِ
سلامتُهُ للدِّينِ عزٌّ وقوَّةٌ ... وعلَّتُهُ للدِّينِ قاصمةُ الظهرِ
مرِضْتَ فأمرَضْتَ البريَّةَ كلَّها ... وأظلَمَتِ الأمصارُ من شدَّةِ الذُّعْرِ
فلمَّا استبانَ الناسُ منكَ إفاقةً ... أفاقُوا وكانُوا كالنِّيامِ على الجَمْرِ
سلامةُ دُنيانا سلامةُ جعفرٍ ... فدامَ مُعافَى سالمًا آخرَ الدَّهرِ
إمامٌ يعُمُّ الناسَ بالفضلِ والتُّقَى ... قريبًا منَ التَّقوى بعيدًا من الوِزرِ

ولها من الأشعارِ الرائقة شيءٌ كثيرٌ، وفيما ذكَرنا كفايةٌ، واللهُ الموفِّقُ للصواب.

قال ابنُ عساكرَ: بلَغني أنَّ مولدَها في سنة إحدَى وثمانينَ ومائةٍ، وتُوفِّيت سنَةَ سَبْعٍ وسبْعينَ ومائتَيْنِ بسُرَّ مَنْ رَأى، ولها ستٌّ وتسْعُونَ سنةً.

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين ومائتين

قال ابنُ الجَوْزيِّ: في المحرمِ من هذه السنةِ طلَع نجمٌ ذو جُمَّةٍ، ثم صارَتِ الجُمَّةُ ذُؤابَةً. قال: وفي هذه السنَةِ غارَ ماءُ النيلِ، وهذا شيءٌ لم يُعْهَدْ مثلُه ولا بلغَنا في الأخبارِ السالفة، فغلَتِ الأسْعارُ بمصرَ بسبَبِ ذلك جدًّا. قال: وفيها خُلعَ علَى عبدِ الله بنِ سُليمانَ بنِ وهبٍ بالوزارة. وقال: في المحرم منها قَدِمَ المُوَفَّقُ أبو أحمدَ من الغَزْوِ فتلقَّاه الناسُ إلى النَّهْرَوانِ فدخَل بَغْدادَ وهو مريضٌ بالنِّقْرِسِ، فاستَمرَّ في داره في أوائلِ صفَرٍ، وماتَ بعدَ أيامٍ كما ستأتي ترجمتُه في هذه السنة. قال ابنُ الجوزيِّ: وفي هذه السنة تحرَّكتِ القَرَامطةُ، قبَّحهم اللهُ، وهم فِرْقَةٌ منَ الزَّنادقةِ المَلاحدَةِ أتْباعِ الفَلاسفةِ من

الفُرْسِ الذين يَعْتَقِدُونَ نُبُوَّةَ زَرَادِشْتَ ومَزْدَكَ، وكانا يُبِيحانِ المُحرَّماتِ. ثم هم بعدَ ذلك أتباعُ كلِّ ناعقٍ إلى باطلٍ، وأكثرُ ما يَدخلون من جهةِ الرَّافضة، لأنَّهم أقلُّ الناسِ عندَهم وعندَ غيرِهم عقولاً، ويقالُ لهم: الإسْماعيليةُ؛ لانتسابِهم إلى إسْماعيلَ الأعْرجِ بنِ جَعْفَرٍ الصَّادقِ. ويقالُ لهم: القَرامطةُ، قيلَ: نسْبَةً إلى قِرْمِطَ بن الأشعثِ البَقَّارِ. وقيلَ: إنَّ رئيسَهمْ كان في أوَّلِ دعْوَتِه يأمُر مَن اتَّبعه بخَمْسينَ صلاةً في كلِّ يومٍ وليلةٍ ليَشْغَلَهم بذلك عمَّا يريدُ تدبيرَه من المَكيدَةِ. ثم اتَّخذَ نُقَباءَ اثْنَيْ عشَرَ، وأسَّسَ لأتباعه دعوةً ومَسْلكًا، ودعَا إلى إمامٍ من أهلِ البيت.

ويقالُ لهم: الباطنيَّةُ؛ لأنَّهم يُظهِرُونَ الرَّفْضَ ويُبْطِنُونَ الكُفْرَ المَحْضَ. والخُرَّميَّةُ والبابَكيَّةُ، نسْبَةَ إلى بابَكَ الخُرَّميِّ الذي ظهَر في أيامِ المُعْتصمِ فلمْ يَزلْ يبعثُ خلفَه الجيوشَ حتى جيءَ به أسيرًا فقتَله كما ذكَرنا فيما سبَق. ويقالُ لهم: المُحَمِّرَةُ؛ نسْبَةً إلى صبغِ الحُمْرَةِ شعارًا، مُضاهاةً لسوادِ بني العباسِ ويقالُ لهم: التَّعْليميَّةُ؛ نسْبَةً إلى التعلُّم من الإمامِ المعْصومِ، وتَرْكِ الرأيِ ومُقْتَضى العقلِ. ويقالُ لهمْ: السبْعيَّةُ؛ نسْبَةً إلى القولِ بأنَّ الكواكبَ السبْعَةَ المُتَحَيِّزَةَ السَّيَّارةَ مُدبِّرَةٌ لهذا العالمِ فيما يزْعُمونَ، لعنَهم اللهُ. وهي القمرُ في الأولَى، وعُطارِدُ في الثانيةِ، والزُّهَرَةُ في الثالثةِ، والشمسُ في الرابعةِ، والمِرِّيخُ في الخامسةِ، والمُشْتَري في السادسةِ، وزُحَلُ في السابعةِ.

قال ابنُ الجوزيِّ: وقد بَقِي من البابَكيَّةِ جماعةٌ يقالُ: إنَّهم يجتَمعُونَ في كلِّ سنَةٍ ليلةً هم ونساؤهم، ثم يُطفئُونَ المصْباحَ وينْتَهِبُونَ النساءَ، فمَنْ وقَع في يده امْرأةٌ حلَّتْ له. ويقُولون: هذا اصْطيادٌ مُباحٌ. لعنَهم اللهُ. وقد بسَط أبو الفرجِ ابنُ الجوزيِّ في هذا الموضعِ من تاريخِه المسمَّى «بالمنتَظَم» تفصيلَ قولِهم، لعنَهم اللهُ، وقد سبَقَه إلى ذلك القاضي أبو بكرٍ الباقلانيُّ المُتكلِّمُ المشْهورُ في كتابِه «هتْك الأستارِ وكشْف الأسْرارِ» في الرَّدِّ على الباطنيَّةِ، وردَّ على كتابِهم الذي جمَعه بعضُ قُضاتِهم بديارِ مصْرَ في أيامِ الفاطميِّينَ الذي سمَّاه «البَلاغَ الأعْظَمَ والنامُوسَ الأكبرَ» جعَله ستَّ عشْرَةَ درجةً، أوَّلُ درجةٍ أنْ يَدْعوَ مَن يجتَمعُ به أوَّلاً - إنْ كان من أهلِ السُّنَّةِ - إلى القولِ بتَفْضيلِ عليٍّ علَى عُثْمانَ، ثم يَنْتقلُ إذا وافقَه على ذلك إلى تفضيلِ عليٍّ على الشيْخَيْنِ أبي بكرٍ وعمرَ، ثم يترَقَّى بعد ذلك إلى سَبِّهما لأنَّهما ظلَمَا عليًّا وأهلَ البيتِ، ثم يتَرقَّى به إلى تجْهيلِ الأمَّةِ وتخْطئتِها في مُوافَقَةِ أكثرِهم على ذلك، ثم يشْرَعُ في القَدْحِ في دينِ الإسْلامِ من حيثُ هو. وقد ذكَر لمُخاطَبَته لمنْ يريدُ أنْ يُخاطبَه بذلك شُبَهًا وضَلالاتٍ، لا تروجُ إلاَّ على كلِّ غبيٍّ جاهلٍ شقيٍّ. كما قال تعالَى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٧-٩] أي يَضِلُّ به مَن هو ضالٌّ. وقال تعالَى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ۝ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦١-١٦٣] وقال تعالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣] والآيات في هذا المعنى كثيرةٌ، ومضمونُها أنَّ الجهلَ والضَّلالَ لا ينْقادُ

لها إلاَّ شِرارُ الناس كما قالَ بعضُ الشعراء:

إنْ هوَ مُستحوذًا على أحدٍ إلاَّ على أضعفِ المجانينِ

ثم بعدَ هذا كلّه لهم مَقاماتٌ في الكفرِ والجهلِ والسَّخافَةِ والرعونةِ ما لا ينْبَغِي لضعيفِ عَقْلٍ أو دينٍ أو تصورِ سماعُه، مما فتَح عليهم إبْليسُ مِن الأبوابِ وأنْواعِ الجهالاتِ، ورُبَّما أفادَ بعضُهم إبْليسَ أشْياءَ لم تكُنْ عنده كما قال بعضُهم:

وكنتُ امْرأً من جُندِ إبْليسَ برْهةً منَ الدهرِ حتى صارَ إبْليسُ مِن جُنْدِي

والمقْصودُ أنَّ هذه الطائفةَ تحرَّكتْ في هذه السنة، ثم استَفحَل أمرُهم وتَفاقَمَ الحالُ بهم، على ما سنذْكُرُه، حتى آلَ الحالُ إلى أنْ دخَلُوا المسجدَ الحرامَ فسفَكُوا فيه دماءَ الحجيجِ في وَسَطِ المسجد حولَ الكَعْبَةِ المكرمة وكسَرُوا الحَجَرَ الأسْوَدَ واقْتلَعُوه مِن موْضعه، وذهَبُوا به إلى بلادهم في سنَةِ سَبْعَ عشْرَةَ وثلاثمائة، ثم لم يزَلْ عندَهم إلى سنة تسْعٍ وثلاثينَ وثلاثمائة، فمكثَ غائبًا عن موْضعه ثنْتَيْنِ وعشْرينَ سنَةً، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

واتَّفَقَ في هذه السنَة شَيْئان؛ أحدُهما ظهورُ هؤلاء، والثاني موْتُ حُسامِ الإسلامِ وناصرِ الدينِ أبي أحمدَ المُوَفَّقِ، تغمدَّه اللهُ برحمته، وأسكنه بحبوحةَ جنَّته بمَنِّه وكرمه، لكن أبقَى اللهُ للمسلمينَ بعدَه ولدَه أبا العبَّاسِ أحمدَ بنَ الموفقِ المُلَقَّبَ بالمُعْتَضِد. وكان شَهْمًا شُجاعًا فاتكًا كريمًا جوادًا مُمَدَّحًا.

وهذه ترْجَمةُ أبي أحمدَ المُوَفَّقِ رحمه اللهُ:

هو الأميرُ الناصرُ لدينِ اللهِ المُوَفَّقُ بالله أبو أحمدَ محمدٌ طلْحَةُ بنُ المُتَوكِّلِ على الله جَعْفَرِ بنِ محمدٍ المُعْتَصِمِ بنِ هارونَ الرشيد، كان مولِدُه في يومِ الأرْبعاء لليْلَتَيْنِ خلَتَا مِن ربيعٍ الأوَّلِ سنَةَ تسْعٍ وعشْرينَ ومائتَيْنِ، وكان أخوه المُعْتَمِدُ حينَ صارَت إليه الخلافةُ قد عهِدَ إليه بالولاية بعدَ أخيه جعْفَرٍ، ولَقَّبَه المُوَفَّقَ بالله، ثم لمَّا قتَل صاحبَ الزَّنْجِ وكسَر جيشَه تلَقَّبَ بناصرِ دينِ الله، وصارَ إليه العَقْدُ والحَلُّ والولايةُ والعَزْلُ، وإليه يُجْبَى الخَراجُ. وكان يُخطَبُ له على المنابرِ، فيُقالُ: اللَّهُمَّ أصْلِح الأميرَ الناصرَ لدينِ الله أبا أحمدَ المُوَفَّقَ بالله وَلِيَّ عَهْدِ المسلمينَ أخا أميرِ المؤمنينَ. ثم اتفقَ موتُه قبلَ أخيه المُعْتَمِدِ بستَّةِ أشهرٍ، رحمه اللهُ. وكان غزيرَ العَقْلِ حسَنَ التَّدْبيرِ كريمًا جوادًا مُمَدَّحًا شجاعًا مقدامًا رئيسًا، حسَنَ المحادثة والمجالسة عادلاً حسَنَ السيرة، يجْلِسُ للمَظالمِ وعندَه القُضاةُ فيُنْصِفُ المظلومَ مِن الظالمِ، وكان عالمًا بالأدَبِ والنَّسَبِ والفِقْهِ وسياسَةِ المُلْكِ، وغيرِ ذلك، وله مَحاسنُ ومآثرُ كثيرةٌ جدًّا.

وكان سببَ موْتِه أنَّه أصابَه مرضُ النِّقْرِسِ في السفَرِ، ثم قَدِمَ إلى بَغْدادَ وهو عليلٌ فاستَقَرَّ في داره في أوائلِ صفَرٍ، وقد تزايدَ به المرضُ وتورَّمَتْ رِجْلُه حتى عظُمَتْ جدًّا، وكان يوضَعُ عليها الأشْياءُ

المُبَرِّدَةُ كالثلج ونحوِه، وكان يَحْمِلُ سَرِيرَه، أربَعُون رجلاً بالنَّوْبةِ، عشرونَ عشرونَ. فقالَ لهم ذاتَ يوم ما أظُنُّكُم إلاَّ قد مَلِلْتُمْ فيَا ليتني كواحدٍ منكم آكُلُ كما تأكلونَ، وأشْرَبُ كما تشرَبُون وأرقدُ كما ترقدون، في عافيَةٍ. وقال أيضًا: في ديواني مائةُ ألفِ مُرْتَزِقٍ ليس فيهم أسْوأُ حالاً منِّي. ثم كانت وفاتُه في القَصْرِ الحُسَيْنِيِّ ليلةَ الخميس لثمانٍ بقين من صفر. قال ابنُ الجوْزيّ: وله سَبْعٌ وأربَعُونَ سنةً تنْقُصُ شهرًا وأيامًا.

ولمَّا تُوفِّي أبو أحمدَ الموفقُ، اجْتَمَعَ الأُمَراءُ على أخذِ البَيْعَةِ بولايةِ العهدِ من بعدِه لولَدِه أبي العبَّاسِ أحمدَ، فبايعَ له المُعْتَمِدُ بولايةِ العهدِ بعدَ ابنِه المفوَّضِ، وخُطِبَ له على المنابرِ بعدَ المفوَّضِ. وجعَل إليه ما كان إلى أبيه من الولايَةِ والعَزْلِ والقَطْعِ والوَصْلِ والعقدِ والحَلِّ، ولُقِّبَ المُعْتَضِدَ بالله.

وممَّن تُوفِّي فيها أيضًا:

إدْرِيسُ بنُ سُلَيْم الفَقْعَسِيُّ المَوْصِليُّ، قال ابنُ الأثيرِ: وكان كثيرَ الحديثِ والصَّلاحِ. **إسْحاقُ بنُ كِنداجَ** نائبُ الجزيرةِ، وكان من ذَوِي الرأيِ الشُّجعانِ المشهورين، وقامَ بما كان إليه ولَدُه محمدٌ. **ويازمانُ** نائبُ طَرَسُوسَ جاءَه حَجَرُ مَنْجنيقٍ من بَلْدَةٍ كان يُحاصِرُها ببلادِ الرومِ، فماتَ منه، وذلك في رجَبٍ من هذه السنَةِ، ودُفِنَ بطَرَسُوسَ، فوَلِيَ نيابةَ الثَّغْرِ بعدَه أحمدُ العُجَيفيُّ بأمْرِ خُمارَوَيْه بن أحمدَ بنِ طُولُونَ، ثم عزَلَه عن قريبٍ بابنِ عمِّه موسَى بن طُولُونَ. **وعبدةُ** بنُ عبدِ الرحيم قبَّحَه اللهُ. ذكَر ابنُ الجوْزيِّ في «المنتظَم» أنَّ هذا الشقيَّ كان من الذين يجاهدون كثيرًا في بلادِ العدوِّ، فلمَّا كان في بعْضِ الغَزَواتِ والمسلمونَ مُحاصِرُون لبلدةٍ من بلادِ الرومِ، إذْ نظَرَ إلى امْرأةٍ في ذلك الحِصْنِ فهَوِيَها، فراسَلَها: وما السبيلُ إليْك. فقالَتْ: أنْ تَتَنصَّرَ وتَصْعَدَ إليَّ، فأجابَها إلى ذلك، قبَّحه اللهُ، فما راعَ المسلمين إلاَّ وهو عندَها، فاغتَمَّ المسلمونَ بسبَبِ ذلك غمًّا شديدًا، وشقَّ عليهم مشقةً عظيمةً، فلمَّا كان بعدَ مدَّةٍ مرُّوا عليه وهو مع تلك المرأةِ في ذلك الحِصْنِ، فقالُوا له: يا فلانُ ما فعَل قراءتُك؟ ما فعَل عِلْمُكَ؟ ما فعَل صيَامُكَ وصلاتُكَ؟ فقال: اعْلَمُوا أنِّي أُنْسِيتُ القرآنَ كلَّه إلاَّ قولَه: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٢، ٣].

ثم دخلت سنة تسع وسبعين ومائتين

في أواخرِ المحرمِ منها خُلِعَ جَعْفَرٌ المُفَوَّضُ من العهد، واسْتَقلَّ بولايةِ العهدِ من بعدِ المُعْتَمِد أبو العبَّاسِ ابنُ المُوَفَّقِ، ولقِّب بالمعتضد، وجُعِل إليه السلطنةُ كما كان أبوه، وخطَب بذلك المعتمدُ على رُءوسِ الأشْهادِ، وكان يومًا مشهودًا، ففي ذلك يقولُ يحيى بنُ عليٍّ يُهَنِّئُ المُعْتَضِدَ:

ليهنك عقدٌ أنتَ فيه المقدَّمُ	حَبَاكَ به ربٌّ بفضلك أعلَمُ
فإنْ كنتَ قد أصبحتَ واليَ عهدنا	فأنتَ غداً فينا الإمامُ المُعظَّمُ
ولا زالَ مَن والاك فينا مُبلَّغًا	مُنَاهُ ومَنْ عاداكَ يَشْجَى ويندَمُ
وكانَ عَمُودُ الدينِ فيه تأوُّدٌ	فعاد بهذا العَهْدِ وهوَ مُقَوَّمُ
وأصبَحَ وجهُ المُلك جَذْلانَ ضاحكًا	يُضيءُ لنا منهُ الذي كانَ يُظْلِمُ
فدُونَكَ فاشْدُدْ عقدَ ما قدحويْتَهُ	فإنَّك دونَ الناسِ فيه المُحَكَّمُ

وفيها نُودِي ببَغْدادَ أنْ لا يمكّنَ أحدٌ من القُصَّاصِ والطُّرُقيَّةِ والمُنَجّمينَ ومَن أشْبَهَهُم مِن الجلوسِ في المساجدِ ولا في الطُّرقاتِ، وأنْ لا تُباعَ كتبُ الكَلام والفَلسفةِ والجَدلِ بينَ الناسِ، وذلك بِهمَّةِ أبي العبَّاسِ المعتضدِ سلطانِ الإسلام.

وفي هذه السنة وقعت حروبٌ بينَ هارونَ الشَّاري وبينَ بني شَيْبانَ في أرضِ المَوْصلِ وقد بسَط ذلك ابنُ الأثيرِ في «كامله».

وفي رجب منها كانت وفاةُ **المعتمدِ على الله** ليلةَ الاثنين لتسعَ عشْرَةَ ليلةً خلَتْ منه،

وهذه ترجمتُه:

هو أميرُ المؤمنين المعتمدُ على اللهِ بنُ المتوكّلِ على اللهِ بنِ المعتصم بنِ الرشيدِ، واسمُه أحمدُ بنُ جعفرِ بنِ محمدِ بن هارون الرشيد بن المهدي محمد بن عبد الله أبي جعفر المنصور ابن محمد بن علي بنِ عبدِ اللهِ بنِ عباسٍ، استمرت أيامُه في الخلافة ثلاثًا وعشرين سنةً وستَّةَ أيامٍ، وكان عمرُه يومَ مات خمسين سنةً وستةَ أشهرٍ، وكان أسنَّ من أخيه أبي أحمدَ الموفقِ بستةِ أشهرٍ، وتأخَّر بعدَه أقلَّ مِن سنةٍ، ولم يكنْ إليه مِن الأمر شيء، وإنَّما كان الأمرُكلُّه فيما يتعلَّقُ بتدبيرِ الخلافةِ إلى الموفَّقِ. وقد اتفق أنَّ المعتمدَ طلَب في بعضِ الأيامِ ثلاثَمائةِ دينارٍ فلم يَحصلْ له، فقال في ذلك:

أليس من العجائبِ أنَّ مثلي	يرَى ما قلَّ مُمتَنعًا عليه
وتُؤخَذُ باسمه الدُّنيا جَميعًا	وما مِن ذاك شيء في يديه
إليه تُحمَلُ الأموالُ طُرًا	ويُمنَعُ بعضَ مَا يُجْبَى إليه

وكان أوَّلَ خليفةٍ انتقَل مِن سامَرَّا إلى بغدادَ بعدَ ما بُنيت سامَرَّا، ثم لم يعُدْ إليها أحدٌ مِن الخلفاءِ، بل جعَلوا دارَ إقامَتِهم ببغدادَ، وكان سببَ هلاكِه في ما ذكَر ابنُ الأثيرِ، أنَّه شَرِب تلك الليلةَ شرابًا كثيرًا وتعشى عشاءً كثيرًا، وكانت وفاتُه في القصر الحَسَنيِّ من بغدادَ، وحينَ مات أحضرَ المعتضدُ القضاةَ والأعيانَ وأشهَدهم أنَّه مات حَتْفَ أنفِه، ثم غُسِّل وكُفِّن وصلِّي عليه، ثم حُمِل فدُفِن بسامَرَّا، وفي صَبيحةِ العزاءِ بويع للمعتضدِ بالله.

خلافة المعتضد بالله

أمير المؤمنين أبي العبَّاس أحمدَ بنِ أبي أحمدَ الموفَّقِ بنِ جعفرٍ المُتَوَكِّلِ، وكان من خيارِ خلفاءِ بني **العبَّاسِ ورجالِهم**. وكانت البيعةُ له صَبِيحةَ موتِ المعتمدِ، وذلك لعشرٍ بقين من رجبٍ من هذه السنة -أعني **سنة تسع** وسبعين ومائتين- وقد كان أمرُ الخلافة داثرًا فأحْياه اللهُ بهمَّتِه وعدلِه وشهامتِه **وصرامتِه وشجاعتِه**، واستَوْزَرَ عُبيدَ الله بنَ سليمانَ بنِ وَهْبٍ، وولَّى مولاه بدرًا الشرطةَ في بغدادَ، وجاءَتْه **هدايا عمرو** بنِ اللَّيْثِ، وسألَ منه أن يولِّيَه إمرَةَ خُرَاسانَ فأجابَه إلى ذلك، وبعثَ إليه بالخِلَعِ واللواءِ، فنصَبه عمرُو بنُ الليثِ في دارِه ثلاثةَ أيامٍ فرحًا وسرورًا بذلك، وعزَل رافعَ بنَ هرْثَمةَ عن إمْرَةِ خُرَاسانَ، ودخلَها عمرُو بنُ اللَّيْثِ، فلم يزَلْ يتبعُ رافعًا من بلدٍ إلى بلدٍ حتى قتَلَه في سنةِ ثلاثٍ وثمانين كما سيأتي، وبعَث برأسِه إلى المعتضدِ، وصفَت إمرَةُ خُرَاسانَ لعمرِو بنِ الليثِ.

وفي هذه السنةِ قدِم الحسينُ بنُ عبدِ الله المعْروفُ بابنِ الجصَّاصِ من الديارِ المصريةِ بهَدايا عظيمةٍ مِن خُمارَوَيه صاحبِ مصرَ إلى المعتضدِ بالله، فتزوَّج المعتضدُ بابنةِ خُمارَوَيْه، فجهَّزها أبوها بجَهازٍ لم يُسمَعْ بمثلِه، حتى قيلَ: إنَّه كان من الهَواوينِ الذهبِ مائةُ هاوُنٍ، فحُمِل ذلك كلُّه من الديارِ المصريَّةِ إلى بغدادَ صُحبةَ العروسِ، وكان وقتًا مشهودًا.

وفي هذه السنةِ تملَّك أحمدُ بنُ عيسى بنِ الشيخِ قلعةَ مارْدِينَ، وكانت قبلَ ذلك لإسحاقَ بنِ كِنْداجَ.

وفيها حجَّ بالناسِ هارونُ بنُ محمدٍ العبَّاسيُّ وهي آخرُ حجَّةٍ حجَّها، وكان يحُجُّ بالناسِ مِن سنةِ أربعٍ وستِّين ومائتَين إلى هذه السنةِ.

وممن توفِّي فيها من الأعيان:

أحمد أمير المؤمنين المعتمد كما تقدم ترجمته قريبًا.

وأبو بكرٍ ابنُ أبي خَيْثَمةَ، أحمدُ بنُ زُهيرِ بنِ خيْثَمةَ صاحبُ «التاريخ» وغيرِه، سمع أبا نُعَيم، وعفَّانَ، وأخذَ علمَ الحديثِ عن أحمدَ بنِ حنبلٍ ويحيى بنِ مَعينٍ، وعلمَ النَّسبِ عن مصعبٍ الزُّبيريِّ، وأيامَ الناسِ عن أبي الحسنِ عليِّ بنِ محمدٍ المدائنيِّ. وأخذ الأدبَ عن محمدِ بنِ سلاَّمٍ الجُمحيِّ. وكان ثقةً حافظًا ضابطًا مشهورًا، وفي «تاريخِه» هذا فوائدُ كثيرةٌ وفرائدُ غزيرةٌ.

روَى عنه البغويُّ، وابنُ صاعدٍ وابنُ أبي داودَ وابنُ المُنادِي. وقد كانت وفاتُه في جُمادَى الأولَى مِن هذه السنةِ عن أربعٍ وتسعين سنةً، رحمه اللهُ.

وخَاقانُ أبو عبدِ الله الصوفيُّ، كانت له أحوالٌ وكراماتٌ. **ونصرُ بنُ أحمدَ بنِ أسدِ بنِ سامانَ**، السامانيُّ، أحدُ ملوكِهم الأكابرِ، وقد كانوا من سلالةِ الأكاسرةِ، كان جدُّهم سامانُ من أصحابِ أبي مسلمٍ الخراسانيِّ، وأصلُه مِن ذريةِ بهْرامَ بنِ أزدشيرَ بنِ سابورَ، ثم كان ابنُه أسدٌ من عقلاءِ

الرجال، وخلَّف نوحًا وأحمدَ ويحيىٰ وإلياسَ، وقد وَلي كلُّ واحدٍ من هؤلاءِ مملكةَ ناحيةٍ من النواحي، وهم السامانيَّةُ.

البَلاذُريُّ المؤرِّخُ أحدُ المشاهيرِ، أحمدُ بنُ يحيىٰ بنِ جابرِ بنِ داودَ أبو الحسَنِ، ويقالُ: أبو جعفرٍ. ويقالُ: أبو بكرٍ. البغداديُّ البلاذُريُّ صاحبُ «التاريخ» المنسوبِ إليه، سمع هشامَ بنَ القاسمِ بنِ سلاَّمٍ، وأبا الرَّبيعِ الزَّهرانيَّ وجماعةً، وعنه يحيىٰ بنُ النديمِ وأحمدُ بنُ عمارٍ وأبو يوسفَ يعقوبُ بنُ نُعَيمِ بنِ قَرقارةَ الأزديُّ.

قال الحافظُ ابنُ عساكرَ: كان أديبًا راويةً، له كتبٌ جيادٌ، ومدَح المأمونَ بمدائحَ، وجالسَ المتوكِّلَ، وتوفِّي أيامَ المعتمدِ، ووُسْوِسَ في آخرِ عمرِه.

وروَىٰ ابنُ عساكرَ عن البَلاذُريِّ قال: قال لي محمودٌ الورَّاقُ: قُلْ من الشعرِ ما يَبقَىٰ لك ذكرُه، ويزولُ عنك إثمُه فقلتُ:

استعدِّي يا نفسُ للموتِ واسْعَيْ ... لنجاةٍ فالحازمُ المُستعِدُّ
قد تبيَّنتِ أنَّه ليسَ للحيِّ ... خلودٌ ولا من الموتِ بُدُّ
إنَّما أنتِ مستعيرةٌ ما سو ... فَ تَرُدِّينَ والعَواري تُرَدُّ
أنتِ تسْهِينَ والحوادثُ لا تسْـ ... ـهُو وتَلْهِينَ والمَنايا تجِدُّ
أيُّ مُلْكٍ في الأرضِ أو أيُّ حظٍّ ... لامرئٍ حظُّه من الأرضِ لَحْدُ
لا تُرَجِّي البقاءَ في معدنِ المو ... تِ ودارٍ حتوفُها لك وِرْدُ
كيفَ يهْوَىٰ امْرؤٌ لَذاذةَ أيَّا ... مٍ عليه الأنفاسُ فيها تعَدُّ

التِّرمذيُّ محمدُ بنُ عيسى بنِ سَوْرَةَ بنِ موسى بنِ الضَّحَّاك، وقيلَ: محمدُ بنُ عيسىٰ بنِ يزيدَ بنِ سَوْرةَ بنِ السَّكَنِ، ويقال: محمدُ بنُ عيسىٰ بنِ سَوْرَةَ بنِ شدَّادٍ. أبو عيسىٰ السُّلَميُّ التِّرْمذيُّ الضَّريرُ، ويُقال: إنَّه وُلد أكْمَهَ. وهو أحدُ أئمة هذا الشأنِ في زمانه، وله المصنَّفاتُ المشهورةُ منها؛ «الجامعُ» و«الشمائلُ»، و«أسماء الصَّحابة» وغيرُ ذلك. وكتابُ «الجامع» أحدُ الكُتبِ الستَّة التي يرجعُ إليها العلماءُ في سائرِ الآفاقِ، وجَهالةُ ابنِ حزمٍ لأبي عيسىٰ حيثُ قال في «مُحلاَّه»: ومَن محمدُ بنُ عيسىٰ ابنِ سورةَ؟ لا تضرُّه في دينِه ودنياه ولاتضَعُ من قدْرِه عندَ أهلِ العلمِ، بل تحُطُّ من منزلةِ ابنِ حزمٍ عندَ الحُفَّاظ.

وكيفَ يصِحُّ في الأذهانِ شيءٌ ... إذا احتاجَ النهارُ إلى دليلِ

وقد ذكَرنا مشايخَه في كتابِنا «التَّكميلِ». وروَىٰ عنه غيرُ واحدٍ من العلماءِ منهم محمدُ بنُ إسماعيلَ البخاريُّ في غيرِ «الصَّحيح»، والهيْثَمُ بنُ كُليبٍ الشَّاشيُّ صاحبُ «المسند»، ومحمدُ بنُ أحمدَ بنِ محبوبٍ المحبوبيُّ، راوي «الجامع» عنه. ومحمدُ بنُ المُنْذرِ شَكَّرُ. قال الحافظُ أبو يَعْلَىٰ الخليلُ بنُ عبدِ اللهِ الخليليُّ القزوينيُّ في كتابِه «علوم الحديثِ»: محمدُ بنُ عيسىٰ بنِ سَورةَ بنِ شدَّادٍ

الحافظُ متَّفقٌ عليه، له كتابٌ في السننِ وكلامٌ في الجرحِ والتَّعديلِ، روَىٰ عنه ابنُ محبوبٍ والأجلاءُ، وهو مشهورٌ بالأمانةِ والعلمِ، مات بعدَ الثمانين ومائتين. كذا قال في تاريخِ وفاته. وقد قال الحافظُ أبو عبدِ اللهِ محمدُ بنُ أحمدَ بنِ سليمانَ الغُنجارُ في «تاريخِ بُخارَىٰ»: محمدُ بنُ عيسىٰ بنِ سَورةَ بنِ موسىٰ بنِ الضَّحَّاك السلَميُّ التِّرمذيُّ الحافظُ، دخل بُخارَىٰ وحدَّث بها، وهو صاحبُ «الجامعِ» و«التاريخِ»، توفِّي بالتِّرْمذِ ليلةَ الإثنين لثلاثَ عشْرَةَ خلَت من رجبٍ سنةَ تسعٍ وسبعين ومائتين. وذكَره الحافظُ أبو حاتمِ بنُ حِبَّانَ في «الثِّقات»، فقال: كان ممَّن جمَع وصنَّف وحفظ وذاكَر. وقال التِّرمذيُّ: كتَب عني البخاريُّ حديثَ عطيَّةَ، عن أبي سعيدٍ؛ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال لعليٍّ: «لا يَحلُّ لأحدٍ يُجنبُ في هذا المسجدِ غيري وغيرُك»[1].

وروَىٰ ابنُ نقطةَ في «تقييده» عن الترمذيِّ أنَّه قال: صنَّفتُ هذا المسندَ الصَّحيحَ فعرَضتُه على علماءِ الحجازِ فرضُوا به، وعرضتُه علىٰ عُلَماءِ العراقِ، فرَضُوا به، وعرَضْتُه علىٰ عُلَماءِ خراسَانَ فرَضُوا به، ومَن كان في بيْتِه هذا الكتابُ فكأنَّما في بيْتِه نبيٌّ يتكلَّمُ. قالوا: وجملةُ «الجامعِ» مائةٌ وأحدٌ وخمسونَ كتابًا. وكتابُ «العلَلِ» صنَّفه بسَمَرْقنْدَ، وكان فَراغُه منه في يومِ عيدِ الأضْحَىٰ من سنَةِ سَبْعينَ ومائتَيْنِ. قال ابنُ نقطةَ: سمعْتُ محمدَ بنَ طاهرٍ المَقْدسيَّ، سمعتُ أبا إسماعيلَ عبدَ اللهِ ابنَ محمدٍ الأنصاريَّ يقولُ: كتابُ التِّرْمذيِّ عندي أفيدُ من كتابِ البخاريِّ ومُسْلمٍ. قلتُ: ولِمَ؟ قال: لأنَّه لا يصِلُ إلىٰ الفائدةِ منهما إلاَّ مَن هو من أهلِ المعْرِفَةِ التَّامَّةِ، وهذا كتابٌ قد شرَح أحاديثَه وبيَّنَها، فيَصِلُ إليها كلُّ أحدٍ من النّاسِ من الفُقهاءِ والمحدِّثينَ وغيرِهما. قلتُ: والذي يظْهرُ من حالِه أنَّه إنَّما طرَأ عليه العَمَىٰ بعدَ أن رحَل وسمع وكتَب وذاكَر وناظَر وصنَّف، ثم اتَّفَق موْتُه في بلَدِه في رجبٍ من هذه السنةِ علىٰ الصَّحيحِ المشهورِ، واللهُ أعلمُ.

ثم دخلت سنة ثمانين ومائتين من الهجرة

في المحرمِ منها قتَل المعتضدُ رجلاً من أُمراءِ الزَّنْجِ كان قد لجأ إليه بالأمانِ ويعرفُ بشَيلمةَ، ذُكر له أنَّه كان يَدْعو إلىٰ رجلٍ لا يُعْرَفُ مَن هو، وقد أفسَد جماعةً، فاستَدْعىٰ به فقَرَّره فلم يُقرَّ، وقال: لو كان تحتَ قدَميَّ ما أقررتُ به. فأمَر به فشُدَّ علىٰ عمودِ خيمةٍ ثم لوَّحه علىٰ النارِ حتىٰ تساقَط جلْدُه عن عظامِه، ثم أمَر بضرْبِ عنُقِه وصَلْبِه لسبعِ ليالٍ خلَوْنَ من المحرَّمِ. وفي أوَّلِ صفرٍ ركِب المعتضدُ باللهِ أبو العباسِ ابنُ الموفَّقِ من بغدادَ قاصدًا بَني شَيْبانَ من أرضِ المَوْصلِ، فأوقَع بهم بأسًا شديدًا عندَ جبلٍ يقالُ له: تَوْبَاذُ. وكان مع المعتضدِ حَادٍ جيِّدُ الحُداءِ، فقال في بعضِ تلك الليالي يحْدُو للمعتضدِ:

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٧٢٧) من هذا الطريق وفيه عطية العوفي وهو ضعيف.

فأجهشتُ للتَّوْبَاذ حينَ رأيتُه ... وهَلَّلَ للرَّحمن حين رآني
وقلتُ له أينَ الذين عهدتَهم ... بظلِّكَ في أمنٍ ولين زمانِ
فقال مضَوا واستخلفوني مكانَهمْ ... ومَن ذا الذي يَبْقَى على الحدثانِ

قال: فتغرغرت عيْنا المعتضد، وقال: من ذا الذي يبقى على الحدثان.

وفي هذه السنة أمَر المعتضدُ بتسهيلِ عَقَبَةِ حُلْوانَ فغَرِم عليها عشرين ألفَ دينارٍ، وكان الناسُ يلْقونَ منها شدَّةً عظيمةً. وفيها وسَّع المعتضدُ جامعَ المنصورِ بإضافة دارِ المنصورِ إليه، وغَرِم عليه عشرين ألفَ دينارٍ، وكانت الدارُ قِبْلِيَّه فبنَاها مسجدًا على حدَةٍ وفتَح بينَهما سبعةَ عشَر بابًا، وحوَّل المِنبرَ والمحرابَ إلى المسجدِ ليكونَ في قِبلةِ الجامعِ على عادته. قال الخطيبُ البغداديُّ: وزَاد بدرٌ مولَى المعتضدِ المسقطاتِ من قصرِ المنصورِ المعروفةَ بالبَدريَّةِ في هذا الوقتِ.

ذكرُ بناءِ دارِ الخلافةِ ببغدادَ

أوَّلُ مَن بناها المعتضدُ في هذه السنة، وكان أوَّلَ مَن سكَنها مِن الخلفاء إلى آخرِ دولتِهم، وكانت أوَّلاً دارًا للحسنِ بنِ سَهْلٍ تُعرفُ بالقَصرِ الحَسَنيِّ، ثم صارت بعدَ ذلك لابنته بُورانَ التي تزوَّج بها المأمونُ، فعمَّرت فيها حتى استَنْزَلها المعتضدُ عنها فأجابَتْه إلى ذلك، ثم أصلَحت ما وَهَى مِنها ورمَّمت ما كان قد شَعَث فيها، وفرشت في كلِّ موضعٍ منها ما يليقُ به مِن المفارشِ، وأسكَنت فيه ما يليقُ به من الجواري والخدمِ، وأعدَّت بها المآكلَ الشَّهيَّةَ وما يحسُنُ ادِّخارُه في ذلك الزمانِ، ثم أرسلَت بمَفاتيحِها إلى المعتضدِ، فلمَّا دخلَها أذهلَه ما رأى فيها من الخيراتِ، ثم وسَّعَها وزاد فيها وجعَل لها سورًا حولَها، وكانت قَدْرَ مَدينةِ شيرازَ، وبنَى الميدانَ ثُم بنى قصرًا مشرفًا على دجلة، ثم بنَى المُكتفِي التاجَ، ثم كانت أيامُ المقتدرِ فزاد فيها زيداتٍ عظيمةً جدًّا، وتأخَّرت آثارُها إلى أيام التَّتارِ الذين خرَّبوا بغدادَ وسبَوا مَن كان بها من الحرائرِ الآمناتِ. كما سيأتي بيانُه في موضعه من سنة ستٍّ وخمسين وستِّمائة. قال الخطيبُ: والذي يشْبِهُ أن تكون بُورانُ سلَّمت دارَ الخلافة إلى المعتمد، فإنَّها لم تعشْ إلى أيامِ المعتضدِ.

وفيها زُلزِلت أرْدَبيلُ ستَّ مرَّاتٍ فتهدَّمت دُورُها ولم يبقَ منها مائةُ دارٍ، ومات تحتَ الرَّدمِ مائةُ ألفٍ وخَمسون ألفًا، فإنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعونَ. وفيها غارَتِ المياهُ ببلادِ الرَّيِّ وطَبَرستانَ حتى بِيعَ الماءُ كلُّ ثلاثةِ أرطالٍ بدرهمٍ، وغلَت الأسعارُ هُنالك جدًّا.

وفيها غزَا إسْماعيلُ بنُ أحمدَ السامانيُّ بلادَ التُّركِ ففتَح مدينةَ ملِكهم وأسَر امرأتَه الخاتُونَ وأباه ونحوًا من عشرةِ آلافِ أسيرٍ، وغنِم من الدوابِّ والأمتعةِ والأموالِ شيئًا كثيرًا، أصاب الفارسُ ألفَ درهمٍ. وحجَّ بالناسِ في هذه السنة أبو بكرٍ محمدُ بنُ هارونَ بنِ إسحاقَ العباسيُّ.

وممن تُوفِّي فيها من الأعيان:

أحمدُ بنُ سيّارِ بنِ أيُّوبَ الفَقيهُ الشافعيُّ المشهورُ بالعبادَةِ والزهدِ.

وأحمدُ ابنُ أبي عمرانَ موسى بن عيسى أبو جعفر البغداديُّ، كان من أكابرِ الحنفيَّة، تفقَّه على محمد ابنِ سَمَاعة، وهو أستاذُ أبي جعفر الطَّحاويِّ، وكان ضريرًا، سمع الحديثَ من عليِّ بنِ الجعد وغيره، وقدِم مصرَ فحدَّث بها من حفظِه، وتوفِّي بها في المحرمِ من هذه السنة، وقد وثَّقه ابنُ يونُسَ في «تاريخ مصرَ».

أحمدُ بنُ محمدُ بن عيسى بن الأزهَر، أبو العباس البِرْتيُّ القاضي بواسطٍ، صاحبُ «المسْنَد»، روَىٰ عن مُسْلِمِ بنِ إبراهيمَ، وأبي سَلَمةَ التبوذَكيِّ، وأبي نُعَيم، وأبي الوليد، وخلقٍ، وكان ثقةً ثَبتًا، تفقَّه بأبي سليمانَ الجُوزْجانيِّ صاحبِ محمدِ بنِ الحسنِ وقد حكَم بالجانبِ الشرقيِّ من بغدادَ في أيامِ المعتزِّ، فلمّا كان أيامُ الموَفَّقِ طلَب منه ومن إسماعيلَ القاضي أن يُعْطِياه ما بأيديهما من أموالِ اليتامَىٰ الموقوفة، فبادَر إلى ذلك إسماعيلُ القاضي واستَنظَره إلى ذلك أبو العباسِ البِرْتيُّ هذا، ثم بادَر إلى كلِّ مَن أنس منه رُشدًا من اليتامَىٰ فدفَع إليه مالَه، فلمّا طولِب به قال: ليس عندي منه شيء، دفَعتُه إلى أهلِه. فعُزِل عن القضاءِ ولزِم بيتَه وتعبَّد إلى أن تُوفِّي في ذي الحجَّة منها. وقد رآه بعضُهم في المنامِ وقد دخَل على رسولِ الله ﷺ فقام إليه وصافَحه وقبَّل بينَ عينَيه، وقال: «مرحبًا بمَن يعملُ بسُنَّتي وأثري».

وفيها تُوفِّي جعفرُ بنُ المعتمد، وكان يسامرُ أباه، وراشدٌ مولَى الموفَّقِ بمدينة الدِّينَوَر فحُمِل إلى بغدادَ. وعثمانُ بنُ سعيدٍ الدَّارميُّ مصنِّفُ الردِّ على بشْرٍ المَريسيِّ فيما ابتدعَه من التأويلِ لمذهبِ الجهميَّة، وقد ذكَرناه في «طبقات الشافعيَّة». ومسرورٌ الخادمُ وكان من أكابرِ الأمراء. ومحمدُ بنُ إسماعيلَ بن يوسفَ أبو إسماعيلَ التِّرْمِذيُّ صاحبُ التَّصانيف الحسنَة في رمضانَ من هذه السنة. قالَه ابنُ الأثير، وشيخُنا الذَّهَبيُّ. وهلالُ بنُ العَلاء المحدِّثُ المشهورُ. وقد وقَع لنا من حديثِه طرَفٌ.

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين ومائتين

فيها دخَل المسلمون بلادَ الروم فغَنموا وسلموا ولله الحمدُ. وفيها تكامَل غَورُ المياه ببلادِ الرَّيِّ وطَبَرِستانَ، وغلَت الأسعارُ جدًّا وجهَد الناسُ وقَحَطوا حتى أكل بعضُهم بعضًا، فكان الرجل يأكلُ ابنَه وابنتَه، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

وفيها حاصَر المعتضدُ قلعةَ مَارْدِينَ وكانت بيدِ حَمْدانَ بنِ حَمْدونَ، ففتَحها قَسْرًا وأخَذ ما كان فيها، ثم أمَر بتَخريبِها فهُدِمت. وفي هذه السنة وصَلت قَطرُ النَّدَىٰ بنتُ خُمارَوَيْه نائبِ الدِّيارِ المصريَّة إلى بغدادَ في تجمُّلٍ عظيمٍ ومعها من الجَهازِ شيءٌ عظيمٌ حتى قيل: إنَّه كان في الجهازِ مائةُ هاوُنٍ من ذهبٍ، غير الفضة وما يتبع ذلك من القماشِ وغيرِ ذلك مما لا يُحصَىٰ. ثم بعدَ كلِّ حسابٍ معها مائةُ ألفِ دينارٍ لتشتريَ بها من العراقِ ما قد تحتاجُ إليه ممَّا لا يتهيأُ مثلُه بالديارِ المصرية.

وفيها خرَج المعتضدُ إلى بلادِ الجبلِ وولَّى ولَدَه عليًّا المُكْتَفي نِيابَةَ الرَّيِّ وقَزْوينَ وزَنْجانَ وقُمَّ

وهمذان والدِّينَوَرِ، وجعَل على كتابته أحمدَ بنَ الأصبغ، وولّى عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ ابنِ أبي دُلَفٍ نيابةَ أصبهانَ ونَهاوَنْدَ والكرخِ، ثم عاد راجعًا إلى بغدادَ.

وحجَّ بالناسِ محمدُ بنُ هارونَ بنِ إسحاقَ، وأصابَ الحُجَّاجَ في الأَجْفُرِ مطرٌ عظيمٌ فغَرِق كثيرٌ منهم، كان الرجلُ يغرَقُ في الرّملِ فلا يقدرُ أحدٌ على خَلاصِه.

وممّن توفِّي فيها من الأعيان:

إبراهيمُ بنُ الحسينِ بنِ دِيزيلَ الحافظُ صاحبُ كتابِ المصنَّفاتِ؛ منها في صفِّينَ مجلَّدٌ كبيرٌ. وأحمدُ ابنُ محمد الطَّائيُّ بالكوفة في جمادَىٰ منها.

وإسْحاقُ بنُ إبراهيمَ المعْروفُ بابنِ الجَبُّليِّ، سمع الحديثَ وكان يُفتي الناسَ بالحديثِ، وكان يُوصَفُ بالفَهمِ والحفظ.

ابنُ أبي الدُّنيا القُرَشيُّ مولَىٰ بني أميَّةَ؛ وهو عبدُ الله بن محمد بنِ عُبَيْدِ بنِ سُفيانَ بنِ قَيْسٍ، أبو بكرٍ ابنُ أبي الدُّنيا الحافظُ المصنِّفُ، المشهورُ، له التّصانيفُ النافعةُ الشائعةُ الذائعةُ في الرقائقِ وغيرِها تزيدُ على مائةِ مصنَّفٍ، سمع إبراهيمَ بنِ المُنذرِ الحِزَاميَّ، وخالدَ بنَ خِراشٍ، وعليَّ بنَ الجَعْدِ وخلقًا، وكان مؤدِّبًا للمعتضدِ وابنِه عليِّ بنِ المعتضدِ المُلقَّبِ بالمكتفي، وكان له عليه في كلِّ شهرٍ خَمسةَ عشَرَ دينارًا، وكان ثقةً صدوقًا حافظًا ذا مُروءةٍ، لكن قال صالحُ بنُ محمدٍ جَزَرَةُ: إلاَّ أنَّه كان يروي عن رجلٍ يقالُ له: محمدُ بنُ إسحاقَ البَلْخيُّ، وكان هذا الرجلُ كذّابًا يضعُ للكلامِ إسنادًا، ويروي أحاديثَ مُنْكَرةً. ومن شعرِ ابنِ أبي الدُّنيا أنَّه جلَس أصْحابٌ له ينتظرُونه ليخرُجَ إليهم، فجاء المطرُ فحالَ بيْنَه وبينَهم، فكتَب إليهم رقعةً فيها:

أنا مُشْتاقٌ إلى رُؤيَتِكُم ... يا أخِلاَّئي وسَمْعي والبَصَرْ
كيف أنساكمْ وقلبي عندَكُم ... حالَ فيما بينَنا هذا المطَرْ

توفِّي ببغدادَ في جُمَادىٰ الأولىٰ من هذه السنة عن سبعين سنةً، وصلّى عليه يوسفُ بنُ يعقوبَ القاضي ودُفِن بالشونيزيَّةِ، رحمهُ اللهُ.

عبدُ الرحمن بنُ عمرو أبو زرعةَ الدِّمشْقيُّ، الحافظُ الكبيرُ الشهيرُ بينَ أهل العلم. محمدُ بنُ إبراهيمَ ابنُ المَوَّازِ، الفقيه المالكيُّ، له اختياراتٌ في مذهبِ الإمامِ مالكٍ، فمِن ذلك وجوبُ الصلاةِ على رسولِ الله ﷺ في الصلاةِ.

ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين ومائتين

في خامسِ ربيعٍ الأوَّل منها يوم الثلاثاء دخَل المعتضدُ بالله بزَوجته ابنة خُمارَوَيْه، وكان قُدومُها إلى بغدادَ صُحْبَةَ عمِّها وصُحبة ابنِ الجَصَّاصِ، وكان الخليفةُ غائبًا، وكان دخولُها إليها يومًا مشْهودًا، امتنَع الناسُ مِن المُرورِ في الطُّرقاتِ.

وفيها نَهَى الخليفةُ المُعْتَضدُ أن يعمَلَ الناسُ في يوم النَّيروز ما كانوا يتعاطونَه من إيقاد النِّيران، وصبِّ الماء، وغير ذلك من الأفعال المُشابهة للمجوس، ومنَع من حمْل هدايا الفلاّحينَ إلى المُقطَعين في هذا اليوم، وأمَرَ بتأخير ذلك إلى الحادي عشرَ من حَزيرانَ، وسُمِّي النَّيروزَ المُعْتَضديَّ، وكتَب بذلك إلى الآفاق وسائر العُمَّال.

في ذي الحجَّة من هذه السنة قدم إبراهيمُ بنُ أحمدَ الماذَرائيُّ من دمشقَ على البريد، فأخبَر المعتضدَ بالله بأنَّ خُمارَوَيْه ذبَحه بعضُ خُدامه على فراشه، وولَّوا بعدَه ولَدَه جيشًا، ثم قتَلوه ونَهبوا دارَه، ثم ولَّوا هارونَ بنَ خمارَوَيْه، وقد التزَم في كلِّ سنة ألفَ ألف دينار وخَمْسَمائة ألف دينار تُحمَلُ إلى باب الخليفة، فأقرَّه المعْتَضدُ على ذلك، فلمَّا كان المُكْتَفي، عزَله وولَّى مكانَه محمدَ بنَ سلَيمانَ الواثقيَّ، فاصطفَى أموالَ آل طولونَ، وكان ذلك آخرَ العهد بهم.

وفيها أُطلِق لُؤلؤٌ غلامُ أحمدَ بنِ طولونَ من السِّجن، فعاد إلى مصرَ في أذلِّ حال، وحجَّ بالناس الأميرُ المتقدِّمُ ذكْرُه.

وممَّن توفي فيها من الأعيان:

أحمدُ بنُ داودَ أبو حنيفةَ الدِّينَوريُّ اللغويُّ صاحبُ كتاب «النَّبات».

إسماعيلُ بنُ إسحاقَ بن إسماعيلَ بن حمَّاد بن زَيد، أبو إسحاقَ الأزْديُّ القاضي، أصْلُه من البصرة ونشَأ ببَغدادَ، وسمع مسلمَ بنَ إبراهيمَ، ومحمدَ بنَ عبد الله الأنصاريَّ، والقَعْنَبيَّ، وعليَّ بنَ المَدينيِّ، وكان حافظًا فقيهًا مالكيًّا جمَع وصنَّف وشرَح في المذهب عدَّةَ مُصنَّفات في التَّفسير والحديث والفقه، وغير ذلك. وقد ولِيَ القضاءَ أيامَ المتوكِّل بعدَ سَوَّار بن عبد الله ببغدادَ، ثم عُزِل، ثم وُلِّيَ وصار مُقدَّمَ القُضاة. وكانت وفاتُه فُجاءَةً ليلةَ الأربعاء لثمانٍ بَقِين من ذي الحجَّة من هذه السنة، وقد جاوز الثمانين رحمه اللهُ.

الحارثُ بنُ محمد ابن أبي أسامةَ، صاحبُ «المسند» المشهور.

خُمارَوَيْه بنُ أحمَد بن طولونَ صاحبُ الديار المصرية، بويع له بمُلْك الديار المصرية بعدَ أبيه سنةَ إحدىٰ وسبعين ومائتين، فقصَده المعتضدُ بنُ الموفَّق في حياة أبيه، فاقتتلوا قتالاً شديدًا في أرض الرَّمْلَة. وقيل: في أرض الصَّعيد. فانهزَم خُمارَوَيْه هاربًا على حمار، وكرَّ جيشُه على المعتضد، فهرَب، كما قدَّمنا، ثم تزوَّجَ ابنتَه وتصافيا بعد ذلك، فلمَّا كان في ذي الحجَّة من هذه السنة عَدا الخَدَمُ منَ الخصيان على خمارَوَيْه فذبحوه وهو على فراشه؛ وذلك لأنه اتَّهمَهم بجواريه، فمات عن ثنتَيْن وثلاثينَ سنةً، فقام بالأمر من بعده ولَدُه هارونُ بنُ خُمارَوَيْه، وهو آخرُ الطُّولونيَّة.

وذكَر ابنُ الأثير فيمَن توفِّي هذه السنةَ عُثمانَ بنَ سعيد بنِ خالد أبا سعيد الدَّارميَّ الفقيه الشافعيَّ، أخَذ الفقهَ عن البُوَيْطيِّ صاحب الشافعيِّ.

الفضلُ بنُ محمد بنِ المُسيَّب بن موسىٰ بنِ زُهَيربن يزيدَ بن كَيْسانَ بنِ باذانَ ملك اليمن. وقد أسلمَ باذانُ في حياة النبيِّ ﷺ.

أبو محمد الشَّعْرانيُّ، الأديبُ الفقيهُ العابدُ الحافظُ الرَّحّالُ، تَلْمَذ ليحيىٰ بن معين، رَوَىٰ عنه «الفوائدَ في الجَرح والتَّعديل» وغيرَ ذلك، وكذلك أخَذ عن أحمدَ بن حنبلٍ، وعليٍّ بن المَدينيِّ، وقرأ علىٰ خَلَف بن هشام البَزَّار، وتعلَّمَ اللغةَ من ابن الاعرابيِّ، وكان ثقةً كبيرَ القَدْر، رحمه اللهُ.

محمدُ بنُ القاسم بن خلَّاد أبوالعَيْناء البصريُّ الضَّريرُ الشاعرُ الأديبُ البليغُ اللغويُّ، تلميذُ الأصمعيِّ، وكنيتُه أبو عبد اللهِ، وإنَّما لُقِّب بأبي العَيْناء؛ لأنه قال لأبي زيدالانصاريِّ: كيفَ تُصغِّرُ عَيْنًا؟ فقال: عُيَيْنًا يا أبا العيناء، فبَقِي عليه. وله معرفةٌ تامَّةٌ بالأدب والحكايات والمُلَح، فأمَّا الحديثُ فليس له منه إلاَّ القليلُ.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين ومائتين

في المحرَّم منها خرَج المعتضدُ من بغدادَ قاصدًا بلادَ المَوْصلِ لقتال هارونَ الشَّاري الخارجيِّ، فظفر به، وهزَم أصحابه، وكتَب بذلك إلىٰ بغدادَ، فلمَّا رجَع الخليفةُ إلىٰ بغدادَ أمرَ بصَلْب هارونَ وكان صُفْريًّا. فلمَّا صُلِب قال: لا حُكْمَ إلاَّ لله ولو كَرِه المشركون. وكان الحسينُ بنُ حَمْدانَ بن حَمْدونَ قد قاتَل الخوارجَ في هذه الغزوة قتالاً عظيمًا مع الخليفة، فأطلَق الخليفةُ أباه حَمْدانَ بنَ حَمْدونَ من القيود بعدَما كان قد سجَنه حينَ أخَذ قلعةَ مَاردينَ من يده وهدَمها عليه فأطلَقه، وخلَع عليه، وأحسَن إليه.

وفيها كتَب المعتضدُ إلىٰ الآفاق بردِّ ما فضَل عن سهام ذَوي الفروض، إذا لم تكُنْ عَصَبة، إلىٰ ذَوي الأرْحام؛ وذلك عن فُتْيا أبي حازم القاضي، وقد قال في فُتْيَاه: إنَّ هذا اتِّفاقٌ من الصحابة إلا زيدَ بنَ ثابت؛ فإنَّه تفرَّد بردِّ ما فضَل ـ والحالة هذه ـ إلىٰ بيت المال. ووافَق عليُّ بنُ محمد بن أبي الشَّوارب لأبي حازم، أفتىٰ القاضي يوسفُ بنُ يعقوبَ بقول زيد، فلم يلتَفِتْ إليه المعتضدُ، وأمْضَىٰ فُتْيَا أبي حازم، ومع هذا ولَّىٰ القاضيَ يوسفَ بنَ يعقوبَ قضاءَ الجانب الشرقيِّ وخلَع عليه خلْعًا سَنيَّةً أيضًا، وقلَّد أبا حازم قضاءَ أماكنَ كثيرة، وكذلك لابن أبي الشَّوارب، وخلَع عليه خلَعًا سَنيَّةً أيضًا.

وفيها: كان الفداءُ بينَ المسلمين والروم، فاستُنْقذ من أيديهم من المسلمين ألفان وخمسُمائة وأربعةُ أنفُس، ولله الحمدُ والمنةُ.

وفيها: حاصَرت الصَّقَالبةُ الرومَ في القسطنطينية، فاستَعان ملكُ الروم بمَن عندَه من أُسارَىٰ المسلمين وأعْطاهم سلاحًا كثيرًا، فخرَجوا معهم فهزَمُوا الصَّقالبةَ، ثم خاف ملكُ الروم من غائلة المسلمين، ففرَّقهم في البلاد.

وفيها: خرَج عمرُو بنُ الليث من نيسابورَ لبعض أشْغاله، فخلَفه فيها رافعُ بنُ هَرْثَمةَ، ودَعا علىٰ منابرها لمحمد بن زيد المُطَّلبيِّ ولولَده من بعده، فرجَع إليه عمرٌو وحاصَره فيها، ولم يزَلْ به حتىٰ أخْرَجه منها وقتَله علىٰ بابها.

وفيها: بعَث الخليفةُ المعتضدُ وزيرَه عُبيدَ الله بنَ سليمانَ بنِ وهبٍ لقتال عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ بنِ أبي دُلَفٍ، فلمَّا وصَل إليه طلَب منه عمرُ الأمانَ، فأمَّنَه وأخذَه معه إلى الخليفةِ، فتلَقَّاه الأمراءُ عن أمرِ الخليفةِ، وخلَع عليه وأحْسَن إليه.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

إبراهيمُ بنُ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ بنِ مِهْرانَ أبو إسْحاقَ الثَّقَفيُّ السَّرَّاجُ النَّيسابوريُّ، كان الإمامُ أحمدُ يدْخُلُ إلى منزله - وكان بقَطيعَةِ الرَّبيعِ في الجانبِ الغربيِّ من بغدادَ - وينْبسطُ فيه ويُفطِرُ عندَه، وكان مِن الثِّقات العلماء العُبَّاد، توفِّي في صفر منها.

إسحاقُ بنُ إبراهيمَ بنِ محمدِ بنِ حازمٍ أبو القاسمِ الخُتَّليُّ، وليس هو بالذي تقدَّم ذكْرُه في السنينَ المتقدِّمَةِ، سمِع داودَ بنَ عمرٍو، وعليَّ بنَ الجَعْدِ، وخلْقًا كثيرًا. وقد ليَّنه الدَّارقُطْنيُّ، فقال: ليس بالقَويِّ. توفِّي في هذه السنةِ عن نحوِ ثمانين سنةً.

سهلُ بنُ عبدِ الله بن يونسَ التُّسْتَريُّ أبو محمد أحدُ أئمة الصوفيَّة، لقِي ذا النُّون المصريَّ. ومن كلامِ سهلٍ الحسنِ قولُه: أمْس قد مات، واليومُ في النَّزْعِ، وغدٌ لم يُولَدْ. وهذا كما قال بعضُ الشعراء:

مَا مَضَى فَاتَ والمُؤمَّلُ غَيبٌ ... ولك السَّاعةُ التي أنت فيها

قال القاضي ابنُ خَلِّكانَ: وكان سلوكُه على يدي خالِه محمدِ بنِ سَوَّارٍ. وقيل: إنَّه توفِّي سنةَ ثلاثٍ وسبعينَ. فاللهُ أعلمُ.

عبدُ الرحمنِ بنُ يوسفَ بنِ سعيدِ بنِ خراشٍ، أبو محمدٍ الحافظُ المَرْوَزيُّ أحدُ الجوَّالين الرَّحَّالين حُفَّاظِ الحديث والمُتكلِّمين في الجرْحِ والتعديلِ، وقد يَتَستَّرُ بشيءٍ من التَّشيُّعِ. فاللهُ أعلمُ.

روى الخطيبُ عنه أنَّه قال: شرِبْتُ بَوْلي في هذا الشأنِ خمسَ مراتٍ. يعْني أنَّه اضْطُرَّ إلى ذلك في الأسْفارِ في طلبِ الحديثَ.

عليُّ بنُ محمدِ بنِ أبي الشَّوارب عبد الملك الأُمَويُّ البَصْريُّ قاضي سَامَرَّا، وقد وَلِي في بعضِ الأحْيانِ قضاءَ القُضاةِ، وكان من الثقات، سمع أبا الوليدِ، وأبا عمرَ الحَوضيَّ، وعنه النَّجَّادُ، وابنُ صاعدٍ، وابنُ قانعٍ، وحمَل الناسُ عنه علْمًا كثيرًا.

ابنُ الرُّومي الشاعرُ

صاحبُ الديوانِ في الشعرِ؛ عليُّ بنُ العبَّاسِ بنِ جُرَيجٍ، أبو الحسنِ، المعروفُ بابنِ الروميِّ، وهو مولَى عبدِ الله بنِ جعفرٍ، وكان شاعراً مشهوراً مُطبقًا فمن ذلك قولُه:

إذا ما مَدَحْتَ الباخلين فإنَّما ... تُذكِّرُهُمْ ما في سواهم من الفَضْلِ

وتُهْدي لهم غمًّا طويلاً وحسرةً ... فإنْ منَعُوا منك النَّوالَ فبالعَدْلِ

مِن ذلك قولُه:

إذا ما كَساك الدهرُ سِرْبالَ صحَّة ... ولم تخلُ من قُوت يَلَذُّ ويعذُبُ
فلا تَغبِطَنَّ المُتْرَفين فإنَّه ... على قدْرِ ما يكْسُوهم الدهرُ يَسلُبُ

وقال أيضًا:

عدوُّكَ من صَديقك مُستفَادٌ ... فلا تستكثرَنَّ من الصِّحابِ
فإنَّ الدَّاءَ أكثرُ ما تَراهُ ... يكونُ مِن الطعَامِ أو الشَّرابِ
إذا انقلَب الصَّديقُ غداً عدوا ... مُبِينًا والأمور إلى انقلابِ
ولو كان الكثيرُ يطيبُ كانتْ ... مُصاحَبَةُ الكثيرِ من الصَّوابِ
ولكنْ قَلَّ ما استكْثَرتَ إلاَّ ... وقَعتَ على ذئابٍ في ثيابِ
فدَعْ عنكَ الكثيرَ فَكمْ كثيرٍ ... يُعافُ وكَمْ قليلٍ مُستَطابِ
وما اللُّجَجُ المِلاحُ بُمروِياتٍ ... ويكْفِي الرِّيُّ في النُّطفِ العِذابِ

وقال أيضًا:

وما الحسَبُ المَوْروثُ لا درَّ درُّهُ ... بُمحتَسَبٍ إلاَّ بآخَرَ مُكْتَسَبْ
فلا تتَّكلْ إلاَّ على ما فَعلْتَهُ ... ولا تَحسَبَنَّ المجدَ يُورَثُ بالنَّسَبْ
فليسَ يسَودُ المرءُ إلاَّ بنفسِه ... وإنْ عَدَّ آباءً كِرامًا ذَوي حسَبْ
إذا العودُ لم يُثمِرْ وإنْ كان شُعبَةً ... من المُثمرات اعْتَدَّهُ الناسُ في الحَطَبْ
ولِلمجْدِ قَومٌ ساوروهُ بأنفُسٍ ... كِرامٍ ولم يَعْبَؤُوا بأمٍّ ولا بأَبْ

ومِن لطيفِ شعرِه:

قلْبي مِن الطَّرْفِ السَّقيم سقيمُ ... لو أنَّ مَنْ أشكُو إليه رَحيمُ
في وَجْهِها أبدًا نَهارٌ واضحٌ ... مِن فرعِها ليلٌ عليه بَهيمُ
إنْ أقبَلتْ فالبَدْرُ لاح وإنْ مشَتْ ... فالغُصْنُ راحَ وإنْ رنَتْ فالرِّيمُ
نَعِمتْ بها عَيْني فطال عَذابُها ... ولكَمْ عَذابٌ قدْ جَناهُ نَعيمُ
نظَرتْ فأقصدَت الفؤادَ بسهمِها ... ثمَّ انثَنتْ نحوِي فكدْتُ أهيمُ
وَيْلاهُ إنْ نظَرتْ وإن هي أعرضَت ... وقعُ السِّهامِ ونَزْعُهُنَّ أَليمُ
يا مُستَحِلَّ دَمِي مُحَرِّمَ رحمتي ... ما أنصَفَ التَّحْليلُ والتَّحْريمُ

وذكَر له ابنُ خَلِّكان أشياءَ كثيرةً غيرَما أوردناه، من ذلك قولُه ـ وكان يزعُمُ أنَّه لم يُسبَقْ إليه ـ:

آراؤكمْ ووجوهُكمْ وسُيوفُكمْ ... في الحادثات إذا دجَوْنَ نُجومُ
منها معالمُ للهُدَى ومصَابحٌ ... تجْلُو الدُّجَى والأُخرَياتُ رُجُومُ

وذكَر أنَّه وُلِد سنةَ إحْدَىٰ وعشرين ومائتين. وأنّه مات في هذه السنةِ، وقيل: في التي بعدها. وقيلَ: في سنةِ ستٍّ وسبعين. وذكَر أنَّ سببَ وفاتِه أنَّ وزيرَ المعتضدِ القاسمَ بنَ عبيدِ اللهِ كان يخافُ

مِن هَجْوِه ولسانه، فدَسَّ إليه مَن أطعَمه وهو بحضرته خُشكَنَانجة مَسْمُومةً، فلمَّا أحسَّ بالسُّمِّ قام، فقال له الوزيرُ: إلى أين؟ قال: إلى المكانِ الذي بعثْتَني إليه. قال: سلِّمْ على والدي. فقال: لستُ أجتازُ على النار.

محمدُ بنُ سُلَيمانَ بن الحارث أبو بكر الباغَنْديُّ الواسطيُّ، كان مِن الحُفَّاظ، وقد ذُكِر أنَّ أبا داودَ كان يسألُه عن الحديث، ومع هذا تكلَّموا فيه وضعَّفوه.

محمدُ بنُ غالبِ بن حَرْبٍ، أبو جعفرٍ الضَّبِّيُّ المعروفُ بتَمتام، سمع عفَّانَ، وقبيصةَ، والقَعْنَبيَّ، وكان مِن الثِّقات.

قال الدَّارَقُطنيُّ: وربما أخطأ. تُوفِّي في رمضانَ عن تسعينَ سنةً.

البُحتريُّ الشاعرُ

صاحبُ الديوانِ المشهور، اسمُه الوليدُ بنُ عُبادَةَ، ويقالُ: الوليدُ بنُ عُبَيْد بن يحيى، أبو عُبادةَ الطَّائيُّ البُحتريُّ الشاعرُ، أصلُه مِن مَنْبِج، وقدِم بغدادَ، ومدَح المتوكِّلَ والرؤساءَ، وكان شعرُه في المديح خيراً منه في المراثي، فقيل له في ذلك، فقال: المديحُ للرَّجاء، والمراثي للوفاء، وبينَهما بُعدٌ. وقد روَى شعرَه المُبَرِّدُ، وابنُ دَرَسْتَوَيْه، وابنُ المَرزُبان. وقيل له: إنَّهم يقولون: إنَّك أشعَرُ من أبي تَمام. فقال: لولا أبو تمام ما أكَلتُ الخبزَ، كان أبو تمام أستاذَنا. وقد كان البُحتُريُّ شاعرًا مُطبِقًا فصيحًا بليغًا، رجَع إلى بلدِه فمات بها في هذه السنةِ، وقيل: في التي بعدَها عن ثمانين سنةً.

ثم دخلت سنةُ أربعٍ وثمانين ومائتين

في المحرَّم منها دخَل رأسُ رافع بن هَرْثَمةَ إلى بغدادَ، فأمَر الخليفةُ بنَصْبه في الجانبِ الشرقيِّ إلى الظُّهر، ثم بالجانبِ الغربيِّ إلى الليلِ.

وفي ربيعٍ الأوَّلِ منها خلَع على محمدِ بن يوسفَ بن يعقوبَ بالقضاء بمدينة المنصورِ عوضًا عن ابنِ أبي الشَّوارب بعدَ موته بخمسة أشهرٍ وأيام، وهي شاغرةٌ.

وفي ربيعٍ الآخرِ ظهَرتْ بمصرَ ظُلمةٌ شديدةٌ وحُمْرةٌ في الأفقِ حتى صار الرجلُ ينظُرُ إلى وجه صاحبِه فيراه أحمرَ اللَّونِ جدًّا، وكذلك الجُدْرانَ. فمكثوا كذلك مِن العصرِ إلى الليلِ، ثم خرَجوا إلى الصحراءِ يدعونَ اللهَ، ويتضرَّعونَ إليه حتى كشَف عنهم.

وفي هذه السنة عزَم المُعتضدُ على لَعْنِ معاويةَ بنِ أبي سفيانَ على المنابر فحذَّره وزيرُه عبيدُ الله بنُ سليمانَ بنِ وَهْبٍ مِن ذلك؛ فإنَّ العامَّةَ تُنكِرُ قلوبُهم، وهم يترحَّمون عليه في أسواقهم ومجامعهم. فلم يلتَفتْ إليه، وأمَر بذلك وأمضاه، وكُتِبتْ نسخٌ بلَعْنِ معاويةَ، وذكَر فيها ذَمَّه وذَمَّ ابنه يزيدَ بنِ معاويةَ وجماعةٍ مِن بني أُمَيَّةَ، وأورَد فيها أحاديثَ باطلَةً في ذمِّ معاويةَ وقُرِئت في الجانبين مِن بغدادَ،

ونُهيت العامّةُ عن التَّرحُّم عليه والتَّرضِّي عنه، فلم يزَلْ به الوزيرُ حتى قال له فيما قال: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ هذا الصَّنيعَ ممَّا يُرغِّبُ العامَّةَ في الطَّالبيِّين وقبول الدعوة إليهم، فوَجَم لذلك المعتضدُ، وترَك ما كان عزَم عليه من ذلك لخوفه على المُلْك، وقدَّر اللهُ تعالى أنَّ هذا الوزير كان ناصبيًّا يُبغضُ عليًّا، فكان هذا من هفَوات المُعتَضد، سامَحه اللهُ.

وفيها: نُودي في البلدان: لا يجتمعُ العامَّةُ على قاصٍّ، ولا كاهنٍ، ولا مُنجِّمٍ، ولا جدَليٍّ، ولا غير ذلك، وأن لا يهتَمُّوا لأمر النَّورُوز، ثم أطلَق لهم أمرَ النَّورُوز فكانوا يصُبُّون المياهَ على المارَّة فتوسعت العامَّةُ في ذلك، وغلَوْا فيه حتى جعَلوا يصُبُّونَ المياهَ على الجُند وعلى أصحاب الشُّرَط وغيرهم، وهذا أيضًا من هفَواته.

قال ابنُ الجَوْزيِّ: وفي هذه السنة وعَد المنجِّمون الناسَ أنَّ أكثرَ الأقاليم ستَغرَقُ في زمن الشِّتاء من كثرة الأمطار والسيول وزيادة الأنهار، فأكذَبهم اللهُ في قولهم هذا، فلم تكنْ سنةٌ أقلُّ مطرًا منها، وقلت العُيونُ جدًّا وقحَطت الناسُ في كلِّ بُقعةٍ حتى استسقَى الناسُ ببغدادَ وغيرها من البلاد مرارًا كثيرةً، فلله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ.

قال: وفي هذه السنة كان يتَبدَّى بالليل في دار الخلافة شخصٌ بيده سيفٌ مشهورٌ، فإذا أرادوا أخذَه انْهزَم منهم فدخَل في بعض الأماكن والزُّروع والأشجار والعَطَفات التي بدار الخلافة، فلا يُطَّلَعُ له على خبَر، فقلِق من ذلك المعتضدُ قلقًا شديدًا، وأمَر بتجديد سور دار الخلافة والاحتفاظ به، وأمَر الحرسَ من كلِّ جانبٍ بشدَّة الاحتراس، فلم يُفِدْ ذلك شيئًا، ثم استدْعَى بالمُعزِّمين ومَن يُعاني علمَ السِّحر وأمَرَ المجانين فعزَّموا واجتَهدوا، فلم يُفد ذلك شيئًا فأعياهم أمرُه، ثم بعدَ مدَّةٍ اطُّلع على جليَّة خبره وحقيقَة أمره، أنه كان خادمًا خَصيًّا من الخدّام، كان يَتعشَّقُ بعضَ الجواري من خواصِّ الحَظايا اللاتي لا يصلُ مثلُه إلى النظر إليها، فكان قد اتخَذ لحًى مُختلفةَ الألوان فيلبَسُ الواحدة ويتَبدَّى في الليل في شكلٍ مُزْعِجٍ، فينزعجُ الجواري والخدَمُ ويثُورونَ من كلِّ جانبٍ، ويقصُدونه فيدخُلُ في بعض العَطَفات ويخلَعُها ويجعلُها في كُمِّه، ثُم يُظهرُ أنَّه من جملة الخدَم المُتَطلِّبينَ لكشْف هذا الأمر، ويسألُ هذا وهذا، ما الخبرُ؟ والسيفُ في يَده في صفة أنَّه من جملة مَن رُهِب من هذا الأمر، وإذا اجْتَمع الجواري يتمكَّنُ منَ النظر إلى تلك المعْشُوقة، وملاحظتِها والإشارة إليها بما يريدُه منها، فلم يزَلْ ذلك دأبَه إلى زَمن المُقْتَدر، فبُعِث في سَريَّةٍ إلى طرَسوسَ فنَمَّتْ عليه تلك الجاريةُ، وانْكشَف زيفُه ومِحَالُه وأهْلَكَه اللهُ، عزَّ وجلَّ.

وفي هذه السنة اضْطَرَب الجيشُ على هارونَ بن خُمارَوَيْه بمصرَ، فأقامُوا له بعضَ أُمَراء أبيه يُدبِّرُ الأمورَ ويُصلحُ الأحْوالَ، وهو أبو جعفرِ بن أبَّا، فبعَث إلى دمشقَ - وكانت قد منَعَتْ بيعةَ جيش بن خُمارويه في مدَّة ولايته تسْعَةَ أشهرٍ بعدَ أبيه، واضْطَرَبَتْ أحوالُها - فبعثَ إليهم جيشًا كثيفًا مع بَدْرٍ الحَمَاميِّ والحسين بن أحمدَ المَاذَرائيِّ فأصلَحَا أمرَها، واستَعْمَلا على نيابَتها طُغْجَ بنَ جُفٍّ، ورجَعَا

إلى الديار المصرية والأمورُ مُختلفةٌ جداً، وهكذا يكونُ انقضاءُ الدُّولِ في أواخرِها: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

أحمدُ بنُ المُبارَك أبو عمرو المُسْتَمْلي، الزاهدُ النَّيسابوريُّ، يُلقَّبُ بحَمْكَوَيْه العابدِ، سمعَ قُتَيْبَةَ وأحمدَ وإسحاقَ وغيرَهم، واستَمْلَى الزاهدُ النيسابوريُّ على المشايخ ستًّا وخمسينَ سنةً، وكان فقيرًا رَثَّ الهيئةِ زاهدًا، دخل يومًا على أبي عثمانَ سعيدِ بنِ إسماعيلَ وهو في مجلسِ التَّذكيرِ، فبَكَى أبو عثمانَ، وقال للناس: إنَّما أبكاني رَثاثةُ رجلٍ كبيرٍ من أهلِ العلم، أنا أُجلُّه من أنْ أُسَمِّيَه في هذا المجلسِ. فجعَلَ الناسُ يُلقُونَ الخواتيمَ والثِّيابَ والدراهمَ حتى اجْتَمَع من ذلك شيء كثيرٌ بينَ يدَيِ الشيخ أبي عثمانَ، فنَهضَ عندَ ذلك أبو عمرو المُسْتَمْلي فقال: أيُّها الناسُ، أنا الذي قصَدَني الشيخُ بكلامه، ولولاَ أنِّي كرِهْتُ أن يُتَّهَمَ بإثمٍ لستَرْتُ ما ستَرَه. فتعَجَّبَ الشيخُ من إخْلاصِه، ثم أخَذ أبو عمرو ذلك المُجْتَمعَ من المال بينَ يَدَيِ الشيخِ فما خرَج من باب المسجدِ حتى تصدَّق بجَميعه على الفقراءِ والمَحاويجِ، رحمه اللهُ. كانت وفاتُه في جُمادى الآخرة من هذه السنَة.

إسحاقُ بنُ الحَسَنِ بن ميمون بن سعد، أبو يعقوبَ الحربيُّ، سمعَ عفانَ، وأبا نُعَيم، وغيرَهما. وكان أسَنَّ من إبراهيمَ الحَربيِّ بثلاثِ سنيْنَ، ولمَّا تُوفِّي إسحاقُ نُودِي عليه بالبَلد، فقصَد الناسُ دارَه للصلاةِ عليه، واعْتَقدَ بعضُ العامَّةِ أنَّه إبراهيمُ الحربيُّ فجعَلوا يقصدُونَ دارَه فيقولُ لهم إبراهيمُ: ليْسَ إلى هذا الموْضعِ قصَدْتُم، وغدًا تأتونَه أيضًا. فما عُمِّرَ بعدَه إلاَّ دونَ السنَةِ، رحمهما اللهُ.

إسحاقُ بنُ محمدٍ، أبو يعقوبَ السَّدُوسيُّ، عُمِّرَ تسْعينَ سنةً، وكان ثقَةً صالحًا. **إسحاقُ بنُ موسى بنِ عِمرانَ الفَقيهُ**، أبو يعقوبَ الإسْفرايينيُّ الشافعيُّ. **عبيدُ الله بنُ عليِّ بنِ الحسَنِ بنِ إسْماعيلَ** أبو العباسِ الهاشميُّ، كانت إليه الحِسْبَةُ ببغدادَ وإمامَةُ جامعِ الرُّصافَةِ.

عبدُ العزيز بنُ مُعاويَةَ العَتَّابيُّ، من وَلَدِ عَتَّابِ بنِ أَسيدٍ، بصريٌّ، قَدِمَ بغْدادَ، وحدَّثَ عن أزْهَرَ السَّمَّانِ، وأبي عاصمٍ النَّبيلِ.

يزيدُ بنُ الهَيْثَم بنِ طَهْمانَ أبو خالد الدَّقَّاقُ، ويُعرفُ بالبادا. قال ابنُ الجَوْزيِّ: والصَّوابُ أنْ يقالَ: البادي؛ لأنَّه وُلِدَ تَوْأَمًا فكان هو الأوَّلَ في الميلادِ. روَى عن يَحْيَى بنِ مَعينٍ وغيرِه، وكان ثقةً صالحًا عالمًا عاملاً.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين ومائتين

فيها خرَج صالحُ بنُ مُدْرِكٍ الطائيُّ على الحاجِّ بالأَجْفُرِ، فأخَذ أموالَهم ونساءَهم وخدَمَهم، يقالُ: إنَّه أخَذ منهم ما قيمتُه ألفا ألفِ دينارٍ.

وفي ربيعٍ الأوَّلِ منها يومَ الأحدِ لعشْرٍ بَقِينَ منه ارتفَعتْ بنواحي الكُوفةِ ظُلمَةٌ شديدةٌ جدًّا، ثم

سقطَتْ أمطارٌ برُعودٍ وبُروقٍ لم يُرَ مثلُها، وسقَط في بعضِ القُرىٰ مع المطرِ حجارةٌ بِيضٌ وسُودٌ، وسقَط بَرَدٌ كِبارٌ، وَزنُ البرَدة مائةٌ وخمسون درهمًا، واقتَلعت الرياحُ شيئًا كثيرًا من النخيلِ مما حولَ دِجْلَةَ، وزادَتْ دِجْلَةُ زيادةً عظيمةً حتىٰ خيف علىٰ بَغْدادَ من الغرَقِ.

وفيها غزَا راغبٌ الخادمُ مولىٰ الموفَّقِ ببلادِ الرومِ، ففتَح حصونًا كثيرةً، وأسَر ذَراريَّ كثيرةً جدًّا، وقتَل من أُسارىٰ الرجالِ الذين تحصَّلوا معه ثلاثةَ آلافِ رقبةٍ، وعادَ سالمًا مؤيَّدًا منصورًا.

وحجَّ بالناسِ فيها محمدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ داودَ الهاشميُّ.

وفيها تُوفِّي:

أحمدُ بنُ عيسىٰ بنِ الشَّيخِ، صاحبُ آمدَ، فقام بأمرِها من بعده ولَدُه محمدٌ، فقصَده المُعتضِدُ ومعه ابنُه أبو محمدٍ عليٌّ المكتفي باللهِ، فحاصَره بها، فخرَج إليه سامعًا مُطيعًا فتسلَّمها منه، وخلَع عليه وأكرمَ أهلَه، وأحسنَ إليه، واستَخلَف عليها ولدَه المُكتَفيَ، ثم سار إلىٰ قِنَّسْرِينَ والعواصمِ، فتسلَّمها عن كتابِ هارونَ بنِ خُمارَوَيْه، وإذْنه له في ذلك ومُصالَحته له علىٰ ذلك.

وفيها غَزَا ابنُ الإخشيدِ بأهلِ طَرَسُوسَ بلادَ الرومِ، ففتَح اللهُ علىٰ يدَيْه حُصونًا كثيرةً، ولله الحمدُ.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيانِ:

إبراهيمُ بنُ إسْحاقَ بنِ بَشيرِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ دَيْسَم، أبو إسْحاقَ الحَرْبيُّ، أحدُ الأئمَّةِ في الفقهِ والحديثِ، وغيرِ ذلك، وكان زاهدًا عابدًا تخرَّج بأحمدَ بنِ حنبلٍ، وروىٰ عنه كثيرًا.

قال الدَّارَقُطْنيُّ: إبراهيمُ الحَربيُّ إمامٌ مُصنِّفٌ، عالمٌ بكلِّ شيءٍ، بارعٌ في كلِّ علمٍ، صَدوقٌ، كان يُقاسُ بأحمدَ بنِ حَنْبَلٍ في زُهْده وعلمه وورعه.

وقال إبراهيمُ الحَرْبيُّ: أجمَع عُقَلاءُ كلِّ أمةٍ أنَّ مَن لم يَجْرِ معَ القدرِ لم يتَهنَّ بعيشةٍ. وكان يقولُ: الرجلُ الذي يُدخِلُ غمَّه علىٰ نفسِه ولا يُدخِلُه علىٰ عيالِه، وقد كانت بي شقيقةٌ منذُ خمسٍ وأربعينَ سنةً ما أخبَرتُ بها أحدًا قطُّ، ولي عشْرُ سنينَ أُبصِرُ بفَرْدِ عينٍ ما أخبَرتُ بهذا أحدًا قطُّ. وذكَر أنَّه مكَث نَيِّفًا وسبعينَ سنةً من عمرِه ما يسألُ أهلَه غداءً ولا عَشاءً، بل إنْ جاءوه بشيءٍ أكلَه، وإلَّا طوىٰ إلىٰ الليلةِ القابلةِ. وذكَر أنَّه أنفَق في بعضِ الرَّمَضاناتِ علىٰ نفسِه وعيالِه درهمًا واحدًا، وأربعةَ دَوانيقَ ونصفًا، وما كنَّا نعرِفُ من هذه الطَّبائخِ شيئًا، إنَّما هو باذنْجانٌ مشْويٌّ، أو باقةُ فُجْلٍ، أو نحوُ هذا.

وقد بعَث إليه أميرُ المؤمنينَ المُعتضِدُ في بعضِ الأحْيانِ بعشَرةِ آلافِ درهمٍ، فأبَىٰ أنْ يقبلَها وردَّها، فرجَع الرسولُ وقال: يقولُ لك الخليفةُ: فرِّقْها علىٰ مَن تعرِفُ من فُقراءِ جيرانِك. فقال: هذا شيءٌ لم نجمَعْه، ولا نُسأَلُ عن جمعِه، فلا نُسأَلُ عن تفريقِه، قلْ لأميرِ المؤمنينَ: إمَّا يتْرُكُنا وإلَّا نتحوَّلُ من بلَدِه.

ولمّا حضرته الوفاةُ دخَل عليه بعضُ أصْحابِه يعودُه فقامَت ابنتُه تشكُو إليه ما هم فيه من الجهد، وأنَّه لا طعامَ لهم إلاَّ الخبزُ اليابسُ بالملح، وربَّما عدمُوا الملحَ في بعضِ الأحْيان. فقالَ لها إبْراهيمُ: يا بُنَيَّةُ تخافينَ الفقرَ؟ انظُري إلى تلك الزاوية، ففيها اثْنا عشَر ألفَ جزءٍ قد كتَبتُها في العلم، ففي كلِّ يوم بِيعي منها جزءًا بدرهم، فمَنْ عنده اثْنا عشَرَ ألفَ درهم فليسَ بفقير.

ثم كانت وفاتُه لسَبْع بَقينَ من ذي الحجَّة، وصلَّى عليه يوسُفُ بنُ يعقوبَ القاضي عندَ باب الأنبار، وكان الجمعُ كثيرًا جدًّا.

المُبَرِّدُ النحوي: محمدُ بنُ يزيدَ بن عبدالأكبر، أبو العبّاس الأزديُّ الثُّماليُّ، المعْروفُ بالمُبرِّد، النحويُّ البَصْريُّ إمامٌ في اللغة والعربية، أخَذ ذلك عن المازنيِّ، وأبي حاتم السِّجِستانيِّ، وكان ثقةً ثبْتًا فيما ينقُلُه، وكان مُناوِئًا لثَعلَب، وله كتابُ «الكامل» في الأدب، وإنَّما سُمِّي بالمُبرِّد؛ لأنَّه اختبأ من الوالي عندَ أبي حاتم تحتَ المُزَمَّلَة.

قال المبرِّدُ: دخَلنا يومًا على المجانين نزورُهم أنا وأصْحابٌ معي بالرَّقَّة، فإذا فيهم شابٌّ قريبُ عهدٍ بالمكان، عليه ثيابٌ ناعمةٌ، فلمّا أبصرَ بنا قال: حيّاكُم اللهُ، ممَّنْ أنتم؟ قلْنا: من أهلِ العراق. فقال: بأبي العراقُ وأهلُها، أنْشِدُوني أو أُنشِدُكم؟ قال المبرِّدُ: فقلتُ: بل أنشدْنا أنتَ، فقال:

اللهُ يعلَمُ أنَّني كَمِدُ ... لا أستطيعُ أُبثُّ ما أجِدُ
رُوحانِ لي روحٌ تضمَّنَها ... بلَدٌ وأخرى حازَها بلَدُ
وأرَى المقيمةَ ليسَ ينفَعُها ... صبرٌ ولا يقْوَى لها جلَدُ
وأظُنُّ غائبَتي كشاهدتي ... بمكانِها تجِدُ الذي أجِدُ

قال المبرِّدُ: فقلتُ: واللهِ إنَّ هذا لظريفٌ، فزِدْنا منه فأنشأ يقولُ:

لمّا أناخُوا قُبَيلَ الصُّبحِ عِيرَهُمُ ... ورحَّلوها فسارَتْ بالهَوى الإبِلُ
وأبرَزَتْ من خِلالِ السِّجْفِ ناظرَها ... ترنُو إليَّ ودمعُ العينِ ينهَمِلُ
وودَّعتْ ببنانٍ عَقْدُهُ عنَمٌ ... ناديتُ لا حمَلَتْ رِجْلاكَ يا جمَلُ
ويلي من البَيْنِ ماذا حلَّ بي وبهمْ ... من نازلِ البَيْنِ حانَ البينُ وارتحلوا
يا راحلَ العيسِ عجِّلْ كي أُوَدِّعَهمْ ... يا راحلَ العيسِ في ترْحالِكَ الأجَلُ
إنِّي على العهدِ لم أنقُضْ مودَّتَهم ... فليْتَ شِعْرِي لطول العَهْدِ ما فعَلوا

فقال رجلٌ من البُغَضاء الذين معي: ماتوا. فقال الشابُّ: إذًا أموتُ. فقال له: إنْ شئتَ. فتَمطَّى واستَنَدَ إلى ساريَةٍ عندَه وماتَ، وما برِحْنا حتى دفنّاه، رحمه اللهُ. ومات المُبرِّدُ وقد جاوزَ السبعينَ.

ثم دخلت سنة ست وثمانين ومائتين

فيها: وقَع تسلُّمُ آمِدَ من ابنِ الشَّيخ في ربيع الآخر، ووصَل كتابُ هارونَ بن خُمارَوَيْه بنِ أحمدَ بنِ طُولُونَ من مِصرَ إلى المُعْتَضِد وهو مُخَيِّمٌ بآمِدَ، أنْ يسلِّمَ إليه قِنَّسْرينَ والعواصمَ على أن يُقرَّه على

إمرةِ الديارِ المصريَّةِ، فأجابَه إلىٰ ذلك، ثم ترحَّل عن آمِدَ قاصداً العراقَ، وأمَر بهدمِ سُورِ آمِدَ، فهَدمَ البعضَ، ولم يقدرْ علىٰ ذلك، فقال ابنُ المُعتزِّ يهنِّئه بفَتْحِ آمِدَ:

اسلَمْ أميرَ المؤمنينَ ودُمْ ... في غِبْطَةٍ ولْيَهْنِكَ النصرُ
فلَرُبَّ حادثةٍ نهَضْتَ لها ... مُتقدِّمًا فتأخَّرَ الدهرُ
لَيثٌ فرائسُهُ اللُّيوثُ فما ... يبيضُّ من دَمِها له ظُفُرُ

ولمّا رجَع الخليفةُ إلىٰ بغدادَ جاءَته هديَّةُ عمرِو بنِ اللَّيثِ مِن نَيْسَابُورَ، فكانَ وصولُها بَغْدادَ يومَ الخميسِ لثَمانٍ بَقِينَ مِن جُمادَىٰ الآخرةِ، وكان مبلَغُها ما قيمتُه أرْبَعةُ آلافِ ألفِ درهمٍ خارِجًا عن دوابَّ وسُروجٍ، وغيرِ ذلك.

وفيها: تحارَب إسماعيلُ بنُ أحمدَ السّامانيُّ، وعمرُو بن الليثِ؛ وذلك أنَّ عمرَو بنَ الليثِ لمّا قتَل رافعَ بنَ هرْثَمةَ، وبعَث برأسِه إلىٰ الخليفةِ، سأَل منه أن يُعطيَه ما وراءَ النهرِ مُضافًا إلىٰ ما بيَدِه مِن وِلايَةِ خُراسَانَ، فأجابَه إلىٰ ذلك فانزعَج لذلك إسماعيلُ بنُ أحمدَ السامانيُّ نائبُ ما وراءَ النهرِ، وكتَب إليه: إنَّك قد وُلِّيتَ دُنْيا عريضةً، فاقتَنعْ بها عمَّا في يَدَيَّ مِن هذه البلادِ. فلم يَقْبَلْ، فأقْبَلَ إليه إسْماعيلُ بنُ أحمدَ السامانيُّ في جيوشٍ عظيمةٍ جدًّا، فالتقَيا عندَ بلْخَ، فهُزِم أصحابُ عمرٍو، وأُسِر عمرُو بنُ الليثِ، فلمّا جيء به إلىٰ إسماعيلَ بنِ أحمدَ قام إليه، وقبَّل بينَ عينَيْه، وغسَل وجهَه، وخلَع عليه وأمَّنه، وكتَب إلىٰ الخليفةِ في أمْرِه - يَذكُر أنَّ أهلَ تلك البلادِ قد ملُّوه وضَجِروا مِن ولايَتِه عليهم - فجاءَ كتابُ الخليفةِ بأنْ يتَسلَّمَ حَواصلَه وأمْوالَه، فسلَّمَه إيَّاها، فآلَ به الحالُ - بعدَ أنْ كان مطبخُه يُحمَلُ علىٰ ستِّمائةِ جملٍ - إلىٰ القَيْدِ والسِّجنِ، ومِن العجائبِ أن عمرًا كان معَه خمسونَ ألفَ مُقاتلٍ لم يُصَبْ أحدٌ منهم، ولا أُسِر سِواه.

ظهورُ أبي سعيد الجَنَّابيِّ رأسِ القَرامطَة، قبَّحهُمُ اللهُ ولعَنهم، وهم أخبثُ من الزَّنْجِ، وأشَدُّ فَسادًا:

كان ظهورُه في جُمادَىٰ الآخرةِ مِن هذه السنَةِ بنواحِي البَصْرَةِ، فالتفَّ عليه مِن الأعرابِ وغيرِهم بشَرٌ كثيرٌ، وقوِيتْ شوكَتُه جدًّا، وقتَل مَن حولَه مِن أهلِ القرَىٰ، ثم صار إلىٰ القَطِيفِ قريبًا مِن البَصْرَةِ، ورامَ دخولَها، فكتَب الخليفةُ المعتضدُ إلىٰ نائبِها يأمرُه بتحصينِ سُورِها، فعمَّروه وجدَّدُوا معالمَه بنَحوٍ مِن أرْبَعَةِ آلافِ دِينارٍ، فامتنَعت البصرةُ مِن القَرامطةِ بسبَبِ ذلك. وتغلَّب أبو سعيدٍ الجَنَّابيُّ ومَن معَه مِن القرامطَةِ علىٰ هَجَرَ، وما حولَها مِن البلادِ، وأكثروا في الأرضِ الفَسادَ.

وكان أصلُ أبي سعيدٍ الجَنَّابيِّ هذا أنَّه كان سِمسارًا في الطعامِ، يبيعُه ويحسُبُ للناسِ الأثمانَ، فقَدِمَ رجلٌ به يقالُ له: يحيىٰ بنُ المهديِّ في سنَةِ إحْدَىٰ وثمانينَ ومائتَين، فدَعا أهلَ القطيفِ إلىٰ بيعةِ المَهْدِيِّ، فاسْتَجابَ له رجلٌ يقال له: عليُّ بنُ العَلاءِ بنِ حَمْدانَ الزِّياديُّ، وساعَده في الدعوةِ إلىٰ المهديِّ، وجمَع الشِّيعَةَ الذين كانوا بالقطيفِ، فاستَجابوا له، فكان مِن جملةِ مَنِ استَجاب له أبو سعيدٍ الجَنَّابيُّ هذا، قبَّحَه اللهُ، ثم تغلَّب علىٰ أمرِهم، وأظهَر فيهمُ القَرْمطةَ، فاستَجابوا له والتفُّوا

عليه فتأمّر عليهم وصار هو المُشارَ إليه فيهم. وأصلُه من بلْدَةٍ هناك يُقالُ لها: جَنَّابَةُ. وسيأتي ما يكونُ من أمرِه وأمرِ أصحابِه.

قال ابنُ الجوزيِّ في «المُنتظم»: ومن عجائبِ ما وقَع من الحوادثِ في هذه السنَة ـ ثم روىٰ بسَنَده ـ أنَّ امرأةً تقدَّمت إلى قاضي الرَّيِّ، فادَّعت على زوْجِها بصَداقِها خمسمائة دينار، فأنكرَه الزوجُ، فجاءت ببيِّنَةٍ تشهَدُ لها به، فقالوا: نريدُ أنْ تُسفِرَ لنا عن وَجهِها حتى نعلَمَ أنَّها الزوجةُ أمْ لا. فلمّا صمَّموا على ذلك قال الزوجُ: لا تفعَلوا، هي صادقَةٌ فيما تدَّعيه. فأقَرَّ بما ادَّعتْ؛ ليصونَ زوْجتَه عن النَّظرِ إلى وجْهِها. فقالتِ المرأةُ: وإذْ قد أرادَ ذلك، فهو في حلٍّ من صداقي عليه في الدنْيا والآخرةِ.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيانِ المشاهير:

أحمدُ بنُ عيسى، أبو سعيدٍ الخَرَّازُ، فيما ذكَره شيخُنا الذَّهبيُّ.

وقد أرَّخَه ابنُ الجَوْزيِّ في سنَةِ سبعٍ وسبعينَ ومائتين. فاللهُ أعلمُ.

إسحاقُ بنُ محمد بنِ أحمدَ بن أبان، أبو يعقوبَ النَّخَعيُّ الأحمرُ، وإليه تُنسَبُ الطائفةُ الإسحاقيَّةُ من الشِّيعَةِ، وقد ذكَرَ ابنُ النُّوبَخْتيِّ، والخطيبُ، وابنُ الجَوزيِّ، أنَّ هذا الرجلَ كان يعتقدُ إلهيَّةَ عليِّ ابنِ أبي طالبٍ، وأنَّه انتقل إلى الحسَنِ ثم إلى الحُسَيْنِ، وأنَّه كان يظهَرُ في كلِّ وقتٍ، وقد اتَّبعه على هذا الكفرِ خَلْقٌ من الحَميرِ، قبَّحه اللهُ وقبَّحهم.

وإنَّما قيلَ له: الأحمرُ. لأنَّه كان أبرَصَ، وكان يطْلي برَصَه بما يُغيِّرُ لونَه، وقد أوْرَدَ له النُّوبَخْتيُّ أقوالاً عظيمةً في الكفرِ، لعنه اللهُ. وقد روىٰ شيئًا من الحكاياتِ والمُلَحِ عن المازنيِّ وطبَقتِه، ومثلُ هذا أقَلُّ وأذَلُّ من أنْ يُروَىٰ عنه.

بَقيُّ بنُ مَخْلَد بن يزيدَ، أبو عبدالرحمنِ الأَنْدَلُسيُّ الحافظُ، أحدُ عُلماءِ الغربِ، له «التفسيرُ»، و«المُسندُ»، و«السنَنُ والآثارُ» التي فضَّلها ابنُ حَزْمٍ على «تفسيرِ» ابنِ جريرٍ، و«مسندِ» أحمدَ، و«مُصنَّفِ» ابنِ أبي شيبةَ، وفيما زعَم ابنُ حزمٍ نَظَرٌ. وقد ترْجَمه الحافظُ ابنُ عساكرَ في «تاريخه» فأثنَىٰ عليه خيرًا، ووصفَه بالحفظِ والإتقانِ، وذكَر أنه كان مجابَ الدعوةِ، رحمه اللهُ، وأرَّخ وفاتَه بهذه السنة عن خمسٍ وسبعين سنةً.

والحسينُ بنُ بَشَّار بن موسى، أبو عليٍّ الخيَّاطُ، روىٰ عن أبي بلالٍ الأشعريِّ، وعنه أبو بكرٍ الشافعيُّ، وكان ثقةً، رأىٰ في منامه ـ وقد كانتْ به علَّةٌ ـ قائلاً يقولُ له: كُلْ لا، واشرَبْ لا. ففسَّره بقوله تعالىٰ: ﴿زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور: ٣٥]. فأكَل زيتونًا، وشرِب زيتًا، فبرأ من علَّته تلك.

محمدُ بنُ إبراهيمَ، أبو جَعْفَرٍ الأنماطيُّ، المعروفُ بمُرَبَّع، تلميذُ يَحيىٰ بنِ مَعينٍ، كان ثقةً حافظًا.

عبدُ الرحيمِ البَرْقيُّ. ومحمدُ بنُ وضَّاحٍ المُصنفُ. وعليُّ بنُ عبدِ العزيزِ البَغَويُّ، صاحبُ «المُسْنَد».

محمدُ بنُ يونُسَ بنِ مُوسَى بنِ سُلَيمانَ بنِ عُبيدِ بنِ رَبيعةَ بنِ كُدَيمٍ، أبو العباسِ القُرَشيُّ البَصْريُّ

الكُدَيمي، وهو ابنُ امرأةِ رَوْح بنِ عُبادةَ، وُلد سنةَ ثلاثٍ وثمانينَ ومائةٍ، وسمع عبدَ اللهِ بنَ داودَ الخُرَيْبيَّ، ومحمدَ بنَ عبدِ الله الأنصاريَّ، وأبا داودَ الطَّيالسيَّ، والأصمعيَّ، وخلقًا. وعنه ابنُ السَّمَّاك، والنَّجَّادُ. وآخرُ مَن حدَّثَ عنه أبو بكرٍ بنُ مالكٍ القَطِيعيُّ، وقد كان حافظًا مُكثِرًا مُغْرِبًا، تكلَّمَ فيه الناسُ؛ لإغرابِه في الرِّوايات. وقد ذكَرْنا ترجمتَه في كتابِنا «التَّكميل» بما فيه الكفايةُ، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

دُفِن يومَ الجمُعة قبلَ الصلاة للنصف مِن جُمادَىٰ الآخرة مِن هذه السنةِ، وقد جاوزَ المائةَ سنةٍ، وصلَّىٰ عليه يُوسُفُ بنُ يعقوبَ القاضي، رحمه اللهُ.

يَعْقوبُ بنُ إسْحاقَ بن بَخيَّةَ، أبو يوسفَ الواسطيُّ، سمع مِن يزيدَ بنِ هارونَ، وقدم بغدادَ فحدَّث بها بأرْبَعَة أحاديثَ، ووعَدَ الناسَ أن يُحدِّثَهم مِن الغدِ، فمات مِن لَيْلتِه عن مائةٍ واثنتَيْ عشْرَةَ سنَةً، رحمه اللهُ.

الوليدُ أبو عُبادةَ البُحْتري، فيما ذكَره شيخُنا الذَّهَبيُّ، وقد تقدَّم ذِكْرُه في سنَة ثلاثٍ وثمانينَ، كما ذكَره ابنُ الجوزيِّ. فاللهُ أعلمُ.

ثم دخلت سنة سبع وثمانين ومائتين

في ربيعٍ الأوَّلِ منها تَفاقَمَ أمرُ القَرامطَة صُحْبَةَ أبي سعيدٍ الجَنَّابيِّ، فقتَلُوا وسبَوا وأفْسَدُوا في بلادِ هَجَرَ، فجهَّزَ الخليفةُ إليهم جيشًا كثيفًا، وأمَّرَعليهم العبَّاسَ بنَ عمرٍو الغَنَويَّ، وأمَّرَه على اليَمامَة والبَحْرَيْنِ ليُحاربَ أبا سعيدٍ، فالْتَقَوا هُنالك، والعبَّاسُ في عشَرَة آلافِ مُقاتلٍ، فأسَرهم أبو سعيدٍ كلَّهم فنجا مِن بينهم كلِّهم الأميرُ وحدَه، وقُتِل الباقُونَ عن آخرهم صَبْرًا بينَ يدي أبي سعيدٍ، قبَّحَه اللهُ. وهذا عجيبٌ جدًّا، وهو عكْسُ واقعة عمرِو بنِ اللَّيْث؛ فإنَّه أُسِرَ مِن بينِ أصْحابه وكانُوا خمسينَ ألفًا. ويقالُ: إنَّ العباسَ لمَّا قتَل أبو سعيدٍ أصْحابَه صَبْرًا بينَ يديْه والعباس ينْظُرُ، أقامَ عندَ أبي سعيدٍ أيامًا، ثم أطْلَقَه وحمَله على رَواحلَ، وقال: ارْجِعْ إلىٰ صاحبِكَ فأخْبِرْه بما رأيْتَ. وقد كانت هذه الواقعةُ في أواخرِ شعبانَ مِن هذه السنة، فلمَّا وقَع هذا انْزعج الناسُ لذلك انْزعاجًا عظيمًا جدًّا. وهَمَّ أهلُ البَصْرَة بالجلاء منها، فمنَعهم مِن ذلك نائبُها أحمدُ الواثقيُّ، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

وفيها أغارَت الرومُ علىٰ بلادِ طَرَسُوسَ، وكان نائبُها وهو ابنُ الإخْشيد قد تُوفِّي في العامِ الماضي واسْتَخلَف علىٰ الثَّغْرِ أبا ثابتٍ، فطمعت الرومُ في تلك الناحيَة وحشَدُوا عساكرَهم إلىٰ هنالك، فالْتقَاهم أبو ثابتٍ فلم يقْدرْ علىٰ مُقاومَتهم، فقتَلُوا مِن أصْحابِه جماعةً وأسَرُوه في من أسَرُوا، فاجْتَمعَ أهلُ الثغرِ على ابنِ الأعْرابيِّ فولَّوه أمرَهم. وذلك في ربيعٍ الآخرِ.

وفيها قُتل:

محمدُ بنُ زَيْد العَلَويُّ أميرُ طَبَرِسْتانَ والدَّيْلَم؛ وكان سببَ ذلك أنَّه لما ظفر إسماعيلُ بنُ أحمدَ

السامانيُّ بعمرِو بنِ اللَّيْثِ نائبِ خُراسانَ ظَنَّ محمدٌ أنَّ إسْماعيلَ لا يُجاوزُ عملَه، وأنَّ خُراسانَ قد خلَتْ له، فارْتَحَل مِن بلَدِه يريدُها، وسبَقَه إلىٰ خراسانَ إسْماعيلُ بنُ أحمدَ، وكتَب إليه أنِ الْزَمْ عملَكَ ولا تجاوِزْه إلىٰ غيرِه. فلم يقْبَلْ، فبعَث إليه جيشًا مع محمدِ بنِ هارونَ الذي كان ينُوبُ عن رافعِ بنِ هَرْثَمةَ، فلمَّا الْتقَيا هرَب منه محمدُ بنُ هارونَ خَديعَةً، فسارَ الجيشُ وراءَه في الطَّلَبِ فكَرَّ عليهم راجعًا، فانهزَمُوا منه، فاحتاز ما في مُعَسْكَرهم، وجُرِحَ محمدُ بنُ زيدٍ جِراحاتٍ شديدةً، فماتَ بسبَبِها بعدَ أيامٍ، وأُسِر ولَدُه زيدٌ، فبُعِث به إلىٰ إسماعيلَ بنِ أحمدَ فأكْرَمه وأنزَله بُخارىٰ.

وقد كان محمدُ بنُ زَيْدٍ هذا فاضلاً دَيِّنًا حسَنَ السِّيرةِ فيما ولِيَه مِن تلك البلاد، وكان فيه تشيُّعٌ، فتقدَّمَ إليه يومًا خَصْمانِ؛ اسمُ أحَدِهما مُعاوِيَةُ واسْمُ الآخرِ عليٌّ، فقال محمدُ بنُ زيدٍ: إنَّ الحُكْمَ بيْنَكما ظاهِرٌ، فقال معاويةُ: أيُّها الأميرُ، لا تغْتَرَّنَّ بنا فإنَّ أبي كان مِن كبارِ الشِّيعَةِ، وإنّما سمَّاني معاوِيَةَ مُداراةً لِمَنْ ببلَدِنا مِنَ السُّنَّةِ. وهذا كان أبُوه مِن كبارِ النَّواصِبِ، فسمَّاه عليًّا تُقاةً لكم. فتَبَسَّم محمدُ بنُ زيد وأحْسن إليه، رحِمه اللهُ.

قال ابنُ الأثير في «كامله»: وممَّنْ تُوفِّي في هذه السنة **إسحاقُ** بنُ أيوبَ بنِ عمرَ بنِ الخطَّابِ العَدَويُّ، عَدِيُّ رَبيعةَ، وكانَ أميرًا علىٰ ديارِ ربيعةَ مِن الجزيرةِ، فوُلِّي مكانَه عبدُ الله بنُ الهَيْثمِ بنِ عبدِ الله بنِ المعْتَمِرِ. **وعليُّ** بنُ عبدِ العزيزِ البَغَويُّ، صاحِبُ أبي عُبَيْدٍ القاسمِ بنِ سلاَّمٍ. وفهدُ بنُ أحمدَ بنِ فهدٍ الأزْديُّ المَوْصليُّ، وكان مِن الأعْيانِ. وذكَر هو وأبو الفرجِ بنُ الجَوْزيِّ أنَّ قَطْرَ النَّدَىٰ بنْتَ خُمارَوَيْه بنِ أحمدَ بنِ طُولُونَ امْرأةَ المُعْتَضدِ باللهِ تُوفِّيت في هذه السَّنة. قال ابنُ الجَوْزيِّ: لسَبْعٍ خلَونَ مِن رجَبٍ منها، ودُفِنتْ داخلَ قَصْرِ الرُّصافَةِ. **ويعقُوبُ** بنُ يُوسُفَ بنِ أيُّوبَ، أبو بكرٍ المُطَّوِّعِيُّ، سمعَ أحمدَ بنَ حنبلٍ، وعليَّ بنَ المَدِينيِّ، وعنه النَّجَّادُ والخُلْدِيُّ، كان وِرْدُه في كلِّ يومٍ قراءَةَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إحدىٰ وثلاثينَ ألفَ مرَّةٍ، أو إحْدَىٰ وأربعين ألفَ مرَّةٍ.

قلتُ: **وممَّنْ تُوفِّي فيها: أبو بكرِ بنُ أبي عاصمٍ** صاحبُ السُّنَّةِ والمُصنَّفات، وهو: **أحمدُ بنُ عَمْرِو ابنِ أبي عاصمٍ الضَّحَّاكِ** بن مخلدٍ النَّبِيلِ، له مُصنَّفاتٌ في الحديثِ كثيرةٌ؛ منها كتابُ «السُّنَّة» في أحاديثِ الصِّفاتِ علىٰ طريقةِ السَّلَفِ، وكان حافظًا كبيرًا جليلاً، قد وَلِيَ قضاءَ أصْبهانَ بعدَ صالحِ ابنِ الإمامِ أحمدَ، وكان قد طاف البلادَ في طلَبِ الحديثِ، وصَحِبَ أبا تُرابٍ النَّخْشَبِيَّ، وغيرَه من مشايخِ الصوفيَّةِ، وقدِ اتَّفَق له مَرَّةً كرامةٌ هائلةٌ؛ كان هو واثْنانِ من كبارِ الصالحينَ في سفَرٍ، فنَزَلُوا يومًا علىٰ رَمْلٍ أبْيَضَ، فجعَلَ أبو بكرٍ هذا يُقَلِّبُه بيَدِه، ويقولُ: اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا خَبِيصًا يكون بلَوْنِ هذا. فلم يكُنْ بأسْرَعَ مِن أنْ أقْبَلَ أعْرابيٌّ وبيَدِه قَصْعَةٌ فيها خَبِيصٌ بلَوْنِ ذلك الرملِ في بَياضِه، فأكَلُوا منه، رحِمه اللهُ. وكان يقولُ: لا أحِبُّ أن يحضُرَ مجْلِسِي مُبْتَدِعٌ ولا طَعَّانٌ ولا لَعَّانٌ ولا فاحِشٌ ولا بَذِيءٌ، ولا مُنْحَرِفٌ عن الشافعيِّ وأصحابِ الحديثِ. وكانت وفاتُه في هذه السنَةِ بأصْبهانَ، وقد رآه بعْضُهم بعدَ وفاتِه وهو يصلِّي، فلمَّا انْصرفَ قال: ما فعَل اللهُ بك؟ فقال: يُؤْنِسُنِي ربِّي عزَّ وجلَّ.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين ومائتين

اتفَقَ في هذه السنَة مَصائبُ عديدةٌ؛ منها أنَّ الرومَ قصدُوا بلادَ الرَّقَّة في جَحافِلَ مِن البَرِّ والبحرِ، فقتَلُوا خَلْقًا وأسرُوا نَحْوًا من خَمْسَةَ عشرَ ألفًا من الذُّرِّيَّة. ومنها أنَّ بلادَ أذْرَبِيجانَ أصابَ أهلَها وَباءٌ شديدٌ حتى لم يَبْقَ أحدٌ يقدِرُ على دَفْنِ المَوْتى، فتُركُوا في الطرقِ لا يُوارَوْنَ عن الأبصارِ. ومنها أنَّ بلادَ أرْدَبيلَ أصابتْها ريحٌ شديدةٌ أيضًا من بعدِ العصرِ إلى ثُلُثِ الليلِ، ثم زُلْزِلُوا زِلْزالًا شديدًا، واستَمَرَّ ذلك أيامًا فتَهدَّمَت الدورُ والمنازلُ، وخُسِفَ بآخَرينَ منهم، وكان جملةُ من ماتَ تحتَ الهَدْمِ مائةَ ألفٍ وخمْسينَ ألفًا، فإنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعونَ. وفيها اقترَب القرامطةُ من البَصْرَة، فخافَ أهلُها خوفًا شديدًا، وهمُّوا بالرَّحيلِ منها، فمنَعَهم واليها.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

بِشْرُ بنُ مُوسى بنِ صالحٍ أبو عليٍّ الأسَديُّ وُلِدَ سنةَ تسعين ومائةٍ، وسمعَ من رَوْحِ بنِ عُبادَةَ حديثًا واحدًا، وسمعَ الكثيرَ من هَوْذَةَ بنِ خليفةَ، والحسَنِ بنِ موسَى الأشْيَبِ، وأبي نُعَيْمٍ، وعليِّ بنِ الجَعْدِ، والأصمَعيِّ، وغيرِهم، وعنه ابنُ المُنادي وابنُ مَخْلَدٍ وابنُ صاعدٍ والنَّجَّادُ وأبو عمرَ الزاهدُ والخُلْديُّ والخُطَبيُّ وأبو بكرٍ الشافعيُّ وابنُ الصوَّافِ وغيرُهم. وكان ثقةً أمينًا حافظًا، وكان مِن أهلِ البُيوتات، وكان أحمدُ يكْرِمُه.

ومن شعره:

ضَعُفْتُ ومن جازَ الثمانينَ يضْعُفُ ... ويُنكَرُ منه كلُّ ما كانَ يُعْرَفُ

ويمشي رُوَيْدًا كالأسيرِ مقيَّدًا ... يُداني خُطَاه في الحديدِ ويَرْسُفُ

ثابتُ بنُ قُرَّةَ بنِ هارونَ - ويقالُ: زَهْرُونُ - بنِ ثابتِ بنِ كرايا بنِ إبراهيمَ الصَّابئُ الفيلَسُوفُ الحَرَّانيُّ، صاحبُ التصانيفِ، من جملتِها أنَّه حرَّرَ كتابَ أُقْليدِسَ الذي عرَّبَه حُنَيْنُ بنُ إسْحاقَ العِباديُّ. وكان أصلُه صيرفيًا بحرَّانَ فتركَ ذلك واشتَغَل بعلمِ الأوائلِ، فنالَ منه رُتْبَةً ساميَةً عندَ أهلِه، ثم صارَ إلى بَغْدادَ فعَظُمَ شأنُه بها، وكان يدخُلُ مع المُنجِّمينَ على الخليفةِ، وهو باقٍ على دينِ الصَّابئة، وحَفيدُه ثابتُ بنُ سنانٍ له تاريخٌ أجاد فيه وأحْسَن، وكان بليغًا ماهرًا حاذقًا بالغًا. وعمُّه إبراهيمُ بنُ ثابتِ بنِ قُرَّةَ كان طَبيبًا عارفًا أيضًا. وقد سرَدَهم كلَّهم في الترجمة القاضي ابنُ خَلِّكانَ.

الحسَنُ بنُ عَمْرِو بنِ الجَهْمِ أبو الحسنِ الشّيعيُّ، من شيعَةِ المَنْصورِ لا مِنَ الرَّوافضِ، حدَّثَ عن عليِّ ابنِ المَدينيِّ، وحكَى عن بِشْرٍ الحافي. وعنه أبو عمرِو بنُ السَّمَّاك.

عُبَيْدُ اللهِ بنُ سُلَيمانَ بنِ وَهْبٍ، وزيرُ المُعْتَضِد، كان حظيًّا عندَه، وقد عزَّ عليه وفاتُه وتألَّمَ لفَقْدِه، وأهمَّه مَن يَجْعلُه من بعده، فعَقَدَ لولَدِه القاسمِ بنِ عُبَيدِ اللهِ الوَزارةَ من بعدِ أبيه جَبْرًا لمُصابه به.

وأبو القاسم عُثْمانُ بنُ سعيدِ بنِ بَشَّارٍ المعْروفُ بالأنْماطيِّ، أحدُ كبارِ الشافعيَّة. وقد ذكَرْناه في «طَبَقاتهم».

وهارونُ بنُ محمدِ بنِ إسْحاقَ بنِ مُوسَى بنِ عيسى، أبو موسى الهاشميُّ، إمامُ الناسِ في الحجِّ. سمعَ وحدَّثَ وتُوفِّيَ بمِصْرَ في رمضانَ من هذه السنةِ.

ثم دخلت سنة تسع وثمانين ومائتين

فيها عاثَتِ القَرامطَةُ بسَوادِ الكُوفَةِ، فظفَرَ بعضُ العُمَّالِ بطائفةٍ منهم فبعَثَ برئيسِهم إلى المُعْتَضِدِ؛ وكان يقالُ له: أبو الفَوارسِ. فنالَ من العباسِ بينَ يَدَيِ الخليفةِ، فأمَرَ به فقُلِعَتْ أضْراسُه وخُلِعَتْ يدَاه ثم قُطِعَتا مع رِجْلَيْه، ثم قُتِلَ وصُلِبَ ببَغْدادَ وأُشْهِرَ أمرُه.

وفيها قصدَتِ القَرامطَةُ دمَشْقَ في جَحْفَلٍ عظيمٍ، فقاتَلَهم نائبُها طُغْجُ بنُ جُفٍّ من جهةِ هارُونَ ابنِ خُمارَوَيْه، فهزَمُوه مرَّاتٍ مُتَعدِّدَةً، وتَفاقَمَ الحالُ بينَهم، وكان ذلك بسفارَةِ يَحْيَى بنِ زِكْرَوَيْه بنِ مِهْرَوَيْه الذي ادَّعَى عندَ القَرامطَةِ أنَّه محمدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ محمدِ بنِ إسْماعيلَ بنِ جَعْفَرِ بنِ محمدِ بنِ عليِّ بنِ الحسينِ بنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ، وقد كذَبَ في ذلك، وزَعَمَ لهم أنَّه قد اتَّبَعه على أمْرِه مائةُ ألفٍ، وأنَّ ناقَته مأْمورَةٌ حيثُ ما توَجَّهَتْ به نُصِرَ على أهلِ تلك الناحيةِ. فراجَ ذلك عندَهم ولَقَّبوه الشيخَ، واتَّبعَه طائفةٌ من بَني الأصْبَغِ، وسمَّوا بالفاطميِّينَ. وقد بعَثَ إليهم الخليفةُ جيشًا كثيفًا فهزَموه، ثم اجْتازُوا بالرُّصافَةِ فأحْرَقوا جامعَها، ولم يجْتازُوا بقَرْيَةٍ إلَّا انتَهبوها، ولم يزَلْ ذلك دأْبَهم حتى وصَلُوا إلى دمَشْقَ فقاتَلَهم نائبُها فهزَموه مرَّاتٍ وقتَلُوا من أهْلِها خلْقًا كثيرًا، وانْتَهبُوا من أموالِها شيئًا كثيرًا، فإنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعونَ.

وفي هذه الحالِ الشديدةِ اتَّفقَ موتُ الخليفةِ المُعْتَضِدِ باللهِ في ربيعٍ الأولِ من هذه السنةِ، أحسَنَ اللهُ خاتمتَها.

وهذه ترجمة المعتضد

أحمدُ بنُ الأميرِ أبي أحمدَ المُوَفَّقِ المُلَقَّبِ بناصرِ دينِ اللهِ - واسمُ أبي أحمدَ محمدٌ، وقيل: طَلْحَةُ - ابنِ جَعْفَرٍ المُتَوكِّلِ على اللهِ بنِ محمدٍ المُعْتَصِمِ بنِ هارونَ الرشيدِ، أبو العبَّاسِ أميرُ المؤمنينَ، الخليفةُ المعْتَضِدُ باللهِ. وُلِدَ في سنَةِ ثِنْتَيْنِ. وقيل: ثلاثٍ وأرْبَعينَ ومائتيْنِ. وأمُّه أمُّ ولَدٍ. وكان أسْمَرَ نحيفَ الجسْمِ مُعْتَدِلَ القامَةِ، قد وَخَطَه الشيبُ، وفي مقدَّمِ لحْيَتِه طُولٌ، وفي رأسِه شامَةٌ بَيْضاءُ.

بُويعَ له بالخلافةِ صبيحةَ يومِ الإثنين لإحْدَى عشْرَةَ بَقِيَتْ من رجَبٍ سَنَةَ تسْعٍ وسَبْعينَ ومائتَيْنِ، فاستَوْزَر عبيدَ اللهِ بنَ سُلَيمانَ بنِ وهبٍ، وولَّى القضاءَ إسْماعيلَ بنَ إسْحاقَ، ويُوسُفَ بنَ يعْقُوبَ، وابنَ أبي الشَّوارِبِ. وكان أمرُ الخلافةِ قد ضَعُفَ في أيامِ عمِّه المعْتَمِدِ على اللهِ، فلمَّا وَلِيَ المُعْتَضِدُ أقامَ شِعارَها، ورفَعَ منارَها وشيَّدَ دعائمَها وحيطانَها، وأطَّدَ أركانَها.

وكان شُجاعًا فاضلًا، من رِجالاتِ قُرَيْشٍ حَزْمًا وجُرْأةً وغزْوًا وعزًّا وإقْدامًا وحُرْمَةً، وكذلك كان

أبوه من قبله.

وقد أوردَ ابنُ الجوزيِّ بإسناده أنَّ المُعتضدَ اجتازَ في بعض أسفاره بقرية فيها مَقْثَأةٌ، فوقَفَ صاحبُها صائحًا مُستصرخًا بالخليفة، فاستدعىٰ به فسألَه عن أمره، فقال: إنَّ بعضَ الجيشِ أخذُوا لي شيئًا من القثَّاء وهم من غلمانك. فقال: أتعرفُهم؟ قال: نعم. فعرضَهم عليه فعرفَ منهم ثلاثةً، فأمرَ الخليفةُ بتقييدهم وحبسهم، فلمَّا كان الصباحُ نظَرَ الناسُ ثلاثةَ أنفُسٍ مَصلُوبينَ علىٰ جادَّة الطريق، فاستعظمَ الناسُ ذلك واستنكروه، وعابُوا ذلك علىٰ الخليفة، وقالوا: قتَلَ ثلاثةً بسبَبِ قثَّاء أخذُوه؟ فلمَّا كان بعدَ قليلٍ، أمرَ الخواصُّ مُسامرَه أنْ يُنكرَ عليه ذلك، وليتلطَّفْ في مُخاطبته بذلك، فدخَلَ عليه ذاتَ ليلةٍ وقد عزَم علىٰ ذلك، ففهمَ الخليفةُ ما في نفسه من كلامٍ يريدُ أنْ يُبديَه، فقال له: إنِّي أعرفُ أنَّ في نفسكَ كلامًا، فما هو؟ فقال: يا أميرَ المؤمنينَ، وأنا آمنٌ؟ قال: نعم. قلتُ له: فإنَّ الناسَ يُنكرُونَ عليكَ تسرُّعَكَ في سَفْك الدماء. فقال: والله ما سفكْتُ دمًا حرامًا منذُ وُلِّيتُ الخلافة إلا بحقِّه. فقلتُ له: فعلامَ قتلْتَ أحمدَ بنَ الطيب وقد كان خادمَك، ولم يظهرْ له جنايةٌ؟ فقال: وَيْحَكَ، إنَّه دَعاني إلىٰ الإلحاد والكفر بالله فيما بيني وبيْنَه، فقلتُ له: يا هذا أنا ابنُ عم صاحب الشريعة، وأنا مُنتَصِبٌ في منصبه، فأكفُرُ حتىٰ أكونَ من غير قبيلته؟ فقتَلْتُه علىٰ الكفر والزندقة. فقلتُ له: فما بالُ الثَّلاثة الذين قتلْتَهم في القثَّاء؟ فقال: والله ما كان أولئك الذين أخذُوا القثَّاءَ، وإنّما كانوا لُصوصًا قد قتَلُوا وأخذُوا المالَ فوجَبَ قتْلُهم، فبعثتُ فجئتُ بهم من السِّجْن فقتلْتُهم وأريتُ الناسَ أنَّهم الذين أخذُوا القثَّاءَ، وأردْتُ بذلك أنْ أُرهبَ الجيشَ؛ لئلاَّ يُفسدُوا في الأرض ويتعَدَّوا علىٰ الناس، ويكُفُّوا عن الأذىٰ. ثم أمَر بإخراج أولئكَ الذين كان حبسَهم بسبب القثَّاء فأطْلقَهم بعدَ ما استتابَهم وخلَع عليهم وردَّهم إلىٰ أرزاقهم التي كانت لهم.

قال ابنُ الجوزيِّ: وخرَج المُعتضدُ يومًا فعسْكَرَ بباب الشمّاسيَّة ونَهىٰ أنْ يأخُذَ أحدٌ من بُستانِ أحدٍ شيئًا، فأُتي بأسْوَدَ قد أخَذَ عذقًا من بُسْرٍ، فتأمَّلَه طويلاً ثم أمَر بضرْب عُنُقه، ثم الْتَفَتَ إلىٰ أصحابه وقال: إنَّ العامَّةَ يُنكرونَ هذا ويقولُونَ: إنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا قَطْعَ في ثَمَرٍ ولا كَثَرٍ»[1]. ولم يكفه أن يقْطَعَ يدَه حتىٰ قتلَه، وإني لم أقْتُلْ هذا علىٰ سَرِقَته، وإنَّما هذا الأسْوَدُ له خبرٌ طريفٌ، هذا رجلٌ من الزَّنْج كان قد استأمنَ في حياة أبي، وإنَّه تقاوَلَ هو ورجلٌ من المسلمين فضرَب المسلمَ فقطعَ يدَهُ فماتَ المسلمُ، فأهْدَرَ أبي دَمَ الرجلِ المقْتُول تأليفًا للزَّنْج، فآليْتُ علىٰ نَفْسي لئنْ أنا قدَرْتُ عليه لأَقْتُلَنَّه، فما وقعَت عيني عليه إلاَّ هذه الساعةَ، فقَتَلْتُه بذلك الرجلِ.

وقال أبو بكر الخطيبُ: أخبرنا محمدُ بنُ أحمدَ بن يَعْقوب، حدَّثنا محمدُ بنُ نُعَيم الضَّبِّيُّ، سمعْتُ

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه أبو داود (٤٣٨٨) عن القعنبي عن مالك بن أنس عن يحيىٰ بن سعيد عن محمد بن يحيىٰ ابن حبان عن رافع بن خديج وذكر في الحديث قصة وهذا إسناد صحيح رجاله ثقات ومحمد بن يحيىٰ لم ينف أحد سماعه من رافع فيما علمت وقد روىٰ عن غير واحد من الصحابة. رضي الله عنهم.

أبا الوليدِ حسانَ بنَ محمدٍ الفقي يقولُ: سمعتُ أبا العباس ابنَ سُرَيْجٍ يقولُ: سمعتُ إسْماعيلَ بنَ إسْحاقَ القاضي يقولُ: دخلتُ على المُعْتَضِدِ وعلى رأسه أحْداثٌ رُومٌ صِباحُ الوجوه، فنَظَرْتُ إليهم، فرآني المُعتَضِدُ وأنا أتأمَّلُهم، فلمَّا أردتُ القيامَ أشارَ إليَّ فمكثْتُ ساعةً، فلمَّا خلا قال لي: أيُّها القاضي، والله ما حلَلْتُ سَراويلي على حرامٍ قطُّ.

ورَوَىٰ البَيهَقيُّ، عن الحاكم، عن حسَّانَ بنِ محمدٍ، عن ابنِ سُرَيْجٍ، عن القاضي إسْماعيلَ بنِ إسْحاقَ، قال: دخلتُ يومًا على المُعْتَضِد، فدَفَع إليَّ كتابًا فقرأتُه، فإذا قد جُمع له فيه الرُّخَصُ من زَلَلِ العُلَماء. فقلتُ: يا أميرَ المؤمنينَ، إنَّما جمَع هذا زِنْديقٌ. فقال: كيفَ؟ فقلتُ: إنَّ مَن أباحَ النَّبيذَ لم يُبحِ المتعةَ، ومَن أباحَ الغناءَ لم يُبحِ النبيذَ، ومَن جمَع زَلَلَ العُلَماءِ ثم أخَذ بها ذهَبَ دِينُه. فأمرَ بتَحْريقِ ذلك الكتاب.

ورَوَىٰ الخطيبُ بسنَدِه عن صافي الحُرَميِّ الخادم قال: انْتَهىٰ المُعْتَضِدُ وأنا بينَ يدَيْه إلى منْزِل شَغْب، وابنُه المقتدرُ جَعفرٌ جالسٌ فيه وحولَه نحوٌ من عشْرٍ من الوَصائف، والصِّبْيانُ من أصْحابه في سنِّه عندَه، وبينَ يدَيْه طبَقٌ من فضةٍ فيه عُنْقُودُ عنَبٍ، وكان العنبُ إذ ذاك عزيزًا جدًّا، وهو يأكلُ عنَبَةً واحدةً ثم يُفرِّقُ على كلِّ واحدٍ من جلسائه عنبةً عنَبَةً، فتركَه المُعْتَضِدُ وجلَس ناحيةً في بيتٍ مَهْمُومًا. فقلتُ له: ما لكَ يا أميرَ المؤمنينَ؟ فقال: وَيْحَكَ، والله لولا النارُ والعارُ لأَقْتُلَنَّ هذا الغُلامَ، فإنَّ في قتْله صلاحًا للأمَّة. فقلتُ: أُعيذُكَ بالله يا أميرَ المؤمنينَ، الْعَنِ الشيطانَ. فقال: وَيْحك يا صافي إنَّ هذا الغلامَ في غايةِ السَّخاء لما أراه يَفْعَلُ مع الصِّبْيان؛ فإنَّ طِباعَ الصِّبْيان تأبَىٰ الكرَمَ، وهذا في غاية الكرَم، وإنَّ الناسَ بعدي لا يُوَلُّونَ عليهم إلا مَن هو مِن ولَدي، فسيَلي عليهم المُكْتَفي ثم لا تطولُ أيامُه لعلَّته التي به - وهي داءُ الخَنازيرِ - ثم يموتُ فيُولَىٰ على الناس جَعْفَرٌ هذا، فيصرفُ جميعَ أمْوال بيتِ المالِ إلى الحظَايَا؛ لشَغَفِه بهنَّ، وقُرْبِ عهْدِه من تشبهه بهنَّ، فتضيعُ أمورُ المسلمين وتُعَطَّلُ الثغورُ وتكثُرُ الفتَنُ والهَرَجُ والخَوارِجُ والشرورُ. قال صافي: فوالله لقد شاهَدتُ ما قالَه سَواءً بسَواء.

ورَوَىٰ ابنُ الجَوْزيِّ عن بعضِ خَدمِ المُعْتَضِد، قال: كانَ المُعْتَضِدُ يومًا نائمًا وقتَ القائلة ونحنُ حولَ سريرِه، فاستَيقظَ مذْعُورًا، فصرَخ بنا، فجئْنا إليه، فقال: ويْحَكُمْ اذهبُوا إلى دجْلَةَ فأوَّلُ سفينة تجدونها فارغةً مُنْحَدِرَةً فأْتُوني بمَلاَّحِها واحْتَفِظُوا بها. فذَهَبْنا سراعًا فوَجَدْنا ملاَّحًا في سُمَيْرِيَّة فارغَة مُنْحدرًا فأتَيْنا به الخليفةَ، فلمَّا رأى الملاحُ الخليفةَ كاد يتْلَفُ، فصاحَ به الخليفةُ صَيْحَةً عظيمةً فكادتْ رَوحُ الملاَّحِ تخرجُ، فقال له الخليفةُ: ويْحَكَ يا ملْعونُ، اصْدُقْني عن قصتِّكَ مع المرأة التي قَتَلْتَها اليومَ وإلاَّ ضرَبْتُ عُنُقَكَ. قال: فتلَعْثَمَ، ثم قال: نعم يا أميرَ المؤمنينَ، كنتُ اليومَ سحَرًا في مشْرَعتي الفُلانيَّة، فنزلَت امْرأةٌ لم أرَ مثلَها وعليها ثيابٌ فاخرةٌ وحَلْيٌ كثيرٌ وجَوْهَرٌ، فطمعتُ فيها واحْتَلْتُ عليها حتى سَدَدْتُ فاهَا وغرَّقْتُها وأخَذْتُ جميعَ ما كان عليها من الحَلْي والثياب، وخشيتُ أنْ أرجعَ به إلى منْزِلي فيَشْتَهِرَ خبَرُها، فأردت الذَّهابَ إلى واسطٍ، فلَقِيَني هؤلاءِ الخَدَمُ فأخَذُوني. فقال له:

- وأينَ حُلِيُّها؟ فقال: في صَدْرِ السفينة تحتَ البَواريِّ. فأمرَ الخليفةُ بإحْضارِ الحلْيِ، فجيءَ به فإذا هو حَليٌّ كثيرٌ يُساوي أموالاً كثيرةً، فأمرَ الخليفةُ بتَغْريقِ الملاَّحِ في المكانِ الذي غرَّقَ فيه المرأةَ، وأمرَ أنْ يُناديَ على أهلِ المرأةِ ليَحْضُروا حتى يتسلَّموا مالَ وليَّتِهم. فنادَىٰ بذلك ثلاثةَ أيامٍ في أسْواقِ بَغْدادَ وأزِقَّتِها، فحضَروا بعدَ ثلاثةِ أيامٍ، فسلَّم إليهم ما كان مع تلك المرأةِ من الحلْيِ والثيابِ فقال له خدَمُه: يا أميرَ المؤمنين، مِن أينَ علمتَ هذا؟ قال: رأيتُ في نَوْمي تلك الساعةَ شيْخًا أبيضَ الرأسِ واللِّحْيَةِ والثِّيابِ وهو يُنادي: يا أحمدُ يا أحمدُ، خُذْ أوَّلَ ملاَّحٍ ينْحَدرُ الساعةَ فاقْبِضْ عليه وقرِّرْه عن خبرِ المرأةِ التي قتَلَها اليومَ وسلَبَها، فأقِمْ عليه الحدَّ. فكان ما شاهَدْتُم.

وعن خفيفٍ السَّمَرْقَنْديِّ الحاجبُ قال: كنتُ مع مَوْلايَ المُعْتَضِدِ في بعضِ مُتَصَيَّداته، وكان قد انقَطَعَ عن العسكرِ وليس معه غيري، إذ خرَج علينا أسدٌ فقَصَد قصْدَنا، فقال لي المُعْتَضِدُ: يا خفيفُ أفيكَ خيرٌ؟ قلتُ: لا والله يا مولاَي. فقال: ولا حتى تُمسكُ فرَسي وأنزلُ أنا؟ فقلتُ: بلىٰ. قال: فنزَلَ عن فرسه فأمسكتُها، وغرَزَ أطرافَ ثيابِه في مِنْطَقَته واستَلَّ سيفَه ورمىٰ بقرابِه إليَّ، ثم تقدَّمَ إلى الأسَدِ فوثَب الأسدُ عليه فضرَبَه المعتضدُ بالسيفِ فأطارَ يدَه، فاشْتَغلَ الأسدُ بيَدِه، فضرَبَه ثانيةً في هامَتِه ففلَقَها، فخرَّ الأسدُ صَريعًا، فدَنا منه فمسَحَ سيفَه في صُوفِه، ثم أقْبلَ إليَّ فأغْمَد سيفَه في قرابِه، ثم ركِبَ فرسَه ثم عُدْنا إلى العسكرِ. قال: وصحِبتُه إلى أنْ ماتَ فوالله ما سمِعْتُه ذكَر ذلك لأحَدٍ، فما أدْري من أي شيءٍ أعْجَبُ؛ من شَجاعتِه؟ أم من عدَمِ احْتفالِه بذلك حيثُ لم يذْكُرْه لأحدٍ؟ أم من عدَمِ عَتْبِه عليَّ حيثُ ضَنَنْتُ بنَفْسي عنه؟ والله ما عاتَبَني في ذلك قطُّ.

وروىٰ الحافظُ ابنُ عساكرَ، عن أبي الحُسَيْنِ النوريِّ أنَّه اجْتازَ بزَوْرَقٍ فيه خمرٌ مع ملاَّحٍ، فقال: ما هذه؟ ولِمَنْ هذه؟ فقال له: هذه خمرٌ للمُعْتَضِدِ. فصَعِد أبو الحُسَيْنِ إليها فجَعَلَ يضْرِبُ الدِّنانَ بعَمُودٍ في يَدِه حتىٰ كسَرها كلَّها إلا دَنًّا واحدًا ترَكَه، واستَغاثَ الملاَّحُ، فجاءَتِ الشرطةُ فأخذُوا أبا الحسينِ فأوْقَفُوه بينَ يدَي المُعْتَضِدِ فقال له: مَن أنتَ؟ فقال: مُحتَسِبٌ. فقال: ومَن ولاَّكَ الحِسْبَةَ؟ فقال: الذي ولاَّكَ الخلافةَ يا أميرَ المؤمنينَ. فأطْرَقَ رأسَه ثم رفَعَها فقال: ما الذي حمَلَكَ على ما فعلْتَ؟ فقال: شفَقَةً عليك لدفْعِ الضَّررِ عنك. فأطْرَقَ رأسَه ثم رفعَه فقال: ولِمَ ترَكْتَ من الدِّنانِ واحدًا فقال: إنِّي أقدمْتُ عليها فكسَرْتُها إجْلالاً لعظمةِ الله تعالىٰ، ولم أبالِ أحدًا من الناسِ حتى انْتَهيتُ إلى هذا الدَّنِّ، فتخَوَّفتُ على نفسي كِبْرًا، على أنِّي أقدمتُ على مثْلِكَ، فترَكْتُه. فقال له المُعْتَضِدُ: اذهَبْ، فقد أطلَقتُ يدَكَ فغيِّرْ ما أحبَبْتَ أن تغيِّرَه من المنكرِ. فقال النوريُّ: الآنَ نقَص عَزْمي عن التَّغْييرِ، فقال: ولِمَ؟ فقال: لأنِّي كنتُ أغيِّرُ عن الله، وأنا الآنَ أغيِّرُ عن شُرْطيٍّ. فقال: سَلْ حاجَتَك. فقال: أُحبُّ أنْ تُخرِجَني من بين يدَيْكَ سالمًا. فأمَر به فأُخرِجَ فصارَ إلى البَصْرَةِ، فأقامَ بها مخْتَفِيًا خَشْيةَ أن يَشُقَّ عليه أحدٌ في حاجةٍ عندَ المُعْتَضِدِ. فلمَّا تُوفِّي المُعْتَضِدُ رجَع إلى بَغْدادَ.

وذكَر القاضي أبو الحسَنِ محمدُ بنُ عبد الواحد الهاشميُّ، عن شيخٍ من التُّجّار، قال: كان لي على بعْضِ الأمراءِ مالٌ كثيرٌ، فماطَلَني ومنَعَني حقِّي، وجعَل كلَّما جئتُ أطالبُه حجَبَني عنه، ويأمُرُ غلمانه يؤْذُونَني، فاشْتكَيْتُ عليه إلى الوزير، فلم يُفِدْ ذلك شيئًا، وإلى أوْلياء الأمر من الدولة فلم يقْطَعُوا منه شيئًا، وما زادَه ذلك إلاَّ منْعًا وجُحُودًا، فأيِسْتُ من المال الذي عليه، ودخَلَني هَمٌّ من جهتِه، فبيْنَما أنا كذلك وأنا حائرٌ؛ إلى مَن أشْتكي؟! إذْ قال لي رجلٌ: ألاَ تأتي فُلانًا الخيَّاطَ - إمامَ مسجدٍ هناك - فقلتُ: وما عسَى أنْ يصنَعَ خيَّاطٌ مع هذا الظالم وأعْيانُ الدولة لم يقْطَعُوا فيه؟ فقال لي: هو أقطَعُ وأخوَفُ عندَه من جميعِ مَن اشْتَكَيتَ إليه، فاذهَبْ إليه لعلَّكَ أنْ تجدَ عندَه فرَجًا. قال: فقصَدْتُه غيرَ مُحْتفِلٍ في أمْرِه، فذكَرتُ له حاجَتي ومالي، وما لَقِيتُ من هذا الظالم، فقامَ معي، فحينَ عايَنه الأميرُ قامَ إليه وأكرَمه واحْتَرَمه وبادَر إلى قَضاءِ حقِّي الذي عليه، فأعْطانيه كاملاً من غيرِ أنْ يكُونَ منه إلى الأميرِ كبيرُ أمرٍ، غيرَ أنَّه قال له: ادْفَعْ إلى هذا الرجلِ حقَّه، وإلاَّ أذَّنْتُ. فتغَيَّرَ لونُ الأميرِ ودفَع إليَّ حقِّي. قال التاجرُ: فعجِبْتُ من ذلك الخيَّاطِ مع رَثاثةِ حاله وضَعْفِ بِنْيَته كيفَ انْطاعَ ذلك الأميرُ له، ثم إنِّي عرضْتُ عليه شيئًا من المال فلم يقبَلْ منِّي شيئًا، وقال: لو أردْتُ هذا لكان لي من الأمْوالِ ما لا يُحْصَى. فسألْتُه عن خبَرِه وذكَرتُ له تعَجُّبي منه وألْحَحْتُ عليه، فقال: إنَّ سببَ ذلك أنَّه كان عندَنا ههنا رجلٌ تُرْكيٌّ شابٌّ حسَنٌ أميرٌ، فلمّا كان ذاتَ يومٍ أقبَلت امرأةٌ حسْناءُ، قد خرجَتْ من الحمَّام وعليها ثيابٌ مُرتَفِعةٌ ذاتُ قيمةٍ، فقام إليها وهو سَكْرانُ فتعلَّق بها يُريدُها على نفسِها ليُدْخلَها منزِلَه، وهي تأْبَى عليه وتصرُخُ بأعْلَى صوتِها: يا معشرَ المسلمين أنا امرأةٌ ذاتُ زَوْجٍ، وهذا يريدُني على نفسي ليُدْخلَني منْزِلَه، وقد حلَف زوْجي بالطلاقِ أنْ لا أبيتَ في غيرِ منزِله، ومتى بِتُّ ههُنا طَلُقْتُ منه ولَحِقَني بسبَبِ ذلك عارٌ لا تَدْحَضُه الأيامُ ولا تغْسِلُه المَدامعُ. قال الخيَّاطُ: فقُمْتُ إليه فأنكَرتُ عليه، وأردتُ خلاصَ المرأةِ من يديْه، فضرَبَني بدَبُّوسٍ في يَدِه فشَجَّ رأسي، وغلَب المرأةَ على نفسِها وأدْخَلَها منزِلَه قَهْرًا، فرجَعتُ أنا فغسَلْتُ الدَم عنِّي وعصَبْتُ رأسي، وصلَّيتُ بالناسِ العِشاءَ ثم قلتُ لهم: إنَّ هذا قد فعَل ما قد علِمتم، فقُومُوا معي إليه لنُنْكِرَ عليه ونُخلِّصَ المرأةَ منه، فقام الناسُ معي فهجَمنا عليه دارَه، فثار إلينا في جماعةٍ من غِلْمانه، بأيْديهِمُ العِصِيُّ والدبابيسُ يضْرِبونَ الناسَ، وقصَدني هو من بينِهم فضرَبني ضربًا شديدًا مُبرِّحًا حتى أدْماني، وأُخْرِجْنا من منْزِله ونحن في غايَةِ الإهانَةِ، فرجَعتُ إلى منْزِلي وأنا لا أهْتَدي إلى الطريقِ من شِدَّةِ الوجعِ وكثرةِ الدماءِ، فنِمْتُ على فراشي فلم يأْخُذْني نومٌ، وتحيَّرْتُ؛ ماذا أصنعُ حتى أُنقذَ هذه المرأةَ من يَدِه في هذه الليلةِ لترجعَ فتَبيتَ في منزلِها حتى لا يقَعَ على زوْجِها الطلاقُ، فأُلْهِمْتُ أنْ أُؤَذِّنَ للصبحِ في أثْناءِ الليلِ لكي يظُنَّ أنَّ الصبحَ قد طلَعَ فيُخرِجَها من منْزِله، فتذْهَبَ إلى منزلِ زوْجِها، فصَعِدْتُ المنارةَ وجعَلتُ أنظُرُ إلى بابِ داره وأنا أتكلَّمُ على عادتي قبلَ الأذان، هل أرَى المرأةَ قد خرَجتْ، ثم أذَّنْتُ فلم تخرُجْ، ثم صمَّمْتُ إنْ لم تخرُجْ أقَمْتُ الصلاةَ حتى يتَحقَّقَ الصباحَ، فبيْنَا أنا

أنظرُ هل تخرُجُ المرأةُ أم لا؟ إذ امتلأت الطريقُ فرسانًا ورَجَّالَةً وهم يقولونَ: أينَ الذي أذَّنَ هذه الساعةَ؟ فقلتُ: ها أنَا ذا، وأنا أريدُ أن يُعينُوني عليه، فقالُوا: انْزِلْ. فنزلتُ، فقالوا: أجِبْ أميرَ المؤمنين. فأخَذُوني وذهبُوا بي لا أملكُ من نفسي شيئًا، وما زالوا بي حتى أدْخَلُوني على الخليفةِ المعتضدِ بالله، فلما رأيتُه جالسًا في مقامِ الخلافة ارتَعَدتُ من الخوفِ وفزِعتُ فزَعًا شديدًا، فقال: ادْن. فدَنَوتُ، فقال لي: لِيَسكُنْ رَوْعُكَ ولْيَهْدأْ قلبُكَ. وما زالَ يُلاطِفُني حتى اطْمأنَنْتُ وذهَب خوْفي، فقالَ: أنت الذي أذَّنت هذه الساعةَ؟ قلتُ: نعم يا أميرَ المؤمنينَ. فقال: ما حمَلَكَ على أنْ أذَّنت هذه الساعَةَ، وقد بَقِيَ من الليلِ أكثرُ مِمَّا مضَى منه؟ فيغْتَرَّ بذلك الصائمُ والمسافرُ والمُصلِّي وغيرُهم. فقلتُ: يُؤَمِّنُني أميرُ المؤمنينَ حتى أقُصَّ عليه خبَري؟ فقال: أنت آمنٌ. فذكَرتُ له القصةَ. قال: فغضِبَ غضبًا شديدًا، وأمَر بإحْضارِ ذلك الأميرِ والمرأةِ من ساعته على أيِّ حالَةٍ كانا، فأُحْضِرَا سريعًا فبعَثَ بالمرأةِ إلى زوْجِها مع نِسْوَةٍ من جِهَتِه ثِقاتٍ، ومعهنَّ ثِقَةٌ من جِهَتِه أيضًا، وأمَرَه أنْ يأمُرَ زوْجَها بالعَفْوِ والصَّفْحِ عنها والإحْسانِ إليها، فإنَّها مُكْرَهةٌ معْذُورةٌ، ثم أقبلَ على ذلك الشابِّ الأميرِ، فقال له: كم لكَ مِن الرزقِ؟ وكم عندَك من المالِ؟ وكم عندَك مِن الجَوارِي والزَّوْجاتِ؟ فذكَر له شيئًا كثيرًا. فقال له: وَيْحَكَ! أما كَفاكَ ما أنعمَ اللهُ به عليك حتى انتهكْتَ حُرْمَةَ الله وتعدَّيْت حدُودَه وتجرَّأتَ على السلْطانِ، وما كفاكَ ذلك حتى عَمِدْتَ إلى رجلٍ أمَرَكَ بالمعْروف ونَهاكَ عن المنكرِ فضربْتَه وأهَنْتَه وأدْمَيْتَه؟ فلم يكُنْ له جوابٌ. فأمَر به فجُعِلَ في رِجْلِه قَيْدٌ وفي عُنُقه غُلٌّ، ثم أمَر به فأُدْخِلَ في جُوَالِقَ، ثم أمَر به فضُرِبَ بالدَّبابيسِ ضربًا شديدًا حتى خَفَتَ صوتُه، ثم أمَرَ به فأُلْقِيَ في دِجْلَةَ، فكان ذلك آخرَ العهدِ به. ثم أمرَ بَدْرًا صاحبَ الشرطةِ أنْ يَحْتاطَ على ما في دارِه من الحواصلِ والأمْوالِ التي كان يتَناولُها من بيتِ المالِ بغيرِ حلِّها، ثم قال لذلك الرجُلِ الصالحِ الخيَّاط: كلَّما رأيتَ مُنْكَرًا صغيرًا كان أو كبيرًا ولو على هذا - وأشارَ إلى صاحبِ الشرطةِ - فأعْلِمْني به، فإنِ اتفَقَ اجْتِماعُكَ بي وإلاَّ فعلامةُ ما بيني وبيْنَكَ أن تُؤَذِّنَ في مثلِ وقتِ أذانِكَ هذا. قال: فبهذا السببِ لا آمُرُ أحدًا من هؤلاء الدولةِ بشيءٍ مِن الخيرِ، أو أنهاه عن الشرِّ إلاَّ بادَر إلى امتثالِه وقبولِه؛ خوفًا مِن المُعْتَضِد. وما احْتَجْتُ أنْ أُؤَذِّنَ في مثلِ تلك الساعةِ إلى الآنَ.

وذكَر الوزيرُ عُبَيدُ الله بنُ سُليمانَ بنِ وَهْبٍ، قال: كنتُ يومًا عند المعتضِدِ، وخادمٌ واقفٌ على رأسِه يذُبُّ بمذَبَّةٍ في يَدِه، إذْ حرَّكَها فجاءَتْ في قَلَنْسُوَةِ الخليفة فسقَطتْ عن رأسِه، فأعْظَمْتُ أنا ذلك جدًّا وخِفْتُ من هَوْلِ ما وقَع، ولم يكتَرِثِ الخليفةُ لذلك، بل أخَذ قَلَنْسُوتَه فوضَعها على رأسه ثم قال لبعضِ الخدَمِ: مُرْ هذا البائسَ فليذهَبْ لراحَتِه فإنَّه قد نَعَسَ، وزِيدُوا في عِدَّةِ مَن يذُبُّ بالنوْبَة. قال الوزيرُ: فأخَذْتُ في الثَّناءِ على الخليفةِ والشكرِ له على حِلْمِه، فقال: إنَّ هذا البائسَ لم يتَعمَّدْ ما وقَعَ منه، وإنَّما نَعَسَ، وليس العقابُ والمُعاتبةُ إلاَّ على المتعمِّدِ، لا على المخطِئِ والسَّاهي.

وقال خفيفٌ السَّمَرْقَنْدِيُّ الحاجبُ: لَمَّا جاءَ الخبَرُ إلى المُعتَضِدِ بموتِ وزيرِه عبيدِ الله بنِ سُليمانَ

وتحقَّق ذلك خرَّ ساجدًا طويلاً، فقيلَ له: يا أميرَ المؤمنينَ، لقد كان عبيدُ الله يخدُمُكَ وينصَحُ لك. فقال: إنَّما سجدتُ شُكرًا لله أنِّي لم أعزِلْه ولم أُؤْذِه، ثم استَشار الحاضرِينَ فيمَن يستوزره مِن بعدِه، وذكَر هو رجُلين، أحدُهما جَرادَةُ، وكان حازِمَ الرأيِ قويًّا، والآخرُ أحمدُ بنُ محمدِ بنِ الفُرات، فعدَلَ به بَدْرٌ صاحبُ الشُّرطَةِ عنهما وأشارَ عليه بالقاسمِ بنِ عُبَيْدِ اللهِ، فسَفَّه رأيَه، فألَحَّ عليه، فوَلَّاه وبعَث إليه يُعَزِّيه في أبيه ويُهَنِّيه بالوَزارةِ، فما لَبِثَ القاسِمُ بنُ عُبَيْدِ اللهِ حتىٰ ولِيَ المُكْتَفِي الخِلافَةَ مِن بعدِ أبيه المُعْتَضِدِ حتىٰ قتَلَ بدرًا. وكان المُعْتَضِدُ ينظُرُ إلىٰ ما بينَهما مِن العَداوةِ مِن وراءِ سِتْرٍ رقيقٍ، وهذه فِراسَةٌ عظيمةٌ وتوسُّمٌ قويٌّ.

وقد رُفِعَ يومًا إلى المُعْتَضِدِ أنَّ قومًا يجتَمِعُونَ علىٰ المَعْصيةِ، فاستَشارَ وزيرَه في أمْرِهم، فقال: ينبَغِي أنْ يُصلَبَ بعضُهم ويُحَرَّقَ بعضُهم. فقال: وَيْحَكَ لقد برَّدْتَ لَهبَ غضَبي عليهم بقَسْوَتِكَ هذه، أمَا علِمتَ أنَّ الرَّعيَّةَ وديعةُ اللهِ عندَ سُلْطانِها، وأنَّه سائلُه عنها. ولم يُقابِلْهم بما قال الوزيرُ فيهم.

ولهذه النِّيَّةِ لمَّا وَلِيَ الخلافةَ كان بيتُ المالِ صِفرًا مِن المالِ، وكانت الأحْوالُ فاسدةً، والأعرابُ تَعِيثُ في الأرضِ فسادًا في كلِّ جهةٍ، فلم يزَلْ برأيِه وتسْديدِه حتىٰ كَثُرَتِ الأمْوالُ في بيتِ المالِ، وصلَحَتِ الأحْوالُ في سائرِ الأقاليمِ والآفاقِ والمحالِّ.

ومِن شعْرِه في جاريةٍ له تُوفِّيَتْ فوَجَدَ عليها وجْدًا عظيمًا، فقال:

يا حَبيبًا لم يكُنْ يعْـ ... ـدِله عندي حبيبُ
أنتَ عن عيْني بعيدٌ ... ومِن القلبِ قريبُ
ليس لي بعدَكَ في شيْـ ... ـيءٍ مَن اللَّهْوِ نصيبُ
لكَ مِن قلبي على قلبي ... وإنْ بِنْتَ رقيبُ
وخَيالي منكَ مُذْ غِبْـ ... ـتَ خَيالٌ ما يغِيبُ
لو تَراني كيفَ لي بعـ ... ـدَكَ عَوْلٌ ونحيبُ
وفُؤادي حشْوُه مِن ... حرَقِ الحُزْنِ لَهيبُ
لتَيقَّنْتَ بأنِّي ... بكَ محزونٌ كئيبُ
ما أرَى نفْسي وإنْ طيَّـ ... ـبْتُها عنكَ تطيبُ
ليس دمعٌ لِيَ يعصِيـ ... ـني وصبْري ما يُجِيبُ

وقال فيها أيضًا:

لم أبكِ للدَّارِ ولكنْ لِمَنْ ... قد كانَ فيها مرَّةً ساكِنَا
فخانَنِي الدهْرُ بفَقْدانِه ... وكنتُ مِنْ قبلُ له آمِنَا
ودَّعْتُ صبْرِي عند تَوْديعِه ... وبانَ قلبي معه ظاعِنَا

وكتَب إليه ابنُ المُعتزِّ يعزِّيه ويُسلِّيه عن مُصيبتِه فيها:

يا إمامَ الهُدَى بنا لا بك الغَـ ... ـمُّ وأفنَيْتَنا وعِشْتَ سَليمَا
أنتَ علَّمْتَنا على النِّعَمِ الشكْـ ... ـرَ وعندَ المصائبِ التَّسْليمَا
فاسْلُ عن ما مضَى فإنَّ التي كا ... نتْ سُروراً صارَتْ ثوابًا عَظيمَا
قد رضينا بأن نموتَ وتَحْيَا ... إنَّ عندي في ذاك حظًّا جَسيمَا
مَن يمُتْ طائعًا لديْكَ فقد أعْـ ... ـطِيَ فَوزاً وماتَ موتًا كَرِيمَا

واجْتَمَع ليلةً عندَ المُعْتَضدِ نُدَماؤُه، فلمَّا انْقَضَى السَّمرُ وصارَ إلىٰ حظَايَاه ونامَ القومُ السُّمَّارُ نبَّهَهُم مِن نومِهم خادمٌ مِن عندِ الخليفةِ، وقال: يقولُ لكم أميرُ المؤمنينَ إنَّه أصابَه أرَقٌ مِن بعدِكم، وقد عمِل بَيتًا أعْيَاه ثانيه، فمَن عمِل ثانيَه فله جائزةٌ؛ وهو هذا البيتُ:

ولمَّا انتبهْنا للخيالِ الذي سَرَى ... إذا الدارُ قَفْري والمزارُ بعيدُ

قال: فجلَس القومُ مِن فُرُشِهم يفكِّرُونَ في ثانِيه، فبدَرَ واحدٌ منهم فقال:

فقلتُ لعَيْني عاوِدي النوْمَ واهْجَعي ... لعَلَّ خَيالاً طارِقًا سَيَعودُ

قال: فلمَّا رجَع به الخادمُ إلىٰ المُعْتَضِدِ وقعَ منه موْقِعًا جيِّدًا وأمرَ له بجائزةٍ سَنيَّةٍ.

واسْتَعْظَمَ المُعْتَضِدُ يومًا مِن بعضِ الشعراءِ قولَ الحكمِ بنِ عمرٍو المازِنيِّ البصْرِيِّ:

لَهْفي على مَنْ أطارَ النومَ فامْتَنَعا ... وزادَ قلْبي على أوْجَاعه وَجَعا
كأنَّما الشمسُ من أعْطافه طلَعتْ ... حُسْنًا أو البَدْرُ مَن أزراره طلَعا
مستقبَلٌ بالذي يَهوَى وإن عَظُمَتْ ... منه الإساءَةُ معذورٌ بمَا صنَعا
في وجْهِهِ شافعٌ يمحو إساءتَه ... مِن القلوبِ وجيهٌ حيثما شفَعا

ولَمَّا كان في ربيعِ الأوَّلِ من هذه السنَةِ - أعني سنةَ تسعٍ وثمانين ومائتينِ - اشتَدَّ وجَعُ الخليفةِ المعْتَضد بالله، فاجْتَمَعَ رؤساءُ القوَّادِ؛ منهم يُونُسُ الخادمُ وغيرُه إلىٰ الوزيرِ القاسمِ بنِ عُبَيْدِ الله، فأشارُوا بأنْ يجتَمِعَ الناسُ لتَجْديدِ البَيْعَة للمُكْتَفِي بالله عليِّ بنِ المُعْتَضِدِ بالله، ففعَل ذلك وتأكَّدَتِ البيعةُ وكان في ذلك خيرٌ كثيرٌ. وحينَ حضرَتِ المُعْتَضِدَ الوفاةُ أنشدَ لنفْسه:

تمتَّعْ من الدنْيا فإنكَ لا تَبْقَى ... وخُذْ صَفْوَها ما إن صَفَتْ وَدَعِ الرَّنْقا
ولا تأمَنَنَّ الدهْرَ إنِّي أمنتُه ... فلم يُبْقِ لي حالاً ولم يَرْعَ لي حقًّا
قتَلتُ صَناديدَ الرجالِ فلم أدَعْ ... عدُوًّا ولم أُمْهِلَ على خُلُقٍ خَلْقَا
وأخْلَيْتُ دارَ المُلْك من كلِّ نازِعٍ ... فشَرَّدْتُهمْ غربًا ومزَّقْتُهمْ شَرْقَا
فلمَّا بلَغتُ النَّجْمَ عِزًّا ورفْعَةً ... وصارَتْ رقابُ الخلْقِ أجمعُ لي رِقًّا
رَماني الرَّدَى سَهْمًا فأخْمَدَ جَمْرَتي ... فهأنَذا في حُفْرَتي عاجِلاً أُلْقَى
ولم يُغْنِ عنِّي ما جمَعتُ ولم أجِدْ ... لِذي مَلِكِ الأحياءِ في حينِها رِفْقَا

وأفسدت دُنْيَايَ وديني سَفَاهَةً ... فمن ذا الذي مني بمَصْرَعه أشقى
فيا لَيْتَ شعْرِي بعدَ موتِيَ ما ألقى ... إلى نعمة لله أم ناره ألْقَى

وكانت وفاتُه رَحِمه اللهُ ليلةَ الاثنينِ لثمانٍ بَقِينَ مِن ربيعِ الأوَّلِ مِن هذه السنَةِ، ولم يبلُغِ الخمسينَ. فكانت خلافتُه تِسعَ سِنينَ وتِسْعَةَ أشهرٍ وثلاثَةَ عشَرَ يومًا. وخلَّفَ مِن الأوْلادِ الذُّكورِ: عليًّا المُكْتَفِي، وجَعْفَرًا المُقْتَدِرَ، وهارونَ، ومِن البنات إحدىٰ عشْرَةَ بنْتًا، ويقالُ: سَبْعَ عشْرَةَ بنْتًا. وترَكَ في بيت المالِ سَبْعَةَ عشَرَ ألفَ ألفِ دِينارٍ. وكان يُمْسِكُ عن صرْفِ الأموالِ في غيرِ وجْهِها؛ فلهذا كان بعضُ الناسِ يُبَخِّلُه، ومِن الناسِ مَن يجعَلُه من الخلفَاءِ الراشدين المذكورِين في الحديثِ، الاثْنَىْ عشَرَ المنصوصِ عليهم في حديثِ جابرِ بنِ سَمُرَةَ. فاللهُ أعلمُ.

وقد رَثَىٰ العباسِ عبدُ اللهِ بنُ المُعْتَزِّ العباسِيُّ ابنَ عمِّه المُعْتَضِدَ بمرْثاةٍ حسنَةٍ يقولُ فيها:

يا دهْرُ ويْحَكَ ما أبْقَيتَ لِي أحداً ... وأنتَ والدُ سُوءٍ تأكُلُ الولَدَا
أستغفرُ اللهَ بل ذا كلُّهُ قَدَرٌ ... رضيتُ بالله ربًّا واحداً صمدًا
يا ساكنَ القبرِ في غَبْراءَ مُظلمَة ... بالظاهريَّة مُقْصَى الدار مُنْفَردَا
أينَ الجيوشُ التي قد كنتَ تسْحبُها ... أينَ الكُنوزُ التي أحْصيتَها عدَدَا
أينَ السريرُ الذي قد كنتَ تملَؤه ... مَهابةً مَن رأتْهُ عينُه ارتَعدَا
أينَ الأعادي الأُلَى ذَلَّلت صعْبَهمُ ... أينَ اللُّيوثُ التي صيَّرتَها نَقَدا
أينَ الوفودُ على الأبْوابِ عاكفَةً ... ورْدَ القَطا صفْوَ ماءٍ جالَ واطَّردَا
أينَ الرجالُ قيامًا في مراتِبِهمْ ... مَن راحَ منهم ولم يُطمَر فَقدْ سعدَا
أينَ الجيادُ التي حجَّلْتَها بدَمٍ ... وكنَّ يحْمِلْنَ منكَ الضَّيْغَمَ الأسَدَا
أين الرماحُ التي غذَّيْتَها مُهَجًا ... مُذْ متَّ ما وردَتْ قلْبًا ولا كبدَا
أينَ السيوفُ وأينَ النَّبْلُ مُرْسَلَةً ... يُصبْنَ مَن شئتَ مِنْ قرْنٍ وإنْ بَعُدَا
أينَ المَجانيقُ أمثالُ الفيولِ إذا ... رَمَيْنَ حائطَ حصْنٍ قائمٍ قعَدَا
أينَ القصورُ التي شيَّدْتَها فعلَتْ ... ولاحَ فيها سنَا الإبْريز فاتَّقدَا
أينَ الجنانُ التي تجْرِي جداولُها ... وتَستجيبُ إليها الطائرَ الغردَا
أينَ الوصائفُ كالغزْلانِ رائحةً ... يَسحَبْنَ من حُلَلٍ مَوْشيَّةٍ جُدُدَا
أين الملاهِي وأينَ الرَّاحُ تحْسَبُها ... ياقُوتةً كُسِيَتْ من فضَّةٍ زردَا
أينَ الوثوبُ إلى الأعداء مُبْتَغيًا ... صلاحَ مُلك بني العباسِ إذْ فسَدَا
ما زلتَ تَقْسِرُ منهم كلَّ قَسْوَرَة ... وتحطِمُ العاتيَ الجبَّارَ مُعْتَمدَا
ثم انقَضَيْتَ فلا عَينٌ ولا أثَرٌ ... حتى كأنَّكَ يومًا لم تكُنْ أحَدَا
لا شيءَ يبقَى سِوى خيرٍ تُقدِّمُه ... ما دامَ مُلكٌ لإنسانٍ ولا خَلَدَا

ذكرَها ابنُ عساكِرَ في «تاريخِه».

خلافة المكتفي بالله أبي محمد

عليٍّ بنِ المعتَضِد بالله أمير المؤمنين، بويع له بالخلافة بعدَ موت أبيه في ربيع الأول من هذه السنة، وليس في الخلفاء مَن اسمُه عليٌّ سوى هذا وعليٍّ بن أبي طالب، وليس فيهم مَن يُكنَى بأبي محمد إلاَّ هذا، والحسنُ بنُ عليٍّ بن أبي طالب، والهادي، والمُستَضيءُ بأمْر الله.

وحينَ وَلِي المُكتَفِي كثُرَت الفِتنُ، وانتشَرَتْ في البلاد، وفي رجبٍ منها زُلْزِلَت الأرضُ زَلْزَلَةً عظيمةً جدًا. وفي رمضانَ تساقَط وقتَ السَّحَرِ من السماء نجومٌ كثيرةٌ، ولم يزَل الأمرُ كذلك حتى طلَعت الشمسُ. ولَمَّا أفضَت الخلافةُ إليه كان بالرَّقَّة، فكتَب إليه الوزيرُ وأعْيانُ الأمراء، فركِب ودخَل بغدادَ في يوم مشهودٍ، وذلك يومَ الإثنين لثمانٍ خَلَونَ من جُمادَى الأولى من هذه السنة.

وفي هذا اليوم أمَر بقَتْلِ عمرو بن الليث الصَّفَّار - وكان مُعْتَقلاً في سجن أبيه - وأمَر بتخريب المَطامير التي كان اتَّخذها أبوه للسَّجن، وأمَر ببناء جامع مكانَها، وخلَع في هذا اليوم على الوزير القاسم بن عبيد الله بن سليمانَ بن وهبٍ ستَّ خِلَعٍ وقلَّده سيْفًا، وكان عمرُه يومَئذٍ خمسًا وعشرين سنةً وبعضَ شهر.

وفي هذه السنة انْتَشَرت القَرامطةُ بعدَ موت المعتضد في الآفاق، وقطَعوا الطريقَ على الحَجيج، وتَسَمَّى بعْضُهم بأمير المؤمنين، فبَعَث المُكْتَفِي إليهم جيوشًا كثيرةً، وأنْفق أمْوالاً غزيرةً حتى أطْفَأ اللهُ بعضَ شرهم، قبَّحهم اللهُ.

وفي هذه السنة خرَج محمد بنُ هارونَ عن طاعة إسماعيلَ بن أحمدَ السامانيِّ، وكاتَبه أهلُ الرَّيِّ بعدَ قتْله محمدَ بنَ زيدٍ الطَّالبيَّ، فصار إليهم فسلَّموا إليه البلدَ، فاستَحوذَ عليها، فقصدَه إسماعيلُ ابنُ أحمدَ بالجيوش، فقهَره وأخرَجه منها مذمُومًا مدحورًا.

قال ابنُ الجوزيِّ في «المنتظم»: وفي يوم التاسع من ذي الحجَّة صلَّى الناسُ العَصْرَ في زمن الصيف وعليهم ثِيابُ الصيف، فهبَّتْ ريحٌ باردةٌ جدًا حتى احتاج الناسُ مع ذلك إلى الاصطلاء بالنار، ولبِسوا الفِراءَ والمَحْشُوَّات، وجَمَد الماءُ كفصل الشتاء.

قال ابنُ الأثير: وكذا وقَع بمدينة حِمْصَ؛ قال: وهبَّت ريحٌ عاصفٌ بالبصرة، فاقتلَعتْ شيئًا كثيرًا من نخيلها، وخُسِف بموضعٍ منها، فمات تحتَه ستةُ آلاف نسَمَة.

قال ابنُ الأثير، وابنُ الجوزيِّ: وزُلزِلَتْ بغدادُ في رجبٍ من هذه السنة مرَّاتٍ مُتعدِّدَةً، ثم سكَنتْ. ولله الحمدُ والمِنَّةُ.

وحجَّ بالناس في هذه السنة الفَضْلُ بنُ عبد الملك الهاشميُّ.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

إبراهيمُ بنُ محمدِ بن إبراهيمَ، أحدُ الصوفيَّة الكبار.

قال ابنُ الأثير: وهو من أقرانِ سَرِيٍّ السَقَطِيِّ. وأحمدُ بنُ محمد المُعتضدُ بالله، غلَب عليه سوءُ المزاجِ والجَفافُ لكَثْرةِ الجماعِ، وكان الأطباءُ يصفونَ له ما يُرَطِّبُ بدَنَه به، فيستعملُ ضِدَّ ذلك حتى سقَطت قُوتُه، وقد ذكَرنا كيفيَّةَ وفاته في ترجمته آنفًا.

بدرٌ غلامُ المعتضد ورأسُ الجيش، كان القاسمُ بنُ عبيد الله الوزيرُ قد عزَم في حياة المعتضد على أنْ يصرفَ الخلافةَ عن أَوْلادِ المُعتضِد، وفاوَض في ذلك بدرًا هذا، فامْتَنَع عليه، وأبَى إلَّا البيعةَ لأولادِ مَوْلاه، فلمَّا وَلِيَ المُكْتَفي خاف الوزيرُ من غائلة ما كان أسَرَّ به إلى بدرٍ، فعَمِل عليه عندَ المكتفي، ولم يزَلْ حتى احتاط الخليفةُ على حواصله وأمْواله وهو بواسطٍ، ثم بعَث إليه بالأمان فقدم، فأمَر الوزيرُ مَن قتَله، فقُتِل يومَ الجمُعة لستٍّ خلَون من رمضانَ من هذه السنة، ثم قطَع رأسَه وبقِيَتْ جُثَّتُه؛ أخَذها أهلُه، ثم بعَثوها في تابوتٍ إلى مكةَ، فدُفِن بها، وذلك أنَّه أوْصَى بذلك، وكان قد أعتَق كلَّ مملوكٍ له قبلَ وفاته، وحينَ أُرِيد قتْلُه صلَّى ركعتين للهِ، عزَّ وجلَّ، ثم قتَلوه.

الحسينُ بنُ محمد بن عبد الرحمن بن فَهْم بن مُحْرِز بن إبراهيمَ، أبو عليٍّ، الحافظُ البَغْداديُّ، سمع خلفَ بنَ هشامٍ، ويحيى بنَ معينٍ، ومحمدَ بنَ سعدٍ وغيرَهم، وعنه الخُطَبيُّ، والطُّوماريُّ، وكان عَسِرًا في التَّحْديث إلَّا لمَن لازَمَه، وكانت له مَعْرِفةٌ جيِّدةٌ بالأخْبارِ والنَّسَبِ والشعرِ وأسْماءِ الرجال، يَميلُ إلى مذهبِ العراقيِّين في الفقه، توفِّي عن ثمانٍ وسبعين سنةً، وقد قال الدَّارَقُطْنيُّ: ليس بالقويِّ.

عُمارةُ بنُ وَثِيمةَ بن موسى، أبو رفاعةَ الفارسيُّ، صاحبُ التاريخ على السنينَ وقد وُلِد بمصرَ، وحدَّث عن أبي صالحٍ كاتبِ الليث وغيره.

عمرُو بنُ الليث الصَّفَّارُ، أحدُ الأمراء الكبارِ، قُتِل في السجنِ أولَ ما قَدِم المُكْتَفي بغدادَ.

سنة تسعين ومائتين من الهجرة النبوية

فيها أقْبَل يحيى بنُ زَكْرَوَيْهِ بن مَهْرَوَيْهِ أبو القاسم القِرْمِطيُّ المعروفُ بالشَّيخ في جَحافلَ عظيمة من القَرامطة، فعاثَ بناحية الرَّقَّة فسادًا، فجهَّز إليه الخليفةُ جيشًا كثيفًا في نَحْوِ عشَرةِ آلافِ فارسٍ.

وفيها ركب الخليفةُ المُكْتفي من بغْدادَ إلى سَامَرَّا يريدُ الإقامةَ بها، فثَنَى رأيَه عن ذلك الوزيرُ القاسمُ ابنُ عبيدِ الله، ورجَع به إلى بغدادَ.

وفيها قُتِل يحيى بنُ زَكْرَوَيْهِ بن مَهْرَوَيْهِ على باب دمشقَ، قتَله جيشُ المصريين، زَرَقَه رجلٌ من المغاربةِ بمِزْراقٍ من نارٍ فحرقَه، وذلك بعدَ ما كان قتَل خلقًا كثيرًا من جيشها من أصحابِ طُغْجَ بن جُفٍّ نائبِها، ثم مَنَّ اللهُ على الناس بقتْله، ففرح المسلمون بذلك فرحًا شديدًا، فقامَ بأمْرِ القَرامطَة من بعده أخوه الحسينُ، وتَسَمَّى بأحمدَ، وتكَنَّى بأبي العباس، وتلَقَّب بأمير المؤمنين، وأطاعَتْه القَرامطَةُ كما كانوا يُطيعونَ أخاه، فحاصَر دمشقَ، فصالَحه أهلُها على مالٍ، ثم سارَ إلى حِمْصَ فافْتَتَحَها،

وخُطب له على منابرها، ثم سارَ إلى حَماةَ ومَعَرَّة النُّعمان، فقَهَر أهلَ تلك النواحي، واسْتباح أمْوالَهم وحريمَهم، وكان يقتُلُ الدوابَّ والصِّبْيانَ في المكاتب، ويُبيحُ لمن معه وَطْءَ النساء، فربَّما وَطِئ الواحدةَ الجماعةُ الكثيرةُ من الرجال، فإذا ولَدَتْ ولداً هنَّأَ به كلَّ واحدٍ منهم الآخرَ، فكَتَبَ أهلُ الشَّام إلى الخليفة يشْكُون إليه ما يلْقَون من هذا اللعين، فجهَّزَ المُكْتَفي جُيوشًا كثيفةً، وأنفَقَ أمْوالاً جزيلةً لحربه، وركِب في رمضانَ، فنَزَل الرَّقَّةَ، وبثَّ الجيوشَ في كلِّ جانبٍ لقتال القِرْمطيِّ وكان القِرْمطيُّ يكتُبُ إلى أصْحابه: من عبد الله أحمدَ بن عبد الله المهديِّ المنْصور بالله، الناصر لدين الله، القائم بأمْر الله، الحاكم بحُكْم الله، الدَّاعي إلى كتاب الله، الذَّابِّ عن حَريم الله، المُخْتار من ولَد رسول الله. وكان يدَّعي أنَّه من سُلالَة عليِّ بن أبي طالبٍ من فاطمةَ، وهو كاذبٌ أفَّاكٌ أثيمٌ، قبَّحَه اللهُ، فإنَّه كان من أشدِّ الناس عداوةً لقريشٍ، ثم لبَني هاشمٍ، ثم دخَل سَلَمْيَةَ فلم يدَعْ بها أحدًا من بني هاشمٍ حتى قتَله وقتَل أوْلادَه واسْتَباح نساءَه.

وفيها وَلِي ثَغْرَ طَرَسُوسَ أبو العشائر أحمدُ بنُ نَصْرٍ، عِوَضًا عن مُظَفَّر بن حاجٍّ، لشَكْوَى أهل الثغر منه.

وحجَّ بالناس الفَضْلُ بنُ محمدٍ العبَّاسيُّ.

وممَّن توفِّي من الأعيان:

عبدُ الله بنُ الإمامِ أحمدَ بن حَنْبَلٍ أبو عبد الرحمن الشَّيْبانيُّ، كان إمامًا ثقةً حافظًا ثَبْتًا مُكْثِرًا عن أبيه وغيره.

قال ابنُ المُنادي: لم يكُنْ أحدٌ أرْوَى عن أبيه منه. سمع منه «المسندَ» ثلاثينَ ألفًا، و«التفسيرَ» مائةَ ألف حديثٍ وعشرين ألفًا، من ذلك سماعٌ ومن ذلك وِجَادَةٌ، ومن ذلك: «الناسخُ والمنسوخُ»، و«المُقَدَّمُ والمُؤَخَّرُ في كتاب الله»، و«التاريخُ»، و«حديثُ شُعبةَ»، و«جواباتُ القرآن»، و«المَناسكُ الكبيرُ»، و«الصغيرُ»، وغيرُ ذلك من التَّصانيف، وحديث الشيوخ.

قال: وما زِلْنا نرَى أكابرَ شيُوخنا يشْهَدُون له بمعْرِفَة الرجال وعلَل الحديث والأسْماء والكُنَى، والمُواظبة على طلَب الحديث في العراق وغيرها، ويذْكُرون عن أسْلافهم الإقْرارَ له بذلك، حتى إنَّ بعْضَهم أسْرَف في تقْريظه إيَّاه بالمعرفة، وزيادة السَّماع للحديث على أبيه.

ولمَّا مرض قيل له: أين تُدفَنُ؟ فقال: صحَّ عندي أنَّ بالقَطيعة نبيًا مدفونًا، ولانْ أكونَ في جوار نَبيٍّ أحبُّ إليَّ من أنْ أكونَ في جوار أبي. فمات في جُمادَى الآخرة من هذه السنة عن سبعٍ وسبعين سنةً، كما مات لها أبوه، وكان الجمعُ كثيرًا جدًّا، وصلَّى عليه زُهيرٌ ابنُ أخيه، ودُفن في مقابر باب التبن، رحمه اللهُ.

عبدُ الله بنُ أحمدَ بن سعيد، أبو محمد الرِّباطيُّ المَرْوَزيُّ، صَحِب أبا تُراب النَّخْشَبيَّ، وكان الجُنَيْدُ يمدَحُه ويُثْني عليه.

عمرُ بنُ إبراهيمَ، أبو بكر الحافظُ المعروفُ بأبي الأذان، كان ثقةً ثبْتًا. محمدُ بنُ الحسين بن الفَرَج، أبو مَيْسَرَةَ **الهَمْداني**، صاحبُ «المسند»، وكان أحدَ الثِّقات المشْهُورينَ والمُصنِّفينَ المُنصفين.

محمدُ بنُ عبد الله، أبو بكر **الزَّقَّاقُ** أحدُ أئمة الصوفيَّة وعُبَّادهم، رُوي عن الجُنَيْد أنَّه قال: رأيتُ **إبليسَ في المنام وكأنَّه عُرْيانٌ**، فقلتُ له: أمَا تستَحي من الناس؟ فقال: هؤلاء أناسٌ وأنا أتلعَّبُ بهم **كما يلعبُ الصِّبْيانُ** بالكرة؟ إنما الناسُ جماعةٌ غيرُ هؤلاء، فقلتُ له: مَن هم؟ فقال: قومٌ في مسْجد **الشُّونيزيِّ قد أضنَوا** قلبي وأنحلُوا جَسدي، كلَّما همَمْتُ بهم أشارُوا إلى الله عزَّ وجلَّ، فأكادُ أحترقُ. **قال**: فانتَبهتُ، ولبِسْت ثيابي، وقصَدتُ مسجدَ الشُّونيزيِّ، فإذا فيه ثلاثةٌ جلوسٌ ورُءوسُهم في مُرقَّعاتهم، فرفعَ أحدُهم رأسَه من جيبِه فقال: يا أبا القاسم، أنتَ كلَّما قيلَ لك شيء تقبَلُ؟ فإذا هُمْ أبو بكر الزَّقَّاقُ، وأبو الحسين النُّوريُّ، وأبو حمزةَ.

محمدُ بنُ عليِّ بن علويةَ بن عبد الله الجُرْجَانيُّ، الفَقيهُ الشافعيُّ، تلميذُ المُزَنيِّ. ذكَره ابنُ الأثير.

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين ومائتين

فيها جرَتْ وقعةٌ هائلةٌ بينَ القَرامطَة وجند الخليفة، فهُزِمت القرامطةُ هزيمةً عظيمةً، وأُسِر رئيسُهم الحسينُ بنُ زَكْرَوَيْه، الملقَّبُ بأمير المؤمنين الذي يقالُ له: ذو الشامة - وقد تَسمَّى كما ذكَرنا بأحمدَ، وتَكنَّى بأبي العباس، والتفَّ عليه خلائقُ من الأعراب وغيرهم واستفحل أمره جدًا فلما أُسِر حمل إلى الخليفة في جماعة كثيرة من رءوس أصحابه وأُدخل بغدادَ على فيل مشهور للناس، فأمر الخليفةُ بعمَل دكَّة مرتفعة، فأُجْلس عليها القرمطيُّ، وجِيءَ بأصْحابه، فجعَل يضربُ أعْناقَهم بينَ يَدَيْه وهو ينظُرُ، وقد جُعِل في فمه خشبةٌ مُعْترضةٌ مَشْدودةٌ إلى قَفاه، ثم أُنزِل، فضُرِب مائتيْ سوط، ثم قُطعَتْ يدَاه ورجْلاه، وكُوِي، ثم أُحرق، وحُمِل رأسُه على خشبة وطِيف به في أرْجاء بغدادَ، وذلك في شهر ربيع الأوَّل.

وفيها قصَدت الأتراكُ بلادَ ما وراءَ النهر في جَحافلَ عظيمة، فبيَّتهم المسلمون فقتَلوا منهم خَلْقًا كثيرًا، وجمًّا غفيرًا ما لا يُحْصَونَ كثرةً: ﴿**وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا**﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وفيها بعَث ملكُ الروم عشَرَةَ صُلْبانٍ، مع كلِّ صَليبٍ عشَرَةُ آلافٍ، فأغارُوا على أطْراف البلاد، وقتَلوا خَلْقًا كثيرًا، وسَبَوْا أناسًا من الذُّرِّيَّة.

وفيها دخَل نائبُ طرَسُوسَ بلادَ الروم، ففتَح مدينةَ أنْطاكيةَ - وهي مدينةٌ عظيمةٌ على ساحل البحر تُعادلُ عندَهم القُسْطَنْطينيةَ - وخَلَّص من المسلمين خمسةَ آلاف أسير، وأخَذ من الروم ستين مركبًا، وغَنم شيئًا عظيمًا جدًّا، فبلَغ نصيبُ كلٍّ من الغُزاة ألفَ دينار.

وحجَّ بالناس في هذه السنة الفَضْلُ بنُ عبد الملك الهاشميُّ.

وممَّن تُوفِّيَ فيها من الأعيان:

أحمدُ بنُ يحيى بن زيد بن سَيَّار، أبو العباسِ الشَّيْبانيُّ مَوْلاَهُم، المُلقَّبُ بثعلب، إمامُ الكُوفِيِّين في النحوِ واللغةِ، مولدُه سنةَ مائتين، سمع محمدَ بنَ زيادِ بنِ الأعرابيِّ، والزبيرَ بنَ بَكَّار، والقَواريريَّ وغيرَهم، وعنه ابنُ الأنْبَاريِّ، وابنُ عرَفَةَ، وأبو عُمرَ الزاهدُ، وكان ثقةً حجَّةً دَيِّنًا صالحًا مشهورًا بالصدقِ والحفظِ، وذُكِر أنَّه سمع من القَواريريِّ مائةَ ألفِ حديثٍ. وكانت وفاتُه يومَ السبتِ لثَلاثَ عشْرَةَ بقِيَتْ من جُمَادىٰ الأُولَىٰ من هذه السنة، عن إحدَىٰ وتسعين سنةً.

قال ابنُ خلِّكانَ: وكان سببَ موته أنَّه خرَج من الجامعِ وفي يدِه كتابٌ ينظُرُ فيه، وكان قد أصابَه صَمَمٌ شديدٌ فصدمَتْه فرسٌ فألقَتْه في هُوَّةٍ، فاضْطَرب دماغُه، فماتَ من اليوم الثاني، رحمه اللهُ. قال: وهو مُصنِّفُ كتابِ «الفَصيحِ»، وهو صغيرُ الحَجْمِ كبيرُ الفائدةِ، وله كتابُ «المَصونِ»، و«اختلاف النحويِّين»، و«مَعاني القرآن»، وكتابُ «القراءَات»، و«مَعاني الشعرِ»، و«ما تلْحَنُ فيه العامةُ» وذكَر أشياءَ كثيرةً أيضًا، ومما نُسِب إليه من الشعرِ:

إذا كنتَ قُوتَ النفسِ ثم هَجَرْتَها	فكم تلْبَثُ النفسُ التي أنتَ قُوتُها
سَتَبْقَىٰ بقاءَ الضَّبِّ في الماءِ أو كما	يعيشُ بِبَيْداءِ المهامِه حُوتُها
أغرَّكَ مِنِّي أن تصَبَّرْتُ جاهدًا	وفي النفسِ منِّي مَنكَ ما سيُميتُها
فلو كان ما بي بالصُّخورِ لهَدَّها	وبالريحِ ما هبَّتْ وطال خُفُوتُها
فصَبْرًا لعلَّ اللهَ يجمَعُ بيْنَنا	فأشكُو هُمومًا منكَ فيكَ لقيتُها

القاسمُ بنُ عبيدِ الله بن سليمانَ بن وَهْب الوزيرُ، تولَّىٰ بعدَ أبيه الوَزارةَ في آخرِ أيامِ المُعْتَضِد، ثم وزَر لولدِه المُكْتَفي من بعدِه، فلَمَّا كان رمضانُ من هذه السنة مرِض، فبعَث إلى السجونِ فأطْلَقَ مَن فيها من المظلومين. ثم كانت وفاتُه في ذي القَعْدَة منها، وقد قارَب ثلاثًا وثلاثين سنةً، وقد كان حَظِيًّا عندَ الخليفة جدًّا، وخلَّف من الأمْلاك ما يعدلُ سبعَمائة ألف دينار.

ومحمدُ بنُ محمد بن إسْماعيلَ بن شَدَّاد، أبو عبدِ الله البَصْريُّ القاضي بوَاسِطٍ، المعروفُ بالجُذُوعِيِّ، حدَّث عن مُسَدَّدٍ، وعليِّ بنِ المَدِينيِّ، وابنِ نُمَيرٍ وغيرِهم، وكان من الثِّقاتِ القُضاةِ الأجْوادِ العُدولِ الأمَناءِ.

وممَّن توفِّي فيها:

محمدُ بنُ إبراهيمَ البُوشَنْجيُّ. ومحمدُ بنُ عليٍّ الصائغُ. وقُنْبُلٌ. أحدُ مشاهيرِ القُرَّاء، وأئمة العلماء.

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين ومائتين

فيها دخَل محمدُ بنُ سليمانَ في نحوٍ من عشرَة آلاف مُقاتِلٍ من جهة الخليفة المُكْتَفي إلى الديارِ المصريةِ لقتالِ هارونَ بنِ خُمارَوَيْه، فبرزَ إليه هارونُ فاقْتَتَلا، فقَهَره محمدُ بنُ سُلَيمانَ، وجمَع آلَ

طولونَ فكانوا سبْعَةَ عشرَ رجلاً فقتلَهم واستحوذَ على أموالِهم وأملاكهم. وانقضَتْ دولةُ الطُّولُونيَّة عن الديارِ المصرية، وكتَب بالفتحِ إلى المُكْتَفِي. وحجَّ بالناسِ الفَضْلُ بنُ عبدِ الملكِ الهاشِميُّ أميرُ الحاجِّ في السنينَ المُتقدِّمَة.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

إبراهيمُ بنُ عبد الله بن مُسْلِم أبو مسلم الكَجِّيُّ، أحدُ المشايخِ المُعَمَّرينَ، كان يحْضُرُ مجْلسَه نحوٌ من خمسين ألفًا ممَّنْ معه محْبَرةٌ، سوَىٰ النَّظَّارَة، ويَستَملِي عليه سبْعَةُ مُستَمْلِينَ؛ كلٌّ يُبلِّغُ صاحِبَه، ويكتبُ بعضُ الناسِ وهم قيامٌ، وكان كلَّما حدَّثَ بعشَرَةِ آلافِ حديثٍ تصدَّقَ بصدقَةٍ، ولمَّا فُرِغَ من قراءة السُّنَنِ عليه عمِل مأْدُبَةً غرِمَ عليها ألفَ دينارٍ، وقال: شهِدْتُ اليومَ على رسولِ الله ﷺ فقُبِلَتْ شهادَتي وحدِي، أفلا أعمَلُ شكرًا لله عزَّ وجلَّ؟ وروَىٰ ابنُ الجَوْزيِّ والخطيبُ، عن أبي مسلم الكَجِّيِّ قال: خرَجتُ ذاتَ ليلةٍ منَ المنزلِ بلَيْلٍ، فمرَرْتُ بحمَّامٍ وعليَّ جَنابةٌ فدخَلْتُه، فقلتُ للحمَّاميِّ: أدَخَل حمَّامَكَ أحدٌ بعدُ؟ فقال: لا. فدخَلتُ، فلمَّا فتحتُ بابَ الحمامِ الداخلِ؛ إذا قائلٌ يقولُ أبا مسلمٍ، أسْلِمْ تَسْلَمْ. ثم أنشأَ يقولُ:

لكَ الحمدُ إمَّا على نعْمَةٍ	وإمَّا على نقْمَةٍ تَدْفَعُ
تشاءُ فتَفْعَلُ ما شئْتَه	وتَسْمَعُ من حيثُ لا تُسْمَعُ

قال: فبادَرْتُ فخرَجتُ فقلتُ للحمَّاميِّ: أنتَ زعمتَ أنَّه لم يدْخُلْ حمَّامَكَ أحدٌ. فقال: نعم! وما ذاك؟ فقلتُ: إنِّي سمعتُ قائلاً يقولُ كذا. فقال: أوَ سمعْتَه؟ قلتُ: نعم. فقال: يا سيِّدِي، هذا رجلٌ منَ الجانِّ يتبدَّىٰ لنا في بعضِ الأحْيانِ، فيُنشِدُ الأشْعارَ ويتكلَّمُ بكلامٍ حسَنٍ فيه مَواعظُ. فقلتُ: هل حَفِظْتَ من شعرِه شيئًا؟ فقال: نعم. ثم أنشَدَني من شعرِه.

أيُّها المُذْنبُ المُفرِّطُ مَهْلاً	كم تَمادَى وترْكَبُ الذَّنْبَ جَهْلاَ
كم وكم تُسْخِطُ الجليلَ بفِعْلٍ	سمِجٍ وهْو يُحْسِنُ الصُّنْعَ فعْلاَ
كيفَ تَهْدا جُفُونُ مَن ليسَ يدْرِي	أرَضِي عنْهُ مَن على العَرْشِ أمْ لا

عبدُ الحميد بن عبد العزيزِ، أبو حازمٍ القاضي الحَنَفيُّ، كان من خيارِ القُضاة، وأعْيانِ الفقهاءِ ومن أئمة العلماءِ، ورِعًا نزِهًا كثيرَ الصِّيانَة والدِّيانة والأمانة. وقد أورَدَ له ابنُ الجَوْزيِّ في «المنتظم» آثارًا حسنةً وأفْعالاً جميلةً، رحِمه اللهُ.

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين ومائتين

فيها الْتَفَّ على أخِي الحُسَيْنِ القرمطيِّ المعْروفِ بذِي الشَّامَةِ ـ الذي قدَّمنا ذِكْرَ مقتلِه في السنة الماضية ـ خَلائقُ منَ القَرامطَةِ والأعرابِ واللصوصِ بطَريقِ الفُراتِ، فعاث بهم في الأرضِ فَسادًا، ثم قصَد طَبَريَّةَ فامْتَنَعُوا من إيوائه، فدَخَلها قَهْرًا وقَتَل بها خَلْقًا من الرجالِ، وأخَذ شيئًا كثيرًا من

الأموالِ، ثم كَرَّ راجعًا إلى الباديَةِ، ودخَلتْ أخرَىٰ منهم إلى هيتَ، فقتَلُوا أهلَها إلاَّ القليلَ، وأخذوا منها أموالاً جزيلةً حمَلُوها على ثلاثَة آلاف بعيرٍ، فبعَث إليهم الخليفةُ المُكْتَفِي جيشًا فقاتَلُوهم وأخَذُوا رئيسَهم، فضُربتْ عنُقُه، ونبَغ رجلٌ مِنَ القَرامطَة يقالُ له: الدَّاعِيَةُ باليَمنِ، فحاصَر صَنْعاءَ فدخَلها قَهْرًا وقتَل خَلْقًا مِن أهْلِها، ثم سار إلى بقيَّةِ مُدُنِ اليَمنِ فأكثرَ فيها الفسادَ وقتَل خَلْقًا مِن العِبادِ، ثم قاتَله أهلُ صَنعَاءَ فظَفِرُوا به وهزَمُوه، فانحاز إلى بعضِ مُدنِها، وبعَث الخليفةُ إليها المُظَفَّرِ بنَ حاجٍّ نائبًا وخلَع عليه، فسَارَ إليها فلم يزَلْ بها حتى ماتَ.

وفي يومِ عيدِ الأضْحَىٰ دخَلتْ طائفةٌ مِن القرامطة؛ نحوٌ مِن ثمانمائة إلى الكوفةِ والناسُ في عيدِهم، فنادَوا: يا ثاراتِ الحُسَيْنِ - يعْنُونَ المَصْلُوبَ ببَغْدادَ - وشعارُهم: يا أحمدُ يا محمدُ - يعْنُونَ الذين قُتِلوا مَعَه - فبادَر الناسُ الدُّخولَ إلى الكُوفَةِ فولَج خلْفَهم القرامطةُ، فرَمَتْهُمُ العامَّةُ بالحجارَةِ، وغيرِ ذلك، فقتَلوا منهم نَحْوًا من عشرين، ورجَع الباقونَ خاسئِينَ، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

وفيها ظهرَ رجلٌ بمصْرَ يقالُ له: الخَلَنْجيُّ: فخَلَع الطاعةَ، واجْتمَع إليه طائفةٌ مِن الجُنْد، فأمَر الخليفةُ أحمدَ بنَ كَيْغَلَغَ نائبَ دمَشْقَ وأعْمالِها فركِبَ إليه فاقْتَتلا بظاهرِ مصْرَ، فهزَمه الخَلَنْجيُّ هزيمةً منكرةً، فبعَث الخليفةُ إليه جيشًا آخرَ فهزَمُوا الخَلَنْجِيَّ وهرَب فاستترَ بمصرَ فأُحضِر، وسُلِّم إلى الأميرِ الخليفة وانْطَفأ خبَرُه، ولله الحمدُ.

ولَمَّا اشْتَغَل الجيشُ بأمرِ الديارِ المصريةِ، بعَث زكرويهِ بنُ مِهرويه - بعدَ مقتلِ ابنه الحسينِ ببغدادَ - جيشًا صحبةَ رجلٍ كان يُعلِّمُ الصبيانَ، يقالُ له: عبدُ اللهِ بنُ سعيدٍ، فقصَد بُصرَىٰ وأَذْرِعاتَ والبَثْنيَّةَ، فحارَبَه أهلُها. ثم أمَّنَهم، فلمَّا أنْ تمكَّنَ منهم قتلَ المُقاتِلَةَ، ورام الدُّخولَ إلى دمَشْقَ، فقاتَله نائبُ أحمدَ بنِ كَيْغَلَغَ بدمشقَ. وهو صالحُ بنُ الفَضْلِ، فهزَمه القرمطيُّ، وقُتل صالحٌ، فيمَن قُتل، وحاصَر دِمَشْقَ فلم يُمْكنْه فتحُها، فانْصَرَف إلى طَبَرِيَّةَ فقتَلُوا أكثرَ أهْلِها كما ذكَرْنا ونَهبُوا منها شيئًا كثيرًا، ثم سارُوا إلى هِيتَ ففعَلُوا كذلك، ثم جهَّز الخليفةُ إليهم جيشًا فأخَذ رئيسَهم مِن بينِهم ونجا بقيتُهم، ثم سارُوا إلى الكُوفةِ في يوم عيدِ الأضْحَىٰ كما ذكَرنا، فلمْ يَنْتَجِ لهم أمرٌ، ولله الحمدُ والمنةُ، وكلُّ ذلك بإشارَةِ زكْرَوَيْهِ بنِ مِهْرَوَيْهِ وهو مُخْتَفٍ في بلَده بينَ ظَهْرَانَيْ قومه من القَرامطَة، إذا أُلحَّ في طلبِه نزَل بئرًا قد اتَّخذَها، وعلى بابه تنُّورٌ فتقُوم امرأةٌ تَسْجُرُه وتخبِزُ فيه فلا يشْعُرُ أحدٌ بأمرِه أصلاً، فبعَث الخليفةُ إليه جَيْشًا كثيفًا فقاتَلَهم زكْرَوَيْه بنفْسه ومَن أطاعَه، فهزَمَ جيشَ الخليفةِ وغَنِمَ مِن أمْوالِهم شيئًا كثيرًا جدًّا فتقوَّىٰ به واشْتَدَّ أمْرُه، فندَبَ الخليفةُ إليه جيشًا كثيفًا آخرَ، فكانَ مِن أمْرِه وأمْرِهم ما سنَذْكُره.

وفيها افتتَح إسْماعيلُ بنُ أحمدَ السامانيُّ نائبُ خُرَاسانَ وما وراءَ النهرِ طائفةً مِن بلادِ الأتْراكِ.

وفيها أغارتِ الرومُ على بعضِ أعمالِ حَلَبَ.

وفيها حجَّ بالناسِ الفَضْلُ بنُ عبدِ الملكِ الهاشِمِيُّ.

وممن تُوفّي فيها من الأعيان:

أبو العبّاس الناشي الشاعرُ، عبدُ الله بنُ محمدٍ، أبو العباسِ المُعْتزليُّ، أصلُه من الأنبار وأقامَ ببَغْدادَ مدةً، ثم انْتَقَل إلى مصرَ فماتَ بها، وكان يُعاكسُ الشعراءَ ويرُدُّ على المَنْطقيِّينَ والعَروضيِّينَ، وكان شاعرًا مُطبقًا إلا أنَّه كان فيه هَوَسٌ، وله قصيدةٌ حسنةٌ في نَسَبِ رسولِ اللهِ ﷺ قد ذكَرْناها في «السِّيرَة».

قال القاضي ابنُ خلِّكان: كان متبحِّرًا في عدَّةِ علومٍ، من جُملتِها علمُ المَنْطقِ، وكان ذكيًّا فطنًا، وله قصيدةٌ في فُنونٍ من العلومِ على رَوِيٍّ واحدٍ تبلُغُ أربعةَ آلافِ بيتٍ، وله عدَّةُ تصانيفَ جميلةٌ وأشعارٌ كثيرةٌ. قال: وأمَّا الناشي الأصغرُ فسيأتي.

عُبيدُ بنُ محمد بن خَلَف، أبو محمد البَزّارُ، أحدُ الفقهاءِ، من أصْحابِ أبي ثَوْرٍ، كان عندَه فقهُ أبي ثَوْرٍ، وكان من الثِّقاتِ النُّبَلاءِ.

نَصْرُ بنُ أحمدَ بن عبد العزيز، أبو محمد الكِنْديُّ، الحافظُ المعْروفُ بنَصْرَك، كان أحدَ حُفَّاظِ الحديثِ المشْهورينَ، وكان الأميرُ خالدُ بنُ أحمدَ الذهْليُّ نائبُ بُخارىٰ قد ضَمَّه إليه، وصنَّفَ له «المُسْنَدَ». وكانت وفاتُه ببُخارىٰ في هذه السنَة.

ثم دخلت سنة أربع وتسعين ومائتين

في المحرمِ من هذه السنَة اعْتَرَض زَكْرَوَيْه - لعَنه اللهُ - وأصحابُه الحُجَّاجَ من أهلِ خُراسانَ، وهم قافِلُونَ من مكَّةَ، فقتَلهم عن آخرِهم وأخَذ أمْوالَهم وسبَىٰ نساءَهم، فكانَ قيمةُ ما أخَذه منهم ألْفَي ألفِ دينارٍ، وعِدَّةُ مَن قَتَل عِشْرينَ ألفَ إنْسانٍ، وكانتْ نساءُ القَرامطَة يَطُفْنَ بين القتْلَىٰ من الحُجَّاجِ بالماءِ صِفَةَ أنَّهُنَّ يَسْقِينَ الجرحَىٰ، فمَن كلَّمَهُنَّ من الجَرْحَىٰ قتَلْنَه وأجْهَزْنَ عليه، لعَنَهُنَّ اللهُ وقبَّح أزْواجَهُنَّ.

ذكر مقتل زكرويه، لعنه الله

لمَّا بلَغ الخليفةَ خبرُ الحَجيجِ وما أوْقَعَ بهمُ الخبيثُ زَكرَوَيْه جهَّزَ إليه جيشًا كثيفًا فالْتَقَوا معه، فاقتتَلُوا قتالاً شديدًا جدًّا، قُتل منَ القَرامطة خَلْقٌ كثيرٌ ولم يبْقَ إلاَّ القليلُ، وذلك في أوَّلِ ربيعٍ الأوَّلِ منها، وضُرِب زَكْرَوَيْه - لعنه اللهُ - بالسيفِ في رأسه فوصلَت الضربةُ إلى دماغه، وأُخذ أسيرًا، فماتَ بعدَ خمسة أيامٍ، ففتَحوا عن بطْنه وصبَّروه وحمَلُوه في جماعةٍ من رُءوسِ أصْحابه إلى بغدادَ، واحْتَوَىٰ العسْكَرُ على ما كان بأيْدي القَرامطَة من الأموالِ والحواصلِ، ولله الحمدُ. وأمَرَ الخليفةُ بقَتْلِ أصْحابِ القرمطيِّ، وأنْ يُطافَ برأسِ القرمطيِّ في سائرِ بلادِ خُراسانَ؛ لئَلاَّ يمتنعَ الناسُ عن الحجِّ بسببِ ما وقَع. وأطْلَق مَن كان بأيْدي القَرامطَة من النساءِ والصِّبْيانِ الذين أسَرُوهم.

وفيها غزَا احمدُ بنُ كَيْغَلَغَ نائبُ دِمَشْقَ بلادَ الروم من ناحية طَرَسُوسَ، فقتَل منهم نَحْوًا من أربعة آلاف، وأسرَ من ذَرارِيِّهم نحْوًا من خمسين ألفًا، وأسلَمَ بعضُ البَطارقَة من الروم، وجاء معه بنَحْو من مِائتَي أسير كانوا في حصنه، فأرسَل ملكُ الروم جيشًا في طلَبه، فركب هو في جماعة من المسلمينَ، وكبَس الرومَ فقتَل منهم مقتَلَةً عظيمةً، وغنِم غنيمةً كثيرةً جدًّا، ولمَّا قدمَ على الخليفة أكرَمه وأحسَن إليه، وأعْطَاه ما تَمَنَّاه.

وفيها ظهَر بالشام رجلٌ فادَّعَى أنَّه السُّفْيانيُّ، فأُخذ وبُعثَ به إلى بَغْدادَ، فادَّعَى أنَّه مُوَسْوِسٌ.

وحجَّ بالناس الفَضْلُ بنُ عبد الملك الهاشميُّ.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

الحسينُ بنُ محمد بن حاتم بن يزيدَ بن عليِّ بن مَرْوَانَ، أبو عليٍّ المعْروفُ بعُبَيْدٍ العِجْلِ، كان حافظًا مُكثِرًا مُتْقِنًا ثقةً مُقَدَّمًا في حفْظ المُسْنَدات، تُوفِّي في صَفَر منها.

صالحُ بنُ محمد بن عَمْرو بن حَبيب، أبو عليٍّ الأسَديُّ - أسَدُ خُزَيْمَةَ - المعْروفُ بجَزَرة؛ لأنَّه قرأَ على بعض المشايخ أنَّ أبا أُمامةَ كانتْ له خَرَزَةٌ يَرْقِي بها المريضَ، فقرَأها هو جزرة؛ تصْحيفًا منه، فلُقِّبَ بذلك لذلك، وقد كان حافظًا مُكثِرًا جَوَّالاً رَحَّالاً، طافَ الشامَ ومصرَ وخُرَاسَانَ، وانْتَقلَ من بغدادَ فسكن بخارىٰ، وكان ثقةً صدُوقًا أمينًا، وله روايةٌ كثيرةٌ عن يَحْيَىٰ بن مَعين، وسُؤَالاتٌ كثيرةٌ، كان مولدُهُ بالكوفة سنةَ عَشْرٍ ومائتين.

وتُوفِّي في هذه السنَة محمدُ بنُ عيسى بن محمد بن عبد الله بن عليِّ بن عبد الله بن العبَّاس، المعْروفُ بالبَيَاضيِّ؛ لأنَّه حضَر مجلسَ الخليفة وعليه ثِيابُ البَياض، فقال الخليفةُ: مَنْ ذاكَ البَياضيُّ؟ فعُرِفَ به. وكان ثقةً، روَىٰ عن ابن الأنْباريِّ وابن مُقسم. قتَلَتْه القَرامطَة في هذه السنة.

محمدُ بنُ الإمام إسْحاقَ بن راهَويه، سمعَ أباه، وأحمدَ بنَ حَنْبَل وغيرَهما، وكان عالمًا بالفقْه والحديث، جميلَ الطريقة، وقدِم بغدادَ فحدَّث بها، وقتلَتْه القَرامطَةُ هذه السنةَ في مَن قتَلُوا من الحَجيج.

محمدُ بنُ نَصْر، أبو عبد الله المَرْوَزيُّ، الفقيهُ، وُلد ببغدادَ ونشَأ بنَيْسابُورَ واستَوْطَن سَمَرْقَنْدَ، وكان من أعلم الناس باخْتلاف الصَّحابَة والتابعينَ فمَنْ بعدَهم من أئمة الإسْلام في الأحْكام، وقد رحَل إلى الآفاق وسمعَ من المشايخ الكثيرَ النافعَ، وصنَّفَ الكُتُبَ المفيدةَ الحافلةَ النافعةَ، وكان من أحسن الناس صلاةً وأكثرهم فيها خُشُوعًا، وقد صنَّفَ كتابًا عظيمًا في الصلاة.

روَى عنه الخطيبُ البَغداديُّ أنَّه قال: خرَجْتُ من مصرَ قاصدًا مَكَّةَ فركبتُ البحرَ ومعي جاريةٌ لي فغرقَت السفينةُ فذهَب لي في الماء ألفَا جُزْءٍ، وسلِمْتُ أنا والجاريةُ، فلجَأنا إلى جزيرة؛ فطلَبْنا بها ماءً فلم نجدْ، فوضَعْتُ رأسي على فَخذ الجارية ويَئسْتُ منَ الحياة، فبَيْنا أنا كذلكَ إذا رجلٌ قد أقْبَل وفي يَده كوزٌ فقال: هاه. فأخَذْتُه فشربْتُ منه وسَقَيْتُ الجاريةَ، ثم ذهَب فلم أدْرِ من أين أقبَل ولا إلى أين

ذهب. وقد كان من أكرم الناس وأسخاهم نفسًا. وكان إسماعيلُ بنُ أحمدَ يصلُه في كلِّ سنةٍ بأربعة آلافٍ، ويصلُه أخوه إسحاقُ بنُ أحمدَ بأربعة آلافٍ أيضًا، ويصلُه أهلُ سَمَرْقَنْدَ بأربعة آلافٍ، فيُنفقُ ذلك كلَّه، فقيلَ له: لو ادّخرتَ منها شيئًا لنائبةٍ؟ فقال: يا سُبْحانَ الله! أنا كنتُ بمصرَ أُنفقُ فيها في كلِّ سنةٍ عشرين درهمًا، فرأيتُ إذا لم يحصُلْ لي شيء من هذا لا يتهيَّأُ لي في السنة عشرون درهمًا.

وكان محمدُ بنُ نَصْرٍ المَرْوَزيُّ إذا دخل على إسماعيلَ بنِ أحمدَ السامانيِّ ينهَضُ له ويكرمُه، فعاتبه يومًا أخوه إسحاقُ، فقال له: تقومُ لرجلٍ في مجْلسِ حُكمِكَ وأنتَ مَلِكُ خُراسَانَ؟ قال إسماعيلُ: فبتُّ تلكَ الليلةَ وأنا مُشتَّتُ القلب فرأيتُ رسولَ الله ﷺ في المنام، وهو يقولُ: «يا إسماعيلُ ثَبَتَ مُلْكُك ومُلْكُ بَنيكَ بتَعْظيمكَ محمدَ بنَ نَصْرٍ، وذهَب مُلْكُ أخيكَ باسْتخفافه بمحمد بنِ نصرٍ».

وقد رُوي أنه اجتمَع بالديارِ المصرية محمدُ بنُ نصرٍ، ومحمدُ بنُ جَريرٍ، ومحمدُ بنُ المُنْذِرِ، فجلسُوا في بيتٍ يكتُبون الحديثَ ولم يكُن عندَهم في ذلك اليوم شيء يقتاتُونه، فاقترَعُوا فيما بيْنَهم مَن يسْعَىٰ لهم في شيءٍ يأكُلُونه؛ ليدفعوا عنهم ضرورتَهم، فجاءت القُرْعَةُ على أحدِهم، فنهَض إلى الصلاة فجعَل يُصلِّي ويدْعُو اللهَ، عزَّ وجلَّ، وذلكَ وقتَ القيلولة، فرأىٰ نائبُ مصرَ - وأظنُّه أحمدَ ابنَ طُولُونَ - في منامه في ذلك الوقتِ رسولَ الله ﷺ وهو يقولُ له: «أنت ههنا، والمحمَّدون ليس عندَهم شيءٌ يقتاتونه؟».

فانْتبَه الأميرُ من منامه، فسألَ: مَن ههنا من المُحدِّثينَ؟ فذُكِرَ له هؤلاء الثلاثةُ، فأرْسَل إليهم في الساعةِ الراهنَةِ بألفِ دينارٍ، فدخَل بها عليهم وأزالَ اللهُ ضرورتَهم ويسَّرَ عليهم.

وقد بلَغ محمدُ بنُ نَصْرٍ سنًّا عاليةً، وكان يسْألُ اللهَ ولدًا، فأتَاه يومًا إنْسانٌ فبَشَّره بولَدٍ ذَكرٍ قد وُلِد له، فرفَع يدَيْه فحمِد اللهَ وأثْنَىٰ عليه، وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ﴾ [إبراهيم: ٣٩]. فاستَفاد الحاضرُون من ذلك فوائدَ؛ منها أنَّه قد وُلِدَ له على كِبَرِ السنِّ ولدٌ ذَكَرٌ بعدَ ما كان يسْألُ اللهَ في ذلك، ومنها أنَّه سمَّاه يومَ مولده، كما سمَّىٰ رسولُ الله ﷺ ولَدَه إبْراهيمَ قبلَ السابعِ، ومنها اقْتداؤُه بالخليلِ في تسميته أوَّلَ وَلَدٍ له إسماعيلَ.

مُوسى بنُ هارونَ بن عبدِ الله، أبو عِمْرانَ المعْروفُ والدُه بالحَمَّالِ، وُلِد سنةَ أربعَ عشْرَةَ ومائتين، وسمع أحمدَ بنَ حَنْبَلٍ، ويحيىٰ بنَ مَعينٍ وغيرَهما، وكان إمامَ أهلِ عصره في حفظ الحديث ومعرفة الرِّجالِ والإتقانِ، وكان ثقةً شديدَ الوَرَعِ عظيمَ الهيبةِ، قال عبدُ الغنيِّ بنُ سعيدٍ الحافظُ المصْريُّ: كان أحسنَ الناسِ كلامًا على الحديثِ عليُّ بنُ المَدينيِّ، ثم مُوسَىٰ بنُ هارونَ، ثم الدَّارَقُطْنيُّ.

ثم دخلت سنة خمس وتسعين ومائتين

فيها كانت المُفادَاةُ بينَ المسلمينَ والروم، وكان من جملةِ مَنِ استُنْقِذَ من أيْدي الروم من نساءٍ ورجالٍ نحوٌ من ثلاثةِ آلافِ نسَمَةٍ ولله الحمدُ.

في المنتصف من صفر منها كانت وفاةُ إسْماعيلَ بنِ أحمدَ السامانيِّ أميرِ خُراسَانَ، وقد كان عاقلاً عادلاً حسنَ السِّيرة في رَعيَّته، حَليمًا كريمًا، جواداً مُمَدَّحًا، وهو الذي كان يُحْسِنُ إلى محمد بنِ نَصْرٍ المَرْوَزيِّ ويُعظِّمُه ويكرِمُه ويحترِمُه ويقومُ له في مجْلسِ مُلْكِه، وقد وَلِي بعدَه ولَدُه أحمدُ بنُ إسْماعيلَ بنِ أحمدَ السامانيُّ، وبعثَ إليه الخليفةُ المكتفي بالله بالولايةِ والتشريفِ، وقد تذاكرَ الناسُ عندَ إسْماعيلَ بنِ أحمدَ ذاتَ ليلةٍ الفَخْرَ بالأنسابِ، فقال: ينْبَغِي أنْ يكونَ الإنْسانُ عصَاميًّا لا عظاميًّا- أيْ ينْبَغِي أنْ يفْتَخِرَ بنَفْسِه لا بنَسَبِه وبلَده وجَدِّه- كما قال بعضُهم:

وبجِـدِّي سَمَـوْتُ لا بجُـدودي

وقال آخرُ:

حَسْبِي فَخاراً وشِيمَتي أدَبي ... ولسْتُ من هاشمٍ ولا العَربِ
إنَّ الفَتَى مَن يقولُ هأنذا ... ليسَ الفَتَى مَنْ يقولُ كانَ أبي

وفي ذي القعدة منها: وفاةُ الخليفة المُكْتفي بالله أبي محمد عليِّ بن المُعْتَضِد، وهذه ترجمتُه وذكْرُ وفاته:

أبو محمد عليُّ ابنُ أميرِ المؤمنينَ المعتضدِ بالله أبي العبَّاسِ أحمدَ ابنِ الأميرِ أبي أحمدَ الموفقِ بنِ المتوكلِ بنِ المعتصمِ بنِ الرشيدِ هارونَ بنِ المهديِّ بنِ المنصورِ، رحِمهم اللهُ، وقد ذكَرْنا أنَّه ليسَ منَ الخُلفاءِ العباسيين مَن اسمُه عليٌّ سواه بعدَ عليِّ بنِ أبي طالبٍ، رضي اللهُ عنه، ولم يكنْ في الخُلفاءِ مَنْ يُكنى بأبي محمدٍ سوىَ الحسَنِ بنِ عليٍّ، وموسى الهادي والمستضيءِ بأمرِ الله، وكان مولدُه في رجَبٍ من سنَة أربَعٍ وستِّينَ ومائتَيْن، وبُويعَ له بالخلافة بعدَ أبيه- في حياته- في يوم الجُمعة لإحْدَى عشْرَةَ بَقِيَتْ من ربيعٍ الآخرِ من سنَة تسْعٍ وثمانينَ ومائتَيْن، وعمرُه نحوٌ من خمسٍ وعشْرينَ سنةً، وكان رَبْعَةً من الرجالِ جميلاً رقيقَ اللونِ حسَنَ الشَّعْرِ، وافرَ اللِّحْيَة عريضَها. ولَمَّا ماتَ أبوه المُعْتَضِدُ، وباشَر هو منصبَ الخلافة، دخَل عليه بعضُ الشعراءِ فأنشدَه:

أجَلُّ الرَّزَايا أنْ يموتَ إمامُ ... وأسْنَى العَطايا أنْ يقومَ إمامُ
فأسْقَى الذي ماتَ الغَمامُ وجادَهُ ... ودامتْ تحيَّاتٌ لهُ وسَلامُ
وأبقَى الذي قامَ الإلَهُ وزادَهُ ... مَواهبَ لا يفنَى لَهُنَّ دوامُ
وتمَّتْ له الآمالُ واتَّصَلتْ بها ... فوائدُ موصُولٌ بهنَّ تَمَامُ
هو المُكْتفي بالله يكْفيه كُلَّما ... عناهُ بركنٍ منهُ ليسَ يُرامُ

فأمَر له بجائزةٍ سنيَّةٍ.

وقدكان يقولُ الشعرَ، فمنْ ذلك قولُه:

مَنْ لي بأنْ يعلَمَ ما ألْقَى ... فيعرفُ الصبوةَ والعشْقَا
ما زالَ لي عبْداً وحُبِّي لهُ ... صَيَّرَني عبْداً لهُ رِقَّا
العِتْقُ منْ شأني ولكنَّني ... منْ حُبِّه لا أملكُ العِتْقَا

وكان نقشُ خاتمِه عليٌّ متوكِّلٌ على ربِّه. وكان له من الولَدِ محمدٌ، وجَعْفَرٌ، وعبدُ الصَّمَدِ، ومُوسى، وعبدُ الله، وهارونُ، والفَضْلُ، وعيسَى، والعبَّاسُ، وعبدُ الملك.

وفي أيامِه فُتحَتْ أنطاكيَةُ واستُنقذت من أيدي الروم وكان فيها من أُسارىٰ المسلمينَ بشرٌ كثيرٌ وجَمٌّ غفيرٌ وأخَذ المسلمون من غنائمهم شيئًا كثيرًا جـدًا كما تقدَّم. ولمَّا حضَرتْه الوفاةُ سأل عن أخيه أبي الفَضْلِ جَعْفَرِ بنِ المُعْتَضِدِ فصحَّ عندَه أنَّه بالغٌ، فأحْضَرَه في يوم الجمعة لإحْدَىٰ عشْرَةَ ليلةً خلَتْ من ذي القَعْدَة من هذه السنة، وأحْضَر القُضاةَ وأشْهَدَهم علىٰ نفسه بأنَّه قد جعَل الخلافةَ إليه من بعده، ولقَّبَه بالمُقْتَدرِ بالله. وتُوفِّي المكتفي بالله بعدَ ثلاثة أيام، رحمه اللهُ، وقيلَ: في آخرِ يومِ السبتِ بينَ الظهرِ والعصرِ. وقيلَ: بعدَ المغربِ، ليلةَ الأحدِ لاثْنَتَيْ عشْرَةَ خلَت من ذي القَعْدَة، ودُفن في دارِ محمدِ بنِ عبدِ الله بنِ طاهرٍ، عن ثْنتَيْنِ، وقيل: عن ثلاثٍ وثلاثينَ سنَةً، وكانت خلافَتُه ستَّ سنينَ وستَّةَ أشهرٍ وتسْعَةَ عشَرَ يومًا. وكان قد أوْصىٰ بصدَقَةٍ من خالصِ ماله؛ ستِّمائة ألف دينارٍ، كان جَمَعها وهو صغيرٌ، وكان مرَضُه بداءِ الخنازيرِ، رحمه اللهُ.

خلافة المقتدر بالله أمير المؤمنين
أبي الفضل جعفر بن المعتضد

جُدِّدَتْ له البيعةُ بعدَ موت أخيه وَقْتَ السَّحَرِ لأرْبَعَ عشْرَةَ ليلةً خلَتْ من ذي القَعْدَة من هذه السنة - أعني سنةَ خمسٍ وتسعينَ ومائتَيْن - وعمرُه إذ ذاك ثلاثَ عشْرَةَ سنةً وشهرٌ وأحدٌ وعشرون يومًا، ولم يلِ الخلافةَ أحدٌ قبلَه أصْغَرُ سنًّا منه، ولمَّا أُجلسَ في مَنْصب الخلافة صلَّىٰ أرْبَعَ ركعاتٍ ثم سلَّم ورفَع صوتَه بالدعاء والاسْتخارَة، ثم بايَعه الناسُ بيعةَ العامَّة، وكُتب اسمُه على الرُّقُوم وغيرها: المُقْتَدرُ بالله، وكان في بيتِ مال الخاصَّة خَمْسَةَ عشرَ ألفَ ألف دينارٍ، وفي بيت مال العامَّة ستُّمائة ألف دينارٍ ونَيِّفٌ، وكانت الجواهرُ الثمينةُ في الحواصلِ من لَدُنْ بني أميَّةَ وأيام بني العبَّاسِ، قد تَناهىٰ جَمْعُها، فما زالَ يُفرِّقُها في حَظَاياه وأصْحابه حتىٰ أنْفَدَها، وقد استَوْزَرَ جماعةً من الكُتَّابِ يكثُرُ تَعْدادُهم؛ منهم أبو الحسَن عليُّ بنُ محمدِ بنِ الفُراتِ، وَلاَّه ثم عزَلَه بغيرِه، ثم أعادَه، ثم عزَلَه بغيرِه، ثم أعاده، ثم عزَله، ثم قتلَه، وقد تَقَصَّىٰ ذكْرَهم أبو الفرج ابنُ الجَوْزيِّ. وكان له منَ الخدَم والحُجَّاب والحُشْمَة التامَّة شيء كثيرٌ جدًّا، وكان كَريمًا جداً وفيه عبادَةٌ - مع هذا كلِّه - وكثرةُ صلاةٍ وصيامُ تطَوُّعٍ.

وفي يوم عَرَفَةَ أوَّلَ ولايَته فرَّقَ منَ الأغنام والأبْقارِ ثلاثينَ ألْفَ رأسٍ، ومنَ الإبلِ ألْفَيْ بعيرٍ، وردَّ الرسُومَ والكُلَفَ والأرْزاقَ إلىٰ ما كانتْ عليه في أوائلِ العباسيِّين، وأطْلَق أهلَ الحُبُوسِ الذين يجوزُ إطْلاقُهم، ووكَلَ أمرَ ذلك إلىٰ القاضي أبي عمرَ محمدِ بنِ يُوسُفَ، وكان قد بُنِيَتْ أبنيَةٌ في الرَّحْبَة دَخلُها في كلِّ شهرٍ ألْفُ دينارٍ، فأمرَ بهَدْمِها ليُوسِّعَ على المسلمين الطُّرُقاتِ، وسيأْتي ذِكْرُ شيءٍ من أيامه وترجَمته فيما بعدُ.

وممن تُوفِّي فيها من الأعيان:

إبراهيمُ بنُ محمد بن نُوحِ بن عبد الله، أبو إسحاقَ المُزَكِّي الحافظُ الزاهدُ، إمامُ أهلِ عصره بنَيْسابُورَ، في معرفة الحديث والرِّجال والعلل، وقد سمع خلقًا من المشايخ الكبار، ودخل على الإمام أحمدَ وذاكَرَه، وكان مجلسُه مَهيبًا، ويقالُ: إنَّه كان مُجابَ الدعوة، وكان لا يَملِكُ إلاَّ دارَه التي كان يسكُنُها وحانُوتًا يستَغِلُّه كلَّ شهرٍ سبْعَةَ عشَرَ درهَمًا يُنفقُها على نفسه وعياله، وكان لا يقبَلُ من أحدٍ شيئًا، وكان يُطَبَخُ له الجَزَرُ بالخلِّ فيتأدَّمُ به طولَ الشِّتاء، وقال أبو عليٍّ الحسينُ بنُ عليٍّ الحافظ النيسابوريُّ: لم تَرَ عَيْنايَ مثلَه.

أبو الحُسَيْن النُّوريُّ أحدُ أئمة الصُّوفيَّة أحمدُ بنُ محمدٍ، ويقالُ: محمدُ بنُ محمدٍ، والأوَّلُ أصحُّ. أبو الحسين النُّوريُّ ويُعرفُ بابنِ البَغَوِيِّ، أصله من خُراسانَ، وحدَّث عن سَرِيٍّ السَّقَطيِّ، ثم صار هو من أكابر أئمة القوم، قال أبو أحمدَ المَغازليُّ: ما رأيتُ أحدًا قطُّ أعبَدَ من أبي الحسين النُّوري، قيل له: ولا الجُنَيْدُ؟ قال: ولا الجنيدُ. وقال غيرُه: صامَ عشرينَ سنةً لا يعلَمُ به أحَدٌ لا من أهْله، ولا غيرهم. وتُوفِّي في مسجدٍ وهو مُقَنَّعٌ، فلم يعْلَمْ به أحدٌ إلاَّ بعدَ أربعَةِ أيام.

إسْماعيلُ بنُ أحمدَ بن أسد بن سامانَ السامانيُّ أحدُ ملُوك خُراسانَ للخلفاء، وهو الذي قتَل عَمْرَو ابنَ اللَّيْث الصفَّارَ الخارجيَّ، وكتَب بذلك إلى الخليفة المُعْتَضد فولاَّه خراسانَ، ثم ولاَّه المكْتَفي الرَّيَّ وما وراءَ النهر وبلادَ الترك فأوْقَعَ بهم بأسًا شديدًا، وبنَى الرُّبُطَ في الطُّرُقات، يسَعُ الرِّباطُ منها ألفَ فارسٍ، وأوْقَفَ عليها أوْقافًا جزيلَةً، وقد أهْدَىٰ إليه طاهرُ بنُ محمد بن عَمْرِو بن اللَّيْث هدايَا عظيمةً، منها ثلاثَ عشْرَةَ جَوْهَرَةً، زِنَةُ كلِّ واحدة منها ما بينَ السبعة مثَاقيلَ إلى العشَرَة، وبعضُها أحمرُ وبعضُها أزرَقُ؛ قيمتُها مائةُ ألف دينار، فبعَث بها إلى الخليفة المُعْتَضد وشفَع في طاهر فشفَّعَه فيه. ولَمَّا ماتَ إسْماعيلُ بنُ أحمدَ وبلَغَ المُكْتَفي موتُه تمثَّلَ بقول أبي نواس:

لن يَخلُفَ الدهرُ مِثْلَهم أبدًا ... هيْهاتَ هيهاتَ شأنُهمْ عجَبُ

المَعْمَرِيُّ الحافظُ صاحبُ «عمَل يوم وليلة» وهو الحسَنُ بنُ عليِّ بن شَبيبٍ، أبو عليٍّ المَعْمَريُّ الحافظُ، رحَل وسَمع من الشيوخ وأدْرَكَ خلقًا؛ منهم عليُّ بنُ المَدينيِّ، ويَحْيَىٰ بنُ مَعين، وعنه ابنُ صاعدٍ، والنَّجَّادُ، والخُلْديُّ، وكان من بُحور العلم وحُفاظ الحديث، صدُوقًا ثَبْتًا، وقد كان يُشبِّكُ أسْنانَه بالذهب من الكِبَر؛ لأنَّه جاوزَ الثمانينَ، وكان يُكنَى أوَّلاً بأبي القاسم، ثم بأبي عليٍّ، وقد وَلِيَ القضاءَ للبَرْتيِّ على القصر وأعمالها وإنَّما قيلَ له: المَعْمَريُّ. بأُمِّه أمِّ الحسَن بنْت أبي سُفْيانَ صاحب مَعْمَر بن راشد. وكانت وفاتُه لإحْدَىٰ عشْرَةَ ليلةً بَقِيَتْ من المحرَّم.

عبدُ الله بنُ الحسَن بن أحمدَ بن أبي شُعَيْب، واسمُ أبي شُعَيْب عبدُ الله بنُ مسلم، أبو شُعَيْبٍ الأُمَويُّ الحَرَّانيُّ المُؤَدِّبُ المحدِّثُ ابنُ المحدِّث، وُلِدَ سَنَةَ ستٍّ وثمانينَ ومائتَيْن، وسمعَ أباه، وجدَّه،

وعفَّانَ بنَ مسلم، وأبا خَيْثَمَةَ، كان صدُوقًا ثقةً مأمونًا. تُوفِّي في ذي الحجَّة منها.

عليُّ بنُ أحمدَ المُكْتفي بن المعتضد، تقدَّم ذكرُ ترجمته قريبًا من هذه السنة. أبو جَعْفَرٍ التِّرْمذيُّ محمدُ ابنُ أحمدَ بن نَصْرٍ، أبو جَعْفَرَ التِّرْمِذِيُّ الفقيهُ الشافعيُّ، وكان من أهلِ العلمِ والزهد، قال الدارقطنيُّ: هو ثقةٌ، كان مأمونًا ناسكًا، وقال القاضي أحمدُ بنُ كاملٍ: لم يكُنْ لأصْحابِ الشافعيِّ بالعراقِ أرْأَسُ منه، ولا أشدُّ ورعًا، وكان من التقللِ في المطعَمِ على حالةٍ عظيمةٍ فقْرًا وورَعًا وصَبْرًا، وكان يُنفِقُ في كلِّ شهرٍ أرْبعةَ دَرَاهِمَ، وكان لا يسْأَلُ أحدًا شيئًا، وكان قد اخْتَلَطَ في آخرِ عمره. تُوفِّي في المحرمِ من هذه السنة.

ثم دخلت سنة ست وتسعين ومائتين

في ربيع الأوَّل منها اجْتَمع جماعةٌ من القُوَّاد والجُنْد على خَلْع المُقْتَدِر بالله، وتوْلِيَة عبد الله بن المُعْتَزِّ الخلافةَ عوضًا عنه، فأجابَهم على أنَّه لا يُسْفَكُ بسبَبِه دمٌ. وكان المُقْتَدرُ قد خرَج للَّعب بالصوالجة فقَصَد إليه الحسينُ بنُ حمدانَ؛ يريدُ أن يفتكَ به، فلمّا سمعَ المُقْتَدرُ الضَّجة بادَرَ إلى دارِ الخلافة فأغْلَقها دونَ الجيش، واجْتَمَع القوادُ والأعْيانُ والقُضاةُ في دارِ الخلافة، فبايَعُوا عبدَ الله بنَ المُعْتَزِّ، وخُوطِبَ بالخلافة، ولُقِّبَ بالمُرْتَضي بالله. وقال الصوليُّ: إنَّما لقَّبوه المُنْتَصِفَ بالله، واسْتَوْزَرَ أبا عبدِ الله محمدَ بنَ داودَ، وبعَث إلى المُقْتَدِرِ يأمرُه بالتَّحوُّلِ من دارِ الخلافة إلى دارِ ابنِ طاهرٍ؛ ليَنْتَقِلَ هو إليها، فأُجيب بالسمع والطاعة، فركِبَ الحسينُ بنُ حمدانَ من الغَدِ إلى دارِ الخلافة ليَتَسلَّمها، فقاتلَه الخدَمُ ومَن فيها، ولم يُسلِّمُوها إليه، وهزَمُوه فلم يقْدِرْ على تخْليصِ أهْله وبعضِ ماله إلا بالجَهد الجَهيد. فلمَّا قدَر عليهم ارْتَحلَ من فوْرِه إلى المَوْصِلِ، فتفَرَّقَ نظامُ ابنِ المُعْتَزِّ وجماعته، فأرادَ ابنُ المُعْتَزِّ أن يتحوَّلَ إلى سامَرَّا ليَنْزِلَها، فلم يتْبَعْه أحدٌ من الأمراء، فدخَل إلى دارِ ابنِ الجصَّاصِ فاسْتجارَ به، ووقَع النهْبُ بالبلَد، واخْتَبَط الناسُ، وبعَث المُقْتَدرُ إلى أصْحابِ ابنِ المُعْتَزِّ فقبَض عليهم وقتَل أكثرَهم، وأعادَ ابنَ الفُراتِ إلى الوزارة فجدَّدَ البَيْعَةَ للمُقْتَدِرِ، وأرْسَلَ إلى دارِ ابنِ الجصَّاصِ فكَبَسها وأحْضَرَ ابنَ المُعْتَزِّ وابنَ الجصَّاصِ، فصادَرَ ابنَ الجصاصِ بمالٍ جزيلٍ جدًّا، يقالُ: إنَّه وزنُ ستَّةَ عشرَ ألفَ ألفِ درْهَم. ثم أطْلَقه، واعْتَقلَ ابنَ المُعْتَزِّ، فلمَّا دخَل في ربيعٍ الآخرِ لِيْلتان ظهَر للناسِ موْتُه وأُخْرِجَتْ جثَّتُه فسُلِّمَتْ إلى أهْله فدُفِنَ، وصفَح المُقْتَدرُ عن بَقيَّةِ مَن بقي في هذه الفِتْنَة حتى لا تفْسُد نيَّاتُ الناسِ.

قال ابنُ الجوْزيِّ: ولا يُعْرَفُ خليفةٌ خُلع ثم أُعيدَ سوى الأمينِ والمُقْتَدِرِ.

وفي يوم السبتِ لأربَعٍ بَقِينَ من ربيعٍ الأوَّلِ سقَط ببَغْدادَ ثلجٌ عظيمٌ حتى اجْتَمَع على الأسْطِحَة منه نحوٌ من أربع أصابعَ وهذا يُسْتَغْرَبُ في بَغْدادَ جدًّا، ولم تخْرُجِ السنةُ حتى خرَج الناسُ للاستسقاءِ من تأخُّرِ المطرِ عن أيامه.

وفي شعبانَ منها خلعَ علىٰ مؤنسٍ الخادمِ، وأُمرَ بالمسيرِ إلىٰ طَرَسُوسَ لغزوِ الرومِ.

وفي هذه السنة أمَرَ المُقتدرُ بأنْ لا يُستخدَمَ أحدٌ من اليهودِ والنصارىٰ في الدَّواوينِ، وأُلْزِمُوا بُيوتَهم، وأُمِرُوا بلُبسِ العسليِّ وجعْلِ الرقاعِ بينَ أظهُرِهم ليُعْرَفُوا بها وألزموا بالذُّلِّ حيثُ كانوا.

وحجَّ بالناسِ في هذه السنة الفَضْلُ بنُ عبدِ الملكِ الهاشميُّ، ورجَعَ كثيرٌ من الناسِ من قِلَّةِ الماءِ بالطريقِ، فإنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعونَ.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

أحمدُ بنُ محمد بن زكريا بن أبي عتاب، أبو بكر البَغْداديُّ، الحافظُ، ويُعرفُ بأخي مَيْمُونَ. روَىٰ عن نصرِ بنِ عليٍّ الجَهْضَميِّ وغيرِه، وروَىٰ عنه الطبرانيُّ، وكان يمتنعُ من أن يحدِّثَ، وإنَّما يُسمَعُ منه في المذاكراتِ، تُوفِّي في شوَّالٍ منها.

أبو بكر الأثْرَمُ، أحمدُ بنُ محمد بن هانئ أبو بكر الطَّائيُّ الأثْرَمُ، تلميذُ الإمامِ أحمدَ. سمع عفَّانَ وأبا الوليدِ والقَعْنَبيَّ وأبا نُعَيْمٍ وخلقًا كثيرًا، وكان حاذقًا صادقًا قويَّ الذاكرةِ، كان ابنُ مَعينٍ يقولُ عنه: كانَ أحدُ أبَوَيْه جنِّيًّا؛ لسُرْعَةِ فَهْمِه وحفظِه وحِذْقِه، وله كُتُبٌ مُصنَّفةٌ في العِلَلِ والناسخِ والمنسُوخِ، وكان من بُحورِ العلمِ.

خَلَفُ بنُ عَمْرو بن عبد الرحمن بن عيسى، أبو محمد العُكْبَريُّ، سمع الحديثَ، وكان ظريفًا، له ثلاثونَ خاتمًا وثلاثونَ عُكَّازًا، يلْبَسُ في كلِّ يومٍ من الشهرِ خاتمًا، ويأخُذُ في يده عكازًا، ثم يستأنفُ ذلك في الشهرِ الثاني، وكان له سَوْطٌ معلَّقٌ في منْزِله، فإذا سُئِلَ عن ذلك، يقولُ: لِيَرْهَبَ العيالُ منه.

ابنُ المعتزِّ الشاعرُ، الذي بُويعَ بالخلافةِ

عبدُ الله بنُ المُعْتَزِّ بالله محمدِ بنِ المُتَوكِّلِ على الله جَعْفَرِ بنِ المعتصمِ بالله محمدِ بنِ الرشيدِ هارونَ، يُكنَىٰ ابنُ المعتزِّ أبا العباسِ، الشاعرُ الهاشميُّ العباسيُّ، الفصيحُ البليغُ المطبِقُ، وقريشٌ قادةُ الناسِ في الخيرِ ودفعِ الشرِّ. وقد سمع المُبَرِّدَ وثَعْلَبًا، وقد رُوِي عنه من الحِكَمِ والآدابِ شيء كثيرٌ، فمن ذلك قولُه: أنفاسُ الحَيِّ خُطاه: أهلُ الدنيا رَكْبٌ يُسارُ بهم وهم نيامٌ. رُبَّما أوْرَدَ الطمَعُ ولم يُصْدِرْ. رُبَّما شرقَ شاربُ الماءِ قبلَ ريِّه. مَن تجاوزَ الكَفافَ لم يُغْنِه الإكثارُ. كلَّما عَظُمَ قدْرُ المنافَسِ فيه عَظُمَتِ الفَجيعةُ به. مَن ارْتَحَلَه الحِرْصُ أضْناه الطَّلَبُ. الحِرْصُ يَنْقُص من قدْرِ الإنْسانِ ولا يزيدُ في حظِّه. أشْقَىٰ الناسِ أقْرَبُهم من السلْطانِ، كما أنَّ أقربَ الأشياءِ إلىٰ النارِ أسرَعُها احتراقًا. مَن شارَكَ السلطانَ في عزِّ الدنيا شارَكَه في ذُلِّ الآخرةِ. يكْفيكَ من الحاسدِ أنَّه يغْتَمُّ وقتَ سُرورِكَ. الفُرْصةُ سريعةُ الفَوْتِ بعيدةُ العَوْدِ. الأسْرارُ إذا كثُرَ خُزَّانُها ازْدادَتْ ضَياعًا. العزلُ يَضحَكُ من تيهِ الولايةِ. الجزَعُ أتْعَبُ من الصبرِ. لا تَشِنْ وَجْهَ العفوِ بالتَّقْريعِ، تَرِكَةُ الميِّتِ عِزٌّ للورثةِ. إلىٰ غيرِ ذلك من كلامِه وحِكَمِه.

ومِن شعرِه في الحكَمِ ممَّا يناسِبُ هذا المعْنَىٰ الأخيرَ قولُه:

سابقْ إلى مالكَ ورَّاثَه ... ما المرءُ في الدنيا بلَبَّاث
كم صامتٍ يخنُقُ أكياسَه ... قد صاح في ميزانِ مِيراثَ

وله أيضًا:

ياذا الغِنَى والسطوَةِ القاهرَةْ ... والدولة الناهيَة الآمرهْ
ويا شياطينَ بنِي آدمٍ ... ويا عَبيدَ الشهْوَةِ الفاجرهْ
انتَظِرُوا الدنيا فقد أقربَتْ ... وعن قليلٍ تَلِدُ الآخِرَةْ

وله أيضًا:

أبكِ يا نفسُ وهاتي ... توبَةً قبلَ المماتِ
قبلَ أن يفجَعَنا الدَّهْـ ... ـرُ ببَيْنٍ وشَتَاتَ
لا تخُونيني إذا مِتُّ ... وقامَتْ بي نُعاتي
إنَّما الوافي بعَهْدِي ... مَنْ وَفَى بعدَ وَفاتِي

قال الصوليُّ: نظَر ابن المعتز في حياةِ أبيه الخليفةِ إلىٰ جاريَةٍ فأعْجَبَتْه، فمرِضَ مِن حبِّها، فدخَل أبوه عليه عائداً، فقال له: كيف تجِدُكَ؟ فأنشأَ يقولُ:

أيُّها العَاذلُونَ لا تَعذِلُوني ... وانظُروا حُسْنَ وجْهِها تَعْذُروني
وانظُروا هل ترَوْنَ أحسنَ منها ... إنْ رأيْتُم شَبِيهَهَا فاعْذِلُوني

قال: ففَحَص أبوه عنِ القضيةِ، واستَعْلَمَ خبرَ الجاريةِ، ثم بعَث إلىٰ سيِّدِها فاشتَراها بسَبْعَةِ آلافِ دينارٍ، وبعَثها إليه.

وقد ذكَرْنا أنَّ في ربيعِ الأوَّلِ من هذه السنةِ اجْتَمَع القوّادُ والأعيانُ والقضاةُ علىٰ خَلْعِ المقتدرِ وتوْليةِ عبدِ اللهِ بنِ المعتزِّ هذا، ولُقِّبَ بالمُرْتَضِي أو المُنْتَصِفِ باللهِ، فما مكَث في الخلافَةِ إلاَّ يومًا أو بعضَ يومٍ، ثم غالَب المقتدرُ وقتَل عامَّةَ مَن خرَج عليه، واعتقَله في دارِ السلطانِ، ووكَّلَ به يونسَ الخادِمَ، فقُتِلَ في أوائِلَ ربيعِ الآخرِ لليْلَتَيْنِ خلَتا منه، ويقالُ: إنَّه أنشدَ في آخرِ يومٍ مِن حياتِه:

يا نفسُ صبْراً لعلَّ الخيرَ عُقْباك ... خانَتْك من بعد طول الأمْنِ دُنْياك
مرَّتْ بنا سحَراً طيْرٌ فقلتُ لها ... طُوباكِ يا لَيْتَني إيَّاكِ طُوباكَ
إن كان قصْدُك شرقًا فالسَّلامُ على ... شاطِي الصراة ابلغي إنْ كان مَسْراكَ
مِن مُوثَقٍ بالمَنايَا لا فكاكَ له ... يبْكِي الدِّماءَ على إلْف له باكي
فرُبَّ آمنَة جاءَتْ منيَّتُها ... ورُبَّ مُفلتَة من بين أشْراكَ
أظنُّه آخرَ الآيامِ من عُمُرِي ... وأوْشَكَ اليومَ أنْ يَبْكي لِيَ الباكِي

ولما قُدِّم ليُقتَلَ أنشأ يقولُ:

فقُلْ للشامتينَ بنا رُوَيدًا ... أمامَكُم المَصائبُ والخُطُوبُ
هوَ الدهرُ الذي لا بُدَّ من أن ... يكونَ إليكُمُ منهُ ذُنُوبُ

ثم كان ظهورُ قتلِه لليلتَيْنِ خلَتا من ربيعٍ الآخرِ من هذه السنة. وقد ذكَر له القاضي ابنُ خَلِّكانَ مصنَّفاتٍ كثيرةً منها: «طَبَقاتُ الشعراء»، وكتابُ «أشْعارِ الملوك»، وكتابُ «الآداب»، وكتابُ «البَديع»، وكتابٌ في الغناءِ وغيرُ ذلك. وذكَر أنَّ طائفةً من الأمراءِ خلَعُوا المُقْتَدِرَ، وبايعُوه يومًا وليلةً، ثم تمزَّقَ شملُه واختَفى في بيتِ ابنِ الجصَّاصِ الجَوْهريِّ، ثم ظُهِرَ عليه فقُتِل، وصُودِرَ ابنُ الجَصَّاصِ بألفَيْ ألفِ دينارٍ، وبَقِيَ معه سبعُمائةِ ألفِ دينارٍ.

قيل: وكان أسمرَ اللونِ مَسْنونَ الوَجْهِ، يخضِبُ بالسَّوادِ، عاشَ خمسينَ سنةً. وذكَر شيئًا من كلامِه وأشْعارِه، رحمَه اللهُ.

محمدُ بنُ الحسَنِ بنِ حَبيبٍ، أبو حُصَيْنٍ الوادعيُّ القاضي، صاحبُ «المُسْنَد»، من أهلِ الكُوفَةِ، قَدِمَ بَغْدادَ وحدَّث بها عن أحمدَ بنِ يُونُسَ اليَرْبُوعيِّ، ويَحْيَى بنِ عبدِ الحميدِ، وجَنْدَلِ بنِ والقٍ. وعنه ابنُ صاعدٍ، والنَّجَّادُ، والمَحامليُّ، قال الدَّارقطنيُّ: كان ثقةً. تُوفِّي بالكُوفَةِ في هذه السنةِ.

محمدُ بنُ داودَ بنِ الجَرَّاحِ، أبو عبدِ الله الكاتبُ، عمُّ الوزيرِ عليِّ بنِ عيسى، كان من أعلمِ الناسِ بالأخْبارِ وأيامِ الخُلَفاءِ، له مُصنَّفاتٌ في ذلك. روَى عن عمرَ بنِ شبَّةَ وغيرِه. كانت وفاتُه في ربيعٍ الأوَّلِ منها عن ثلاثٍ وخمسينَ سنةً. واللهُ أعلمُ.

ثم دخلت سنة سبع وتسعين ومائتين

فيها غزَا القاسمُ بنُ سيما الصائفةَ. وفادَى مؤنسٌ الخادمُ الأُسارَى الذين بأيْدي الرومِ.

وحكَى ابنُ الجَوْزيِّ عن ثابتِ بنِ سنانٍ، أنَّه رأى في أيامِ المُقْتَدِرِ ببغدادَ امرأةً بلا ذراعَيْنِ ولا عضُدينِ، وإنَّما كفَّاها مُلصَقانِ بكَتِفَيْها، لكن لا تعمَلُ بهما شيئًا، وإنَّما كانت تعمَلُ برِجْلَيْها ما تعْمَلُه النساءُ بأيْديهنَّ؛ من الغَزْلِ ومَشْطِ الرأسِ وغيرِ ذلك.

وتأخَّرَت الأمطارُ عن بَغْدادَ في هذه السنة وارْتَفَعت الأسعارُ بها، وجاءَت الأخْبارُ بأنَّ مَكَّةَ شرَّفَها اللهُ تعالى، جاءَها سيلٌ عظيمٌ بحيثُ إنَّ أركانَ البيتِ غرِقتْ من السيولِ، وإنَّ زمزمَ فاضتْ، ولم يُرَ ذلك قبلَ هذه السنةِ. وحجَّ بالناسِ الفَضْلُ بنُ عبدِ الملكِ الهاشميُّ.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعْيانِ:

محمدُ بنُ داودَ بنِ عليٍّ أبو بكرٍ الفَقيهُ ابنُ الفَقيهِ، الظاهريُّ ابنُ الظَّاهريِّ، كان عالمًا بارعًا أديبًا شاعرًا فَقيهًا ماهرًا، وهو مصنِّفُ كتابِ «الزُّهَرَة»، اشْتَغَل على أبيه وتَبِعَه في مذْهبِه وما كان يسلُكُه ويختارُه من الطريقِ ويرتضيه، وكان أبوه يُحبُّه ويُقرِّبُه ويُدْنيه. قال رويمُ بنُ محمدٍ: كنَّا يومًا عندَ داودَ

إذ دخَل ابنُه محمدٌ باكيًا، فقال: ما لكَ؟ فقال: إنَّ الصِّبيانَ يُلقِّبونَني: عصفُورَ الشَّوْك. فضحكَ أبوه، فاشْتَدَّ غضَبُ ولده، وقال: أنتَ أضرُّ عليَّ منهم. فضَمَّه أبوه إليه، وقال: لا إلهَ إلاَّ اللهُ، ما الألْقابُ إلاَّ من السماء، ما أنتَ يا بُنَيَّ إلاَّ عُصفُورُ الشَّوك.

ولمَّا تُوفِّي أبوه أُجْلِسَ ابنُه محمدٌ هذا في مكانه في الحَلْقَة، فاستصغَره الناسُ عن ذلك، فسألَه سائلٌ يومًا عن حدِّ السُّكْر، فقال: إذا عزَبَتْ عنه الهمومُ وباحَ بسرِّه المكْتوم، فاستحسن ذلك منه، وعَظُمَ في أعيُنِ الناس.

قال ابنُ الجوزيِّ في «المنتظم»: وقد ابْتُلِيَ بحُبِّ صبيٍّ اسمُه محمدُ بنُ جامع، ويقالُ: محمدُ بنُ زخرف. فاسْتَعمَلَ العفافَ والدِّينَ في حُبِّه، ولم يزَلْ ذلك دأبَه فيه حتى كان سببُ وفاته في ذلك.

قلتُ: فدخَل في الحديثِ المَرْوِيِّ عن ابن عباسٍ موْقُوفًا عليه ومرْفوعًا عنه: «مَن عَشِقَ فكتَم، فَعَفَّ فمات، مات شهيدًا». وقد قيل عنه: إنَّه كان يُبيحُ العشقَ بشرط العَفاف.

وحكَى هو عن نفسه أنَّه لم يزَلْ يتعشَّقُ منذُ كان في الكُتَّاب، وأنَّه صنَّفَ كتابَ «الزُّهَرَة» في ذلك مِن صِغَره، وربَّما وقَف أبوه داودُ على بعضِ ذلك، وكان يتناظرُ هو وأبو العباس بنُ سُريج كثيرًا بحضْرَةِ القاضي أبي عمرَ محمدِ بنِ يُوسُفَ، فيتعجَّبُ الناسُ من مُناظرتهما وحُسْنِها، وقد قال له ابنُ سُريج يومًا في مُناظَرته: أنتَ بكتاب «الزُّهَرَة» أشهرُ منكَ بهذا. فقال له: تُعَيِّرُني بكتاب «الزهرة» وأنتَ لا تُحْسِنُ تَسْتَتِمُّ قراءتَه، وهو كتابٌ جمعناه هَزْلاً، فاجْمَعْ أنتَ مثلَه جدًّا.

وقال القاضي أبو عمرَ محمدُ بنُ يوسفَ: كنتُ يومًا أنا وأبو بكرِ بنُ داودَ راكبَيْنِ، فإذا جاريةٌ تُغنِّي بشيء من شعره:

أشْكُو عليلَ فؤاد أنت مُتْلِفُهُ ... شكْوَى عَليلٍ إلى إلفٍ يُعَلِّلُهُ
سُقْمِي تزيدُ على الأيام كثرتُهُ ... وأنتَ في عُظْمِ ما ألْقى تُقَلِّلُهُ
اللهُ حرَّمَ قتْلي في الهوَى أسَفًا ... وأنتَ يا قاتلي ظُلْمًا تُحَلِّلُهُ

فقال أبو بكرٍ محمدُ بنُ داودَ: كيفَ السبيلُ إلى اسْتِرْجاعِ هذا؟ فقلتُ: هَيْهاتَ سارتْ به الرُّكْبانُ.

كانت وفاةُ محمدِ بنِ داودَ، رحمَه اللهُ تعالى، في رمضانَ من هذه السنة، وجلَس ابنُ سُريج لعزاه، وقال: ما أسَى إلاَّ على التراب الذي أكَلَ لسانَ محمدِ بنِ داودَ، رحمه اللهُ.

محمدُ بنُ عثمانَ بنِ أبي شيبةَ أبو جعفر، حدَّث عن يَحيَى بنِ مَعين، وعليِّ بنِ المَدينيِّ، وخَلْقٍ، وعنه ابنُ صاعد، والخُلْديُّ، والباغَنْديُّ، وغيرُهم، وله كتابٌ في التاريخ، وغيرُه من المُصَنَّفات، وقد وثَّقَه صالحُ بنُ محمدٍ جَزَرَةُ وغيرُه، وكذَّبَه عبدُ الله بنُ الإمام أحمدَ، فقال: هو كذَّابٌ بيِّنُ الأمْرِ. وتعجَّبَ ممَّنْ يروي عنه. وكانت وفاتُه في ربيع الأول من هذه السنة.

محمدُ بنُ طاهر بن عبدالله بن الحسين بن مصعب، من بيت الإمارة والحشمة، باشَرَ نيابَةَ العراق مدَّةً ثم خراسانَ، ثم ظَفِرَ به يعقوبُ بنُ اللَّيْثِ في سنة ثَمانٍ وخمسينَ فأسَره، وبَقِيَ معه يطوفُ به في

الآفاقِ أربعَ سنينَ، ثم نجا في بعضِ الوَقَعاتِ بنفسِه، ولم يزَلْ مُقيمًا ببَغْدادَ إلى أن تُوفِّيَ في هذه السنَة.

مُوسى بنُ إسحاقَ بنِ موسى بنِ عبد الله، أبو بكرٍ الأنصاريُّ الخَطْميُّ، مولدُه سنَةَ عشْرٍ ومائتَيْن، سمع أباه وأحمَد بنَ حنبلٍ وعليَّ بنَ الجَعْدِ وغيرَهم، وحدَّث عنه الناسُ وهو شابٌّ، وقرَءُوا عليه القرآنَ، وكان ينْتَحِلُ مذهبَ الشافعيِّ، وولِي قضاءَ الرَّيِّ والأَهْوازِ، وكان ثقةً فاضلاً نبيلاً عفيفًا فصيحًا كثيرَ الحديث. تُوفِّي في المحرمِ من هذه السنة.

يوسفُ بنُ يَعْقُوبَ بنِ إسْماعيلَ بنِ حَمَّادِ بنِ زيْد، والدُ القاضي أبي عمرَ، محمدِ بنِ يوسفَ، قاتلِ الحَلاَّجِ، وكان يوسفُ بنُ يعقوبَ هذا من أكابرِ القضاةِ وأعيانِ العُلَماءِ، وُلد سنةَ ثمانٍ ومائتينِ، وسمع سليمانَ بنَ حَرْبٍ وعمرَو بنَ مَرْزُوقٍ وهُدْبَةَ ومُسَدَّدًا، وغيرَهم، وكان ثقةً، وقد ولِيَ قضاءَ البَصْرَةِ وواسطٍ والجانبِ الشرقيِّ من بَغْدادَ، وكان ثقةً نزهًا عفيفًا شديدَ الحُرْمَةِ، جاءَه يومًا بعْضُ خدَمِ الخليفةِ المُعْتَضِدِ، فرُفِع في المجلسِ فأمَرَه حاجبُ القاضي أن يُساوِيَ خَصْمَه، فامْتَنَع إدْلالاً بجاهِه عندَه فنَهَرَه القاضي، وقال: ائتُوني بدَلاَّلِ النَّخْسِ حتى أبيعَ هذا العبدَ وأبْعثَ بثَمَنِه إلى الخليفةِ، وجاءَ حاجبُ القاضي فأخذَه بيدِه وأجلَسه مع خَصْمِه، فلمَّا انْقَضَتِ الحُكُومَةُ رجَع الخادمُ إلى المُعْتَضِدِ فبَكَى بينَ يدَيْه وأخبَره بما قال القاضي، فقالَ: واللهِ لو باعَكَ لاَجَزْتُ بيْعَه ولَمَا اسْتَرْجَعْتُكَ أبدًا، فليسَ خُصُوصيَّتُكَ عندي تُزيلُ مَرْتَبَةَ الحُكْمِ؛ فإنَّه عمودُ السلْطانِ وقِوامُ الأدْيانِ. كانت وفاتُه في رمضانَ من هذه السنة.

ثم دخلت سنة ثمانٍ وتسعين ومائتين

فيها قدِم القاسمُ بنُ سيما من بلادِ الرومِ، فدخَل بغدادَ ومعه الأُسارَىٰ والعُلُوجُ، بأيديهم أعلامٌ عليها صُلْبانٌ من ذهَبٍ، وخلقٌ من الأُسارَىٰ.

وفيها قدمت هدايا من نائبِ خُراسانَ أحمدَ بنِ إسماعيلَ بنِ أحمدَ السامانيِّ؛ من ذلك مائةٌ وعشرون غلامًا بمَراكبِهم وأسلحتِهم، وما يحتاجون إليه، وخمسونَ بازيًا وخمسونَ جملاً تحمِلُ من مُرتفعِ الثياب، وخمسونَ رطلاً من مسكٍ، وغيرِ ذلك.

وفيها فُلج القاضي عبدُ الله بنُ عليِّ بنِ محمدِ بنِ عبدِ الملكِ بنِ أبي الشَّوارِب، فقُلِّد مكانَه على الجانبِ الشرقيِّ والكرْخِ ابنُه محمدٌ.

وفي شعبانَ منها أُخذ رجلان، يقالُ لأحدهما: أبو كَثيرةَ والآخرُ يُعرَفُ بالشِّمريِّ. فذكَرا أنَّهما من أصحابِ رجلٍ، يقالُ له: محمدُ بنُ بشرٍ. وأنَّه يدَّعي الرُّبوبيَّةَ.

وفيها ورَدت الأخبارُ بأنَّ الرومَ قصَدت اللاَّذقيَّةَ.

وفيها ورَدت الأخبارُ بأنَّ ريحًا صفراءَ هبَّت بحديثةِ المَوْصِلِ، فماتَ من حَرِّها بشرٌ كثيرٌ.

وفيها حجَّ بالناسِ الفَضْلُ الهاشِمِيُّ.

وفيها تُوفِّي من الأعيان:

ابنُ الرَّاوَنْديِّ الزِّنْديقُ أحمدُ بنُ يحيى بن إسحاقَ أبو الحسين المعروفُ بابن الراونديِّ: أحدُ مشاهيرِ الزَّنادقَةِ الملحدين، عليه اللعنةُ من ربِّ العالمين، كان أبوه يهوديًّا فاظهَر الإسلامَ، فيُقالُ: إنَّه حرَّفَ في التوراة، كما عادَىٰ ابنُه القُرآنَ بالقرآنِ والْحدَ فيه، وصنَّفَ كتابًا في الرَّدِّ على القرآن سمَّاه «الدَّامغ». وكتابًا في الرَّدِّ على الشريعة والاعتراضِ عليها سمَّاه «الزُّمُرُّدَة». وله كتابُ «التَّاج» في معنىٰ ذلك، وله كتابُ «الفريد»، وكتابُ «إمامَة المَفْضُول».

وقد انتصَبَ للرَّدِّ على كُتُبِه هذه جماعةٌ؛ منهم الشيخُ أبو عليٍّ محمدُ بنُ عبد الوهَّاب الجُبَّائيُّ شيخُ المُعْتَزلة في زمانه، وقد أجادَ في ذلك، وكذلك ولَدُه أبو هاشم عبدُ السلام بنُ أبي عليٍّ، قال الشيخُ أبو عليٍّ الجُبَّائيُّ: قرأتُ كتابَ المُلحد الجاهل السَّفيه ابن الراوندي، فلم أجدْ فيه إلاَّ السَّفَهَ والكَذبَ والافتراءَ. قال: وقد وضَع كتابًا في قِدَم العالم ونَفْي الصانع، وتَصحيح مَذهَب الدَّهْرِيَّة والردِّ على أهل التوحيد، ووضَع كتابًا في الرَّدِّ على محمدٍ رسولِ الله ﷺ، في سبعةَ عشرَ موضعًا من كتابه، ونسبَه إلى الكذب، وطعَن على القرآن، ووضَع كتابًا لليهود والنصارىٰ وفَضَّل دينَهم على المسلمين؛ يَحتَجُّ لهم فيها على إبطال نُبوَّة محمدٍ ﷺ، إلى غير ذلك من الكُتُب التي تُبيِّنُ خروجَه عن الإسلام. نقلَه ابنُ الجوزيِّ عنه.

وقد أورَد ابنُ الجوزيِّ في «مُنْتَظَمه» طرَفًا من كلامه وزَنْدَقته وطعنه على الآيات والشريعة. وردَّ عليه في ذلك، وهو أقلُّ وأخسُّ وأذَلُّ من أن يُلتفَتَ إليه، وإلى جهله وكلامه وهَذَيانه وسَفَهه وخذلانه وتمويهه وترويجه وطُغيانه.

وقد أُسند إليه حكاياتٌ من المَسْخَرَة والاستهتار والكُفْر والكبائر؛ منها ما هو صحيحٌ عنه، ومنها ما هو مُفْتَعَلٌ عليه ممَّن هو مثلُه، وعلى طريقه ومَسلَكه في الكفر والتستُّر بالمَسْخَرَة، وقد قال اللهُ تعالى فيهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

وقد كان أبو عيسى الوَرَّاقُ مُصاحبًا لابن الراوَنْديِّ، قبَّحهما اللهُ، فلمَّا علم الناسُ بأمرهما طَلَب السلطانُ أبا عيسى، فأُودع السِّجنَ إلى أن مات، وأمَّا ابنُ الرَّاوَنْديِّ فهرَب، ولجَأ إلى ابن لاوي اليهوديِّ، وصنَّف له - في مدَّة مُقامه عنده - كتابَه الذي سمَّاه «الدَّامغ للقرآن» فلم يلبَثْ بعدَه إلاَّ أيَّامًا يسيرةً حتى مات، لعَنه اللهُ. ويقالُ: إنَّه أُخذ وصُلِب.

قال أبو الوفاء بنُ عَقيل: ورأيتُ في كتابِ مُحقَّقٍ أنَّه عاشَ ستًّا وثلاثينَ سنةً، مع ما انتهَى إليه من التَّوَغُّل في المَخازي، لَعنَه اللهُ وقبَّحه، ولا رحِم عظامَه.

وقد ذكَره القاضي ابنُ خَلِّكانَ في «الوَفَيات» ودلَّس عليه، ولم يُجرِّحْه بشيء ولا كأنَّ الكلبَ أكلَ

له عجينًا، على عادته في العلماء والشعراء؛ فالشعراءُ يُطيلُ تراجمَهم، والعلماءُ يذكُرُ لهم ترجمةً يسيرةً، والزنادقةُ يترُكُ ذكْرَ زندقتِهم، وأرَّخَ وفاتَه في سنة خمسٍ وأربعين ومائتين وقد وَهِمَ وهْمًا فاحشًا، والصحيحُ أنَّه تُوفِّي في هذه السنة، كما أرَّخه ابنُ الجوزيِّ وغيرُه.

الجُنَيدُ شيخُ الصوفيةِ، رحمه اللهُ، الجُنَيْدُ بنُ محمدِ بنِ الجُنَيْدِ، أبو القاسمِ الخَزّازُ، ويُقالُ: القَواريريُّ. أصلُه من نَهاوَنْدَ، وولد ببغدادَ، ونشأ بها. وسمع الحديثَ من الحسَنِ بنِ عَرَفَةَ. وتفقَّه بأبي ثَوْرٍ إبراهيمَ بنِ خالدٍ الكَلْبِيِّ، وكان يُفْتي بحَضْرَتِه وعمرُه عشرونَ سنةً، وقد ذكَرْناه في «طَبَقاتِ الشافعيَّةِ»، واشتُهر بصُحْبَةِ الحارثِ بنِ أسدٍ المحاسبيِّ، وخالِه سَرِيٍّ السَّقَطِيِّ، ولازَمَ التعبُّدَ، وتكلَّمَ على طريقةِ التصوُّفِ. وكان وِرْدُه في كلِّ يومٍ ثلثَمائةِ ركْعَةٍ، وثلاثين ألفَ تَسبيحةٍ. ومكَثَ أربعين سنةً لا يأوِي إلى فِراشٍ، وكان مع ذلك يعرِفُ سائرَ فُنونِ العلمِ، رحمه اللهُ.

ولمّا حضرتْه الوفاةُ جعَل يتلُو القرآنَ، فقيل له: لو رفَقْتَ بنفسِك. فقال: ما أحدٌ أحوجَ إلى ذلك مني الآنَ، وهذا أوانُ طَيِّ صحيفَتي.

قال القاضي ابنُ خَلِّكانَ: أخَذَ الفقْهَ عن أبي ثَوْرٍ صاحبِ الشافعيِّ، ويقالُ: كان يتفقَّهُ على مذهبِ سفيانَ الثَّوريِّ. وكان ابنُ سُرَيجٍ يَصْحَبُه ويُلازِمُه.

قال: وسُئِل الجُنَيْدُ عن العارفِ، فقال: مَن نطَق عن سرِّك وأنتَ ساكتٌ. وكان يقولُ: مذهبُنا هذا مُقيَّدٌ بالكتابِ والسنَّةِ، فمَن لم يقرَأِ القرآنَ، ويكتُبِ الحديثَ لا يُقْتَدَى به في مذهبِنا وطريقتِنا. ورأى بعضُهم معه سُبْحَةً، فقيل له: أنتَ مع شرفِك تتَّخذُ سُبْحةً؟ فقال: طريقٌ وصَلْتُ به إلى اللهِ لا أُفارِقُه.

وقال له خالُه السَّريُّ السَّقَطيُّ: تكلَّمْ على الناسِ. فلم يَرَ نفسَه لذلك موْضعًا، فرأى في المنامِ رسولَ اللهِ ﷺ، وهو يقولُ له: تكلَّمْ على الناسِ. فغَدا على خاله، فقال له خالُه: لم تُصدِّقْنا حتى قيل لك. قال: فتكلَّمَ على الناسِ، فجاءَه يومًا شابٌّ نصرانيٌّ في صورةِ مسلمٍ، فقال له: يا أبا القاسمِ، ما معنى قولِ النبيِّ ﷺ: «اتَّقوا فراسةَ المؤمنِ؛ فإنَّه ينظرُ بنورِ اللهِ»؟ قال: فأطرَقْتُ، ثم رفَعتُ رأسي إليه فقلتُ له: أسْلِمْ فقد آنَ وقتُ إسلامِك. قال: فأسلَم الغلامُ. وقال الجُنَيْدُ: ما انتفَعتُ بشيءٍ كانتفاعي بأبياتٍ سمعتُها من جاريةٍ تُغنِّي بها في غُرفَةٍ وهي تقولُ:

إذا قلتُ: أهْدَى الهَجْرُ لي حُلَلَ البِلَى ... تقُولينَ: لولا الهجْرُ لم يَطِبِ الحُبُّ

وإن قلتُ: هذا القلبُ أحْرَقَه الجَوَى ... تقُولي بنيرانِ الجَوى شَرُفَ القلبُ

وإن قلتُ: ما أذْنَبْتُ قلتِ مُجيبَةً ... حياتُكَ ذَنْبٌ لا يُقاسُ به ذَنْبُ

قال: فصعقْتُ وصِحتُ، فخرَج صاحبُ الدارِ، فقال: يا سيِّدي ما لَكَ؟ قلتُ: ممَّا سمعتُ، فقال: هي هِبَةٌ مِنِّي إليك. فقلتُ: قد قَبِلْتُها وهي حُرَّةٌ لوجْهِ اللهِ. ثم زوَّجتُها لرجلٍ، فأولَدها ولدًا صالحًا حجَّ على قدَمَيْه ثلاثينَ حَجَّةً.

سعيدُ بنُ إسْماعيلَ بن سعيد بن منْصُور، أبو عُثْمانَ الواعظُ وُلِد بالرَّيِّ، ونشأَ بها، ثم انتقَل إلى نيسابُورَ فسكَنها إلى أن ماتَ بها، وقد دخَلَ بغدادَ، ويقالُ: إنَّه كان مُجابَ الدعوة.

قال الخطيبُ: أخبَرنا عبدُ الكريمِ بنُ هَوازِنَ، قال: سمعتُ أبا عبدِ الرحمنِ السُّلَميَّ يقولُ: سمعتُ عبدَ الله بنَ محمدٍ الشَّعرانيَّ يقولُ: سمعتُ أبا عثمانَ يقولُ: منذُ أربعينَ سنةً ما أقامَني اللهُ في حال فكرِهتُه، ولا نقَلني إلى غيره فسخِطتُه.

وكان أبو عُثمانَ يُنشدُ:

أسأتُ ولم أُحسنْ وجئتُكَ هاربًا ... وأينَ لعبدٍ من مَواليهِ مَهْرَبُ؟
يُؤمِّلُ غُفرانًا، فإنْ خابَ ظنُّه ... فما أحَدٌ منه على الأرضِ أخْيَبُ

وروَى الخطيبُ عنه أنه سُئل: أيُّ أعمالك أرْجَى عندك؟ فقال: إنِّي لمَّا ترَعرَعْتُ وأنا بالرَّيِّ وكانوا يريدُونَني على التَّزويجِ فأمتنعُ، فجاءَتْني امرأةٌ فقالتْ: يا أبا عُثْمانَ، قد أحْبَبْتُكَ حُبًّا أذهَبَ نومي وقراري، وأنا أسألُك بمقلِّبِ القُلوب، وأتوسَّلُ به إليك لمَا تزوَّجتَني. فقلتُ: ألكِ والدٌ؟ قالتْ: نعَم. فأحضرتُه، فاستدعَيْ بالشهودِ فتزوَّجتُها، فلمَّا خلَوْتُ بها إذا هي عَوْراءُ، عَرْجاءُ، مُشَوَّهَةُ الخَلْقِ، فقلتُ: اللهُمَّ لكَ الحمدُ على ما قدَّرْتَه لي. وكان أهلُ بيتي يلومونَني على تزويجي بها، فكُنتُ أزيدُها برًّا وإكرامًا، وربَّما احتبَسَتْني عندَها، ومنَعتْني من الحُضورِ إلى بعضِ المجالسِ، وكأنِّي في بعضِ أوقاتي على الجمرِ، وأنا لا أُبدي لها من ذلك شيئًا، فمكثْتُ كذلك خمسَ عشْرَةَ سنةً، فما شيءٌ أرجَى عندي من حفظي عليها ما كان في قلبِها من جهَتي.

سمنونُ بنُ حَمْزَةَ، ويقالُ: ابنُ عبدِ الله، أحدُ مشايخِ الصوفيَّة، كان وِرْدُه في كلِّ يومٍ وليْلةٍ خَمْسَمائةِ ركْعَةٍ، وسمَّى نفسَه سَمنونًا الكذَّابَ لدعواه في قوله:

فليسَ لي في سِواكَ حَظٌّ ... فكيْفَما شئتَ فامتحنِّي

فابتُليَ بعسارِ البولِ، فكانَ يدورُ على المكاتبِ ويقولُ للصِّبيانِ: ادعُوا لعَمِّكُم الكذَّابِ. وله كلامٌ متينٌ في المحبَّة، ووُسوسَ في آخرِ عمرِه، وله كلامٌ في المحبَّة مستقيمٌ.

صافي الحُرَميُّ، كان من أكابرِ أمراءِ الدولة العباسيَّة ورءوسِ الدولة المُقتدريَّة، أوصَى في مرَضِه أن ليس له عندَ غُلامِه القاسمِ شيءٌ، فلمَّا تُوفِّي حمَل غلامُه القاسمُ إلى الوزيرِ مائةَ ألفِ دينارٍ وسَبعَمائةٍ وعشرين منْطَقةً من ذهبٍ مُكلَّلةً، فاستمرَّ غلامُه على إمْرَتِه ومنزلَتِه.

إسحاقُ بنُ حُنَيْنِ بنِ إسحاقَ أبو يَعقوبَ العباديُّ، نسْبَةً إلى قبائلِ الحيرةِ، الطبيبُ ابنُ الطبيبِ، له ولأبيه مُصنَّفاتٌ كثيرةٌ في هذا الفَنِّ، وكان أبوه يُعرِّبُ كلامَ أرِسْطاطاليسَ وغيرِه من حُكَماءِ اليونانِ. تُوفِّي في هذه السنَة.

الحسينُ بنُ أحمدَ بنِ محمدِ بنِ زَكَريَّا أبو عبدِ الله الشِّيعيُّ، الذي أقام الدعوةَ للمَهْديِّ؛ وهو

عبيدُ اللهِ بنُ مَيْمُونَ الذي يزْعُمُ أنَّه فاطِمِيٌّ، وقد زعَم غيرُ واحدٍ من أهلِ التاريخِ أنَّه كان يهوديًّا صبَّاغًا بسَلَمْيَةَ، والمقصودُ الآنَ أنَّ أبا عبد الله الشِّيعيَّ هذا دخَل بلادَ إفْريقيَّةَ وحدَه لا مالَ معه ولا رجالَ، فلم يزَلْ يُعمِلُ الحيلَةَ حتى انْتزَعَ المُلْكَ من يَدِ أبي مُضَرَ زِيادَةِ الله، آخرِ مُلوكِ بني الأغْلَبِ على بلادِ إفْريقيَّةَ، واسْتَدْعَى حينئذٍ مخْدُومَه المَهْديَّ من بلادِ الشرقِ، فقَدِمَ فلم يَخلُصْ إليه إلا بعدَ شدائدَ طِوالٍ، وحُبِسَ في أثْناءِ الطريقِ، فاستَنْقذَه الشِّيعيُّ وسلَّمه المَملكَةَ، فندَّمَه أخوه أحمدُ وقال له: ماذا صنَعْتَ؟ وهَلاَّ كنتَ استَبْدَدْتَ بالأمرِ دونَ هذا؟ فنَدِم وشرَع يُعمِلُ الحيلَةَ في المَهْديِّ، فاستَشْعَرَ المهديُّ بذلك فدَسَّ إليهما مَن قتَلهما في هذه السنَةِ بمدينةِ رَقَّادَةَ من بلادِ القَيْروانِ، من إقْليمِ إفريقيَّةَ. هذا مُلَخَّصُ ما ذكَره ابنُ خَلِّكانَ.

ثم دخلت سنة تسع وتسعين ومائتين

قال ابنُ الجَوْزيِّ: وفيها ظهَرتْ ثلاثةَ كواكبَ مُذَنَّبَةٍ؛ أحدُها في رمضانَ، واثنان في ذي القَعْدةِ، تبْقَى أيامًا ثم تَضْمَحِلُّ.

وفيها وقَع طاعونٌ بأرضِ فارسَ ماتَ بسببِه سبعةُ آلافِ إنْسانٍ.

فيها: غضِب الخليفةُ على الوزيرِ عليِّ بنِ محمدِ بنِ الفُراتِ، وعزَله عن الوزارةِ، وأمَر بنَهْبِ دارِه فنُهِبَتْ أقْبَحَ نَهْبٍ، واستَوْزَرَ أبا عليٍّ محمدَ بنَ عبدِ اللهِ بنِ يَحْيَى بنِ خاقانَ، وكان قد الْتَزَمَ لأمِّ ولدِ المقتدرِ بمائةِ ألفِ دينارٍ، حتى سعَتْ في ولايتِه.

وفيها: ورَدت هدايا كثيرةٌ من الأقاليمِ من ديارِ مصرَ وخُراسانَ وغيرِها؛ من ذلك خَمْسُمائةِ ألفِ دينارٍ من الديارِ المصريةِ، استُخرِجَتْ من كَنْزٍ وُجِدَ هناك من غيرِ موانعَ، كما يدَّعيه كثيرٌ من جهلَةِ بني آدمَ، حيلةً ومَكْرًا وخَديعةً؛ ليأْكلُوا أموالَ الأغشامِ والجَهَلَةِ الطَّغامِ من قليلي العقولِ والأحلامِ، وقد وُجِدَ في هذا الكَنْزِ ضِلَعُ إنسانٍ طولُه أربعةُ أشْبارٍ وعرضُه شِبْرٌ، وذُكِر أنَّه من قومِ عادٍ، فاللهُ أعلمُ. وكان من جُمْلة هَديَّةِ مصرَ تَيْسٌ له ضَرْعٌ يحلُبُ لبَنًا، ومن ذلك بِساطٌ أرْسَله ابنُ أبي الساجِ - في جملةِ هداياه - طولُه سبعونَ ذراعًا وعرضُه ستُّونَ ذراعًا، عُمِل في عَشْرِ سنينَ، لا قيمةَ له، وهدايا فاخرةٌ، أرْسَلَها أحمدُ بنُ إسماعيلَ بنِ أحمدَ السامانيُّ من بلادِ خُراسانَ، كثيرةٌ جدًّا.

وحَجَّ بالناسِ فيها الفَضْلُ بنُ عبدِ الملكِ الهاشميُّ أميرُ الحَجيجِ من مدةٍ طويلةٍ.

وفيها تُوفِّي من الأعيانِ:

أحمدُ بنُ نَصْرِ بنِ إبراهيمَ، أبو عمرٍو الخَفَّافُ الحافظُ، كان يُذاكِرُ بمائةِ ألفِ حديثٍ، سمع إسحاقَ ابنَ راهوَيه وطبقَتَه، وكان كثيرَ الصيامِ؛ سَرَدَه نَيِّفًا وثلاثينَ سنةً، وكان كثيرَ الصَّدقةِ؛ سأَلَه سائلٌ فأعطاه درْهمين، فحمِدَ اللهَ، فجعَلَها خمسةً، فحمِد اللهَ فجعَلها عَشَرةً، ثم ما زالَ يزيدُه ويحمَدُ السائلُ اللهَ حتى جعَلَها مائةً، فقال: جعَل اللهُ عليك واقيَةً باقيَةً. فقال للسائلِ: واللهِ لو لزِمْتَ الحمدَ لأزيدَنَّكَ، ولو إلى عشَرَةِ آلافِ درهمٍ.

البُهْلُولُ بنُ إسحاقَ بن البُهلُول بن حسَّانَ بن سنَان، أبو محمد التَّنُوخيُّ، سمع إسماعيلَ بنَ أبي أُوَيْس، وسعيدَ بنَ منصور، ومُصْعَبًا الزُّبَيْريَّ وغيرَهم، وعنه جماعةٌ آخرُهم أبو بكر الإسْمَاعيليُّ الجُرْجانيُّ الحافظُ. وكان ثقةً حافظًا ضابطًا بليغًا فصيحًا في خُطَبِه، تُوفِّي فيها عن خمسٍ وتسعينَ سنةً رحمه اللهُ، آمين.

الحسينُ بنُ عبد الله بن أحمدَ، أبو عليٍّ الخِرَقيُّ صاحبُ «المُخْتَصَر» في الفقه على مذهب الإمام أحمدَ بن حنبلٍ. وكان خليفةً للمَرُّوذيِّ. تُوفِّي يومَ عيد الفطر، ودُفِن عندَ قبر الإمام أحمدَ بن حنبلٍ.

محمدُ بنُ إسماعيلَ، أبو عبد الله المغربيُّ، حجَّ على قدمَيه سبعًا وتسعينَ حَجَّةً، وكان يمْشي في الليل المُظْلِم حافيًا، كما يمْشي الرجلُ في ضوءِ النهار، وكان المُشاةُ يأتَمُّونَ به فيُرْشِدُهم إلى الطريق، وقال: ما رأيْتُ ظُلمةً منذُ سنينَ كثيرةٍ. وكانت قدماه مع كثرة مشيِه كأنَّهما قدما عَرُوسٍ مُتْرَفَةٍ، وله كلامٌ مَليحٌ نافعٌ.

ولمَّا ماتَ أوْصَى أن يُدفَنَ إلى جانب شيخه عليٍّ بن رزين، فهما على جَبَل الطور.

محمدُ بنُ أبي بكر بن أبي خَيْثَمَةَ، أبو عبد الله، الحافظُ ابنُ الحافظ، كان أبوه يَسْتَعِينُ به في جمع التاريخ، وكان فَهِمًا حاذقًا حافظًا، تُوفِّي في ذي القَعْدة منها.

محمدُ بنُ أحمدَ بن كَيْسانَ النحويُّ، أحدُ حُفَّاظه والمكثرين منه، كان يحفَظُ طريقةَ البَصْرِيِّينَ والكُوفِيِّينَ معًا، قال ابنُ مُجاهدٍ: كان ابنُ كيسانَ أنحَى من الشيخين؛ المُبرِّد وثَعْلب.

محمدُ بنُ يَحْيَى أبو سعيد، سكَن دِمَشْقَ، روَى عن إبراهيمَ بنِ سعدٍ الجَوْهَريِّ، وأحمدَ بن منيع، وابنِ أبي شَيْبَةَ وغيرِهم، روَى عنه أبو بكر النَّقَّاشُ وغيرُه، وكان محمدُ بن يحيى هذا يُدْعَى بحامل كفَنِه، وذلك ما ذكَره الخطيبُ، قال: بلَغَني أنَّه تُوفِّي فغُسِّلَ وكُفِّنَ وصُلِّي عليه ودُفِن، فلمَّا كان الليلُ جاءَ نبَّاشٌ ليَسْرِقَ كفَنَه، ففتَح عليه قبرَه، فلمَّا حلَّ عنه كفَنَه اسْتَوَى جالسًا، وفرَّ النَّبَّاشُ هاربًا من الفزَع، ونهَض محمدُ بنُ يَحيى هذا فأخَذ كفَنَه معه، وخرَج من القبر، وقصَد منزلَه، فوجَد أهلَه يبْكُون عليه، فدقَّ عليهم البابَ، فقالُوا: مَن هذا؟ فقال: أنا فلانٌ. فقالُوا: يا هذا لا يحلُّ لك أن تَزِيدَنا حُزْنًا إلى حزننا. فقال: افتحُوا، والله أنا فلانٌ. فعرَفوا صوتَه، فلمَّا رأَوْه فرحُوا به فرَحًا شديدًا، وأبْدَلَ اللهُ حُزنَهم سُرورًا، ثم ذكَر لهم ما كان مِن أمْرِه وأمر النَّبَّاش. وكأنَّه قد أصابَتْه سكْتَةٌ ولم يكُنْ قد ماتَ حقيقةً، فقَدَّرَ اللهُ بحَوْله وقوَّته أن بعَث هذا النَّبَّاشَ ففتَح عليه قبرَه، فكان ذلك سببَ حياته، فعاشَ بعدَ ذلك عدَّةَ سنين، ثم كانت وفاتُه في هذه السنة.

فاطمةُ القَهْرَمانةُ، غَضِب عليها المُقْتَدِرُ مرَّةً فصادَرَها، وكان في جملة ما أخَذ منها مائتا ألف دينارٍ ثم غرِقَتْ في طيارةٍ لها في هذه السنة.

ثم دخلت سنة ثلاثمائة من الهجرة النبوية

فيها: كثُر ماءُ دِجْلَةَ وتراكمتِ الأمْطارُ ببغدادَ، وتناثرتْ نجومٌ كثيرةٌ في ليلةِ الأربعاءِ لسَبْعٍ بقينَ من جُمادَىٰ الآخرةِ.

وفيها: كثُرَت الأمراضُ ببَغدادَ والأسْقامُ والآلامُ وكَلِبَت الكلابُ، حتىٰ الذِّئابُ بالباديَةِ، وكانت تقْصِدُ الناسَ والبهائمَ بالنهارِ، فمَن عضَّتْه أهلكَتْه.

وفيها: انْحَسَرَ جبَلٌ بالدِّينورِ يُعرَفُ بالتلِّ، فخرَجَ مِن تحته ماءٌ عظيمٌ غرَّق عدَّةً من القُرىٰ.

وفيها: سقَطَت شرْذمَةٌ مِن جبلِ لُبْنانَ إلىٰ البحرِ.

وفيها: حمَلَتْ بغْلَةٌ ووضَعت مُهْرَةً.

وفيها: صُلِب الحسينُ بنُ منصورٍ الحَلاَّجُ وهو حيٌّ أربعةَ أيامٍ؛ يَوْمَيْن في الجانبِ الشرقيِّ، ويومين في الجانبِ الغربيِّ، وذلك في ربيعٍ الأوَّلِ منها.

وحجَّ بالناسِ أميرُ الحجيجِ المتقدِّمُ ذكْرُه في السنينَ قبلَها، وهو الفَضْلُ بنُ عبدِ الملكِ الهاشميُّ العباسيُّ أثابَه اللهُ، وتقبَّلَ منه.

وفيها تُوفِّيَ من الأعيانِ:

الأحْوَصُ بنُ المُفضَّلِ بنِ غسَّانَ بنِ المُفضَّلِ بنِ معاويةَ بنِ عمرِو بنِ خالدِ بنِ غَلاَّبٍ، أبو أُمَيَّةَ الغَلاَّبيُّ القاضي بالبصرةِ وغيرِها. روَىٰ عن أبيه التاريخَ. اسْتَتَرَ عندَه مرَّةً ابنُ الفُراتِ، فلمَّا أُعيدَ إلىٰ الوزارةِ ولاَّه قضاءَ البصرةِ والأهْوازِ وواسطٍ، وكان عفيفًا نزِهًا، فلمَّا نُكِب ابنُ الفُراتِ قبَض عليه نائبُ البصرةِ فأوْدَعَه السِّجنَ، فلم يَزَلْ به حتىٰ مات فيه. قال ابنُ الجوْزيِّ: ولا نَعلَمُ قاضيًا ماتَ في السِّجنِ سِواه.

عُبَيْدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ طاهرِ بنِ الحُسَيْنِ بنِ مُصعَبٍ، أبو أحمدَ الخُزاعيُّ، وَلِي إمْرَةَ بغدادَ، وحدَّث عن الزُّبَيْرِ بنِ بكَّارٍ، وعنه الصُّوليُّ والطَّبَرانيُّ، وكان أديبًا فاضلاً شاعرًا، ومن شعرِه:

حقُّ التَّنائي بينَ أهلِ الهوىٰ ... تكاتُبٌ يُسخِنُ عينَ النَّوىٰ
وفي التَّداني لا انقَضَىٰ عُمْرُهُ ... تزاوُرٌ يَشْفي غَليلَ الجَوىٰ

وقد اتفَق له مرةً أنَّ جاريةً له مرضَتْ فاشْتَهَتْ ثلْجًا، وكانت حظيَّةً عندَه جدًّا، فلم يُوجَدْ إلاَّ عندَ رجلٍ، فساوَمَه الوكيلُ علىٰ رِطْلٍ منه، فامْتَنَعَ من بَيْعِه إلاَّ كلَّ رِطْلٍ بالعراقيِّ بخَمْسَةِ آلافِ درْهَمٍ - وذلك لعلْمِ صاحبِ الثلْجِ بحاجتهم إليه - فرجَع الوكيلُ ليُشاوِرَه، فقال: وَيْحَكَ! اشْتَرِ ولو بما عساه أن يكونَ. فرجَع فقال له صاحبُ الثَّلْجِ: لا أبيعُه إلاَّ بعشَرَةِ آلافٍ. فاشْتَراه بعشَرةِ آلافٍ، ثم اشْتَهَتِ الجاريةُ ثلْجًا أيضًا - وذلك لمُوافقتِه لها - فرجَع فاشْترَىٰ منه رِطْلاً آخرَ بعشَرةِ آلافٍ. ثم آخرَ بعشَرَةِ

أخرىٰ، وبَقِيَ عندَ صاحبِ الثلجِ رطلان، فنطقَتْ نفسُه إلى أكلِ رطلٍ منه ليقولَ: أكلْتُ رطلاً من الثلجِ بعشرةِ آلافٍ. فأكلَه وبَقِيَ عندَه رطلٌ آخرُ، فجاءَه الوكيلُ فامْتَنَعَ أن يبيعَ الرِّطْلَ إلاَّ بثلاثينَ ألفًا، فاشْتَراه منه، فشُفِيَت الجاريةُ وتصدَّقَتْ بمالٍ جزيلٍ، فاستدْعَىٰ سيِّدُها صاحبَ الثلجِ فأعطاه من تلك الصدقةِ مالاً جزيلاً جدًا، فصارَ من أغنَى الناسِ بعدَ ذلك وأكثرِهم مالاً، واستخدمَه ابنُ طاهرٍ عندَه. واللهُ أعلمُ.

وممَّنْ تُوفِّي في حُدود الثلاثمائة تقريبًا:

الصَّنَوْبَرِيُّ الشاعرُ وهو أحمدُ بنُ محمدِ بنِ الحسنِ بنِ مَرَّارٍ، أبو بكرٍ الضَّبِّيُّ الصَّنَوْبَرِيُّ الحَلَبيُّ. قال الحافظُ ابنُ عساكرَ: كان شاعرًا مُحْسِنًا، وقد حكَىٰ عن عليِّ بنِ سليمانَ الأخفشِ. ثم ذكَر أشياءَ من لطائفِ أشعارِه؛ فمن ذلك قولُه:

لا النـومُ أدري بـه ولا الأرقُ ... يـدري بهـذيـن مَن بـه رَمَقُ
إنَّ دموعي من طولِ ما اسْتَبقَتْ ... كلَّتْ فما تستطيعُ تَسْتَبِقُ
ولي مليكٌ لم تبْدُ صورتُه ... مذْ كان إلا صلَّتْ له الحَدَقُ
نويتُ تقبيلَ نارِ وجْنَتِه ... وخِفْتُ أدنُو منها فأحْتَرِقُ

وله أيضًا:

شمسٌ غدا يشرَبُ شمسًا غدَتْ ... وحدُّها في النورِ مِنْ حدِّهْ
تغيبُ في فيه ولكنها ... من بعدِ ذا تطلُعُ في خدِّهْ

وقد روىٰ الحافظُ البيهقيُّ عن شيخِه الحاكمِ، عن أبي الفَضْلِ نَصْرِ بنِ محمدٍ الطُّوسيِّ قال: أنشدَنا أبو بكرٍ الصَّنَوْبَرِيُّ فقال:

هدَمَ الشيبُ ما بناهُ الشبابُ ... والغَواني وما عُضِبْنَ غِضابُ
قلَبَ الآبنُوسَ عاجًا فللأعْـ ... ـيُنِ منه وللقلوبِ انْقِلابُ
وضلالٌ في الرأيِ أن يُشْنأ البا ... زي على حُسْنِه ويُهْوَى الغرابُ

وله أيضًا، وقد أوردَه ابنُ عساكرَ في ابنٍ له فُطِم فجعَل يبْكي على ثَدْيِه:

منَعُوهُ أحَبَّ شيءٍ إليه ... من جميعِ الورَى ومن والدَيْهِ
منَعوهُ غذاءَه ولقد كا ... نَ مُباحًا له وبينَ يدَيْهِ
عجَبًا منه ذا على صغرِ السِّنْـ ... ـنِ هوى فاهْتَدَى الفِراقُ إليه

إبراهيمُ بنُ أحمدَ بنِ محمدِ بنِ المولَّد، أبو إسحاقَ الصوفيُّ الواعظُ الرَّقِّيُّ أحدُ مشايخِها، روَىٰ الحديثَ، وصحِبَ أبا عبدِ اللهِ بنَ الجَلَّاءِ الدِّمَشْقِيَّ، والجُنَيْدَ وغيرَ واحدٍ. وروَىٰ عنه تمَّامُ بنُ محمدٍ، وأبو عبدِ الرحمنِ السُّلَميُّ. وقد أوردَ ابنُ عساكرَ من شعرِه قولَه:

لكَ مني على البعاد نصيبُ لم ينَلْهُ على الدنُوِّ حبيبُ
وعلى الطرف من سواكَ حجابٌ وعلى القلب من هواكَ رقيبُ
زينَ في ناظري هواكَ وقلبي والهوى فيه زائغٌ ومشوبُ
كيفَ يُغْني قُربُ الطبيب عليلاً أنتَ أسقمتَهُ وأنتَ الطبيبُ

وقولُه:

الصَّمتُ أمنٌ من كلِّ نازلةٍ مَن نالَه نالَ أفضلَ القسَمِ
ما نزلَتْ بالرِّجال نازلةٌ أعظمُ ضُرًا من لفظةٍ بفَمِ
عثرةُ هذا اللسان مُهلكةٌ ليسَتْ لدَيْنا كعثرةِ القَدَمِ
احفَظْ لسانًا يُلقيكَ في تلَفٍ فربَّ قولٍ أذلَّ ذا كرمِ

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثمائة من الهجرة النبوية

فيها غزَا الحسينُ بنُ حَمْدانَ الصائفةَ، ففتَح حُصونًا كثيرةً من بلادِ الرومِ، وقتَل أُممًا لا يُحْصَونَ كثرةً.

وفيها عزَل المُقْتدرُ محمدَ بنَ عبيدِ الله عن وزارته وقلَّدها عليَّ بنَ عيسى وكان من خيارِ الوزراءِ وأقصَدهم للعدل والإحْسان واتِّباع الحقِّ.

وفيها كثُرَت الأمْراضُ الدمويَّةُ ببَغْدادَ في تمُّوزَ وآبَ، فماتَ من ذلك خلْقٌ كثيرٌ وجمٌّ غفيرٌ من أهْلها.

وفيها وصَلتْ هَدايا صاحبِ عمانَ؛ وفيها بَبَّغَةٌ بَيْضاءُ وغزالٌ أسْودُ.

وفي شعبانَ منها ركبَ المُقْتدرُ إلى باب الشمَّاسيَّة على الخَيْلِ ثم انْحَدر إلى داره في دِجْلَةَ، وكانت أوَّلَ رَكْبَةٍ ركبَها جَهْرَةً للعامَّة.

وفيها استَأذَن الوزيرُ عليُّ بنُ عيسى المقتدرَ بالله في مكاتَبةِ رأسِ القَرامطَة أبي سعيدِ الحسَنِ بنِ بهْرَامَ الجَنَّابيِّ فأذنَ له، فكتَب إليه كتابًا طويلاً يدْعُوه فيه إلى السمعِ والطاعة، ويُوبِّخُه على ما يَتعاطاه أصحابُه من ترك الصلوات والزكَوات وارْتكاب المُنْكَرات، وإنْكارهم على مَن يذْكُرُ الله ويُسبِّحُه ويحْمَدُه، واستهْزائهم بالدِّين واسْترْقاقهم الحرائرَ، ثم توعَّدَه بالحرب وتهدَّدَه بالقتْلِ، فلمَّا سارَ بالكتاب نحوَه، قُتل أبو سعيدٍ قبلَ أن يصلَه، قتَله بعضُ خدَمه، وعهدَ بالأمر من بعده لولَده سعيدٍ، فغَلَبه على ذلك أخوه أبو طاهرٍ سُلَيمانُ بنُ أبي سعيدٍ، فلمَّا قرأَ كتابَ الوزيرِ إليهم أجابَه بما حاصلُه: إنّ هذا الذي تنْسبُ إلينا ممَّا ذكرْتُم لم يثْبتْ عندكم إلاّ من طريقٍ يُشنِّعُ علينا، وإذا كان الخليفةُ ينْسبُنا إلى الكفر بالله فكيفَ يدْعُونا إلى السمعِ والطاعة له؟.

وفيها جيءَ بالحسينِ بنِ منْصُورٍ الحلاَّجِ إلى بَغْدادَ، وهو مشْهورٌ، على جَملٍ، وغلامٍ له راكبٍ

جملاً آخرَ، يُنادَىٰ عليه: هذا أحدُ دُعاةِ القرامطةِ فاعْرِفُوه. ثم حُبِس ثم أُحضِر إلى مجلسِ الوزير، فناظَرَه فإذا هو لا يقرأُ القرآنَ ولا يعرفُ من الحديثِ ولا الفقهِ، ولا اللغةِ ولا الأخبارِ ولا الشعرِ شيئًا، وكان الذي نُقِمَ عليه أنَّه وُجِدتْ له رقاعٌ يدْعُو فيها الناسَ إلى الضَّلالَةِ والجَهالَةِ بأنواعٍ من الرموزِ، يقولُ في مُكاتَباته كثيرًا: تَبارَكَ ذو النورِ الشَّعْشَعانيِّ. فقال له الوزيرُ عليُّ بنُ عيسى: تعَلُّمُكَ الطُّهورَ والفُروضَ أجْدَىٰ عليك من رسائلَ لا تدْري ما تقولُ فيها، وما أحْوَجَكَ إلى الأدبِ. ثم أمرَ به فصُلِبَ حيًّا صَلْبَ الاشْتِهارِ لا القتلِ، ثم أُنزِلَ فأُجْلِسَ في دارِ الخلافةِ، فجعَلَ يُظْهِرُ لهم أنَّه على السُّنَّةِ، وأنَّه زاهدٌ، حتى اغْتَرَّ به كثيرٌ من الخدَّامِ وغيرِهم من أهلِ دارِ الخلافةِ من الجَهَلَةِ والطَّغامِ؛ حتى صاروا يتبرَّكونَ به ويتمسَّحُونَ بثيابِه. وسيأتي ما صارَ إليه أمرُه حتى قُتِل بإجْماعِ الفُقَهاء.

ووقَع في هذه السنَةِ في آخرِها ببَغْدادَ وَباءٌ شديدٌ جدًّا ماتَ بسبَبِه بشَرٌ كثيرٌ، ولاسيَّما بالحَرْبيَّةِ، غُلِّقتْ عامَّةُ دُورِها.

وحجَّ بالناسِ فيها الفضلُ بنُ عبدِ الملكِ الهاشميُّ.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

إبراهيمُ بنُ هانئِ بنِ خالدٍ الشافعيُّ، جمَع العلمَ والزهدَ. من تلاميذِه أبو بكرٍ الإسماعيليُّ.

جَعْفَرُ بنُ محمدِ بنِ الحسنِ بنِ المُسْتفاضِ، أبو بكرٍ الفِرْيابيُّ قاضي الدِّينَورِ، طافَ البلادَ في طلبِ العلمِ، وسمعَ الكثيرَ من المشايخِ الكثيرينَ؛ مثلِ قُتَيْبَةَ وأبي كُرَيبٍ وعليِّ بنِ المَدِينيِّ، وعنه أبو الحسينِ ابنُ المُنادي والنَّجَّادُ وأبو بكرٍ الشافعيُّ وخلْقٌ. واسْتَوطَنَ بَغْدادَ، وكان ثقةً حافظًا حُجَّةً، وكان عِدَّةُ مَن يحضُرُ مجْلِسَه نحْوًا من ثلاثينَ ألفًا، والمُسْتَمْلُونَ عنه فوقَ الثَّلاثمائةِ، وأصْحابُ المَحابرِ نَحْوًا من عشَرةِ آلافٍ. وكانت وفاتُه في المحرمِ من هذه السنةِ عن أربعٍ وتسْعينَ سنةً، وكان قد حفَرَ لنفْسِه قبرًا قبلَ وفاتِه بخمسِ سنينَ، وكان يأتيه فيَقِفُ عندَه. ثم لم يُقْضَ له الدفنُ فيه، بل دُفِنَ في مكانٍ آخرَ. رحمه اللهُ حيثُ كان.

أبو سعيدٍ الجَنَّابيُّ القِرْمِطيُّ وهو الحسنُ بنُ بَهْرامَ، قبَّحَه اللهُ، وهو رأسُ القَرامطَةِ، والذي يُعَوِّلُ عليه في بلادِ البَحْرَيْنِ وما والاها.

عليُّ بنُ أحمدَ الرَّاسِبيُّ كان يَلِي بلادَ واسطٍ إلى شَهْرَزُورَ وغيرِها، وقد خلَّفَ من الأموالِ شيئًا كثيرًا؛ فمن ذلك ألفُ ألفِ دينارٍ، ومن آنيةِ الذهبِ والفضةِ نحْوُ مائةِ ألفِ دينارٍ، ومن الخزِّ ألفُ ثوبٍ، ومن الخَيْلِ والبِغالِ والجِمالِ ألفُ رأسٍ.

محمدُ بنُ عبدِ الله بنِ عليِّ بنِ محمدِ بنِ عبدِ الملكِ بنِ أبي الشَّوارِبِ يعرَفُ بالأحْنَفِ. كان قد ولِيَ قضاءَ مدينةِ المَنْصورِ نيابةً عن أبيه حينَ فُلِجَ، فماتَ في جُمادَىٰ الأُولَىٰ من هذه السنةِ. وتُوفِّي أبوه في رَجَبٍ منها، بينَهما ثلاثةٌ وسبْعُونَ يومًا، ودُفِنا في موضعٍ واحدٍ، رحِمهم اللهُ تعالى.

أبو بكرٍ أحمدُ بنُ هارونَ البَرْدَعِيُّ الحافظُ. وابنُ ناجيةَ.

ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثمائة

فيها ورَد كتابُ مُؤنس الخادم بأنَّه قد أوقَعَ بالروم بأسًا شديدًا، وأنَّه قد أسَر منهم مائةً وخمسينَ بِطْرِيقًا، ففرحَ المسلمونَ بذلك.

وفيها ختَنَ الخليفةُ المقتدرُ خمسةً من أولاده، فغرِمَ على هذا الختانِ ستَّمائة ألف دينارٍ، من ذلك خمسةُ آلافٍ نِثارًا ومائةُ ألف درهمٍ، وقد ختَنَ قبْلَهم ومعهم خلقًا من الأولادِ اليتامَى، وأحسَنَ إليهم بالمالِ والكساوي، وهذا صَنيعٌ حسَنٌ، رحمه اللهُ.

وفيها صادَرَ الخليفةُ أبا عليٍّ بنَ الجصَّاص بستَّةَ عشرَ ألفَ ألف دينارٍ غيرَ الآنيَةِ والثِّيابِ الثمينةِ.

وفيها أرسَل الخليفةُ المقتدرُ أولادَه إلى المكتَبِ وكان يومًا مشهودًا.

وفيها بنى الوزيرُ المارَسْتَانَ بالحرْبيَّةِ من بغدادَ، وأنفقَ عليه أموالاً جزيلةً جدًّا، جزاه اللهُ خيرًا.

وحجَّ بالناسِ فيها الفَضْلُ بنُ عبدِ الملك الهاشميُّ. وقطَعت الأعْرابُ وطائفةٌ من القَرامطَةِ الطريقَ على الراجعينَ من الحجيجِ، وأخذوا منهم أموالاً كثيرةً، وقتَلُوا منهم خلْقًا وأسَرُوا أكثرَ من مائتَي امرأةٍ حُرَّةٍ، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعونَ.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعْيان:

بشْرُ بنُ نصْر بن منْصُور، أبو القاسم الفَقيهُ الشافعيُّ، من أهلِ مصْرَ يُعرَفُ بغُلام عِرْقٍ؛ وعِرْقٌ خادمٌ من خدَّامِ السلطانِ كان يَلي البريدَ، فقَدمَ معه بهذا الرجلِ مصْرَ فأقامَ بها حتى كانت وفاتُه فيها.

بدْعةُ جاريةُ عُرَيْب، المُغَنِّيَةُ، بُذِلَ لسيِّدَتها فيها مائةُ ألْف دينارٍ وعشْرونَ ألفَ دينارٍ من بعضِ مَن رَغِبَ فيها فعرَضت ذلك عليها، فكرِهَتْ مُفارَقَةَ سيِّدَتها، فأعْتَقَتْها سيِّدَتُها في يومها ذلك، وتأخَّرَتْ وفاتُها إلى هذه السنة، وقد تركَتْ من العَيْنِ والأمْلاكِ ما لم يملِكْه رجلٌ.

القاضي أبو زُرْعَةَ محمدُ بنُ عثْمانَ الشافعيُّ، قاضي مصْرَ ثم دمَشْقَ، وهو أوَّلُ مَن حكَم بمذهبِ الشافعيِّ بالشام، وأشاعَه به. وقد كانَ أهلُ الشَّام على مذْهَبِ الأوْزاعيِّ من حين مات إلى هذه السنة، وثبَت على مذهبِ الأوْزاعيِّ بقايا كثيرونَ لم يفارقُوه. وكان ثقةً عدْلاً من ساداتِ القُضاةِ، وكانَ أصلُه من أهلِ الكتابِ اليهودِ ثم أسلَم، وصار إلى ما صار إليه، وقد ذكَرْنا ترجمتَه في «طبَقاتِ الشافعيَّة».

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثمائة

فيها وقَف المقتدرُ بالله أمْوالاً جزيلةً وضياعًا على الحرَمَيْن الشريفَيْن، واسْتَدْعَى بالقُضاةِ والأعْيانِ، وأشْهَدهم على نفسه بما وَقَفَه من ذلك.

وفيها قُدِم إليه بجماعةٍ من الأُسارَى من الأعْرابِ الذين كانوا قد عَدَوا على الحجيجِ في تلك

السنة، فلم تتمالك العامَّةُ أن عدَتْ عليهم فقتلُوهم، فأُخِذَ بعضُهم فعُوقِبَ لكونه افتاتَ على السلطان.

وفيها وقَع حريقٌ شديدٌ في سُوقِ النَّجَّارين ببغدادَ فاحترَق السوقُ بكَماله. وفي ذي الحجَّة من هذه السنة مرِض المقتدرُ بالله ثلاثةَ عشرَ يومًا، ولم يمرَضْ في مُدَّة خلافته - مع طُولها - إلَّا هذه المَرْضَة.

وحجَّ بالناسِ فيها الفَضْلُ بنُ عبدِ الملك الهاشميُّ، ولمَّا خافَ الوزيرُ على الحُجَّاج من شأن القَرامطَة كتَب إليهم رسالةً ليَشْغَلَهم بها عن أمرِ الحجِّ، فاتَّهمه بعضُ الكُتَّاب بمُراسلته القَرامطَةَ، فلمَّا انكشَفَ أمرُه وما قصدَه حَظِيَ عندَ الناسِ بذلك جدًّا.

وممَّن تُوفِّي في هذه السنة من الأعيان:

النَّسائيُّ أحمدُ بنُ شُعَيب بن عليِّ بن سنَان بن بَحْر بن دينار، أبو عبد الرحمن النَّسائيُّ: صاحبُ «السُّنَن»، الإمامُ في عصْره، والمُقدَّمُ على أضْرابه وأشْكاله وفُضلاء دهْره، رحَل إلى الآفاق، واشْتغل بسماع الحديث والاجْتماع بالأئمة الحُذَّاق. ومَشايخُه الذين روَى عنهم مُشافَهةً، قد ذكَرْناهم في كتابنا «التَّكْميل»، ولله الحمدُ والمِنَّةُ، وترْجَمْناه أيضًا هنالك، وروَى عنه خلْقٌ كثيرٌ، وجَمٌّ غفيرٌ، وقد جمَع السُّنَنَ الكبيرَ، وانتخَبَ منه ما هو أقلُّ حَجْمًا منه بمرَّات، وقد وقَع لنا سماعُ كلٍّ منهما، وقد أبانَ في تصْنيفه عن حفْظٍ وإتقانٍ وصدْقٍ وإيمانٍ وتوفيقٍ وعلمٍ وعرْفانٍ. قال الحاكمُ عن الدَّارَقُطْنيِّ: أبو عبدِ الرحمنِ النَّسائيُّ مُقدَّمٌ على كلِّ مَن يُذْكَرُ بهذا العلمِ من أهلِ عصرِه. وكان يسمِّي كتابَه الصَّحيحَ. وقال أبو عليٍّ الحافظُ: إنَّ للنَّسائيِّ شرْطًا في الرِّجال أشدُّ من شرطِ مسلمِ بن الحَجَّاج، وكان من أئمة المسلمين. وقال أيضًا: هو الإمامُ في الحديث بلا مُدافَعَة. وقال أبو الحسين محمدُ بنُ المُظَفَّر الحافظُ: سمعْتُ مَشايخَنا بمصرَ يعتَرفُونَ له بالتقدُّم والإمامَة، ويصفُونَ من اجْتهاده في العبادَة بالليلِ والنَّهارِ ومُواظَبَته على الحجِّ والاجتهاد، وقال غيرُه: كان يصومُ يومًا ويُفطرُ يومًا، وكانت له أربعُ زَوْجاتٍ وسُرِّيَّتان، وكان كثيرَ الجماع، حسَنَ الوَجْه مُشْرِقَ اللون. قالوا: وكان يَقْسمُ للإماء كما يقْسمُ للحرائر. وقال الدَّارَقُطْنيُّ: كان أبو بكرِ بنُ الحدَّاد كثيرَ الحديث، ولم يُحدِّثْ عن أحدٍ سوى النَّسائيِّ، وقال: رضيتُ به حُجَّةً بيني وبينَ الله، عزَّ وجلَّ. وقال ابنُ يونسَ: كان النَّسائيُّ إمامًا في الحديث ثقةً ثَبْتًا حافظًا، وكان خُروجُه من مصرَ في سنَة ثنْتَين وثلاثمائة. وقال ابنُ عَديٍّ: سمعتُ مَنْصُورًا الفَقيهَ وأحمدَ بنَ محمد بنِ سَلامَةَ الطَّحاويَّ يقُولان: أبو عبد الرحمن النَّسائيُّ إمامٌ من أئمة المسلمينَ.

وكذلك أثْنَى عليه غيرُ واحدٍ من الأئمة، وشهدُوا له بالفَضْلِ والتقدُّم في هذا الشأن والحفظ والمعرفة.

وقد وَلي الحكْمَ بمدينة حمْصَ، سمعْتُه من شيخنا الحافظ أبي الحجَّاج المِزِّيِّ - رحمةُ الله عليه - عن روايَة الطَّبَرانيِّ في «مُعْجَمه الأوسط» حيثُ قال: حدَّثنا أحمدُ بنُ شُعَيْبٍ الحاكمُ بحمْصَ.

وذكَروا أنَّه كان له من النِّساء أربعُ نسوةٍ، وكان في غاية الحُسْنِ، وجهُه كأنَّه قنديلٌ، وكان يأكُلُ في كلِّ يوم ديكًا، ويشرَبُ عليه نَقيعَ الزَّبيبِ الحلالَ، وقد قيلَ عنه: إنَّه كان يُنْسَبُ إلى شيءٍ من التَّشيُّع. قالوا: ودخَل إلى دمشقَ، فسأله أهلُها أن يُحدِّثَهم بشيءٍ من فضائلِ معاويةَ، فقال: أما يَكْفي معاويةَ أن يَذْهَبَ رأسًا برأسٍ حتى يُروى له فضائلُ؟ فقاموا إليه، فجعَلُوا يطْعُنونَ في حِضْنَيْه حتى أُخْرِجَ من المسجدِ الجامعِ، فسار من عندهم، فقصَد مكَّةَ، فماتَ بها في هذه السنَة، وقبرُه بها. هكذا حكاه الحاكمُ عن محمدِ بنِ إسحاقَ الأصبهانيِّ عن مشايخِه. وقال الدَّارَقُطْنيُّ: كان أفقَهَ مشايخِ مصرَ في عصرِه، وأعرَفَهم بالصحيحِ والسَّقيمِ من الآثارِ، وأعرَفَهم بالرجالِ. فلمَّا بلَغ هذا المبلغَ حسَدُوه، فخرَج إلى الرَّمْلَةِ، فسُئل عن فضائلِ مُعاويةَ فأمسَكَ عنه، فضربُوه في الجامعِ، فقال: أخرِجُوني إلى مكَّةَ، فأخرَجُوه وهو عليلٌ، فتُوفِّي بمكَّةَ مقتولًا شهيدًا. قال الحاكمُ: مع ما رُزِقَ النَّسائيُّ من الفضائلِ رُزِق الشَّهادةَ في آخرِ عُمُرِه، ماتَ بمكَّةَ سنةَ ثلاثٍ وثلاثِمائةٍ. قال الحافظُ أبو بكرٍ محمدُ بنُ عبدِ الغنيِّ ابنِ نُقْطةَ في «تقْييدِه»: نَقَلْتُ من خطِّ أبي عامرٍ محمدِ بنِ سَعْدُون العَبْدَريِّ الحافظِ: ماتَ أبو عبدِ الرحمنِ النَّسائيُّ بالرَّمْلَةِ مدينةِ فلسطينَ يومَ الإثنينِ لثلاثَ عشْرةَ ليلةً خلَتْ من صفرٍ سنةَ ثلاثٍ وثلاثِمائةٍ، ودُفِن ببيتِ المقدسِ.

وحكَى ابنُ خَلِّكانَ في «الوفياتِ» أنَّه تُوفِّي في شعبانَ من هذه السنَة، وأنَّه إنَّما صنَّف «الخصائصَ» في فَضْلِ عليٍّ وأهلِ البيتِ؛ لأنَّه رأى أهلَ دمَشْقَ حينَ قَدِمها في سنَة ثنْتَيْن وثلاثِمائةٍ عندَهم نُفْرَةٌ من عليٍّ، وسألُوه عن مُعاويةَ فقال ما قال، فدفَعوا في حِضْنَيْه فماتَ. وهكذا ذكَر ابنُ يونسَ، وأبو جعفرٍ الطَّحَاويُّ أنَّه تُوفِّي بفلسطينَ في صفرٍ من هذه السنَة. وكان مولدُ النَّسائيِّ في سنةِ خمسَ عشْرَةَ أو أربعَ عشْرَةَ ومائتَيْن تقريبًا، عن قولِه، رحمه اللهُ، فكان عمرُه ثمانيًا وثمانينَ سنةً.

الحسنُ بنُ سفيانَ بنِ عامرِ بنِ عبدِ العزيزِ بنِ النُّعْمانِ بنِ عَطاءٍ، أبو العباسِ الشَّيْبانيُّ النَّسَويُّ، مُحدِّثُ خُراسانَ، والذي كان يُضْرَبُ آباطُ الإبلِ إليه في معْرِفةِ الحديثِ والفقْهِ. رحَل إلى الآفاقِ، وتفقَّه على أبي ثَوْرٍ، وكان يُفْتي بمذهبِه، وأخَذ الأدبَ عن أصحابِ النَّضْرِ بنِ شُمَيلٍ، وكانت إليه الرِّحْلَةُ بخُراسانَ، ومن غريبِ ما اتفَق له ـ أنَّه كان هو وجماعةٌ من أصحابِه بمصرَ في رحلتِهم لطلَبِ الحديثِ، فضاقَ عليهم الحالُ حتى مكَثُوا ثلاثةَ أيامٍ لا يأْكُلُون فيها شيئًا، ولا يجدون ما يبيعونه للقُوتِ، واضْطَرَّهم الحالُ إلى تَجَشُّمِ السؤالِ، وأنِفَتْ أنفُسُهم من ذلك وعزَّتْ عليهم، وامْتَنعَتْ كلَّ الامْتناعِ، والحاجةُ تضطرُّهم إلى تَعاطي ذلك، فاقترَعُوا فيما بينَهم أيُّهم يقومُ بأعْباءِ هذا الأمْرِ، فوقَعَت القُرْعَةُ على الحسنِ بنِ سفيانَ، فقام عنهم فاختَلَى في زاويةِ المسجدِ الذي هم فيه، فصلَّى ركعتيْنِ أطالَ فيهما، واسْتَغاثَ باللهِ عزَّ وجلَّ، وسألَه بأسمائِه العظامِ، فما انْصرَف من الصلاةِ حتى دخَل المسجدَ شابٌّ حسَنُ الهَيْئَةِ مليحُ الوَجْهِ فقال: أين الحسنُ بنُ سفيانَ؟ فقلتُ: أنا. فقال: الأميرُ طُولُونَ يقرأُ عليكمُ السلامَ، ويَعتذِرُ إليكم في تقْصيرِه عنكم، وهذه مائةُ دينارٍ لكلِّ واحدٍ منكم.

فقُلْنا له: ما الحاملُ له على هذا؟ فقال: إنَّه أحَبَّ أن يَختليَ اليومَ بنفسِه، فبينما هو الآن نائمٌ إذ جاءه فارسٌ في الهواءِ بيَدِه رُمْحٌ فدخَلَ عليه المنزلَ ووضَع عُقْبَ الرمحِ في خاصِرَته فوكَزه وقال: قُمْ فأدْرِكِ الحسنَ بنَ سفيانَ وأصحابَه، قُمْ فأدرِكْهم، قُمْ فأدْرِكْهم؛ فإنَّهم منذُ ثلاثة أيامٍ جياعٌ في المسجدِ الفُلانيِّ. فقال له: مَن أنت؟ فقال: أنا رِضوانُ خازنُ الجنة. فاستَيقَظ الأميرُ وخاصِرتُه تُؤْلمُه ألمًا شديدًا، فبعَث بالنَّفَقةِ في الحالِ إليكم. ثم جاءَ لزيارتِهم. واشْترَىٰ ما حولَ ذلك المسجدِ ووقَفه على الوارِدين عليه من أهلِ الحديث، جزَاه اللهُ خيرًا.

وقد كان الحسنُ بنُ سفيانَ، رحمه اللهُ، مِن أئمةِ هذا الشأنِ وفُرْسانه وحُفَّاظه، وقد اجتمَع عندَه جماعةٌ مِن الحُفّاظِ؛ منهم ابنُ خُزَيمةَ وغيرُه، فقرءوا عليه شيئًا مِن الحديث، وجعَلُوا يقْلِبُونَ الأسانيدَ لِيَسْتَعْلِموا ما عندَه مِن العلمِ، فما قلَّبوا شيئًا إلاَّ ردَّهم فيه إلى الصَّوابِ، وعُمْرُه إذْ ذاكَ تسعونَ سنةً، وهو في هذا السنِّ حافظٌ ضابطٌ لا يشِذُّ عنه شيء مِن حديثِه. ومِن فوائدِه: العَبْسِيُّ كُوفيٌّ، والعيشيُّ بصْرِيٌّ، والعَنْسِيُّ مِصْرِيٌّ.

رُوَيْمُ بنُ أحمدَ -ويقالُ: ابنُ محمدِ- بنِ يزيدَ بنِ رُوَيمِ بنِ يَزيدَ، أبو الحسنِ، ويقالُ: أبو الحسينِ. ويقالُ: أبو محمدٍ. أحدُ أئمَّةِ الصوفيَّة، كان عالمًا بالقرآنِ ومعانيه، وكان متفقِّهًا على مذهبِ داودَ بنِ عليٍّ الظَّاهِرِيِّ، قال بعضُهم: كان رويمٌ يكتُمُ حبَّ الدنْيا أربعينَ سنةً؛ ومعناه أنَّه تصوَّفَ أربعينَ سنةً. ثم لَمَّا وَلِيَ إسماعيلُ بنُ إسحاقَ القَضاءَ ببغدادَ جعَله وكيلاً في بابِه، فتركَ التصَوُّفَ ولبِس الخَزَّ والقَصَبَ والدَّبِيقيَّ وركِب الخيلَ وأكَل الطَّيِّباتِ وبنَى الدُّورَ.

زُهَيرُ بنُ صالحِ بنِ الإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ، روَىٰ عن أبيه، وعنه أبو بكرٍ أحمدُ بنُ سليمانَ النَّجَّادُ. قال الدارقطنيُّ: كان ثقةً، مات وهو شابٌّ.

أبو عليٍّ الجُبَّائي شيخُ المعتزلَة، وهو محمدُ بنُ عبدِ الوَهَّابِ، شيخُ الطائفَة المعتزلةِ في زمانه، وعليه اشتَغل أبو الحسنِ الأشْعَرِيُّ، ثم رجَع عنه، وللجُبَّائيِّ تفْسيرٌ حافلٌ مُطَوَّلٌ، له فيه اختياراتٌ غريبةٌ في التفسيرِ، وقد ردَّ عليه الشيخُ أبو الحسنِ الأشْعَرِيُّ فيه، وقال: كأنَّ القرآنَ نزَل بلغةِ أهلِ جُبَّاءَ. كان مولدُ الشيخِ أبي عليٍّ في سنة خمسٍ وثلاثينَ ومائتينِ، وماتَ في هذه السنة.

ابنُ بسّامٍ الشاعرُ، أبو الحسين عليُّ بنُ أحمدَ بنِ منصورِ بنِ نَصْرِ بنِ بسّامٍ البَسّاميُّ، الشاعرُ المُطْبِقُ للهجاءِ، فلَم يترُكْ أحدًا حتى هجَاه، حتى أباه وأمَّه أُمامَةَ بنتَ حمْدُونَ النَّديمِ، وقد أورَدَ له ابنُ خلِّكانَ أشْياءَ كثيرةً مِن شعرِه، فمِن ذلك قولُه في تخْريبِ المُتَوكِّلِ قبرَ الحسينِ بنِ عليٍّ وأمْرِه بأن يزْرَعَ ويُمْحَىٰ رسْمُه، وكان شديدَ التَّحاملِ على عليٍّ وولَدِه، فلمَّا وقَع ما ذكَرْناه، وكان ذلك سنةَ ستٍّ وثلاثينَ ومائتَيْنِ، قال ابنُ بسّامٍ هذا في ذلك:

تالله إنْ كانت أُمَيَّةُ قد أتَتْ ... قَتْلَ ابن بِنْت نَبِيِّها مظلُوما
فلقد أتاهُ بنُو أبيهِ بمثْلِه ... هذا لَعَمْرُكَ قَبْرُه مهْدُوما
أسِفُوا على أن لا يكُونُوا شارَكُوا ... في قَتْلِه فتَتَبَّعُوهُ رَمِيما

ثم دخلت سنة أربع وثلاثمائة

فيها عزَل الخليفةُ المقتدرُ بالله وزيرَه أبا الحسَنِ عليَّ بنَ عيسى بنِ الجَرَّاح؛ وذلك لأنَّه وقَعتْ بيْنَه وبينَ أُمِّ مُوسى القهْرَمانة نُفرةٌ شديدةٌ، فسأَل الوزيرُ أنْ يُعفَى مِن الوَزارة، فعُزِلَ ولم يُتعرَّضْ لشيءٍ من أمْلاكه.

وطُلِبَ أبو الحسَنِ عليُّ بنُ محمد بن الفُرات فأُعيدَ إلى الوزارة بعدَ عزْله عنها خمسَ سنينَ، وخلَعَ عليه الخليفةُ يومَ التَّرْوِيَة سبْعَ خلَعٍ، وأطْلَقَ له ثلاثمائة ألف درْهَم، وعشَرةَ تُخُوتِ ثيابٍ، ومِن الخيلِ والبِغال والجمال شيءٌ كثيرٌ، وأُقْطِعَ الدارَ التي بالمُخَرِّم فسكَنَها، فعمِل فيها ضيافةً تلك الليلةَ، فسَقَى فيها أرْبَعينَ ألفَ رطْلٍ من الثلج.

وفي الصيفِ من هذه السنَة اشْتَهَرَ ببَغْدادَ أنَّ حَيوانًا عجيبًا يقالُ له: الزَّبْزَبُ. يطوفُ بالليلِ يأكُلُ الأطفالَ من الأسِرَّة، ويعْدُو على النائم، فربَّما قطَع يدَ الرجلِ وثَدْيَ المرأة وهو نائمٌ، فجعَل الناسُ يضْرِبُونَ على أسطحَتِهم بالنُّحاسِ من الهَواوين والطسوت وغيرِ ذلك يُنَفِّرُونَه عنهم، حتى كانت بَغْدادُ ترْتَجُّ مِن شرْقها وغرْبها، واصْطَنَع الناسُ لأوْلادهم مكَبَّاتٍ من السعَف وغيرِ ذلك، واغْتَنَمَت اللصوصُ هذه الشَّوْشَةَ، فكَثُرَ النُّقوبُ وأَخْذُ الأموال، فأمَر الخليفةُ بأنْ يُؤْخَذَ حَيوانٌ من كلاب الماء فيُصْلَبَ على الجسرِ ليَسْكُنَ الناسُ عن ذلك، فَفُعِل فسكَن أمرُ الناسِ ورَجعُوا إلى أنفُسِهم، واستراحَ الناسُ من ذلك.

وقُلِّد ثابتُ بنُ سِنَانٍ الطَّبيبُ المُؤَرِّخُ أمرَ المارسْتانات ببَغْدادَ في هذه السنَة، وكانت خمسةً.

ورَدَ كتابٌ من خُراسانَ بأنهم وجَدُوا قُبورَ شُهَداءَ قُتِلُوا في سنَة سَبْعينَ من الهجرة مكْتُوبةٌ أسْماؤُهم في رِقاعٍ مرْبُوطَةٍ بآذانِهم، وأجْسادُهُم طَرِيَّةٌ كما هي.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

محمدُ بنُ أحمدَ بن الهيْثَم بن صالح بن عبدالله بن الحُصين بن عَلْقَمَةَ بن لبيد بن نُعَيْم بن عطارِدَ بن حاجب بن زرارةَ أبو الحسَن التَّميميُّ المُلَقَّبُ فَرُّوجَةَ، قدِمَ بغَدادَ وحدَّث بها، وكان ثقةً حافظًا.

يوسُفُ بنُ الحسين بن عليٍّ أبو يَعْقُوبَ الرَّازيُّ، سمعَ أحمدَ بنَ حَنْبَلٍ، وصحبَ ذا النونِ المصريَّ، وروَى عنه أبو بكر النَّجَّادُ. روَى الخطيبُ بسنده إليه أنَّه بلَغَه أنَّ ذا النونِ يحفَظُ اسمَ اللهِ الأعْظَمَ فقصَده؛ ليُعَلِّمَه إيَّاه، قال: فلمَّا ورَدْتُ عليه استَهانَ بي، وكان لي لحيةٌ طويلةٌ ومعي رِكْوَةٌ طويلةٌ. فجاءَ رجلٌ يومًا فناظَرَ ذا النون فأسْكَتَ ذا النون، فناظَرتُ أنا الرجلَ فأسكتُّه، فقامَ ذو النونِ فجلَس بينَ يدَيَّ وهو شيخٌ وأنا شابٌّ، واعْتذَرَ إليَّ، فخدَمْتُه سنةً، ثم سألتُه أنْ يُعلِّمَني الاسمَ الأعظمَ، فلم يبعُدْ منِّي ووَعَدني، فمكَثْتُ بعدَ ذلك ستَّةَ أشهرٍ، ثم أخرَج إليَّ طبقًا عليه مكبَّةٌ مشدودًا بمنْديلٍ، وقال لي: اذهَبْ بهذا إلى صاحبِنا فُلانٍ. قال: فجعَلْتُ أُفَكِّرُ في الطريقِ؛ ما هذا الذي قد أرْسَلَني

به؟ فلمَّا وصلْتُ الجسرَ فتحتُه، فإذا فيه فأرةٌ ففقزَتْ وذهبَتْ، فاغتَظْتُ غيْظًا شديدًا، وقلتُ: ذو النون يسخَرُ بي، فرجَعْتُ إليه وأنا حَنِقٌ، فقال لي: وَيْحَكَ، إنَّما اختَبرْتُكَ، فإذا لم تكُنْ أمينًا على فارةٍ فأنْ لا تكونَ أمينًا على الاسمِ الأعْظَمِ بطَريقِ الأوْلَى، اذْهَبْ عنِّي فلا أراكَ بعدَها.

وقد رُئِي أبو الحسين الرازيُّ هذا في المنامِ بعدَ موتِه فقيلَ له: ما فعَلَ اللهُ بك؟ فقال: غفَرَ لي بقَوْلي عندَ الموتِ: اللَّهُمَّ إنِّي نصَحْتُ للناسِ قوْلاً، وخُنْتُ نفْسي فِعْلاً، فهب لي خيانَةَ فعْلي لنُصْحِ قَوْلي.

يَمُوتُ بنُ المُزَرَّعِ بن يَمُوتَ أبو بكرٍ العَبْديُّ من عبدِ القَيْسِ، وهو ثوْريٌّ، كان ابنَ أختِ الجاحظ. قَدِمَ بَغْدادَ وحدَّثَ بها عن أبي عثمانَ المازنيِّ، وأبي حاتمٍ السِّجِسْتانيِّ، وأبي الفَضْلِ الرِّياشيِّ، وكان صاحبَ أخْبارٍ وآدابٍ ومُلَحٍ، وقد كان غيَّرَ اسمَه بمحمدٍ، فلم يغلبْ عليه إلاَّ الأوَّلُ، وكان إذا ذهَبَ يَعودُ مريضًا فدقَّ البابَ، فقيل: مَنْ؟ فيقولُ: ابنُ المزرَّعِ. ولا يذْكُرُ اسمَه؛ لئلاَّ يتفاءلَ أهلُ المريضِ بسماعِ ذلك.

ثم دخلت سنة خمس وثلاثمائة

فيها قَدِمَ رسولُ ملكِ الرومِ في طلَبِ المُفاداةِ والهُدْنَةِ، وهو شابٌّ حدَثُ السنِّ، ومعه شيْخٌ منهم وعشْرونَ غُلامًا، فلمَّا ورَدَ بَغْدادَ شاهدَ أمْرًا هائلاً جدًّا؛ وذلك أنَّ الخليفةَ المقتدرَ بالله أمرَ بالاحْتفالِ بذلك ليُشاهِدَ ما فيه إرْهابُ الأعْداءِ، فركِبَ الجيشُ بكماله يومَئذٍ وكان مائةَ ألفٍ وستِّين ألفًا، ما بين فارسٍ وراجلٍ، في الأسْلحَةِ التامَّةِ، وغلمانُ الخليفةِ سبْعةَ آلافٍ؛ أرْبَعَةُ آلافٍ بيضٌ، وثلاثَةُ آلافٍ سودٌ، وهم في غايَةِ المَلابسِ والعُدَدِ، والحَجَبَةُ يَوْمَئذٍ سبْعُمائةِ حاجبٍ، وأمَّا الطياراتُ التي بدِجْلَةَ والزَّبازبُ الشُّمَيريَّات فشيءٌ كثيرٌ مُزَيَّنَةٌ، فحينَ دخلَ الرسولُ دارَ الخلافةِ شاهَدَ أمْرًا أدْهشَه، ورأَىٰ من الحشْمةِ والزينةِ والحُرمَةِ ما يَبْهَرُ الأبْصارَ، وحينَ اجْتازَ بالحاجبِ ظنَّ أنَّه الخليفةُ، فقيلَ له: هذا الحاجبُ الكبيرُ. فمرَّ بالوزيرِ في أُبَّهَتِه فظنَّه الخليفةَ، فقيلَ له: هذا الوزيرُ. وقد زُيِّنَتْ دارُ الخلافَةِ بزينةٍ لم يُسْمَعْ بمثلِها، كان فيها من السُّتورِ يَوْمَئذٍ ثمانيَةٌ وثلاثُونَ ألفَ سِتْرٍ؛ منها اثنا عَشَرَ ألفَ سِتْرٍ وخَمْسُمائةٍ مُذَهَّبَةٌ، وقد بُسِطَ فيها اثْنان وعشرونَ ألفَ بساطٍ، وفيها من الوُحوشِ قُطْعانٌ مُتأنِسَةٌ بالناسِ-بحيثُ تأكلُ من بينِ أيْديهم-ومائةُ سَبُعٍ مع السَّباعَةِ، ثم أُدْخلَ إلى دارِ الشجَرَةِ؛ وهي عبارَةٌ عن برْكَةٍ فيها ماءٌ صافٍ وفي وَسَطِ ذلك الماءِ شجَرَةٌ من ذهَبٍ وفضَّةٍ لها ثمانِيَةَ عشَرَ غُصْنًا أكثرُها من ذهبٍ، وفيها الشَّماريخُ والأوراقُ المُلوَّنَةُ عليها طيورٌ مصبوغةٌ من الذَّهبِ والفضةِ واللآلئ، وهي تُصوِّتُ بأنْواعِ الأصواتِ؛ من الماءِ المُسلَّطِ عليها، والشجرةُ بكَمالها تتمايلُ كما تتمايُلُ الأشْجارُ بحرَكاتٍ عجيبةٍ تُدْهِشُ مَن يراها، ثم أُدْخلَ إلى مكانٍ يُسَمُّونَه الفِرْدَوْسَ، فيه من أنْواعِ المَفارشِ والآلاتِ ما لا يُحَدُّ ولا يوصفُ كثرةً وحسنًا، وفي دَهاليزِه ثمانيةَ عشَرَ ألفَ جَوْشَنٍ مُذهَبَةٍ، فمازالَ

كلما مرَّ على مكانٍ أدهشَه وأخذ ببَصره حتى انتهى إلى الخليفة المقتدر بالله وهو جالسٌ على سَريرٍ من آبنُوسَ، قد فُرِشَ بالدَّبِيقيِّ المُطرَّز، وعن يمين السرير تسعةُ عقودٍ مُعلَّقةٌ، وعن يساره تسعةٌ أخرى من أفخرِ الجواهر، يعلُو ضوؤُها على ضوء النهار، فأُوقف الرسولُ والذي معه بينَ يَدَي الخليفة على نحو من مائة ذراع، والوزيرُ عليُّ بنُ محمد بن الفُرات واقفٌ بينَ يَدَي الخليفة، والتَّرْجُمانُ دونَ الوزير، فجعَلَ الخليفةُ يُخاطبُ الوزيرَ، والوزيرُ يخاطبُ الترجمانَ، والترجمانُ يخاطبُهما، ثم خلَع عليهما وأطْلَق لهما خَمْسينَ سقرقًا في كلِّ سقرقٍ خمسةُ آلاف درْهم، وأُخرِجَا من بين يديْه وطِيفَ بهما في بَقيَّة دار الخلافة، وعلى حافات دجْلَةَ الفِيَلَةُ والزَّرافاتُ والسِّباعُ والفُهودُ وغيرُ ذلك، وهذا من أغْرَبِ ما وقَع من الحوادث في هذه السنَة. وحجَّ بالناس فيها الفَضْلُ الهاشميُّ.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

سليمانُ بنُ محمد بن أحمدَ، أبو موسى النحويُّ الكُوفيُّ المعروفُ بالحامض، صحبَ ثَعْلبًا أربَعينَ سنةً، وخلَفَه في حَلْقَته، وصنَّفَ «غَريبَ الحديث»، و«خَلْقَ الإنسان»، و«الوُحوش»، و«النَّبات»، وكان دَيِّنًا صالحًا، روَى عنه أبو عمرَ الزَّاهدُ، تُوفِّي ببَغْدادَ في ذي الحجَّة منها، ودُفِنَ بباب التِّبْن.

وعبدُ الله بنُ شيرَوْيه الحافظُ. **وعمْرانُ** بنُ مُجاشع. **وأبو خليفةَ** الفضْلُ بنُ الحُبَاب. وقاسمُ بنُ زكريا بن يَحْيى المُطرِّزُ المُقرِئُ، أحدُ الثِّقات الأثبات، سمع أبا كُرَيْب، وسُوَيْدَ بنَ سعيد، وعنه الخُلْديُّ، وابنُ الجعَابيِّ، تُوفِّي ببَغْدادَ في هذه السنة.

ثم دخلت سنة ست وثلاثمائة

في أوَّل يوم من المحرم، وهو مُستَهَلُّ هذه السنة فُتح المارسْتَانُ الذي بنَتْه السيدةُ أمُّ المقتدر، وجلَس فيه سِنَانُ بنُ ثابت الطَّبيبُ، ورُتِّبت الأطباءُ والخدَمُ والقَوَمَةُ، وكانتْ نفقتُه في كلِّ شهر ستَّمائة دينار، وأشارَ سنَانُ بنُ ثابت على الخليفة ببناء مَارستانَ، فقَبِلَ منه، وبُني وسُمِّيَ المُقتَدريَّ. وفيها وردَت الأخبارُ عن أُمراء الصَّوائف بما فتَح اللهُ عليهم من الحُصون في بلاد الروم. وفيها شَغب العامَّةُ وأرجَفوا بموت المقتدر، فركبَ في الجحافل حتى بلَغ الثُّريَّا ورجَع من باب العامَّة، ووقفَ طويلاً ليَراه الناسُ، ثم ركب إلى الشماسيَّة وانْحدرَ إلى دار الخلافة في دجْلَةَ فسكنَت الفتَنُ. وفيها قلَّد المقتدرُ حامدَ بنَ العباس الوزارةَ وخلَع عليه، وخرج من عنده وخلْفَه أربَعمائة غُلام لنفسه، ثم تبيَّن عجزَه فأخرجَ عليَّ بنَ عيسى وجَعله معه ليُنفذَ الأمورَ ويَنْظُرَ معه في الأعْمال، وكان أبو عليِّ بن مقلةَ ممَّنْ يكتُبُ أيضًا بحضْرَة حامد بن العباس الوزير، ثم صارَت المنزلَةُ كلُّها لعليِّ بن عيسى، واسْتَقلَّ بالوزارة في السَّنة الآتية. وفيها أمَرت السيدةُ أمُّ المُقْتَدر قَهْرَمانَةً لها تُعرَفُ بثملَ أنْ تجلسَ في التُّرْبَة التي بنَتْها بالرُّصافَة في كلِّ يوم جمُعة، وأنْ تنظُرَ في المظالم التي تُرفَعُ إليها في القصص، وحضَر في مجْلسها القُضاةُ والفُقهاءُ. وحجَّ بالناس فيها الفَضْلُ بنُ عبد الملك الهاشميُّ.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

إبراهيمُ بنُ أحمدَ بن الحارث، أبو القاسم الكلابيُّ الشافعيُّ، سمعَ الحارثَ بنَ مسكينٍ وغيرَه، وكان رجلاً صالحًا ثقة، على مذهبِ الشافعيِّ وكان يُحبُّ الخَلْوَةَ والانقباضَ، تُوفِّي في شعبانَ منها.

أحمدُ بنُ الحسنِ الصوفيُّ، أحدُ مشايخِ الحديثِ المُكثرينَ المُعمَّرينَ.

أحمدُ بنُ عمرَ بن سُرَيْج، أبو العباسِ القاضي بشيرازَ، وله نحوُ أربعمائة مصنَّف، وكان أحدَ أئمة الشافعيَّة، وكان يُلقَّبُ بالبازِ الأشهبِ، وكان قد أخذَ الفقهَ عن أبي القاسمِ الأنماطيِّ، وعن أصحابِ الشافعيِّ، كالمُزنيِّ وغيره، وعنه انتشرَ مذهبُ الشافعيِّ في الآفاق، وقد ذكَرْنا ترجمتَه في طبقات الشافعية بما فيه مَقْنعٌ. تُوفِّي في جُمادَىٰ الأُولَىٰ منها عن سبْعٍ وخمسينَ سنةً وستَّة أشهر، رحمه اللهُ.

قال ابنُ خلِّكانَ: تُوفِّي يومَ الإثنينِ الخامسَ والعشرينَ من ربيعٍ الأولِ، وعُمرُه سبْعٌ وخمْسُونَ سنةً وستةُ أشهرٍ، وقبْرُه يُزارُ.

أحمدُ بنُ يحيى، أبو عبد الله الجَلَاءُ، بغداديٌّ، سكَنَ الشامَ وصحبَ أبا تُراب النَّخشَبيَّ، وذا النون المصْريَّ. روىٰ أبو نُعَيْم بسنَدِه عنه قال: قلتُ لأبوَيَّ وأنا شابٌّ: إنِّي أُحِبُّ أنْ تَهبَاني لله عزَّ وجلَّ فقالا: قد وهبْنَاكَ لله. فغِبْتُ عنهما مدةً طويلةً، ثم رجَعْتُ إلىٰ بلدنا عشاءً في ليلةٍ مطيرةٍ، فانْتَهَيْتُ إلى البابِ فدققتُه فقالا: مَن هذا؟ فقلتُ: أنا ولدُكما فلانٌ، فقالا: إنَّه قد كان لنا ولدٌ ووهبْنَاه لله عزَّ وجلَّ، ونحنُ من العربِ لا نرجعُ فيما وهبْنا. ولم يفْتَحا لي البابَ.

الحسينُ بنُ يُوسفَ بن يعقوبَ بن إسْماعيلَ بن حمَّاد بن زيْد، القاضي أبو يَعْلَى، وهو أخو القاضي أبي عمرَ محمد بن يُوسُفَ، كان إليه ولايةُ القَضاءِ بالأُرْدُنِّ.

عبدُ الله بنُ أحمدَ بن موسى بن زياد، أبو محمد الجواليقيُّ القاضي، المعْروفُ بعَبْدانَ، الأهْوازيُّ، وُلد سنةَ ستَّ عشْرَةَ ومائتيْنِ، كان أحدَ الحُفَّاظِ الأثباتِ، يحفَظُ مائةَ ألف حديث، جمعَ المشايخَ والأبوابَ، روىٰ عن هُدْبَةَ، وكاملِ بن طلحةَ وغيرِهم، وعنه ابنُ صاعدٍ، والمَحامِليُّ وغيرُهما.

محمدُ بنُ بابشاذَ، أبو عُبَيْد الله البَصْريُّ سكَن بَغْدادَ وحدَّث بها عن عُبَيد الله بنِ مُعاذِ العَنْبَريِّ وبِشْرِ بنِ مُعاذ العقديِّ وغيرِهما، وفي حديثِه غَرائبُ ومَناكيرُ. تُوفِّي في شوَّالٍ من هذه السنة.

محمدُ بنُ الحُسَيْن بن شَهْرَيارَ، أبو بكر القطَّانُ البَلْخيُّ الأصْل، روىٰ عن الفَلاَّسِ وبِشْرِ بن مُعاذ. وعنه أبو بكرٍ الشافعيُّ وابنُ الجعابيِّ. كذَّبه ابنُ ناجيَةَ، وقال الدَّارَقُطْنيُّ: ليْسَ به بأسٌ.

محمدُ بنُ خلَف بن حيَّانَ بن صدقةَ بن زياد، أبو بكر الضبِّيُّ القاضي المعروفُ بوَكيع، كان عالمًا فاضلاً عارفًا بأيام الناسِ، فقيهًا قارئًا نحْويًّا، له مُصنَّفاتٌ، منها كتابُ «العدد»، ولِيَ القَضاءَ بالأهْوازِ، وحدَّث عن الحسَنِ بن عرفَةَ، والزُّبَيْرِ بنِ بكَّارٍ وغيرِهما، وعنه أحمدُ بنُ كاملٍ، وأبو عليٍّ الصوَّافُ، وغيرُهما. ومن شعرِه قولُه:

إذا ما غـدَتْ طلاَّبةُ العلم تَبْتَغي ... منَ العلمِ يومًا ما يُخَلَّدُ في الكُتْبِ
غـدَوْتُ بتَشْميرٍ وجِدٍّ عليهمُ ... ومِخْبَرَتي أُذْني ودفتَرُها قلبي

مَنصُورُ بنُ إسْماعيلَ بنِ عمرَ، أبو الحسَنِ الفقيهُ، أحدُ أئمة الشافعيَّةِ، وله مُصنَّفاتٌ في المذهبِ، وله الشعرُ الحسَنُ. قال ابنُ الجَوْزِيِّ: ويظهَرُ في شعرِه التَّشيُّعُ، وكان جُنْدِيًّا كُفَّ بصَرُه وسكَنَ الرَّمْلَةَ، ثم قَدِمَ مِصرَ حتى كانت وفاتُه بها.

أبو نَصْرٍ المُحِبُّ أحدُ مشايخِ الصوفيَّةِ، كان له كرَمٌ وسَخاءٌ ومُروءَةٌ، ومرَّ بسائلٍ سألَ وهو يقولُ: شَفِيعي إليْكم رسولُ اللهِ ﷺ. فشَقَّ أبو نَصْرٍ إزارَه وأعْطَاهُ نصْفَه، ثم مشَىٰ خُطْوَتَيْنِ، ثم رجَع إليه فأعْطَاه النصفَ الآخرِ، وقال: هذا نَذَالَةٌ.

ثم دخلت سنة سبع وثلاثمائة

في صفَر منها وقَع حريقٌ بالكَرْخِ في البَاقلانيين، هلَك فيه خلْقٌ كثيرٌ مِن الناسِ. وفي رَبيعِ الآخرِ منها دُخِلَ بأُسارَىٰ مِن الكَرْخِ نحوِ مِن مائةٍ وخَمْسينَ أسيرًا أنْقَذهم الأميرُ بَدْرٌ الحَمَامِيُّ. وفي ذي القَعْدَةِ انْقَضَّ كوكبٌ عظيمٌ غالبُ الضوءِ وتقَطَّعَ ثلاثَ قِطَعٍ، وسُمع بعدَ انْقضاضِه صوتُ رَعْدٍ شديدٍ هائلٍ من غيرِ غَيْمٍ. ذكَره ابنُ الجَوْزِيِّ. وفيها دخَلتِ القَرامطةُ إلى البصرةِ فأكثَرُوا فيها الفسادَ. وفيها عُزِل حامدُ بنُ العباسِ عن الوزارةِ وأُعيد إليها أبو الحسَنِ بنُ الفراتِ المرَّةَ الثالثةَ. وفيها كسرَتِ العامَّةُ أبْوابَ السجُونِ فأخْرَجوا مَن كان بها، فأدركَتِ الشرطةُ الذين أُخرِجُوا مِن السجنِ فلم يَفُتْهم أحدٌ منهم، بل رُدُّوا كلُّهم إلى السجونِ. وحجَّ بالناسِ في هذه السنةِ أحمدُ بنُ العباسِ أخو أمِّ مُوسىٰ القَهْرمَانَة.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

أحمدُ بنُ عليِّ بنِ المُثَنَّى، أبو يَعْلَى المَوْصِليُّ، صاحبُ «المُسْنَدِ» المشهورِ، سمع الإمامَ أحمدَ بنَ حنبلٍ وطَبقتَه، وكان حافظًا خيِّرًا، حسَنَ التصْنيفِ، ثقةً، عدْلاً فيما يرْويه، ضابطًا لمَا يحدِّثُ به.

إسْحاقُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ إبْراهيمَ بنِ عبدِ اللهِ بنِ سلَمَةَ أبو يَعْقُوبَ البَزَّازُ الكُوفِيُّ، رحَل إلى الشامِ ومِصْرَ، وكتَب الكثيرَ وصنَّف «المُسْنَدَ»، واسْتَوطَن بغْدادَ، وكان مِن الثِّقاتِ، روَىٰ عنه ابنُ المُظَفَّرِ الحافظُ، وكانت وفاتُه في شوالٍ منها.

جعفرُ بنُ محمدِ بنِ موسى أبو محمد الأعرجُ النَّيسابوريُّ الحافظُ، قَدِمَ بَغْدادَ، وروَىٰ عنه الطَّبرانيُّ والأزديُّ وغيرُهما مِن الحُفَّاظ، وكان ثقةً حافظًا عارفًا. تُوفِّي بحَلَبَ في هذه السنة.

زكَريَّا بنُ يَحْيى السَّاجيُّ الفَقيهُ المحدِّثُ، شيخُ أبي الحسَنِ الأشْعَرِيِّ في السُّنَّة والحديث.

عليُّ بنُ سَهْلِ بنِ الأزْهرِي أبو الحسَنِ الأصْبهانيُّ، كان أوَّلاً مُتْرَفًا ثم كان زاهدًا عابدًا يبْقَى الأيامَ لا يأكلُ شيئًا، وكان يقولُ: ألْهانِي الشوقُ عن الطَّعامِ والشرابِ. وكان يقولُ: أنا لا أموتُ بما يموتُونَ؛

بالاعْلالِ والاسْقامِ، إنَّما هو دُعاءٌ وإجابَةٌ، أُدْعَىٰ فأجيبُ. فكانَ كما قال؛ بيْنَما هو جالسٌ في جماعةٍ إذْ قال: لَبَّيْكَ. ووَقَع ميِّتًا.

ومحمدُ بنُ هارونَ الرُّويَانيُّ صاحِبُ «المُسْنَد». وابنُ ذَريحٍ العُكْبَرِيُّ. والهيْثَمُ بنُ خَلَفٍ.

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثمائة

غلَتِ الاسْعارُ في هذه السنَةِ ببَغْدادَ؛ فاضْطرَبَت العامَّةُ، وقصَدُوا دارَ حامدِ بنِ العبَّاسِ الذي ضَمِنَ قُرايا من الخليفةِ، فغَلَتِ الاسْعارُ بسبَبِ ذلك، وعَدَوْا في ذلك اليوم - وكان يومَ الجُمُعةِ - على الخطيبِ، فمنَعُوه الخُطْبَةَ وكسَرُوا المَنابرَ ودكَّ الشرطِ، وحرَقُوا جُسورًا كثيرةً، وأمَرَ الخليفةُ بقِتالِ العامَّةِ ثم نقَضَ الضَّمانَ الذي كان حامدُ بنُ العباسِ ضَمِنه، فانْحَطَّتِ الاسْعارُ، وبيعَ الكُرُّ بناقِصِ خَمْسَةِ دنانيرَ، فطابَتْ أنفسُ العامَّةِ بذلك وسكَنُوا. وفي تَمُّوزَ من هذه السنةِ وقَع بردٌ شديدٌ جدًّا حتى نزَلَ الناسُ من الأسطحَةِ وتدثَّرُوا باللُّحُفِ والاكْسِيَةِ، ووَقَع في شتاءِ هذه السنةِ ثَلْجٌ عظيمٌ، وكان فيها بردٌ شديدٌ جدًّا بحيثُ أضرَّ ذلك ببعضِ النَّخيلِ. وحجَّ بالناسِ فيها أحمدُ بنُ العباسِ أخو القَهْرَمَانَةِ.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

إبراهيمُ بنُ محمدِ بن سفيانَ الفقيهُ راوي «صَحيحِ مسلم» عنه.

أحمدُ بنُ الصَّلْتِ بنِ المُغَلِّسِ، أبو العباسِ الحِمَّانيُّ أحدُ الوَضَّاعين للأحاديثِ، روَىٰ عن خالِه جُبَارَةَ ابنِ المُغَلِّسِ، وأبي نُعيمٍ، ومُسلمِ بنِ إبراهيمَ، وأبي بكرِ بنِ أبي شَيْبَةَ، وأبي عُبَيْدٍ القاسمِ ابنِ سَلَّامٍ وغيرِهم أحاديثَ، كلُّها وضَعَها هو في مَناقبِ أبي حنيفةَ، وغيرِ ذلك. وحكَىٰ عن يَحْيَىٰ بنِ مَعينٍ، وعليِّ بنِ المَدينيِّ، وبِشْرِ بنِ الحارثِ أخبارًا كلُّها كذِبٌ. قال أبو الفَرَجِ بنُ الجَوْزيِّ: قال لي محمدُ ابنُ أبي الفَوارِسِ: كان أحمدُ بنُ الصَّلْتِ يضَعُ الحديثَ.

وإسْحاقُ بنُ أحمدَ الخُزَاعيُّ. والمُفَضَّلُ الجَنَديُّ. وعبدُ اللهِ بنُ محمدِ بنِ وَهْبٍ الدِّينَوَرِيُّ.

وعبدُ اللهِ بنُ ثابتِ بنِ يَعْقوبَ أبو عبدِ اللهِ المُقرِئُ النحويُّ التَّوَّزِيُّ، سكَن بغدادَ، وروَىٰ عن عُمَرَ ابنِ شَبَّةَ، وعنه أبو عمرِو بنِ السَّمَّاكِ. ومن شعرِه:

إذا لم تكُنْ حافظًا واعيًا ... فعِلْمُكَ في البيتِ لا ينفَعُ
وتَحْضُرُ بالجَهْلِ في مجلسٍ ... وعلمُكَ في الكُتْبِ مُسْتَوْدَعُ
ومَن يَكُ في دهرِه هكذا ... يكُنْ دهرَهُ القَهْقَرَىٰ يرجِعُ

ثم دخلت سنة تسع وثلاثمائة

فيها وقع حريقٌ كثيرٌ في نواحي بَغْدادَ بسبَبِ زِنْديقٍ قُتِل، فألْقَىٰ مَن كان مِن جهتِه الحريقَ في أماكنَ كثيرةٍ، فهلَك بسبَبِ ذلك خَلْقٌ كثيرٌ مِن الناسِ.

وفي جُمادَىٰ الأولَىٰ منها قلّد المقتدرُ باللهِ مُؤْنِسًا الخادمَ بلادَ مصْرَ والشامِ، ولقَّبَه المُظَفَّرَ، وكتَب بذلك في المُراسَلاتِ إلى الآفاقِ. وفي ذي القَعْدَةِ أحْضَرَ أبو جَعْفرٍ محمدُ بنُ جَريرٍ الطَّبَريُّ، رحمه اللهُ، إلى دارِ الوزيرِ عيسىٰ بنِ عليٍّ لمُناظَرَةِ الحنابلةِ في أشْياءَ نَقَمُوها عليه، فلم يَحْضُروا ولا واحدٌ منهم. وقدَّمَ الوزيرُ حامدُ بنُ العباسِ للخليفةِ بُسْتانًا بنَاه وسمَّاه النَّاعُورَةَ، قيمتُه مائةُ ألفِ دينارٍ، وفرَش مساكنَه بأنْواعِ المفارشِ المُفْتخَرَةِ.

وفيها كان مقتلُ الحسينِ بنِ منصورٍ الحلَّاجِ، ولْنَذكُرْ شيئًا مِن ترجمتِه وسيرتِه، وكيفيَّةِ قتلِه - علىٰ وجهِ الإيجازِ - وبيانِ المقْصُودِ، بطريقِ الإنْصافِ والعَدْلِ.

وهذه نُبْذةٌ من سيرته وأحواله وكشفِ سريرته وأقواله:

الحسينُ بنُ منصورِ بنِ مَحْميٍّ الحلَّاجُ أبو مغيثٍ، ويقالُ: أبو عبدِ اللهِ، كان جدُّه مَجُوسيًّا، اسمُه مَحميٌّ مِن أهلِ فارسَ، نشأ بواسطٍ، ويقالُ: بتُسْتَرَ. ودخَل بَغْدادَ وتردَّدَ إلى مكَّةَ مرارًا للحَجِّ وجاوَر بها سَنَواتٍ مُتفرِّقةً، وكان يُصابِرُ نفْسَه ويُجاهِدُها؛ فلا يجلسُ إلَّا تحتَ السماءِ في وسَطِ المسجدِ في البَردِ والحرِّ، ولا يأكُلُ إلا بعضَ قُرصٍ، ويشربُ قليلًا مِن الماءِ معه وذلك وقتَ الفطورِ مدَّةَ سنةٍ كاملةٍ، ويجلسُ علىٰ صَخْرةٍ في قُبالةِ الحرمِ في جَبَلِ أبي قُبَيْسٍ، وقد صحِبَ جماعةً مِن ساداتِ مشايخِ الصوفيَّةِ، كالجُنَيْدِ بنِ محمدٍ، وعمرِو بنِ عُثمانَ المكِّيِّ، وأبي الحسينِ النُّوريِّ.

قال الخطيبُ البغْداديُّ: والصوفيَّةُ مُخْتلِفونَ فيه؛ فأكثرُهم نفَىٰ أنْ يكونَ الحلَّاجُ منهم، وأبىٰ أنْ يعُدَّه فيهم، وقبِله مِن مُتَقدِّميهم أبو العباسِ بنُ عطاءٍ البَغْداديُّ، ومحمدُ بنُ خفيفٍ الشِّيرازيُّ، وإبْراهيمُ بنُ محمدٍ النَّصْرَاباذيُّ النَّيْسابُوريُّ، وصحَّحُوا له حالَه، ودوَّنُوا كلامَه، حتىٰ قال ابنُ خفيفٍ: الحسينُ بنُ مَنْصُورٍ عالمٌ ربَّانيٌّ.

وقال أبو عبدِ الرحمنِ السُّلَميُّ؛ واسمُه محمدُ بنُ الحسينِ: سمِعتُ إبْراهيمَ بنَ محمدٍ النَّصْرَاباذيَّ، وعُوتِبَ في شيءٍ حُكِيَ عن الحلَّاجِ في الرُّوحِ، فقال لمَنْ عاتَبه: إنْ كان بعدَ النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ مُوَحِّدٌ فهو الحلَّاجُ. قال أبو عبدِ الرحمنِ: وسمِعتُ منْصورَ بنَ عبدِ اللهِ يقولُ: سمِعتُ الشِّبْليَّ يقولُ: كنتُ أنا والحسينُ بنُ مَنْصُورٍ شيئًا واحدًا، إلَّا أنَّه أظْهَر وكتَمْتُ. وقد رُوِيَ عن الشِّبْليِّ مِن وجهٍ آخرَ أنَّه قال، وقد رأَىٰ الحلَّاجَ مصْلُوبًا: ألم ننهَكَ عن العالَمينَ؟

قال الخطيبُ: والذين نفَوْه مِن الصوفيَّةِ نسَبُوه إلى الشَّعْبَذَةِ في فعْلِه، وإلى الزَّنْدَقَةِ في عقْدِه. قال: وله إلى الآنَ أصْحابٌ يُنْسَبونَ إليه ويَغْلُونَ فيه، وقد كان الحلَّاجُ حسنَ العبارةِ حُلْوَ المنطقِ، وله شِعْرٌ

علىٰ طريقةِ التصوُّف.

قلتُ: لم يزَلِ الناسُ منذُ قُتِلَ الحلاَّجُ مُختلفين في أمْرِه؛ فأمَّا الفُقهاءُ، فقد حُكِي عن غيرِ واحدٍ مِن الأئمةِ إجْماعُهم علىٰ قَتْله، وأنَّه كان كافرًا مُمَخرِقًا مُموِّهًا مُشْعبِذًا، وكذلك قولُ أكثرِ الصوفيةِ مِنهم. ومنهم طائفةٌ، كما تقدَّم، أجْمَلُوا القَولَ فيه، وغرَّهم ظاهِرُه ولم يطَّلِعُوا علىٰ باطِنه، وقد كان في ابْتِداءِ أمْرِه فيه تَعَبُّدٌ وتَأَلُّهٌ وسلُوكٌ، ولكِنْ لم يكُنْ له عِلمٌ، يسلُكُ به في عبادتِه، فدخَل عليه الداخلُ بسببِ ذلك، كما قال بعضُ السلف: مَن عبَد اللهَ بغيرِ علمٍ كان ما يُفسِدُه أكثرَ ممَّا يُصلِحُه.
وعن سفيانَ بنِ عُيَيْنَةَ أنه قال: مَن فسَد مِن عُلَمائنا كان فيه شبَهٌ مِن اليهودِ، ومَن فسَد مِن عُبَّادِنا كان فيه شَبَهٌ مِن النَّصارَىٰ، ولهذا دخَل الحَلاَّج بابُ الحُلُولِ والاتحادِ، فصار مِن أهلِ الانْحلالِ والإلحادِ.

وقد ورَد مِن غيرِ وَجْهٍ أنَّه تقلَّبَتْ به الأحْوالُ وتردَّد إلىٰ البُلْدانِ، وهو في ذلك كلِّه يُظْهِرُ للناسِ أنَّه مِنَ الدُّعاةِ إلىٰ اللهِ عزَّ وجَلَّ. وصحَّ أنَّه دخَل إلىٰ الهندِ ليتعلَّم السِّحْرَ، وقال: أدْعُو به إلىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ. وكان أهلُ الهِنْدِ يُكاتِبونَه بالمُغيثِ، ويكاتِبُه أهلُ تركستانَ بالمُقيتِ، ويكاتِبُه أهلُ خُراسانَ بالمُمَيِّزِ، وأهلُ فارسَ بأبي عبدِ اللهِ الزاهدِ، وأهْلُ خُوزَسْتَانَ بأبي عبدِ اللهِ الزاهدِ حَلاَّجِ الأسْرارِ. وكان بعضُ البَغادِدَةِ حينَ كان عندَهم يقولُونَ له: المُصْطَلِمُ. وأهلُ البَصْرَةِ يقولُونَ له: المُحيِّرُ.

ويقالُ: إنَّما سمَّاه الحَلاَّجَ أهلُ الأهْوازِ؛ لأنَّه كان يُكاشِفُهم عن ما في ضمائرِهم. وقيلَ: لأنَّه قال لحَلاَّجٍ: اذْهَبْ لي في حاجَةِ كذا وكذا، فقال: إنِّي مشغولٌ. فقال: اذْهَبْ فأنا أَسُدُّ عنك. فذهَب ورجَع سريعًا فإذا جميعُ ما في ذلك المَخْزَنِ قد حلَجه، يقالُ: إنَّه أشارَ بالمِرْوَدِ، فامْتازَ الحَبُّ عن القطنِ. وفي صحةِ هذا نَظَرٌ، وقيلَ: لأنَّ أبَاه كان حَلاجًا. وممَّا يدُلُّ علىٰ أنَّه كان ذا حُلُول في بَدْءِ أمرِه أشْياءُ كثيرةٌ. منها شعْرُه، فمِنْ ذلك قولُه:

جُبِلتْ رُوحُكَ في رُوحِي كما ... يُجْبَلُ العَنْبرُ بالمسك الفَتِقْ
فإذا مسَّكَ شيءٌ مسَّنِي ... فإذا أنتَ أنا لا نفْتَرِقْ

وقوله أيضًا:

مُزِجتْ رُوحُكَ في رُوحِي كما ... تُمْزَجُ الخَمْرةُ بالماءِ الزُّلالْ
فإذا مسَّكَ شيءٌ مسَّنِي ... فإذا أنتَ أنا في كلِّ حالْ

وله أيضًا:

قد تحقَّقْتُكَ في سر ... ري فخاطبْكَ لساني
فاجتَمَعْنا لمَعانٍ ... وافْتَرَقنا لمَعانِ
إنْ يكُنْ غيَّبَكَ التعْـ ... ـظيمُ عن لحظِ العَيانِ
فلقد صيَّركَ الوجـ ... ـدُ مِنَ الأحشاءِ دانِ

وقد أُنشد لابنِ عَطاءٍ قولُ الحلاَّج:

أُريدُكَ لا أُريدُكَ للثَّوابِ ... ولكنِّي أُريدُكَ للعِقابِ
وكلُّ مآربي قد نلتُ منها ... سوى مَلْذُوذ وجْدي بالعَذابِ

فقال ابنُ عطاء: هذا مما يتزايدُ به عذابُ الشَّغف، وهُيامُ الكَلِف، واحتراقُ الأسف، فإذا صفا ووفا علا إلى مشربٍ عَذْبٍ وهَطْلٍ من الحقِّ دائمٍ سكِبٍ.

وقد أُنشد لأبي عبدِ الله بنِ خفيفٍ قولُ الحلاَّج:

سُبْحانَ مَن أظهرَ ناسُوتُه ... سرَّ سَنا لاهُوتِه الثَّاقبِ
ثم بدا في خلقِه ظاهرًا ... في صورةِ الآكلِ والشَّاربِ
حتى لقد عايَنهُ خلقُهُ ... كلَحْظَة الحاجبِ بالحاجبِ

فقال ابنُ خفيف: علَى مَن يقولُ هذا لعنَةُ الله. فقيلَ له: إنَّ هذا مِن شعرِ الحسينِ بنِ منصورٍ. فقال: ربما يكونُ مَقُولاً عليه.

ومما يُنْسَبُ إليه من الشعرِ قولُه:

أرسلْتَ تسألُ عنِّي كيفَ كنتُ وما ... لاقَيتُ بعدَكَ من همٍّ ومن حَزَنِ
لا كنتُ إنْ كنتُ أدرِي كيفَ كنتُ ولا ... لا كُنتُ إنْ كُنتُ أدرِي كيفَ لم أكنِ

قال القاضي ابنُ خَلِّكانَ: ويُروَىٰ لسَمْنُونٍ لا للحَلاَّج.

ومن شعرِه أيضًا قولُه:

متى سهرتْ عيْني لغيرِكَ أو بكَت ... فلا أُعْطِيَتْ ما أمَّلَتْ وتَمَنَّتِ
وإنْ أضْمَرتْ نَفسِي سِواكَ فَلا رَعَتْ ... رِياضَ المُنى مِن وَجْنَتَيْكَ وجُنَّتِ

ومن شعرِه أيضًا:

دُنْيا تُغالطُني كأنْـ ... ـني لستُ أعرفُ حالَها
حظَر المليكُ حرامَها ... وأنا احْتَمَيْتُ حَلالَها
فوجَدتُها مُحْتاجةً ... فوهبْتُ لذَّتَها لها

وقد كان الحَلاَّجُ يتلوَّنُ في ملابسه، فتارةً يلْبَسُ لباسَ الصوفيةِ، وتارةً يتجرَّدُ في ملابسَ زَرِيَّةٍ، وتارةً في لباسِ الأجْنادِ، ويُعاشرُ أبناءَ الدنيا. وقد رآه بعضُهم في لباسٍ رثٍّ وبيده ركْوَةٌ وعُكَّازٌ وهو سائحٌ، فقال له: ما هذه الحالَةُ يا حلاَّجُ؟ فأنشأ يقولُ:

لئنْ أمسَيْتُ في ثَوبَيْ عديمٍ ... لقد بلِيَا على حُرٍّ كريمِ
فلا يغرُرْكَ أنْ أبصَرْتَ حالاً ... مُغيَّرةً عن الحالِ القديمِ
فلي نفسٌ ستَتْلَفُ أو سترْقَى ... لعَمْرُكَ بي إلى أمرٍ جَسيمِ

ومن مُستجاد كلامه قولُه، وقد سأله رجلٌ أنْ يوصيَه بشيء ينفعُه: عليكَ بنفسك؛ إنْ لم تشغَلْها بالحقِّ شغَلَتْكَ عن الحقِّ. وقال له رجلٌ: عظْني. فقال: كُنْ مع الحقِّ بحكم ما أوْجَبَ.

وروى الخطيبُ بسنده إليه أنَّه قال: علمُ الأولينَ والآخرينَ مرْجعُه إلى أرْبع كلمات؛ حبِّ الجَليل، وبُغْضِ القَليل، واتِّباع التَّنْزيل، وخوْف التَّحْويل. قلتُ: وقد أُصيب الحَلاَّجُ في المقامَيْن الأخيرَيْن، فلم يتَّبع التنزيلَ، ولم يَبْقَ على الاستقامة، بل تحوَّلَ منها إلى الاعْوجاج والبدْعَة، نسْألُ اللهَ العافيةَ.

قال أبو عبد الرحمن السُّلَميُّ: حُكي عن عمرو بن عُثمانَ المَكِّي أنَّه قال: كنتُ أُماشي الحَلاَّجَ في بعض أزقَّة مَكَّةَ، وكنتُ أقرأُ القرآنَ، فسمع قراءَتي فقال: يمكنُني أنْ أقولَ مثلَ هذا. ففارَقْتُه.

قال الخطيبُ: وحدَّثني مَسْعودُ بنُ ناصر، أنْبأنَا ابنُ باكُويه الشِّيرازيُّ، سمعتُ أبا زُرْعَةَ الطَّبريَّ يقولُ: الناسُ فيه - يعْني حسينَ بنَ منصور - بينَ قَبُول وردٍّ، ولكنْ سمعتُ محمدَ بنَ يَحْيى الرَّازيَّ يقولُ: سمعتُ عمرَو بنَ عُثْمانَ يلْعنُه ويقولُ: لو قدرْتُ عليه لقَتَلْتُه بيَدَيَّ. فقلتُ: أيْش الذي وجَد الشيخُ عليه؟ قال: قرأتُ آيَةً من كتاب الله، فقال: يُمكنُني أنْ أُؤلِّفَ مثلَه وأتكلَّمَ به. قال أبو زُرْعَةَ الطَّبَريُّ: وسمعْتُ أبا يَعْقُوبَ الأقطَعَ يقولُ: زوَّجْتُ ابْنَتي من الحسين بن منصور لَمَّا رأيْتُ من حُسن طريقته واجْتهاده، فبَان لي بعدَ مدَّة يسيرة أنَّه ساحرٌ مُحْتالٌ، خبيثٌ كافرٌ.

قلتُ: كان تزْويجُه بها بمَكَّةَ، وهي أمُّ الحسين بنتُ أبي يَعْقُوبَ الأقطَع، فأوْلَدها ولَدَه أحمدَ بنَ الحسين بن مَنْصُور، وقد ذكَر سيرَةَ أبيه كما ساقَها من طريقه الخطيبُ.

وقد ذكَر أبو القاسم القُشَيْريُّ في كتاب «الرسالة» في باب «حفْظ قُلوب المشايخ» أنَّ عمرَو بنَ عُثْمانَ دخَل على الحَلاَّج وهو بمَكَّةَ، وهو يكْتُبُ شيئًا في أوْراق، فقال له: ما هذا؟ قال: هو ذا أعارضُ القرآنَ. قال: فدَعَا عليه، فلم يُفْلحْ بعدَها، وأنْكَرَ على أبي يَعْقُوبَ الأقْطَع تزْويجَه إيَّاه ابنتَه، وكتَب إلى الآفاق كُتُبًا كثيرةً يلْعنُه فيها ويُحذِّرُ الناسَ منه، فشرَد الحَلاَّجُ في البلاد فعاثَ يمينًا وشمالاً، وجعَل يُظهرُ للناس أنَّه يدعُو إلى الله عزَّ وجلَّ، ويسْتَعينُ بأنْواع من الحيَل، ولم يزَلْ ذلك دأبَه وشأنَه حتى أحَلَّ اللهُ به بأسَه الذي لا يُرَدُّ عن القوم المُجْرمينَ، فقتَله بسَيْف الشرع الذي لا يقَعُ إلاَّ بينَ كَتفَيْ زنْديق، واللهُ أكرمُ من أنْ يسلِّطَه على صدِّيق، كيفَ وقد تهجَّمَ على القرآن العظيم، وأرادَ مُعارضَتَه في البلد الحرام الكريم، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥] ولا إلحادَ أعظمُ من هذا. وقد أشْبَهَ في حاله هذا كفَّارَ قريش في مُعاندتهم، الذين قال تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١].

ذكرُ أشياءَ من حيل الحلاج

روى الخطيبُ البَغْداديُّ أنَّ الحلاَّجَ أنفذ رجلاً بينَ يدَيْه إلى بعض بلاد الجبل، فأقام بتلك البلدة يُظْهرُ لهم الصَّلاحَ والنُّسُكَ ويقرأُ القرآنَ، فأقام مُدَّةً على ذلك، ثم أظهرَ لهم أنَّه قد عَمي، فمكَث حينًا على ذلك، ثم أظهَر أنَّه قد زَمن، وكان أوَّلاً يُقادُ إلى المسجد ثم صار يُحمَلُ، فمكَث سنةً

كذلك، ثم قال لهم: إني رأيتُ رسولَ الله ﷺ، وهو يقولُ: سيَرِدُ إلى هذه البلدة رجلٌ صالحٌ، يكونُ شفاؤك على يدَيه. فما كان عن قريب حتى كان الوقتُ الذي واعَده فيه الحلاّجُ، ودخَل الحلاّجُ البلدةَ مُختفيًا وعليه ثيابُ صوفٍ بيضٌ، فلزم ساريةً من المسجد يتعبَّدُ فيها، لا يَلتفتُ إلى أحدٍ، فابتدَر الناسُ إلى ذلك المتعامي المتزامن، فقيل له: قدم رجلٌ صالحٌ، فهَلُمَّ إليه. فحمَلوه حتى وضَعوه بينَ يدَيه، فكلَّمه، فعرَفه، فقال له: يا عبدَ الله، إني رأيتُ رسولَ الله ﷺ في المنام، وهو يقولُ لي كذا وكذا، فعسى أن يكونَ أنتَ إيّاه. فرفَع يدَيه ودعا اللهَ عزَّ وجلَّ، والناسُ حضورٌ متكاثرون ينظُرون ماذا يكونُ من أمره، ففتَح الرجلُ عينَيْه، وقام قائمًا على قدمَيْه، فضجَّ الناسُ، وعظَّموا الحلاّجَ تعظيمًا زائدًا، وليس ذلك بحقٍّ، فأقام عندهم مُدَّةً ثم خرَج من بين أظهرهم، وبقي ذلك الرجلُ عندَهم عدَة شهورٍ، ثم قال: إنَّ من نعمة الله عليَّ أن ردَّ عليَّ بصري، وشفاني، وينبغي أن أجاهدَ في سبيله بثَغْرِ طَرَسُوسَ. فعزَم على ذلك فجمَعوا له من بينهم مالاً جزيلاً؛ ألوفًا من الذهب والفضة، ثم ودَّعهم وودَّعوه، فذهَب إلى الحلاّج، فاقتسَما ذلك المالَ.

ورُوي عن بعضهم، قال: كنتُ أسمَعُ أنَّ الحلاّجَ له أحْوالٌ، فأحْبَبْتُ أن أختَبِرَه، فجئتُه فسلَّمْتُ عليه، فقال لي: تشَهَّ عليَّ الساعةَ شيئًا. فقلتُ: أشْتَهي سَمَكًا طريًّا. فدخَل منزلَه فغابَ ساعةً، ثم خرَج ومعه سمَكةٌ تضْطَرِبُ، ورِجْلاه عليهما الطِّينُ، فقال: دعوْتُ اللهَ، فأمَرني أن آتي البَطائحَ لآتيَك بهذه، فخُضْتُ الأهْوازَ، وهذا الطِّينُ منها. فقلتُ: إن شئْتَ أدْخلْتَني منْزلَك لأكشفَ أمرَك، فإن ظهَرتُ على شيءٍ وإلاَّ آمَنْتُ بك. فقال: ادْخُلْ. فدخَلْتُ فلم أجدْ في البيت مَنْفَذًا إلى غيره، فتحيَّرْتُ في أمْره ثم نظَرتُ؛ فإذا تازيرٌ، فكشَفتُه فإذا من ورائه بابٌ فدخلتُ، فخرجت منه إلى بُسْتانٍ هائلٍ، فيه من سائر الثِّمار الجديدة والمُعتَّقَة، قد أُحسن إبْقاؤها، وإذا أشياءُ كثيرةٌ مُعَدَّةٌ للأكْلِ، وإذا هناك بِرْكَةٌ كبيرةٌ فيها سمَكٌ كثيرٌ كبارٌ، فدخَلْتُها فأخرَجْتُ منها واحدةً، فنال رِجْلَيَّ من الطين كما نالَ رِجْلَيْه، وجئْتُ إلى الباب، فقلتُ له: افْتَحْ، فقد آمَنْتُ بك. فلمَّا خرَجْتُ ورآني على مثل حاله جرَى ورائي ليقتُلَني، فضربْتُه بالسَّمكة في وَجْهه، وقلتُ: يا عَدُوَّ الله أتْعبْتَني في هذا اليوم. ولمَّا خلَصْتُ منه لَقيَني بعدَ ذلك فضاحكَني، وقال: لا تُفْشِ هذا لأحدٍ أبعَثْ إليك مَن يقْتُلُك على فراشك. قال: فلم أحدِّثْ به أحدًا حتى صُلِب. وقد قال يومًا لرجلٍ: آمِنْ بي حتى أبعَثَ لك بعُصْفُورةٍ تأخُذُ من ذَرْقها وَزْنَ حبَّةٍ فتضَعُه على كذا وكذا رطلاً من نحاسٍ فيَصيرُ ذهبًا. فقالَ له الرجلُ: آمِنْ بي أنت حتى أبعَثَ إليك بفيلٍ إذا اسْتَلْقى على قَفاه بلَغَتْ قَوائمُه السماءَ، وإذا أرَدْتَ أن تُخْفيَه وضَعْتَه في إحدى عيْنَيْك. قال: فبُهِتَ وسكَت.

ولمَّا ورَد بَغدادَ جعلَ يدْعُو إلى نفسه ويُظهِرُ أشْياءَ من المَخاريق، وغيرها من الأحْوال الشَّيْطانية، وأكثرُ ما كان يروجُ على الرافضَة؛ لقلَّة عقولهم وضعف تَمْييزهم بينَ الحقِّ والباطل، فاسْتَدْعَى يومًا برئيس من الرَّافضة، فدَعاه إلى الإيمان به، فقال له الرجلُ: إنِّي رجلٌ أحبُّ النساءَ، وإني أصْلَعُ

الرأس، وقد شبتُ، فإن أنت أذهبتَ عنّي هذا وهذا آمنتُ أنّك الإمامُ المعصومُ، وإن شئتَ قلتُ: إنّك نبيٌّ، وإنْ شئتَ قلتُ: إنّكَ أنتَ اللهُ. قال: فبُهت الحلاّجُ ولم يُحرِ إليه جوابًا.

قال الشيخُ أبو الفرَج بنُ الجوزيِّ: كان الحلاّجُ مُتلوّنًا كثيرَ التلوُّن، تارةً يَلبَسُ المُسوحَ، وتارةً يلبَسُ الدُّرّاعَةَ، وتارةً يلبَسُ القَباءَ، وهو مع كلِّ قومٍ على مذهبِهم؛ إن كانوا أهلَ سُنّةٍ أو رافضةً أو مُعتزِلَةً أو غيرَ ذلك.

ولما أقام بالأهوازِ جعَل يُنفِقُ من دَراهمَ يُخرِجُها، يُسمّيها دَراهمَ القُدْرَة، فسُئل الشيخُ أبو عليٍّ الجُبّائيُّ عن ذلك، فقال: إنَّ هذا كلَّه ممّا يُنالُ بالحيلة، ولكنْ أدْخِلُوه بيْتًا لا مَنْفَذَ له، ثم سلُوه أن يخرجَ لكم جَوزتَين من شَوْك. فلمّا بلَغ الحلاّجَ كلامُ أبي عليٍّ الجُبّائيِّ فيه، تحوَّل من الأهواز.

قال الخطيبُ: أنبأنا إبراهيمُ بنُ مخلدٍ، أنبأنا إسماعيلُ بنُ عليٍّ الخُطَبيُّ في «تاريخه»، قال: وظهَر أمرُ رجلٍ يُعرَفُ بالحلاّج، يقالُ له: الحسينُ بنُ منصورٍ. وكان في حبسِ السلطانِ بسعايةٍ وقَعت به، وذلك في وزارةِ عليِّ بنِ عيسى الأولى، وذُكر عنه ضُروبٌ من الزَّندَقَة ووَضْعِ الحِيَلِ على تَضْليلِ الناسِ، من جهاتِ تُشبهُ الشَّعْوذَةَ والسحرَ، وادِّعاءَ النُّبوَّة، فكشَفه عليُّ بنُ عيسى عندَ قبْضِه عليه، وانتهى خبرُه إلى السلْطانِ - يعْني المقتدرَ بالله - فلم يُقِرَّ بما رُمِي به من ذلك، فعاقَبه وصلَبه حيًّا أيامًا مُتواليةً في رَحْبَة الجسْرِ، في كلِّ يومٍ غُدْوَةً، ويُنادَى عليه بما ذُكِر عنه، ثم يُنزَلُ به ثم يحبَسُ، فأقامَ في الحبسِ سنينَ كثيرةً؛ يُنقَلُ من حبسٍ إلى حبسٍ، حتى حُبِس بأَخَرَةٍ في دارِ السلْطان، فاسْتَغْوَى جماعةً من غِلْمانِ السلْطان، وموَّهَ عليهم، واستمالَهم بضُروبٍ من حِيَلِه، حتى صاروا يحْمُونَه ويدْفَعُونَ عنه ويُرَفِّهُونَه، ثم راسَل جماعةً من الكُتّاب وغيرِهم ببغدادَ وغيرِها، فاستَجابوا له وتراقَى به الأمرُ حتى ذُكر أنّه ادَّعَى الرُّبوبيَّةَ، وسُعِي بجماعةٍ من أصحابِه إلى السلْطانِ فقُبِض عليهم، ووُجِد عندَ بعضِهم كتبٌ تدلُّ على تصْديقِ ما ذُكِر عنه، وأقرَّ بعضُهم بلسانه بذلك، وانتَشرَ خبرُه وتكلَّم الناسُ في قتْله، فأمَر أميرُ المؤمنين بتَسْليمه إلى حامدِ بنِ العباسِ، وأمَر أن يكْشفَه بحضْرَةِ القضاة، ويجمَعَ بينَه وبينَ أصحابِه، فجرَى في ذلك خُطوبٌ طِوالٌ، ثم استيقَن السلطانُ أمرَه ووَقَف على ما ذُكِر له عنه، فأمَر بقتْله وإحْراقه بالنار، فأُحْضر مجلسَ الشرطة بالجانبِ الغربيِّ يومَ الثلاثاء لسبعٍ بَقِينَ من ذي القَعْدَة سنةَ تسعٍ وثَلاثمائة، فضُرِب بالسِّياط نحْوًا من ألفِ سوطٍ، وقُطعتْ يداه ورجْلاه، وضُربتْ عنُقُه، وأُحْرِقَتْ جثّتُه بالنار، ونُصِب رأسُه للناسِ على سورِ الجِسْر الجديد، وعُلِّقَتْ يداه ورجْلاه إلى جانبِ رأسه.

وقال أبو عبد الرحمن محمدُ بنُ الحسين السُّلَميُّ: سمعتُ إبراهيمَ بنَ محمدٍ الواعظَ يقولُ: قال أبو القاسم الرّازيُّ: قال أبو بكرِ بنُ مُمْشاذ: حضَر عندَنا بالدِّيْنَوَر رجلٌ ومعه مِخْلاةٌ، فما كان يفارِقُها بالليلِ ولا بالنهار، ففَتَّشُوا المِخلاةَ فوجَدُوا فيها كتابًا للحَلاّجِ عنوانُه: من الرحمنِ الرحيم إلى فُلانِ ابنِ فلانٍ. فبُعِثَ به إلى بغدادَ، فسُئِل الحَلاّجُ عن ذلك فأقرَّ أنَّه كتَبه فقالُوا له: كنتَ تدَّعي النبوةَ،

فصرْتَ تدَّعي الألوهيَّةَ والرُّبوبيَّةَ؟! فقال: لا، ولكنْ هذا عَيْنُ الجمعِ عندَنا، هل الكاتبُ إلاَّ اللهُ، وأنا واليَدُ آلَةٌ؟ فقيلَ له: معك على هذا أحدٌ؟ قال: نعم؛ ابنُ عطاءٍ وأبو محمدٍ الجريريُّ وأبو بكر الشِّبْليُّ. فسُئل الجريريُّ عن ذلك، فقال: مَن يقولُ بهذا كافرٌ. وسُئل الشبليُّ عن ذلك فقال: مَن يقولُ بهذا يُمنَعُ. وسُئل ابنُ عطاءٍ عن ذلك فقال بقولِ الحَلاَّجِ في ذلك، فعُوقبَ حتى كان سببَ هلاكِه.

ثم روى أبو عبدِ الرحمنِ السُّلَميُّ، عن محمدِ بنِ عبدِ الله الرَّازيِّ أنَّ الوزيرَ حامدَ بنَ العباسِ لمَّا حضَرَ الحَلاَّجُ سألَه عن اعْتقادِه، فأقَرَّ به، فكتَبه، فسأل عن ذلك فقهاءَ بغدادَ، فأنْكَروا ذلك، وقيل للوزيرِ: إنَّ أبا العباسِ بنَ عَطَاءٍ يقولُ بهذا. فطلَبه إلى منزلِه، وجاءَ فجلَس في صدْرِ المجلسِ، وسأله عن ذلك فقال: مَن لا يقولُ بهذا فهو بلا اعْتقادٍ. فقال له الوزيرُ: وَيْحَكَ تُصَوِّبُ مثلَ هذا الاعْتقادِ؟ فقالَ: ما لَكَ ولهذا، عليكَ بما نُصِّبْتَ له من أخْذِ أمْوالِ الناسِ وظُلْمِهم وقتْلِهم، فما لَكَ ولكَلامِ هؤلاءِ السادَةِ؟ فأمَر الوزيرُ بضَرْبِ شِدْقَيْه ونَزْعِ خُفَّيْه وأن يُضْرَبَ بهما على رأسِه، فمازالَ يُفْعَلُ ذلك به حتى سالَ الدمُ من مَنْخِرَيْه، وأمَر بسَجْنِه، فقيل له: أيها الوزيرُ، إنَّ العامَّةَ تتشوَّشُ بهذا. فحُمِلَ إلى منزلِه، فقال ابنُ عطاءٍ: اللَّهُمَّ اقْتُلْه أخبثَ قِتْلَةٍ، واقْطَعْ يدَيْه ورِجْلَيْه. فماتَ ابنُ عَطاءٍ بعدَ سبعةِ أيامٍ، وقُتِل الوزيرُ بعدَ ذلك شرَّ قِتلةٍ، وقُطِعَتْ يَداه ورِجْلاه وأُحْرِقَتْ دارُه. وقد اتَّفَق عُلَماءُ بغدادَ على كفرِ الحلاجِ وزَنْدَقَتِه، وأجْمَعُوا على قتْلِه وصلْبِه.

قال أبو بكرٍ محمدُ بنُ داودَ الظَّاهريُّ: حينَ أُحْضِرَ الحَلاَّجُ في المرةِ الأُولَى قبلَ وفاةِ أبي بكرٍ، وسُئل عنه، فقال: إن كان ما أنزَل اللهُ على نبيِّه ﷺ حقًّا، وما جاء به حقًّا، فما يقولُه الحلاَّجُ باطِلٌ. وكان شديدًا عليه.

وقال أبو بكرٍ الصُّوليُّ: قد رأيْتُ الحلاَّجَ وخاطَبْتُه، فرأيْتُه جاهلاً يتعاقَلُ، وغَبِيًّا يتبالَغُ، وفاجِرًا يَتعبَّدُ.

ولمَّا صُلب في أوَّلِ مرَّةٍ ونُودي عليه أربعةَ أيامٍ سمِعَه بعضُهم، وقد جيءَ به ليُصْلَبَ وهو راكبٌ على بقَرَةٍ، يقولُ: ما أنا بالحلاَّجِ، ولكنْ أُلْقِي عليَّ شَبَهُه وغابَ. فلمَّا أُدْنِيَ إلى الخَشَبَةِ ليُصْلَبَ عليها، سمِعْتُه يقولُ: يا مُعِينَ الضنَّا عليَّ أعِنِّي على الضَّنَا. وقال بعضُهم: سمِعْتُه وهو مصلوبٌ يقولُ: إلَهي، أصبحتُ في دارِ الرَّغائبِ، أنْظُرُ إلى العجائبِ، إلَهي، إنكَ تتَودَّدُ إلى مَن يُؤْذيكَ، فكيف بمَن يُؤْذَى فيك.

ذكر صفة مقتل الحلاج

قال الخطيبُ البغداديُّ وغيرُه: كان الحلاَّجُ قد قَدِم آخرَ قَدْمَةٍ إلى بغدادَ، فصَحِب الصوفيَّةَ وانتَسَب إليهم، وكان الوزيرُ إذْ ذاك حامدَ بنَ العباسِ، فبَلغَه أنَّ الحلاَّجَ قد أضَلَّ خلْقًا من الحشَمِ والحُجَّابِ في دارِ السلْطانِ، ومن غِلْمانِ نَصْرٍ القُشُوريِّ الحاجبِ، وزعَم لهم أنه يُحْيِي الموْتَى، وأنَّ الجِنَّ

يخدمونَه، ويُحضرونَ له ما يَختارُه ويشتَهيه. وقال: إنَّه قد أحْيا عدَّةً من الطير. وذُكِرَ لعليِّ بنِ عيسَىٰ أنَّ رجلاً يقالُ له: محمدُ بنُ عليٍّ القُنَّائيُّ الكاتبُ يعْبدُ الحلاَّجَ ويدعُو الناسَ إلى ذلك فطلَبه، وكبَس منْزلَه فأقرَّ أنَّه من أصْحاب الحلاَّجِ، ووجَد في منْزله أشْياءَ بخطِّ الحلاَّجِ مُكتَتَبةً بماء الذهب في ورَقِ الحرير، مُجلَّدةً بأفْخر الجلُود، ووجَد عندَه سَفَطًا فيه من رَجيع الحلاَّجِ وبَوْله، وأشياءَ من آثاره، وبقيةِ خُبْزٍ من زاده، فطلَبَ الوزيرُ من الخليفة المُقْتَدر أنْ يتكلَّم في أمر الحلاَّج، ففَوَّضَ أمْرَه إليه، فاستَدْعَىٰ بجماعةٍ من أصْحاب الحلاَّجِ فتَهدَّدَهم، فاعْترَفُوا له أنَّه قد صحَّ عندَهم أنَّه إلهٌ، وأنَّه يُحْيي الموتَىٰ، وأنَّهم كاشَفُوا الحلاَّجَ بذلك فجحَد وكذَّبَهم، وقال: أعوذُ بالله أنْ أدَّعيَ الرُّبوبيَّةَ أو النُّبوَّةَ، وإنَّما أنا رجلٌ أعبُدُ اللهَ وأُكثرُ الصومَ والصلاةَ وفعلَ الخير، ولا أعرفُ غيرَ ذلك. وجعَل لا يَزيدُ علىٰ الشَّهادتَيْنِ والتَّوْحيد، ويُكثِرُ أنْ يقولَ: سُبْحانَكَ لا إلَهَ إلاَّ أنتَ، عمِلتُ سُوءًا وظلَمْتُ نفْسي، فاغْفرْ لي إنَّه لا يغفرُ الذنوبَ إلاَّ أنتَ. وكانت عليه مِدْرَعَةٌ سَوْداءُ، وفي رِجْلَيْه ثلاثةَ عشَرَ قَيْدًا، وهي واصلةٌ إلى رُكْبَتَيْه، وكان مع ذلك يُصلِّي في كلِّ يومٍ وليلةٍ ألفَ ركعة.

وكان قبلَ احْتياطِ الوزيرِ حامدِ بنِ العباسِ عليه في حُجْرةٍ من دارِ نَصْرٍ القُشُوريِّ الحاجب مأذُونًا لمَنْ يدخلُ إليه، وكان يُسمِّي نفْسَه تارةً بالحسينِ بنِ منْصورٍ، وتارةً محمدَ بنَ أحمدَ الفارسيَّ، وكان نَصْرٌ الحاجب قد افْتُتِن به، وظَنَّ أنَّه رجلٌ صالحٌ، وكان قد أدْخَله علىٰ المُقْتَدرِ بالله فرَقَاه من وجَعٍ حصَل له فاتَّفَق زَوالُه، وكذلكَ وقَع لوالدته السيدةِ أمِّ المقتدرِ فزالَتْ علَّتُها، فنفَق سُوقُه وحَظِيَ في دارِ السلْطان، فلمَّا انْتشَر الكلامُ فيه سُلِّمَ إلى الوزيرِ حامدِ بنِ العباس، فحبَسه في قُيودٍ كثيرةٍ في رِجْلَيه، وجمَع له الفُقهاءَ، فأجْمَعُوا علىٰ كُفْره وزَنْدَقَته، وأنَّه ساحرٌ مُمَخْرِقٌ. ورجَع رَجُلان صالحانِ ممَّن كان اتَّبَعه؛ أحدُهما أبو عليٍّ هارُونُ بنُ عبدِ العزيزِ الأوراجيُّ، والآخَرُ يقالُ له: الدبَّاسُ. فذكَرا من فَضائحه وما كان يدعُو إليه الناسَ من الكَذِب والفُجورِ والمَخْرَقةِ والسحرِ شيئًا كثيرًا، وكذلك أُحْضِرَتْ زوجةُ ابنه سليمانَ، فذكَرتْ عنه فَضائحَ كثيرةً؛ من ذلك أنَّه أرادَ أنْ يغْشاها، وهي نائمةٌ فانْتَبهتْ، فقال: قُومي إلى الصلاة. وإنَّما كان يريدُ أنْ يطأَها، وأمَرتها ابنتُه بالسجودِ له، فقالت: أوَ يَسْجُدُ بشرٌ لبشرٍ؟ فقال: نَعَمْ، إلَهٌ في السماء وإلَهٌ في الأرضِ. ثم أمَرها أن تأخُذَ من تحت بارِيَةٍ هُنالك ما أحبَّتْ، فوجَدتْ تحتَها دَنانيرَ كثيرةً مَبْذُورةً.

ولمَّا كان مُعْتَقَلاً في دارِ حامدِ بنِ العباسِ دخَل عليه بعضُ الغلْمان ومعه طبَقٌ فيه طعامٌ ليأكُلَ منه، فوجَده قدمَلأ البيتَ من سَقْفه إلى أرْضه، فذُعِر ذلك الغلامُ، وألقَىٰ ما كانَ في يَده من ذلك الطبقِ والطعامِ، ورجَع محْمُومًا فمرضَ عدةَ أيام.

ولمَّا كان آخرُ مجلسٍ أُحْضِر القاضي أبو عمرَ محمدُ بنُ يُوسُفَ، وجيءَ بالحلاَّجِ وقد أُحْضِرَ له كتابٌ من دُورِ بعضِ أصْحابِه وفيه: مَن أرادَ الحجَّ ولم يتَيَسَّرْ له فَلْيبْنِ في داره بَيْتًا لا ينالُه شيءٌ من النَّجاسَةِ، ولا يُمكِّنْ أحدًا من دخُوله، فإذا كان في أيام الحجِّ فَلْيَصُمْ ثلاثةَ أيامٍ ولْيَطُفْ به كما يُطافُ

بالكَعْبَةِ، ثم يفْعَلُ في دارِه ما يفعَلُ الحَجيجُ بمكَّةَ، ثم يستَدعِي بثلاثين يَتيمًا فيُطْعِمُهم من طعامِه، ويتولّىٰ خِدْمتَهم بنفْسه، ثم يكسُوهم قميصًا قميصًا، ويُعْطِي كلَّ واحدٍ منهم سبعةَ دراهِمَ - أو قال: ثلاثةَ دراهِمَ - فإذا فعَل ذلك قامَ له مَقامَ الحجِّ، وإنَّ مَن صامَ ثلاثةَ أيامٍ لا يُفطِرُ إلاَّ في اليومِ الرابعِ علىٰ وَرَقاتِ هِنْدَبًا أجزَأه ذلك عن صيامِ رمضانَ، ومَن صلَّىٰ في ليلةٍ ركعتَين من أوَّلِ الليلِ إلىٰ آخرِه أجزَأه ذلك عن الصلاة بعدَ ذلك، وأنَّ مَن جاوَر بمقابرِ الشُّهداءِ بمقابرِ قُريْشٍ عشَرةَ أيامٍ يُصلِّي ويدْعُو ويصومُ، ثم لا يُفطِرُ إلاَّ علىٰ شيءٍ من خُبْزِ الشَّعيرِ والمِلْحِ الجَريشِ، أغْناه ذلك عن العبادَةِ في بَقيَّةِ عُمُرِه. فقالَ له القاضي أبو عمرَ: مِن أينَ لك هذا؟ فقال: مِن كتابِ «الإخلاصِ» للحَسَنِ البصْريِّ. فقال له: كذَبْتَ يا حَلاَلَ الدمِ، قد سمِعْنا كتابَ «الإخْلاصِ» للحسَنِ بمكَّةَ، ليس فيه شيءٌ من هذا. فأقبلَ الوزيرُ حامدُ بنُ العباسِ علىٰ القاضي أبي عمرَ فقالَ له: قد قلْتَ يا حَلالَ الدمِ، فاكتُبْ ذلك في هذه الورَقةِ، وألَحَّ عليه وقدَّم له الدَّوَاةَ، فكتَب ذلك في تلك الورَقةِ، وكتَب من حضَر خُطوطَهم فيها، وأنْفَذَها الوزيرُ إلىٰ المقتدرِ، وجعَل الحلاَّجُ يقولُ لهم: ظَهْرِي حِمًىٰ، ودَمِي حَرامٌ، وما يحِلُّ لكم أنْ تتَأوَّلوا عليَّ، واعْتِقادِي الإسْلامُ، ومذْهَبِي السُّنَّةُ، وتفْضِيلُ أبي بكرٍ وعمرَ وعُثْمانَ وعليٍّ وطَلْحَةَ والزُّبيْرِ وسَعْدٍ وسعيدٍ وعبدِ الرحمنِ بنِ عَوْفٍ وأبي عُبَيْدَةَ بنِ الجَرَّاحِ، ولي كتُبٌ في السُّنَّةِ موجودَةٌ في الورّاقين، فاللهَ اللهَ في دَمِي. فلا يلْتَفِتُونَ إلىٰ شيءٍ ممَّا يقولُ، وجعَل يكرِّرُ ذلك وهم يكْتُبونَ خُطُوطَهم بما كان مِن الأمْرِ، ورُدَّ الحلاَّجُ إلىٰ مَحْبسِه، وتأخَّرَ جوابُ المقتدرِ ثلاثةَ أيامٍ حتىٰ ساءَ ظَنُّ الوزيرِ حامدِ بنِ العباسِ، فكتَبَ إلىٰ الخليفةِ يقولُ: إنَّ أمْرَ الحلاَّجِ قد اشْتُهرَ، ولم يخْتَلِفْ فيه اثْنانِ، وقد افْتُتِنَ كثيرٌ مِنَ الناسِ به. فجاءَ الجوابُ بأنْ يُسلَّمَ إلىٰ محمدِ بنِ عبدِ الصمَدِ صاحبِ الشرطةِ، فلْيَضْرِبْه ألْفَ سَوْطٍ، فإنْ ماتَ وإلاَّ ضُرِبتْ عنُقُه. ففرِحَ الوزيرُ بذلك وطلَب صاحبَ الشرطةِ فسلَّمه إليه، وبعَث معه طائفةً من غلْمانِه يُوَصِّلونه معَه إلىٰ مَحَلِّ الشرطةِ من الجانبِ الغربيِّ خوفًا مِن أنْ يُسْتَنْقَذَ مِن أيْديهم، وذلك بعدَ عِشاءِ الآخرةِ في ليْلةِ الثلاثاءِ لستٍّ بَقِينَ من ذي القَعْدَةِ من هذه السَّنَةِ، وركِب علىٰ بَغْلٍ عليه إكافٌ وحولَه جماعةٌ من السُّيّاسَةِ، علىٰ مثلِ شَكْلِه، فاسْتَقَرَّ مُنْزَلُه بدارِ الشرطةِ في هذه الليلةِ، فذُكِر أنَّه باتَ يُصلِّي في هذه الليلةِ ويدْعُو دعاءً كثيرًا.

قال أبو عبدِ الرحمنِ السُّلَميُّ: سمعتُ أبا بكرٍ الشَّاشِيَّ يقولُ: قالَ أبو الحديدِ - يعْنِي المِصْريَّ - لمَّا كانت الليلةُ التي قُتِلَ في صبيحَتِها الحسينُ بنُ منصورٍ، قام مِن الليلِ فصلَّىٰ ما شاءَ اللهُ، فلمَّا كان آخرُ الليلِ قامَ قائمًا فتغَطَّىٰ بكسائه ومدَّ يدَه نحوَ القِبْلَةِ فتكلَّمَ بكلامٍ جائزِ الحفْظِ، فكانَ ممَّا حفِظْتُ أنْ قال: نحنُ شَواهدُكَ فلوْ دلَّتْنا عِزَّتُك لتَبدَّىٰ ما شئْتَ من شأْنِكَ ومَشيئَتِكَ، وأنتَ الذي في السماءِ إلَهٌ وفي الأرْضِ إلَهٌ، تَتجلَّىٰ لمَا تَشاء مثلَ تجَلِّيكَ في مَشيئَتِكَ كأحْسَنِ الصورةِ، والصورةُ فيها الرُّوحُ الناطقَةُ بالعلمِ والبيانِ والقُدْرَةِ، ثُمَّ أوْعَزْتَ إليَّ شاهدَكَ؛ لأنِّي في ذَاتِكَ الهُوِيّ. كيفَ أنتَ إذَا مَثَلْتَ بذاتِي عندَ عَقيبِ كَراتِي، ودَعَوْتَ إلىٰ ذاتِي بذاتِي، وأبْدَيْتَ حقَائقَ علُومِي ومُعْجِزاتِي، صاعِدًا في

مَعارِجي إلى عُروشِ أزليَّاتي عندَ القولِ من بَريَّاتي، إنِّي احتُضِرتُ وقُتِلتُ وصُلِبتُ وأُحرِقتُ واحتملتُ سَافيَاتي الذَّاريات. ولجَجْتُ في الجَاريَاتِ، وإنَّ ذرَّةً من ينجوج مكانَ هالُوكِ مُتَجلِّياتي، لأعْظَمُ من الرَّاسيات. ثم أنشأ يقولُ:

أنعَى إليْك نفُوسًا طاحَ شاهدُها	فيما ورا الحَيْث أوْ في شاهد القدَم
أنعَى إليك قلُوبًا طالما هطلَتْ	سَحائبُ الوَحْيِ فيها أبحُرُ الحِكَم
أنعَى إليكَ لسانَ الحقِّ منكَ ومَن	أودَى وتَذْكارُه في الوهم كالعدم
أنعَى إليكَ بَيانًا تَستكينُ لهُ	أقوالُ كلِّ فَصيحٍ مِقْولٍ فَهِمِ
أنعَى إليكَ إشاراتِ العقُولِ معًا	لم يَبقَ منهنَّ إلاَّ دارسُ العَلَمِ
أنعَى وحبِّكَ أخلاقًا لطائفةٍ	كانتْ مطايَاهُمُ من مَكْمَدِ الكظَمِ
مضَى الجميعُ فلا عَينٌ ولا أثرٌ	مُضيَّ عادٍ وفُقدانَ الألَى إرَمِ
وخلَّفُوا معْشرًا يحذُونَ لبْستَهمْ	أعْمَى مِن البَهْمِ بلْ أعْمَى من النَّعَمِ

وقالوا: ولما أخرج الحلاج من المنزل الذي بات فيه ليذهب إلى القتل أنشد:

طلَبْتُ المُستقَرَّ بكلِّ أرضٍ	فلمْ أرَ لي بأرضٍ مُستقَرًّا
أطَعْتُ مَطامِعي فاستَعْبَدتْني	ولو أنِّي قنَعْتُ لعِشْتُ حُرًّا

وقيل: إنَّه قالها حينَ قُدِّمَ إلى الجِذْعِ ليُصْلَبَ عليه. والمشهورُ ما ذكَرْنا. ثم مشَى وهو يتَبَخْتَرُ في مِشْيَتِه، وفي رِجْلَيْه ثلاثةَ عشرَ قيْدًا وجعَل يُنشِدُ ويتمايلُ:

نَديمي غيرُ مَنْسُوبٍ	إلى شيءٍ مِنَ الحَيْفِ
سقَاني مثْلَ ما يشْرَ	بُ فِعلَ الضيفِ بالضيفِ
فلمَّا دارَتِ الكأسُ	دعَا بالنِّطْعِ والسَّيْفَ
كذا مَن يشْرَبُ الرَّاحَ	مع التِّنِّينِ في الصَّيفِ

ثم قال: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨]. ثم ما نطَق بعدَ ذلك حتى فُعِل به ما فُعِل.

قالُوا: ثم قُدِّمَ فضُرب ألفَ سَوْطٍ، ثم قُطعتْ يدَاه ورِجْلاه وهو في ذلك كلِّه ساكتٌ ما نطقَ بكلمةٍ، ولم يتغَيَّرْ لَوْنُه، ويقالُ: إنَّه جعَل يقولُ مع كلِّ سوطٍ: أحَدٌ أحدٌ.

وقال أبو عبد الرحمن: سمعْتُ عبدَ الله بنَ عليٍّ يقولُ: سمعتُ عيسَى القَصَّارَ يقولُ: آخرُ كلمةٍ تكلَّم بها الحلاّجُ حينَ قُتِل أنْ قالَ: حَسْبُ الواحدِ إفرادُ الواحدِ له. فما سمعَ بهذه الكلمةِ أحَدٌ من المشايخ إلاَّ رَقَّ له، واستَحْسَن هذا الكلامَ منه.

وقال السُّلَمي: سمعتُ أبا بكرٍ البَجَليَّ يقولُ: سمِعتُ أبا الفَاتِكِ البَغْدَاديَّ - وكان صاحبَ الحلاَّجِ -

قال: رأيتُ في النوم، بعدَ ثلاثٍ من قتلِ الحلاَّج، كأنِّي واقفٌ بينَ يَدَيْ ربِّي عزّ وجلَّ أقولُ: يا ربِّ، ما فعَل الحسينُ بنُ منصُورٍ؟ فقال: كاشَفْتُه بمعنًى، فدَعا الخَلْقَ إلىٰ نفسِه، فأنزَلْتُ به ما رأيْتَ.

ومنهم مَن قال: بل جَزِعَ عندَ ذلك جَزَعًا شديدًا وبكَىٰ بُكاءً كثيرًا. فاللهُ أعلمُ.

وقال الخطيبُ: ثَنا عبيدُ الله بنُ أحمدَ بنِ عثمانَ الصَّيْرَفيُّ، قال: قال لنا أبو عمرَ بنُ حَيَوَيْه: لَمَّا أُخرِجَ الحسينُ الحلاَّجُ لِيُقتَلَ مضَيْتُ في جملةِ الناسِ، ولم أزَلْ أُزاحِمُ حتىٰ رأَيْتُه، فقالَ لأصْحابِه: لا يَهُولَنَّكُم هذا، فإنِّي عائدٌ إلَيْكُم بعدَ ثلاثينَ يومًا. ثم قُتِلَ.

وذكَرَ الخطيبُ أنَّه قال وهو يُضرَبُ لمحمد بنِ عبدِ الصَّمدِ والي الشرطة: ادْفع بي إليكَ فإنَّ عندي نَصيحةً تَعْدِلُ فتحَ القُسْطَنْطينيَّة. فقال له: قد قيلَ لي إنَّكَ ستقولُ مثلَ هذا، وليسَ إلىٰ رَفْعِ الضربِ عنكَ سبيلٌ. ثم قُطعتْ يدَاه ورِجْلاه وحُزَّ رأسُه وأُحْرِقَتْ جثَّتُه وأُلْقِي برَمادِها في دِجْلَةَ، ونُصِبَ الرأسُ يومينِ ببَغْدادَ على الجسرِ، ثم حُمِلَ إلىٰ خُرَاسَانَ وطِيفَ به في تلك النَّواحِي، وجَعلَ أصْحابُه يَعِدُونَ أنفسَهم برُجوعِه إليهم بعدَ أربعينَ يومًا.

وزَعَم بعضُهم أنَّه رأىٰ الحلاَّجَ من آخرِ ذلكَ اليومِ وهو راكبٌ علىٰ حمارٍ في طريقِ النَّهْرَوانِ، فقال: لعَلَّكَ من هؤلاءِ البَقرِ الذينَ ظنُّوا أنِّي أنا هو المَضْروبُ المقتولُ! إنِّي لسْتُ به، وإنَّما أُلْقِي شَبَهِي علىٰ رجلٍ، ففُعِلَ به ما رأيْتُم. فكانوا بجَهْلِهم يقُولُونَ: إنَّما قُتِل عدوٌّ من أعداءِ الحلاَّجِ. وقال بعضُ علماءِ ذلك الزمانِ: إنْ كانَ هذا الرأيُ صادقًا فلعل دابةً - يعني من الشياطين - تبدَّىٰ علىٰ صورتِه ليُضِلَّ به الناسَ، كما ضلَّتْ فرقةُ النَّصارَىٰ بالمصْلُوبِ.

قال الخطيبُ: واتَّفَقَ أنَّ دجْلَةَ زادَتْ في هذا العامِ زيادةً كثيرةً، فقالوا: إنَّما زادت لأنَّ رَمادَ الحلاَّجِ خالَطَها. ونُودي ببَغْدادَ ألاَّ يشتري أحَدٌ من كتبِ الحلاَّجِ شيئًا ولا يبيعَه. وكان قَتْلُ الحلاَّجِ في يومِ الثلاثاءِ لستٍّ بَقِينَ من ذي القَعدةِ من سنة تسع وثلاثمائة ببغْدادَ. وذكَره القاضي ابنُ خَلِّكانَ في «الوفيات» وحكَىٰ اخْتلافَ الناسِ فيه، ونقلَ عن الغَزاليِّ في «مشْكَاة الأنوار» أنه كان يتأوَّلُ كلامَه ويحملُه علىٰ ما يليقُ، ثم نقَل عن إمامِ الحَرَمَيْنِ أنَّه كان يذُمُّه، ويقولُ: إنَّه اتفق هو والجَنَّابيُّ وابنُ المُقَفَّعِ علىٰ إفْسادِ عقائدِ الناسِ، وتفرقوا في البلادِ، فكانَ الجَنّابيُّ في هَجَرَ والبَحْرَيْنِ، وابنُ المُقَفعِ ببلادِ التركِ، ودخَلَ الحلاَّجُ العراقَ، فحكَم صاحباه عليه بالهَلَكَة لعدم انخداع أهلِ العراقِ بالباطلِ.

قال القاضي ابنُ خَلِّكان: وهذا لا ينْتَظِمُ؛ فإنَّ ابنَ المُقَفَّعِ كان قبلَ الحلاَّجِ بدَهْرٍ، فإنه كان في أيامِ السَّفَّاحِ والمَنْصُورِ، وماتَ سنَةَ خَمْسٍ وأرْبعينَ ومائةٍ أو قبلَها، ولعَلَّ إمامَ الحرَمَيْنِ أرادَ ابنَ المُقَنَّعِ الخُراسانيَّ الذي ادَّعَىٰ الرُّبُوبيَّة، وأدنىٰ القمرَ، واسْمُه عَطاءٌ، وقد قتَلَ نفْسَه بالسُّمِّ في سنَة ثلاثٍ وستِّينَ ومائةٍ، ولا يُمكِنُ اجْتماعُه مع الحلاَّجِ، وإذا أرَدْنا أن نُصحِّحَ كلامَ إمامِ الحرمَيْنِ ونذكُرَ ثلاثةً قد اجْتَمَعُوا في وقتٍ علىٰ ما ذكَرَ، فيكونُ أراد بذلك الحلاَّجَ، وابنَ الشَّلْمغَانيِّ - يعْني أبا جَعْفرٍ محمدَ بنَ عليٍّ - والقرمطيَّ الجَنَّابيَّ، وهو أبو طاهرٍ سليمانُ بنُ أبي سعيدٍ الحسنِ بنِ بَهرامَ الذي قتَل الحُجَّاجَ،

وأخذ الحجرَ وردَمَ زَمْزَمَ بالقَتْلَىٰ ونهب أستارَ الكعبةِ، كما سيأتي ذلك مبسوطًا، ذكَره القاضي مُلَخَّصًا ههنا.

وممَّن تُوفِّي في هذه السنة من الأعيان:

أبو العبَّاس بنُ عَطاء، أحَدُ أئمَّة الصُّوفيَّة، هو أحمدُ بنُ محمدِ بنِ عَطاء الأدَميُّ. حدَّث عن يُوسُفَ ابنِ موسىٰ القَطَّان، والفَضلِ بنِ زِيادٍ وغيرِهما. وكان يقرأُ في كلِّ يومٍ خَتْمَةً، وفي شهرِ رمضانَ يقرأُ في كلِّ يومٍ وليلةٍ ثلاثَ خَتَماتٍ، وكانت له ختمةٌ يتَدبَّرُ فيها معانيَ القرآن، يتلوها من سبعَ عشْرَةَ سنةً وماتَ ولم يختمْها، وهذا الرجلُ كان قد اشتَبَه عليه أمرُ الحلاَّج وأظْهَرَ موافقتَه، فعاقبه الوزيرُ حامدُ ابنُ العباسِ بالضربِ على شِدْقَيْه، وأمَر بنَزْعِ خُفَّيْه وضربه بهما على رأسه حتى سالَ الدمُ من مَنْخِرَيْه، ومات بعدَ سبعةِ أيامٍ من ذلك، وكان قد دَعَا على الوزيرِ بأنْ تُقْطَعَ يدَاه ورجْلاه ويُقْتَل شرَّ قتلةٍ. فما مات الوزيرُ إلا كذلكَ.

وأبو إسْحاقَ إبراهيمَ بنُ هارونَ الطبيبُ الحَرَّانيُّ. وأبو محمدٍ عبدُ الله بنُ حَمْدُونَ النديمُ.

ثم دخلت سنة عشر وثلاثمائة

فيها أُطْلِقَ يُوسُفُ بنُ أبي السَّاجِ مِنَ الضيقِ، وكان مُعْتَقلاً، ورُدَّتْ إليه أمْوالُه وأُعيدَ إلى عمله وأُضيف إليه بُلْدانٌ أُخْرَىٰ، ووُظِّفَ عليه في كلِّ سنَةٍ خمْسُمائةِ ألفِ دينارٍ يحمِلُها إلى الحَضْرةِ، فبعَثَ حينئذٍ إلى مؤنسٍ الخادمِ يطْلُبُ منه أبا بكرٍ بنَ الآدميِّ القارئَ، وكان قد قرأ بينَ يدَيْه حينَ اعْتُقِلَ وأُشْهِر في سنَةِ إحْدىٰ وسبعين ومائتين: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]. فخافَ القارئُ سطوَتَه واستَعْفَىٰ من مُؤْنسٍ الخادمِ، فقالَ له مُؤْنسٌ: اذْهَبْ وأنا شَريكُكَ في الجائزة. فلمَّا دخَل عليه قرأ بينَ يدَيه: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٤]. فقالَ: بل أُحِبُّ أنْ تقرأَ ذلكَ العشرَ الذي قرأتَه عندَ إشْهاري؛ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ فإنَّ ذلك كان سببَ تَوْبَتي إلى الله عزَّ وجلَّ، وكان ذلك على يديْكَ. ثم أمَر له بمالٍ جزيلٍ وأحْسَنَ إليه.

وفيها مرِضَ عليُّ بنُ عيسىٰ الوزيرُ، فجاءَه هارُونُ بنُ المقتدرِ؛ ليَعُودَه فبسَطَ له الطريقَ، فلَما اقْتَرَب مِن دارِه تحامَل وخرَج إليه فبلَّغَه سلامَ الخليفة، وجاء مُؤْنسٌ الخادمُ معه، ثم جاءَ الخَبرُ بأنَّ الخليفةَ قد عزَم على عيادَته، فاسْتَعْفَىٰ مِن مؤنسٍ الخادم، وركِب على جهدٍ عظيمٍ حتى سلَّم على الخليفة؛ حتى لا يكلِّفَه الركوبَ إليه. وفي هذه السنةِ قُبض على القَهْرَمانَة أمِّ موسَىٰ، ومَن ينتَسب إليها، فكان حاصلُ ما حُمِلَ إلى بيت المال من جِهَتِها ألفَ ألفِ دينارٍ. وفي يوم الخميسِ لعَشْرٍ بَقِينَ مِن ربيعٍ الآخرِ ولَّى المقتدرُ منْصِبَ القَضاء أبا الحُسَيْنِ عمرَ بنَ الحسين بن عليٍّ الشَّيْبانيَّ المعْروفَ بابنِ الأُشْنانيِّ، وكان من حُفَّاظِ الحديثِ وفُقهاءِ الناسِ، ولكنَّه عُزِل بعدَ ثلاثةِ أيامٍ، وكان قبلَ ذلك

مُحْتسبًا ببَغْدادَ. وفيها عُزل محمدُ بنُ عبد الصمد عن شرطة بَغْدادَ ووليَها نازوكُ وخُلعَ عليه.

وفي جُمادَىٰ الآخرة ظَهر كوكَبٌ له ذَنَبٌ طولُه ذراعان، وذلك في بُرج السُّنْبُلَة. وفي هذه السنة في شعبانَ منها وصلَتْ هَدايا نائب مصرَ؛ وهو الحُسَيْن بنُ الماذَرائيُّ، وفيها بَغْلةٌ معها فَلُوُّها، وغلامٌ يصلُ لسانُه إلىٰ طرَف أنفه. وفي هذا الشهر قُرئت الكتبُ علىٰ المنابر بما كان منَ الفُتوح ببلاد الروم. وفي هذه السنة وردَ الخَبَرُ بأنَّه انْشَقَّ بأرضِ واسطٍ فُلُوعٌ من الأرض سبْعَةَ عشرَ موْضعًا، أكبرُها طولُه ألفُ ذراع، وأقلُّها مائتَا ذراع، وأنَّه غَرقَ من أمَّهات القُرَىٰ ألفٌ وثلاثُمائة قرية. وحجَّ بالناس إسْحاقُ بنُ عبدِ الملك الهاشميُّ.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

أبو بشْر الدُّولابيُّ محمدُ بنُ أحمدَ بن حمَّاد بن سعيد أبو بشْر الدُّولابيُّ، مولَىٰ الأنصار، ويُعرفُ بالورَّاق، أحدُ أئمة حفاظ الحديث، وله تَصانيفُ حسنَةٌ في التاريخ وغير ذلك. وروَىٰ عن جماعة كثيرة. قال ابنُ يُونُسَ. وكان يُضَعَّفُ، وتُوفِّي وهو قاصدٌ إلىٰ الحجِّ بين مكةَ والمدينة بالعَرْج في ذي القَعْدَة.

أبو جعفر بنُ جرير الطبريُّ رحمه الله

محمدُ بنُ جرير بن يَزيدَ بن كثير بن غالب، الإمامُ أبو جعفر الطَّبَريُّ، مولدُه في سنَة أربع وعشرينَ ومائتَيْن، وكان أسْمَرَ أعْيَنَ، مَليحَ الجسم، مديدَ القامَة، فصيحَ اللسان، روَىٰ الكثيرَ عن الجَمِّ الغَفير، ورحَل إلىٰ الآفاق في طلَب الحديث، وله «التاريخُ» الحافلُ، «والتفْسيرُ» الكاملُ وغيرُهما من المصنَّفات النافعة في الأُصول والفُروع، ومن ذلك «تَهْذيبُ الآثار» لكن لم يُتمَّه. وقد رُوي عنه أنَّه مكَث أربعينَ سنةً يكْتُبُ في كلِّ يوم أربعينَ ورقةً.

قال الحافظُ أبو بكر الخطيبُ: استوْطَنَ ابنُ جرير بَغْدادَ، وأقام بها إلىٰ حين وَفاته، وكان أحدَ أئمة العلماء، يُحكَمُ بقوله، ويُرجَعُ إليه؛ لمعرفته وفضْله، وكان قد جمَع من العلوم ما لم يُشاركْه فيه أحدٌ من أهل عصْره، وكان حافظًا لكتاب الله، عارفًا بالقراءات، بَصيرًا بالمعاني، فَقيهًا في الأحْكام، عالمًا بالسُّنَن وطُرُقها، وصَحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسُوخها، عارفًا بأقْوال الصحابة والتابعينَ ومَن بعدَهم، عارفًا بأيام الناس وأخْبارهم. وله الكتابُ المشْهورُ في تاريخ الأمَم والملوك، وكتابٌ في التفْسير لم يُصنِّفْ أحدٌ مثلَه، وكتابٌ سمَّاه «تَهْذيبَ الآثار» لم أرَ سواه في معْناه، إلاَّ أنَّه لم يُتمَّه، وله في أصُول الفقه وفُروعه كتبٌ كثيرةٌ واختياراتٌ، وتفرَّدَ بمسائلَ حُفظتْ عنه.

قال الخطيبُ: وبلَغني عن الشيخ أبي حامد أحمدَ بنِ أبي طاهر الفقيه الإسْفرَايينيِّ، أنَّه قال: لو سافرَ رجلٌ إلىٰ الصين حتىٰ يحصُلَ له كتابُ تفْسير محمد بن جرير الطَّبَريِّ لم يكُنْ ذلك كثيرًا. أو كلامًا هذا معناه. وروَىٰ الخطيبُ عن إمام الأئمة أبي بكر محمد بن إسحاقَ بن خُزَيْمَةَ أنَّه طالعَ

«التفسير» لابنِ جريرٍ في سنينَ مِن أوَّلِه إلى آخرِه، ثم قال: ما أعلمُ على أديمِ الأرضِ أعلَمَ مِن ابن جريرٍ، ولقد ظلَمَتْهُ الحنابلةُ. وقال لرجُلٍ رحَل إلى بغدادَ يكتُبُ الحديثَ عن المشايخِ - ولم يتَّفقْ له سماعٌ مِن ابنِ جريرٍ؛ لأنَّ الحنابلةَ كانُوا يمْنَعُونَ أنْ يَجْتَمعَ به أحدٌ - فقال: لو كتَبْتَ عنه لكان خيرًا لك مِن كلِّ مَن كتبْتَ عنه. قلتُ: وكان مِن العبادةِ والزَّهادةِ والوَرَعِ والقيامِ في الحقِّ، لا تأخُذُه في الله لَوْمَةُ لائمٍ، وحُسْنِ القراءَةِ، على أحْسَنِ الصفاتِ، وكان مِن كبارِ الصالحينَ، وهو أحدُ المُحدِّثينَ الذين اجْتَمَعُوا بمصْرَ في أيامِ الأميرِ طُولُونَ؛ وهم: محمدُ بنُ إسحاقَ بنِ خُزَيْمَةَ، ومحمدُ بنُ نَصْرٍ المَرْوَزِيُّ، ومحمدُ بنُ هارُونَ الرُّويانيُّ، ومحمدُ بنُ جَريرٍ هذا. وقد ذكَرنا ذلك في ترجمة محمد بنِ نصرٍ المروزيِّ، وكان الذي قامَ يُصلِّي محمدُ بنُ إسحاقَ بنِ خُزَيْمَةَ، وقيل: محمدُ بنُ نصرٍ، فرزَقَهمُ اللهُ ببركةِ صلاته. وقد أرادَ الخليفةُ المقتدرُ بالله في بعضِ الأحيانِ أن يكتُبَ كتابَ وقْفٍ، تكون شُروطُه مُتَّفَقًا عليها بينَ الفقهاءِ، فقيل له: لا يقْدِرُ على استِحْضارِ هذا إلا محمدُ بنُ جَريرٍ. وطلَب منه ذلك فكتَبَها، فاستَدْعاه الخليفةُ إليه. وقال له: سَلْ حاجَتَكَ، فقالَ: لا حاجَةَ لي. فقالَ: لا بُدَّ أنْ تسْألَني شيئًا. فقال: أسْألُ مِن أميرِ المؤمنينَ أنْ يتقدَّمَ أمْرُه إلى الشرطة حتى يمْنَعُوا السُّؤَّالَ يومَ الجمعةِ أن يدخلُوا إلى مقْصُورةِ الجامعِ. فأمرَ الخليفةُ بذلك. وكان يُنفِقُ على نفْسِه مِن مَغَلِّ قريةٍ تركَها له أبوه بطَبَرِسْتانَ. ومِن شعرِه:

إذا أعْسَرْتُ لم يَعلمْ رَفيقي ... وأسْتَغْني فيَسْتَغْني صَديقي
حَيائي حافِظٌ لي ماءَ وَجْهي ... ورِفْقي في مُطالَبَتي رَفيقي
ولو أنِّي سَمَحْتُ بِبَذْلِ وَجْهي ... لكُنْتُ إلى الغِنَى سَهْلَ الطريقِ

ومِن شعرِه أيضًا:

خُلُقانِ لا أرْضَى طريقَهُما ... بَطَرُ الغِنَى ومَذَلَّةُ الفَقْرِ
فإذا غَنِيتَ فلا تَكُنْ بَطِرًا ... وإذا افْتَقَرْتَ فَتِهْ على الدَّهْرِ

وقد كانت وفاتُه وقتَ المغربِ مِن عشيةِ يومِ الأحَدِ ليومينِ بَقِيَا مِن شَوَّالٍ مِن سنَةِ عشْرٍ وثلاثمائةٍ. وقد جاوزَ الثمانينَ سنةً بخَمْسٍ أو ستِّ سِنينَ، وفي شَعْرِ رأسِه ولِحيتِه سَوادٌ كثيرٌ، ودُفِن في دارِه؛ لأنَّ بعضَ الرَّعاعِ مِن عوامِّ الحنابِلَةِ مَنَعُوا من دَفْنِه نَهارًا، ونسبُوه إلى الرَّفْضِ، ومِن الجهَلَةِ مَنْ رمَاه بالإلحادِ، وحاشَاه مِن هذا ومن ذاك أيضًا، بل كان أحدَ أئمةِ الإسلامِ في العلمِ بكتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِه، وإنَّما تقَلَّدُوا ذلك عن أبي بكرٍ محمدِ بنِ داودَ، حيثُ كان يتكلَّمُ فيه ويَرْميه بالعَظائمِ ويرميه بالرفضِ. ولمَّا تُوفِّي اجتمعَ الناسُ مِن سائرِ البلدِ وصلَّوا عليه بدارِه ودُفِن بها، ومكَثَ الناسُ يتردَّدون إلى قبْرِه شُهورًا يصلُّونَ عليه، رحمه اللهُ، قلتُ: وقد رأيْتُ له كتابًا جمَع فيه أحاديثَ غَديرِ خُمٍّ في مُجلَّدَيْنِ ضَخْمَيْنِ، وكتابًا جمَع فيه طُرُقَ حديثِ الطيرِ. ونُسِب إليه أنَّه يقولُ بجَوازِ مَسْحِ القدَمَيْنِ في

الوُضوءِ، وأنَّه لا يُوجِبُ الغَسْلَ، وقد اشْتَهَرَ عنه هذا. فمِنَ العُلَماءِ مَن يزعُمُ أنَّ ابنَ جَرِيرٍ اثْنانِ؛ أحدُهما شِيعيٌّ وإليه يُنسَبُ ذلك، ويُنزِّهُونَ أبا جَعْفرٍ هذا مِن هذه الصِّفاتِ. والذي عُوِّلَ عليه كلامُه في التفسيرِ، أنَّه يُوجِبُ غسْلَ القدمَيْنِ ويُوجِبُ مع الغَسْلِ دَلْكَهما، ولكنَّه عبَّرَ عنِ الدَّلْكِ بالمَسْحِ، فلم يفْهَمْ كثيرٌ مِن الناسِ مُرادَه جَيِّدًا، فنَقَلُوا عنه أنَّه يُوجِبُ الجمعَ بينَ الغَسْلِ والمَسْحِ، واللهُ أعلمُ.

وقد رَثاه جماعةٌ مِن أهلِ العلمِ، منهمُ ابنُ الأعْرابيِّ حيثُ يقولُ:

حَدَثٌ مُفظِعٌ وخَطبٌ جَليلٌ ... دقَّ عن مِثلِه اصْطِبارُ الصَّبُورِ
قام ناعِي العُلومِ أجْمعِ لمَّا ... قامَ ناعِي محمدِ بنِ جريرِ
فهوَتْ أنجمٌ لها زاهِراتٌ ... مؤذِناتٌ رُسُومُها بالدُّثورِ
وتغَشَّى ضياءَها النَّيِّرَ الإشْـ ... ـراقِ ثوبُ الدُّجُنَّةِ الدَّيْجُورِ
وغدَا روضُها الأنيقُ هَشِيمًا ... ثم عادَتْ سُهولُها كالوُعُورِ
يا أبا جعفرٍ مضَيْتَ حَمِيدًا ... غيرَ وانٍ في الجِدِّ والتَّشْميرِ
بينَ أجْرٍ على اجْتِهادِكَ مَوْفُو ... رٍ وسَعْيٍ إلى التُّقَى مَشْكُورِ
مُسْتَحَقًّا به الخُلودَ لدى جنْـ ... ـنَةِ عدْنٍ في غِبْطَةٍ وسُرُورِ

ولأبي بكرِ بنِ دريدٍ، رحِمه اللهُ، فيه مَرْثاةٌ طويلةٌ طنَّانةٌ، أورَدَها الخطيبُ البَغْداديُّ بتَمامِها. واللهُ سُبْحانُه أعلمُ.

* * *

ثم دخلت سنة إحدى عشرة وثلاثمائة

فيها: دخَل أبو طاهرٍ سليمانُ بنُ أبي سعيدٍ الجَنَّابيُّ أميرُ القَرامطة في ألفٍ وسبعمائة فارسٍ إلى البصْرة ليلاً، نصَب السَّلالمَ الشعْرَ في سُورها، فدخَلها قومُه وفتَحوا أبوابَها، وقتَلوا من لَقُوه من أهلها، وهرب أكثرُ الناسِ، فألْقَوْا أنفُسَهم في الماء، فغرِق كثيرٌ منهم، ومكَث بها سبعةَ عشَرَ يومًا يَقْتُلُ ويأسِرُ مَن شاءَ مِن نسائها وذَراريِّها، ويَغْنَمُ ما يَختارُه من أموالِ أهلها، ثم عاد إلى بلده هَجَرَ، وذلك لما بعَث إليه الخَليفةُ جندًا من قِبَلِه فرَّ وترَك البلدَ يَبابًا، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي هذه السنة عزَل المُقْتَدِرُ عن الوَزارةِ حامدَ بنَ العباسِ وعليَّ بنَ عيسى، وردَّ إلى الوزارة أبا الحسنِ بنَ الفُراتِ الولايةَ الثالثةَ، وسلَّم إليه حامدَ بنَ العبَّاسِ، وعليَّ بنَ عيسى، فأمَّا حامدٌ فإن المُحَسِّنَ بنَ الوزيرِ ضمِنه مِن المُقْتَدِرِ بخمسمائة ألفِ دينارٍ، وتسلَّمه فعاقبه بأنواع العُقوبات، وأخَذ منه أموالاً جَزيلةً لا تُحْصَى كثرةً، ثم أرْسَل به مع مُوَكَّلين عليه إلى واسطٍ ليَحْتاطوا على أمْواله هناك وحَواصله، وأمَرهم أن يَسْقُوه سُمًّا في الطريقِ، فسقَوْه ذلك في بَيْضٍ مَشْويٍّ كان قد طلَبه منهم، فمات في رَمضانَ مِن هذه السنة. وأمَّا عليُّ بنُ عيسى فإنه صُودِر بثلاثمائة ألفِ دينارٍ، وصُودِر قومٌ آخَرون مِن كُتَّابِه، فكان جُمْلةُ ما أُخِذ مِن هؤلاء مع ما كان صُودِرت به القَهْرَمانةُ مِن الذهبِ شيئًا كثيرًا جدًّا، آلافَ آلفٍ مِن الدَّنانيرِ، وغيرَ ذلك، وأشار الوزيرُ ابنُ الفُراتِ على الخَليفةِ المُقْتدرِ بالله أن يُبْعِدَ عنه مُؤْنسًا الخادمَ ويأمرَه بالذَّهابِ إلى الشامِ ـ وكان قد قدِم مِن بلادِ الرومِ، وقد فتَح شيئًا كثيرًا مِن بُلْدانِهم، وغنِم مَغانمَ كثيرةً جدًّا ـ فسأل أن يُنْظَرَ إلى سَلْخِ رَمضانَ، وكان قد أعْلَم الخَليفةَ بما كان يَعْتَمِدُه ابنُ الوزيرِ مِن تَعْذيبِ الناسِ ومُصادَرتِهم الأموالَ، فأجاب الخليفةُ الوزيرَ إلى إبعادِ مؤنسٍ فأخرجه إلى الشام.

وفيها: كثُر الجرادُ، وأفْسَد كثيرًا من الغَلاَّت.

وفي رمضانَ منها أمَر بردِّ بقيةِ المواريثِ إلى ذوي الأرحام.

وفيها: في النِّصفِ مِن رمضانَ أُحرِق على بابِ العامَّةِ صورةُ ماني وأربعةُ أعْدالٍ مِن كُتُبِ الزَّنادقة، فسقَط منها ذهَبٌ كثيرٌ كانت مُحَلاَّةً به.

وفيها: اتَّخَذ أبو الحسنِ بنُ الفُراتِ الوزيرُ مارَسْتانًا في دَرْبِ الفَضْلِ، يُنْفِقُ عليه مِن مالِه في كلِّ شهرٍ مائتَيْ دينارٍ.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعْيان:

الخَلاَّلُ أحمدُ بنُ محمدِ بنِ هارونَ، أبو بكرٍ الخَلاَّلُ[1]، صاحبُ كتابِ «الجامع لعُلوم الإمام أحمد»،

(١) راجع ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٢٩٧)، «وتاريخ بغداد» (٥/ ١١٢) وما بعدها.
وإنما أذكر من المصادر الكتاب الذي يُفترض أن يكون أكثر الكتب جمعًا لترجمة الأعلام ولا أذكر غيره إلا نادرًا والله المستعان.

ولم يُصَنِّفْ في مَذْهَبِ الإمام أحمدَ مثلُ هذا الكتاب، وقد سمع الحديثَ من الحسن بن عرفة وسَعْدانَ ابن نصرٍ وغيرِهما. وكانت وفاتُه يومَ الجمعة قبلَ الصلاة ليومَيْن مضيا من ربيع الأول منها.

أبو محمد الجَرِيري أحدُ أئمة الصُّوفية، أحمدُ بنُ محمد بن الحسين، أبو محمد الجَرِيريُّ، أحدُ كبارِ الصُّوفية، صَحِبَ سَرِيًّا السَّقَطيَّ، وكانَ الجُنَيْدُ يُكْرِمُه ويَحْتَرِمُه. ولمّا حضرَت الجُنَيْدَ الوفاةُ أوْصَى أن يُجالِسَ الجَرِيريَّ. وقد اشْتَبه على الجَرِيريِّ هذا شَأْنُ الحَلاَّج، فكان ممَّن أجْمل القولَ فيه، على أن الجَرِيريَّ هذا مَذْكورٌ بالصلاح والدِّيانة وحُسْن الأدب مع الله عزَّ وجلَّ.

الزَّجَّاجُ صاحبُ «معاني القرآن»، إبراهيمُ بنُ السَّرِيِّ بن سهل، أبو إسْحاقَ الزَّجَّاجُ[1]، كان فاضلاً دَيِّنًا حَسَنَ الاعْتقاد، وله المُصَنَّفاتُ الحَسَنَةُ، منها كتابُ «معاني القرآن» وغيرُه من المُصَنَّفات العَديدة المُفيدة، وقد كان في أول أمْره يَخْرُطُ الزُّجاجَ، فأحَبَّ علمَ النَّحْو، فذهَب إلى المُبَرِّد، فكان يُعْطي المُبَرِّدَ كلَّ يوم دِرْهمًا، ثم اسْتَغْنَى الزَّجَّاجُ وكَثُر مالُه، ولم يَقْطَعْ عن المُبَرِّدِ ذلك الدرهمَ حتى مات المُبَرِّدُ. وقد كان الزَّجَّاجُ مُؤَدِّبًا للقاسم بن عُبيد الله، فلما وَلِيَ الوَزارةَ كان الناسُ يأْتُونه بالرِّقاع ليُقَدِّمَها إلى الوزير، فحصَل له بسبب ذلك ما يَزيدُ على أرْبعين ألفَ دينار. وكانت وفاتُه في جُمادَى الأولَى من هذه السنة. وعنه أخَذ أبو عليٍّ الفارسيُّ النَّحْويُّ، وأبو القاسم عبدُ الرحمن بنُ إسْحاقَ الزَّجَّاجيُّ، نُسِب إليه؛ لأخذه عنه، وهو صاحبُ كتاب «الجُمَل» في النَّحْو.

بدرٌ مَولَى المُعْتَضِد، وهو بدرٌ الحَماميُّ، ويقالُ له: بدرٌ الكَبير. كان في آخرِ وقتٍ على نِيابة فارسَ، ووَلِي من بعده وَلَدُه محمدٌ.

حامدُ بنُ العبَّاس، اسْتَوْزَره المُقْتَدر في سنة ستٍّ وثلاثمائة، وكان كثيرَ المال والغِلْمان، كثيرَ النَّفَقاتِ كريمًا سَخيًّا، كثيرَ المُروءة، وله حكاياتٌ تَدُلُّ على بَذْله وإعْطائه الأمْوالَ الجَزيلةَ، ومع هذا كان يَجمَعُ شيئًا كثيرًا، وُجد له في مَطْمورَةٍ أُلوفٌ من الذهب، كان في كلِّ يوم إذا دخَل إليها ألْقَى فيها ألفَ دينار، فلما امْتلأت طمَّها، فلما صُودِر دلَّ عليها، فاسْتُخرج منها مالٌ جزيلٌ جدًّا، ومن أكبر مَناقبه أنه كان من أكبرِ السُّعاة في الحسين بن منصور الحلاَّج حتى قُتِل، كما ذكَرْنا قبلَ هذا ثم كانت وفاةُ الوزير حامد بن العباس في رمضانَ من هذه السنة مَسْمومًا.

وفيها تُوفِّي عمرُ بنُ محمد بن بُجَيْر البُجَيْريُّ صاحبُ «الصحيح».

ابنُ خُزَيْمةَ، محمدُ بنُ إسْحاقَ بنِ خُزَيْمةَ بن المُغيرة بن صالح بن بكر السُّلَميُّ، مَولَى مُجَشِّر بن مُزاحم، الإمامُ أبو بكر بنُ خُزَيْمةَ المُلَقَّبُ بإمام الأئمة[2] كان من أوعية العلم وبحوره، وممن طَاف البلدانَ، ورحَل إلى الآفاق في طَلَب العلم وسَماع الحديث، وكتَب الكثيرَ وصنَّف وجمَع، وله كتابُ «الصَّحيح» من أنْفَع الكُتُب وأجَلِّها، وهو من المُجْتَهِدين في دين الإسلام، وحكَى الشيخُ أبو

---

(١) راجع ترجمته في «تاريخ بغداد» (٦/ ٨٩) وما بعدها و«السير» (١٤/ ٣٦٠).

(٢) ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٣٦٥).

إسْحاقَ الشِّيرازيُّ في «طَبقاتِ الشافعية» عنه أنه قال: ما قلَّدْتُ أحدًا منذ بلغتُ ستَّ عشْرةَ سنةً. وقد ذكرْنا ترجمتَه مُطوَّلةً في كتابنا «طبقاتِ الشافعية» بما فيه كفايةٌ، وهو الذي قام يصلي حينَ وقعَت القُرْعَةُ عليه ليسترزقَ اللهَ في صلاته حينَ أرْمَل هو ومحمدُ بنُ نصر، ومحمدُ بنُ جرير، ومحمدُ بنُ هارونَ الرُّويانيُّ، وقد أوْردها ابنُ الجوزيِّ من طريقين في ترجمته، وذلك ببلدِ مصرَ في دولة أحمدَ ابنِ طولونَ، فرزقهم اللهُ على يدَيه. وقد ذكَرنا نحوَ ذلك في ترجمة الحسنِ بنِ سفيانَ.

وفيها تُوفِّي محمدُ بنُ زكريا الطبيبُ، صاحبُ المصنَّفِ الكبيرِ في الطِّبِّ.

ثم دخلت سنة ثنتي عشرة وثلاثمائة

في المُحرَّم منها اعترَضَ القرْمطيُّ أبو طاهر سليمانُ بنُ أبي سعيدٍ الجَنَّابيُّ -لعنه اللهُ، ولعن معه أباه- للحَجيجِ وهم راجعون من بيتِ اللهِ الحَرامِ قد أدَّوْا فرْضَ الله عليهم، فقطَع عليهم الطَّريقَ، فقاتَلوه دَفْعًا عن أمْوالِهم وأنْفُسِهم وحَرِيمِهم، فقتَل منهم خَلْقًا كثيرًا لا يَعْلَمُهم إلا اللهُ، عزَّ وجلَّ، وأسَر من نسائِهم وأبنائِهم ما اختاره، واصْطَفى من أمْوالِهم ما أراد، فكان مَبلَغُ ما أخَذ من الأمْوال ما يُقاوِمُ ألفَ ألفِ دينارٍ، ومن الأمْتعةِ والمَتاجرِ نحوَ ذلك، وترَك بقيةَ الناسِ -بعدَما أخذ جِمالَهم وزادَهم وأمْوالَهم ونِسَاءَهم- على بُعْدِ الدِّيارِ في البَرِّيَّة -بلا زادٍ ولا ماءٍ ولا مَحْمَلٍ. وقد حاجَف عن الناسِ نائبُ الكوفةِ أبو الهَيْجاء عبدُ اللهِ بنُ حَمْدانَ، فقهَره وأسَره، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وكان عدَّةُ مَن مع القرْمطيِّ ثَمانَمائة مُقاتلٍ، وعمرُه إذ ذاك سبعَ عشْرةَ سنةً، قصَمه اللهُ.

ولما انْتهَى خبرُهم إلى بَغدادَ قام نساؤهم وأهَالِيهم في النِّياحة، ونشَرْنَ شُعورَهن، ولطَمْنَ وُجوهَهنَّ، وانْضاف إليهنَّ نساءُ الذين نُكِبوا على يَدَي الوزيرِ ابنِ الفُرات، فكان ببَغْدادَ يومٌ مَشْهودٌ بسببِ ذلك في غايةِ الفَظاعةِ والشَّناعة، ولمَّا سأَل الخَليفةُ عن الخبرِ، ذُكر له أنَّ هذه نسوةُ الحَجيجِ، ومعهن نِساءُ الذين صادَرهم ابنُ الفُرات، وجاءَت على يدِ الحاجبِ نصرٍ القَشْوريِّ المَشورةُ على الوزيرِ وقال: يا أميرَ المؤمنين، إنما استَوْلَى هذا القرْمطيُّ بسببِ إبْعادك المُظفَّرَ مُؤنسًا الخادمَ، فطمع هؤلاءِ في الأطْرافِ، وما أشار عليك بإبْعاده إلا ابنُ الفُرات. وبعَث الخَليفةُ المُقْتَدرُ إلى الوزيرِ ابنِ الفُراتِ يقولُ له: إن الناسَ يَتَكَلَّمونَ فيك لنُصْحك إياي. وأرْسَل يُطَيِّبُ قلبَه، فركِب هو وولدُه إلى الخليفةِ فدخَلا عليه، فأكرَمهما وطيَّب قُلوبَهما، وخرَجا من عنده، فناله أذًى كثيرٌ من نصرٍ الحاجبِ وغيرِه من كبارِ الأُمراءِ، وجلَس الوزيرُ في دَسْتِه، فحكَم بينَ الناسِ على عادَته، وبات ليلتَه تلك مُفَكِّرًا في أمْره، وأصْبَح كذلك وهو يُنْشِدُ:

فأصْبَح لا يَدْرِي وإن كان حازمًا ... أقُدَّامُه خيرٌ له أمْ وَراءَه

ثم جاءَه في ذلك اليومِ أميرانِ من جهةِ الخليفةِ المقتدرِ فدخَلا عليه دارَه إلى بينِ حرَمِه، وأخْرَجوه

مُكْشُوفًا رأسُه، وهو في غاية المَذَلَّة والإهانة، فأرْكَبوه في حَرَّاقةٍ إلى الجانب الآخر. وفهم الناسُ ذلك، فرجَموا ابنَ الفُرات بالآجُرِّ، وتعطَّلت الجوامعُ، وسَخَّمت العامَّةُ المَحاريبَ، ولم يُصَلِّ الناسُ الجمعةَ فيها، وأُخذ خطُّه بألفَيْ ألف دينار، وأُخذ خطُّ ابنه بثلاثة آلاف ألف دينار، وسُلِّما إلى نازوكَ أميرِ الشُّرْطة، فاعْتُقلا حينًا، وخلَّص منهما الأموالَ، فلمّا قَدِم مُؤْنسٌ الخادمُ سُلِّم إليه الوزيرُ ابنُ الفرات، فأهانَه غايةَ الإهانة بالضَّرْب والتَّقْريع له ولولده المُحَسِّن المُجْرِم الذي ليس بمُحَسِّن، ثم قُتِلا بعدَ ذلك. فكانت وزارتُه هذه الثالثةُ؛ عشَرةَ أشهر وأيامًا. واستُوزِرَ أبو القاسم عبدُ الله بنُ محمدِ بنِ عبدِ الله بنِ محمدِ بنِ يحيى بنِ خاقانَ، وذلك في تاسعِ ربيعِ الأولِ من هذه السنة.

وكان الخليفةُ قد أرسلَ إلى مُؤْنسٍ الخادمِ ليَحْضُرَ، فدخَل بغدادَ في تَجَمُّلٍ عظيمٍ وسلَّم إليه ابنَ الفرات كما ذكرنا، فعاقَبه وشفَع إلى الخاقانيِّ في أن يُرْسِلَ إلى عليِّ بنِ عيسى. وكان قد صار إلى صَنْعاءَ من اليمنِ مَطْرودًا. فعاد إلى مكةَ، وبعَث إليه الوزيرُ أن يَنْظُرَ في أمْرِ الشام ومصرَ، وأمَر الخليفةُ مؤنسًا الخادمَ بالمسيرِ إلى ناحيةِ الكُوفة لأجلِ القَرامطة، وأنْفَق على خُروجِه إلى هنالك ألفَ ألف دينارٍ، وأطْلَق القرمطيُّ من كان أسَره من الحَجيج، وكانوا ألفَيْ رجلٍ وخمسَمائة امرأة، وأطْلَق أبا الهَيْجاء نائبَ الكوفة معهم أيضًا، وكتَب إلى الخليفة يَسْأَلُ منه البَصْرة والأهْوازَ، فلم يُجَبْ إلى ذلك، وركِب المُظَفَّرُ مُؤْنسٌ الخادمُ في جَحافِلَ إلى بلادِ الكوفة، فسكَن أمْرُها، ثم انْحَدَر إلى واسط؛ خوْفًا عليها من القرامطة، واسْتَناب على الكوفة ياقوتَ الخادمَ، فتمَهَّدَت الأمورُ وانْصَلَحت.

وفي هذه السنة ظهَر رجلٌ بينَ الكوفة وبَغْدادَ، فادَّعى أنه محمدُ بنُ إسماعيلَ بنِ جعفرِ بنِ محمدِ ابنِ عليِّ بنِ الحسينِ بنِ عليِّ بنِ أبي طالب، وصدَّقه على ذلك طائفةٌ من الأعْراب والطَّغام، والْتَفُّوا عليه، وقويَت شَوْكتُه في شَوَّال، فأرْسَل إليه الوزيرُ جيشًا، فقاتَلوه فهزَموه، وقتَلوا خَلْقًا من أصحابِه، وتفَرَّق بَقيَّتُهم. وهذا المُدَّعي المَذكورُ هو رئيسُ الإسْماعيلية وأوَّلُهم. وظفِر نازوكُ نائبُ الشُّرْطة بثلاثة من أصْحاب الحَلّاج؛ وهم حَيْدرةَ، والشَّعرانيُّ، وابنُ منصورٍ، فطالَبهم بالرجوع، فلم يَرْجِعوا، فضرَب أعناقَهم، وصلَبهم في الجانب الشرقيِّ. ولم يَحُجَّ في هذه السنةِ أحدٌ من أهلِ العراق؛ لكثرةِ خوف الناسِ من القَرامطة، لعنهم اللهُ.

وممَّن توفِّي في هذه السنة من الأعْيان:

إبراهيمُ بنُ حَمْش، أبو إسْحاقَ الواعظُ الزاهدُ النَّيسابوريُّ، كان يَعِظُ الناسَ، فكان من جُملةِ كلامه الحسنِ قولُه: يَضْحَكُ القَضاءُ من الحَذرِ، ويَضْحَكُ الأجَلُ من الأملِ، ويَضْحَكُ التَّقْديرُ من التَّدْبيرِ، وتَضحَكُ القِسْمةُ من الجُهْدِ والعَناء.

عليُّ بنُ محمد بنِ الفُرات، أبو الحسنِ الوزير[1]، ولاَّه المُقْتَدِرُ الوزارةَ ثم عزَله ثم ولاَّه ثم عزَله، ثم

---

(١) ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٤٧٤).

ولاَّه ثم عزله هذه السنةَ وقتَله، وكان ذا مالٍ جَزيلٍ جداً، ملَك عشرةَ آلافِ ألفِ دينارٍ، وكان يَدْخُلُه مِن ضِياعِه في كلِّ سنةٍ ألفا ألفِ دينارٍ، وكان يُنْفِقُ على خمسةِ آلافٍ مِن العُلَماءِ والعُبَّادِ ويُجْري عليهم الأرزاقَ في كلِّ شهرٍ، أثابه اللهُ، وكان فيه كِفايةٌ ونهضةٌ ومَعْرِفةٌ بالوزارةِ والحِسابِ، يقالُ: إنه نظر يوماً إلى ألفِ كتابٍ، ووقَّع على ألفِ رُقْعةٍ، فتعجَّب مَن حضَره مِن ذلك، وكانت فيه مُروءةٌ وكَرَمٌ وحُسْنُ سيرةٍ في ولاياته، غيرَ المرَّةِ الثالثةِ، فإنه ظلَم وغشَم وصادَر الناسَ عن أموالِهم، فأخَذه اللهُ أخْذَ عَزيزٍ مُقْتَدِرٍ. وقد كان فيه كرمٌ وسَعَةٌ في النَّفَقةِ، ذُكر عندَه ذاتَ ليلةٍ أهلُ الحديثِ والصُّوفيةُ وأهلُ الأدبِ والشعراءِ والفقهاءُ فأطْلَق من مالِه لكلِّ طائفةٍ عشرين ألفاً.

وكتَب رجلٌ على لسانِه إلى نائبِ مصرَ كتاباً فيه الوصيةُ به إليه، فلما وقَف عليه المكتوبُ إليه استَراب به، وقال: ما هذا خَطُّه. وأرْسَل به إلى الوزيرِ، فلما وقَف عليه الوزيرُ عرَف أنه كَذِبٌ وزُورٌ، واسْتَشار الحاضرين عندَه في الذي زوَّر عليه، فقال بعضُهم: يَنْبَغي أن تُقْطَعَ يدُه. وقال غيرُه: يُقطَعُ إبهامُه. وقال الآخَرُ: يُضْرَبُ ضَرْباً عنيفاً. فقال الوزيرُ: أوَ خيرٌ من ذلك؟ فأَخذ الكتابَ، وكتَب عليه: نعم هذا خَطِّي، وهو مِن أخَصِّ أصْحابي، فلا تَتْرُكْ شيئاً مما تَقْدِرُ عليه من الإحسانِ إلا وصَلْتَه به. فلما عاد الكتابُ أحْسنَ نائبُ مصرَ إلى ذلك الرجلِ، ووصَلَه بنَحْوٍ مِن عشرين ألفَ دينارٍ.

واسْتَدْعَى ابنُ الفُراتِ يوماً ببعضِ الكُتَّابِ فقال له: ويْحَك! إن نِيَّتي فيك سيِّئةٌ، وإني في كلِّ وقتٍ أُريدُ أن أَقْبِضَ عليك وأُصادرَك مالَك، فرأيتُ في المَنامِ مِن ليالٍ أني قد أمرتُ بالقبضِ عليك، فجعلْتَ تَمْتَنِعُ مني، فأمَرْتُ جُنْدي أن تُقاتِلَ، فجعلُوا كلما ضرَبوك بشيءٍ مِن سهامٍ أو غيرِها من السلاحِ تتَّقي الضَّرْبَ برَغيفٍ في يدِك، فلا يَصِلُ إليك بسبَبِه شيءٌ، فأعْلِمْني ما قصةُ هذا الرغيفِ؟ فقال: أيُّها الوزيرُ، إن أُمِّي منذُ كنتُ صَغيراً كانت تَضَعُ في كلِّ ليلةٍ تحتَ وسادتي رَغيفاً، ثم تُصبِحُ فتتصدَّقُ به عنِّي، ولم يَزَلْ ذلك دأبَها حتى ماتَت. ففعلتُه بعدَها، فأنا في كلِّ ليلةٍ أُبَيِّتُ تحتَ وسادتي رَغيفاً، ثم أُصْبِحُ فأَتَصدَّقُ به. فعجِب الوزيرُ مِن ذلك وقال: واللهِ لا ينالُك مني سُوءٌ أبداً، ولقد حَسُنَت نِيَّتي فيك، وأحْبَبْتُك. وقد أطال ابنُ خلِّكانَ تَرْجمتَه، وذكَر بعضَ ما أوْرَدناه.

محمدُ بنُ محمدِ بنِ سليمانَ بنِ الحارثِ بنِ عبدِ الرحمنِ، أبو بكرٍ الأزْديُّ الواسطيُّ، المَعْروفُ بالباغَنْديِّ، سمِع محمدَ بنَ عبدِ اللهِ بنِ نُمَيْرٍ، وابنَ أبي شَيْبةَ، وشَيْبانَ بنَ فَرُّوخَ، وعليَّ بنَ المدينيِّ، وخَلْقاً مِن أهلِ الشامِ ومصرَ والكوفةِ، والبصْرةِ وبَغْدادَ، ورحَل إلى الأمْصارِ البَعيدةِ، وعُنِيَ بهذا الشأنِ، واشْتَغل فيه فأفْرَط، حتى قيل: إنه كان ربما سرَد بعضَ الأحاديثِ بأسانيدِها في الصلاةِ وهو لا يَشْعُرُ، فيُسبَّحُ به حتى يَتَذكَّرَ أنه في الصلاةِ. وكان يقولُ: أنا أُجيبُ في ثلاثمائةِ ألفِ مسألةٍ من الحديثِ. وقد رأى رسولَ اللهِ ﷺ في المنامِ، فقال له: يا رسولَ اللهِ، أيُّما أثْبَتُ في الحديثِ منْصورٌ أو الأعْمَشُ؟ فقال له: منصورٌ، منصورٌ. وقد كان يُعابُ بالتَّدْليسِ حتى قال الدارَقُطْنيُّ: هو كثيرُ التَّدْليسِ، يُحَدِّثُ بما لم يَسْمَعْ، وربما سرَق بعضَ الأحاديثِ.

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة

قال ابنُ الجوزي: لليلةٍ بقيت من المُحَرَّم انْقَضَّ كوكبٌ من ناحية الجنوب إلى الشمال قبلَ مَغيب الشمس، فأضاءت الدُّنيا منه، وسُمع له صوتٌ كصوت الرَّعد الشديد.

وفي صَفَر بلَغ الخليفةَ المقتدرَ بالله أن جماعةً من الرافضة يَجْتَمعون في مسجد بَرَاثا، فينالُون من الصَّحابة، ولا يُصلُّون الجمعةَ، ويُكاتبون القَرامطةَ، ويَدْعُون إلى ولاية محمد بن إسماعيلَ الذي ظهرَ بينَ الكوفة وبَغْدادَ، ويَدَّعُون أنه المَهْديُّ، ويتَبرَّءون من المُقْتَدر وممَّن يتَّبعُه، فأمر بالاحْتياط عليهم، واستَفْتَى العُلَماءَ في المسجد المذكور، فأفتَوْا بأنه مسجدُ ضِرارٍ يُهدَمُ كما هُدِم مسجدُ الضرار، فضرَب مَن قدَر عليه منهم الضَّرب المُبَرِّحَ، ونُوديَ عليهم، وأمَر الخليفةُ بهَدْم المسجدِ المذكور فهدمَه نازوكُ، وأمَر الوزيرَ الخاقانيَّ، فجعَل مكانَه مَقْبَرةً، فدُفن فيه جَماعةٌ من المَوتى.

وخرَج الناسُ للحجِّ في ذي القَعْدة، فاعْتَرَضَهم أبو طاهرٍ سليمانُ بنُ أبي سعيدٍ الجَنَّابيُّ القِرْمطيُّ لعنَهما اللهُ، فرجَع أكثرُ الناس إلى بُلدانهم ولم يُمكنْهم الحَجُّ عامَهم هذا، ويقالُ: إن بعضَهم سأَل منه الأمانَ ليَذْهَبوا فأمَّنَهم. وقد قاتَله جُنْدُ الخَليفة فلم يُفِدْ ذلك فيه شيئًا؛ لتَمرُّدِه وشدة بأسٍ من معه، وانْزَعَجَ أهلُ بَغْدادَ من ذلك، وترَحَّل أهلُ الجانب الغربيِّ إلى الجانب الشرقيِّ خوفًا من القرامطة، ودخَل القِرْمطيُّ إلى الكوفة، فأقام بها ستَّةَ أيامٍ يَأخُذُ من أموالها ما يحتاجُ إليه.

قال ابنُ الجَوْزيِّ: وكثرُ الرُّطَبُ في هذه السنة ببغدادَ حتى بِيعَ كلُّ ثمانية أرْطالٍ بحبَّة، وعُمِل منه تَمْرٌ وحُمل إلى البَصْرة.

وعزَل المُقْتدرُ وزيرَه الخاقانيَّ عن الوزارة بعد سنةٍ وستة أشْهُرٍ ويومين، ووَلِي مكانَه أبو العباس أحمدُ بنُ عُبَيْدِ اللهِ بن أحمدَ بنِ الخصيب الخَصيبيُّ، لأجلِ مالٍ بذَلَه من جهة زَوْجة المُحَسِّن بن الفُرات، وكان ذلك المالُ سبعَمائة ألف دينارٍ، فأقَرَّ الخَصيبيُّ عليَّ بنَ عيسى على الإشراف على ديار مصرَ وبلادِ الشام، وهو مُقيمٌ بمكةَ يَسيرُ إليها في بعضِ الأوقات فيَعْمَلُ ما يَنْبَغي عمَلُه، ثم يَرْجعُ إلى مكةَ، شرَّفَها اللهُ سبحانَه وتعالى.

ذكرُ من تُوفِّي فيها من الأعيان:

عليُّ بنُ عبدِ الحميد بن عبد الله بن سليمانَ، أبو الحسن الغَضائريُّ، سمع القَواريريَّ وعباسًا العَنْبريَّ، وكان من العُبَّادِ الثِّقات. قال: جئتُ يومًا إلى السَّريِّ السَّقَطيِّ، فدقَقْتُ عليه بابَه، فخرَج إليَّ، ووضَع يدَه على عضادَتَي الباب، وهو يقولُ: اللهم اشْغَلْ مَن شغَلني عنك بك. قال: فنالَتْني بَرَكَةُ هذه الدَّعْوة، فحجَجْتُ على قدمي من حلَبَ إلى مكةَ أربعين حَجَّةً ذاهبًا وآيبًا.

أبو العباس السَّرَّاجُ الحافظُ، محمدُ بنُ إسْحاقَ بن إبراهيمَ بن مِهْران بن عبد الله الثَّقفيُّ مولاهم، أبو

العباسِ السَّرَّاجُ[1]، أحدُ الأئمةِ الثِّقاتِ الحُفَّاظ، مولدُه سنةَ ثمانيَ عشْرةَ ومائتين، سمع قُتَيْبَةَ وإسْحاقَ بنَ راهَوَيْهِ وخَلْقًا كثيرًا من أهلِ خُراسانَ وبَغْدادَ والكوفةِ والبَصْرةِ والحجازِ، وقد حدَّث عنه البُخاريُّ ومسلمٌ، وهما أكبرُ منه وأقْدَمُ ميلادًا ووَفاةً، وله مُصنَّفاتٌ كثيرةٌ نافعةٌ جدًّا، وكان يُعَدُّ من مُجابي الدَّعوة.

وقد رأىٰ في مَنامِه كأنه يَرْقَىٰ في سُلَّمٍ، فصعد فيه تسعًا وتسعين درجةً، فما أوَّلها علىٰ أحدٍ إلا قال له: تَعيشُ تسعًا وتسعين سنةً. فكان كذلك. وقد وُلِد له ابنُه أبو عمرو، وعُمرُه ثلاثٌ وثمانون سنةً. قال الحاكمُ: فسمِعْتُ أبا عمرٍو يقولُ: فكنتُ إذا دخَلتُ علىٰ أبي والناسُ عندَه يقولُ لهم: هذا عمِلْتُه في ليلةٍ، ولي من العُمرِ ثلاثٌ وثمانون سنةً.

ثم دخلت سنة أربع عشرة وثلاثمائة

كتَب مَلِكُ الرومِ، وهو الدُّمُسْتُقُ، لعَنه اللهُ، إلىٰ أهلِ السَّواحلِ أن يَحْملوا إليه الخَراجَ وإلَّا قاتلَهم، فأبَوا عليه، فركِب إليهم في أول هذه السنة، فعاث في الأرضِ فسادًا، ودخَل مَلَطْيَةَ، فقتَل مِن أهْلِها كثيرًا وأسَر وأقام بها ستةَ عشَرَ يومًا، وجاء أهلُها إلىٰ بَغْدادَ يَسْتَنْجِدون الخليفةَ عليه.

ووقَع ببَغْدادَ حَريقٌ في مكانَيْن، مات بسببِه خَلْقٌ كثيرٌ، واحترقَ بأحدهما ألفُ دارٍ ودُكَّانٍ، وجاءَتِ الكُتُبُ بموتِ الدُّمُسْتُقِ مَلِكِ النَّصارىٰ، لعنه اللهُ، فقُرِئَت الكتبُ علىٰ المَنابرِ بذلك، وجاءَت الكتبُ مِن مكةَ أن أهلَها في غايةِ الانْزِعاجِ بسببِ اقْترابِ القرمطيِّ إليهم وقَصْدِهم إياهم، فرحَلوا منها إلىٰ الطائفِ وتلك النَّواحي، وهبَّت ريحٌ عظيمةٌ بنَصِيبِينَ اقْتَلَعَت الأشجارَ وهدَمَت البُيوتَ.

قال ابنُ الجَوْزيِّ: وفي يومِ الأحدِ لثمانٍ مضَيْن مِن شَوَّالٍ منها - وهو سابعُ كانونَ الأولِ - سقَط ببَغْدادَ ثلجٌ عظيمٌ جدًّا وحصَل بسببِه بَرْدٌ شديدٌ، بحيث أتْلَف كثيرًا من النَّخيلِ والأشْجارِ، وجمَدَت الأدْهانُ حتىٰ الأشْربةُ، وماءُ الوردِ والخَلُّ، والخُلْجانُ الكِبارُ، ودِجلةُ. وعقَد بعضُ مَشايخِ الحديثِ مَجلِسَ التَّحْديثِ علىٰ مَتْنِ دِجْلَةَ مِن فوقِ الجَمْدِ، وكُتِب عنه الحديثُ هنالك، ثم انْكَسَر البَرْدُ بمطرٍ وقَع، فأزال ذلك كلَّه، ولله الحمدُ.

وقدِم الحُجَّاجُ مِن خُراسانَ إلىٰ بَغْدادَ، فاعْتَذَر إليهم مُؤْنسٌ الخادمُ بأن القَرامطةَ قد قصَدوا مكةَ، فرجَعوا ولم يَتَهيَّأ الحجُّ في هذه السنةِ مِن ناحيةِ العراقِ بالكُلِّيَّةِ.

وفي ذي القَعْدةِ عزَل الخليفةُ وزيرَه أبا العباسِ الخَصِيبيَّ بعدَ سنةٍ وشهرين، وأمَر بالقبضِ عليه وحَبْسِه، وذلك لإهْمالِه أمْرَ الوزارةِ والنَّظَرَ في المَصالحِ؛ لاشْتغالِه بالخمرِ في كلِّ ليلةٍ فيُصْبِحُ مَخْمورًا لا عَقْلَ له، وقد وكَل الأمورَ إلىٰ نُوَّابِه، فخانوا وعمِلوا مَصالحَهم، وولَّىٰ مكانَه أبا القاسمِ عُبيدَ اللهِ

---

(١) ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٣٨٨) وما بعدها.

ابنَ محمدٍ الكلْوَذانيَّ نيابةً عن عليِّ بنِ عيسى حتى يَقْدَمَ، ثم أرْسَل في طلبِ عليِّ بنِ عيسى وهو في دمشقَ، فقدم بَغْدادَ في أُبَّهَةٍ عظيمة، فنظَر في المصالح العامة والخاصة، وردَّ الأمورَ إلى السَّداد والاستقامة وتَمَهَّدَاتِ القواعدُ، واسْتَدْعَى بالخصيبيِّ فتَهَدَّدَه ولامَه وناقشه على ما كان يَعْتَمِدُه ويَفْعَلُه في خاصَّةِ نَفْسه، وفي الأمورِ العامَّة، وذلك بحَضْرةِ القُضاة والأعْيان، ثم ردَّه إلى السِّجْن.

وفيها أخَذ نصرُ بنُ أحمدَ السامانيُّ المُلَقَّبُ بالسَّعيد بلادَ الرَّيِّ، وسكَنها إلى سنة ستَّ عشْرةَ.

وفيها غزَت الصائفةُ من بلادِ طَرَسوسَ بلادَ الروم، فغَنِموا وسَلِموا. ولم يَحُجَّ رَكْبُ العراق؛ خوفًا من القَرامطة، لعنهم اللهُ.

وممن تُوفِّي فيها من الأعيان:

سعيدٌ النُّوبيُّ، صاحبُ بابِ النُّوبيِّ من دارِ الخلافة ببَغْدادَ، تُوُفِّيَ في صَفَر من هذه السنةِ، وأُقيم أخوه مكانَه في حفظ هذا الباب الذي صار يُنْسَبُ بعدَه إليه.

ومحمدُ بنُ محمدٍ الباهليُّ. ومحمدُ بنُ عمرَ بنِ لُبابةَ القُرْطبيُّ. ونصرُ بنُ القاسمِ الفَرائضيُّ الحَنَفيُّ أبو الليثِ، سمع القَواريريَّ، وكان ثقةً عالمًا بالفَرائضِ على مَذْهَبِ أبي حَنيفةَ، مُقْرئًا جَليلاً.

ثم دخلت سنة خمس عشرة وثلاثمائة

في صَفَرٍ منها كان قُدومُ عليِّ بنِ عيسى الوزيرِ من دمشقَ إلى بغدادَ، وقد تلَقَّاه الناسُ إلى أثناء الطريقِ، فمنهم مَن لقِيَه إلى الأنبارِ، ومنهم دونَ ذلك. وحينَ دخَل إلى الخليفة المقتدرِ خاطَبه الخليفةُ فأحْسَن مُخاطبَتَه، ثم انْصَرف إلى منزله، فبعَث وراءَه بالفرْشِ والقُماشِ وعشْرين ألفَ دينارٍ، واسْتَدْعاه من الغد، فخلَع عليه، فأنْشَد وهو في الخِلْعة:

ما الناسُ إلا مع الدنيا وصاحبِها	فكيفما انقَلَبت يومًا به انقَلَبوا
يُعَظِّمون أخا الدنيا فإن وَثَبَتْ	يومًا عليه بما لا يُشْتَهَى وثَبُوا

وجاءت الكتبُ بأن الرومَ دخَلوا سُمَيْساطَ، وأخَذوا جميعَ ما فيها، ونصَبوا فيها خيْمةَ المَلِك، وضرَبوا الناقوسَ في الجامع بها، فأمَر الخليفةُ مُؤْنسًا الخادمَ بالتَّجْهيز للمسير إليهم، وخلَع عليه خِلْعةً سَنِيَّةً، ثم جاءت الكتُبُ بأن المسلمين وثَبوا على الروم، فقتَلوا منهم خَلْقًا كثيرًا وغنموا غنائمَ كثيرةً جدًّا، ولله الحمدُ.

ولما تجَهَّز مُؤْنسٌ للمَسيرِ جاءه بعضُ الخَدمِ، فأعْلَمه بأنَّ الخليفةَ يريدُ أن يَقْبِضَ عليه إذا دخَل لوَداعه، وقد حُفِرَت له زُبْيَةٌ في دارِ الخلافة مُغَطَّاةٌ؛ ليتردَّىٰ فيها، فأحْجَم عن الذَّهاب، وجاءت الأُمراءُ إليه من كلِّ جانبٍ ليَكونوا معه على الخَليفة، فبعَث إليه المقتدرُ رُقعةً بخطِّه يَحْلِفُ له فيها أن هذا الأمرَ الذي بلَغه ليس بصحيح، فطابَت نفسُه، وركِب إلى دار الخلافة في غِلْمانٍ قلائلَ، فلما دخَل على الخليفةِ خاطَبه مُخاطَبةً عظيمةً، وحلَف له أنه طَيِّبُ القَلْبِ عليه، وله عندَه الصَّفاءُ الذي

يَعْرِفُه، وخرجَ مِن بينِ يديه مُعَظَّمًا مُكَرَّمًا، وركب أبو العباس ابنُ المقتدرِ والوزيرُ عليُّ بنُ عيسى، ونصرٌ الحاجبُ في خدمته لتوديعه، وكبارُ الأمراء بينَ يديه مثلُ الحَجَبة، وكان خروجُه يومًا مشهودًا، قاصدًا بلادَ الثُّغورِ لقتالِ الروم.

وفي جُمادَى الأولى قُبِض على رجلٍ خنَّاقٍ قد قتل خَلْقًا من النِّساء؛ لأنه ادَّعى أنه يَعْرِفُ العَطْفَ والتَّنجيمَ، فقصدَه النساءُ لذلك، فإذا انفَرَد بالمرأة قام إليها، فخنَقها بوَتَر، وأعانَتْه امرأتُه على ذلك، ثم حفَر لها في داره فدفَنها، فإذا امتَلأَت تلك الدارُ انتقلَ عنها إلى غيرِها. ولما ظُهِر عليه وُجِد في داره سبعَ عشْرةَ امرأةً قد خَنَقهنَّ، ثم تُتُبِّعَت الدُّورُ التي سكَنها، فوجَدوا شيئًا كثيرًا قد قُتِل من النِّساء، فضُرِب ألفَ سَوْطٍ، ثم صُلِب حيًّا حتى مات، قبَّحه اللهُ.

وفي هذه السنة كان ظُهورُ الدَّيْلمِ ببلادِ الرَّيِّ، فكان فيهم ملكٌ غلَب على أمرِهم يُقالُ له: مَرْداويجُ. يَجْلِسُ على سَريرٍ من ذهبٍ، وبينَ يديه سَريرٌ من فضَّةٍ، ويقول: أنا سليمانُ بنُ داودَ. وقد سار في أهلِ الرَّيِّ وقَزْوين وأصْبهانَ سيرةً قبيحةً جدًّا، فكان يَقْتُلُ النِّساءَ، والصِّبيانَ في المُهودِ، ويأخُذُ أموالَ الناسِ، وهو في غايةِ الجَبَروتِ والشِّدَّةِ والجُرْأةِ على محارمِ الله، عَزَّ وجلَّ، فقتَلَه الأتراكُ، وأراح اللهُ المسلمين من شرِّه. ولله الحمدُ والمِنَّةُ.

وفي هذه السنة كانتْ وقعةٌ عظيمةٌ بينَ يوسُفَ بنِ أبي الساجِ وبينَ أبي طاهرٍ القِرْمِطيِّ عندَ الكوفةِ؛ سبقَه إليها أبو طاهرٍ، فحال بينَه وبينها، فكتَب إليه يوسفُ بنُ أبي الساج: اسْمَعْ وأطِعْ، وإلا فاستَعِدَّ للقتالِ يومَ السبتِ تاسعَ شوالٍ من هذه السنة. فقال: هَلُمَّ. فلما تَراءَى الجَمْعان استَقَلَّ يوسفُ ابنُ أبي الساجِ، وكان معه عشرونَ ألفًا، جيشَ القِرْمطيِّ وكان معه ألفُ فارسٍ وخمسُمائةِ راجلٍ، فقال: وما قيمةُ هؤلاء الكلابِ؟ وأمَر الكاتبَ أن يَكْتُبَ بالفتحِ قبلَ اللقاءِ إلى الخليفة، فلما اقْتَتلوا ثبَتَت القَرامطةُ ثباتًا عظيمًا، ونزَل أبو طاهرٍ سليمانُ بنُ أبي سعيدٍ الجَنَّابيُّ، لعنه اللهُ، فحرَّض أصْحابَه، وحمَل بهم حَملةً صادقةً، فهزَموا جُنْدَ الخَليفة، وأسَروا يوسفَ بنَ أبي الساجِ وقتَلوا خلقًا كثيرًا من جُنْدِ الخليفة، واستَحْوَذ على الكوفة، وجاءَت الأخبارُ بذلك إلى بَغْدادَ، وشاع بينَ الناسِ أن القِرْمطيَّ يريدُ أن يَقصِدَ بغدادَ ليأخُذَها، فانْزَعج المسلمون لذلك وظنُّوا صِدْقَه، فاجْتَمع الوزيرُ بالخليفة، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إن الأموالَ إنما تُدَّخَرُ لتكونَ عَوْنًا على قتالِ أعْداءِ الله، وإن هذا الأمرَ لم يَقَعْ بعدَ زمنِ الصَّحابةِ أفْظَعُ منه، قد قطَع هذا الكافرُ طريقَ الحجِّ على الناسِ، وفتَك في المسلمين مرَّةً بعدَ مرَّةٍ، وإن بيتَ المالِ ليس فيه شيءٌ، فاتَّقِ اللهَ يا أميرَ المؤمنين، وخاطِب السيدةَ - يعني أُمَّه - فإن كان عندها مالٌ قد ادَّخَرَتْه لشدَّةٍ، فهذا وقتُه. فدخَل على أمِّه، فكانتْ هي التي ابْتدأَته بذلك، وبذَلَت له خمسَمائة ألف دينارٍ، وكان في بيتِ المالِ مثلُها، فسلَّمها الخليفةُ إلى الوزيرِ ليَصْرِفَها في تنفيذِ الجُيوشِ نحوَ القرامطة، فجهَّز الوزيرُ جيشًا؛ أربعين ألفًا مع أميرٍ يقالُ له: يَلْبَقُ. فأخذوا عليه الطُّرقاتِ وكان يريدُ دُخولَ بَغدادَ، ثم الْتَقَوْا معه، فلم يَلْبَثْ جيشُ الخليفة أن انْهزَم، فإنا

لله وإنا إليه راجعون. وكان يوسُف بنُ أبي الساجِ معهم مُقَيَّدًا في خَيْمةٍ، فجَعَل يَنْظُرُ إلى مَحَلِّ الوَقْعة، فلما رجَع القِرْمِطيُّ قال: أرَدْتَ أن تَهْرُبَ؟! ثم أمر به فضُرِبَت عنقُه، ورجَع القِرْمِطيُّ من ناحيةِ بَغْدادَ إلى الأنبارِ، ثم انصَرَف إلى هِيتَ، فأكْثَر أهلُ بَغْدادَ الصَّدَقةَ، وكذلك الخليفةُ وأمُّه والوزيرُ؛ شُكْرًا لله عزَّ وجلَّ على صَرْفِه عنهم هذا الخبيثَ. ولله الحمدُ والمنةُ.

وفي هذه السنة بعَث المَهْديُّ المُدَّعي أنه فاطميٌّ - الذي ظهر ببلادِ المغربِ - ولدَه أبا القاسمِ في جيشٍ، فانهَزَم جيشُه، وقُتِل من أصحابِه خَلْقٌ كثيرٌ.

واختُطَّت في هذه السنة المدينةُ المُحَمَّدِيةُ.

وفيها حاصَر عبدُ الرحمنِ بنُ الداخلِ الأمويُّ مدينةَ طُلَيْطِلَةَ، وكانوا مُسْلِمين لكنهم نقَضوا ما كانوا عاهدوه عليه، ففتَحها قَهْرًا، وقتَل خلقًا من أهلِها.

وممن تُوُفِّيَ فيها من الأعيان:

ابنُ الجَصَّاصِ الجَوْهريُّ، الحسينُ بنُ عبد الله بن الجَصَّاصِ الجَوْهريُّ أبو عبد الله البَغْداديُّ[1]، كان ذا مالٍ عظيمٍ وثَرْوةٍ مُتَّسعةٍ جدًّا، وكان أصلُ نِعْمتِه من بيتِ أحمدَ بنِ طُولُونَ، كان قد جعَله جَوْهَرِيًّا له يَتَسوقُ له ما يقعُ من نفائسِ الجواهرِ بمصرَ، فاكْتَسَب بسببِ ذلك أموالاً جَزيلةً جدًّا.

قال ابنُ الجَصَّاصِ: كنتُ يومًا بباب ابنِ طُولُونَ إذ خرَجَت القَهْرَمانةُ، وبيدِها عِقْدٌ فيه مائةُ حَبَّةٍ من الجَوْهَرِ، تُساوي كلُّ واحدةٍ ألفَ دينارٍ، فقالت: أُريدُ أن تَأْخُذَ هذا فتَخْرُطَه حتى يكونَ أصْغَرَ من هذا الحجمِ، فإن هذا نافرٌ على ما يُريدونه. فأخَذْتُه منها، وذهَبْتُ به إلى المنزلِ وحصَّلْتُ جَواهرَ أصْغَرَ منها تُساوي أقلَّ من عُشْرِ قيمةِ تلك الجواهرِ بكثيرٍ، فدفَعْتُها إليها، وفُزْتُ أنا بذلك الذي جاءَت به، فكانتْ قيمتُه مائتَيْ ألفِ دينارٍ. وقد اتَّفق أنه صُودِر في زمانِ المُقْتَدِرِ مُصادَرةً عظيمةً، أُخذ منه ما يُقاوِمُ ستةَ عشرَ ألفَ ألفِ دينارٍ، وبَقِيَ معه من الأموالِ شيءٌ كثيرٌ جدًّا.

قال بعضُهم: دخَلْتُ عليه وهو يَتَرَدَّدُ في منزلِه كأنه مَجْنونٌ، فقلتُ له: مالك؟! فقال: ويحَك! أُخذ مني كذا وكذا؛ فأنا أُحِسُّ أن رُوحي ستَخْرُجُ. فعذَرْتُه ثم أخَذْتُ في تَسْليتِه فقلتُ له: إنَّ دارَك وبَساتينَك وضياعَك الباقيةَ لك تُساوي سبعَمائةِ ألفِ دينارٍ، واصْدُقْني كم بقي عندَك من الجَواهرِ والمَتاعِ. فإذا هو يُساوي ثلاثَمائةِ ألفِ دينارٍ، فقلتُ: إن هذا الأمرَ لا يُشارِكُك فيه أحدٌ من التُّجارِ ببَغْدادَ، مع ما لكَ من الوَجاهةِ عندَ الدَّوْلةِ والناسِ. قال: فسُرِّي عنه، وتَسَلَّى عما كان عليه وأكَل، وكان له ثلاثةُ أيامٍ لم يَأْكُلْ شيئًا، ولما خلَص من مُصادَرةِ المُقْتَدِرِ بشَفاعةِ أُمِّه السيدةِ فيه حكَى عن نَفْسِه قال: نظَرْتُ في دارِ الخلافةِ إلى مائةِ خَيْشَةٍ، فيها مَتاعٌ رَثٌّ مما حُمِل إليَّ من مصرَ، وهو عندَهم بدارِ مَضيعةٍ، وكان لي في كلِّ حِمْلٍ ألفُ دينارٍ مَوْضوعةٌ فيه من مصرَ لا يَشْعُرُ بها أحدٌ، فاسْتَوْهَبْتُ ذلك

---

(١) ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٤٦٩) وما بعدها.

من أمِّ المُقتدِر، فكلَّمَت في ذلك ولدَها، فأطلَقَه لي فتسلَّمتُه، فإذا الذهبُ لم ينْقُصْ منه شيء.

وقد كان مع ذلك مُغَفَّلاً شديدَ التَّغَفُّلِ في كلامه وأفعاله، وقد ذُكِر عنه أشياءُ تَدُلُّ على ذلك، وقيل: إنه إنما كان يَفعلُ ذلك ليُظهِرَ أنه مُغَفَّلٌ. وقيل: إنه كان يقولُ ذلك على سبيلِ البَسْطِ والدُّعابة. واللهُ تعالى أعْلَمُ.

وفيها تُوفِّيَ عبدُ اللهِ بنُ محمدٍ القَزْوِينيُّ.

وعليُّ بنُ سليمانَ بنِ الفَضْلِ أبو الحسنِ الأخْفَشُ(١)، روَىٰ عن المُبَرِّدِ وثَعْلبٍ واليَزيديِّ وغيرِهم، وعنه المَرْزُبانيُّ والمُعافَىٰ وغيرُهما، وكان ثقةً في نَقْلِه، فَقيرًا في ذات يده، تَوصَّل إلى أبي عليِّ بنِ مُقْلةَ حتى كلَّم فيه الوزيرَ عليَّ بنَ عيسى في أن يُرَتِّبَ له شيءٌ فلم يُجِبْه إلى ذلك، وضاق به الحالُ حتى كان يأكُلُ اللِّفْتَ النِّيءَ، فمات فجأةً من كثرةِ أكلِه، وذلك في شَعْبانَ من هذه السنة، وهذا هو الأخْفَشُ الصغيرُ، والأوسَطُ هو سعيدُ بنُ مَسْعَدةَ تلميذُ سيبَوَيْه، وأما الأكبرُ فهو أبو الخَطَّاب عبدُ الحميدِ بنُ عبدِ المجيد، من أهلِ هَجَرَ، وهو شيخُ سيبَوَيْه وأبي عُبَيدةَ وغيرِهما.

وأبو بكرٍ محمدُ بنُ السَّرِيِّ السَّرَّاج النَّحْويُّ، صاحبُ «الأُصول» في النَّحْوِ. قاله ابنُ الأثيرِ.

ومحمدُ بنُ المُسَيَّبِ الأرْغِيانيُّ.

ثم دخلت سنة ست عشرة وثلاثمائة

فيها عاث القِرْمِطيُّ -لعنه اللهُ، وهو أبو طاهرٍ سليمانُ بنُ أبي سعيدٍ الجَنَّابيُّ- في الأرضِ فسادًا، حاصَرَ الرَّحْبَةَ، فدخَلها قَهْرًا، وقتَل من أهلِها خَلْقًا كثيرًا، وطلَب منه أهلُ قَرْقِيسيا الأمانَ فأمَّنَهم، وبعَث سَرايا إلى ما حولَها من الأعراب، فقتَل منهم خَلْقًا أيضًا، حتى صاروا إذا سمِعوا بذِكْرِه يَهْرُبون من سَماعِ اسمِه، وقرَّر على الأعرابِ إتاوةً يَحْمِلونها إلى هَجَر في كلِّ سنةٍ، عن كلِّ رأسٍ ديناران. وعاث في نَواحي المَوْصِلِ وسِنْجارَ وتلك الديارِ، وقتَل وسلَب ونهَب، فقصَده مُؤْنسٌ الخادمُ، فلم يَتَواجَهَا، ثم رجَع إلى بلده، فابْتَنَىٰ بها دارًا سمَّاها دارَ الهِجْرة، ودعا إلى المَهْديِّ الذي ببلادِ المغرب باني المَهْدِيَّة، وتَفاقَم أمْرُه وكثُرَ أتْباعُه، وصاروا يَكْبِسون القريةَ من أرضِ السَّوادِ فيَقْتُلون أهلَها ويَنْهَبون أموالَها، ورام في نفسِه دُخولَ الكوفة وأخْذَها فلم يَقْدِرْ على ذلك، وعصَمها اللهُ منه. ولما رأى الوزيرُ عليُّ بنُ عيسى ما يَفْعَلُ هذا الهَجَريُّ القِرْمِطيُّ ببلادِ الإسْلام، والخَليفةُ وجيشُه ضعفاءُ عن مقاومتِه، استعفَى من الوزارةِ وعزَل نَفْسَه عنها، فسعَى فيها أبو عليِّ بنُ مُقْلةَ الكاتبُ المَشْهورُ، فوليَها بسفارةِ نصرٍ الحاجبِ وأبي عبدِ الله البَريديِّ -بالباءِ المُوَحَّدة، من البَريد- ويُقالُ: اليَزيديُّ. لخدْمةِ جَدِّه يزيدَ بنِ منصورٍ الحِمْيَريِّ. ثم جهَّز الخَليفةُ جيشًا كَثيفًا مع مُؤْنسٍ الخادمِ،

---

(١) ترجمته في «تاريخ بغداد» (١١/ ٤٣٣) و«سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٤٨٠) وما بعدها.

فاقتتلوا مع القَرامطة، فقتَلوا من القَرامطة خلقًا كثيرًا، وأسَروا منهم طائفةً كثيرةً من أشرافِهم، ودخلوا مع مُؤنسٍ الخادمِ إلى بَغدادَ، والأُسارىٰ بين يديه، وأعْلامٌ من أعْلامهم بيضٌ مُنَكَّسةٌ مَكتوبٌ عليها: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥] ففرح المسلمون بذلك فرَحًا شديدًا، وطابَتْ أنفُسُ أهلِ بغدادَ، وانْكسَر شرُّ القَرامطة الذين كانوا قد نشَئوا وكثُروا وأظهروا رءُوسَهم بأرضِ العراقِ، ونَهَبوا كثيرًا من القرىٰ، وفوَّضوا أمْرَهم إلىٰ رجلٍ يُقالُ له: حُرَيْثُ بنُ مَسْعودٍ - لا أسعده اللهُ - ودعَوا إلى المَهديِّ الذي ظهَر ببلادِ المغربِ وبنى المَهْدِيَّةَ جَدِّ الخلفاءِ الفاطميِّين، وهم أدْعياءُ فيما ذكَروا لهم من النَّسَبِ، كما نصَّ علىٰ ذلك غيرُ واحدٍ من أئمة العُلماءِ، كما سيأتي تفصيلُه وبيانُه في مَوضعه.

وفيها وقَعَت وَحْشةٌ بينَ مُؤنسٍ الخادمِ والمُقْتَدِرِ، وسببُ ذلك أن نازوكَ أميرَ الشُّرْطة وقَع بينَه وبينَ هارونَ بنِ غَريبٍ - وهو ابنُ خالِ المُقْتَدِرِ - فانْتَصر هارونُ علىٰ نازوكَ، وشاع بينَ العامَّة أن هارونَ سيَصيرُ أميرَ الأُمراءِ، فبلَغ ذلك مُؤنسًا الخادمَ وهو بالرَّقَّة، فأسْرَع الأَوْبَةَ إلىٰ بَغدادَ، واجْتَمَع بالخليفة فتصالحا، ثم إن الخَليفةَ نقَل هارونَ إلى دارِ الخلافة، فقَويَت الوَحْشةُ بينَهما، وانْضَمَّ إلىٰ مُؤنسٍ جَماعةٌ من الأُمراءِ وترَدَّدت الرُّسُلُ بينَهما، وانْقَضت هذه السنةُ والأمْرُ كذلك. وهذا كلُّه من ضَعْفِ الأُمورِ واضْطرابها وكثرةِ الفتَنِ وانْتشارِها.

وفيها كان مَقْتَلُ الحسَنِ بنِ القاسمِ الداعي العَلَويِّ صاحبِ الرَّيِّ، علىٰ يدِ صاحبِ الدَّيْلَمِ وسُلْطانِهم مَرْداويجَ المُجْرِمِ، قبَّحه اللهُ.

ومِمن تُوفِّي فيها من الأعْيانِ:

بُنانُ بنُ محمدِ بنِ حَمْدانَ بنِ سعيدٍ أبو الحسنِ الزاهدُ، ويُعْرَفُ بالحَمَّالِ، روَىٰ الحديثَ عن الحسنِ ابنِ عَرَفَةَ، وكان يُضربُ بزهده المثلُ، وكانت له كَراماتٌ كثيرةٌ، ومَنْزِلةٌ كَبيرةٌ عندَ الناسِ، وكان لا يَقْبَلُ من السُّلْطانِ شيئًا، وقد أنْكَر يومًا علىٰ ابنِ طُولُونَ شيئًا من المُنْكَراتِ، وأمَره بالمَعْروفِ، فأمَر به فأُلقِي بينَ يدي الأسدِ، فكان الأسدُ يَشَمُّه ويُحْجِمُ عنه، فرُفِع من بين يديه، وعظَّمه الناسُ جدًّا.

وقد سأله بعضُ الناسِ: كيف كان حالُك وأنت بينَ يدي الأسدِ؟ فقال: لم يَكُنْ عليَّ بأسٌ، قد كنتُ أُفَكِّرُ في سُؤْرِ السِّباعِ أهو طاهرٌ أم نَجِسٌ.

قالوا: وجاءَه رجلٌ فقال له: إن لي علىٰ رجلٍ مائةَ دينارٍ، وقد ذهَبَت الوَثيقةُ، وأنا أخْشَىٰ أن يُنْكِرَ الرجلُ، فأسْأَلُك الدعاءَ. فقال له: إني رجلٌ قد كبِرْتُ، وأنا أُحِبُّ الحَلْواءَ، فاذهَبْ فاشْتَرِ لي منها رِطْلًا وأْتني به حتىٰ أدْعُوَ لك. فذهَب الرجلُ فاشْتَرَىٰ، ثم جاء ففَتَح الورَقَةَ التي فيها الحَلْواءُ، فإذا هي حُجَّتُه بالمائةِ دينارٍ، فقال له الشيخُ: أهذه حُجَّتُك؟ قال: نعم. قال: خُذْها وخُذِ الحَلْواءَ فأطْعِمْها صِبْيانَك. ولما تُوُفِّيَ خرَج أهلُ مصرَ في جِنازتِه تعْظيمًا لشأْنِه وإكْرامًا له.

ومحمدُ بنُ خُرَيمٍ ومحمدُ بنُ عَقيلٍ البَلْخيُّ. وأبو بكرٍ بنُ أبي داودَ السِّجِسْتانيُّ الحافظُ ابنُ الحافظ، رحمهما اللهُ. وأبو عَوانةَ يَعقوبُ بنُ إسْحاقَ بنِ إبراهيمَ الإسفرايينيُّ، صاحبُ «الصَّحيح» المخرَّج على «صحيح مسلم»، وقد كان مِن الحُفَّاظ المُكثرين، والأئمة المَشْهُورين. ونصرٌ الحاجبُ للخليفة المقتدر، كان من خيارِ الأُمراءِ، دَيِّنًا عاقلاً، أنفَق من مالِه في حربِ القَرامطةِ مائةَ ألفِ دينارٍ، وخرَج بنَفسِه مُحتَسِبًا، فمات في أثناءِ الطريقِ في هذه السنة.

ثم دخلت سنة سبع عشرة وثلاثمائة

فيها: كان خلعُ المُقْتَدرِ وتَوْليةُ القاهرِ محمدِ بنِ المُعْتَضِدِ بالله أخي المقتدرِ بالله. في المُحرَّم من هذه السنةِ اشْتَدَّت الوَحْشةُ بينَ مُؤْنسٍ الخادمِ والخليفةِ، فالْتَفَّ الأمراءُ على مُؤْنسٍ الخادم، وتَفاقَم الحالُ وآل إلى أن اجْتَمَعوا على خَلْعِ المُقْتَدرِ بالله وتَوليةِ محمدِ بنِ المُعْتَضِد، فبايَعوه بالخلافة وسلَّموا عليه بها، ولقَّبوه القاهرَ بالله، وذلك ليلةَ السبتِ للنِّصْفِ مِن المُحرَّم من هذه السنة، وقُلِّد أبو عليٍّ بنُ مُقْلَةَ وزارتَه، ونُهِبَت دارُ المُقْتَدرِ، وأخذوا منها شيئًا كثيرًا، ووُجِدَ لأمِّ المُقْتَدرِ ستُّمائة ألفِ دينارٍ قد دفَنَتْها في قبرٍ بتُرْبَتِها، فحُمِلَت إلى بيتِ المال، وأُخرِج المُقْتَدرُ وأمُّه وخالتُه وخَواصُّ جَواريه من دارِ الخلافة، وذلك بعدَ مُحاصَرةِ دارِ الخلافة، وهرَب مَن كان بها من الحَجَبةِ والخَدَم منها، ووَلِي نازوكُ الحُجوبةَ مُضافًا إلى ما بيدِه من الشُّرْطة، وألْزَم المُقْتَدرَ بأن كتَب على نَفْسِه كتابًا بالخَلْعِ من الخلافة، وأشْهَد على نفسِه بذلك جَماعةً من الأُمراء، وسلَّم الكتابَ إلى القاضي أبي عمرَ محمدِ بنِ يوسُفَ، فقال لولدِه أبي الحُسَين: احْتَفِظْ بهذا الكتابِ فلا يَرَيَنَّه أحدٌ من خَلْقِ الله. فلما أُعيدَ المُقْتَدرُ إلى الخلافةِ بعدَ يومَيْن ردَّه إليه، فشكَره على ذلك جدًّا وولَّاه قَضاءَ القُضاة. ولما كان يومُ الأحدِ السادسَ عشَرَ من المُحَرَّم جلَس القاهرُ بالله في مَنْصِبِ الخلافة، وجلَس بينَ يديه الوزيرُ أبو عليٍّ بنُ مُقْلَةَ، وكتَب إلى العُمَّالِ بالآفاقِ يُخبِرُهم بولايةِ القاهرِ بالخلافةِ عوَضًا عن المُقْتَدرِ، وأطْلَق عليَّ بنَ عيسى من السِّجْنِ، وزاد في أقْطاعِ جَماعةٍ من الأُمراءِ الذين قاموا بنَصْرِه، منهم أبو الهَيْجاءِ بنُ حَمْدانَ.

فلما كان يومُ الإثنين جاء الجُنْدُ فطلَبوا أرْزاقَهم وشغَبوا، وساروا إلى نازوكَ فقتَلوه - وكان مخْمورًا - ثم صلَبوه، وهرَب الوزيرُ بنُ مُقْلَةَ والحَجَبةُ، ونادَوْا: يا مُقْتَدرُ يا مَنْصورُ. ولم يَكُنْ مُؤْنسٌ يومئذٍ حاضرًا، وجاءت الجنودُ إلى بابِه يُطالبونه بالمُقْتَدرِ فأغلق بابه وحاجف دونه خدمه، فلما رأى مؤنس أنه لابد من تسليم المقتدر إليهم أمَره بالخُروجِ، فخاف أن يَكونَ حيلةً عليه، ثم تَجاسَر فخرَج فحملَه الرجالُ على أعْناقِهم حتى أدْخَلوه دارَ الخلافة، فسأَل عن أخيه القاهرِ وأبي الهَيْجاءِ بنِ حَمْدانَ لِيَكْتُبَ لهما أمانًا، فما كان عن قريبٍ حتى جاءه خادمٌ ومعه رأسُ أبي الهَيْجاءِ قد احْتَزَّه وأخْرَجه من

(١) ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٥٩٧).

بين كَتِفَيه، وجاء المقتدرُ بالله فجلس في الدَّسْت، واستَدْعَى بالقاهرِ فأجْلَسَه بينَ يديه واستدناه إليه، وقبَّل بينَ عينَيْه وقال: يا أخي، أنت لا ذَنْبَ لك، وقد علمْتُ أنك قُهِرْتَ. والقاهرُ يقولُ: اللهَ اللهَ، نَفْسي نفسي يا أميرَ المؤمنين. فقال: وحقِّ رسولِ الله ﷺ لا جرَىٰ عليك مني سُوءٌ أبدًا. وعاد ابنُ مُقْلَةَ، فكتَب إلى الآفاقِ يُعلِمُهم بعَوْدِ المُقْتَدِرِ، وتراجَعَتِ الأمورُ إلى حالها الأولِ ببغدادَ، واستقرَّ المُقْتَدِرُ في الخلافة كما كان، وحُمِل رأسُ نازوكَ وأبي الهَيْجاءِ بنِ حَمْدانَ، فنُودِي عليهما: هذا جزاءُ مَن عصَىٰ مَوْلاه. وهرَب أبو السَّرايا بنُ حَمْدانَ إلى المَوْصِلِ، وكان ابنُ نَفيسٍ من أشَدِّ الناسِ على المُقْتَدِرِ، فلما عاد إلى الخلافة خرَج من بَغدادَ مُتَنَكِّرًا، فدخَل المَوْصِلَ، ثم صار إلى أرْمينيَةَ، ثم لحق بمدينةِ القُسْطَنْطينية، فتنَصَّر مع أهلِها، لعنه اللهُ وإيَّاهم. وأما مُؤْنِسٌ فإنه لم يَكُنْ في الباطنِ على المُقْتَدِرِ، وإنما وافَق جَماعةَ الأمراءِ مُكْرَهًا، ولهذا لَمَّا أُودِع المُقْتَدِرُ في دارِه لم يَنَلْه منه سوءٌ، بل كان يُطَيِّبُ قلبَه، ولو شاء لَقَتَلَه لَمَّا طُلِب من داره؛ فلهذا لما عاد إلى الخلافة رجَع إلى دارِ مُؤْنِسٍ، فبات بها عنده، لثقَتِه به. وقرَّر أبا عليٍّ ابنَ مُقْلَةَ على الوزارة، وولَّى محمدَ بنَ يوسُفَ أبا عمرَ قَضاءَ القُضاة، وجعَل محمدًا أخاه - وهو القاهرُ بالله - عندَ والدته بصفة مُحْتَبَسٍ عندَها، فكانت تُحْسِنُ إليه غايةَ الإحسان، وتَشْتَري له السَّراريَّ، وتُكْرِمُه غايةَ الإكرام.

ذِكْرُ أخْذِ القَرامطةِ الحَجَرَ الأسودَ إلى بلادهم وما كان منهم إلى الحجيج، لعَن اللهُ القرامطةَ فيها خرَج رَكْبُ العراقِ وأميرُهم مَنْصورٌ الدَّيْلَميُّ، فوصَلوا إلى مكةَ سالمين، وتَوافَت الرُّكوبُ هناك من كلِّ جانبٍ، فما شعَروا إلا بالقِرْمِطيِّ قد خرَج عليهم في جَماعته يومَ التَّرْوية، فانْتَهَب أموالَهم واسْتَباح قِتالَهم، فقتَل الناسَ في رِحابِ مكةَ وشعابِها حتى في المسجدِ الحَرامِ وفي جَوْفِ الكعبة، وجلَس أميرُهم أبو طاهرٍ سليمانُ بنُ أبي سعيدٍ الجَنَّابيُّ - لعنَه اللهُ - على بابِ الكعبة، والرِّجالُ تُصْرَعُ حوله في المسجدِ الحَرامِ في الشهرِ الحرامِ ثم في يومِ التَّرْوية، الذي هو من أشْرفِ الأيام، وهو يقول:

أنا باللهِ وباللهِ أنا ... يَخْلُقُ الخلقَ وأُفْنيهم أنا

فكان الناس يَفِرّون فيتَعَلَّقون بأسْتارِ الكعبة فلا يُجْدي ذلك عنهم شيئًا، بل يُقْتَلون وهم كذلك، ويَطوفون فيُقْتَلون في الطَّواف، وقد كان بعضُ أهلِ الحَديثِ يومئذٍ يَطوفُ، فلما قضى طَوافَه أخَذَتْه السيوفُ، فلما وجَب أنْشَد وهو كذلك:

تَرَى المُحِبِّين صَرْعَىٰ في ديارِهِمُ ... كفِتْيَةِ الكهفِ لا يَدْرون كم لَبِثوا

ثم أمر القِرْمِطيُّ - لعنه اللهُ - أن تُدْفَنَ القَتْلَىٰ ببئرِ زَمْزَمَ، ودفَن كثيرًا منهم في أماكنهم وحتى في المسجدِ الحَرامِ - ويا حبَّذا تلك القِتْلةُ وتلك الضِّجْعةُ - ولم يُغَسَّلوا ولم يُكَفَّنوا ولم يُصَلَّ عليهم؛ لأنهم شُهَداءُ في نَفْسِ الأمر، بل من خيارِ الشهداء، وهدَم قُبَّةَ زمزمَ، وأمَر بقَلْعِ بابِ الكعبة ونَزْعِ كُسْوتِها عنها، وشقَّقَها بينَ أصحابه، وأمَر رجلًا أن يَصْعَدَ إلى ميزابِ الكعبة فأراد أن يَقْتَلِعَه، فسقَط على أُمِّ

رأسه، فمات لعنه اللهُ وصار إلى أمِّه الهاوية، فانكفَّ اللعينُ عند ذلك عن الميزاب، ثم أمر بأن يُقلَعَ الحَجَرُ الأسودُ، وجاءه رجلٌ فضرب الحجرَ بمُثقَّلٍ في يده، وقال: أين الطَّيرُ الأبابيلُ؟ أين الحجارةُ من سجِّيلٍ؟ ثم قلَع الحجرَ الأسودَ، شرَّفه اللهُ وكرَّمه وعظَّمه، وأخذوه معهم حين راحوا إلى بلادهم، فكان عندَهم ثنتيْن وعشرين سنةً حتى ردُّوه، كما سنَذْكُره في موضعه في سنة تسعٍ وثلاثين وثلاثمائة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما رجَع القرْمطيُّ إلى بلاده، تبِعه أميرُ مكةَ هو وأهلُ بيته وجُنْدُه وسأله وتشفَّع إليه في أن يَرُدَّ الحجرَ ليُوضَعَ في مكانه، وبذَل له جميعَ ما عندَه من الأموال، فلم يفعلْ - لعنه اللهُ - فقاتَله أميرُ مكةَ فقتَله القرْمطيُّ وقتَل أكثرَ أهله وجُنْده، واستمَرَّ ذاهبًا إلى بلاده ومعه الحجرُ الأسودُ وأموالُ الحَجيج.

وقد ألْحَد هذا اللَّعينُ في المسجدِ الحَرامِ إلحادًا لم يَسْبِقْه إليه أحدٌ ولا يَلْحقُه فيه، وسيُجازيه على ذلك الذي لا يُعَذِّبُ عَذابَه أحدٌ، ولا يُوثِقُ وَثاقَه أحدٌ، وإنما حمَل هؤلاء على هذا الصَّنيع؛ أنهم كانوا كُفَّارًا زَنادقةً، وقد كانوا مُمالئين للفاطميِّين الذين نبَغوا في هذه السنين ببلاد إفْريقيَّةَ من أرض المغرب، ويُلَقَّبُ أميرُهم بالمَهْديِّ، وهو أبو محمدٍ عُبَيدُ الله بنُ مَيْمونٍ القَدَّاحُ، وقد كان صبَّاغًا بسَلَمْيَةَ يهوديا فادَّعَى أنَّه أسْلَم، ثم سار منها إلى بلادِ إفْريقيَّةَ، فادَّعَى أنه شريفٌ فاطميٌّ، فصدَّقه على ذلك طائفةٌ كثيرةٌ من البَرْبَرِ وغيرِهم من الجَهَلةِ، وصارتْ له دولةٌ، فملَك مدينة سجِلْماسَةَ، ثم ابْتَنى مدينةً وسمَّاها المَهْديةَ، وكان قَرارُ مُلْكه بها، وكان هؤلاء القَرامطةُ يُراسلونه ويَدْعُون إليه ويَترامَوْن عليه، ويُقالُ: إنهم إنما كانوا يَفْعَلون ذلك سياسةً ودَوْلةً لا حقيقةَ له.

وذكَر ابنُ الأثير أن المهديَّ هذا كتَب إلى أبي طاهرٍ القرْمطيِّ يَلومُه على فعله بمكةَ، حيث سلَّط الناسَ على الكَلامِ في عِرضِهم، وانْكَشَفَت أسْرارُهم التي كانوا يُبْطنونها بما ظهَر من صَنيعهم هذا القبيح، وأمَره بردِّ ما أخذ منها، وعَوْدِه إليها، فكتَب إليه بالسَّمْعِ والطاعةِ، وأنه قد قَبِل ما أشار إليه من ذلك.

وقد أُسر بعضُ أهلِ الحديث في أيدي القَرامطة، فمكَث في أيديهم مدةً، ثم فرَّج اللهُ عنه، وكان يَحْكي أن الذي أسرَه كان يَسْتَخْدِمُه في أشَقِّ الخِدْمة وأشَدِّها، وكان يُعَرْبِدُ عليه إذا سَكِر، فقال لي ذاتَ ليلةٍ وهو سكْرانُ: ما تَقولُ في محمدكم؟ فقلتُ: لا أدْري. فقال: كان رجلًا سائسًا. ثم قال: ما تَقولُ في أبي بكرٍ؟ فقلتُ: لا أدْري. فقال: كان ضَعيفًا مَهينًا، وكان عمرُ فظًّا غَليظًا، وكان عثمانُ جاهلًا أحْمَقَ، وكان عليٌّ مُمَخْرَقًا، أليس كان عندَه أحدٌ يُعَلِّمُه ما ادَّعَى أنه في صدره من العلم؟ أما كان يُمْكنُه أن يُعَلِّمَ هذا كلمةً وهذا كلمةً؟ ثم قال: هذا كلُّه مَخْرَقَةٌ. فلما كان الغدُ قال لي: لا تُخْبِرْ بهذا الذي قلْتُه لك أحدًا. رواه ابنُ الجَوْزيِّ في «مُنْتَظَمه».

وروى عن بعضهم أنه قال: كنتُ في المسجدِ الحرامِ يومَ اقْتُلِع الحجرُ الأسودُ، إذ دخَل رجلٌ وهو سكرانُ راكبٌ على فَرسه، فصفَّر لها حتى بالتْ في المسجدِ الحرامِ في مكانِ الطَّواف، ثم حمَل على

رجلٍ كان إلى جانبي فقتَله، ثم نادى بأعلى صوته: يا حَمير، أليس قلْتُم في بيتِكم هذا ﴿ومن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧]؟ فأين الأمْنُ؟ قال: فقلتُ له: أتسْمَعُ جَوابًا؟ قال: نعم. قلتُ: إنما أراد اللهُ: فأمِّنوه. قال: فثنَى رأسَ فرسه وانْصَرَف.

وقد سأل بعضُهم ههنا سؤالاً فقال: قد أحَلَّ اللهُ عزَّ وجلَّ بأصْحاب الفيلِ - وكانوا نَصارَى وهؤلاء شرٌّ منهم - ما ذكَره في كتابه العزيزِ حيثُ يقولُ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾، ومَعْلومٌ أن القَرامطةَ شرٌّ من اليهودِ والنَّصارَى والمجوسِ، بل ومن عبدَةِ الأصْنامِ، فهلاَّ عُوجِلوا بالعُقوبةِ كما عُوجِلَ أصحابُ الفيلِ؟ وقد أُجيب عن ذلك بأن أصحابَ الفيلِ إنما عُوقِبوا إظْهارًا لشرَفِ البيتِ الحرامِ، ولِمَا يُرادُ به من التَّشْريفِ والتعظيمِ بإرْسالِ النبيِّ الكريمِ ﷺ، من البلدِ الذي كان هذا البيتُ فيه؛ ليُعلَمَ شرفُ هذا الرسولِ الكريمِ الذي هو خاتمُ الأنبياءِ، فلما أراد هؤلاء إهانةَ هذه البُقْعةِ التي يُرادُ تَشْريفُها عمَّا قريبٍ أهْلَكهم اللهُ سريعًا عاجلاً غيرَ آجلٍ، كما ذكَر في كتابِه، وأما هؤلاء فكان من أمرِهم ما كان بعدَ تَقْريرِ الشَّرائعِ وتَمْهيدِ القَواعدِ، والعلمِ بالضَّرورةِ من دينِ الله بشرَفِ مكةَ والكعبةِ، وكلُّ مُؤْمنٍ يَعْلَمُ أن هؤلاء من أكبرِ المُلْحِدين الكافرين، بما تبَيَّن من كتابِ الله تعالى وسنةِ رسوله ﷺ، فلهذا لم يَحْتَجِ الحالُ إلى مُعاجَلتِهم بالعُقوبة، بل أخَّرَهم الربُّ جلَّ جلالُه ليومٍ تَشْخَصُ فيه الأبْصارُ، واللهُ سبحانه وتعالى يُمْهِلُ ويُمْلِي ويَسْتَدْرِجُ، ثم يَأْخُذُ أخْذَ عَزيزٍ مُقْتَدرٍ، كما قال رسولُ الله ﷺ: «إن اللهَ لَيُمْلِي للظالمِ حتى إذا أخَذَه لم يُفْلِتْه». ثم قرَأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وقال رسولُ الله ﷺ: «لا أحدَ أصبرُ على أذى سمِعَه من الله؛ إنهم يَجْعَلون له ولدًا وهو يرزُقُهم ويُعافيهم». وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]. وقال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۝ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]. وقال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]. وقال: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٧٠].

وفيها وقَعَت فتنةٌ ببغدادَ بينَ أصْحابِ أبي بكرٍ المَرْوَزيِّ الحَنْبليِّ، وبينَ طائفةٍ من العامَّةِ، اخْتَلفوا في تَفْسيرِ قوله تعالى: ﴿عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. فقالت الحنابلةُ: يُجْلِسُه معه على العرشِ. وقال الآخَرون: المرادُ بذلك الشَّفاعةُ العُظْمَى. فاقْتَتلوا بسببِ ذلك، وقُتِل بينَهم قَتْلَى، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وقد ثبَت في «صحيح البُخاري» أن المرادَ بذلك مَقامُ الشَّفاعةِ العُظْمَى، يَشفَعُ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ في أن يأتيَ لفَصْلِ القَضاءِ بينَ عبادِه، وهو المقامُ الذي يَرْغَبُ إليه فيه الخَلْقُ كلُّهم، حتى إبراهيمُ الخليلُ عليه الصلاةُ والسلامُ، ويَغْبِطُه به الأوَّلون والآخِرون.

وفيها وقَعَت فتنةٌ بالمَوْصِلِ بينَ العامَّةِ فيما يَتَعلَّقُ بأمْرِ المَعاشِ، وانتَشرَت وكثُر أهلُ الشَّرِّ فيها

واستظهروا، وجرت بينهم شرور، ثم سكنت.

وفيها وقعت فتنة ببلاد خراسان بين بني سامان وأميرهم نصر بن أحمد الملقب بالسعيد.

وخرج في شعبان خارجي بالموصل، وخرج آخر بالبوازيج، فقاتلهم أهل تلك الناحية حتى سكن شرهم، وتفرق أصحابهم.

وفيها التقى مفلح الساجي وملك الروم الدمستق، فهزمه مفلح وطرده وراءه إلى أرض الروم، وقتل منهم خلقًا كثيرًا. ولله الحمد.

وفيها هبت ريح شديدة ببغداد تحمل رملاً أحمر يشبه رمل أرض الحجاز، فامتلأت منه البيوت.

وممن توفي فيها من الأعيان:

أحمد بن الحسن بن الفرج بن شقير أبو بكر النحوي، كان عالمًا بمذهب الكوفيين، وله فيه تصانيف.

أحمد بن مهدي بن رستم، العابد الزاهد[1]، أنفق في طلب العلم ثلاثمائة ألف درهم، ومكث أربعين سنة لا يأوي إلى فراش.

وقد روى الحافظ أبو نعيم بسنده عنه أنه جاءته امرأة ذات ليلة، فقالت له: إني قد امتحنت بمحنة؛ أكرهت على الزنا وأنا حبلى منه، وقد تسترت بك، وزعمت أنك زوجي، وأن هذا الحمل منك، فاسترني سترك الله ولا تفضحني. فسكت عنها، فلما وضعت جاءني أهل المحلة وإمام مسجدهم يهنئونني بالولد، فأظهرت البشر، وبعثت فاشتريت بدينارين شيئًا حلوًا وجعلت أرسل إليها مع إمام المسجد كل شهر دينارين صفة نفقة الولد، وأقول: أقرئها مني السلام، فإنه قد سبق مني ما فرق بيني وبينها. فمكثت كذلك سنتين، ثم مات المولود، فجاءوني يعزونني فيه، فأظهرت التغمم والحزن عليه، ثم جاءتني المرأة بالدنانير التي كنت أرسل بها إليها قد جعلتها عندها، فقالت لي: سترك الله وجزاك خيرًا، وهذه الدنانير التي كنت ترسل بها. فقلت: يا هذه، إني إنما كنت أرسل بها صلة للولد، فخذيها فافعلي بها ما شئت.

بدر بن الهيثم بن خلف بن خالد بن راشد بن الضحاك بن النعمان بن محرق بن النعمان بن المنذر، أبو القاسم اللخمي القاضي الكوفي، نزل بغداد وحدث بها عن أبي كريب وغيره، وكان سماعه للحديث بعد ما جاوز أربعين سنة، وكان ثقة نبيلاً، عاش مائة سنة وسبع عشرة سنة. وكانت وفاته في شوال من هذه السنة بالكوفة.

عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المرزبان بن سابور بن شاهنشاه أبو القاسم البغوي[2]، ويعرف بابن بنت أحمد بن منيع، ولد سنة ثلاث عشرة - وقيل: أربع عشرة ومائتين، ورأى أبا عبيد القاسم

---

(١) ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٤٤٠) وما بعدها.

(٢) ترجمته في «السير» (١٤/ ٤٥٦).

ابنَ سَلَّامٍ ولم يَسْمَعْ منه، وسمع من أحمدَ بنِ حَنْبلٍ، وعليِّ بنِ المَدينيِّ، ويحيىٰ بنِ مَعينٍ، وعليِّ بنِ الجَعْدِ، وخَلَفِ بنِ هشامٍ البَزَّارِ، وخَلْقٍ، وكان معه جُزْءٌ فيه سَماعُه من ابنِ مَعينٍ، فأخَذه منه موسىٰ ابنُ هارونَ الحافظُ، فرَماه في دِجْلَةَ، وقال: أتريدُ أن تَجْمَعَ بينَ الثلاثةِ؟! وقد تفَرَّد عن سبعٍ وثمانين شيخًا، وكان ثقةً حافظًا ضابطًا، روىٰ عنه الحُفَّاظُ، وله مُصنَّفاتٌ.

قال موسى بنُ هارونَ الحافظُ: كان ابنُ مَنيعٍ ثقةً صَدوقًا. فقيل له: إن ههنا ناسًا يَتَكَلَّمون فيه. فقال: يَحْسُدونه، ابنُ مَنيعٍ لا يَقُولُ إلا الحَقَّ.

وقال ابنُ أبي حاتمٍ وغيرُه: يَدْخلُ في الصَّحيحِ.

وقال الدَّارَقُطْنيُّ: كان البَغَويُّ قلَّما يَتَكَلَّمُ علىٰ الحديثِ، فإذا تَكلَّم كان كلامُه كالمِسْمارِ في الساجِ. وقد ذكَره ابنُ عديٍّ في «كامله»، فتكلَّم فيه وقال: حدَّث بأشياءَ أُنْكِرَت عليه، وكان معه طَرَفٌ من مَعْرِفةِ الحديثِ والتَّصانيفِ. وقد انْتَدَب ابنُ الجَوْزيِّ للردِّ علىٰ ابنِ عديٍّ في هذا الكلامِ، وذكَر أنه تُوفِّي ليلةَ عيدِ الفطرِ منها، وقد اسْتَكْمَل مائةَ سنةٍ وثلاثَ سنين وشُهورًا، وهو مع ذلك صحيحُ السمعِ والبصرِ والأسْنانِ، يَطَأُ الإماءَ. وكانت وفاتُه ببَغْدادَ، ودُفِن بمَقْبَرةِ بابِ التِّبْنِ، رحمه اللهُ وأكْرَم مثْواه.

محمدُ بنُ أبي الحسينِ بنِ محمدِ بنِ عمَّارٍ الشَّهيدُ الحافظُ أبو الفضلِ الهَرَويُّ، يُعْرَفُ بابنِ أبي سعدٍ، قدم بغْدادَ، وحدَّث بها عن محمدِ بنِ عبدِ اللهِ الأنْصاريِّ، وحدَّث عنه ابنُ المُظَفَّرِ الحافظُ، وكان من الثِّقاتِ الأثْباتِ الحُفَّاظِ المُتقنين، له مُناقَشاتٌ علىٰ بضعةٍ وثلاثين حديثًا من «صحيحِ مسلمٍ»، قَتَلَتْه القَرامطةُ يومَ التَّرْويةِ بمكةَ في هذه السنةِ في جملةِ مَن قَتَلوا، رحمه اللهُ وأكْرَم مثْواه، وجعَل جناتِ الفردَوسِ مُتَقلَّبَه ومَثْواه.

الكَعْبيُّ المُتَكَلِّمُ، هو أبو القاسمِ عبدُ اللهِ بنُ أحمدَ بنِ محمودٍ البَلْخيُّ الكَعْبيُّ، نِسْبةً إلىٰ بني كعبٍ، وهو أحدُ مَشايخِ المُعْتَزلةِ، وتُنْسَبُ إليه الطائفةُ الكَعْبيةُ منهم.

قال القاضي ابنُ خَلِّكانَ: كان من كِبارِ المُتَكَلِّمين، وله اخْتياراتٌ في علمِ الكَلامِ؛ من ذلك أنه كان يَزْعُمُ أن أفعالَ اللهِ تعالىٰ تَقَعُ بلا اخْتيارٍ منه ولا مَشيئةٍ. هكذا أوْرَدَه عنه، وقد خالَف الكعبيُّ نصَّ القرآنِ في غيرِ ما مَوْضعٍ؛ قال اللهُ تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]. وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣]، ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]، إلىٰ غيرِ ذلك مما هو مَعْلومٌ بالضَّرورةِ بصَريحِ العَقْلِ والنَّقْلِ.

ثم دخلت سنة ثماني عشرة وثلاثمائة

فيها عزَل الخليفةُ المُقْتَدرُ باللهِ وزيرَه أبا عليٍّ بنَ مُقْلَةَ، فكانتْ مُدةُ وزارتِه سنتين وأربعةَ أشهرٍ وثلاثةَ أيامٍ، واستَوْزَر مكانَه سليمانَ بنَ الحسنِ بنِ مَخْلَدٍ، وجعَل عليَّ بنَ عيسى ناظرًا معه.

وفي جُمادَى الأولى منها أُحرِقَت دارُ أبي عليِّ بنِ مُقْلَةَ، وكان قد أنْفَق عليها مائةَ ألفِ دينارٍ، فانتَهَب الناسُ أخْشابَها وما وجَدوا فيها مِن حَديدٍ ورَصاصٍ وغيرِ ذلك، وصادَره الخليفةُ بمائتَيْ ألفِ دينارٍ.

وفيها طرَد الخليفةُ الرَّجَّالةَ الذين كانوا بدارِ الخلافةِ عن بغدادَ، وذلك أنهم لما ردُّوا المقتدرَ إلى الخلافةِ شرَعوا يُنَفِّسون بكلامٍ كثيرٍ عليه؛ يقولون: مَن أعان ظالمًا سُلِّط عليه، ومَن أصْعد الحمارَ إلى السَّطحِ يَقْدِر يُنزِلُه. فأمَر بإخْراجِهم عن بَغْدادَ، ومَن أقام منهم عُوقِب، فأُحْرِقت دُورٌ كثيرةٌ من قَراباتِهم، واحْترَق بعضُ نسائِهم وأوْلادِهم، فخرَجوا منها في غايةِ الإهانةِ، فنزَلوا واسطًا وتغَلَّبوا عليها، وأخْرَجوا عامِلَها منها، فركب إليهم مُؤْنسٌ الخادمُ، فأوْقَع بهم بَأْسًا شديدًا، وقتَل منهم خَلْقًا كثيرًا، فلم تَقُمْ لهم بعدَ ذلك رايةٌ.

وفي ربيعٍ الأولِ منها عزَل الخليفةُ ناصرَ الدَّوْلةِ بنَ حَمْدانَ عن المَوْصلِ، وولَّى عليها عَمَّيْه سعيدًا ونَصْرًا ابنَيْ حَمْدانَ. وولَّاه ديارَ رَبيعةَ؛ نَصيبينَ وسِنْجارَ والخابورَ ورأسَ العَيْنِ، ومعها ميَّافارِقينَ، وأرْزَنَ، ضمِن ذلك من الخليفةِ بمالٍ يَحْمِلُه في كلِّ سنةٍ.

وفي جُمادَى الأُولَى خرَج رجلٌ ببلادِ البوازيجِ يُقالُ له: صالحُ بنُ محمودٍ. فاجْتَمَع عليه جَماعةٌ مِن بني مالكٍ، ثم سار إلى سِنْجارَ، فحاصَرها، فدخَلها وأخَذ شيئًا كثيرًا من أمْوالِها، وخطَب بها خُطْبةً، ووعَظ فيها وذكَّر وحذَّر، فكان في جُمْلةِ ما قال: نتَوَلَّى الشيخَيْنِ، ونتبَرَّأُ مِن الخَبيثَيْنِ، ولا نَرَى المسحَ على الخُفَّيْنِ. ثم سار فعاث في الأرضِ فسادًا. فانْتَدَب له نصرُ بنُ حَمْدانَ فقاتَله، فأُسِر صالحُ بنُ محمودٍ ومعه ابنان له، فحُمِل إلى بَغْدادَ، فدخَلها وقد اشْتَهَرَ شُهْرةً فَظيعةً.

وخرَج آخرُ ببلادِ المَوْصلِ، فاتَّبَعه ألفُ رجلٍ، فحاصَر أهلَ نَصيبينَ، فخرَجوا إليه فاقْتَتَلوا معه، فقتَل منهم مائةً وأسَرَ ألفًا، ثم باعَهم نُفوسَهم وصادَر أهْلَها بأربعمائة ألفِ درهمٍ، فانْتَدَب ناصرُ الدولةِ بنُ حَمْدانَ، فقاتَله فظفِر به فأسَره، وسيَّره إلى بَغْدادَ أيضًا. ولله الحمدُ.

وفيها خلَع الخليفةُ على ابنِه هارونَ، وركِب معه الوزيرُ والجيشُ، وأعطاه نيابةَ فارسَ وكَرْمانَ وسِجِسْتانَ ومُكْرانَ، وخلَع على ابنِه أبي العباسِ الراضي، وجعَله نائبَ بلادِ المغربِ ومصرَ والشامِ، ويكونُ مُؤْنسٌ الخادمُ يَسُدُّ عنه أُمورَها.

وحجَّ بالناسِ في هذه السنةِ عبدُ السَّميعِ بنُ أيوبَ بنِ عبدِ العزيزِ الهاشميُّ، وخرَج الحَجيجُ بخُفارةٍ وبَذْرقةٍ حتى سَلِموا في الذهابِ والإيابِ من القَرامطةِ، ولله الحمدُ.

ومَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

أحمدُ بنُ إسْحاقَ بن البُهْلول بن حسَّانَ بن أبي سنان أبو جعفر التَّنوخيُّ، القاضي الحَنَفيُّ، العَدْلُ الثِّقةُ الرِّضا. وكان فَقيهًا ثقةً نَبيلاً، سمع الحديثَ الكثيرَ، وروىٰ عن أبي كُرَيْب حَديثًا واحدًا، وكان عالمًا بالنَّحْو، فَصيحَ العبارة، جيدَ الشِّعر، مَحْمودًا في الأحكام. اتَّفَق أن السَّيِّدةَ أمَّ المُقْتَدر وَقَفَت وَقْفًا، وجعَل الحاكمُ هذا عندَه نُسْخةً به في سَلَّة الحُكم، ثم أرادَتْ أن تَنْقُضَ ذلك الوَقْفَ، فطلَبَت الحاكمَ وأن يُحْضِرَ معه كتابَ الوَقْف لتأخُذَه منه فتُعْدمَه، فلما حضَر من وراء السِّتارة فهِم المَقْصودَ، فقال لها: لا يُمْكِنُ هذا؛ لأني خازنُ المسلمين، فإمَّا تَعْزلوني عن القَضاء وتُولُّوا على هذا غيري، وإمَّا أن تَتْركوا هذا الذي تُريدونَه، فلا سَبيلَ إليه وأنا حاكمٌ. فشكَتْه إلىٰ ولدها المُقْتَدر، فشفَع عندَه المُقْتَدرُ في ذلك، فذكَر له صُورةَ الحال، فرجَع إلىٰ أُمِّه فقال لها: إن هذا الرجلَ مِمَّن يُرْغَبُ فيه، ولا سَبيلَ إلىٰ عَزْله ولا التَّلاعُب به. فرضِيَتْ عنه، وبعَثَت تَشْكُرُه علىٰ ما صنَع من ذلك، فقال: مَن قدَّم أمْرَ الله علىٰ أمْر العباد كفاه اللهُ شرَّهم. وقد كانتْ وَفاتُه في هذه السنة، وقد جاوَز الثمانين.

يَحْيَىٰ بنُ محمد بن صاعد أبو محمد، مَوْلَىٰ أبي جعفر المنصور، رحَل في طلب الحديث، وكتَب وسمع وحفظ، وكانَ من كبارِ الحُفَّاظ وشُيوخ الرِّواية، وكتَب عنه جَماعةٌ من الأكابر، وله تَصانيفُ تَدُلُّ علىٰ حفْظه وفقْهه وفَهْمه، وكانت وفاتُه بالكوفة في هذه السنة وله تسعون سنةً.

الحسنُ بنُ عليِّ بن أحمدَ بن بَشَّار بن زياد، المَعْروفُ بابن العَلَّاف، الضَّريرُ النَّهْروانيُّ، الشاعرُ المَشْهورُ، وكان أحدَ سُمَّار الخليفة المُعْتَضد بالله، وله مَرْثاةٌ طَنَّانةٌ في هِرٍّ له قتَله جيرانُه؛ لأكْله أفْراخَ الحمام من أبراجهم، وفيها آدابٌ ورِقَّةٌ، ويقالُ: إنه أراد بها رِثاءَ ابن المُعْتَزِّ لكنه لم يَتَجاسَرْ أن يَنْسبَها إليه من الخليفة المُقْتَدر بالله حينَ قتَله، وأولُها:

يا هرُّ فارَقْتنا ولم تَعُدِ ... وكنتَ عندي بمنزل الولدِ

وهي خمسةٌ وستون بيتًا.

ثم دخلت سنة تسع عشرة وثلاثمائة

في المُحرَّم من هذه السنة دخَل الحَجيجُ بغدادَ، وقد خرَج مُؤْنسٌ الخادمُ إلىٰ الحجِّ في هذه السنة في جيشٍ كثيفٍ، خوفًا من القَرامطة، ففرح المسلمون بذلك، وزُيِّنَت بغدادُ يومَئذٍ، وضُربَت الخيامُ والقبابُ لمُؤْنسٍ الخادم، وقد بلَغ مُؤْنسًا في أثناء الطريق أن القرامطةَ أمامَه، فعدَل بالناس عن جادَّة الطريق، فأخَذ بهم في شعابٍ وأوْدية فتاهوا هنالك أيامًا، فشاهَد الناسُ هنالك عَجائبَ وغَرائبَ، رأَوا عظامًا في غاية الضَّخامة، وشاهَدوا ناسًا قد مُسخوا حجارةً، ورأىٰ بعضُهم امرأةً واقفةً علىٰ تَنُّور قد مُسخَت حَجَرًا، والتَّنُّورُ قد صار حَجَرًا، وحمَل مُؤْنسٌ من ذلك شيئًا كثيرًا إلىٰ الحَضْرة ليُصَدَّقَ ما يُخْبِرُ به من ذلك. ذكَره ابنُ الجَوْزيِّ في «مُنْتَظَمه». فيُقالُ: إنهم من قوم عادٍ أو من ثَمودَ. فاللهُ أعلمُ.

وفيها عزَل المُقْتَدِرُ سليمانَ بنَ الحسنِ الوزيرَ بعدَ سنةٍ وشهرين وتسعة أيام، واسْتَوْزَر مكانَه أبا القاسم عُبَيدَ اللهِ بنَ محمدٍ الكَلْوَذانيَّ، ثم عزَله بعدَ شهرين وثلاثةِ أيام، واسْتَوْزَر الحسينَ بنَ القاسم، ثم عزَله أيضًا.

وفيها وقَعَت وَحْشَةٌ بينَ الخليفةِ ومُؤْنسٍ الخادمِ، بسببِ أن الخَليفةَ ولَّى الحِسْبَةَ لرجلٍ اسمُه محمدُ ابنُ ياقوتَ، وكان أميرًا على الشُّرْطةِ أيضًا، فقال مُؤْنسٌ: إن الحِسْبَةَ لا يتولَّاها إلا القُضاةُ والعُدولُ، وهذا لا يَصْلُحُ لها. ولم يَزَلْ بالخَليفةِ حتى عزَل محمدَ بنَ ياقوتَ عن الحِسْبةِ والشُّرْطةِ أيضًا، وانْصلَح الحالُ بينَهما، ثم تجدَّدَت الوَحْشةُ بينَهما في ذي الحِجَّةِ من هذه السنة، وما زالَت تَتَزايَدُ حتى آل الحالُ إلى قَتْلِ المُقْتَدِرِ باللهِ كما سنَذْكُرُه.

وفي هذه السنةِ أوْقَع ثملٌ مُتَولِّي طَرَسُوسَ بالرومِ وَقْعةً عَظيمةً جدًّا، قتَل منهم خَلْقًا كثيرًا، وأسَر نحوًا من ثلاثةِ آلافٍ، وغنِم من الذهبِ والفضةِ والدِّيباجِ شيئًا كثيرًا جدًّا، ثم أوْقَع بهم مرةً ثانيةً كذلك. وكتَب ابنُ الدَّيْرانيِّ الأرْمَنيُّ إلى الرومِ يَحُضُّهم على الدُّخولِ إلى بلادِ الإسلامِ، ووعَدهم منه النَّصْرَ والإعانةَ، فدخَلوا في جَحافلَ كثيرةٍ جدا، وانضاف إليهم الأرمنُ، فركِب إليهم مُفْلحٌ غلامُ يوسُفَ بنِ أبي الساجِ، وهو يومَئذٍ نائبُ أذْرَبيجانَ، واتَّبعه خَلْقٌ كثيرٌ من المُطَّوِّعةِ، فقصَد أولًا بلدَ ابنِ الدَّيْرانيِّ، فقتَل من الأرْمَنِ نحوًا من مائةِ ألفٍ، وأسَر خلقًا كثيرًا، وغنِم أموالًا جَزيلةً جدا، وتحصَّن ابنُ الدَّيْرانيِّ بقَلْعةٍ له هنالك، وجاءت الرومُ، فوصَلوا إلى سُمَيْساطَ فحاصَروها، فبعَث أهلُها يَسْتَصْرِخون بسعيدِ بنِ حَمْدانَ نائبِ المَوْصِلِ، فسار إليهم مُسْرِعًا، فوجَد الرومَ قد كادوا يَفْتَحونها، فلما علِموا بقُدومِه أجْلَوا عنها واجْتازوا بمَلَطْيةَ فنهَبوها، ورجَعوا خاسئين إلى بلادِهم، ومعهم ابنُ نَفيسٍ المُتَنَصِّرُ، وقد كان من أهلِ بَغْدادَ قبل ذلك كما ذكرناه قبلُ. وركِب ابنُ حَمْدانَ في آثارِ الرومِ. فدخَل بلادَهم، فقتَل خَلْقًا كثيرًا منهم، وغنِم أشْياءَ كثيرةً.

قال ابنُ الأثيرِ: في هذه السنةِ في شَوَّالٍ جاء سَيْلٌ عظيمٌ إلى تَكْريتَ، ارتَفَع في أسْواقِها أربعةَ عشَرَ شِبْرًا، وغرِق بسببِه أربعُمائةِ دارٍ، وخَلْقٌ لا يَعْلَمُهم إلا اللهُ، حتى كان المسلمون والنَّصارَى يُدْفَنون جميعًا، لا يُعْرَف هذا من هذا. قال: وفيها هاجَت بالموصلِ ريحٌ فيها حُمرةٌ، ثم اسْوَدَّت حتى كان الإنسانُ لا يُبْصِرُ صاحبَه، وظنَّ الناسُ أن القيامةَ قد قامت، ثم انْجَلَى ذلك بمطرٍ أرْسَله اللهُ عليهم.

وممن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

الحسينُ بنُ الحسينِ بنِ عبدِ الرحمنِ، أبو عبدِ اللهِ الأنطاكيُّ، قاضي ثُغورِ الشامِ، يُعْرفُ بابنِ الصابونيِّ، وكان ثقةً نَبيلًا، قدِم بَغْدادَ وحدَّث بها.

عليُّ بنُ الحسينِ بنِ حربِ بنِ عيسى، أبو عبيدِ بنُ حَرْبُويْه، القاضي بمصرَ، تولَّى القضاءَ بمصرَ مُدةً طَويلةً جدًّا، وكان ثقةً عالمًا جليلًا، من خيارِ القُضاةِ وأعْدلِهم، وكان يَتفقَّهُ على مَذْهَبِ أبي ثَوْرٍ، وقد

ذكَرْناه في «طَبَقات الشافعية» بما فيه مَقْنَعٌ وكفايةٌ، وقد استَعْفَىٰ عن القَضاء، فعُزِل عنه في سنة إحدىٰ عشْرَةَ وثلاثمائةٍ، ورجَع إلىٰ بَغْدادَ فأقام بها حتىٰ مات بها في هذه السنة في صَفَر، وصلَّىٰ عليه أبو سعيدٍ الإِصْطَخْرِيُّ، ودُفِن بداره.

قال الدارَقُطْنيُّ: حدَّث عنه أبو عبد الرحمن النَّسائيُّ في الصحيح، ولعله مات قبلَه بعِشْرين سنةً. وذكَر من جَلالته وفَضْله، رحمه اللهُ.

محمدُ بنُ الفَضْل بن العباس أبو عبد الله البَلْخيُّ الزاهدُ، حُكِي عنه أنه مكَث أرْبَعين سنةً لم يَخْطُ فيها خُطْوةً لغير الله، ولا نظَر في شيء فاسْتَحْسَنه؛ حياءً من الله عز وجل، وأنه مكث ثلاثين سنةً لم يُمْلِ علىٰ مَلَكَيه قَبيحًا.

محمدُ بنُ سعد أبو الحسين الوَرَّاقُ، صاحبُ أبي عثمانَ النَّيْسابوريِّ، وكان فَقيهًا يَتَكَلَّمُ علىٰ المُعامَلات.

ومن جيد كلامه قولُه: مَن غضَّ بصرَه عن مُحَرَّمٍ أوْرَثه اللهُ بذلك حِكْمةً علىٰ لِسانه يَهْتَدي بها سامِعوه، ومَن غضَّ بصرَه عن شُبْهةٍ نوَّر اللهُ قَلْبَه بنورٍ يَهْتَدي به إلىٰ طريق مرضاته.

يَحْيىٰ بنُ عبد الله بن موسى، أبو زكريا الفارسيُّ، كتَب بمصْرَ عن الربيع بن سليمانَ، وكان ثقةً صدوقًا حسنَ الصَّلاة، عَدْلاً عندَ الحُكَّام.

ثم دخلت سنة عشرين وثلاثمائة من الهجرة

فيها كان مَقْتَلُ الخليفة المُقْتَدر بالله، وكان سببَ ذلك أن مُؤْنِسًا الخادمَ خرَج من بغدادَ في المُحَرَّم من هذه السنة مُغاضبًا للخليفة في مَماليكه وحَشَمه، مُتَوَجِّهًا نحوَ المَوْصِل، وردَّ من أثْناء الطَّريق مَوْلاه بُشْرَىٰ إلىٰ المُقْتَدر ليَسْتَعْلِمَ له، وبعَث معه رسالةً يُخاطبُ بها أميرَ المؤمنين، فلمَّا وصَل أمَرَه الوزيرُ الحسينُ بنُ القاسم - وكان من أكبر أعْداء مُؤْنسٍ - بأن يُؤَدِّيَها إليه، فامْتَنَع من أدائها إلا إلىٰ الخَليفة، فأحْضَرَه بينَ يديه، فأمَره أن يَقولَها للوزير، فامْتَنَع وقال: ما أَمَرني صاحبي بهذا. فشتَمه الوزيرُ وشتَم صاحبَه، وأمَر بضربه ومُصادرَته بثلاثمائة ألف دينارٍ، وأخَذ خطَّه بها، وأمَر بنَهْب داره، ثم أمَر الوزيرُ بالقَبْض علىٰ أقْطاع مُؤْنسٍ وأمْلاكه وأمْلاك مَن معه، فحصَل من ذلك مالٌ عظيم، وارْتَفع أمْرُ الوزير عندَ المُقْتَدر، ولقَّبه عميدَ الدولة، وضرَب اسمَه علىٰ الدراهم والدنانير، وتمَكَّن من الأمور جدًّا، فعزَل وولَّىٰ، وقطَع ووصَل، وفرح بنَفْسه حينًا قليلاً. وأرْسَل إلىٰ هارونَ بن غَريبٍ في الحال، وإلىٰ محمد بن ياقوتَ يَسْتَحْضِرُهما إلىٰ الحَضْرة عِوَضًا عن مُؤْنسٍ، فصمَّم المُظَفَّرُ مُؤْنسٌ في مَسيره إلىٰ المَوْصل، وجعَل يَقولُ لأُمراء الأعْراب: إن الخليفة قد ولاَّني المَوْصِل وديارَ ربيعةَ. فالْتَفَّ عليه خَلْقٌ كثيرٌ، وجعَل يُنْفِقُ فيهم الأمْوالَ الجَزيلةَ، وله إليهم قبلَ ذلك أيادٍ سابغةٌ.

وقد كتَب الوزيرُ إلىٰ آل حَمْدانَ - وهم وُلاةُ المَوْصل وتلك النواحي - يأمُرُهم بمحاربة مؤنسٍ

الخادمِ، فركبوا إليه في ثلاثين ألفًا، وواجَهَهم مُؤْنسٌ في ثمانمائة من مَماليكه وخَدَمه، فهزَمهم ولم يُقْتَلْ منهم سوى رجلٍ واحدٍ يقالُ له: داودُ. كان من أشْجَعهم، وقد كان مُؤْنسٌ ربَّاه وهو صغيرٌ. ودخَل مُؤْنسٌ الموصلَ، فقصَدَته العَساكرُ من كلِّ جانبٍ يَدْخُلون في طاعته؛ لإحْسانه إليهم قبلَ ذلك، من أهلِ بغدادَ والشامِ ومِصْرَ ومن الأعْرابِ، حتى صار في جَحافلَ من الجُنودِ.

وأما الوزيرُ الحسينُ بنُ القاسم فإنه ظهَرَت خيانتُه وعجزُه، فعزَله المُقْتَدرُ في ربيعٍ الآخرِ، وولَّى مكانه الفضلَ بنَ جعفرِ بنِ محمدِ بنِ الفُراتِ، فكان آخرَ وُزراءِ المُقْتَدرِ. وأقام مُؤْنسٌ بالموصلِ تسعةَ أشهرٍ، ثم ركِب في الجُيوشِ في شوالٍ قاصدًا بَغْدادَ؛ ليُطالبَ المُقْتدرَ بأرْزاقِ الأجْنادِ وإنْصافِهم، فسار ـ وقد بَعث بينَ يديه الطَّلائعَ ـ حتى جاءَ فنزلَ ببابِ الشَّمَّاسيَّةِ من بغدادَ، وقابَله عندَه ابنُ ياقوتَ وهارونُ بنُ غَريبٍ ـ عن كُرْهٍ منه ـ وأُشيرَ على الخَليفةِ بأن يَسْتَدينَ من والدته ما يُنفقُ في الأجْنادِ، فقال: لم يَبْقَ عندَها شيء. وعزَم الخليفةُ على الهربِ إلى واسطٍ، وأن يَتْرُكَ بَغْدادَ لمُؤْنسٍ حتى يَتراجعَ أمرُ الناسِ، ثم يَعودَ إليها. فردَّه عن ذلك ابنُ ياقوتَ، وأشار عليه بمُواجَهةِ مُؤْنسٍ وأصحابه، فإنهم متى ما رأَوه كَرُّوا كلُّهم إليه، وتركوا مُؤْنسًا. فركِب وهو كارهٌ، وبينَ يديه الفُقهاءُ، ومعهم المَصاحفُ مُنشرةٌ، وعليه البُرْدُ والناس حوله، فوقَف على تَلٍّ عالٍ بعيدٍ من المعركة، ونُودِي في جيشه: مَن جاءَ برأسٍ فله خمسةُ دَنانيرَ، ومَن جاءَ بأسيرٍ فله عشَرةُ دَنانيرَ. ثم بعَث إليه أُمراؤُه يَعْزِمون عليه أن يَتقَدَّمَ، فامْتَنَعَ من التَّقدُّمِ إلى مَحَلَّةِ المعركة، ثم ألَحُّوا عليه، فجاء بعدَ تَمَنُّعٍ شديدٍ، فما وصَل إليهم حتى انْهَزَموا وفرُّوا راجعين، ولم يَلْتَفِتوا إليه ولا عطَفوا عليه، فكان أولَ مَن لقيَه من أُمراءِ مُؤْنسٍ عليُّ بنُ يَلْبَقَ، فلما رآه ترجَّل، وقبَّل الأرضَ بينَ يديه وقال: لعَن اللهُ مَن أشار عليك بالخُروجِ في هذا اليوم. ثم وكَّل به قومًا من المَغاربةِ البَرْبَرِ، فلما تركَهم وإياه شهَروا عليه السلاحَ، فقال لهم: ويلكم! أنا الخليفةُ. فقالوا: قد عرفْناك يا سَفِلةُ، إنما أنت خليفةُ إبْليسَ، تُنادي في جيشِك: مَن جاء برأسٍ فله خمسةُ دَنانيرَ، ومن جاء بأسيرٍ فله عشَرةُ دنانيرَ؟! وضربَه أحدُهم بسيفه على عاتقه، فسقَط إلى الأرض، وذَبحه آخرُ، وتركوا جُثَّتَه وقد سلَبوه كلَّ شيء كان عليه، حتى سَراويلَه، وبقِي مَكْشوفَ العوْرةِ مُجَدَّلاً على الأرضِ، حتى جاء رجلٌ فغطَّى عورتَه بحَشيشٍ، ثم دفَنه في موضعه وعفا أثرَه، وأخَذَت المغاربةُ رأسَ المُقْتدرِ على خَشَبةٍ قد رفَعوها وهم يَلْعَنونه، فلما انْتَهَوْا به إلى مُؤْنسٍ ـ ولم يَكُنْ حاضرًا الوَقعةَ ـ فحينَ نظَر إلى رأسِ المُقْتدرِ لطَم رأسَه ووجهَه وقال: ويلَكم! لم آمُرْكم بهذا، لعنَكم اللهُ قَتَلْتُموه! والله لنُقْتلَنَّ كلُّنا. ثم ركِب ووقَف عندَ دارِ الخلافة حتى لا تُنْهَبَ، وهرَب عبدُ الواحدِ بنُ المُقْتدرِ وهارونُ بنُ غَريبٍ وابْنا رائقٍ، إلى المدائن، وكان صَنيعُ مُؤْنسٍ هذا سببًا لطمعِ أصحابِ الأطْرافِ في الخُلفاء، وضعُف أمْرُ الخلافة جدًّا، مع ما كان المُقْتَدرُ يَعْتَمدُه من التَّبْذيرِ والتَّفْريطِ في الأموال، وطاعةِ النساء، وعزْلِ الوُزراءِ، حتى قيل: إن جملةَ ما صرفَه في الوُجوهِ الفاسدةِ والتبذيرِ ما يُقاربُ ثمانين ألفَ ألفِ دينارٍ.

وهذه ترجمة المقتدر بالله أمير المؤمنين

هو جعفرٌ أميرُ المؤمنين المُقْتَدِرُ بالله بنُ المُعْتَضِدِ بالله أحمدَ ابنِ أبي أحمدَ المُوَفَّقِ بنِ جعفرٍ المُتَوَكِّلِ ابنِ محمدٍ المُعْتَصِمِ بنِ هارونَ الرشيدِ بنِ محمدٍ المهديِّ بنِ عبدِالله أبي جعفرٍ المنصورِ بنِ محمدِ بنِ عليِّ بنِ عبدِ الله بنِ عباسٍ، يُكَنَّى أبا الفَضْلِ العَبَّاسيَّ، مَوْلِدُه في ليلةِ الجمعةِ لثمانٍ بقِينَ من رمضانَ سنةَ ثنتَيْن وثمانين ومائتين، وأمُّه أمُّ ولدٍ اسمُها شَغَبُ، ولُقِّبَت في خلافةِ ولدِها بالسَّيِّدة، بُويع له بالخلافة بعدَ أخيه المُكْتَفِي يومَ الأحدِ لأربعَ عشْرةَ مضت من ذي القَعْدة، سنةَ خمسٍ وتسعين ومائتين، وهو يومئذٍ ابنُ ثلاثَ عشْرةَ سنةً وشهرٍ وأيامٍ؛ ولهذا أراد الجُنْدُ خَلْعَه في ربيعٍ الأول من سنةِ ستٍّ وتسعين مُحتَجِّين بصغرِه وعدمِ بُلوغه، وتَوْلِيَةَ عبدِ الله بنِ المُعْتَزِّ، فلم يَتِمَّ ذلك، وانْتَقَض الأمْرُ في ذلك اليومِ كما ذكَرْنا. ثم لما كان شهرُ الله المُحَرَّمُ من سنةِ سبعَ عشْرةَ وثلاثمائة، أحضره مؤنسٌ واجتمَع الأمراءُ والقُوَّادُ وألزموه بخلعِ نفسِه، وأحضروا أخاه محمدَ بنَ المُعْتَضِد، فبايَعوه بالخلافةِ ولَقَّبوه القاهرَ، فلم يَتِمَّ ذلك سوى يومَيْن، ثم رجَع المُقْتَدِرُ إلى الخلافةِ كما ذكَرْنا. وقد كان المُقْتَدِرُ بالله رَبْعةً من الرجال، حسَنَ الوجهِ والعينَيْن، بعيدَ ما بينَ المَنْكِبَيْن، حسَنَ الشعرِ، مُدَوَّرَ الوجهِ، مُشْرَبًا بحُمْرةٍ، حسَنَ الخُلُقِ، قد شاب رأسُه وعارِضاه، وقد كان كريمًا جَوادًا مُمَدَّحًا، له عقلٌ جيدٌ وفَهْمٌ وافرٌ وذِهْنٌ صحيحٌ، وقد كان كثيرَ التَّحَجُّبِ والتَّوَسُّعِ في النَّفَقات، وزاد في رُسومِ الخلافةِ وأُمورِ الرِّياسة، وما زاد شيء إلا نقَص. كان في دارِه أحدَ عشَرَ ألفَ خادمٍ خصيٍّ، غيرَ الصَّقالبةِ والرومِ والسُّودانِ، وكان له دارٌ يُقالُ لها: دارُ الشَّجَرة. فيها من الأثاثِ والأمْتعةِ شيءٌ كثيرٌ جدًّا، كما ذكَرْنا ذلك في سنةِ خمسٍ وثلاثمائة، حينَ قدِم رسولُ ملكِ الرومِ. وقد ركِب المُقْتَدِرُ يومًا في حَرّاقةٍ، وجعَل يَسْتَعْجِلُ الطعامَ، فأبْطَئوا به، فقال لمَلّاحِ حَرّاقتِه: ويلَك! أعندك شيءٌ نأكُلُه؟ قال: نعم. فأتاه بشيءٍ من لحمِ الجَدْيِ وخُبْزٍ حسَنٍ ومُلُوحاتٍ وغيرِ ذلك، فأعْجبه، ثم استَدْعاه فقال: هل عندَك شيءٌ من الحَلْواء؛ فإني لا أُحِسُّ بالشِّبَعِ حتى آكلَ شيئًا من الحَلْواء؟ فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنما حَلاوتُنا التمرُ والكُسْبُ. فقال: هذا شيءٌ لا أُطيقُه. ثم جيء بطعامِه، فأكَل منه وأُتيَ بالحَلْواء، فأكَل وأطْعَم المَلّاحين، وأمَر بترتيبِ حلاوةٍ تُعملُ في كلِّ يومٍ تكونُ في الحَرّاقةِ بنحوِ مائتي درهمٍ، إذا اتَّفَق رُكوبُه فيها يأْكُلُ منها، فكان المَلّاحُ يأخُذُ ذلك في كلِّ يومٍ مُدّةَ سنينَ مُتَعَدِّدةٍ، ولم يَتَّفِقْ رُكوبُ المقتدرِ فيها مرةً أخرى.

وقد أراد بعضُ خَواصِّه أن يُطَهِّرَ ولده، فعمِل أشْياءَ هائلةً، ثم طلَب من أمِّ الخليفةِ أن يُعارَ القَرْيَةَ التي عُمِلَت في طُهورِ المُقْتَدِرِ من فضةٍ؛ ليَراها الناسُ في هذا المُهِمِّ، فتلَطَّفَت أمُّ المُقْتَدِرِ عندَه حتى

أطْلَقَها له بالكُلِّيَة، وكانتْ صفةَ قرية من القُرَىٰ، كلُّها من فضة، بيوتُها وأهاليها، وأبقارُها، وأغنامُها، وجمالُها، وخُيولُها، وزُروعُها، وثمارُها، وأنهارُها، وما يَتْبَع ذلك مما يكونُ في القُرَىٰ، الجميعُ من فضةٍ مُصَوَّرٌ، وأمَر بنقلِ سِماطِه إلىٰ دارِ هذا الرجلِ، وأن لا يُكَلَّفَ شيئًا من المَطاعمِ سوَىٰ سمكٍ طَرِيٍّ، فاشْتَرَىٰ الرجلُ بثلاثمائة دينارٍ سمكًا، وكان جُمْلةُ ما أنْفق الرجلُ علىٰ سِماطِ المُقْتَدرِ يومَئذ ألفًا وخمسَمائة دينار.

وكان كثيرَ الصَّدَقة والإحْسانِ إلىٰ أهلِ الحرَمَيْن وأرْبابِ الوَظائف، وكان كثيرَ التَّنَفُّلِ بالصلاة والصيام والعبادة، ولكنه كان مُؤثِرًا لشَهَواته، مُطيعًا لحَظِيّاته، كثير التلَوُّن والولاية والعَزْل، وما زال ذلك دأْبَه حتىٰ كان هَلاكُه علىٰ يدي مُؤْنِسٍ الخادم كما ذكَرنا، فقُتل عندَ باب الشَّمَّاسيَّة لليلتَيْن بقيتا من شوالٍ من هذه السنة ـ أعْني سنةَ عشرين وثلاثمائة ـ وله من العمرِ ثمانٌ وثلاثونَ سنةً وشهرٌ وخمسةُ أيامٍ، وكانت مدةُ خلافته أربعًا وعشرين سنةً وأحدَ عشرَ شهرًا وأربعةَ عشرَ يومًا، فكان أكثرَ مُدةً ممَّن تقدَّمَه من الخُلفاء.

خلافة القاهر[1]

لما قُتل المُقتَدرُ بالله كما ذكَرنا عزَم مُؤنسٌ الخادمُ علىٰ تَوْلية أبي العباسِ ابنِ المُقْتَدرِ بعدَ أبيه؛ ليُطَيِّبَ قلبَ أمِّ المُقْتَدرِ، فعدَل عن ذلك جُمْهورُ مَن حضَر من الأمراء، فقال له أبو يَعْقوبَ إسْحاقُ بنُ إسْماعيلَ النُّوبَخْتيُّ: بعدَ التَّعب والكَدِّ نُبايعُ لخليفةٍ له أمٌّ وخالاتٌ يُطيعُهن ويُشاوِرُهن؟! ثم أُحْضِر محمدُ بنُ المُعْتَضِد ـ وهو أخو المُقْتَدرِ ـ فبايعَه القُضاةُ والأمراءُ والوُزراءُ، ولقَّبوه القاهرَ بالله، وذلك في سَحَرِ يوم الخميس لليلتَيْن بقيَتا من شوَّالٍ من هذه السنة، سنة عشرين وثلاثمائة، واسْتُوزِر له أبو عليٍّ بنُ مُقْلَةَ، ثم أبو جعفر محمدُ بنُ القاسم بن عُبيد الله، ثم أبو العباس بنُ الخَطيب، وشرَع القاهرُ في مُصادَرة أصحابِ المُقْتَدرِ وتَتَبُّع أوْلاده، واسْتَدْعَىٰ بأمِّ المُقْتَدرِ وهي مَريضةٌ بالاسْتسْقاء، وقد تَزايَد بها الوَجَعُ من شدة جَزَعِها علىٰ ولدها حينَ بلَغَها قَتْلُه، وكيف بقي مَكْشوفَ العَوْرة، فبقيَت أيامًا لا تأكُلُ شيئًا، ثم وعَظها النساءُ حتىٰ أكَلَت شيئًا يسيرًا من الخبز والملْح، ومع هذا كلِّه اسْتَدْعَىٰ بها القاهرُ، فقرَّرَها علىٰ أمْوالِها، فذكَرَت له ما يكونُ للنساء من الحُليِّ والمصاغِ والثياب، ولم تُقِرَّ بشيءٍ من الأمْوالِ والجَواهرِ، وقالت له: لو كان عندي من هذا شيءٌ ما سلَّمْتُ ولدي. فأمَر بضَرْبِها وعُلِّقَت برجلَيْها، ومسَّها بعذابٍ شديدٍ من العُقوبة، وأشْهَدت علىٰ نفْسها ببيع أمْلاكها، فأخَذَه الجُنْدُ مما يُحاسَبون به من أرْزاقهم، وأرادها علىٰ بيع أوْقافها، فامْتَنَعَت من ذلك، وأبَتْ أشدَّ الإباء، واسْتَدْعَىٰ القاهرُ بجماعةٍ من أوْلادِ المُقْتَدِرِ، منهم؛ أبو العباسِ الراضي، وهارونُ، والعباسُ،

(١) ترجمته في «المنتظم» لابن الجوزي (١٣/ ٣٠٥ـ٣٠٦).

وعليٌّ، والفَضْلُ، وإبراهيمُ، فأمَر بمُصادَرتِهم وحَبْسِهم، وسلَّمهم إلى حاجبِه عليِّ بنِ يَلَبَقَ، وتَمَكَّن الوزيرُ أبو عليِّ بنُ مُقْلَةَ، فعَزَل وولَّى، وأخَذ وأعْطَى أيامًا، ومنَع بني البريديِّ من أعمالِهم.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

أحمدُ بنُ عُمَيْرِ بنِ جَوْصَاءَ أبو الحسنِ الدِّمشقيُّ، أحدُ المُحدِّثين الحُفَّاظ، والرُّواة الأيْقاظ.

إبراهيمُ بنُ محمدِ بنِ عليِّ بنِ بَطْحاءَ بنِ عليِّ بنِ مُقْلَةَ، أبو إسْحاقَ التَّميميُّ، المُحْتَسِبُ بِبَغْدادَ، روَى عن عباسٍ الدُّوريِّ وعليِّ بنِ حربٍ وغيرِهما، وكان ثقةً فاضلاً. مرَّ يومًا على بابِ القاضي أبي عمرَ محمدِ بنِ يُوسفَ والخُصومُ عُكوفٌ على بابه، والشمسُ قد ارْتَفَعَت عليهم، فبَعث حاجبَه إليه يقولُ له: إمَّا أن تَخْرُجَ فتَفْصِلَ بينهم، وإمَّا أن تَبعثَ فتَعْتَذِرَ إليهم إن كان لك عُذْرٌ حتى يَعُودوا إليك بعدَ هذا الوقت.

أبو عليِّ بنُ خَيْرانَ الفَقيهُ الشافعيُّ، أحدُ أئمة المَذْهَب، هو الحسينُ بنُ صالحِ بنِ خَيْرانَ أبو عليٍّ، الفقيهُ الكبيرُ الوَرِعُ البارعُ، عُرِض عليه مَنْصِبُ القَضاءِ فلم يَقْبَلْ، فختَم الوزيرُ عليُّ بنُ عيسى على بابِه، فبقِي كذلك ستةَ عشَرَ يومًا، ولم يَجِدْ أهلُه ماءً إلا من بُيوتِ الجيران، وهو مع ذلك كلِّه يَتَمَنَّعُ عليه وعليهم، ولم يَلِ لهم شيئًا، فقال الوزيرُ: إنما أرَدْنا أن نُعْلِمَ الناسَ أن ببلدِنا وفي مَمْلكتِنا مَن عُرِضَ عليه قَضاءُ القضاةِ شرقًا وغربًا فلم يَقْبَلْ. وقد كانت وفاتُه في ذي الحِجةِ من هذه السنة، وقد ذَكَرْنا تَرْجَمَته في «طَبَقاتِ الشافعية» بما فيه كِفايةٌ، رحمه اللهُ.

عبدُ الملكِ بنُ محمدِ بنِ عَدِيٍّ، الفقيهُ الإسْتِراباذيُّ، أحدُ أئمةِ المسلمين والحُفَّاظِ المُحدِّثين، وقد ذكَرْناه أيضًا في «طَبَقاتِ الشافعية».

القاضي أبو عمرَ المالكيُّ محمدُ بنُ يوسُفَ بنِ يعقوبَ بنِ إسْماعيلَ بنِ حمادِ بنِ زيدٍ، أبو عمرَ القاضي ببغْدادَ ومُعاملاتِها في سائرِ البلاد، كان من أئمةِ الإسْلام علمًا، ومَعْرِفةً، وفَصاحةً، وبَلاغةً، وعقلاً، ورياسةً، بحيث كان يُضْرَبُ بعقلِه وحِلْمِه المَثَلُ، وقد روَى الكثيرَ عن المَشايخ، وحدَّث عنه الدارَقُطْنيُّ وغيرُه من الحُفَّاظ، وحمَل الناسُ عنه علمًا كثيرًا من الفقهِ والحديث، وقد جُمع له قَضاءُ القُضاةِ في سنةِ سبعَ عشْرةَ وثلاثمائة، وله مُصنَّفاتٌ كثيرةٌ. وجمَع مُسْنَدًا، حافلاً، وكان إذا جلَس للتحديث جلَسَ أبو القاسمِ البَغَويُّ عن يمينِه، وهو قريبٌ من سنِّ أبيه، وعن يَسارِه ابنُ صاعدٍ، وبينَ يديه أبو بكرٍ النَّيْسابوريُّ، وسائرُ الحُفَّاظ حولَ سَريرِه من كلِّ جانبٍ. قالوا: ولم يُنْتَقَدْ عليه حُكْمٌ من أحْكامِه أخطَأ فيه.

قلتُ: وكان من أعظمِ صَوابِ أحْكامِه قتلُه الحسينَ بنَ منصورٍ الحَلَّاجَ، قبحه اللهُ وأخزاه، وذلك في سنةِ تسعٍ وثلاثمائة كما تقدَّم.

وقد كان جَميلَ الأخْلاقِ، حسَنَ المُعاشَرةِ؛ اجْتَمَع يومًا عندَه أصحابُه، فجِيء بثوبٍ فاخرٍ ليَشْتَرِيَه

بنحوٍ من خمسين دينارًا، فاستحسَنه الحاضرون، فاستَدْعىٰ بالقَلانسيِّ، وأمَره أن يَقْطَعَ ذلك الثوبَ قلانسَ بعددِ الحاضِرين. وله مَناقِبُ ومَحاسِنُ رحِمه اللهُ تعالىٰ.. وكانت وفاتُه في رمَضانَ من هذه السنة عن ثمانٍ وسبعين سنةً، وقد رآه بعضُهم في المَنام فقال له: ما فعَل بك ربُّك؟ فقال: غفَر لي بدعوةِ الرجلِ الصالحِ إبراهيمَ الحَرْبيِّ. رحِمهما اللهُ.

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة

في صَفَر منها أحْضَرَ الخليفةُ رجلاً كان يَقْطَعُ الطريقَ بدجلةَ، فضُرِب بينَ يديه ألفَ سَوْطٍ، ثم ضُرِبَت عنقُه وقُطعت أيْدي أصحابِه وأرجُلُهم.

وفيها: أمَرَ القاهرُ بالله بإبْطالِ الخُمورِ والمَغاني والقِيانِ، وأمَر ببيعِ الجَواري المُغَنِّياتِ في سوقِ النَّخْسِ علىٰ أنهن سَواذِجُ، قال ابنُ الأثيرِ: وإنما فعَل القاهرُ ذلك لأنه كان مُحبًّا للغناء، فأراد أن يشتريَ الجواريَ المغنياتِ بأرخصِ الأثمانِ، نَعوذُ بالله من هذه الأخلاق.

وفيها: أشاعَت العامَّةُ بينَهم بأن الحاجِبَ عليَّ بنَ يَلْبَقَ يُريدُ أن يَلْعَنَ مُعاويةَ علىٰ المَنابرِ، فلمَّا بلَغ ذلك الحاجِبَ بعَث إلىٰ رئيسِ الحَنابلة أبي محمدٍ البَرْبَهاريِّ الواعظِ ليُقابلَه علىٰ ذلك، فهرَب واختَفَىٰ، فأمَر بجماعةٍ من أصحابِه فحُدِروا إلىٰ البصرة.

وفيها: عظَّم الخليفةُ وزيرَه أبا عليِّ بنَ مُقْلةَ وخاطَبه بالاحترامِ والإكرامِ ثم إن الوزيرَ ومؤنِسًا الخادمَ وعليَّ بنَ يَلْبَقَ وجَماعةً من الأُمراءِ اشتَوَروا فيما بينَهم علىٰ خَلْعِ القاهرِ بالله وتوليةِ أبي أحمدَ ابنِ المكتفي، وبايَعوه فيما بينهم سِرًّا، وضيَّقوا علىٰ القاهرِ بالله في رِزْقِه ومَن يَجْتَمِعُ به، وأرادوا القبضَ عليه سريعًا، فبلَغ ذلك الخليفةَ علىٰ يَدَيْ طَريفٍ السبكريِّ، فسعَىٰ في القبضِ عليهم، فوقَع في مَخاليبِه الأميرُ الكبيرُ المُظَفَّرُ مُؤنسٌ الخادمُ، وأمَر بحبسِه قبلَ أن يَراه والاحْتياطِ علىٰ دُورِه وأمْلاكِه، وكانتْ فيه عَجَلةٌ وجُرْأةٌ وهَوَجٌ وخُرْقٌ شديدٌ، وجعَل في منزلتِه - إمرةِ الأُمراءِ ورياسةِ الجيشِ - طريفًا السبكريَّ، وقد كان أحدَ الأمراءِ عندَ مؤنسٍ الخادمِ قبلَ ذلك. وقبَض علىٰ يَلْبَقَ، واختَفَىٰ ولدُه عليُّ بنُ يَلْبَقَ، وكذا هرَب الوزيرُ أبو عليِّ بنُ مُقْلةَ، فاستَوْزَر بَدَلَه أبا جعفرٍ محمدَ بنَ القاسمِ بنِ عُبَيدِ الله في مُسْتَهَلِّ شعبانَ، وخلَع عليه، وأمَر بتَحْريقِ دارِ أبي عليِّ بنِ مُقْلةَ، ووقَع النَّهْبُ ببَغدادَ، وهاجَت الفِتْنةُ، وأمَر القاهرُ بأن يُجْعَلَ أبو أحمدَ بنُ المُكْتَفي بينَ حائطَيْن، ويُسَدَّ عليه بالآجُرِّ والكِلْسِ وهو حيٌّ، فمات، وأرسَل إلىٰ المُخْتَفِين فنادَىٰ: إنَّ مَن أخْفاهم خُرِّبَت دارُه. فوُقِع بعليِّ بنِ يَلْبَقَ فقتَله، ذُبح بينَ يديه كما تُذْبَحُ الشاةُ، فأُخِذ رأسُه في طَسْتٍ، ودخَل القاهرُ بنفسه علىٰ أبيه يَلْبَقَ، فوضعَ الرأسَ بينَ يديه، فلما رآه بكَىٰ، وأخَذ يُقَبِّلُه ويَتَرَشَّفُه، فأمَر بذَبْحِه أيضًا فذُبِح، ثم أخذ الرأسَيْن في طَسْتَيْن، فدخَل بهما علىٰ مُؤنسٍ الخادمِ، فلما رآهما تشهَّد ولعَن قاتلَهما، فقال القاهرُ عندَ ذلك: جُرُّوا برجلِ الكلبِ. فأُخِذ فذُبح أيضًا، وأُخِذ رأسُه فوُضع في طَسْتٍ، وطِيف

بالرءوس في بغداد، ونُودي عليهم: هذا جَزاءُ مَن يَخُونُ الإمامَ، ويَسْعَىٰ في الدولة فساداً. ثم أُعيدَت الرءوسُ إلىٰ خَزائن السلاح.

وفي ذي القَعْدة قبَض القاهرُ علىٰ الوزير أبي جعفر محمد بن القاسم بن عبيد الله وسَجَنه، وكان مَريضًا بالقُولَنج، فبَقي ثمانيةَ عشَرَ يومًا ومات، فكانتْ وِزارتُه ثلاثةَ أشْهر واثْنَي عشَرَ يومًا، واسْتَوْزَر مكانَه أبا العباس أحمدَ بنَ عُبَيْد الله بن سليمانَ الخَصِيبيَّ، ثم قبَض علىٰ طَريف السبكريِّ وسجَنه، فلم يَزَل السبكريُّ فيه حتىٰ خُلع القاهرُ.

وفيها: جاء الخبرُ بموت تكين الخاصة بديار مصرَ، وأن ابنَه محمداً قد قام بالأمر بعدَه فيها، وسارَت الخلَعُ إليه من القاهر بالله تَنْفيذًا لولايته واسْتقرارها.

ذكر ابتداء أمر بني بويه وظهور دولتهم في هذه السنة

وهم ثلاثةُ إخْوة؛ عمادُ الدَّوْلة أبو الحسن عليٌّ، ورُكْنُ الدَّولة أبو عليٍّ الحسنُ، ومُعزُّ الدولة أبو الحسن أحمدُ، أولادُ أبي شُجاع بُوَيْه بن فَنَاخُسْرُو بن تَمَام بن كوهي بن شيرزيلَ الأصْغَر بن شيركَنْدَهْ ابن شيرزيلَ الأكبر بن شيران شاه بن شيرفَنَّه بن سَسْتان شاه بن سيس بن فَيْروزَ بن شَرْوَزيلَ بن سَسْناذَر بن بَهْرامَ جُورَ الملك بن يَزْدَجِرْدَ الملك بن سابورَ الملك بن سابورَ ذي الأكتاف الفارسيِّ. كذا نسَبَهم الأميرُ أبو نصر بنُ ماكُولا في «كتابه». وإنما قيل لهم: الدَّيالمةُ. لأنهم جاوَرُوا الدَّيْلَمَ، وكانوا بينَ أظْهُرِهم مُدةً، وقد كان أبوهم أبو شُجاع بُويْه فقيراً مُدْقَعًا، يَصْطادُ السمكَ ويحْتَطِبُ بنوه الحَطَب علىٰ رُءوسهم، فماتَت امرأتُه، وخلَّفَت له هؤلاء الأولادَ الثلاثةَ، فحزن عليها، فبينما هو ذاتَ يوم عندَ بعض أصْحابه، وهو شَهْريارُ بنُ رُسْتُمَ الدَّيْلَميُّ، إذ مرَّ مُنَجِّمٌ فاسْتَدْعاه، فقال له: إني رأيْتُ مَنامًا غريبًا؛ رأيْتُ كأني أبولُ فخرَج من ذَكَري نارٌ عظيمةٌ حتىٰ كادَتْ تَبْلُغُ عَنانَ السماء، ثم انْفَرَقَت ثلاثَ شُعَب، ثم انْتَشَرَت كلُّ شُعْبة إلىٰ شُعَب كثيرة، فأضاءَت الدنيا بتلك النار، ورأيْتُ البلادَ والعِبادَ قد خضَعَت لهذه النار. فقال له المُنَجِّمُ: هذا مَنامٌ عظيمٌ لا أُفَسِّرُه لك إلا بمال جَزيل. فقال: والله لا شيء عندي أُعْطيك، ولا أمْلكُ غيرَ فرَسي هذه. فقال: هذا يَدُلُّ علىٰ أنه يَمْلكُ من صُلْبك ثلاثةٌ مُلوك، ثم يَكونُ من سُلالة كلٍّ واحد منهم مُلوكٌ عدةٌ. فقال له: ويحَك! أتَسْخَرُ بي؟ وأمَر بنيه فصفَعوه، ثم أعْطاه عشَرةَ دَراهمَ فقال لهم المُنجِّمُ: اذْكُروا هذا إذا قدمْتُ عليكم وأنتم مُلوكٌ. وخرَج وترَكهم. وهذا من أعْجب الأشياء، وذلك أن هؤلاء الإخْوةَ الثلاثةَ كانوا عندَ مَلك يُقالُ له: ماكانُ ابنُ كالي. في بلاد طَبَرسْتانَ، فتسلَّط عليه مَرْداويجُ، فضعُف أمرُ ماكانَ، فشاوَروه في مُفارَقته حتىٰ يَكونَ من أمْره خيرٌ، فخرَجوا عنه ومعهم جَماعةٌ من الأُمراء، فصاروا إلىٰ مَرْداويجَ، فأكْرَمَهم واستَعْمَلهم علىٰ الأعمال في البُلْدان، فأعطَىٰ عمادَ الدولة عليَّ بنَ بُوَيْه نيابةَ الكَرَج، فأحْسَن فيها السِّيرةَ، والْتَفَّ عليه الناسُ وأحَبُّوه، فحسَده مَرْداويجُ، وبعَث إليه يَعْزِلُه عنها، ويَسْتَدْعيه إليه،

فامْتَنَع مِن القُدومِ عليه، وصار إلى أصْبَهانَ، فحاربَه نائبُها، فقهرَه عمادُ الدولة واستَوْلَى عليها، وإنما كان معه تسْعُمائةِ فارسٍ، فردَّ بها عشرَةَ آلافٍ، وعظُم في أعيُنِ الناسِ، فلما بلَغ ذلك مَرْداويجَ قلق منه، وأرْسَل إليه جيشًا، فأخرَجوه من أصْبَهانَ، وقصَد أرَّجانَ فأخذَها من نائبِها، وحصَل له من الأموالِ شيءٌ كثيرٌ جدًا، ثم أخذ بُلدانًا كثيرةً، واشتَهر أمْرُه، وبعُد صيتُه، وحسُنت سيرتُه، واجتمع إليه مِن الجُنْدِ خَلْقٌ كثيرٌ وجَمٌّ غفيرٌ، وقد آل بهم الحالُ إلى أن مَلَكوا بغدادَ من أيدي الخُلَفاءِ العباسيِّين، لهم القَطْعُ والوَصْلُ، والولايةُ والعَزْلُ، وإليهم تُجْبَى الأموالُ، ويُرْجَعُ إليهم في سائرِ الأمورِ والأحوالِ، على ما سنَذْكُرُ ذلك مَبْسوطًا. واللهُ المُستعانُ والمحمودُ على كلِّ حالٍ.

وممَّن توفِّي في هذه السنة من الأعيان:

الطَّحاويُّ، أحمدُ بنُ محمدِ بن سلامةَ بن سَلَمةَ بن عبد الملك أبو جعفر الطَّحاويُّ، نسْبةً إلى طَحَا، وهي قريةٌ بصَعيدِ مصرَ، الفَقيهُ الحَنَفيُّ، صاحبُ المُصنَّفاتِ المُفيدةِ والفوائد، وهو أحدُ الثِّقاتِ الأثباتِ، والحُفَّاظِ الجَهابذةِ، وهو ابنُ أختِ المُزَنيِّ، رحمهما اللهُ، وكانت وفاتُه في مُسْتَهَلِّ ذي القَعْدةِ من هذه السنة عن ثنتَيْنِ وثمانين سنةً.

وذكَر أبو سعدٍ السَّمْعانيُّ أنه وُلِد في سنةِ تسعٍ وعشرين ومائتين، فعلى هذا يَكونُ قد جاوزَ التِّسعين. واللهُ أعلمُ.

وذكَر ابنُ خَلِّكانَ في «الوَفَياتِ» أن سببَ انتقالِه إلى مَذْهَبِ أبي حَنيفةَ ورُجوعِه عن مَذْهَبِ خالِه المُزَنيِّ، أن خالَه قال له يومًا: والله لا يجيءُ منك شيءٌ. فغضب واشتَغل على أبي جعفرِ بنِ أبي عِمْرانَ الحَنَفيِّ، حتى برَع وفاق أهلَ زَمانِه، وصنَّف كتُبًا كثيرةً منها «أحْكامُ القرآنِ»، و«اختلافُ العُلماءِ»، و«مَعاني الآثارِ»، و«التاريخُ الكبيرُ». وله في الشُّروطِ كتابٌ، وكان بارعًا فيها. وقد كتَب للقاضي أبي عبيدِ اللهِ محمدِ بنِ عبدةَ. وعدَّله القاضي أبو عُبَيدِ بنُ حَرْبُوَيْه. وكان يَقولُ: رحِم اللهُ المُزَنيَّ، لو كان حيًّا لكفَّر عن يمينِه.

وكانت وفاتُه في مُسْتَهَلِّ ذي القَعْدَةِ، ودُفِن بالقَرَافةِ، وقبرُه مشهورٌ بها، رحمه اللهُ تعالى، وترْجَمَه ابنُ عَساكرَ، وذكَر أنه قدِم دمشقَ سنةَ ثمانٍ وستين ومائتين، وأخَذ الفقهَ عن قاضيها أبي خازمٍ، رحمه اللهُ.

أحمدُ بنُ محمدِ بنِ موسى بنِ النَّضْرِ بنِ حكيمِ بنِ عليِّ بنِ زَرْبيٍّ أبو بكرِ بنُ أبي حامدٍ، صاحبُ بيتِ المالِ. سمِع عباسًا الدُّوريَّ وخَلْقًا، وعنه الدارَقُطْنيُّ وغيرُه، وكان ثقةً صَدوقًا، جَوادًا ممدحًا؛ اتَّفَق في أيامِه أن رجلًا من أهلِ العلمِ كانتْ له جاريةٌ يُحبُّها حبا شديدًا، فركِبَتْه ديونٌ كثيرٌ اقتضى الحالُ أن باع تلك الجاريةَ في الدَّيْنِ، فلمَّا قبَض ثمنَها ندِم نَدامةً عظيمةً جدا، وبقِي مُتَحَيِّرًا في أمْرِه، فباعها الذي كانت عندَه، فبلغ سيدَها أنَّ الجاريةَ قد اشتراها ابنُ أبي حامدٍ صاحبُ بيتِ المالِ، فتشَفَّع إليه

ببعض أصحابه في أن يَرُدَّها إليه بثمنها، فلمَّا قال له ذلك لم يَكُنْ عندَه شُعورٌ بها، وذلك أن امْرأته كانت اشْتَرَتْها له، ولم تُعْلِمْه بعدُ بأمْرِها حتىٰ تَحِلَّ من استِبْرائها، وكان ذلك اليومُ آخرَه، فلبَّسوها الحُليَّ والمَصاغَ، وصنَّعوها له، وحينَ شفَع عندَه في أمْرِها بُهِت؛ لعدم علمه بها، ثم دخَل يَسْتَكْشِفُ خبرَها من منزله، فإذا بها قد هُيِّئَت له وزُخْرِفَت، ففرح فرحًا شديدًا إذ وَجدَها، من أجلِ ذلك الرجلِ، فأخْرَجَها معه وهو يُظهِرُ السُّرورَ، فقال لسيدها: هذه جاريتُك؟ فلما رآها اضْطَرَب كلامُه، واخْتَلَطَ في عقْله مما رأىٰ من حُسْنِ مَنْظَرِها وهَيْئَتِها، وقال: نعم. قال: خُذْها، باركَ اللهُ لك فيها. ففرح الفتىٰ فَرَحًا شديدًا، وقال: يا سيدي، تأْمُرُ مَن يَحْمِلُ معي المالَ؟ فقال: لا حاجةَ لي به، وأنت في حِلٍّ منه، فإني أخْشَىٰ إن لم يَبْقَ معك شيء أن تَبيعَها ثانيةً ممَّن لا يَرُدُّها عليك. فقال: يا سيدي، فهذا الحَلْيُ والمَصاغُ الذي عليها؟ فقال: هذا شيء وهَبْناه لها لا نَعودُ فيه أبدًا. فاشْتَدَّ فرَحُ الفتىٰ، وأخَذها معه، فلما ودَّعَ ابنَ أبي حامدٍ قال للجارية: أيُّما كان أحَبَّ إليك؛ نحن أو سيدُك هذا؟ فقالتْ: أما أنتم فأغْنَيْتموني، فجَزاكم اللهُ خيرًا، وأما سيدي هذا فلو أني ملَكْتُ منه ما ملَك مني لم أَبِعْه بالأموالِ الجَزيلة. فاستَحْسن الحاضرون ذلك من قولها مع صِغَرِ سنِّها.

شَغَبُ أمُّ أمير المؤمنين المُقْتَدر بالله المُلَقَّبة بالسيِّدة، كان دَخْلُ أمْلاكها في كلِّ سنةٍ ألفَ ألفِ دينارٍ، وكانتْ تَتَصدَّقُ بأكثرِ ذلك على الحَجيجِ في أشْرِبةٍ وأزْوادٍ وأطبَّاءَ يكونون معهم، وتَسْهيلِ الطُّرُقات والمَوارد.

وكانتْ في غايةِ الحِشْمة والرِّياسة ونُفوذِ الكلمةِ أيامَ خلافة ولدِها، فلما قُتِل كانتْ مَريضةً فزادها مَرَضًا إلى مَرَضِها، ولما استَقَرَّ أمْرُ القاهرِ في الخلافة - وهو ابنُ زوجِها المُعْتَضِدِ وأخو ابنِها، وقد كانتْ حضَنَتْه حينَ تُوُفِّيَت أمُّه، وخلَّصَتْه من ابنِها لما كان مؤنسٌ قد بايعَه ولم يَتِمَّ ذلك - عاقَبها القاهرُ عُقوبةً عظيمةً جدًّا، حتى كان يُعَلِّقُها برجلِها ورأسُها مَنْكوسٌ، فربما بالتْ فيَنْحَدِرُ على وجهِها؛ ليُقَرِّرَها على الأموالِ التي في يدِها، فلم يَجِدْ لها شيئًا سوىٰ ثيابِها ومَصاغِها وحُليِّها في صَناديقَ لها، قيمتُها مائةُ ألفٍ وثلاثون ألفَ دينارٍ، وجميعُ ما كان يدخلُها تَتَصدقُ به، ووقفَت شيئًا كثيرًا، ولكنْ كان لها أمْلاكٌ أمَر ببيعِها، وأتىٰ بالشُّهودِ ليَشْهَدوا عليها بالتَّوْكيلِ في بيعِها، فامْتَنَع الشُّهودُ من أداءِ الشَّهادةِ حتىٰ يُحَلُّوها، فرُفِع السِّترُ بإذنِ الخَليفة، فقالوا لها: أنت شَغَبُ جاريةُ المُعْتَضِدِ أمُّ جعفرٍ المُقْتَدِرِ؟ فبكَتْ بُكاءً طَويلاً ثم قالتْ: نعم. وكتَبوا حِلْيَتَها؛ عَجوزٌ، سَمْراءُ اللونِ، دَقيقةُ الجَبينِ. وبكىٰ الشُّهودُ وتفكَّروا في تَقلُّبِ الزَّمانِ، وتَنَقُّلِ الحَدَثانِ. وكانت وفاتُها في جُمادىٰ الأولىٰ من هذه السنةِ، ودُفِنَت بالرُّصافةِ، رحِمها اللهُ.

عبدُ السلامِ بنُ محمدِ بنِ عبدِ الوهَّابِ بنِ سلامِ بنِ خالدِ بنِ حُمْرانَ بنِ أبانَ مولى عُثمانَ بنِ عفانَ، وهو أبو هاشمِ بنُ أبي عليٍّ الجُبَّائيُّ[1]، المُتكلِّمُ ابنُ المُتكلِّمِ، المُعتزليُّ ابنُ المُعتزليِّ، وإليه تُنسبُ البَهْشَمِيَّةُ من المُعتزلةِ، وله مُصنَّفاتٌ في الاعتزالِ كما لأبيه من قبلِه، مولدُه في سنةِ سبعٍ وأربعين ومائتين، وتُوفِّي في شعبانَ من هذه السنة.

قال القاضي ابنُ خَلِّكان: وكان له ابنٌ يُقالُ له: أبو عليٍّ. دخَل يومًا على الصاحبِ بنِ عَبَّادٍ فأكرَمه واحترَمه، وسأله عن شيءٍ، فقال: لا أعرِفُ نصفَ العلمِ. فقال: صدَقتَ وسبَقك أبوك إلى النِّصفِ الآخَرِ!

محمدُ بنُ الحسنِ بنِ دُرَيْدِ بنِ عتاهيةَ أبو بكرِ بنُ دُرَيْدٍ الأزديُّ اللُّغويُّ النَّحْويُّ الشاعرُ صاحبُ المَقصورةِ، وُلد بالبَصرةِ في سنةِ ثلاثٍ وعشرين ومائتين، وتَنقَّل في البلادِ لطلبِ العلمِ والأدبِ، وكان أبوه من ذَوي اليَسارِ، وقدِم بغدادَ وقد أسَنَّ، فأقام بها إلى أن تُوفِّي. روَى عن عبدِ الرحمنِ ابنِ أخي الأَصْمَعيِّ، وأبي حاتمٍ، والرِّيَاشيِّ. وعنه أبو سعيدٍ السِّيرافيُّ، وأبو بكرِ بنُ شاذانَ، وأبو عُبَيدِ اللهِ المَرْزُبانيُّ وغيرُهم. ويُقالُ: كان أعلَمَ الشعراءِ وأشعرَ العُلماءِ. وقد كان مُتَهتِّكًا في الشَّرابِ، قال أبو منصورٍ الأزهريُّ: دخَلت عليه فوجدتُه سكرانَ، فلم أَعُدْ إليه.

وسُئل عنه الدارَقُطنيُّ فقال: تكلَّموا فيه. وقال ابنُ شاهينَ: كنا نَدخُلُ عليه فنَستَحيي مما نرَى من العيدانِ المُعلَّقةِ والشَّرابِ المُصفَّى، وقد جاوَز التِّسعين وقارَب المائةَ. وكانت وفاتُه في يومِ الأربعاءِ لثِنتَيْ عشْرةَ بقِيَت من شعبانَ.

وفي هذا اليومِ كانت وفاةُ أبي هاشمِ بنِ أبي عليٍّ، فصُلِّي عليهما معًا، ودُفنا في مَقبَرةِ الخَيْزُرانيةِ، وقال الناسُ: مات اليومَ علمُ اللُّغةِ، وعلمُ الكَلامِ. وكان ذلك يومًا مَطيرًا. ومن مُصنَّفاتِ ابنِ دُرَيْدٍ «الجَمْهرةُ» في اللُّغةِ، في نحوِ عشرِ مُجلَّداتٍ، وكتابُ «المطرِ»، والمَقصورةُ، والقَصيدةُ الأخرى في المَقصورِ والمَمدودِ، وغيرُ ذلك، سامَحه اللهُ.

ثم دخلت سنة ثنتين وعشرين وثلاثمائة

فيها: قصَد ملكُ الرومِ مَلَطيةَ في خمسين ألفًا، فحاصَرها ثم أعطاهم الأمانَ حتى تمكَّن منهم، فقتَل خَلقًا كثيرًا، وأسَر ما لا يُحصَوْن كثرةً، فإنا للهِ وإنا إليه راجعون.

وفيها: ورَدَت الأخبارُ بأن مَرْداويجَ قد تسلَّم أصْبَهانَ، وانتزَعها من عليِّ بنِ بُوَيْه، وأن عليَّ بنَ بُوَيْه توَجَّه إلى أرَّجانَ فأخَذَها، وقد أرسَل ابنُ بُوَيْه إلى الحَضْرةِ الخليفيَّةِ بالطاعةِ والمَعُونةِ، وإن أمكَن أن يُقبِّلَ العَتَبةَ الشَّريفةَ ويَحضُرَ بينَ يَدَيِ الخليفةِ إن رسم، أو يَذهَبَ إلى شيرازَ فيكونَ مع ياقوتَ. ثم

---

(١) ترجمته في «تاريخ بغداد» (١١/ ٥٥-٥٦)، و«سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٦٣-٦٤).

اتَّفق الحالُ بعدَ ذلك أن صار إلى شيرازَ، وأخذَها من نائبِها ياقوتَ بعدَ قتالٍ عظيمٍ ظفر فيه ابنُ بُوَيْهِ بياقوتَ وأصحابِه، فقتَل منهم خلقًا، وأسَر جماعةً، فلما تمكَّن أطلَقهم، وأحسَن إليهم، وخلَع عليهم، وعدَل في الناسِ.

وكانتْ معه أموالٌ كثيرةٌ قد استَفادها من أصبَهانَ، وقبلَها من الكَرَجِ ومن همَذان وغيرِها. إلا أنه كان كريمًا جوادًا معطاءً للجُيوشِ الذين قد التَفُّوا عليه، ثم إنه أملَق في بعضِ الأحيانِ وهو بشيرازَ، وطالَبه الجندُ بأرزاقِهم، وخاف أن ينْحلَّ نظامُ أمرِه، فاستَلقَى يومًا على قفاه مُفكِّرًا في أمرِه، وإذا حيَّةٌ قد خرَجت من سَقْفِ المكانِ الذي هو فيه، ودخَلت في آخرَ، فأمر بنزعِ تلك السُّقوفِ، فوجَد هنالك مكانًا فيه من الذهبِ شيءٌ كثيرٌ جدًّا نحوٌ من خمسِمائةِ ألفِ دينارٍ، فأنفَق في جيشِه ما أراد، وبقِيَ عندَه شيءٌ كثيرٌ.

وركِب ذاتَ يومٍ يتَفرَّجُ في خرابِ البلدِ، وينْظُرُ إلى أبنيَةِ الأوائلِ، ويتَّعظُ بمَن كان قبلَه، فانخسَفَت الأرضُ من تحتِ قائمةِ جَوادِه، فأمَر فحُفِر هنالك فوجَد من الأموالِ شيئًا كثيرًا أيضًا.

واستَعمل عندَ رجلٍ خَيَّاطٍ قُماشًا ليَلْبَسَه، فاستَبْطَأه فأمَر بإحضارِه، فلما وقَف بينَ يديه تهدَّده، وكان الرجلُ أصَمَّ لا يَسْمَعُ جيدًا، فقال: واللهِ ما لابنِ ياقوتَ عندي سوى اثْنَيْ عشرَ صُنْدوقًا، لا أدري ما فيها. فأمَر بإحضارِها فإذا فيها أموالٌ عظيمةٌ تقاربُ ثلاثَمائةِ ألفِ دينارٍ.

واطَّلَع على وَدائعَ كانتْ ليعقوبَ وعمرٍو ابني الليثِ، فيها من الأموالِ ما لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ كثرةً، فقوِي أمرُه، وعظُم سُلطانُه جدًّا، وهذا كلُّه من الأمورِ المُقدَّرةِ لما يريدُه اللهُ بهم من السَّعادةِ الدُّنيويةِ. ﴿وربُّك يخلقُ ما يشاءُ ويختارُ﴾ [القصص: ٦٨]. و﴿لله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ﴾ [الروم: ٤].

وكتَب إلى الراضي ووزيرِه أبي عليِّ بنِ مُقْلَةَ يَطْلُبُ أن يُقاطَعَ على ما قِبَلَه من البلادِ على ألفِ ألفٍ في كلِّ سنةٍ، فأجابه الراضي إلى ذلك، وبعَث إليه بالخِلَعِ واللِّواءِ وأُبَّهةِ المُلْكِ.

وفيها: قتَل القاهرُ بالله أميرَيْن كبيرَيْن؛ وهما إسحاقُ بنُ إسماعيلَ النُّوبَخْتيُّ، وهو الذي كان قد أشار على الأمراءِ بخلافةِ القاهرِ، وأبو السَّرايا بنُ حَمْدانَ أصغَرُ وَلَدِ أبيه، وكان في نفسِ القاهرِ منهما؛ بسببِ أنهما زايَداه مرَّةً من قبلِ أن يَلِيَ الخلافةَ في جاريتَيْن مُغنِّيتَيْن، فاستَدْعاهما إلى المُسامرةِ فتَطيَّبا وحضَرا، فأمَر بإلقائِهما في بئرٍ هنالك، فتَضرَّعا إليه فلم يرْحَمْهما، بل أُلقِيا فيها، وطُيِّنَها عليهما.

ذكرُ خلعِ القاهرِ وسَمْلِ عينَيْه[1]

وكان سببَ ذلك أن الوزيرَ أبا عليِّ بنَ مُقْلَةَ كان قد هرَب من القاهرِ حينَ قبَض على مُؤنسٍ الخادمِ، واختَفَى في دارِه، وكان يُراسِلُ الجُنْدَ ويُكاتِبُهم ويُغْرِيهم بالقاهرِ، ويُخَوِّفُهم سَطْوتَه وإقدامَه وسُرْعَةَ بَطْشِه، وأخبرَهم أن القاهرَ قد أعدَّ لأكابرِ الأمراءِ أماكنَ يَسْجُنُهم فيها، فهيَّجهم ذلك وأشبَهُم

(١) انظر القصة بتمامها في «المنتظم لابن الجوزي» (١٣/ ٣٣٤-٣٣٥).

على القَبْضِ على القاهرِ، فاجْتَمَعوا وأجْمَعوا رأيَهم على مُناجَزَته في هذه الساعة، وركِبوا مع الأميرِ المَعْروف بسيما، وقصَدوا دارَ الخلافة فأحاطوا بها، ثم هجَموا على القاهرِ من سائرِ أبوابِها، فخرَج الوزيرُ الخَصيبيُّ مُستترًا في زيِّ امرأةٍ، وانهزَم القاهرُ وهو مَخمورٌ، فاختَفَى في سطحِ حمامٍ، فظهَروا عليه فقبَضوه وحبَسوه في مكانٍ طريفٍ السبكريُّ، وأخرجَوا طريفًا، واضطَرَبَت بَغدادُ ونُهِبَت، وذلك يومَ السبتِ لثلاثٍ خَلَوْن من جُمادَى الأولى من هذه السنة، ثم أحضَروه فسمَلوا عَيْنَيْه حتى سالَتا على خَدَّيْه، وارْتُكب منه أمرٌ عظيمٌ لم يُسْمَعْ بمثلِه في الإسْلامِ، ثم أرْسَلوه، فكان تارةً يُحْبَسُ، وتارةً يُخَلَّى سَبيلُه، وقد تأخَّر موتُه إلى سنةِ ثلاثٍ وثلاثين وثلاثمائة. وافْتَقَرَ حتى قام يومًا بجامع المنصورِ، فسأل فأعْطاه رجلٌ خمسَمائةِ درهمٍ، ويقالُ: إنه إنما أراد بهذا الصنيعِ التَّشْنيعَ على المُسْتكفِي باللهِ. فاللهُ أعلمُ. وستأتي ترجمتُه إذا ذكَرْنا وفاتَه.

خلافة الراضي بالله أبي العباس محمد بن المقتدر بالله

لما خلَعَت الجُنْدُ القاهرَ، وسمَلوه أحْضَروا أبا العباسِ محمدَ بنَ المُقْتَدِرِ باللهِ، فبايَعوه على الخلافةِ، ولقَّبوه الراضيَ باللهِ، وكان أبو بكرٍ الصُّوليُّ قد أشار بأن يُلَقَّبَ بالمَرْضيِّ باللهِ، فلم يَقْبَلْ وعَدَل إلى هذا اللَّقبِ، وذلك يومَ الأربعاءِ لستٍّ خَلَون من جُمادَى الأولى من هذه السنة - أعني سنةَ ثنتين وعشرين وثلاثمائةٍ - وجاءُوا بالقاهرِ وهو أعْمَى قد سُمِلت عَيْناه، فأُوقِفَ بينَ يدَيْه، فسلَّم عليه بالخلافةِ، وسلَّمها إليه، فقام الراضي بأعبائِها، وكان من خيارِ الخُلَفاءِ على ما سنَذْكُرُه، وأمَر بإحْضارِ أبي عليِّ بنِ مُقْلَةَ، فولَّاه الوزارةَ، وجَعل عليَّ بنَ عيسى ناظرًا عليه، وأطْلَق كلَّ مَن كان في حبسِ القاهرِ، واسْتَدْعَى عيسى طَبيبَ القاهرِ، فصادَره بمائتَيْ ألفِ دينارٍ، وتسَلَّم منه الوَديعةَ التي كان القاهرُ أوْدَعها عندَه، وكانت جُملةً مُسْتَكْثَرةً من الذهبِ والفضةِ والنفائسِ.

وفي هذه السنةِ عظُم أمرُ مَرْداويجَ بأصْبَهانَ، وتحدَّث الناسُ أنه يُريدُ قَصْدَ بَغْدادَ، وأنه مُماليٌ لصاحبِ البحْرَيْن، وقد اتَّفَقا على رَدِّ الدَّوْلةِ من العربِ إلى العجمِ، وأساء السيرة في رعيته، لا سيَّما في خواصِّه من الأتراكِ، فتمالئوا على قتلِه فقتَلوه، قبَّحه اللهُ، وكان القائمُ بأعباءِ ذلك أخَصَّ مَماليكِه وأحْظاهم عندَه، وهو بَجْكَمُ، بيَّض اللهُ وجهَه، وهذا الأميرُ هو الذي اسْتَنْقَذ الحجرَ الأسْودَ من أيدي القَرامطةِ، وافْتَداه منهم بخمسين ألفَ دينارٍ، بذَلها لهم حتى ردُّوه إلى مكةَ كما سيأتي. ولما قُتِل مَرْداويجُ بنُ زَيَّارَ الدَّيْلَميُّ عظُم أمْرُ عليِّ بنِ بُوَيْهِ، وارْتَفَع قدْرُه بينَ الناسِ، وعلا شأْنُه في الملُوكِ، وسيأتي ما آل إليه حالُه.

ولما خُلع القاهرُ ووَلِيَ الراضي، طمع هارونُ بنُ غَريبٍ في الخلافةِ؛ لكونِه ابنَ خالِ المُقْتَدِرِ، وكان

نائبًا على ماه الكوفة الدِّينَوَر وماسَبَذانَ، فدعا إلى ذلك واتَّبعه خلقٌ من الجُنْد والأمراء، وجبَى الأموالَ، واسْتَفحل أمرُه، وقويَت شوْكتُه، وقصَد بَغْدادَ، فخرَج إليه محمدُ بنُ ياقوتَ رأسُ الحَجَبة في جميع جيش بَغْدادَ، فاقْتتَلوا هنالك، فخرَج في بعض الأيام هارونُ بنُ غَريبٍ يَتَقصَّدُ لعله يَعْمَلُ حيلةً في أسْر محمد بن ياقوتَ، فتَقَنْطَر به فرسُه، فسقَط في نهر، فضربَه غلامٌ له حتى قتَله، وأخَذ رأسَه، وجاء به إلى محمد بن ياقوتَ، فانْهَزَم أصحابُ هارونَ، ورَجَع محمدُ بنُ ياقوتَ، فدخَل بغدادَ ورأسُ هارونَ بن غَريبٍ يُحمَلُ بينَ يدَيه على رُمْح، ففرح الناسُ بذلك، وكان يومًا مشهودًا.

وفيها: ظهَر رجلٌ ببغدادَ يُعْرَفُ بأبي جعفر محمد بن عليٍّ الشَّلْمَغانيِّ، ويقالُ له: ابنُ أبي العَزاقر. فذُكر عنه أنه يَدَّعي ما كان يَدَّعيه الحَلاَّجُ من الإلَهية، وكان قد مُسك في دولة المُقْتَدر عندَ حامد بن العباس، واتُّهم بأنه يَقولُ بالتَّناسُخ فأنْكَر ذلك. ولما كانتْ هذه المرةُ أحْضَره الراضي، وادَّعَى عليه بما ذُكر عنه، فأنْكَرَ، ثم أقَرَّ بأشياءَ، فأفْتَى قومٌ أن دمَه حلالٌ إلا أن يَتوبَ من هذه المَقالة، فضُرب ثمانين سَوْطًا، ثم ضُربَت عنقُه وصُلبَ، وأُلحق بالحَلاَّج قبَّحهما اللهُ، وقُتل معه صاحبُه ابنُ أبي عَوْن، لعَنه اللهُ، وكان هذا اللَّعينُ من جُملة طائفة قد اتَّبعوه وصدَّقوه فيما يَزْعُمُه من الكُفر، لعنَهم اللهُ.

وقد بسَط ابنُ الأثير في «كامله» مَذْهَبَ هؤلاء الكَفَرة بَسْطًا جيدًا، وشبَّه مَذْهَبَهم بمذهَب النُّصَيْرية، لعنهم اللهُ أجمعين.

وادَّعَى رجلٌ ببلاد الشاش النُّبوةَ، وأظهَر مَخاريقَ وأشْياءَ كثيرةً من الحِيَل فجاءتْه الجُيوشُ فقاتَلوه، فقَتَلُوه، وانطَفأ خبَرُه واضْمَحَلَّ أمرُه.

وفاة المهدي صاحب إفريقيَّة
أول خلفاء الفاطميين فيما زعموا

وفيها: مات أبو محمد عُبيد الله، المُدَّعي أنه عَلَويٌّ - المُلَقَّبُ بالمهديِّ - باني المَهْدية - بمدينَته المهديَّة، عن ثلاث وستين سنةً، وكانتْ ولايتُه، منذُ دخَل رَقَّادةَ وادَّعَى الإمامةَ، أربعًا وعشرين سنةً وشهرًا وعشرين يومًا، وهو أولُ الخلفاء الفاطميِّينَ.

وقد كان شَهْمًا شُجاعًا، ظفر بجَماعة ممَّن خالَفه وناوَأه وقاتلَه وعاداه، وقد قام بأمْر الخلافة من بعده ولدُه أبو القاسم المُلَقَّبُ بالخليفة القائم بأمْر الله. وحينَ تُوُفِّي أبوه كتَم موتَه سنةً حتى دبَّر ما أراده من الأمور، ثم أظْهَر ذلك، وعزَّاه الناسُ فيه. وقد كان شَهْمًا شُجاعًا كأبيه، فتَح البلادَ، وأرْسَل السَّرايا إلى بلاد الروم، ورام أخْذَ الديار المصرية، فلم يَتَّفقْ له ذلك، وإنما جرَىٰ ذلك على يَدَي ابن ابنه المُعزِّ الفاطميِّ الذي بنَى القاهرةَ المُعزِّيَةَ، كما سنَذْكُرُه، إن شاء اللهُ تعالى.

قال القاضي ابنُ خلِّكانَ في «الوفيات»: وقد اخْتُلف في نسب المهديِّ هذا اخْتلافًا كثيرًا جدًّا؛ فقال صاحبُ «تاريخ القَيْرَوان»: هو عُبَيدُ الله بنُ الحسن بن محمد بن عليِّ بن موسى بن جعفر بن محمد

ابنِ عليٍّ بنِ الحسينِ بنِ عليٍّ بنِ أبي طالب. وقال غيرُه: هو عُبَيدُ اللهِ بنُ التَّقِيِّ، وهو الحسينُ بنُ الوَفِيِّ أحمدَ بنِ الرَّضيِّ عبدِ الله، وهؤلاء الثلاثةُ يُقالُ لهم: المَسْتُورون. لخوفهم من خلفاءِ بني العبَّاس، والرَّضيُّ عبدُ الله هذا هو ابنُ محمد بنِ إسماعيلَ بنِ جعفرٍ الصادق. وقيل غيرُ ذلك في نَسَبِه.

قال القاضي ابنُ خلِّكانَ: والمُحقِّقون يُنكرون دَعْواه في النَّسَب.

قلتُ: قد كتَبَ غيرُ واحدٍ من الأئمة، منهم الشيخُ أبو حامدٍ الإسْفَرايينيُّ والقاضي الباقلانيُّ، والقُدُوريُّ، أن هؤلاءِ أدْعِياءُ ليس لهم نَسَبٌ صحيحٌ فيما يَزْعُمونه، وأن والدَ عُبَيدِ الله هذا كان يَهوديًّا صبَّاغًا بسَلَمْيَةَ، وقيل: كان اسمُه سعيدًا، وإنما لُقِّب بعُبَيدِ الله. وكان زوجُ أمِّه الحسينَ بنَ أحمدَ بنِ محمد بنِ عبدِ اللهِ بنِ مَيْمونٍ القدَّاح، وسُمِّي القَدَّاحَ؛ لأنَّه كان كحَّالاً يَقْدَحُ العُيونَ، وكان الذي وَطَّأ له الأمْرَ بتلك البلادِ أبو عبدِ الله الشِّيعيُّ كما قدَّمْنا ذلك، ثم اسْتَدْعاه فلما قدم من بلاد المَشْرِقِ وقَع في يدِ صاحبِ سِجِلْماسَةَ فسجَنَه، فلم يَزَلِ الشِّيعيُّ حتى اسْتَنْقَذه وسلَّم إليه الأمْرَ، ثم ندِم الشِّيعيُّ وهمَّ بقَتْله، ففطِن عبيدُ الله له فقَتَله وقتَل معه أخاه. ويقالُ: إن الشِّيعيَّ لما دخَل السجنَ وجَد صاحبَ سِجِلْماسَةَ قد قتَله، ووجَد في السجنِ رجلاً مجهولاً، فأخرَجه للناسِ وقال: هذا هو المهديُّ. وزوَّج به الأمرَ، فهؤلاءِ من سُلالته. حكاه القاضي ابنُ خلِّكانَ.

وكان مولدُ المهديِّ هذا في سنةِ ستين ومائتين. وقيل: قبلَها. وقيل: بعدَها. بسَلَمْيةَ. وقيل: بالكوفة. وأولُ ما دُعي له على مَنابرِ رَقَّادةَ والقَيْروانِ يومَ الجمعةِ لتسعٍ بقِينَ من ربيعٍ الآخرِ سنةَ سبعٍ وتسعين ومائتين، بعدَ رُجوعه من سِجِلْماسَةَ، وكان ظُهورُه بها في ذي الحجَّة من السنة الماضية، سنة ستٍّ وتسعين، وزالتْ دَوْلةُ بني العباسِ من تلك الناحيةِ من هذا الحينِ إلى أن هلَك العاضدُ في سنةِ سبعٍ وستين وخمسمائة.

وكانت وفاتُه بالمَهْدية - التي بناها في أيامه - ليلةَ الثلاثاء للنِّصف من ربيع الأول من هذه السنة، وقد جاوَزَ الستين على المشهورِ، وإلى الله عاقبةُ الأمور، وسيَفْصِلُ بينَ الآمرِ والمَأْمورِ، يومَ البَعْثِ والنُّشورِ.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

أحمدُ بنُ عبد الله بن مسلم بن قُتَيْبَةَ الدِّيْنَوَريُّ[1]، قاضي مصرَ، حدَّث عن أبيه بكُتُبِه المَشْهورة، وتُوُفِّي وهو على قَضاءِ الديارِ المصريةِ في ربيعٍ الأول من هذه السنة.

محمدُ بنُ أحمدَ بن القاسم أبو عليٍّ الرُّوذْباريُّ، وقيل: اسمُه أحمدُ بنُ محمدٍ، ويُقالُ: الحسنُ بنُ همَّام. والصحيحُ الأولُ، أصلُه من بَغْدادَ، وسكَن مصرَ، وكان من أبْناءِ الرُّؤساءِ والوُزراءِ والكَتَبة، وصحِب الجُنَيْدَ، وسمع الحديثَ، وحفظ منه كثيرًا، وتفقَّه بإبراهيمَ الحَرْبيِّ، وأخذ النَّحْوَ عن ثَعْلبٍ،

(١) ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٥٦٥) وما بعدها.

وكان كثيرَ الصَّدَقة والبرِّ للفُقَراء، وكان إذا أعْطَى الفقيرَ شيئًا جعَله في كفِّه، ثم يَتَناولُهُ الفقيرُ، يُرِيدُ أن لا تَكونَ يدُ الفقير تحتَ يده.

ومن شِعْرِه:

ولو مضَى الكلُّ مني لم يَكُنْ عَجَبًا ... وإنما عَجَبي في البَعْضِ كيفَ بقِي

أدرِكْ بقيةَ رُوحٍ منك قد تلفَت ... قبلَ الفراقِ فهذا آخرُ الرَّمَقِ

محمدُ بنُ إسماعيلَ المعروفُ بخيرِ النَّسَّاجِ أبو الحسنِ الصُّوفيُّ، مِن كبارِ المشايخِ ذَوِي الأحْوالِ الصالحة، والكَراماتِ المَشْهورة، أدْرَكَ سَرِيًّا السَّقَطِيَّ وغيرَه مِن مشايخِ القوم، وعاش مائةً وعشرين سنةً. ولما حضَرَتْه الوَفاةُ نظَر إلى زاويةِ البيتِ فقال: قِفْ رحِمك اللهُ، فإنك عبدٌ مأمورٌ، وأنا عبدٌ مأمورٌ، وما أُمِرْتَ به لا يَفوتُ، وما أُمِرْتُ به يَفوتُ. ثم قام فتوضَّأ وصلَّى، وتمدَّد فمات، رحِمه اللهُ. وقد رآه بعضُهم في المَنام فقال له: ما فعَل اللهُ بك؟ فقال: اسْتَرَحْنا من دُنياكم الوَضِرة.

ثم دخلت سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة

فيها: أُحضِر ابنُ شَنَبوذَ المُقرِئ، فأنْكَر جَماعةٌ من الفُقهاء والقُرَّاء عليه حُروفًا انْفَرَد بها، فاعْتَرَف ببعضِها، وأنْكَر بعضَها، فاستُتيب من ذلك، واسْتُكتِب بخطِّه بالرجوع عما نُقِم عليه، وضُرِب سبعَ دِرَرٍ بإشارةِ الوزيرِ أبي عليِّ بنِ مُقْلةَ، ونُفِي إلى البَصْرةِ أو غيرِها، فدعا على الوزيرِ أن تُقْطَعَ يدُه ويُشتَّتَ شَمْلُه، فكان ذلك عما قريب.

وفيها: في جُمادَى الآخرةِ نادَى بدرٌ الخَرْشَنيُّ صاحبُ الشُّرْطةِ في الجانبَيْن من بَغْدادَ أن لا يَجْتَمِع اثنان من أصْحابِ أبي محمدٍ البَرْبَهاريِّ الواعظِ الحَنْبليِّ، وحبَس منهم جَماعةً، واسْتَتَر البَرْبَهاريُّ، فلم يَظْهَرْ مدةً.

قال ابنُ الجَوْزيِّ في «المُنْتظَم»: وفي شهرِ أيَّارَ تكاثَفَت الغُيومُ، واشْتَدَّ الحَرُّ جدًا، فلما كان آخرُ يومٍ منه - وهو الخامسُ والعشرون من جُمادَى الآخرةِ من هذه السنة - هَبَّتْ ريحٌ شديدةٌ جدًّا، وأظْلَمت، واسْودَّت إلى بعدِ العصرِ، ثم خفَّت، ثم عادَت إلى بعدِ عشاءِ الآخرة.

وفيها: اسْتَبْطَأ الأجْنادُ أرْزاقَهم، فقصَدوا دارَ الوزيرِ أبي عليِّ بنِ مُقْلةَ، فنقَبوها وأخَذوا ما فيها.

ووقَع حريقٌ عظيمٌ في طريقِ البَزَّازين، فاحْتَرق بسببِه للناسِ شيءٌ كثيرٌ، فعوَّض عليهم الراضي باللهِ بعضَ ما كان ذهَب لهم.

وفي رمضانَ اجْتَمَع جَماعةٌ من الأمراءِ على بَيْعةِ جعفرِ بنِ المُكْتَفي، وظهَر الوزيرُ على أمْرِهم، فحبَس جعفرًا، ونُهِبت دارُه، وحبَس جَماعةً ممَّن كان بايَعه، وانْطَفَأت نارُه.

وخرَج الحُجَّاجُ في خُفارةِ الأميرِ لُؤْلُؤَ، فاعْتَرَضهم أبو طاهرٍ سليمانُ بنُ أبي سعيدٍ الجَنَّابيُّ، لعنَه اللهُ، فقتَل أكثرَهم، ورجع من انهزم منهم إلى بَغْدادَ، وبطَل الحجُّ في هذه السنةِ من طريقِ

العراقِ وكان قتلُه لهم في ليلة الأربعاء لِثِنْتَيْ عشْرةَ خلتْ من ذي القَعدة.

قال ابنُ الجَوزيِّ: وفي هذه السنة بعينِها تَساقطَت كَواكبُ كثيرةٌ ببَغْدادَ والكُوفة على صفة لم يُرَ مثلُها ولا ما يُقاربُها. قال: وغلا السِّعرُ في هذه السنة حتى بيعَ الكُرُّ من الحِنْطة بمائة وعشرين ديناراً.

وفيها: على الصَّحيح كان مَقْتَلُ مَرْداويجَ بنِ زيَارَ الدَّيلميِّ، وكان قبَّحه اللهُ، سَيِّئَ السِّيرة والسَّريرة، يَزْعُمُ أن رُوحَ سليمانَ بنِ داودَ حلَّت فيه، وله سَريرٌ من ذهبٍ يَجْلسُ عليه والأتراكُ بين يديه، ويَزْعُمُ أنهم الجنُّ الذين سُخِّروا لسليمانَ بنِ داودَ، وكان يُسيء المُعامَلةَ لهم، ويَحْتَقرُهم غايةَ الاحتقار، فما زال ذلك دأبَه حتى أمْكَنَهم اللهُ منه، فقتلوه في حَمام، وكان الذي مالأ على قتله غُلامُه بَجْكَمُ التُّرْكيُّ جزاه اللهُ عن الإسلام وأهله خيرًا، وكان رُكْنُ الدولة بنُ بُويَه رَهينةً عندَه، فلما قُتِل أُطلق من السجنِ والقَيد، فذهَب إلى أخيه عماد الدولة، وذهَبَت طائفةٌ من الأتراك معه إلى أخيه، والْتَفَّت طائفةٌ أخرى من الأتراك على بَجْكَمَ، فسار بهم إلى بغدادَ بإذن الخَليفة له في ذلك، ثم صُرِفوا إلى البَصْرة فكانوا بها.

وأمّا الدَّيْلَمُ فإنهم بعثوا إلى أخي مَرْداويجَ، وهو وُشْمَكيرُ، فلما قدم عليهم تلَقَّوْه إلى أثناء الطَّريق حفاةً مُشاةً، فملَّكوه عليهم لئلا يَذْهَبَ مُلْكُهم، فانتَدَب لمحاربته السَّعيدُ نصرُ بنُ أحمدَ السامانيُّ نائبُ خُراسانَ وما والاها من تلك البلاد والأقاليم، فانتَزَع منه بُلْدانًا هائلةً.

وفيها: بعَث القائمُ بأمْر الله الفاطميُّ جيشًا من إفْريقيَةَ في البَحْرِ إلى ناحية الفرَنْج، ففتَحوا مدينةَ جَنَوَةَ، وغنموا غَنائمَ كثيرةً وثَرْوةً، ورجَعوا سالمين غانمين.

وفيها بعَث عِمادُ الدَّوْلة بنُ بُويه أخاه ركنَ الدولة إلى أصْبَهانَ، فاستَوْلى عليها وعلى بلاد الجَبَل، واتَّسَعت مملكةُ عماد الدولة، وقَوِيت شوكتُه، وعَظُمت منزلتُه.

وفيها كان غَلاءٌ شديدٌ بخُراسانَ، وفَناءٌ كثيرٌ، بحيث كان يَهُمُّهم أمْرُ دَفْنِ المَوْتى.

وفيها قَتَل ناصرُ الدولة أبو محمدٍ الحسنُ بنُ عبد الله بن حَمْدانَ نائبُ المَوْصِل عمَّه أبا العَلاء سعيدَ بنَ حَمْدانَ؛ لأنه أراد أن يَنْتَزِعَها منه، فبعَث إليه الخَليفةُ وَزيرَه أبا عليِّ بنَ مُقْلَةَ في جُيوش، فهرَب منه ناصرُ الدَّوْلة، فلما طال مُقامُ ابنِ مُقْلةَ بالمَوْصِلِ رجَع إلى بَغْدادَ، فاسْتَقَرَّت يدُ ناصرِ الدَّوْلة على المَوْصِل، وبعَث إلى الخَليفة يسألُ أن يَضْمَنَ تلك الناحيةَ، فأُجيب إلى ذلك، واسْتَمَرَّ الحالُ على ما كان.

وخرَج الحَجيجُ فلقيَهم القِرْمِطيُّ في القادسية فقاتَلوه، فظفِر بهم، فسألوه الأمانَ، فأمَّنَهم على أن يَرْجِعوا إلى بغدادَ فرجَعوا، وتعطَّل عليهم الحجُّ عامَهم ذلك.

وممن تُوفِّي فيها من الأعيان:

نفْطَوَيْه النَّحْوي، إبراهيمُ بنُ محمد بن عَرَفةَ بن سليمانَ بن المُغيرة بن حَبيب بن المُهلَّب بن أبي صُفْرةَ الأزْديُّ، أبو عبد الله العَتَكيُّ[1]، المَعْروفُ بنِفْطَوَيْه النَّحْويِّ، له مُصنَّفاتٌ فيه، وقد سمع الحَديثَ،

---

(١) ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٧٥) و«المنتظم» (١٣/ ٣٥٠-٣٥٢).

وروى عن المَشايخ، وحدَّث عنه الثِّقاتُ من الناس، وكان صَدوقًا، وله أشْعارٌ حَسَنةٌ.

وروى الخَطيبُ عن نفْطَوَيْه أنه مرَّ يومًا على بقَّالٍ فقال له: أيُّها الشيخُ، كيف الطَّريقُ إلى دَرْبِ الرَّآسين - يعني دَرْبَ الرَّوَّاسين - فالتَفَت البَقَّالُ إلى جاره فقال له: قبَّح اللهُ غلامي، أبْطَأ عليَّ بالسِّلْقِ، ولو كان عندي لصَفَعْتُ هذا بجُرْزةٍ منه. فانصرَف عنه نفْطَوَيْه، ولم يرُدَّ عليه. تُوُفِّيَ نفْطَوَيه في صَفَرٍ من هذه السنة عن ثلاثٍ وثمانين سنةً، وصلَّى عليه البَرْبَهاريُّ رئيسُ الحَنابلة، ودُفن بمَقابرِ باب الكوفة.

ومما أنْشَدَه له أبو عليٍّ القاليُّ في «الأمالي»:

قلبي أرَقُّ عليك من خَدَّيْكا ... وقُواي أوْهَى من قُوَى جَفْنَيْكا

لِمَ لا تَرِقُّ لِمَن يُعَذَّبُ نفسَه ... ظُلْمًا ويَعْطِفُه هَواه عليكا

قال ابنُ خَلِّكانَ: وفي نفْطَوَيْه يَقولُ أبو عبد الله محمدُ بنُ زيدِ بنِ عليِّ بنِ الحسينِ الواسطيُّ المُتَكَلِّمُ المشْهورُ صاحبُ «الإمامة» و«إعْجاز القُرآن» وغيرِ ذلك:

من سَرَّه أن لا يَرَى فاسِقًا ... فلْيَجْتَهِدْ أن لا يَرَى نِفْطَوَيْهْ

أحْرَقَه اللهُ بنِصفِ اسْمِه ... وصَيَّر الباقي صُراخًا عليهْ

وقال الثَّعالبيُّ: إنما سُمِّي نِفْطَوَيْه لدَمامته وأُدْمَته. وقال ابنُ خالَوَيْه: لا يُعْرَفُ مَن اسمُه إبراهيمُ وكُنْيَتُه أبو عبد الله سواه.

عُبيدُ الله بنُ عبدِ الصَّمَد بنِ المُهْتَدي بالله، أبو عبد الله الهاشميُّ العبَّاسيُّ، حدَّث عن سيَّارِ بنِ نَصْرٍ الحَلَبيِّ وغيرِه، وعنه الدارَقُطْنيُّ وغيرُه، وكان ثقةً فاضلاً فَقيهًا شافعيًّا.

عبدُ الملكِ بنُ محمدِ بنِ عَدِيٍّ، أبو نُعَيم الإسْتِراباذيُّ، المُحَدِّثُ الفَقيهُ الشافعيُّ أيضًا، تُوُفِّي عن ثلاثٍ وثمانين سنةً.

عليُّ بنُ الفَضْلِ بنِ طاهرِ بنِ نصرِ بنِ محمد، أبو الحسنِ البَلْخيُّ، كان من الجَوَّالين في طلب الحديث، وكان ثقةً حافظًا، سمع أبا حاتمٍ الرازيَّ وغيرَه، وعنه الدارَقُطْنيُّ وغيرُه.

محمدُ بنُ أحمدَ بنِ أسد، أبو بكرٍ الحافظُ، ويُعْرَفُ بابنِ البُسْتَنْبان، سمع الزبيرَ بنَ بَكَّارٍ وغيرَه، وعنه الدارَقُطْنيُّ وغيرُه. جاوزَ الثمانين سنةً.

ثم دخلت سنة أربع وعشرين وثلاثمائة

فيها: جاءَت الجُنْدُ، فأحْدَقوا بدارِ الخلافة، وقالوا: ليَخْرُجْ إلينا الخليفةُ الراضي بنَفْسه فيُصَلِّ بالناس. فخرَج فصلَّى بهم وخطَبَهم، وقبَض الغلمانُ على الوزيرِ أبي عليِّ ابنِ مُقْلَةَ، وسألوا من الخليفةِ أن يَسْتَوْزِرَ غيرَه فردَّ الخِيَرَةَ إليهم، فاختاروا عليَّ بنَ عيسى فلم يَقْبَلْ، وأشار بأخيه عبدِ الرحمنِ بنِ عيسى فاسْتَوْزَره، وأُحْرِقَت دارُ ابنِ مُقْلَةَ، وسُلِّم هو إلى عبدِ الرحمنِ بنِ عيسى،

فضُرِب ضَرْبًا عَنيفًا، وأُخِذ خطُّه بألف ألف دينار، ثم عجز عبدُ الرحمن بنُ عيسى، فعُزِل بعدَ خمسين يومًا، وقُلِّد الوزارةَ أبو جعفر محمدُ بنُ القاسم الكَرْخيُّ، فصادَر عليَّ بنَ عيسى بمائة ألف دينار، وصادَر أخاه عبدَ الرحمن بنَ عيسى بسبعين ألفَ دينار، ثم عُزِل بعدَ ثلاثة أشهر ونصف، وقُلِّد سليمانُ بنُ الحسن، ثم عُزِل بأبي الفَتْح الفَضْلِ بن جعفر بنِ الفُرات، ولكن في السنة الآتية، وأُحْرِقَت دارُه كما أُحْرِقَت دارُ ابنِ مُقْلةَ في اليوم الذي أُحْرِقَت تلك فيه، بينَهما سنةٌ واحدةٌ. وهذا كلُّه من تَخْبيط الأتراك والغلْمان. ولما أُحْرِقَت دارُ ابنِ مُقْلةَ في هذه السنة كتَب بعضُ الناس على بعض جُدْرانها:

أحْسَنْتَ ظَنَّك بالأيام إذ حَسُنَتْ ... ولم تَخَفْ سُوءَ ما يأتي به القَدَرُ
وسالَمتك الليالي فاغْتَرَرْتَ بها ... وعندَ صَفْوِ الليالي يَحْدُثُ الكَدَرُ

وضعُف أمْرُ الخلافة جدًا، وبعَث الراضي إلى محمد بن رائقٍ -وكان بواسط- يَسْتَدْعيه إليه ليُوَلِّيَه إمْرةَ الأمراء ببَغْدادَ، وأمْرَ الخَراج، والمُعاونَ في جميع البلاد والدَّواوين، وأمَر أن يُخطَبَ له على جَميع المَنابر، وأنْفَذ إليه بالخِلَع، فقدِم ابنُ رائقٍ إلى بَغْدادَ على ذلك كلِّه، ومعه الأميرُ بَجْكَمُ التُّرْكيُّ غلامُ مَرْداويجَ، وهو الذي ساعَد على قتله وأراح المسلمين منه، واسْتَحْوَذ ابنُ رائقٍ على أمْر العراق بكَماله، ونقَل أموالَ بيت المال إلى داره، ولم يَبْقَ للوزير تَصَرُّفٌ في شيء بالكُلِّيَّة، ووهَى أمْرُ الخلافة جدًّا، واسْتَقَلَّ نُوَّابُ الأطْراف بالتَّصَرُّف فيها، ولم يَبْقَ للخَليفة حُكْمٌ في غير بَغْدادَ ومُعاملاتها، ومع هذا ليس له مع ابن رائقٍ نُفوذٌ في شيء، ولا كلمةٌ تُطاعُ، وإنما يَحْمِلُ إليه ابنُ رائقٍ ما يَحْتاجُ إليه من الأموال والنَّفَقات وغيرها، وهكذا صار أمْرُ مَن جاءَ بعدَه من أُمراء الأمراء، وأما بَقيةُ الأطْراف؛ فالبَصْرةُ مع ابن رائقٍ هذا، وأمرُ خُوزِسْتانَ في يَدَي أبي عبد الله البَريديِّ، وقد غلَب ياقوتَ في هذه السنة على ما كان بيده من مَمْلكة تُسْتَرَ وغيرها، واسْتَحْوَذ على حَواصله وأمْواله، وأمْرُ فارسَ إلى عِماد الدولة أبي الحسن عليِّ بن بُوَيْه، والرَّيُّ وأصبهانُ والجبلُ بيد أخيه ركن الدولة ابن بُوَيْه، ومُنازِعُه في ذلك وُشْمَكيرُ أخو مَرْداويجَ، وكَرْمانُ بيد أبي عليٍّ محمد ابن إلْياسَ بن اليَسَع، وبلادُ المَوْصِل والجَزيرةُ وديارُ بكرٍ ومُضَرَ ورَبيعةَ مع بني حَمْدانَ، ومصرُ والشامُ في يد محمد بن طُغْج، وبلادُ إفْريقيَّةَ والمَغْربُ في يد القائم بأمْر الله بن المهديِّ المُدَّعي أنه فاطميٌّ، وقد تَلَقَّب بأمير المؤمنين، والأندَلُسُ في يد عبد الرحمن بن محمد، المُلَقَّب بالناصر الأُمَويِّ، وخُراسانُ وما وراءَ النهر في يد السعيد نصر بن أحمدَ السامانيِّ، وطَبَرِسْتانُ وجُرْجانُ في يد الدَّيْلَم. والبَحْرَيْن واليَمامةُ وهَجَرُ في يد أبي طاهر سليمانَ بن أبي سعيد الجَنَّابيِّ القَرْمَطيِّ، لعنه اللهُ.

وفيها: وقَع ببَغْدادَ غَلاءٌ عظيمٌ وفَناءٌ كثيرٌ بحيث عُدِم الخُبْزُ منها خمسةَ أيام، ومات من أهل البلد خَلْقٌ كثيرٌ، وأكثرُ ذلك كان في الضُّعَفاء، وكان المَوْتَى يُلْقَوْن في الطُّرُقات ليس لهم مَن يَقومُ بأمرهم، ويُحْمَلُ على الجِنازة الواحدة الاثنان من المَوْتَى، وربما يُوضَعُ بينَهم صَبيٌّ، وربما حُفِرَت الحُفْرةُ الواحدةُ فتُوَسَّعُ حتى يُوضَعَ فيها جَماعةٌ، ومات من أصْبَهانَ نحوُ مائتَيْ ألف إنسان.

ووقَع فيها حَريقٌ بعُمانَ احتَرَق فيه مِن السُّودانِ ألفٌ، ومِن البِيضانِ خَلْقٌ كثيرٌ، وكان من جُملةِ ما احتَرق فيه أربعُمائةِ حِمْلِ كافورٍ.

وعزَل الخليفةُ أحمدَ بنَ كَيْغَلَغَ عن نِيابةِ الشامِ، وأضاف ذلك إلى ابنِ طُغْجٍ نائبِ الدِّيارِ المِصْريةِ.

وفيها: وُلِد عَضُدُ الدولةِ أبو شُجاعٍ فَنَّاخُسْرُو بنُ رُكْنِ الدولةِ بنِ بُوَيْهِ بأصْبَهانَ.

وممن تُوفِّي فيها من الأعيان:

ابنُ مُجاهدٍ المُقْرِئُ، أبو بكرٍ أحمدُ بنُ موسى بنِ العباسِ بنِ مُجاهدٍ المُقْرِئُ، أحدُ الأئمةِ في هذا الشأنِ. حدَّث عن خَلْقٍ كثيرٍ، وروَى عنه الدارَقُطْنيُّ وغيرُه، وكان ثقةً مأمونًا، سكَن الجانبَ الشَّرْقيَّ من بَغْدادَ، وكان ثَعْلَبٌ يقولُ: ما بقِي في عَصْرِنا أحدٌ أعلَمَ بكتابِ اللهِ منه. وكانت وفاتُه يومَ الأرْبعاءِ، وأُخرِج يومَ الخميسِ لعشْرٍ بقِين من شعبانَ من هذه السنة. وقد رآه بعضُهم في المَنامِ وهو يَقْرَأُ، فقال له: أمَا متَّ؟ فقال: بلى، ولكن كنتُ أدْعُو اللهَ عَقِبَ كلِّ خَتْمةٍ أن أكُونَ ممن يَقْرَأُ في قبرِه، فأنا ممَّن يَقْرَأُ في قبرِه رحمه اللهُ.

جَحْظَةُ، الشاعرُ البَرْمَكيُّ، أحمدُ بنُ جعفرِ بنِ موسى بنِ يَحْيَى بنِ خالدِ بنِ بَرْمَكَ البَرْمَكيُّ، أبو الحسنِ النَّديمُ المَعْروفُ بجَحْظَةَ، الشاعرُ الماهرُ الأديبُ الأخْباريُّ، ذو الفُنونِ في العلومِ والنَّوادرِ الحاضِرةِ، وكان جيدَ الغِناءِ، ومن شعرِه:

قد نادَتِ الدنيا على نفسِها ... لو كان في العالَمِ مَن يَسْمَعُ
كَمْ واثقٍ في العُمْرِ واريتُه ... وجامعٍ بدَّدْتُ ما يَجْمَعُ

وكتَب له بعضُ المُلوكِ رُقْعةً على صَيْرَفيٍّ بمالٍ أطْلَقه له، فلم يَتَحَصَّلْ منها على شيءٍ وتَعَذَّر عليه قَبْضُها، فكتَب إلى الملكِ يَذْكُرُ له صورةَ الحالِ:

إذا كانتْ صِلاتُكُمُ رِقاعًا ... تُخَطَّطُ بالأنامِلِ والأكُفِّ
ولم تَجْدِ الرِّقاعُ عليَّ نفعًا ... فها خطِّي خُذُوه بألفِ ألفِ

ومن شعرِه يَهْجو صَديقًا له، ويَذُمُّه على شدةِ بُخْلِه وحِرْصِه:

لنا صاحبٌ من أبْرَعِ الناسِ في البُخْلِ ... وأفضلُهم فيه وليس بذي فَضْلِ
دعاني كما يَدْعُو الصديقُ صَديقَه ... فجئتُ كما يأتي إلى مثلِه مِثْلي
فلما جلَسْنا للغَداءِ رأيتُه ... يَرَى أنما من بعضِ أعضائِه أكْلي
ويَغْتاظُ أحيانًا ويَشْتِمُ عبدَه ... وأعْلَمُ أن الغَيْظَ والشَّتمَ من أجْلي
أمُدُّ يدي سِرًّا لآكُلَ لُقْمةً ... فيَلْحَظُني شَزْرًا فأعْبَثُ بالبَقْلِ
إلى أن جنَت كفِّي لحَيْني جِنايةً ... وذلك أنَّ الجُوعَ أعْدَمَني عَقْلي
فأهْوَت يَميني نحوَ رِجْلِ دَجاجةٍ ... فجُرَّتْ كما جرَّت يدي رِجْلَها رِجْلي

ومن قويِّ شعره وجيِّده قولُه:

رحلتُم فكم من أنَّة بعدَ حَنَّة ... مُبيِّنة للناس حُزني عليكمُ
وقد كنتُ أعتقتُ الجفونَ من البُكا ... فقد ردَّها في الرِّقِّ شوقي إليكمُ

ومما أوردَه له القاضي ابنُ خَلِّكانَ من الشعرِ الرائقِ قولُه:

فقلتُ لها بخلتِ عليَّ يَقظَى ... فجُودي في المَنام لمُستَهامِ
فقالتْ لي وصِرْتَ تَنامُ أيضًا ... وتطمَعُ أن أزُورَك في المَنامِ

قال: وإنما لقَّبه بجَحْظَةَ عبدُ الله بنُ المُعتَزِّ. وذلك لسُوءِ مَنْظَره، كما قال فيه بعضُ مَن هجاه:

نُبِّئتُ جَحْظَةَ يَستَعيرُ جُحُوظَهُ ... مِن فيلِ شِطرَنْجٍ ومن سَرَطانِ
وارحمتا لمُنادميه تحمَّلوا ... ألمَ العُيونِ للذَّةِ الآذانِ

قال ابنُ خلِّكانَ: وكانت وفاتُه في سنةِ ستٍّ وعشرين. وقيل: سنةَ أربعٍ وعشرين وثلاثمائة، بواسطٍ، وحُمِل إلى بغدادَ. قال الخطيبُ: وكان مولدُه في سنةِ أربعٍ وعشرين ومائتين.

ابنُ المُغَلِّسِ، الفَقيهُ الظاهريُّ، عبدُ الله بنُ أحمدَ بنِ محمدِ بنِ المُغَلِّسِ أبو الحسنِ، الفقيهُ الظاهريُّ المشهورُ، له المُصنَّفاتُ المُفيدةُ في مَذهَبِه، أخذَ الفقهَ عن أبي بكرِ ابنِ داودَ، وروَى عن عبدِ الله بنِ أحمدَ بنِ حَنبلٍ، وعليِّ بنِ داودَ القَنْطَريِّ، وأبي قِلابةَ الرَّقاشيِّ، وآخَرين. وكان فقيهًا ثقةً فاضلًا، وهو الذي نشَر علمَ داودَ في تلك البلادِ. تُوُفِّي بالسَّكْتة.

أبو بكرِ بنُ زيادٍ النَّيسابوريُّ، عبدُ الله بنُ محمدِ بنِ زيادِ بنِ واصلِ بنِ مَيمونٍ أبو بكرٍ، الفَقيهُ الشافعيُّ النَّيسابوريُّ، مولَى أبانِ بنِ عُثمانَ، رحَل إلى العراقِ والشامِ ومصرَ، وسكَن بغدادَ، وحدَّث عن محمدِ بنِ يحيَى الذُّهْليِّ وعباسٍ الدُّوريِّ، وخَلْقٍ، وعنه الدارَقُطْنيُّ وغيرُ واحدٍ من الحُفَّاظ.

قال الدارَقُطْنيُّ: لم نَر في مَشايخِنا أحفَظَ منه للأسانيدِ والمُتونِ، وكان أفقَهَ المَشايخِ، جالَس المُزَنيَّ والربيعَ.

وقال أبو عبدِ الله بنُ بَطَّةَ: كنا نَحضُرُ مَجلِسَ ابنِ زيادٍ، وكان يُحزَرُ مَن يَحضُرُه مِن أصحابِ المَحابرِ ثلاثين ألفًا.

وقال الخَطيبُ: أخبَرَنا أبو سعدٍ المالينيُّ، أنا يوسفُ بنُ عمرَ بنِ مَسْرورٍ، سمِعتُ أبا بكرِ بنَ زيادٍ النَّيسابوريَّ يَقولُ: أَعرِفُ مَن قام الليلَ أربعين سنةً لم يَنَمْ إلا جاثيًا، ويَتَقَوَّتُ كلَّ يومٍ خمسَ حبَّاتٍ، ويُصلِّي صلاةَ الغداةِ بطَهارةِ العشاءِ. ثم يَقولُ: أنا هو، هذا كلُّه قبلَ أن أَعرِفَ أمَّ عبدِ الرحمنِ، أيْش أقولُ لمن زوَّجَني! ثم قال في إثْرِ هذا: ما أراد إلا الخيرَ. تُوُفِّي في هذه السنةِ عن ستٍّ وثمانين سنةً.

عَفَّانُ بنُ سليمانَ بنِ أيوبَ أبو الحسنِ التاجرُ، أقام بمصرَ، وأوقَف بها أوقافًا دارَّةً على أهلِ الحديثِ، وعلى سُلالةِ العَشَرةِ، رضِي اللهُ عنهم. وكان تاجرًا مُوَسَّعًا عليه، مَقبولَ الشَّهادةِ عندَ

الحُكَّام، تُوُفِّي في شعبانَ من هذه السنة.

أبو الحسن الأشعري[1] عليُّ بنُ إسماعيلَ بنِ أبي بِشْرٍ إسحاقَ بنِ سالمٍ بنِ إسماعيلَ بنِ موسى بنِ بلالِ بنِ أبي بُرْدَةَ بنِ أبي موسى عبدِ الله بنِ قَيْسٍ الأشعريُّ، قدم بَغدادَ، وأخذ عن زكريا بنِ يحيى الساجيِّ، وتفقَّه بابنِ سُرَيْجٍ. وقد ذكَرْنا ترجمتَه في «طَبَقات الشافعية».

وقد ذكر القاضي ابنُ خَلِّكانَ في «الوَفَيات» أنه كان يَجْلِسُ في حَلْقَةِ الشيخ أبي إسْحاقَ المَرْوَزيِّ، وقد كان مُعْتَزِليًّا قبلَ ذلك، فتاب منه بالبَصْرة فوقَ المِنْبَرِ، ثم أظْهَر فضائحَهم وقَبائحَهم، وذكَر له من التصانيفِ «المُوجَز» وغيرَه. وحكَى عن ابنِ حَزْمٍ أنه صنَّف خمسةً وخمسين تَصْنيفًا، وذكَر أن مُغَلَّه في كلِّ سنةٍ كان سبعةَ عشَرَ درهمًا، وأنه كان مِن أكثرِ الناسِ دُعابةً، وأنه وُلِد سنةَ سبعين ومائتين، وقيل: سنةَ ستين ومائتين. ومات في هذه السنةِ، وقيل: في سنةِ ثلاثين. وقيل: في سنةٍ بضعٍ وثلاثين وثلاثمائة. فاللهُ أعلمُ.

محمدُ بنُ الفَضْلِ بنِ عبدِ الله، أبو ذَرٍّ التَّميميُّ، كان رئيسَ جُرْجانَ، سمع الكثيرَ، وتفَقَّه بمذهَبِ الشافعيِّ، وكانت دارُه مَجْمَعَ العلماءِ، وله إفْضالٌ كثيرٌ على طَلَبةِ العلمِ مِن أهلِ زَمانِه.

هارونُ بنُ المُقْتَدِر، أخو الخليفة الراضي، تُوُفِّي في ربيعٍ الأولِ منها، فحزِن عليه أخوه الراضي، وأمَر بنَفْيِ بَخْتَيْشُوعَ بنِ يَحْيَى المُتَطَبِّبِ إلى الأنْبارِ؛ لأنه اتُّهِم في عِلاجِه، ثم شَفَعَت فيه أمُّ الراضي، فردَّه.

ثم دخلت سنة خمس وعشرين وثلاثمائة

في المُحَرَّمِ منها خرَج الخليفةُ الراضي وأميرُ الأُمَراءِ محمدُ بنُ رائقٍ من بَغْدادَ قاصدَيْن واسطًا لقتالِ أبي عبدِ الله البَريديِّ نائبِ الأهْوازِ، الذي قد تجَبَّر بها، ومنَع الخَراجَ، فلما سار ابنُ رائقٍ إلى واسطٍ خرَج عليه الحُجَرِيَّةُ وقاتَلوه، فسلَّط عليهم بَجْكَمَ فطحنَهم، ورجَع فَلُّهم إلى بَغْدادَ فتلقَّاهم لُؤْلُؤٌ أميرُ الشُّرْطةِ، فاحْتاط على أكثرِهم، ونُهِبَت دُورُهم، ولم يَبْقَ لهم رأسٌ يَرْتَفِعُ، وقُطِعَت أرْزاقُهم من بيتِ المالِ بالكُلِّيَّةِ.

وبعَث الخليفةُ وابنُ رائقٍ إلى أبي عبدِ الله البَريديِّ يَتَهَدَّدانِه، فأجاب إلى حَمْلِ كلِّ سنةٍ ثلاثمائةِ ألفٍ وستين ألفَ دينارٍ، يقومُ بحَمْلِ كلِّ شهرٍ على حدَتِه، وإلى أن يُجَهِّزَ جيشًا إلى قتالِ عَضُدِ الدولةِ ابنِ بُوَيْه، فلما رجَع الخليفةُ إلى بَغْدادَ لم يَحْمِلْ شيئًا، ولم يَبْعَثْ أحدًا، ثم بعَث ابنُ رائقٍ بَجْكَمَ وبَدْرًا الخَرْشَنيَّ لقتالِ البَريديِّ، فجرَت بينَهم حُروبٌ وخُطوبٌ، وأُمورٌ يَطولُ ذِكْرُها. ثم لجَأ البَريديُّ إلى عمادِ الدولةِ واسْتَجار به، واسْتَحْوَذ بَجْكَمُ على بلادِ الأهْوازِ، وجعَل إليه ابنُ رائقٍ خَراجَها،

(١) ترجمته في «تاريخ بغداد» (١١/ ٣٤٦-٣٤٧)، و«السير» (١٥/ ٨٥).

وكان بَجْكَمُ هذا شُجاعًا فاتكًا.

وفي ربيعٍ الأول خَلَع الخليفةُ على بَجْكَمَ، وعقَد له الإمارةَ ببغدادَ، وولَّاه نيابةَ المَشْرقِ إلى خُراسانَ.

وفيها تُوُفِّي من الأعْيان:

أبو حامدٍ بنُ الشَّرْقيِّ، أحمدُ بنُ محمدِ بنِ الحسن، أبو حامدٍ ابنُ الشرقيِّ، مولدُه سنةَ أربعين ومائتين، وكان حافظًا كبيرَ القَدْرِ، كثيرَ الحِفْظِ، كثيرَ الحجِّ، رحَل إلى الأمْصارِ، وجاب الأقْطارَ، وسمع من الكِبارِ. نظَر إليه ابنُ خُزَيْمةَ يومًا فقال: حياةُ أبي حامدٍ تَحجُزُ بينَ الناسِ وبينَ الكذبِ على رسولِ الله ﷺ.

عبدُ الله بنُ محمد بن سُفْيانَ، أبو الحسنِ الخَزَّازُ النَّحويُّ، حدَّث عن المُبَرِّدِ وثَعْلبٍ، وكان ثقةً، له مُصنَّفاتٌ في عُلومِ القرآنِ غَزيرةُ الفَوائدِ.

محمدُ بنُ إسْحاقَ بنِ يَحْيَى، أبو الطَّيِّبِ النَّحْويُّ، ابنُ الوشَّاءِ، له مُصنَّفاتٌ مَليحةٌ في الأخْبارِ، وقد حدَّث عن الحارثِ بنِ أبي أسامةَ والمُبَرِّدِ وثَعْلَبٍ وغيرِهم.

محمدُ بنُ أحمدَ بنِ هارونَ، أبو بكرٍ العَسْكريُّ، الفَقيهُ على مَذْهَبِ أبي ثَوْرٍ، روَى عن الحسنِ بنِ عَرَفَةَ وعباسٍ الدُّوريِّ، وعنه الدارَقُطْنيُّ والآجُرِّيُّ وغيرُهما.

ثم دخلت سنة ست وعشرين وثلاثمائة

فيها: ورَد كتابٌ من ملكِ الرومِ إلى الخليفةِ الراضِي مَكْتوبٌ بالرُّوميةِ والتَّفْسيرُ بالعَربيةِ، فأمَّا الرُّوميُّ فبالذَّهبِ، والعربيُّ بالفِضةِ، وحاصِلُه طلبُ الهُدْنةِ بينَه وبينَه، ووجَّه مع الكتابِ بهَدايا وألْطافٍ كثيرةٍ فاخرةٍ، فأجابه الخليفةُ إلى ذلك، وفُودِي من المسلمين ستةُ آلافِ أسيرٍ، ما بينَ ذكرٍ وأُنْثى على نهرِ البدندون.

وفيها: ارْتَحَلَ الوزيرُ أبو الفَتْحِ بنُ الفُراتِ من بغدادَ إلى الشامِ، وترَك الوزارةَ، فوليها أبو عليٍّ بنُ مُقْلَةَ، وكانت ولايتُه ضَعيفةً جدًّا، ليس له من الأمْرِ شيءٌ مع ابنِ رائقٍ، وطلَب من ابنِ رائقٍ أن يَفْرُغَ له عن أمْلاكِه، فجعَل يُماطِلُه، فكتَب إلى بَجْكَمَ يُطْمِعُه في بَغْدادَ، وأن يكونَ عوَضًا عن ابنِ رائقٍ، وكتَب ابنُ مُقْلةَ أيضًا إلى الخليفةِ يَطْلُبُ منه أن يُسَلِّمَ إليه ابنَ رائقٍ وابنَ مُقاتلٍ، ويَضْمَنَهم بألْفَي ألفِ دينارٍ، فبلَغ ذلك ابنَ رائقٍ، فأخَذه فقطَع يدَه، وقال: هذا أفْسدَ في الأرضِ. ثم جعَل يُحسِّنُ للخليفةِ أن يَسْتَوْزِرَه، وأنَّ قَطْعَ يدِه لا يَمْنَعُه من الكتابةِ، وأنه يَشُدُّ القلمَ على يدِه اليُمْنَى المقطوعةِ

فيَكتُبُ بها. ثم بلَغ ابنَ رائقٍ أنه قد كتَب إلى بَجْكمَ بما تقدَّم، وأنه يَدْعُو عليه، فأخذه فقطَع لسانَه، وسجَنه في مكانٍ ضَيِّقٍ، وليس عنده مَن يَخْدُمُه، فكان يَسْتَقِي الماءَ بنَفْسِه؛ يَتَناوَلُ الحبلَ من البئرِ بيده اليُسْرى، ثم يُمْسِكُه بفيه، ولقِي شدَّةً وعَناءً، ومات في مَحْبِسه هذا وَحيدًا، فدُفن هناك، ثم سأَل أهلُه نَقْلَه فدُفن في دارِه، ثم نُقل منها إلى غيرِها، فاتَّفَق له أشياءُ غَريبةٌ؛ منها أنه وَزَر ثلاثَ مَرَّاتٍ، وعُزِل ثلاث مَرَّاتٍ، وولِي لثلاثةٍ من الخُلَفاءِ، ودُفن ثلاثَ مراتٍ، وسافَر في عمرِه ثلاثَ سَفَراتٍ؛ مرتين مَنْفيًا، ومرةً في وزارتِه إلى المَوْصلِ كما تقدَّم.

وفيها دخلَ بَجْكمُ بغدادَ، فقلَّده الراضي إمْرةَ الأُمَراءِ مكانَ ابنِ رائقٍ، وقد كان بَجْكمُ هذا من غِلْمانِ أبي عليٍّ العارضِ وزيرِ ماكانَ بنِ كالي الدَّيْلَميِّ، فاسْتَوْهَبه ماكانُ من الوزيرِ، فوهَبه له، ثم فارَق ماكانَ، ولحِق بمَرْداويجَ، وكان في جُمْلةِ مَن قتَله في الحَمَّامِ، كما تقدَّم.

وسكَن بَجْكمُ بدارِ مُؤْنسٍ الخادمِ، وعظُم أمْرُه جدًّا، وانْفَصَل ابنُ رائقٍ، وكانت أيامُه سنةً وعشَرةَ أشْهرٍ وستةَ عشَرَ يومًا.

وفيها بعث عمادُ الدولةِ بنُ بُوَيْه أخاه مُعِزَّ الدولةِ، فأخَذ بلادَ الأهْوازِ لأبي عبدِ اللهِ البَرِيديِّ، وانْتَزَعها من يدِ بجكمَ، وأعادها إليه.

وفيها استَوْلَى لَشْكَرَىْ أحدُ أُمَراءِ وُشْمَكيرَ الدَّيْلَميِّ على بلادِ أَذْرَبِيجانَ، وانْتَزَعها من رُسْتُمَ بنِ إبراهيمَ الكُرْديِّ، أحدِ أصْحابِ ابنِ أبي الساجِ، بعدَ قتالٍ طَويلٍ.

وفيها اضْطَرَبَ أمْرُ القَرامطةِ جدًّا، وقتَل بعضُهم بعضًا، وانْكَفُّوا بسببِ قِلَّتِهم عن التَّعرُّضِ للفَسادِ في الأرضِ، ولزِموا بلدَهم هَجَرَ، لا يَرُومون منه انْتِقالاً إلى غيرِه. ولله الحمدُ والمِنَّةُ.

وفيها تُوُفِّي أحمدُ بنُ زِيادِ بنِ عبدِ الرحمنِ الأَنْدَلُسيُّ، كان أبوه من أصْحابِ مالكٍ، وهذا الرجلُ هو أولُ مَن أدْخَل فِقْهَ مالكٍ إلى الأَنْدَلُسِ، وقد عُرِض عليه القَضاءُ بها فلم يَقْبَلْ.

ثم دخلت سنة سبع وعشرين وثلاثمائة

في المُحَرَّمِ منها خرَج الراضي باللهِ أميرُ المؤمنين من بغدادَ إلى المَوْصِلِ لمُحاربةِ ناصرِ الدولةِ الحسنِ ابنِ عبدِ اللهِ بنِ حَمْدانَ نائبِها، وبين يديه بَجْكمُ أميرُ الأُمَراءِ، وقاضي القُضاةِ أبو الحُسَيْنِ عمرُ بنُ محمدِ بنِ يوسفَ، وقد استَخْلَف على بغدادَ ولدَه القاضيَ أبا نصرٍ يوسفَ بنَ عمرَ، عن أمْرِ الخليفةِ له بذلك. وكان عالمًا فاضلاً، ولما انْتَهَى بَجكمُ إلى الموصلِ والجزيرةِ واقَع الحسنَ بنَ عبدِ اللهِ بنِ حَمْدانَ، فهزَم بَجْكمُ الحسنَ بنَ حَمْدانَ، وقرَّر الخليفةُ أمْرَ المَوْصلِ والجَزيرةِ.

وأمَّا محمدُ بنُ رائقٍ فإنه اغْتَنَمَ غَيْبةَ الخَليفةِ عن بغدادَ، واستَجاش بألفٍ من القَرامطةِ، وجاء فدخل بهم بغدادَ، فأكْثَر فيها الفسادَ، غيرَ أنه لم يَتَعَرَّضْ لدارِ الخلافةِ، ثم بعَث إلى الخليفةِ يَطْلُبُ منه المُصالحةَ والعَفْوَ عما جنَى، فأجابه إلى ذلك، وبعَث إليه قاضيَ القُضاةِ أبا الحسينِ عمرَ بنَ محمدِ بنِ

يوسُفَ، وترَحَّل ابنُ رائقٍ عن بغدادَ، ودخَلها الخَليفةُ في جُمادَىٰ الأُولَىٰ من هذه السنةِ، ففرِح المسلمون بذلك.

ونزَل عندَ غُروبِ الشمسِ أولَ ليلةٍ من شهرِ آذارَ وذلك في جُمادَىٰ الأُولَىٰ، مَطَرٌ عظيمٌ، وبَرَدٌ كِبار، كلُّ واحدةٍ نحوَ الأُوقيَّتَين، واستَمَرَّ فسقَط بسببِه دُورٌ كثيرةٌ من بغدادَ. وظهَر جَرادٌ كثيرٌ في هذه السنة، وكان الحجُّ من جهةِ دَرْبِ العراقِ قد تَعطَّل من سنةِ سبعَ عشْرَةَ وثلاثمائةٍ إلىٰ هذه السنة، فشفَع الشَّريفُ أبو عليٍّ عمرُ بنُ يَحْيَىٰ العَلَويُّ عندَ القرامطةِ، وكانوا يُحبُّونه لشَجاعتِه وكرَمِه، في أن يُمكِّنوا الحجيجَ من الحجِّ، وأن يكونَ لهم علىٰ كلِّ جَمَلٍ خمسةُ دَنانيرَ، وعلىٰ المَحْمِلِ سبْعةُ دَنانيرَ، فخرج الناسُ للحَجِّ في هذه السنةِ علىٰ هذا الشَّرْطِ، فكان من جُمْلةِ مَن خرَج الشيخُ أبو عليٍّ ابنُ أبي هُرَيرةَ أحدُ أئمةِ الشافعيةِ، فلما اجتاز بهم طالَبوه بالخُفَارةِ، فثنَىٰ رأسَ راحلتِه ورجَع، وقال: ما رجَعْتُ شُحًّا، ولكن سقَط عني وجوبُ الحجِّ بطَلَبِ هذه الخُفارة.

وفي هذه السنة وقَعت فِتْنةٌ بالأندلُسِ، وذلك أن عبدَ الرحمنِ الأمَويَّ صاحبَ الأندلُسِ المُلَقَّبَ بالناصرِ لدينِ الله، قتَل وزيرَه أحمدَ، فغضِب له أخوه أُمَيَّةُ بنُ إسْحاقَ - وكان نائبًا علىٰ مدينةِ شَنْتَرِينَ - فارْتَدَّ ودخَل بلادَ النَّصارَىٰ، واجْتَمَع بملِكِهم رُدْميرَ، ودلَّه علىٰ عَوْراتِ المسلمين، فسار إليهم في جيشٍ كَثيفٍ من الجَلالقةِ؛ فخرَج إليه الأمَويُّ، فأوقَع به بأْسًا شديدًا، وقتَل من الجلالقةِ خَلْقًا كثيرًا، ثم كرَّ الفِرَنْجُ علىٰ المسلمين، فقتَلوا منهم خَلْقًا كثيرًا قريبًا ممن قتَلوا منهم، ثم والَىٰ المسلمون الغاراتِ علىٰ بلادِ الجَلالقةِ، فقتَلوا منهم أُمَمًا لا يُحْصَون كثْرةً، ثم ندِم أُميةُ بنُ إسْحاقَ علىٰ ما صنَع، وطلَب الأمانَ من عبدِ الرحمنِ، فبعَث إليه بالأمانِ، فلما قدِم عليه قبِله واحْتَرَمه.

وممَّن تُوفِّيَ في هذه السنة من الأعيان:

الحسنُ بنُ القاسمِ بنِ دُحَيمٍ، أبو عليٍّ الدِّمشقيُّ، من أبناءِ المحدِّثين، وكان أخباريًّا، له في ذلك مُصنَّفاتٌ، وقد حدَّث عن العبَّاسِ بنِ الوليدِ البَيْروتيِّ وغيرِه. وكانت وفاتُه بمصرَ في مُحَرَّمِ هذه السنة، وقد أناف علىٰ الثمانين سنةً.

الحسينُ بنُ القاسمِ بنِ جعفرِ بنِ محمدِ بنِ خالدِ بنِ بشرٍ، أبو عليٍّ الكَوْكَبيُّ الكاتبُ، صاحبُ الأخبارِ والآدابِ، روَىٰ عن أحمدَ بنِ أبي خَيْثَمةَ وأبي العَيْناءِ وابنِ أبي الدنيا. وروَىٰ عنه الدارَقُطْنيُّ وغيرُه.

عثمانُ بنُ الخَطَّابِ بنِ عبدِ الله، أبو عمرٍو البَلَويُّ المَغْربيُّ الأشجُّ، ويُعْرَفُ بأبي الدنيا. قدِم هذا الرجلُ بغْدادَ بعدَ الثلاثمائة، وزعَم أنه وُلد أولَ خلافةِ أبي بكرٍ الصديقِ، رضي اللهُ عنه، ببلادِ المغربِ، وأنه وفَد هو وأبوه إلىٰ عليٍّ ابنِ أبي طالبٍ، رضي اللهُ عنه، فأصابَهم في الطريقِ عطشٌ شديدٌ فذهب يَرْتادُ لأبيه ماءً، فرأىٰ عينًا، فشرب منها واغتَسل، ثم جاء إلىٰ أبيه ليَسْقيَه، فمات أبوه، وقدِم هو علىٰ عليٍّ ابنِ أبي طالبٍ، فأراد أن يُقبِّلَ رُكْبَتَه، فصدَمه الرِّكابُ، فشجَّ رأسَه، فكان يُعْرَفُ بالأشجِّ.

وصدَّقه في هذا الزعْم طائفةٌ من الناس، ورَوَوْا عنه نُسْخةً فيها أحاديثُ من روايته عن عليٍّ؛ ممَّن صدَّقه في ذلك الحافظُ محمدُ بنُ أحمدَ المُفيدُ، ورَواها عنه، ولكن كان المُفيدُ مُتَّهَمًا بالتَّشَيُّع، فسمَح له في ذلك لانْتسابه إلى عليٍّ، وأما جُمْهورُ المحدِّثين قديمًا وحديثًا، فكذَّبوه في ذلك، وردُّوا عليه كَذِبَه، ونصُّوا على أن النُّسْخَةَ التي رواها مَوْضوعةٌ؛ منهم الحافظُ أبو طاهرٍ أحمدُ بنُ محمدٍ السِّلَفيُّ، وأشياخُنا الذين أدرَكْناهم؛ شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْميَّةَ، والجِهْبِذُ أبو الحَجَّاجِ المِزِّيُّ، والحافظُ مُؤَرِّخُ الإسلامِ أبو عبدِ اللهِ الذَّهَبيُّ، وقد حرَّرْتُ ذلك في كتابي «التَّكْميل». ولله الحمدُ والمِنَّة.

قال المُفيدُ: بلَغَني أن الأشَجَّ هذا مات سنةَ سبعٍ وعشرين وثلاثمائة، وهو راجعٌ إلى بلده.

محمدُ بنُ جعفرِ بنِ محمدِ بنِ سهلٍ، أبو بكرٍ الخرائطيُّ[1]، صاحبُ المُصنَّفات، أصلُه من أهلِ سُرَّ مَن رأى، وسكَن الشامَ، وحدَّث بها عن الحسنِ بنِ عَرَفَةَ وغيرِه.

وممَّن تُوفِّي فيها:

الحافظُ الكبيرُ ابنُ الحافظ الكبير أبو محمد عبدُ الرحمنِ بنُ أبي حاتمٍ محمدِ بنِ إدريسَ الرازيُّ[2]، صاحبُ كتابِ «الجَرْحِ والتَّعْديلِ»، وهو من أجَلِّ الكتبِ المصنَّفة في هذا الشأْن، وله التَّفْسيرُ الحافلُ الذي اشْتَمَل على النَّقْلِ الكاملِ، الذي يُرْبي فيه على تفسيرِ ابنِ جريرٍ وغيرِه من المُفسِّرين، وله كتابُ «العِلَلِ» المُصنَّفةِ المُرتَّبةِ على أبوابِ الفقه، وغيرُ ذلك من المُصنَّفاتِ النافعة، وكان من العبادةِ والزَّهادةِ والوَرَعِ والحفْظِ والكَراماتِ الكثيرةِ المَشْهورةِ على جانبٍ كبيرٍ، رحمه اللهُ تعالى وأكرمَ مثواه.

وقد صلَّى مرةً، فلما سلَّم قال له رجلٌ من بعضِ مَن صلَّى معه: لقد أطَلْتَ علينا، وقد سبَّحْتُ في سُجودي سبعين مَرَّةً. فقال عبدُ الرحمنِ: لكني واللهِ ما سبَّحْتُ إلا ثلاثَ مراتٍ. وتهدَّم سُورُ بعضِ بلادِ الثُّغورِ فتكلَّمَ عبدُ الرحمنِ بنُ أبي حاتمٍ يومًا على الناسِ وحثَّهم على عِمارتِه؛ فقال: مَن يَعْمُرُه وأضْمَنُ له على اللهِ الجنَّةَ؟ فقام رجلٌ من التُّجَّارِ فقال: اكْتُبْ لي بخَطِّك هذا الضَّمانَ، وهذه ألفُ دينارٍ لعمارته. فكتَب له رُقْعةً بذلك وعمَر ذلك السورَ، ثم اتَّفَق مَوْتُ ذلك الرجلِ عمَّا قريبٍ، فلما حضَر الناسُ جنازَتَه طارَتْ من كَفَنِه رُقْعةٌ، وهي التي كان كتَبها ابنُ أبي حاتمٍ، وإذا في ظَهْرِها مَكْتوبٌ: قد أمْضَيْنا لك هذا الضَّمانَ، ولا تَعُدْ إلى ذلك.

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة

قال ابنُ الجَوْزيِّ في «مُنْتَظَمِه»: في غُرَّةِ المُحرَّمِ منها ظَهرت في الجَوِّ حُمْرةٌ شَديدةٌ من ناحيةِ الشَّمالِ والمغربِ، وفيها أعْمدةٌ بيضٌ عَظيمةٌ كثيرةُ العدد.

وفيها: وصَل الخبرُ بأن رُكْنَ الدولةِ أبا عليٍّ الحسنَ بنَ بُوَيْهِ الدَّيْلَميَّ، وصَل إلى واسطٍ، فركِب

---

(١) ترجمته في «السير» (١٥/ ٢٦٧-٢٦٨).

(٢) ترجمته في «السير» (١٣/ ٢٦٣) وما بعدها.

الخليفةُ وبَجْكَمُ لقتاله فانصرَف راجعًا، ورجعا إلى بغدادَ.

وفي هذه السنة ملَكَ رُكْنُ الدولة بنُ بُوَيْه مدينةَ أصبَهانَ، أخذَها من وُشْمَكيرَ أخي مَرْداويجَ؛ لقلة جيشه في ذلك الحين.

وفي شعبانَ زادَت دِجْلةُ زيادةً عظيمةً، وانتشَرت في الجانب الغَرْبيِّ، وسقطَت دُورٌ كثيرةٌ، وانبَثَق بَثْقٌ من نواحي الأنبار، فغرَّق قُرًى كثيرةً، وهلَك بسببه حَيواناتٌ وسباعٌ كثيرةٌ في البرِّيَّة.

وفيها: تزوَّج بَجْكَمُ بسارةَ بنت أبي عبد الله البَريديِّ، وهو محمدُ بنُ أحمدَ بنِ يعقوبَ الوزيرُ يومَئذٍ ببغدادَ، ثم صُرِف عن الوزارة بسليمانَ بنِ الحسنِ، وضمِن البَريديُّ بلادَ واسطٍ وأعمالَها بستِّمائة ألف دينارٍ.

وفيها تُوُفِّي قاضي القُضاة أبو الحسين عمرُ بنُ محمد بن يوسفَ، وتولَّى مكانَه ولدُه أبو نصر يوسفُ بنُ عمرَ بنِ محمد بنِ يوسفَ، وخلَع عليه الراضي يومَ الخميس لخمسٍ بقِين من شعبانَ منها.

ولما خرَج أبو عبد الله البَريديُّ إلى واسطٍ كتَب إلى بَجْكَمَ يحُثُّه على الخروج إلى بلاد الجَبَل ليَفْتَحَها ويُساعِدَه هو على أخذ الأهْواز من يد عماد الدولة بنِ بُوَيْه، وإنما كان مَقْصودَه أن يستَغْفِيَه عن بَغْدادَ ليأخُذَها، فلما انفصَل بَجْكَمُ بالجُنود بلَغه ما يُؤَمِّلُه أبو عبد الله البَريديُّ من المَكيدة، فرجَع سريعًا إلى بغدادَ، وركِب في جيشٍ كثيفٍ إليه، وأخذ الطرقَ من كلِّ جانبٍ؛ لئلا يَشْعُرَ به إلا وهو عنده على حافَّة السفينة، فاتَّفق أنه كان راكبًا في زَوْرقٍ، وعندَه كاتبٌ له إذ سقطَت حَمامةٌ على جانب السفينة في ذَنَبِها كتابٌ، فأخذَه بَجْكَمُ، فقرأه فإذا فيه كتابٌ من هذا الكاتب إلى بعض أصحاب البَريديِّ يُعْلِمُهم بخبر بَجْكَمَ، فقال له: ويحَك! أهذا خطُّك؟ قال: نعم. ولم يَقْدِرْ على الإنكار فأمَر بقتْله، فقُتِل وأُلقِيَ في دِجْلةَ. وحين أحسَّ البَريديُّ بقُدوم بَجْكَمَ هرب إلى البَصْرة، ولم يُقِمْ بها أيضًا، فاستولى بَجْكَمُ على بلاد واسطٍ، وتسلَّط الدَّيْلَمُ على جيشه الذين خلَّفهم بالجبل، ففرُّوا سِراعًا إلى بغدادَ.

وفي هذه السنة استَوْلَى محمدُ بنُ رائقٍ على بلاد الشام، فدخَل حمصَ أولًا فأخَذها، ثم جاء إلى دمشقَ وعليها بدرُ بنُ عبد الله الإخْشيديُّ المعروفُ ببُدَيرٍ، من جهة الإخْشيد محمد بنِ طُغْجٍ، فأخرَجه ابنُ رائقٍ منها قَهْرًا، واستَوْلَى عليها.

ثم ركِب في جيشٍ إلى الرَّمْلة فأخَذها، ثم قصَد عَريشَ مصرَ؛ ليدخُلَها فلقيَه محمدُ بنُ طُغْجٍ، فاقْتَتلا هنالك، فهزَمه ابنُ رائقٍ، واشتَغل أصحابُه بالنَّهْب، ونزَلوا في خيام المصْريين، فكرَّ عليهم المصْريون، فقتَلوهم قتْلًا عظيمًا، وهرَب محمدُ بنُ رائقٍ في سبعين رجلًا من أصحابه، فدخَل دمشقَ في أسْوأ حالةٍ وشرِّها، وسيَّر إليه محمدُ بنُ طُغْجٍ أخاه نصرَ بنَ طُغْجٍ في جيشٍ، فاقْتَتلوا عندَ اللَّجُّونِ في رابع ذي الحجَّة، فهُزِم المصريون وقُتِل أخو الإخْشيد فيمَن قُتِل، فغسَّله محمدُ بنُ رائقٍ وكفَّنه، وبعث به إلى أخيه بمصرَ، وأرْسَل معه ولدَه، وكتَب إليه يَحْلِفُ له أنه ما أراد قتْلَه، وهذا ولَدي فاقْتَدْ

منه. فأكرم الإخشيدُ ولدَ محمدِ بن رائقٍ، واصطلحا على أن تكون الرَّملةُ وما بعدَها إلى ديارِ مصرَ للإخشيدِ، ويَحملَ إليه الإخشيدُ في كلِّ سنةٍ مائةَ ألفِ دينارٍ وأربعين ألفَ دينارٍ، وما بعدَ الرَّملةِ يكونُ لمحمدِ بنِ رائقٍ.

وممن تُوفِّي في هذه السنة:

جعفرٌ المُرْتَعشُ، أبو محمدٍ أحدُ مشايخِ الصُّوفيةِ، كذا ذكَره الخطيبُ.

وقال أبو عبدِ الرحمنِ السلَميُّ: اسمُه عبدُ اللهِ بنُ محمدٍ، أبو محمدٍ النَّيسابوريُّ، كان من ذَوي الأموالِ، فتخَلَّى عنها، وصحِب الجُنَيدَ وأبا حفصٍ وأبا عثمانَ، وأقام ببَغدادَ حتى صار شيخَ الصُّوفيةِ، فكان يقالُ: عَجائبُ بغدادَ ثلاثٌ؛ إشاراتُ الشِّبْليِّ، ونُكَتُ المُرْتَعشِ، وحكاياتُ جعفرٍ الخَوَّاصِ.

سمعتُ أبا الفرجِ الصائغَ يقولُ: قال المُرْتَعشُ: مَن ظَنَّ أن أفعالَه تُنَجِّيه من النارِ أو تُبَلِّغُه الرِّضوانَ فقد جعَل لنفسِه ولفعلِه خَطرًا، ومَن اعتَمَد على فَضْلِ اللهِ بلَّغَه اللهُ أقصَى مَنازلِ الرِّضْوانِ.

وقيل للمُرْتَعشِ: إن فلانًا يَمْشي على الماءِ، فقال: إن مُخالفَةَ الهَوَى أعظَمُ من المَشْيِ على الماءِ.

ولما حضرَتْه الوَفاةُ وهو بمسجدِ الشُّونيزيَّةِ حسَبوا ما عليه من الدَّيْنِ، فإذا عليه سبعةَ عشرَ درهمًا، فقال: بيعوا خُرَيْقاتي هذه واقضُوا بها دَيْني، وأرجو أن يَرْزُقَني اللهُ كَفَنًا، وقد سألتُ اللهَ ثلاثًا؛ سألتُه أن يُميتَني وأنا فَقيرٌ، وأن يَجْعَلَ وَفاتي في هذا المسجدِ، فإني صحِبْتُ فيه أقوامًا، وأن يَجْعَلَ عندي مَن آنَسُ به وأُحِبُّه. ثم غمَّض عينَيْه ومات.

أبو سعيدٍ الإصْطَخْريُّ الحسنُ بنُ أحمدَ بنِ يزيدَ بنِ عيسى بنِ الفَضْلِ بنِ بَشارٍ، أبو سعيدٍ الإصْطَخْريُّ، أحدُ أئمةِ الشافعيةِ، وكان زاهدًا ورِعًا ناسكًا عابدًا، ولِيَ القضاءَ بقُمَّ، ثم حِسْبةَ بغدادَ، فكان يَدورُ بها ويُصَلِّي على بَغْلَتِه وهو سائرٌ بينَ الأزِقَّةِ، وكان مُتَقَلِّلًا جدًّا، وقد ذكَرْنا تَرْجَمَته في «طَبَقاتِ الشافعيةِ» بما فيه كفايةٌ، وله كتابُ «القَضاءِ» لم يُصَنَّفْ مثلُه في بابِه.

تُوُفِّي وقد قارَب التِّسْعين، رحمه اللهُ تعالى.

عليُّ بنُ محمدٍ، أبو الحسنِ المُزَيِّنُ الصغيرُ أحدُ مَشايخِ الصُّوفيةِ، أصلُه من بغدادَ، وصحِب الجُنَيْدَ وسَهْلًا التُّسْتَريَّ، وجاور بمكةَ حتى تُوُفِّي بها في هذه السنة وقال -ويَحْكي عن نَفْسِه-: ورَدْتُ بئرًا في أرضِ تَبوكَ، فلمَّا دَنَوْتُ منها زلَقَتْ فسقَطْتُ في البئرِ، وليس أحدٌ يَراني، فلما كنتُ في أسْفَلِها إذا فيها مصطَبَةٌ، فعلوتُها وقلتُ: إن متُّ لا أُفْسِدُ على الناسِ الماءَ. وسكَنَتْ نَفْسي، وطابَت للموتِ، فبَيْنا أنا كذلك إذا أفْعى قد تدلَّت عليَّ فلفَّت عليَّ ذَنَبَها، ثم رفَعَتْني حتى أخْرَجَتْني إلى وجهِ الأرضِ، وانْسابَت فلم أدْرِ أين ذهَبَت، ولا من أين جاءَت.

وفي مشايخِ الصُّوفيةِ آخَرُ يقالُ له: أبو جعفرٍ المُزَيِّنُ الكبيرُ، جاوَر بمكةَ، ومات بها أيضًا، وكان من العُبَّادِ.

روى الخطيبُ عن عليِّ ابنِ أبي عليٍّ، عن إبراهيمَ بنِ محمدِ الطَّبريِّ، عن جعفرِ الخُلْديِّ قال: ودَّعْتُ في بعضِ حَجَّاتي المُزَيِّنَ الكبيرَ فقلتُ له: زَوِّدْني. فقال لي: إذا فقَدْتَ شيئًا فقلْ: يا جامعَ الناسِ ليومٍ لا ريبَ فيه، إن اللهَ لا يُخلفُ الميعادَ، اجْمَعْ بيني وبينَ كذا. فإن اللهَ يَجْمَعُ بينَك وبينَ ذلك الشيء. قال: فجئت إلى الكتَّانيِّ، فودَّعْتُه وسألْتُه أن يُزَوِّدَني، فأعطاني خاتمًا على فَصِّه نَقْشٌ فقال: إذا اغْتَمَمْتَ فانظُرْ إلى هذا الفصِّ يَزُلْ غَمُّك. قال: فكنتُ لا أدْعُو بذلك الدُّعاء إلا استُجيبَ لي، ولا أنْظُرُ إلى ذلك الفَصِّ إلا زال عنِّي ما أجدُه، فبينا أنا ذاتَ يومٍ في سُمَيْرِيَّةٍ إذ هبَّت ريحٌ شديدةٌ، فأخْرَجْتُ الخاتَمَ لأنْظُرَ إليه، فلم أدْرِ كيفَ ذهَب، فجعَلْتُ أدْعُو بذلك الدُّعاءِ يومي كلَّه، فلما رجَعْتُ إلى المنزلِ فتَّشْتُ المتاعَ الذي في المَنْزِلِ، فإذا الخاتَمُ في بعضِ ثيابي التي كانتْ بالمَنْزِلِ.

صاحبُ كتابِ «العقدِ الفريدِ» أحمدُ بنُ محمدِ بنِ عبدِ ربِّه بنِ حَبيبِ بنِ حُدَيْرِ بنِ سالمٍ، أبو عمرَ القُرْطُبيُّ، مَولى هشامِ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ مُعاويةَ بنِ هشامِ بنِ عبدِ الملكِ بنِ مَرْوانَ بنِ الحَكَمِ الأُمَويِّ، كان مِن الفُضلاءِ المُكْثِرين، والعُلَماءِ بأخْبارِ الأوَّلين والمُتأخِّرين، وكتابُه «العِقْدُ» يَدُلُّ على فَضائلَ جمَّةٍ، وعُلومٍ كثيرةٍ مُهِمَّةٍ، ولكنه يَدُلُّ كثيرٌ من كلامِه على تَشَيُّعٍ فيه، ومَيْلٍ إلى الحَطِّ على بني أُمَيَّةَ، وهذا عَجيبٌ منه؛ لأنه أحدُ مَواليهم، وكان الأولَى به أن يكونَ مِمَّن يُواليهم لا مِمَّن يُعاديهم.

قال القاضي ابنُ خَلِّكانَ: وله ديوانُ شعرٍ حَسَنٌ. ثم أوْرَد منه أشْعارًا في التَّغَزُّلِ في المُرْدانِ والنِّسْوانِ أيضًا، وكان مَولدُه في رَمضانَ سنةَ ستٍّ وأربعين ومائتَيْن، وتُوُفِّيَ بقُرْطُبَةَ يومَ الأحدِ ثامنَ عشَرَ جُمادَى الأُولَى من هذه السنة.

عمرُ بنُ أبي عمرَ محمدِ بنِ يوسُفَ بنِ يَعْقوبَ بنِ إسماعيلَ بنِ حمَّادِ بنِ زيدِ بنِ درْهمٍ، أبو الحسينِ الأزْديُّ، الفَقيهُ المالكيُّ القاضي ابنُ القاضي، ناب عن أبيه وعمرُه عشرون سنةً، وكان حافظًا للقرآنِ والحديثِ والفقهِ على مَذْهَبِ مالكٍ، والفَرائضِ والحسابِ واللُّغةِ والنَّحْوِ والشِّعْرِ. وصنَّف مُسْنَدًا، ورُزِق قوةَ الفَهْمِ وجَوْدَةَ القَريحةِ، وشَرَفَ الأخلاقِ، وله الشعرُ الرائقُ الحسَنُ، وكان مَشْكورَ السِّيرةِ في القضاءِ، عَدْلاً ثقةً إمامًا.

قال الخَطيبُ: أخْبَرَنا أبو الطَّيِّبِ الطَّبَريُّ: سمِعْتُ المُعافَى بنَ زكريا الجَرِيريَّ يَقولُ: كنا نَجْلِسُ في حَضْرةِ القاضي أبي الحسينِ، فجِئْنا يومًا نَنْتَظِرُه على العادةِ، فجلَسْنا عندَ بابِه، وإذا أعْرابيٌّ جالسٌ كأنَّ له حاجةً، إذ وقَع غُرابٌ على نَخْلةٍ في الدارِ، فصرَخ ثم طار. فقال الأعْرابيُّ: هذا الغُرابُ يقولُ إنَّ صاحبَ هذه الدارِ يموتُ بعدَ سبعةِ أيامٍ. قال: فزَبَرْناه، فقام وانْصَرَف، ثم خرَج الإذْنُ من القاضي إلينا أن هَلُمَّ فادخلوا، فدخَلْنا فإذا به مُتَغَيِّرُ اللونِ مُغْتَمٌّ، فقلْنا: ما الخبرُ؟ فقال: إني رأيْتُ

البارحةَ في المَنام شخصًا يَقولُ:

مَنـازلَ آلِ حَمّـادِ بنِ زيدٍ ... علىٰ أهْليكِ والنِّعَمِ السَّلامُ

وقد ضاق لذلك صَدْري. قال: فدعَوْنا له وانصرَفْنا. فلما كان اليومُ السابعُ مِن ذلك اليومِ دُفِن.

وقد كانت وفاتُه ليومِ الخميسِ لسبعَ عشْرةَ مضَت مِن شعبانَ مِن هذه السنةِ، وله مِن العمرِ تسعٌ وثلاثون سنةً، وصلَّىٰ عليه ابنُه أبو نصرٍ، ووليَ بعدَه القَضاءَ.

قال الصُّوليُّ: بلَغ القاضي أبو الحسينِ مِن العلمِ مَبْلَغًا عظيمًا مع حَداثةِ السِّنِّ، وحينَ تُوُفِّي كان الراضي يَبْكي عليه بحضْرتنا ويَقولُ: كنتُ أَضيقُ بالشيءِ ذَرْعًا فيُوَسِّعُه عليَّ. ثم يَقولُ: واللهِ لا بقيتُ بعدَه.

ابنُ شَنَبُوذَ المُقرئُ، محمدُ بنُ أحمدَ بنِ أيوبَ بنِ الصَّلْتِ أبو الحسنِ المُقرئُ، المَعْروفُ بابنِ شَنَبُوذَ. روَىٰ عن أبي مسلمٍ الكَجِّيِّ، وبشرِ بنِ موسىٰ وخَلْقٍ، وكان يخْتارُ حروفًا أنكرها أهلُ زمانه عليه، وصنَّف أبو بكرٍ ابنُ الأنباريِّ كتابًا في الرَّدِّ عليه، وقد ذكَرْنا فيما تقدَّم كيف أنه عُقِد له مجلسٌ في دارِ الوزيرِ أبي عليٍّ محمدِ بنِ عليٍّ بنِ مُقْلةَ، وأنه ضُرِب حتىٰ رجَع عن كثيرٍ من القراءاتِ الشاذَّةِ التي أنكرَها القُرَّاءُ من أهلِ عَصْرِه عليه. وكانت وفاتُه في صَفَرٍ منها، وقد دعا ابنُ شَنَبُوذَ علىٰ ابنِ مُقْلةَ حينَ أمَر بضَرْبِه، فلم يُفْلِحِ ابنُ مُقْلةَ بعدَها.

ابنُ مُقْلةَ الوزيرُ أحدُ الكُتَّابِ المَشاهيرِ، محمدُ بنُ عليِّ بنِ الحسنِ بنِ عبدِ اللهِ أبو عليٍّ، المعروفُ بابنِ مُقْلةَ الوزيرِ، وقد كان في أولِ عمرِه ضَعيفَ الحالِ، ثم آل به الحالُ إلىٰ أن وَليَ الوزارةَ لثلاثةٍ مِن الخلفاءِ، وهم المُقْتَدِرُ، والقاهرُ، والراضي، وعُزِل ثلاثَ مراتٍ وقُطِعَت يدُه ولسانُه في آخرِ أمرِه وحُبِس، فكان يَسْتَقِي الماءَ بيدِه اليسرىٰ وأسنانِه، وكان مع ذلك يَكْتُبُ بيدِه اليُمْنَىٰ بعدَ قَطْعِها، كما كان يَكْتُبُ وهي صحيحةٌ، وقد كان خطُّه مِن أقوىٰ الخطوطِ، كما هو مشهورٌ عنه، وقد بنَىٰ له دارًا في زمنِ وزارتِه، فجمَع عندَ بنائها خَلْقًا مِن المُنَجِّمين، فاتَّفقوا علىٰ أن تُبْنَىٰ في الوقتِ الفُلانيِّ، فأسَّس جدْرانَها بينَ العِشاءَيْنِ كما أشاروا، فما لبِث بعد استتمامِها إلا يَسيرًا حتىٰ خَرِبَت وصارَت كَوْمًا، كما ذكَرْنا ذلك وذكَرْنا ما كتَبوا علىٰ جُدْرانِها، وقد كان له بُسْتانٌ كبيرٌ جدًّا، فيه عِدَّةُ أجْرِبَةٍ -أي فَدادينَ- وعليه جميعِه شَبَكةٌ مِن إبْريسَمٍ، وفيه مِن الطيورِ مِن القَمَاريِّ والهَزَارِ والبَبْغِ والبَلابلِ والطَّواويسِ والقَبْجِ شيءٌ كثيرٌ، وفي أرضِه مِن الغِزْلانِ، وبقرِ الوَحْشِ وحَميرِه، والنَّعامِ والإبلِ شيءٌ كثيرٌ أيضًا. ثم صار هذا كلُّه عما قريبٍ بعدَ النَّضْرةِ والبَهاءِ إلىٰ الهلاكِ والفناءِ. وقد أنشَد فيه بعضُ الشعراءِ حينَ بنىٰ دارَه:

قلْ لابنِ مُـقْلةَ مَـهْـلاً لا تكُـنْ عَـجِـلاً واصْبِـرْ فـإنك في أضْـغـاثِ أحـلام
تَبْني بأنقاضِ دورِ الناسِ مُـجْـتَـهِـداً داراً سَتُـنْقَـضُ أيضـاً بعـدَ أيام
مـا زلتَ تَخْـتـارُ سَـعْـدَ المُشْـتَـري لَهـا فلـم تُـوَقَّ بـه مِـن نَـحْـسِ بَهْـرام
إنّ القِـرانَ وبطليـموسَ مـا اجتَـمَـعـا في حـالِ نَقْضٍ ولا في حـالِ إبْرام

فعُـزِلَ ابنُ مُـقْلةَ عن وزارته، وخُـرِّبَت دارُه، وأُتلفتْ أشـجارُه، وقُطِعَت يدُه، ثم قُطع لسـانُه، وأُغْرِمَ بألفِ ألفِ دينارٍ، ثم سُجِن وحدَه، مع الكِبَرِ والضَّعفِ والضرورةِ، فكان يَسْتَقي الماءَ لنفسه مِن بئرٍ عميقٍ، فكان يَمُدُّ الحبلَ بيدِه اليُسرىٰ، ويُمْسِكُه بفيه. وقاسىٰ جَهْدًا جَهيدًا بعدَما ذاق عَيْشًا رَغيدًا. ومِن شعره حينَ قُطعتْ يدُه:

مـا سَـئِـمْتُ الحَـيـاةَ لكنْ تَوثَّقْـ ـتُ بـأيْمـانـهم فـبـانَت يَمـيـني
بِعْتُ ديـني لهـم بـدُنْـيـايَ حتـىٰ حَـرَمـوني دُنْـيـاهمُ بعـدَ ديني
ولقـد حُطْتُ مـا استَطَعتُ بجَـهْـدي حِـفْظَ أرواحِـهـم فـمـا حفظوني
ليس بعـدَ اليَـمـينِ لَذَّةُ عـيـشٍ يا حَـيـاتي بـانَتْ يَمـيـني فـبِـيـني

وكان يَبْكي علىٰ يده كثيرًا، ويَقولُ: بعدَما خَدَمْتُ بها ثلاثةً من الخلفاءِ، وكتَبْتُ بها القرآنَ مرتين، تُقْطَعُ كما تُقْطَعُ أيْدي اللصوصِ! ثم يُنْشِدُ:

إذا مـا مـات بـعـضُك فـابْكِ بـعـضًـا فـإنّ البـعـضَ من بعضٍ قـريـبُ

وقد مات رَحِمه اللهُ في مَحْبِسه هذا، ودُفِن في دارِ السلطانِ، ثم سأل ولدُه أبو الحسينِ أن يُحَوَّلَ فأُجيب، فنبَشوه ودفَنه ولدُه عندَه في داره، ثم سألَت زوجتُه المعروفةُ بالدِّيناريَّة أن يُدْفَنَ في دارِها، فنُبِش ودُفِن عندَها، فهذه ثلاثُ مراتٍ أيضًا. مات رحمه اللهُ وله من العمرِ ستٌّ وخمسون سنةً.

أبو بكرٍ ابنُ الأنْباريِّ محمدُ بنُ القاسمِ بنِ محمدِ بنِ بشَّارِ بنِ الحسنِ بنِ بيَانَ بنِ سَماعةَ بنِ فَرْوَةَ بنِ قَطَنِ بنِ دِعامةَ، أبو بكرٍ الأنْباريُّ[1]، صاحبُ كتابِ «الوَقفِ والابتداءِ» وغيرِ ذلك من المُصنَّفاتِ، وكان مِن بُحورِ العلمِ في اللغةِ والعربيةِ وغيرِ ذلك. سَمِع الكُدَيْميَّ وإسماعيلَ القاضيَ وثَعْلَبًا وغيرَهم، وكان ثقةً صَدوقًا أديبًا، دَيِّنًا فاضلًا، مِن أهلِ السُّنَّةِ، مِن أعْلَمِ الناسِ بالنَّحوِ والأدَبِ وأكثرِهم حِفْظًا له، وكانت له من المَحافيظِ مُجَلَّداتٌ عظيمةٌ كثيرةٌ أحْمالُ أجْمالٍ، وكان لا يأكُلُ إلا القَاليَ، ولا يَشْرَبُ ماءً إلىٰ قُرَيبِ العَصْرِ؛ مُراعاةً لحِفْظِه، ويُقالُ: إنه كان يَحْفَظُ مائةً وعشرين تفسيرًا. وحَفِظَ تَعْبيرَ الرُّؤْيا في ليلةٍ، وكان يَحْفَظُ في كلِّ جمعةٍ عشَرةَ آلافِ ورقةٍ. وكانت وفاتُه ليلةَ عيدِ النَّحْرِ من هذه السنةِ.

أمُّ عيسى بنتُ إبراهيمَ الحَرْبيِّ، كانتْ عالمةً فاضلةً، تُفْتي في الفقْهِ. تُوُفِّيَت في رجبٍ منها، ودُفِنَت إلىٰ جانبِ أبيها، رَحِمهما اللهُ تعالىٰ.

(١) ترجمته في «تاريخ بغداد» (٣/ ١٨١ - ١٨٣).

ثم دخلت سنة تسع وعشرين وثلاثمائة

في المُنْتَصَفِ مِن ربيع الأول منها كانتْ وَفاةُ الخليفةِ الراضي بالله أميرِ المؤمنين أبي العباسِ أحمدَ ابنِ المُقْتَدرِ بالله جعفرِ بنِ المُعْتَضِد بالله أحمدَ بنِ المُوَفَّقِ أبي أحمدَ بنِ جعفرِ بنِ المُتَوكِّلِ بنِ المُعْتَصِمِ بنِ هارونَ الرَّشيدِ بنِ المهديِّ بنِ المنصورِ العباسيِّ، اسْتُخْلِف بعدَ عمِّه القاهرِ لستٍّ خَلَوْن من جُمادَىٰ الأولىٰ سنةَ ثِنتَيْن وعشرين وثلاثمائة، وأمُّه أمُّ ولدٍ رُوميَّةٌ تُسمَّىٰ ظَلومَ، كان مَوْلدُه في رجبٍ سنةَ سبعٍ وتسعين ومائتين، فكانتْ خلافتُه ستَّ سنين وعشرَةَ أشهرٍ وعشَرَةَ أيامٍ، وعمرُه يومَ مات إحدىٰ وثلاثون سنةً وعشَرةُ أشهرٍ.

وكان أسمرَ رَقيقَ السُّمرة، دُرِّيَّ اللونِ، أسودَ الشَّعْرِ سَبْطَه، قصيرَ القامةِ، نَحيفَ الجسمِ، في وجهِه طُولٌ، وفي مُقَدَّمِ لحيتِه تَمامٌ، وفي شَعرِه رِقَّةٌ. هكذا وصَفه مَن شاهده.

قال الخطيبُ البَغْداديُّ: كان للراضي فَضائلُ كثيرةٌ، وختَم الخلفاءَ في أمورٍ عدَّةٍ، فمنها أنه كان آخرَ خَليفةٍ له شعْرٌ مُدَوَّنٌ، وآخرَ خليفةٍ انفرَد بتَدْبيرِ الجُيوشِ والأمْوالِ، وآخرَ خليفةٍ خطَب علىٰ منْبرٍ يومَ الجمعة، وآخرَ خليفةٍ جالَس الجُلَساءَ ووصَل إليه النُّدَماءَ، وآخرَ خليفةٍ كانتْ نَفَقتُه وجَوائزُه وعَطاياه وجِراياتُه وخَزائنُه ومَطابخُه ومَجالسُه وخَدَمُه وحُجَّابُه وأُمورُه، كلُّ ذلك يجري علىٰ تَرْتيبِ المُتَقدِّمين مِن الخُلفاءِ.

وقال غيرُه: كان فَصيحًا بَليغًا كريمًا جَوادًا مُمَدَّحًا.

ومِن جيِّدِ كلامِه الذي سمِعه منه محمدُ بنُ يَحيَىٰ الصُّوليُّ: للهِ أقْوامٌ هم مَفاتيحُ الخيرِ، وأقوامٌ مَفاتيحُ الشَّرِّ، فمَن أراد اللهُ به خيرًا قصد به أهلَ الخيرِ، وجعَله الوسيلةَ إلينا، فنَقْضي حاجتَه، فهو الشَّريكُ في الثَّوابِ والشُّكْرِ، ومَن أراد اللهُ به شرًّا عدَل به إلىٰ غيرِنا، فهو الشَّريكُ في الوِزْرِ والإثْمِ، واللهُ المُسْتعانُ علىٰ كلِّ حالٍ.

ومِن أَلْطَفِ الاعْتذاراتِ ما كتَب به الراضي إلىٰ أخيه المُتَّقي، وهما في المَكْتَبِ. وكان المُتَّقي قد اعْتَدَىٰ علىٰ الراضي، والراضي هو الكبيرُ منهما. فكتَب إليه الراضي: بسمِ الله الرحمنِ الرحيم، أنا مُعْتَرِفٌ لك بالعُبوديَّةِ فَرْضًا، وأنت معْتَرِفٌ لي بالأُخُوَّةِ فَضْلاً، والعبدُ يُذْنِبُ والمَوْلَىٰ يَعْفو، وقد قال الشاعرُ:

يا ذا الذي يَغْضَبُ من غيرِ شيْ ... اعْتِبْ فعُتْباك حَبيبٌ إليْ
أنت علىٰ أنَّكَ لي ظالمٌ ... أعَزُّ خَلْقِ اللهِ طُرًّا عليْ

قال: فجاء إليه أخوه المتَّقي، فأكبَّ عليه يقبل يديه؛ وتعانقا واصطلحا.

ومن لَطيفِ شعرِه قولهُ فيما ذكَره ابنُ الأثيرِ في «الكامل»:

يَصْفَرُّ وَجْهي إذا تأمَّله ... طَرْفي ويَحْمَرُّ وجهُه خَجَلا
حتىٰ كأنَّ الذي بوَجْنَتِه ... من دمِ جِسْمي إليه قد نُقِلا

قال: ومما رثى به أباه المُقْتَدِرَ:

ولو أن حيًّا كان قبرًا لميت ... لصيَّرتُ أحشائي لأعظُمه قبرَا
ولو أن عُمري كان طوعَ مشيئتي ... وساعَدني المَقدورُ قاسمْتُه العُمرَا
بنفسي ثرًى ضاجعْتَ في تربه البِلَى ... لقد ضمَّ منك الغيثَ والليثَ والبدرَا

ومما أنشده له ابنُ الجَوْزيِّ في «المُنتظَم»:

لا تَعذِلي كَرَمي على الإسراف ... ربحُ المحامد مَتْجَرُ الأشراف
أَجرى كآبائي الخلائف سابقًا ... وأَشيدُ ما قد أسَّسَتْ أسلافي
إني من القوم الذين أكُفُّهم ... مُعتادةُ الإخلاف والإتلاف

ومن شعره الذي رواه الخطيبُ من طريقِ أبي بكر محمد بن يَحْيَى الصُّوليِّ النَّديم عنه قولُه:

كلُّ صَفْوٍ إلى كَدَرْ ... كلُّ أمْنٍ إلى حَذَرْ
ومَصيرُ الشَّبابِ للـ ... ـموتِ فيه أو الكِبَرْ
درَّ درُّ المَشيبِ مِن ... واعظٍ يُنذِرُ البَشَرْ
أيُّها الآمِلُ الذي ... تاهَ في لُجَّةِ الغَرَرْ
أين مَن كان قبلَنا ... درَسَ العَينُ والأثَرْ
سيَرُدُّ المعارَ مَن ... عمْرُه كلُّه خَطَرْ
ربِّ إني ذَخَرْتُ عنـ ... ـدَك أرجوك مُدَّخَرْ
إنني مُؤمِنٌ بما ... بيَّنَ الوَحْيُ في السُّوَرْ
واعْتِرافي بتَرْكِ نَفْـ ... ـعي وإيثاري الضَّرَرْ
ربِّ فاغْفِرْ لي الخَطيـ ... ـئةَ يا خيرَ مَن غَفَرْ

وقد كانتْ وَفاتُه بعِلَّة الاستسقاء في ليلة السادسَ عشرَ من ربيع الأول من هذه السنة، وكان قد أرسَل إلى بَجْكَمَ وهو بواسطٍ؛ ليَعْهَدَ إلى ولده الأصغرِ أبي الفَضْلِ، فلم يتَّفِقْ له ذلك، وبايَع الناسُ أخاه المُتَّقِي للهِ إبراهيمَ بنَ المُقْتَدِرِ. وكان أمرُ الله قَدَرًا مَقْدورًا.

ذكرُ خلافة المتقي أبي إسحاق إبراهيمَ بن المقتدر بالله[1]

لما مات أخوه الراضي اجْتَمَع القُضاةُ والأعْيانُ بدارِ بَجْكَمَ، واشْتَوَروا فيمَن يُوَلُّون عليهم، فاتَّفَق رأيُهم كلِّهم على المُتَّقِي للهِ إبراهيمَ هذا، فأحْضَروه إلى دارِ الخلافة، وأرادوا بَيْعتَه، فصلَّى ركعتَيْن،

(١) ترجمته في «المنتظم» (١٤/ ٣-٩).

صلاةَ الاستخارةِ وهو على الأرضِ لم يصعَدْ إلى الكُرْسيِّ بَعْدُ، ثم صعد إلى السَّريرِ، وبايَعه الناسُ، وكان ذلك يومَ الأربعاء لعشرٍ بقين من ربيعٍ الأول من هذه السنة، أعني سنةَ تسعٍ وعشرين وثلاثمائة، فلم يُغَيِّرْ على أحدٍ شيئًا، ولا غدَر بأحدٍ، حتى ولا على سُرِّيَّته لم يُغَيِّرْها، ولم يَتَسَرَّ عليها.

وكان كما سُمِّي المُتَّقِيَ لله؛ كثيرَ الصلاة والصِّيام والتَّعبُّدِ، وقال: لا أريدُ أحدًا من الجُلَساء، حَسْبِيَ المُصْحَفُ نَديمي، لا أُريدُ نَديمًا غيرَه. فقعَد عنه الجُلَساءُ والنُّدماءُ والْتَفُّوا على بجْكَمَ، وكان يُجالِسُهم فيُحادِثونه ويَتناشَدون عنده الأشْعارَ، فكان لا يَفْهَمُ كثيرَ شيءٍ مما يَقولون؛ لعُجْمته، وكان في جُمْلتِهم سنانُ بنُ ثابتٍ الصابئُ المُتطَبِّبُ، وكان بَجْكَمُ يشكو إليه قوةَ النَّفْسِ الغَضَبيةَ فيه، فكانَ سنانٌ يُهَذِّبُ من أخلاقه ويُسكِّنُ جَأْشَه، ويُرَوِّضُ نفسَه حتى يَسْكُنَ عن بعضِ ما كان يَتعاطاه من سَفْكِ الدماء، وكان المُتَّقِي لله حسَنَ الوجه، مُعْتَدِلَ الخَلْقِ، قَصيرَ الأنفِ، أبيضَ مُشْرَبًا حُمْرةً، وفي شَعرِه شُقْرةٌ وجُعودةٌ، كَثَّ اللِّحيةِ، أشْهَلَ العيْنَيْن، أَبِيَّ النَّفْسِ، لم يَشْرَبِ النبيذَ قطُّ، فالْتَقى فيه الاسمُ والفعلُ. ولله الحمدُ.

ولما اسْتَقَرَّ المُتَّقي في الخلافةِ أنْفَذ الرُّسُلَ والخِلَعَ إلى بَجْكَمَ وهو بواسطٍ، ونفَذَت المُكاتَباتُ إلى الآفاقِ بولايةِ المتَّقي لله.

وفي هذه السنة تَحارَب أبو عبدِ الله البَريديُّ وبَجْكَمُ بناحيةِ الأهوازِ، فقُتِل بَجْكَمُ في الحربِ، واسْتَظْهَر البَريديُّ عليه، وقوِي أمرُه، فاحْتاط الخليفةُ على حَواصِلِ بَجْكَمَ، فكان في جُملةِ ما أخَذ من أمْواله ألفُ ألفِ دينارٍ ومائتا ألفِ دينارٍ. وكانتْ أيامُ بَجْكَمَ على بَغْدادَ سنتين وثمانيةَ أشهرٍ وتسعةَ أيامٍ.

ثم إن البَريديَّ حدَّثَتْه نَفْسُه ببَغْدادَ، فأنفَق الخليفةُ أموالاً جَزيلةً في الجُنْدِ ليَمْنعوه من ذلك، وركِب بنَفْسه، فخَرَج إلى أثناء الطريقِ ليَمْنعَه من ذلك، فخالَفه البَريديُّ، ودخَل بَغْدادَ في ثاني رَمضانَ، ونزَل بالشفيعي، فلما تحَقَّق المُتَّقي ذلك بعَث إليه يُهَنِّئُه، وأرْسَل إليه بالأطْعمة، وخُوطِب بالوَزيرِ، ولم يُخاطَبْ بإمْرةِ الأمراء، فأرْسَل البَريديُّ يَطْلُبُ من الخليفة خمسَمائة ألفِ دينارٍ، فامتَنع الخليفةُ من ذلك، فبعَث يَتَهَدَّدُه ويَتَوَعَّدُه ويُذَكِّرُه ما حلَّ بالمُعْتَزِّ والمُسْتَعينِ والمُهْتَدي، واخْتَلَفَت الرسلُ بيْنَهما، ثم كان آخرَ ذلك أن بعَث إليه الخليفةُ بذلك قَهْرًا، ولم يَتَّفِقِ اجْتماعُ الخليفةِ والبَريديِّ ببَغْدادَ حتى خرَج البَريديُّ منها إلى واسطٍ، وذلك أنه ثارَت عليه الدَّيالمةُ، والْتَفُّوا على كبيرِهم كُورَتْكين، وراموا حريقَ دارِ البَريديِّ حينَ قبَض المالَ من الخليفةِ ولم يُعْطِهم شيئًا، وكانتِ البَجْكَميةُ طائفةً أخرى قد اخْتَلَفت معه أيضًا، وهم والدَّيالمُ قد صاروا حِزْبَيْن، فانْهَزَم البَريديُّ من بَغْدادَ يومَ سَلْخِ رمضانَ، فاسْتَوْلى كورتْكين على الأمورِ ببَغْدادَ، ودخَل إلى المُتَّقي، فقلَّده إمْرةَ الأمراءِ، وخلَع عليه، واسْتَدْعَى المُتَّقي لله عليَّ بنَ عيسى وأخاه عبدَ الرحمنِ، ففوَّض إلى عبدِ الرحمنِ تَدْبيرَ الأمورِ من غيرِ تَسْميةٍ بوزارةٍ، ثم قبَض كُورتْكين على رئيسِ الأتراكِ تكينك غُلامِ بَجْكَمَ وغرَّقه. ثم تَظَلَّمَت

العامَّةُ من الدَّيْلَم؛ أنهم يأخذون منهم دُورَهم، فشكَوْا ذلك إلى كُورْتكين، فلم يُشْكِهم، فمنَعَت العامَّةُ الخُطَباءَ أن يُصَلُّوا في الجَوامع، واقْتَتل الدَّيْلَمُ والعامَّةُ، فقُتِل من الفريقَين خَلْقٌ كثيرٌ وجَمٌّ غَفيرٌ.

وكان الخليفةُ قد كتَب إلى أبي بكرٍ محمدِ بنِ رائقٍ صاحبِ الشام يَسْتَدْعيه إليه ليُخَلِّصَه من الدَّيْلَم والبَريديِّ، فركِب إلى بَغْدادَ في العشْرين من رمضانَ، ومعه جيشٌ عظيمٌ، وقد صار إليه من الأتراك البَجْكَمية خَلْقٌ كثيرٌ، وحينَ وصَل إلى المَوْصِلِ حاد عن طَريقه ناصرُ الدولة بنُ حَمْدانَ، فتَراسَلا ثم اصْطَلَحا، وحَمل ابنُ حَمْدانَ إلى ابنِ رائقٍ مائةَ ألف دينارٍ، فلما اقْتَرَب ابنُ رائقٍ من بَغْدادَ خرَج كُورْتَكين في جيشه ليُقاتلَه، فدخَل ابنُ رائقٍ بَغْدادَ من غربيِّها، ورجَع كُورْتكين بجيشه من شرقيِّها، ثم تَصافُّوا ببَغْدادَ للقتال، فساعَدَت العامةُ ابنَ رائقٍ على كُورْتكين، فانْهَزَمَ الدَّيْلَمُ، وقُتِل منهم خَلْقٌ كثيرٌ، وهرَب كُورْتَكين فاخْتَفَى، واسْتَقَرَّ أمْرُ ابنِ رائقٍ على بغدادَ، وخلَع عليه الخَليفةُ، وركِب هو وإياه في دِجْلَةَ، وظفِر ابنُ رائقٍ بكُورْتكين، فأوْدَعه السِّجْنَ الذي في دارِ الخلافة.

قال ابن الجَوزيِّ: وفي يوم الجمعة الثاني عشرَ من جمادَى الأولَى حضَر الناسُ لصلاة الجمعة بجامع بَرَاثَا، وقد كان المُقْتَدر أحْرَق هذا المسجدَ، لأنه كُبِس فوُجِد فيه جَماعةٌ من الشِّيعة يجتَمِعون فيه للسَّبِّ والشَّتْم، فلم خرابًا حتى عمره في أيام الراضي، ثم أمر أمير المؤمنين بوضعِ منبرٍ فيه كان عليه اسمُ الرَّشيد، وصلَّى الناس فيه هذه الجمعةَ. قال: فلم يَزَلْ تُقامُ فيه إلى ما بعدَ سنة خمسين وأربعمائة.

قال ابنُ الجَوزيِّ: وفي جُمادَى الآخرة في ليلة سابعه كانت ليلةُ بردٍ ورَعْدٍ وبرْقٍ، فسقَطَت القُبَّةُ الخَضْراءُ من قصرِ المنصورِ، وقد كانتْ هذه القُبَّةُ تاجَ بَغْدادَ، وعَلَمَ البلد، ومَأْثُرَةً من مآثرِ بني العباسِ عظيمةً، بُنِيَت أولَ مُلْكِهم، وكان بينَ بنائها وسُقوطها مائةٌ وسبعٌ وثمانون سنةً.

وقال ابنُ الجَوزيِّ: وخرَج التَّشْرينان والكانُونان من هذه السنة ولم تُمْطَرْ بغدادُ فيها شيئًا سوى مَطْرةٍ واحدةٍ لم يَسِلْ منها ميزابٌ، فغلَت الأسعارُ ببَغْدادَ حتى بِيعَ الكُرُّ بمائةٍ وثلاثين دينارًا، ووقَع الفَناءُ في الناسِ حتى كان الجَماعةُ يُدْفَنون في القبرِ الواحد من غيرِ غُسْلٍ ولا صلاةٍ، وبِيعَ العَقارُ والأثاثُ بأرْخَصِ الأسْعارِ، واشْتُرِيَ بالدرهم ما كان يُساوي الدِّينارَ، ورأَت امرأةٌ رسولَ الله ﷺ في مَنامها وهو يأمُرُها بخُروج الناسِ إلى الصَّحْراء لصلاة الاسْتسْقاء، فأمَر الخليفةُ بامتثال ذلك، فصلَّى الناسُ، واسْتَسْقَوْا، فجاءت الأمْطارُ، فزادت الفُراتُ شيئًا لم يُرَ مثلُه، وغرِقَت العَبَّاسيَةُ، ودخَل الماءُ شوارعَ بَغْدادَ، فسقَطَت القَنْطَرةُ العَتيقةُ والجَديدةُ، وقطَعَت الأكرادُ على قافلةٍ من خُراسانَ الطريقَ، فأخَذوا منهم ما قيمتُه ثلاثةُ آلاف دينار وكان أكثرُ ذلك من أموالِ بَجْكَمَ التُّرْكيِّ.

وخرَج الناسُ للحجِّ، في هذه السنة، ثم رجَعوا من أثناء الطريق، بسبب رجلٍ من العَلَويِّين قد ظهَر بالمدينة النبوية، ودعا إلى نفسه، وخرجَ عن الطاعة.

ومِمن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

أحمدُ بنُ إبراهيمَ بنِ نَوْمَرْدَ الفقيهُ، أحدُ أصْحابِ ابنِ سُرَيْجٍ، خرَج من الحَمَّام، فسقَط عليه،

فمات من فَوْره، رحمه اللهُ.

بَجْكَمُ التُّرْكيُّ الذي تولَّى إمْرةَ الأُمراءِ ببَغْدادَ قبلَ بني بُوَيْه، وكان عاقلاً يَفْهَمُ بالعربيةِ ولا يَتَكَلَّمُ بها، يَقولُ: أخافُ أن أُخْطِئَ، والخَطأُ من الرئيسِ قَبيحٌ.

وكان مع ذلك يُحبُّ العِلْمَ وأهلَه، وكان كثيرَ الأمْوالِ والصَّدَقاتِ، ابْتَدأ بِعَمَلِ مارَسْتانَ ببَغْدادَ فلم يَتِمَّ، فجدَّده عضُدُ الدولة بنُ بُوَيْه.

وكان يقولُ: العَدْلُ أربَحُ للسُّلْطانِ في الدنيا والآخرة. وكان يَدْفِنُ أمْوالاً كثيرةً في الصَّحاري، فلما مات لم يُدْرَ أين هي، وكان نُدَماءُ الراضي قد انحدروا إلى بَجْكَمَ وهو بواسطٍ، وكان قد ضمنها بثمانمائة ألف دينار، فكانوا يُسامرونه كالخليفة، فكان لا يَفْهَمُ أكثرَ ما يقولون، وراض له مزاجَه الطبيبُ سنانُ بنُ ثابتٍ الصابئُ حتى لان خُلُقُه، وحسُنَتْ سيرتُه، وقلَّت سَطْوتُه، ولكن لم يُعَمَّرْ إلا قليلاً بعدَ ذلك.

ودخَل عليه مرةً رجلٌ فوعَظه فأبْكاه، فأمَر له بألف درهم، فلحقه بها الغُلامُ، فقال بَجْكَمُ لجُلسائه: ما أظُنُّه يَقْبَلُها ولا يُريدُها، وما يَصْنَعُ هذا بالدنيا؟ هذا مُحَرَّقٌ بالعبادة. فرَجَع الغلامُ وليس معه شيءٌ، فقال: قبِلها؟ قال: نعم. فقال بَجْكَمُ: كلُّنا صَيَّادون ولكنَّ الشِّباكَ تَخْتَلِفُ.

وكانت وفاتُه لسبعٍ بقِين من رجبٍ من هذه السنة، وسببُ موْته أنه خرَج يَتَصَيَّدُ، فلقي طائفةً من الأكراد فاستَهان بهم، فقاتَلوه فضربَه رجلٌ منهم فقتَله. وكانت إمْرتُه على بَغْدادَ سنتين وثمانيةَ أشْهرٍ وتسعةَ أيام، وخلَّف من الأمْوال والحَواصلِ ما يُنَيِّفُ على ألفَيْ ألف دينارٍ، أخذها المُتَّقي لله كلَّها.

أبو محمد البَرْبَهاريُّ الواعظُ، الحسنُ بنُ عليِّ بن خَلَف، أبو محمد البَرْبَهاريُّ[1] العالمُ الزاهدُ الفَقيهُ الحَنْبَليُّ الواعظُ، صاحَب المَرُّوذيَّ وسَهْلاً التُّسْتَريَّ، وتَنزَّه عن ميراث أبيه - وكان سبعين ألفًا - لأمْرٍ كرهه. وكان شديدًا على أهلِ البِدَعِ والمَعاصي. وكان كبيرَ القَدْرِ عند الخاصَّة والعامَّة، وقد عطَس يومًا وهو يَعظُ الناسَ، فشمَّته الحاضرون، ثم شمَّته مَن سمِعَهم حتى شمَّته أهلُ بَغْدادَ، فانتَهت الضَّجَّةُ إلى دار الخلافة، فغار الخليفةُ من ذلك، وتكلَّم فيه جَماعةٌ من أرْباب الدَّولة، فطُلِب فاستَتَر عندَ أختِ تُوزُونَ شهرًا، ثم أخَذه القِيامُ فمات عندها، فأمَرَت خادمَها أن يُصلِّيَ عليه، فصلَّى عليه، فامْتَلأَت الدارُ رجالاً عليهم ثيابٌ بيضٌ، فدفَنَته عندَها، ثم أوْصَت أن تُدْفَنَ عندَه، وكان عمرُه يومَ مات ستًّا وتسعين سنةً، رحمه اللهُ تعالى.

يوسُفُ بنُ يَعْقوبَ بن إسْحاق بن البُهْلول أبو بكر الأزْرَقُ - لأنه كان أزرقَ العينَيْن - التَّنُوخيُّ الكاتبُ، سمع جدَّه، والزبيرَ بنَ بَكَّارٍ، والحسنَ بنَ عَرَفَةَ، وكان خَشِنَ العيشِ، كثيرَ الصَّدقة، يُقالُ: إنه تصدَّق بمائة ألف دينارٍ. وكان أمَّارًا بالمَعْروف نَهَّاءً عن المُنْكَر، روَى عنه الدَّارَقُطْنيُّ وغيرُه من الحُفَّاظ، وكان ثقةً عَدْلاً. تُوُفِّي في ذي الحِجَّة من هذه السنة عن ثنتَيْن وتسعين سنةً، رحمه اللهُ تعالى.

---

(١) ترجمته في «المنتظم» (١٤/ ١٤-١٥)، و«السير» (١٥/ ٩٠-٩٣) وقد نعته الذهبي بشيخ الحنابلة.

ثم دخلت سنة ثلاثين وثلاثمائة

قال ابنُ الجَوْزيِّ: في المُحَرَّم منها ظهر كَوْكَبٌ بذَنَبٍ، رأسُه إلى الغرب وذَنَبُه إلى الشرق، وكان عظيمًا جدًا، وذَنَبُه مُنْتَشِرٌ، وبقي ثلاثةَ عشرَ يومًا إلى أن اضْمَحَلَّ.

قال: وفي نصف ربيع الأول بلَغ الكُرُّ من الحِنْطة مائتَيْ دينارٍ وعشرةَ دنانيرَ، ومن الشعير مائةً وعشرين دينارًا، ثم بلَغ كُرُّ الحنطة ثلاثمائة وستةَ عشرَ دينارًا، وأكَل الضُّعَفاءُ المَيْتةَ، ودام الغَلاءُ وكثُر الموتُ، وتقطَّعَت السُّبُلُ، وشُغِل الناسُ بالمرض والفقر، وتُرِكَ دَفْنُ المَوْتَى، وشُغِل الناسُ عن المَلاهي واللَّعِب. قال: ثم جاء مَطَرٌ كأفْواه القِرَب، وبلَغَت زيادةُ دِجْلَةَ عشرين ذراعًا وثُلُثًا.

وذَكَر ابنُ الأثير في «كامله» أن محمدَ بنَ رائقٍ -الذي هو أميرُ الأمراء ببغدادَ حينئذٍ- وقعتْ بينَه وبينَ أبي عبد الله البَريديِّ الذي بواسطٍ وَحْشةٌ بسبب منع البَريديِّ الخَراجَ الذي عندَه، فركِب إليه ابنُ رائقٍ ليَتَسَلَّمَ ما عندَه من المال، فوقَعَت مُصالَحةٌ، ورجَع ابنُ رائقٍ، فطالَبه الجُنْدُ بأرْزاقهم، وضاق عليه حالُه، وتحيَّز جَماعةٌ من الأتراك إلى البَريديِّ، فضعُف جانبُ ابن رائقٍ، فكاتَب البَريديَّ بالوزارة ببغدادَ، ثم قطَع اسمَ الوزارة عنه، فاشْتَدَّ حَنَقُ البَريديِّ، وعزَم على أخْذ بَغْدادَ، فبعَث أخاه أبا الحسين في جيشٍ، فتحَصَّن ابنُ رائقٍ مع الخَليفة بدار الخلافة، ونَصَب فيها المَجانيقَ والعَرَّادات، وعلى دِجْلَةَ أيضًا، فاضْطَربت بَغْدادُ، ونهَب الناسُ بعضُهم بعضًا ليلًا ونهارًا، وجاء أبو الحسين أخو أبي عبد الله البَريديِّ بمَن معه، فقاتَلَهم الناسُ في البَرِّ وفي دِجْلَةَ، وتفاقَم الحالُ، واشتدَّ الخَطْبُ جدًّا، مع الغَلاء والوَباء والفَناء، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم إنَّ الخَليفةَ وابنَ رائقٍ انْهَزَما في جُمادَىٰ الآخرة -ومع الخليفة ابنُه أبو مَنْصورٍ- في عشرين فارسًا، فقصَدوا نحوَ المَوْصِلِ، واسْتَحْوَذ أبو الحسين على دار الخلافة، فقتَل أصحابُ البريديِّ مَن وجَدوا بدار الخلافة من الحاشية، ونهَبوها حتى وصَل النَّهْبُ إلى الحَريم، ولم يَتَعَرَّضوا للقاهر، وهو إذ ذاك مَكْفوفٌ، وأخْرَجوا كُورَتَكِين من الحبس، فبعَثه أبو الحسين إلى أخيه أبي عبد الله البَريديِّ، فكان آخرَ العهد به، ونهَبوا بَغْدادَ جهارًا علانيةً، ونزَل أبو الحسين بدار مُؤْنسٍ التي كان يَسْكُنُها ابنُ رائقٍ، وكانوا يَكْبِسون الدُّورَ ويأخُذون ما فيها من الأموال، فكثُر الجَوْرُ، وغلَت الأسْعارُ جدًّا، وضرَب أبو الحسين المَكْسَ على الحِنْطة والشَّعير، وذاق أهلُ بغدادَ لِباسَ الجُوع والخوف. وكان مع أبي الحسين في الجيش طائفةٌ كثيرةٌ من القَرامطة، فأفْسَدوا في البلد فَسادًا عظيمًا، فوقَعَتْ بينَهم وبينَ الأتراك حُروبٌ طويلةٌ شديدةٌ، فغَلَبَتْهم التُّرْكُ، وأخْرَجوهم من بغدادَ، ووقَعَت الحربُ بينَ العامَّة والدَّيْلَم أيضًا.

وفي شعبانَ من هذه السنة اشْتَدَّ الحالُ أيضًا، ونُهِبَت المَساكنُ، وكُبِس أهلُها ليلًا ونهارًا، وخرَجت الجُنْدُ من أصحاب البَريديِّ، فنهَبوا الغَلَّاتِ من القُرىٰ والحَيوانات، وجرىٰ ظُلْمٌ لم يُسمَعْ

بمثله، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

قال ابنُ الأثير: وإنما ذكَرْنا هذا؛ ليَعْلَمَ الظَّلَمةُ أن أخبارَهم تُنقَلُ وتَبْقى بعدَهم على وجهِ الدَّهرِ، فربَّما تَركوا الظلمَ لهذا إن لم يتْرُكوه لله عزَّ وجلَّ.

وقد كان الخليفةُ أرْسَل وهو ببغدادَ إلى ناصرِ الدولةِ بنِ حَمْدانَ نائبِ الموصلِ والجزيرةِ يَسْتَمِدُّه، ويَسْتَجيشُ به على البَريديِّ، فأرْسَل ناصرُ الدولةِ أخاه سيفَ الدولةِ عليًّا في جيشٍ كثيفٍ، فلما كان بتَكْريتَ إذا الخليفةُ وابنُ رائقٍ قد هرَبا، فرجَع معهما سيفُ الدولةِ إلى أخيه، وقدَّم سيفُ الدولةِ للخليفةِ المُتَّقي لله خدْمةً عظيمةً في مَسيرِه هذا، ولمّا وَصَلوا إلى المَوْصلِ خرج عنها ناصرُ الدولةِ، فنزَل شرْقيَّها، وأرْسَل التُّحَفَ والضِّيافاتِ، ولم يَجِئ خوفًا من الغائلةِ من جهةِ ابنِ رائقٍ نائبِ العراقِ وصاحبِ الشامِ، فأرْسَل الخليفةُ ولدَه أبا منصورٍ ومعه ابنُ رائقٍ للسلامِ على ناصرِ الدولةِ، فأمَر أن يُنثَر الذهبُ والفضةُ على رأسِ ولدِ الخليفةِ، وجلَسا عندَه ساعةً، ثم قاما ليَرْجِعا، فركِب ابنُ الخليفةِ، وأراد ابنُ رائقٍ أن يَرْكَبَ معه، فقال له ناصرُ الدولةِ: اجْلِسِ اليومَ عندي حتى نُفكِّرَ فيما نَصْنَعُ في أمْرِنا هذا. فاعْتَذَر إليه بابنِ الخليفةِ، واسْتَراب الأمرَ، فقبَض ابنُ حَمْدانَ بكُمِّه، فجبذه ابنُ رائقٍ منه، فانْقَطَع كُمُّه، وركِب سريعًا، فسقَط عن فرسِه، فأمَر ناصرُ الدولةِ بقتلِه فقُتِل، وذلك يومَ الإثنين لسبعٍ بقِين من رجبٍ من هذه السنةِ.

فأرْسَل الخليفةُ إلى ابنِ حَمْدانَ فاستَحْضَره، وخلَع عليه، ولقَّبه ناصرَ الدولةِ يومَئذٍ، وجعَله أميرَ الأمراءِ، وخلَع على أخيه أبي الحسنِ عليٍّ ولقَّبه سيفَ الدولةِ يومَئذٍ أيضًا، ولما قُتِل ابنُ رائقٍ، وبلَغ خبرُ قتلِه إلى صاحبِ مصرَ الإخْشيدِ محمدِ بنِ طُغْجٍ، ركِب إلى دمشقَ، فتَسلَّمها من محمدِ بنِ يَزْدادَ نائبِ ابنِ رائقٍ، ولم يَنْتَطِحْ فيها عَنْزانِ.

ولما بلَغ خبرُ مَقْتَلِه إلى بغدادَ فارَق أكثرُ الأتراكِ أبا الحسينِ البَريديَّ لسُوءِ سيرتِه، وخُبثِ سَريرتِه، قبَّحه اللهُ، وقصَدوا الخليفةَ وابنَ حَمْدانَ في الموصلِ، فقَوِيَ بهم ناصرُ الدولةِ وركِب هو والخليفةُ المُتَّقي لله إلى بَغْدادَ، فلمَّا اقْتَرَبوا منها هرَب عنها أبو الحسينِ البَريديُّ، ودخَل الخليفةُ المُتَّقي لله إلى بغدادَ ومعه بنو حَمْدانَ في جُيوشٍ كثيرةٍ، وذلك في شوَّالٍ من هذه السنةِ، ففَرِح به المسلمون فرَحًا شديدًا، وبعَث إلى أهلِه - وقد كان أخْرَجَهم إلى سامَرَّاءَ - فردَّهم، وتراجَع أعْيانُ الناسِ إلى بغدادَ بعدَما كانوا قد رَحَلوا عنها، وردَّ الخليفةُ أبا إسْحاقَ القَراريطيَّ إلى الوزارةِ، وولَّى تُوزونَ شُرْطَةَ جانِبَيْ بَغْدادَ، وبعَث ناصرُ الدولةِ أخاه سيفَ الدولةِ في جيشٍ وراءَ أبي الحسينِ البَريديِّ، فلَقِيَه عندَ المَدائنِ، فاقْتَتَلوا قتالاً شديدًا في أيامٍ نَحِساتٍ، ثُم كان آخرَ الأمْرِ أن انْهَزَم أبو الحسينِ إلى أخيه بواسطٍ، وقد ركِب ناصرُ الدولةِ بنَفْسِه، فنزَل المَدائنَ قوةً لأخيه.

وقد انْهَزم سيفُ الدولةِ مرةً من أبي الحُسينِ فردَّه أخوه، وزاده جيشًا آخرَ حتى كسَر البَريديَّ، وأسَر جَماعةً من أعْيانِ أصْحابِه، وقُتِل منهم خَلْقٌ كثيرٌ وجَمٌّ غَفيرٌ، ثم أرْسَل أخاه سيفَ الدولةِ إلى

واسطٍ لقتالِ أبي عبدِ اللهِ البريديِّ، فانْهزَمَ منه البَريديُّ وأخوه إلى البَصْرةِ، وتسلَّم سيفُ الدولةِ واسطًا، وسيأتي ما كان مِن خبَرِه مع البَريديِّ في السنة الآتية إن شاء اللهُ تعالى.

وأما ناصرُ الدولة فإنه عاد إلى بَغْدادَ، فدخلَها في ثالثَ عشَرَ ذي الحجَّةِ، وبينَ يديه الأُسارَىٰ على الجِمالِ، ففرح الناسُ واطْمأنُّوا، ونظَر في المَصالِحِ العامَّةِ، وأصْلَح مِعْيارَ الدِّينارِ، وذلك أنه وجَده قد غُيِّر عما كان عليه، فضرَب دَنانيرَ سمَّاها الإبْريزيَّةَ، فكانتْ تُباعُ كلُّ دينارٍ بثلاثةَ عشَرَ درهمًا، وإنما كان يُباعُ التي قبلَها بعشَرةٍ.

وعزَل الخليفةُ بدرًا الخَرْشَنيَّ عن الحجابةِ، وولَّاها سَلامَةَ الطُّولُونيَّ، وجعَل بدرًا على طريقِ الفُراتِ، فسار إلى الإخْشيدِ، فأكْرَمه واسْتَنابه على دمشقَ، فمات بها.

وفيها: وَصَلت الرومُ إلى قَريبِ حَلَبَ، فقتَلوا خَلْقًا، وأسَروا نحوًا مِن خمسةَ عشَرَ ألفَ إنسانٍ. فإنا للهِ وإنا إليه راجعون.

وفيها: دخَل الثمليُّ مِن طَرَسُوسَ إلى بلادِ الرومِ فقتَل وسبَىٰ وغنِم وسلِم، وأسَر مِن بَطارقتِهم المَشْهورين فيهم خَلْقًا كثيرًا، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

إسْحاقُ بنُ محمدٍ أبو يَعقوبَ النَّهْرَجُوريُّ، أحدُ مَشايخِ الصُّوفيةِ، صحِب الجُنَيْدَ بنَ محمدٍ وغيرَه مِن أئمةِ القومِ، وجاوَر بمكةَ حتى مات بها.

ومِن كلامِه الحسنِ قولُه: مَفاوِزُ الدنيا تُقْطَعُ بالأقدامِ، ومَفاوِزُ الآخِرةِ تُقْطَعُ بالقلوبِ.

الحسينُ بنُ إسماعيلَ بنِ محمدِ بنِ إسماعيلَ بنِ سعيدِ بنِ أبانَ، أبو عبدِ اللهِ الضَّبِّيُّ القاضي المَحامِليُّ[1]، الفَقيهُ الشافعيُّ المُحدِّثُ، سمع الكثيرَ، وأدْرَك خَلْقًا مِن أصْحابِ ابنِ عُيَيْنَةَ نحوًا مِن سبعين رجلًا، وروَىٰ عن جَماعةٍ مِن الأئمةِ، وعنه الدارَقُطْنيُّ وخَلْقٌ، وكان يَحْضُرُ مَجْلسَه نحوٌ مِن عشَرةِ آلافٍ، وكان صَدوقًا دَيِّنًا فَقيهًا مُحدِّثًا، ولِي قَضاءَ الكوفةِ ستين سنةً، وأُضِيف إليه قَضاءُ فارِسَ وأعْمالِها، ثم استَعْفَىٰ مِن ذلك كلِّه، ولزِم منزلَه، واقْتَصَر على إسْماعِ الحديثِ. وكانت وفاتُه في ربيعٍ الآخِرِ مِن هذه السنة عن خمسٍ وتسعين سنةً، رحِمه اللهُ.

وقد تَناظَر هو وبعضُ الشِّيعةِ بحَضْرةِ بعضِ الأكابرِ، فجعَل الشِّيعيُّ يَذْكُرُ مَواقفَ عليٍّ يومَ بدرٍ وأُحدٍ والخَنْدقِ وخَيْبَرَ وحُنَيْنٍ وشَجاعتَه، ثم قال للمَحامِليِّ: أتَعْرِفُها؟ قال: نعم، ولكن أتَعْرِفُ أين كان الصِّدِّيقُ يومَ بدرٍ؟ كان مع رسولِ اللهِ ﷺ في العَريشِ بمنزلةِ الرئيسِ الذي يُحامَىٰ عنه كما يُحامىٰ عن رسولِ اللهِ ﷺ، وعليٌّ في مَقامِ المُبارَزةِ، ولو فُرِض أنه انْهزَم أو قُتِل، لم يُهْزَمِ الجيشُ بسببِه. فأُفْحِمَ الشِّيعيُّ، وقال له المَحامِليُّ: وقد قدَّمه الذين روَوْا لنا الصلاةَ والزكاةَ بعدَ رسولِ اللهِ ﷺ،

(١) ترجمته في «السير» (١٥/ ٢٥٨-٢٦٣).

حيث لا مالَ له ولا عبيدَ ولا عَشيرةَ تَمنَعُه وتُحاجِفُ عنه، وإنما قدَّموه لعِلْمِهم أنَّه خيرُهم. فأُفْحِم أيضًا.

عليُّ بنُ محمد بن سهل أبو الحسن الصائغُ، أحدُ العُبَّاد الزهاد أصحاب الكَرامات، رُوي عن مُمْشادَ الدِّيْنَوَريِّ أنه شاهَد أبا الحسنِ الصائغَ يُصَلِّي في الصحراءِ في شدةِ الحرِّ، ونَسْرٌ قد نشَر جَناحَه يُظِلُّه من الحرِّ.

قال ابن الأثير: وفيها تُوُفِّي عليُّ بنُ إسماعيلَ الأشْعَريُّ المُتكَلِّمُ صاحبُ المذهبِ المَشْهورِ، وكان مَوْلدُه سنةَ ستين ومائتين، وهو من ولدِ أبي موسى الأشْعَريِّ.

قلتُ: والصَّحيحُ أن الأشْعَريَّ تُوُفِّي سنةَ أربعٍ وعشرين، كما تقدَّم.

قال: وفيها تُوُفِّي محمدُ بنُ يوسفَ بن النَّضْرِ الهَرَويُّ[1] الفَقيهُ الشافعيُّ، وكان مَوْلدُه سنةَ تسعٍ وعشرين ومائتين، وأخَذ عن الربيعِ بن سليمانَ صاحبِ الشافعيِّ.

قلتُ: وقد تُوُفِّي فيها أبو حامدِ بنُ بلالٍ، وزكريا بنُ أحمدَ البَلْخيُّ، وعبدُ الغافرِ بنُ سَلامةَ الحافظُ، ومحمدُ بنُ رائقٍ الأميرُ، والشيخُ أبو صالحٍ مُفْلحٌ الحَنْبليُّ، واقفُ مسجدِ أبي صالحٍ ظاهرَ بابِ شَرْقيٍّ من دمشقَ، وكانتْ له كَراماتٌ وأحْوالٌ ومَقاماتٌ. وهذه ترجمةُ أبي صالحٍ الدمشقيِّ الذي يُنسَبُ إليه المسجدُ ظاهرَ بابِ شرقيٍّ بدمشقَ.

مُفْلحُ بنُ عبد الله أبو صالحٍ المُتَعَبِّدُ، صحِب الشيخَ أبا بكرٍ محمدَ بنَ سيِّدِ حَمْدَوَيْه الدمشقيِّ، وتأدَّب به، وروى عنه المُوَحِّدُ بنُ إسْحاقَ بنِ البُرِّيِّ، وأبو الحسنِ عليُّ بنُ القُجَّةِ قَيِّمُ المسجدِ، وأبوبكرٍ محمدُ بنُ داودَ الدِّيْنَوَريُّ الدُّقِّيُّ.

روى الحافظُ ابنُ عَساكرَ من طريقِ الدُّقِّيِّ، عن الشيخِ أبي صالحٍ قال: كنتُ أطُوفُ بجبلِ اللُّكَّامِ أطْلُبُ الزُّهَّادَ، فمررْتُ برجلٍ وهو جالسٌ على صَخْرةٍ مُطْرِقًا، فقلتُ له: ما تَصْنَعُ ههنا؟ فقال: أنْظُرُ وأرْعَى. فقلتُ له: لا أرَى بينَ يديك إلا الحجارةَ. فقال: أنْظُرُ خَواطِرَ قلْبي، وأرْعَى أوامِرَ ربي، وبحَقِّ الذي أظْهَرَك عليَّ إلا جُزْتَ عني. فقلتُ له: كَلِّمْني بشيءٍ أنْتَفِعُ به حتى أمْضِيَ. فقال لي: مَن لَزِم البابَ أُثْبِت في الخَدَم، ومَن أكْثَر ذِكْرَ الذنوبِ أكْثَرَ النَّدَم، ومَن اسْتَغْنَى بالله أمِن العَدَم. ثم تَرَكني ومضَى.

وعن الشيخِ أبي صالحٍ قال: مكَثْتُ ستةَ أو سبعةَ أيامٍ لم آكُلْ ولم أشْرَبْ، ولحقني عَطَشٌ عظيمٌ، فجئتُ النهرَ الذي وراءَ المسجدِ، فجلَسْتُ أنْظُرُ إلى الماءِ، فتَذَكَّرْتُ قولَه تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧]. فذهَب عني العَطَشُ، فمكَثْتُ تَمامَ العشَرةِ أيامٍ.

وعنه قال: مكَثْتُ مرةً أرْبعين يومًا لم أشْرَبْ ماءً، فلَقِيَني الشيخُ أبو بكرٍ محمدُ بنُ سيِّدِ حَمْدَوَيْه،

(١) ترجمته في «السير» (١٥/ ٢٥٢).

فأخَذ بيدي وأدْخَلَني منزلَه، وجاءني بماءٍ وقال لي: اشْرَبْ. فشَرِبْتُ، فأخَذ فَضْلَتي وذهَب إلى امْرأته وقال لها: اشْرَبي فَضْلَ رجلٍ قد مكَث أربَعين يومًا لم يَشْرب الماءَ. قال أبو صالح: ولم يَكُن اطَّلَع على ذلك منّي أحدٌ إلاَّ اللهُ عزَّ وجلَّ.

ومن كلام أبي صالح: الدنيا حَرامٌ على القُلوب، حَلالٌ على النُّفوس؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ يَحِلُّ لك أن تَنْظُرَ إليه بعينِ رأسك، فيَحْرُمُ عليك أن تَنْظُرَ إليه بعينِ قَلْبك.

وكان يَقولُ: البدَنُ لِباسُ القلب، والقلبُ لباسُ الفُؤاد، والفُؤادُ لِباسُ الضَّمير، والضَّميرُ لباسُ السِّرِّ، والسِّرُّ لِباسُ المَعْرفة.

ولأبي صالح مَناقبُ كثيرةٌ، رحِمه اللهُ. وقد كانت وفاتُه في جُمادَى الأولى من هذه السنة.

ثم دخلت سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة

في هذه السنة دخَل سيفُ الدولة إلى واسطٍ وقد انْهَزَم عنها أبو عبدِ الله البَريديُّ وأخوه أبو الحسين، ثم اخْتَلَف التُّرْكُ على سيفِ الدولة ومالُوا إلى تُوزُونَ، وهمَّ بالقبضِ على سيفِ الدولة، فهرَب منهم قاصدًا إلى بغدادَ، وبلَغ أخاه ناصرَ الدولة أبا محمدٍ الحسنَ بنَ عبدِالله بنِ حَمْدانَ المُلَقَّبَ بأمير الأمراء ببغدادَ الخبرُ، فخرَج من بغدادَ إلى المَوْصِل، فنُهِبَت دارُه ببغدادَ، وكانتْ إمارةُ ناصرِ الدولة على بغدادَ ثلاثةَ عشَرَ شهرًا وخمسةَ أيام، وجاء أخوه سيفُ الدولة بعدَ خروجِه منها، فنزَل ببابِ حَرْبٍ، وطلَب من الخليفةِ المُتَّقي لله أن يُمِدَّه بمالٍ يَتَقَوَّى به على حربِ تُوزُونَ، فبعَث إليه بأربعمائةِ ألف درهمٍ، ففرَّقها في أصحابه. وحينَ سمع بقُدوم توزُونَ خرَج من بغدادَ، ودخَلها تُوزُونُ في الخامسِ والعشرين من رمضانَ، فخلَع عليه الخليفةُ، وجعَله أميرَ الأمراء، واستَقَرَّ أمرُه ببغداد، وعندَ ذلك رجَع أبو عبدِ الله البَريديُّ إلى واسطٍ، وأخرَج مَن كان بها من أصحابِ تُوزُونَ، وكان في أسْرِ تُوزُونَ غلامٌ لسيفِ الدولة يقالُ له: ثِمالٌ. فأرسَلَه إلى مَوْلاه، فحسُن موقعُ ذلك عندَ آل حَمْدانَ.

وفيها: كانت زَلْزلةٌ عظيمةٌ ببلاد نَسَا، سقَط منها عماراتٌ كثيرةٌ، وهلَك بسببها خلقٌ كثيرٌ.

قال ابنُ الجوزيِّ: وكان ببغدادَ في أَيْلُولَ وتَشْرينَ حرٌّ شديدٌ يأخُذُ بالأنفاس، وفي صفَرٍ ورَد الخبرُ بورودِ الروم إلى أرْزَنَ ومَيَّافارِقينَ، وأنهم سَبَوْا وأحرَقوا. وفي ربيعٍ الآخرِ من هذه السنة عُقِدَ عَقْدُ أبي منصورٍ إسحاقَ ابنِ الخليفةِ المُتَّقي لله على علويةَ بنتِ ناصرِ الدولة بنِ محمدِ بنِ حَمْدانَ، على صَداقِ مائة ألف دينارٍ وألف ألف درهمٍ، وولِي العَقْدَ على الجارية أبو عبدِ الله محمدُ بنُ أبي موسى الهاشميُّ، ولم يَحْضُرْ ناصرُ الدولة. وضرَب ناصرُ الدولة سكَّةً، زاد في الكتابة عليها: عبدُ آل محمد.

قال ابنُ الجَوْزيِّ: وفي آذارَ من هذه السنة غلَت الأسعارُ حتى أكَل الناسُ الكلابَ، ووقَع الوَباءُ في الناسِ، ووافَى من الجرادِ شيءٌ كثيرٌ جدًّا، حتى بِيعَ منه كلُّ خمسين رِطلاً بدرهمٍ، فارْتَفَق الناسُ به

في الغَلاءِ.

وفيها: وَرَد كتابُ ملك الروم إلى الخليفة يَطْلُبُ فيه منديلاً بكنيسة الرُّهَا كان المَسيحُ قد مسَح وجهَه به، فصارَت صورة وجهِه فيه، ويَعِدُ المسلمين أنه إذا أُرْسِل إليه يَبْعَثُ من أُسارَىٰ المسلمين خَلْقًا كثيرًا، فأحْضَرَ الخليفةُ العلماءَ، فاستشارهم في ذلك؛ فمِن قائلٍ: نحن أحَقُّ بعيسىٰ منهم، وفي بعثِه إليهم غَضاضةٌ على المسلمين ووَهَنٌ. فقال عليُّ بنُ عيسىٰ الوزيرُ: يا أميرَ المؤمنين، إنقاذُ أُسارَىٰ المسلمين من أيدي الكفار خيرٌ وأنْفَعُ للناسِ من بقاءِ ذلك المنديلِ بتلك الكنيسةِ. فأمَر الخليفةُ بإرسالِ ذلك المنديلِ إليهم وتخليصِ الأُسارَىٰ من أيديهم.

قال الصُّوليُّ: ووصَل الخبرُ بأن القِرْمِطيَّ وُلِد له مولودٌ، فأهْدَىٰ إليه أبو عبد الله البَريديُّ هَدايا عظيمةً، منها مَهْدٌ من ذهَبٍ، مُرَصَّعٌ بالجَوْهَرِ. وكثُر الرَّفْضُ ببغدادَ، فنُودِي بها: مَن ذكَر أحدًا من الصحابة بسُوءٍ فقد برِئت منه الذِّمَّةُ.

وبعَث الخليفةُ إلى عِمادِ الدولة بنِ بُوَيْه خِلَعًا، فقبِلها ولبِسها بحَضْرة القُضاةِ والأعيانِ.

و فيها: كانت وفاةُ السعيد نصر بن أحمدَ بن إسماعيلَ السامانيِّ صاحبِ خُراسانَ وما وراءَ النهرِ، وقد مرِض قبلَ موته بالسِّلِّ سنةً وشهرًا، واتَّخَذ في دارِه بيتًا سمَّاه بيتَ العبادة، فكان يَلْبَسُ ثيابًا نظافًا، ويَمْشي إليه حافيًا، ويُصلِّي فيه، ويَتَضرَّعُ ويُكثِرُ الصلاةَ، وكان يَجْتَنِبُ المنكَراتِ والآثامَ إلى أن مات، رحمه اللهُ، فقام بالأمرِ من بعده ولدُه نوحُ بنُ نصرٍ السامانيُّ، ولُقِّب بالأميرِ الحَميدِ، فقتَل محمدَ بنَ أحمدَ النَّسَفيَّ - وكان قد طُعِن فيه عندَه - وصلَبه.

و ممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

سنانُ بنُ ثابت بنِ قُرَّةَ الصابِئُ أبو سعيد المُتَطَبِّبُ، أسلَم على يدِ القاهرِ بالله، ولم يُسْلِمْ ولدُه ولا أحدٌ مَن أهلِ بيتِه، وقد كان مُقَدَّمًا في الطِّبِّ وفي علومٍ كثيرةٍ. وكانت وفاتُه في ذي القَعْدة من هذه السنة بعِلَّةِ الذَّرَبِ، فلم تُغْنِ عنه صناعتُه شيئًا حينَ جاءَه الموتُ. وما أحسَنَ ما قال بعضُ الشعراءِ في هذا المعنَىٰ:

قلْ للذي صنَع الدواءَ بكفِّـه	أتَرُدُّ مقدورًا عليك قد جرَىٰ
مات المُداوَىٰ والمُداوِي والذي	صنَع الدواءَ بكفِّه ومَن اشْتَرَىٰ

أبو الحسن الأشعريُّ، ذكَر ابنُ الجَوْزيِّ في «المُنْتَظَم» وفاةَ الأشْعَريِّ في هذه السنةِ، وتكلَّم فيه، وحطَّ عليه كما جرَت عادةُ الحنابلة؛ يَتكلَّمون في الأشْعَرية قديمًا وحديثًا. وذكَر أنه وُلِد سنةَ ستين ومائتيْن، وأنه تُوُفِّي في هذه السنةِ، وأنه صَحِب الجُبَّائيَّ أربعين سنةً، ثم رجَع عنه، وأنه تُوُفِّي ببغدادَ، ودُفِن بمَشْرَعة الرَّوَايا.

محمدُ بنُ أحمدَ بنِ يعقوبَ بنِ شَيْبَةَ بنِ الصَّلْتِ السَّدوسيُّ مولاهم أبو بكرٍ، سمع جدَّه وعباسًا

الدُّوريُّ وغيرَهما، وعنه أبو عمرَ ابنُ مَهْديٍّ، وكان ثقةً.

وروىٰ الخَطيبُ أن والدَ محمدٍ هذا حينَ وُلِد أخذَ طالعَ مَوْلِدِه المُنَجِّمون، فحسَبوا عمرَه وقالوا: إنه يَعيشُ كذا وكذا. فأرْصَد له أبوه حُبًّا، فيه عن كلِّ يومٍ من عمره دينارٌ، ثم أرْصَد له حُبًّا آخر كذلك، ثم آخرَ كذلك، فكان يَعْدلُ كلَّ يومٍ بثلاثة دَنانيرَ، ومع هذا ما أفادَه شيئًا، بل افْتَقَر حتىٰ صار يَسْتَعْطي مِن الناس، وكان يَحْضُرُ مجلسَ السَّماعِ عليه بلا إزارٍ، يَتَصَدَّقُ عليه أهلُ المجلسِ بشيءٍ يَقومُ بأَودِه. والسعيدُ مَن أسعَده اللهُ.

محمدُ بنُ مَخْلَد بن حَفْص أبو عمرَ الدُّوريُّ العَطَّارُ، كان يَسْكُنُ الدُّورَ، وهي مَحَلَّةٌ بطَرَف بغدادَ. سمع الحسنَ بنَ عَرَفةَ والزُّبيرَ بنَ بَكَّارٍ ومسلمَ بنَ الحَجَّاج وغيرَهم، وعنه الدارَقُطْنيُّ وجَماعةٌ من الحُفّاظ، وكان ثقةً فَهِمًا واسعَ الرواية، مَشْكورَ الديانة، مشهورًا بالعبادة. وكانت وفاتُه في جُمادىٰ الآخرة من هذه السنة، وقد استكمَل سبعًا وتسعين سنةً وثمانيةَ أشهرٍ واحدًا وعشرين يومًا.

المَجْنونُ البَغداديُّ، روىٰ ابنُ الجوزيِّ من طريق أبي بكرٍ الشِّبْليِّ قال: رأيتُ مَجنونًا عندَ جامع الرُّصافة وهو عُرْيانٌ، وهو يقولُ: أنا مجنونُ الله، أنا مجنونُ الله. فقلتُ له: ما لك؟ ألا تَسْتَتِرُ وتَدْخُلُ الجامعَ وتُصلِّي؟ فأنشَأ يقولُ:

يَقُولون زُرْنا واقْضِ واجبَ حَقِّنا	وقد أسقَطَت حالي حُقوقَهمُ عني
إذا هم رأَوْا حالي ولمْ يَأْنَفوا لها	ولم يَأْنَفوا منها أَنِفْتُ لهمْ مني

ثم دخلت سنة ثنتين وثلاثين وثلاثمائة

فيها: خرَج المُتَّقي لله من بغدادَ إلىٰ المَوْصِلِ مُغاضبًا لتُوزُونَ أميرِ الأمراء، وكان إذ ذاك بواسط، وقد زوَّج ابنتَه من أبي عبد الله البَريديِّ، وصارا يدًا واحدةً علىٰ الخليفة، وأرسَل ابنَ شيرزادَ في ثلاثمائةٍ إلىٰ بغدادَ، فأفسَد فيها وقطَع ووصَل، واستَقَلَّ بالأمورِ من غير مراجَعة المُتَّقي لله، فغضب المُتَّقي، وخرَج منها مُغاضبًا بأهله وأولاده ووزيره ومَن اتَّبعه من الأُمراء وأعيانِ أهلِ بغدادَ قاصدًا بني حَمْدانَ، فتَلَقَّاه سيفُ الدولة إلىٰ تَكْريتَ، ثم جاءَه ناصرُ الدولة وهو بتَكْريتَ أيضًا، وحينَ خرَج المُتَّقي من بغدادَ أكثرَ ابنُ شيرزادَ الفسادَ، وظلَم أهلَها وصادَرهم، وأرسَل يُعْلِمُ تُوزُونَ، فأقبَل مسرعًا نحو تَكْريتَ، فتواقَع هو وسيفُ الدولة، فهزَم تُوزونُ سيفَ الدولة، وأخَذ مُعَسْكرَه ومُعَسْكرَ أخيه ناصرِ الدولة، ثم كرَّ إليه سيفُ الدولة، فهزَمه تُوزونُ أيضًا، وانهَزَم الخليفةُ المُتَّقي وناصرُ الدولة وسيفُ الدولة من المَوْصِلِ إلىٰ نَصيبينَ، وجاء تُوزونُ فدخَل المَوْصِلَ، وأرسَل إلىٰ الخليفة يَطْلُبُ رِضاه، فأرسَل الخليفةُ يقولُ: لا سبيلَ إلىٰ ذلك إلا أن تُصالحَ بني حَمْدانَ. فاصطَلَحوا، وضمِن ناصرُ الدولة بلادَ المَوْصِلِ بثلاثة آلافِ ألفٍ وستِّمائة ألفٍ، ورجَع تُوزونُ إلىٰ بغدادَ، وأقام الخليفةُ

عندَ بني حَمْدانَ .

وفي غَيْبةِ تُوزونَ عن واسطٍ أقبَل إليها مُعِزُّ الدولة بنُ بُوَيْهٍ في خَلْقٍ مِن الدَّيْلَم كثيرين، فانحدَر تُوزونُ مسرعًا إلى واسطٍ، فاقتَتَل مع مُعِزِّ الدولة بِضْعَةَ عشَرَ يومًا، فكان آخرَ الأمرِ أن انهزَم مُعِزُّ الدولة، ونُهِبَت حَواصِلُه، وقُتِل مِن جيشِه خَلْقٌ كثيرٌ، وأُسر جماعةٌ من أشرافِ أصحابِه، ثم عاوَد تُوزُونَ ما كان يَعْتَرِيه مِن مرضِ الصَّرْعِ، فشُغِل بنفسِه، فرجَع إلى بغدادَ .

وفيها: قتَل أبو عبدِ الله البَرِيديُّ أخاه أبا يوسُفَ، وكان سببَ ذلك أن أبا عبدِ الله قلَّ ما في يدِه مِن الأموالِ، فكان يَستَقرِضُ مِن أخيه أبي يوسُفَ، فيُقرِضُه القليلَ ثم يُشَنِّعُ عليه ويَذُمُّ تصرُّفَه، فمال الجندُ إلى أبي يوسُفَ، وأعرَضوا عن أبي عبدِ الله، فخشِي أبو عبدِ الله أن يُبايِعوه ويترُكوه، فأرسَل إليه طائفةً مِن غِلمانِه فقتَلوه غِيلةً، ثم انتَقَل إلى دارِه، وأخَذ جميعَ حَواصِلِه وأموالِه، فكان قيمةُ ما استَحوَذ عليه مِن الأموالِ يُقارِبُ ثلاثةَ آلافِ ألفِ دينارٍ، ولم يُمَتَّعْ بعدَه إلا ثمانيةَ أشهرٍ، مرِض فيها مرَضًا شديدًا بالحُمَّى الحادَّةِ، حتى كانت وفاتُه في شوَّالٍ مِن هذه السنةِ، فقام بالأمرِ بعدَه أخوه أبو الحسينِ، قبَّحه اللهُ، فأساء السيرةَ في أصحابِه، فثاروا به فلجَأ إلى القَرامِطةِ، فاستَجار بهم، فقام بالأمرِ مِن بعدِه أبو القاسمِ بنُ أبي عبدِ الله البَرِيديُّ في بلادِ واسطٍ والبَصْرةِ وتلك النَّواحي مِن الأهوازِ وغيرِها .

وأما الخليفةُ المُتَّقِي لله فإنه لما أقام عندَ آلِ حَمْدانَ بالمَوْصِلِ ظهَر له منهم تَضَجُّرٌ، وأنهم يَرْغَبون في مُفارقتِه، فكتَب إلى تُوزُونَ في الصلحِ، فاجتَمع تُوزُونُ مع القضاةِ والأعيانِ ببغدادَ، وقرَءُوا كتابَ الخليفةِ، وقابَله بالسمعِ والطاعةِ، وحلَف له ووضَع خَطَّه بالإقرارِ له ولمَن معه بالإكرامِ والاحترامِ والخضوعِ، فكان مِن الخليفةِ ودخولِه إلى بغدادَ ما سيأتي في السنةِ الآتيةِ .

وفي هذه السنة أقبَلَت طائفةٌ مِن الرُّوسِ في البحرِ إلى نَواحي أَذْرَبيجانَ، فقصَدوا بَرْذَعةَ فحاصَروها، فلما ظفِروا بأهلِها قتَلوهم عن آخرِهم، وغنِموا أموالَهم، وسبَوْا مَن استَحسَنوا مِن نسائِهم، ثم مالوا إلى مَراغةَ، فوجَدوا فيها ثمارًا كثيرةً، فأكَلوا منها، فأصابهم وباءٌ شديدٌ، فمات أكثرُهم، فكان إذا مات أحدُهم دفَنوا معه سلاحَه ومالَه، فيأخُذُه المسلمون، وأقبَل إليهم المَرْزُبانُ بنُ محمدٍ فقاتلَهم، فقتَل منهم خلقًا كثيرًا أيضًا، مع ما أصابَهم من الوباءِ الشديدِ، وطَهَّر اللهُ تلك البلادَ منهم .

وفي ربيعٍ الأولِ من هذه السنة جاء الدُّمُسْتُقُ ملكُ الرومِ إلى رأسِ العَيْنِ في ثمانين ألفًا، فدخَلها ونهَب ما فيها، وقتَل أهلَها وسبَى منهم نحوًا مِن خمسةَ عشَرَ ألفًا، وأقام بها ثلاثةَ أيامٍ، فقصَدَتْه الأعرابُ مِن كلِّ وجهٍ، فقاتَلوه قتالًا عظيمًا حتى انجَلَى عنها .

وفي جُمادَى الأُولَى منها غلَت الأسعارُ ببغدادَ جدًّا، وكثُرَت الأمطارُ جدًّا حتى تَهَدَّم البناءُ، ومات كثيرٌ مِن الناسِ تحتَ الهَدْمِ، وتعطَّلَت كثيرٌ من الحماماتِ والمساجدِ مِن قِلَّةِ الناسِ، ونقَصَت

قيمةُ العَقارِ حتى كان يُباعُ بالدرهم ما كان يُساوي الدينارَ، وخَلَت أكثرُ الدُّورِ، فكان المُلَّاكُ يُعْطُون مَن يَسْكُنُها أُجرةً ليَحْفَظَها عليهم من الداخلين إليها لتخريبها. وكثُرت الكَبَساتُ من اللصوصِ بالليلِ، حتى كان الناسُ يَتَحارَسون بالبُوقاتِ والطُّبولِ، وكثُرت الفتنُ من كلِّ جهةٍ، فإنا للهِ وإنا إليه راجعون، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسنا وسيئاتِ أعمالنا.

وفي رمضانَ من هذه السنة كانت وفاةُ أبي طاهرٍ سليمانَ بنِ أبي سعيدٍ الحسنِ الجَنَّابيِّ الهَجَريِّ القِرْمِطيِّ رئيسِ القَرامطةِ، لعَنه اللهُ، وهذا هو الذي قتَل الحَجيجَ حولَ الكعبةِ وفيها، وسلَبها سُتُورَها وبابَها وحليتَها، واقتَلَع الحجرَ الأسودَ من ركنِها، وحمَله إلى بلدِه هَجَرَ، وهو في هذه المدةِ كلِّها عندَه من سنةِ سبعَ عشْرةَ كما ذكَرنا، ولم يَرُدَّه إلى سنةِ تسعٍ وثلاثين وثلاثمائةٍ كما سيأتي. ولما مات أبو طاهرٍ هذا قام بالأمرِ من بعدِه في القرامطةِ إخوتُه الثلاثةُ؛ وهم أبو العباسِ الفَضْلُ، وأبو القاسمِ سعيدٌ، وأبو يَعْقوبَ يوسُفُ، بنو أبي سعيدٍ الجَنَّابيِّ، لعَنَهم اللهُ، وكان أبو العباسِ ضعيفَ البدنِ، مُقْبِلاً على قراءةِ الكتبِ، وكان أبو يعقوبَ مقبلاً على اللهوِ واللعبِ، ومع هذا كلمةُ الثلاثةِ واحدةٌ لا يَخْتَلِفون في شيءٍ، وكان لهم سبعةٌ من الوزراءِ مُتَّفِقون أيضًا، قبَّحهم اللهُ أجمعين.

وفي شوَّالٍ منها تُوُفِّي أبو عبدِ اللهِ البَرِيديُّ، كما ذكَرنا، فاستَراح المسلمون من هذا وهذا.

وممن تُوُفِّي فيها من الأعيانِ:

أبو العباسِ بنُ عُقْدةَ الحافظُ أحمدُ بنُ محمدِ بنِ سعيدِ بنِ عبدِ الرحمنِ، أبو العباسِ الكوفيُّ، المعروفُ بابنِ عُقْدةَ، لُقِّب أبوه بذلك من أجلِ تَعْقيدِه في التَّصْريفِ والنحوِ، وكان عُقْدةُ ورِعًا ناسكًا، وكان أبو العباسِ بنُ عُقْدةَ من الحفَّاظِ الكبارِ، سمِع الحديثَ الكثيرَ، ورحَل فسمِع من خلائقَ من المشايخِ، وسَمِع منه الطَّبَرانيُّ والدارَقُطْنيُّ وابنُ الجِعَابيِّ وابنُ عَديٍّ وابنُ المُظَفَّرِ وابنُ شاهينَ.

قال الدارَقُطْنيُّ: أجْمَع أهلُ الكوفةِ أنه لم يُرَ من زمنِ ابنِ مسعودٍ إلى زمانِ ابنِ عُقْدةَ أحفَظُ منه.

ويقالُ: إنه كان يَحْفَظُ نحوًا من ستِّمائةِ ألفِ حديثٍ، منها ثلاثُمائةِ ألفٍ في فضائلِ أهلِ البيتِ، بما فيها من الصِّحاحِ والضِّعافِ، وكانت كُتُبُه ستَّمائةِ حِمْلِ جملٍ، وكان يُنْسَبُ مع هذا كلِّه إلى التَّشَيُّعِ.

قال الدارَقُطْنيُّ: كان رجلَ سَوْءٍ.

ونسَبه ابنُ عَديٍّ إلى أنه كان يُسَوِّي النُّسَخَ لأشياخٍ، ويأمُرُهم بروايتِها.

وقال الخطيبُ: حدَّثني عليُّ بنُ محمدِ بنِ نصرٍ قال: سمِعْتُ حمزةَ بنَ يوسُفَ، سمِعْتُ أبا عمرَ ابنَ حَيُّوْيَةَ يقولُ: كان ابنُ عُقْدَةَ يَجْلِسُ في جامعِ بَرَاثَا يُمْلِي مَثالبَ الصحابةِ - أو قال: الشيخَيْن - فترَكْتُ حديثَه لا أُحَدِّثُ عنه بشيءٍ.

قلتُ: وقد حرَّرْتُ الكلامَ فيه بما فيه كفايةٌ في كتابي «التَّكْميلِ». وللهِ الحمدُ والمنةُ. وكانت وفاتُه في ذي القَعْدةِ منها.

أحمدُ بنُ عامر بن بشر بن حامد أبو حامد المَرْوَرُّوذيُّ، نسبةً إلى مَرْوِالرُّوذِ - والرُّوذُ النهرُ - الفقيه الشافعيُّ تلميذُ الشيخ أبي إسحاقَ المَرْوَزيِّ، نِسبةً إلى مَرْوِ الشاهجان، وهي أعظمُ من تلك. شرَحَ «مُختَصرَ المُزَنيِّ»، وله كتابُ «الجامع» في المَذهَب، وصنَّف في أُصولِ الفقه، وكان إمامًا لا يُشَقُّ غُبارُه. تُوُفِّي في هذه السنة، رحمه اللهُ تعالى. واللهُ أعلمُ.

ثم دخلت سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة

فيها: رجَع الخليفةُ المُتَّقي إلى بغدادَ، وخُلع من الخلافة وسُمِلَت عيناه. كان المُتَّقي وهو مُقيمٌ بالموصلِ قد أرسَلَ إلى الإخشيد محمدِ بنِ طُغْج صاحبِ الديارِ المصرية والبلادِ الشامية، فأقبَل إليه وقَدِم عليه في المُنتَصَف من المُحرَّم من هذه السنة، وخضَع للخليفة غايةَ الخُضوع، وكان يَقومُ بينَ يديه كما يَقومُ الغلمانُ، ويَمشي والخليفةُ راكبٌ، ثم عرَض عليه أن يَسيرَ معه إلى الديارِ المصرية أو يُقيمَ ببلادِ الشام، فأبَى عليه ذلك، فأشار عليه بالمُقام بمكانه الذي هو فيه، ولا يَذهَبُ إلى تُوزُونَ ببغدادَ، وحذَّره من تُوزونَ ومَكْرِه وخديعته، فلم يَقْبَلْ، وكذلك أشار على الوزيرِ أبي حسين بنِ مُقْلَةَ فلم يَسْمَعْ، فأهدَى ابنُ طُغْج للخليفة هدايا كثيرةً فاخرةً، وكذلك إلى الأمراء والكُبراء والوزيرِ، ثم كرَّ راجعًا إلى بلاده. وقد اجتاز بحَلَبَ، فانحاز عنها صاحبُها أبو عبد الله بنُ سعيدِ بنِ حَمْدانَ، وكان ابنُ مُقاتِلٍ بها، فأرسَله إلى الديارِ المصرية نائبًا عنه حتى يَعودَ إليها.

وأما الخليفةُ فإنه ركِب من الرَّقَّة في دِجْلةَ إلى بَغدادَ، وأرسَل إلى تُوزُونَ فاستَوثَق منه ما كان حلَف من الأيمان، فأكَّدَها وقرَّرها، فلما اقترَب منها خرَج إليه تُوزُونُ ومعه العساكرُ، فلما رأى الخليفةَ قبَّل الأرضَ بينَ يديه، وأظهَر له أنه قد وفَّى له بما كان حلَف عليه، وأنزَله في مِضْرَبِه، ثم جاء فاحتاط على مَن معه من الكُبَراء، وأمَر بسَمْلِ عَيْنَي الخليفة فسُمِلَت عيْناه، فصاح صيْحةً عظيمةً سمعها الحُرَمُ، فضجَّت الأصواتُ بالبكاء، فأمَر تُوزُونُ بضربِ الدَّبادبِ حتى لا تُسْمَعَ أصواتُ الحُرَم، ثم انحدَر من فَوْرِه إلى بَغدادَ فبايَعَ للمُستكفي بالله، فكانت خلافةُ المُتَّقي لله ثلاثَ سنين وخمسةَ أشهرٍ وعشرين يومًا، وقيل: وأحدَ عشرَ شهرًا. وستأتي ترجمتُه عندَ ذِكرِ وفاته.

خلافة المستكفي بالله أبي القاسم عبد الله بن المكتفي بن المعتضد[1]

لما رجَع تُوزُونُ إلى بغدادَ وقد خلَع المُتَّقي لله وسمَلَه، استَدعَى بعبدِ الله بنِ المُكْتَفي فبايَعه على الخلافة، ولُقِّب بالمُسْتَكفي بالله، وذلك في العَشْرِ الأواخرِ من صفَرٍ من هذه السنة، وجلَس تُوزُونُ بينَ يديه، وخلَع عليه المُستَكفي خِلْعةً سَنيَّةً، وكان المُسْتَكفي مَليحَ الشَّكْلِ رَبْعةً، حسنَ الجسم

(١) ترجمته في «المنتظم» (١٤/ ٤٠).

والوجه، أبيضَ اللونِ مُشْرَبًا حُمْرةً، أكْحلَ، أقْنَى الانف، خَفيفَ العارضَيْن، وكان عمرُه يومَ بُويع بالخلافة إحدىٰ وأربعين سنةً، وأُحضِر المُتَّقي بينَ يديه، وبايَعه وأخذ منه البُرْدةَ والقَضيبَ، واستوزَر أبا الفرج محمدَ بنَ عليٍّ السامَرِّيَّ، ولم يكُنْ إليه من الأمر شيء، وإنما الذي يتولَّى الأمورَ ابنُ شيرزادَ، وحُبِس المُتَّقي في السجن، وطلَب المُستكفي أبا القاسم الفَضْلَ بنَ المُقْتدِر ـ وهو الذي ولي الخلافةَ بعدَ ذلك، ولُقِّب المُطيعَ لله ـ فاختَفَىٰ منه، ولم يَظْهَرْ مدة خلافة المُسْتكفي، فأمَر المُسْتكفي بهدم داره التي عندَ دِجْلةَ.

موت القائم الفاطمي وولاية ولده المنصور

وفي رمضانَ من هذه السنة ـ والصحيحُ في شوالٍ من التي بعدَها ـ تُوُفِّي القائمُ بأمرِ الله القاسمُ بنُ المَهْديِّ، وقد عَهِد بالأمر من بعده لولده المنصورِ إسماعيلَ، فكتَم موتَ أبيه مدةً حتىٰ استقَرَّ أمرُه، ثم أظهَره. وقد كان أبو يزيدَ الخارجيُّ قد حارَبهم في هذه السنة، وأخَذ منهم مُدُنًا كبارًا، وكسَروه مرارًا مُتعددةً، ثم يثُورُ عليهم، ويَجْمَعُ الرجالَ ويُقاتلُهم بمن قدَر عليه، فانتدب المنصورُ لقتال أبي يزيدَ بنفسه، وركِب في الجيوشِ، وجرَت بينَهم حروبٌ يَطولُ ذكرُها، وقد بسَطها ابنُ الأثير في «كامله». وقد انهزَم في بعضِ الأحيانِ جيشُ المنصورِ عنه، ولم يَبْقَ إلا في عشرين نفسًا، فقاتَل بنَفْسه قتالاً عظيمًا، فهزَم أبا يزيدَ بعدَما كاد يَقْتُلُه، وثبَت المَنصورُ ثَباتًا عظيمًا، فعظُم في أعْيُنِ الناسِ، وزادَت حُرمتُه وهَيْبتُه، واستَنْقَذ بلادَ القَيْروانِ منه، وما زال يُحاربُه المَنْصورُ حتىٰ ظفِر به وقتَله. ولما جِيء برأسه سجَد شكرًا لله عز وجل. وكان أبو يزيدَ هذا قَبيحَ الشكلِ أعْرَجَ قَصيرًا، خارجيًّا شَديدًا، يَرَىٰ تكفيرَ أهلِ المِلَّة، قبَّحَه اللهُ في الدنيا والآخرة.

وفي ذي الحِجَّة من هذه السنة قُتِل أبو الحسينِ البَريديُّ وصُلِب ثم أُحْرِق، وذلك لانه قدم بَغْدادَ يستَنْجدُ بتُوزُونَ وأبي جعفرِ بنِ شيرزادَ على ابنِ أخيه، فوعَدوه النصرَ، ثم شرَع يُفْسدُ ما بينَ تُوزُونَ وابنِ شيرزادَ، فعلِم بذلك ابنُ شيرزادَ، فأمرَ بسَجْنه وضَرْبه، وأحضَر له بعضُ الفقهاء فُتْيا عليها خطوطُ الفقهاءِ بإباحة دمه، فاستَظهَر عليه بذلك وأمَر بقتله وصَلْبه، ثم أحْرَقه، وانقَضَت أيامُ البَريديِّين وزالَت دولتُهم، لا جمَع اللهُ بهم شَمْلاً.

وفيها: أخرَج المُسْتَكْفي بالله القاهرَ من دارِ الخلافة ـ الذي كان خليفةً ثم سُمِلَتْ عيناه ـ وأنزَله بدارِ ابنِ طاهرٍ، وقد افْتَقَر حتىٰ لم يَبْقَ له من اللباسِ سوىٰ قُطْنِ جُبَّةٍ يَلْتَفُّ بها، وفي رجله قَبْقابٌ من خشب.

وفي هذه السنةِ ركِب مُعِزُّ الدولةِ في رجبٍ منها إلىٰ واسطٍ ليُحاصِرَها، فبلَغ خبرُه إلىٰ تُوزُونَ، فركِب هو والمُسْتَكْفي بالله، فلما سمع بهم مُعِزُّ الدولة رجَع عنها إلىٰ بلاده، وتسلَّمها الخَليفةُ، وضمِنها أبو القاسم ابنُ أبي عبدِ الله فضمَّنه تُوزُونُ، ثم رجَع هو والخليفةُ إلىٰ بغدادَ في شَوَّالٍ من هذه السنة.

وفيها: ركب سيفُ الدولة عليُّ ابنُ أبي الهَيْجاء عبدُ الله بنُ حَمْدانَ إلى حَلَبَ، فتسلَّمها من يأنَس المُؤنسيِّ، ثم سار إلى حِمْصَ ليأخُذَها، فجاءته جيوشُ الإِخْشيدِ محمدِ بنِ طُغْج مع مولاه كافور، فاقْتَتَلوا فانهَزَم كافورٌ الإخشيديُّ، واستَولَى سيفُ الدولة على حِمْصَ، ثم ركِب إلى دِمَشق فحاصَرَها، فلم يَفْتَحْها أهلُها له، فرجَع عنها، وقصَده الإِخْشيدُ بجيوشٍ كثيفة، فالتَقَيا بقِنَّسْرين، فلم يَظْفَرْ أحدٌ منهما بالآخر، ورجَع سيفُ الدولة إلى الجزيرة، ثم عاد إلى حلَبَ، فاستَقَرَّ مُلْكُه بها، فقصَدَته الرومُ في جَحافِلَ عظيمة، فالْتَقَى معهم، فظفِر بهم فقتَل منهم خَلْقًا كثيرًا.

ثم دخلت سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة

في المُحَرَّم منها زاد الخَليفةُ في لقَبِه إمامَ الحَقِّ، وكتَب ذلك على سِكَّة المعامَلة، وقاله الخُطَباءُ على المَنابرِ أيامَ الجُمَع.

وفي المُحَرَّم من هذه السنة مات تُوزُونُ التُّرْكيُّ في داره ببغدادَ، وكانت إمارتُه سنتين وأربعةَ أشهرٍ وعشَرَةَ أيام. وكان ابنُ شيرْزادَ كاتبَه، وكان بهِيتَ لتَخْليصِ المال، فلما بلَغه الخبرُ أراد أن يَعْقِدَ البَيْعةَ لناصرِ الدولة بنِ حَمْدانَ، فاضْطَرَبَت الأجنادُ، وعُقِدَت الرِّياسةُ لنفسه ودخَلَ بغدادَ في مُسْتَهَلِّ صفَر، وخرَج إليه الأجْنادُ كلُّهم وحلَفوا له، وحلَفَ له الخليفةُ والقُضاةُ والأعيانُ، ودخَل على الخليفة، فخاطَبه بأميرِ الأمراء، فزاد في أرْزاقِ الأجناد، وبعَث إلى ناصرِ الدولة يُطالبُه بالخَراج، فبعَث إليه بخمسمائة ألف درهم وبطعامٍ ففرَّقَه في الناس، وأمَر ونهَى وولَّى وعزَل وقطَع ووصَل، وفرح بنَفْسه ثلاثةَ أشهرٍ وعشرين يومًا، ثم جاءت الأخبارُ بأن مُعِزَّ الدولة بنَ بُوَيْه قد أقْبَل في الجُيوشِ قاصدًا إلى بغدادَ، فاختَفَى ابنُ شيرْزادَ والخليفةُ أيضًا، وخرَج أكثرُ الأتراك قاصدين إلى المَوْصِلِ ليكونوا مع ناصرِ الدولة بنِ حَمْدانَ.

ذكر أول دولة بني بُوَيْه وحكمهم ببغداد

أقْبَل مُعِزُّ الدولة أبو الحسينِ أحمدُ بنُ بُوَيْه في جَحافِلَ، فلما اقْتَرَب من بغدادَ بعَث إليه الخليفةُ المُسْتَكْفي بالله الهَدايا والإنزالات، وقال للرسول: أخْبِرْه أني مَسْرورٌ به، وأني إنما اخْتَفَيْتُ من شرِّ الأتراك الذين انْصَرَفوا إلى المَوْصِلِ. وبعَث إليه بالخِلَع والتُّحَف، ودخَل مُعِزُّ الدولة بنُ بُوَيْه بغدادَ في حادي عشَرَ جُمادَى الأولى من هذه السنة، فنزَل بباب الشَّمَّاسية، ودخَل من الغدِ إلى الخليفة فبايَعه، وخلَع عليه المُسْتَكْفي، ولقَّبه بمُعِزِّ الدولة، ولقَّب أخاه أبا الحسنِ عليًّا بعِمادِ الدولة، وأخاه أبا عليٍّ الحسنَ برُكْنِ الدولة، وكتَب ألْقابَهم على الدراهمِ والدنانير.

ونزَل مُعِزُّ الدولة بدارِ مُؤْنسٍ الخادم، ونزلَ أصحابُه من الدَّيْلَم في دُورِ الناس، فلقيَ الناسُ من ذلك كُلْفَةً شديدةً، وأمَّن مُعِزُّ الدولة ابنَ شيرْزادَ، فلما ظهَر اسْتَكْتَبه على الخَراج، ورتَّب للخليفة بسببِ نَفَقاته خمسةَ آلافٍ في كلِّ يوم، واسْتَقَرَّت الأمورُ على هذا النِّظام.

ذكرُ القبض على الخليفة المستكفي وخلعه(١)

لما كان اليومُ الثاني والعشرون من جُمادىٰ الآخرة حضَر مُعزُّ الدولة إلى الحَضْرة، فجلَس على سَريرٍ بين يدي الخليفة، وجاء رجلان من الدَّيْلَم، فمدَّا أيديَهما إلى الخليفة، فأنزَلاه عن كُرْسيِّه، وسحَباه فتحزَّبت عمامتُه في حَلْقه، ونهَض مُعزُّ الدولة، واضْطَرَبَت دارُ الخلافة حتى خُلِص إلى الحَريم، وتَفاقَم الحالُ، وسيق الخليفةُ ماشيًا إلى دارِ مُعزِّ الدولة، فاعتُقِل بها، وأُحْضِر أبو القاسم الفَضْلُ بنُ المُقْتَدِر، فبُويع بالخلافة، وسُمِلَت عينا المُسْتَكْفي، وأُودِع السِّجْنَ، فلم يَزَلْ به مَسْجونًا حتى كانتْ وَفاتُه في سنة ثمانٍ وثلاثين وثلاثمائة، كما سيأتي بيانُه وذِكْرُ ترجمته هنالك.

خلافة المطيع لله(٢)

لما قدم مُعزُّ الدولة بَغْدادَ وقبَض على المُسْتَكْفي وسُمِلَت عَيْناه، استَدْعىٰ بأبي القاسم الفضلِ بن المُقْتَدِر بالله، وقد كان مُخْتَفيًا من المُسْتَكْفي، وهو يَحُثُّ في طَلَبه ويَجْتَهِدُ، فلم يَقْدِرْ عليه، ويقالُ: إنه اجْتَمَع بمُعزِّ الدولة سرًّا، فحرَّضه على المُسْتَكْفي حتى كان من أمْرِه ما كان، فأُحضِر أبو القاسم ابنُ المُقْتدِر فبُويع بالخلافة ولُقِّب بالمُطيع لله، وبايَعه الأمراءُ والأعيانُ ومُعزُّ الدولة والعامَّةُ، وضعُف أمْرُ الخلافة جدًّا حتى لم يَبْقَ للخَليفة أمْرٌ ولا نَهْيٌ ولا وَزيرٌ أيضًا، وإنما يكونُ له كاتبٌ على أقْطاعه فقط، وإنما مَوْرِدُ أمورِ المَمْلَكة ومَصْدَرُها راجعٌ إلى مُعزِّ الدولة، وإنما كان ذلك لأن بني بُوَيْه ومَن معهم من الدَّيْلَم فيهم تَشيُّعٌ شديدٌ، فكانوا يَرَوْن أن بني العباس قد غصَبوا الأمْرَ من العَلَويِّين، حتى عزَم مُعزُّ الدولة على تحْويلِ الخلافة عنهم إلى العَلَويِّين، واستَشار أصْحابَه في ذلك، فكلُّهم أشار عليه بذلك، إلا رجلاً من أصحابِه، كان سَديدَ الرأيِ فيهم، فإنه قال له: لا أرَىٰ لك هذا. قال: ولِمَ ذاك؟ قال: لأن هذا خَليفةٌ ترَىٰ أنت وأصحابُك أنه غيرُ صحيحِ الإمارة، فمتىٰ أمَرْتَ بقتله قتَله أصحابُك، ولو ولَّيتَ رجلاً من العَلَويِّين لكنتَ أنت وأصْحابُك تَعتَقِدون صحَّةَ ولايته، فلو أمَر بقتلك لقَتَلك أصحابُك. فلما فهِم ذلك صرَفه عن رأيه الأول، للدنيا لا لله عزَّ وجل.

ثم نشِبَت الحربُ بينَ ناصرِ الدولة بنِ حَمْدانَ وبينَ مُعزِّ الدولة بنِ بُوَيْه، فركِب ناصرُ الدولة بعدَما خرَج مُعزُّ الدولة والخليفةُ المُطيعُ إلى عُكْبَرا، فدخَل بَغْدادَ، فأخَذ الجانبَ الشَّرْقيَّ ثم الغَرْبيَّ، وضعُف أمْرُ مُعزِّ الدولة والدَّيالِمَة الذين معه، ثم مكَر به مُعزُّ الدولة وخدَعه حتى استَظهَر عليه، وانْتَصَر أصحابُه، فنهَبوا بَغْدادَ وما قدَروا عليه من أموالِ التُّجَّارِ وغيرِهم، فكان قيمةُ ما أخَذ أصحابُ مُعزِّ الدولة من الناسِ عشَرةَ آلافِ ألفِ دينارٍ، ثم وقَع الصُّلْحُ بينَ ناصرِ الدولة ومُعزِّ الدولة، ورجَع

(١) انظر تفصيل ذلك في «المنتظم» (١٤/ ٤٥).
(٢) انظر خلافته في «المنتظم» (١٤/ ٤٦-٤٨).

ابنُ حَمْدانَ إلىٰ بلده المَوْصل، واستَقَرَّ مُعزُّ الدولة بمدينة السَّلام بغدادَ، ثم شرَع في استعمال السُّعاة لِيُبلِّغوا أخاه رُكْنَ الدولة أخبارَه، فغوَىٰ العامَّةُ في ذلك، وعلَّموا أبناءَهم ذلك، حتىٰ كان مَن الناسِ مَن يَقْطَعُ نَيِّفًا وثلاثين فَرْسَخًا في يوم، وأعْجَبه المُصارِعون والمُلاكِمون وغيرُ ذلك من أرْباب هذه الصِّناعات التي لا يُنْتَفَعُ بها إلا قليلاً؛ كالسِّباحة ونحوها، وكانت تُضْرَبُ الطُّبولُ بينَ يديه ويُصارَعُ بين الرِّجال، والكُوسات تُدَقُّ حولَ سُورِ المكان الذي هو فيه، وهذه رُعونةٌ شديدةٌ وسَخافةُ عَقلٍ منه وممَّن وافقَه علىٰ ذلك، ثم احْتاج مُعزُّ الدولة إلىٰ صَرْف أموالٍ في أرزاق الأجناد، فأقْطَعهم البلادَ عِوَضًا عن أرْزاقهم، فأدَّىٰ ذلك إلىٰ تخريبها وتَرْك عمارتها، إلا الأراضيَ التي بأيْدي أصحاب الجاهات.

وفي هذه السنة وقَع غَلاءٌ شَديدٌ ببغدادَ حتىٰ أكَلوا المَيْتَةَ والكلابَ والسَّنانيرَ، وكان من الناسِ مَن يَسْرِقُ الأوْلادَ فَيَشْويهم ويأكُلُهم، وكثُر الموتُ في الناسِ حتىٰ كان لا يَدْفِنُ أحدٌ أحدًا، بل يُتْرَكون علىٰ الطُّرُقات فيأكُلُ كثيرًا منهم الكلابُ، وبِيعَت الدُّورُ والعَقارُ بالخبز، وانْتَجَع الناسُ البصرةَ، فكان منهم مَن يموتُ في الطريق، ومَن وصَل منهم مات بعدَ مُدَيْدَةٍ.

وفيها: كانت وَفاةُ القائم بأمْر الله أبي القاسم محمد بن عُبَيْدِ الله المَهْديِّ، ووليَ الأمرَ من بعده ولدُه المنصورُ إسماعيلُ، وكان حازمَ الرأيِ شَديدًا شُجاعًا كما ذكَرْنا ذلك في السنة الماضية، وكانت وَفاتُه في شوَّالٍ من هذه السنة علىٰ الصحيح.

وفيها: تُوُفِّي الإخْشيدُ محمدُ بنُ طُغْج صاحبُ الديار المصرية والبلاد الشامية، وكانت وفاتُه بدمشقَ وله من العمرِ بضعٌ وستون سنةً، وأُقيم ولدُه أبو القاسم أنوجُور - وكان صغيرًا - وأُقيم كافورٌ الإخْشيديُّ أتابكَه، فكان يُدبِّرُ المَمالكَ بالبلاد كلِّها، واستَحْوذ علىٰ الأُمور كلِّها، وسار إلىٰ مصرَ، فقصَد سيفُ الدولة بنُ حَمْدانَ دمشقَ، فأخَذها من أصحاب الإخْشيد، ففرح بها فرَحًا شديدًا، واجْتَمع بمحمد بن محمد بن نصر الفارابيِّ التُّرْكيِّ الفيلسوفِ بها، وركِب سيفُ الدولة يومًا مع الشريف العقيقي في بعض نواحي دمشق، فنظر سيفُ الدولة إلىٰ الغُوطة فأعجَبَته، وقال: يَنْبَغي أن تكونَ هذه كلُّها لديوان السُّلْطان. كأنه يُعَرِّضُ بأخْذها من مُلاَّكها، فأوْعز ذلك العَقيقيُّ إلىٰ أهل دمشقَ، فكتَبوا إلىٰ كافورٍ الإخْشيديِّ يَسْتَنْجدونه، فأقْبَل إليهم في جُيوشٍ كثيرةٍ كثيفةٍ، فأَجْلَىٰ عنهم سيفَ الدولة، وطرَده عن حَلَبَ أيضًا، واسْتَناب عليها، ثم كرَّ راجعًا فاستَناب علىٰ دمشقَ بَدْرًا الإخْشيديَّ - ويُعْرَفُ بُبدَيْر - فلما صار كافورٌ إلىٰ الدِّيار المصرية رجَع سيفُ الدولة إلىٰ حَلَبَ فأخَذها كما كانت أولاً له، ولم يَبْقَ له في دمَشقَ شيءٌ. وكافورٌ هذا هو الذي هجاه المُتَنَبِّي، ومدَحه أيضًا.

وممن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

الخِرَقيُّ صاحبُ «المختصر» المشهور في الفقه، عمرُ بنُ الحسين بن عبد الله، أبو القاسم الخِرَقيُّ[1]،

(١) ترجمته في «السير» (١٥/ ٣٦٣-٣٦٤).

صاحبُ «المُخْتصَر» في الفقه على مَذهَبِ الإمامِ أحمدَ بنِ حَنْبَلٍ، وقد شرَحه القاضي أبو يَعْلَى بنُ الفرّاء، والشيخُ مُوَفَّقُ الدِّينِ بنُ قُدامةَ المَقدسيُّ، وقد كان الخِرَقيُّ هذا من ساداتِ الفُقهاء والعُبَّاد، كثيرَ الفَضائلِ والعبادة، خرَج مِن بَغدادَ لمّا كثُر بها السَّبُّ للصحابة، وأَوْدَع كتبَه بَبغدادَ، فاحْتَرَقَت الدارُ التي هي فيها، وعُدِمَت مُصنَّفاتُه، وقصَد دمشقَ، فأقام بها حتى مات في هذه السنة، وقبرُه بباب الصغيرِ يُزارُ قريبًا مِن قُبورِ الشُّهداء.

وفي مصنَّفِه هذا «المُختصر» في كتابِ الحجِّ: ويأتي الحَجَرَ الأسْودَ ويُقبِّلُه إن كان هناك. وإنما قال ذلك لأن تَصنيفَه لهذا الكتابِ كان حالَ كَونِ الحجرِ الأسْودِ بأيدي القرامطةِ حينَ أخَذوه من مكانه في سنةِ سبعَ عشْرةَ وثلاثمائةٍ كما ذكرنا، ولم يَرُدُّوه إلا سنةَ تسعٍ وثلاثين وثلاثمائةٍ، كما سيأتي بيانُه في مَوْضعه.

قال الخَطيبُ: قال لي القاضي أبو يَعْلَى: كانتْ له مُصنَّفاتٌ كثيرةٌ وتَخْريجاتٌ على المَذْهَبِ لم تَظهَرْ؛ لأنه خرَج عن مدينةِ السلامِ لمّا ظهَر سبُّ الصَّحابة، وأوْدَع كتبَه، فاحْتَرَقَت الدارُ التي هي فيها، واحْتَرَقَت الكتبُ فيها ولم تكُنْ قد انْتَشَرَت؛ لبُعْده عن البلد.

ثم روَى الخَطيبُ مِن طَريقه، عن أبي الفَضْلِ بنِ عبدِ السَّميعِ الهاشميِّ، عن الفتحِ بنِ شخرفٍ، قال: رأيتُ أميرَ المؤمنين عليَّ ابنَ أبي طالبٍ في المَنامِ فقال لي: ما أحْسَنَ تَواضُعَ الأغنياء للفُقراء! قال: قلتُ: زِدْني يا أميرَ المؤمنين. قال: وأحْسَنُ مِن ذلك تِيهُ الفُقراءِ على الأغنياء. قال: ورفَع لي كفَّه فإذا فيها مكتوبٌ:

قد كنتَ ميْتًا فصِرْتَ حيًّا	وعن قليلٍ تَصيرُ ميْتَا
فابْنِ بدارِ البَقاءِ بيتًا	ودَعْ بدارِ الفَناءِ بيتَا

قال ابنُ بَطَّةَ: مات الخِرَقيُّ بدمشقَ سنةَ أربعٍ وثلاثين وثلاثمائةٍ، وزرْتُ قبرَه.

محمدُ بنُ عيسى أبو عبد الله ابنُ أبي موسى الفَقيهُ الحَنَفيُّ، أحدُ أئمةِ العراقيِّين في زَمانه، وولِي القَضاءَ ببغدادَ للمُتَّقي، ثم للمُستَكْفي، وكان ثقةً فاضلًا، كَبَسَت اللُّصوصُ دارَه فظَنُّوه أنه ذو مالٍ، فضرَبه بعضُهم ضَربةً أثْخَنَتْه فهرَب منهم إلى السُّطوح، فألْقَى نَفْسَه من شدةِ الفَزَعِ إلى الأرض، فمات رحمه اللهُ، وذلك في ربيعٍ الأول من هذه السنة.

محمدُ بنُ محمد بنِ أحمد بن عبد الله أبو الفَضْلِ السُّلَميُّ، الوزيرُ الفَقيهُ المُحَدِّثُ الشاعرُ، سمع الكثيرَ وجمَع وصنَّف، وكان يَصومُ الإثنين والخميسَ، ولا يَدَعُ صلاةَ الليلِ والتَّصْنيفَ، وكان يَسْأَلُ اللهَ الشَّهادةَ كثيرًا، فولِيَ الوِزارةَ للسُّلْطان، فقصَده الأجْنادُ يُطالبونه بأرزاقهم، واجْتَمَع منهم ببابِه خلْقٌ كثيرٌ، فاستَدْعَى بحَلاقٍ، فحلَق رأسَه وتَنَوَّر وتطَيَّب ولبِس كفنَه، وقام يُصلِّي، فدخَلوا عليه، فقتَلوه وهو ساجدٌ - رحمه اللهُ - في ربيعٍ الآخرِ من هذه السنة. واللهُ تعالى أعلمُ.

الإخْشيدُ محمدُ بنُ عبد الله بن طُغْج بن جُفَّ أبو بكر، المُلَقَّبُ بالإخْشيد، ومعناه ملكُ الملوك، لقَّبه بذلك الراضي؛ لأنه كانَ ملكَ فَرْغانَةَ، وكلُّ مَن ملَكَها كان يُسَمَّى الإخْشيدَ، كما أنَّ مَن ملَك أُشْرُوسَنَةَ يُسَمَّى الإفشينَ، ومَن ملَك خُوارَزْمَ يُسَمَّى خُوارَزْمَ شاه، ومن ملَك جُرْجانَ يُسَمَّى صُولَ، ومَن ملَك أَذْرَبِيجانَ يُسَمَّى إصْبَهْبَذَ، ومَن ملَك طَبَرِسْتانَ يُسَمَّى سالارَ. قاله ابنُ الجَوْزيِّ في «المنتظَم».

قال السُّهَيْليُّ: وكانت العربُ تُسَمِّي مَن ملَك الشامَ مع الجَزيرة كافراً قَيْصَرَ، ومَن ملَك الفُرْسَ يُسمَّى كِسْرَىٰ، ومَن ملَك اليمنَ يُسمَّى تُبَّعًا، ومَن ملَك الحَبَشةَ يُسَمَّى النَّجاشيَّ، ومَن ملَك الهندَ يُسَمَّى بَطْلَيْمُوسَ، ومَن ملَك مصرَ كافراً يُسَمَّى فِرْعونَ، ومَن ملَك إسْكَنْدَرِيَّةَ يُسَمَّى المُقَوْقِسَ. وذكَر غيرَ ذلك.

وكانت وفاتُه بدمشقَ، ونُقِل إلى بيت المَقْدس فدُفِن هناك، رحمه اللهُ.

أبو بكر الشِّبْليُّ، أحدُ مَشايخ الصُّوفية، اختَلَفوا في اسمه على أقوال، فقيل: دُلَفُ بنُ جَعْفر، ويُقالُ: دُلَفُ بنُ جَحْدَر. وقيل: جعفرُ بنُ يونُسَ. أصلُه من قرية يُقالُ لها: شِبْلِيَّةُ. من بلاد أُشْرُوسَنَةَ من خُراسانَ، ووُلِد بسامَرَّاءَ، وكان أبوه حاجِبَ الحُجَّاب للمُوفَّق، وكان خالُه نائبَ إسْكَنْدَرِيَّةَ، وكانت تَوْبةُ الشِّبْليِّ على يَدَيْ خير النَّسَّاج، سمعَه يَعِظُ، فوقَع كلامُه في قلبِه، فتاب من فَوْرِه، ثم صحِب الفقراءَ والمشايخَ، ثم كان بعدَ ذلك من أئمة القوم.

قال الجُنَيْدُ بنُ محمد: كان الشِّبْليُّ تاجَ هؤلاء.

وقال الخطيبُ: أخبَرَنا أبو الحسن عليُّ بنُ محمود الزُّوزَنيُّ قال: سمِعْتُ عليَّ بنَ المُثَنَّى التَّميميَّ يقولُ: دخَلْتُ على الشِّبْليِّ في داره، وهو يَهيجُ ويَقولُ:

على بُعْدِكَ لا يَصْبِـ ـرُ مَن عادتُه القُرْبُ
ولا يَقْوَى على حَجْبِـ ـكَ مَن تَيَّمَه الحُبُّ
فإن لم تَرَكَ العينُ فقد يُبْصِرُكَ القلبُ

وقد ذُكِر له أحْوالٌ وكَراماتٌ. وقد ذكَرْنا أنه ممَّن اشْتَبَه عليه أمْرُ الحَلاَّج ووافَقَه في بعضِ ما نُسِب إليه من الأقْوال من غيرِ تأمُّلٍ لما تحتَها، مما كان الحَلاَّجُ يُحاولُه من الإلْحاد والاتِّحاد.

ولما حضَرَتْه الوَفاةُ قال لخادمه: قد كان عليَّ درهمٌ من مَظْلمة، فتصدَّقْتُ عن صاحبه بأُلوف، ومع هذا ما على قَلْبي شُغْلٌ أعْظَمَ منه. ثم أمَره أن يُوَضِّئَه، فوضَّأَه وترك تَخْليلَ لحيته، فرفَع يدَه ـ وكان قد اعْتُقِل لسانُه ـ فجعَل يُخَلِّلُ لحيةَ نفسه.

وذكَره القاضي ابنُ خَلِّكانَ في «الوَفَيات»، وحكَى عنه أنه دخَل يومًا على الجُنَيْد، فوقَف بينَ يديه، وصفَّق وأنْشَد:

عَوَّدُوني الوِصالَ والوَصْلُ عَذْبُ ورَمَوني بالصَّدِّ والصَّدُّ صَعْبُ
زَعَموا حِينَ أزْمَعوا أن ذَنْبي فَرْطُ حُبِّي لهم وما ذاك ذَنْبُ
لا وحقِّ الخُضوعِ عندَ التَّلاقي ما جَزا مَن يُحبُّ إلا يُحَبُّ

ومما كان يُنشده الشِّبْليُّ من الأشعارِ الرقيقة. وقد أورده ابنُ عساكرَ في ترجمته من «تاريخه»:

أُسائلُكُم عنها فهل مِن مُخَبِّرٍ فما لي بِنُعْمَى بعدَ مُكْثَتِنا علمُ
فلو كنتُ أدري أين خَيَّم أهلُها وأيَّ بلادِ اللهِ إذ ظَعَنوا أَمُّوا
إذًا لسلَكْنا مَسْلَكَ الريحِ خلفَها ولو أصبحتْ نُعْمى ومِن دونِها النجمُ

ومِن ذلك:

أُسائلُ عن سَلْمى فهل مِن مُخَبِّرٍ بأنَّ له علمًا بها أين تَنزِلُ

ثم يقولُ: لا وعزتك، وما في الدارَين عنك مُخَبِّرٌ.

قلتُ: وفي هذا شَطْحٌ؛ فقد خبَّرت عنه تعالى الرسلُ بالحقِّ ونطَقوا بالصدقِ. وكان يقولُ: ليس لعارفٍ علامةٌ، ولا لمحبٍّ شكوىٰ، ولا لعبدٍ دعوىٰ، ولا لخائفٍ قرار، ولا مِن اللهِ فرار.

وكان الشِّبْليُّ يقولُ: العارفُ صدرُه مشروح، وقلبُه مجروح، وجسدُه مطروح، والعارفُ مَن عرَفَ الله، وعرَفَ مرادَ الله، وعمِل بما أمرَ الله، وأعرَض عمَّا نهَى الله، ودعا عبادَ اللهِ إلى اللهَ، والصوفيُّ مَن صفَّى قلبَه مِن الكدرِ فصفا، وسلكَ طريقَ المصطفىٰ، ورمَىٰ الدنيا خلفَ القفا، وأذاقَ الهوىٰ طعمَ الجَفا.

وقال أيضًا: الصوفيُّ مَن صفا مِن الكَدَر، وخلَص مِن الغِيَر، وامتلأ مِن الفِكَر، وتساوىٰ عنده الذهبُ والمَدَر.

ومما كان يُنشِده:

أظلَّت علينا منك يومًا سحابةٌ أضاءت لنا برقًا وأبطا رشاشُها
فلا غيمُها يَجْلُو فيَيْأسَ طامعٌ ولا غيثُها يأتي فيَرْوَىٰ عطاشُها

وسُئل: هل يَتحققُ العارفُ بما يبدو له مِن الآثارِ؟ فقال: كيف يَتحققُ بما لا يَثبتُ؟ وكيف يَطْمَئنُّ إلىٰ ما لا يَظْهرُ؟ وكيف يأنسُ بما يَخفَىٰ؟ فهو الظاهرُ الباطنُ. ثم أنشأ يقولُ:

فمن كان في طولِ الهوىٰ ذاق سَلوةً فإنِّيَ مِن لَيلَى لها غيرُ ذائقِ
وأكثرُ شيءٍ نِلتُه مِن وِصالِها أمانيُّ لم تَصدقْ كلَمحةِ بارقِ

وكان يقول: الدنيا خيال، وظلُّها وبال، وتَرْكُها جَمال، والإعراضُ عنها كمال، والمعرفةُ باللهِ اتصال:

لَتُحشَرَنَّ عظامي بعدَ إذ بليَتْ ... يومَ الحسابِ وفيها حبُّكمْ علقُ

وسئل الشِّبليُّ: هل يَتسلَّى الحبيبُ بشيءٍ من حبيبِه دونَ مشاهدتِه؟ فأنشد:

واللهِ لو أنكَ توَّجتَني ... بتاجِ كسرى ملكِ المشرقِ
ولو بأموالِ الورى جُدتَ لي ... أموالِ مَن بادَ ومَن قد بَقِي
وقلتَ لا نلتقِي ساعةً ... اخترتُ يا مولايَ أن نلتقِي

وكان يُنشدُ أيضًا:

إذا نحنُ أدْلجنا وأنتَ أمامَنا ... يكفي لمطايانا بذكرِكَ هاديَا

وكان يُنشدُ أيضًا:

ولو أنَّ ركبًا أمَّموكَ لقادَهم ... نسيمُكَ حتى يَستدلَّ بكَ الركبُ
إذا أبصرتْكَ العينُ من بعدِ غايةٍ ... وعارَضَ فيكَ الشكُّ أثبتَكَ القلبُ

وكان يُنشدُ أيضًا:

ليس تَخلو جوارحي منكَ وقتًا ... هيَ مشغولةٌ بحملِ هَواكَا
ليس يجري على لساني شيءٌ ... علمَ اللهُ ذا سوى ذكراكَا
وتمثَّلتَ حيثُ كنتَ بعيني ... فهْي إن غبتَ أو حضرتَ تراكَا

وكان يُنشدُ أيضًا:

عجبتُ لمن يقولُ نسيتُ إلفي ... وهل أنسَى فأذكرَ مَن هَويتُ
أموتُ إذا ذكرتكَ ثم أحيا ... ولولا ما أُؤمِّلُ ما حَييتُ
فأحيا بالمُنى وأموتُ شوقًا ... فكم أحيا عليكَ وكم أموتُ
جعلتُ الصمتَ سترَ الحبِّ حتى ... تكلَّمت الجفونُ بما لقيتُ
شربتُ الحبَّ كأسًا بعد كأسٍ ... فما نفدَ الشرابُ وما رَويتُ

وقال أيضًا: التصوُّفُ ترويح القلبِ بمرواحِ الصفاء، وتجليلُ الخواطرِ بأرديةِ الوفاءِ، والتخلُّقُ بالسَّخاءِ، والبِشْرُ في اللقاء.

ونظر يومًا إلى جماعة من المتصوفة فأنشأ:

أما الخيامُ فإنها كخيامِهم ... وأرَى نساءَ الحيِّ غيرَ نسائِها

وقال أيضًا: إذا أردتَ أن تنظرَ إلى الدنيا بحذافيرها، فانظرْ إلى المزبلة، وإذا أردتَ أن تَنْظُرَ إلى نفسك فخُذْ كفًّا من تراب؛ فإنك منها خُلقتَ، وفيها تعودُ، ومنها تُخرَجُ، وإذا أردتَ أن تعرفَ ما أنت، فانظرْ إلى ما يَخْرُجُ منك عند الخلاءِ، فلا تَتَطاوَلْ ولا تَتَكَبَّرْ على مَن هو مثلُك.

وكان يُنشدُ:

وتَسحبني حيًّا وإني لَميِّتٌ ... وبعضي مِن الهجران يَبكي على بعضِ

وأنشدَ أيضًا:

وكذَّبتُ طَرْفي فيك والطَّرْفُ صادقٌ ... وأسمعتُ أُذْني فيك ما ليس تَسمعُ

ولم أسْكُنِ الأرضَ التي تَسْكُنونها ... لكي لا يقولوا إنني بك مولعُ

فلا كبدي تَهْدا ولا فيك رحمةٌ ... ولا عنك إقصارٌ ولا فيك مطمعُ

وأنشد أيضًا:

فيا ساقيَ القومِ لا تنسَني ... ويا ربَّةَ الخِدْرِ غَنِّي رَمَلْ

خليليَّ إن دام هذا الصدودُ ... على ما أراه سريعًا قَتَلْ

وقد كان شيئًا يُسمَّى السرورَ ... قديمًا سمعنا به ما فعلْ

وسُئل الشِّبْليُّ عن الرجلِ يسمعُ الشيءَ فلا يَفهمُه، ويتواجدُ مع ذلك، فأنشأ يقولُ:

رُبَّ ورقاءَ هَتُوف بالضُّحَى ... ذات شَجْوٍ صَدَحتْ في فَنَنِ

ذكَرتْ إلفًا ودهرًا صالحًا ... فبكَت حُزنًا فهاجتْ حَزَني

فبكائي ربَّما أرَّقَها ... وبكاها ربَّما أرَّقَني

ولقد أشكو فما أُفهِمُها ... ولقد تشكو فما تُفهِمُني

غيرَ أنّي بالجَوَى أعرِفُها ... وهْي أيضًا بالجوى تعرِفُني

ووُجد في كلامِ الشِّبْليِّ: ما ظنُّك بمعانٍ هي شموسٌ كلُّها؛ بل الشموسُ فيها ظلمةٌ.

وقال أيضًا: الوَجْدُ اصطلامٌ. ثم أنشأ يقولُ:

الوجدُ عني جحودٌ ... ما لم يكنْ عن شهودِ

وشاهدُ الحقِّ عندي ... يُفْني شهودَ الوجودِ

وكان يُنشدُ:

الكلُّ مني بلائي ... وراحتي في فَنائي

وسمع القوَّالَ يومًا، فتواجد كثيرًا والمشايخُ سكوتٌ لم يتواجدْ منهم أحدٌ، فعاتبه بعضُ المشايخ في ذلك، فأنشأ يقولُ:

لو يَسْمَعون كما سمعتُ حديثَها ... خرُّوا لِعَزَّةَ رُكَّعًا وسجودًا

وأنشأ يقولُ:

لي سكرتان وللنَّدْمانِ واحدةٌ ... شيءٌ خُصِصْتُ به مِن بينِهم وَحْدي

وكان يقولُ:

وكنتُ إذا ما جئتُ جئتُ لعلَّة ... فأفنيتُ علاَّتي فكيف أقولُ

إذا لم يكنْ بيني وبينَك مُرسَلٌ ... فريحُ الصَّبا منِّي إليك رسولُ

ومنه أيضًا:

وكم كَذْبةٍ لي فيك لا أستقيلها ... أقولُ لمَن ألقاه إنيَ صالحُ

فأيُّ صلاحٍ لي وجسميَ ناحلٌ ... وقلبي مَشْغوفٌ ودمعيَ سافحُ

وأنشَد يومًا، وجلَس عنده شابٌّ أمردُ، وعليه ثيابٌ حسانٌ، فطرَده من عنده، ثم قال:

طَرَحُوا اللَّحْمَ للبُزاة ... على ذِرْوَتَيْ عَدَنْ

ثم لامُوا البزاةَ كم ... طَوَّلوا فيهمُ الرَّسَنْ

لو أرادوا صلاحَنا ... سَتَرُوا وجهَهُ الحَسَنْ

وقد روَى ابنُ عساكرَ عن أبي عليِّ بنِ مُقلةَ الكاتبِ أنه أنشَد له في معنىٰ هذا بيتين أخطأ فيهما:

يا ربِّ تَخلُقُ أقمارَ ليلٍ ... وأغصانَ بانٍ وكُثبانَ رملِ

وتبدعُ في كلِّ طَرْفٍ بسحرٍ ... وفي كلِّ قَدٍّ رشيقٍ بكلِّ

وتَنهَى عبادَك أن يَعْشَقُوا ... أيا حَكَمَ العدلِ احْكُمْ بعَدلِ

قلتُ: نعم، إن اللهَ إنما يَنْهَىٰ عن الفحشاءِ، وهو الحَكَمُ بالعدلِ في كلِّ ما أمَر به وكلِّ ما يَنْهَىٰ عنه.

وللشِّبليِّ:

فيومًا ترانا في الخُزُوزِ نَجُرُّها ... ويومًا ترانا في الحديدِ عوابسا

ويومًا ترانا للثَّريدِ نَبُسُّه ... ويومًا ترانا نأكُلُ الخبزَ يابسا

وسافَر الشِّبْليُّ مرةً إلىٰ البصرةِ، فلما عاد إلىٰ بغدادَ سمع جاريةً للخليفةِ المُقْتَدِرِ تُغنِّيه وهو في التاجِ من دارِ الخلافةِ:

أيا قادمًا من سفرةِ الهجرِ مرحبًا ... أيا ذاك لا أنساك ما هبَّت الصَّبا

قدِمْتَ علىٰ قلبي كما قد تركتَه ... كئيبًا حزينًا بالصبابةِ مُتْعَبا

فصاح الشِّبْليُّ صَيْحةً، وخرَّ مَغْشيًّا عليه في دِجْلةَ، فتداركه الناسُ، فأخرجوه، وأمَر الخليفةُ بإحْضاره، فقال: أنت مَجْنونٌ. قال: لا، ولكني قدِمْتُ من سفرٍ، فسمِعْتُ هذه تُغَنِّيك بهذين البيتَين، فحصَل لي ما حصَل. فبكَىٰ الخليفةُ.

وكان الشِّبْليُّ يُنْشِدُ، وسمِعْتُه كثيرًا من شيخِنا العلَّامةِ أبي العباسِ ابنِ تيْميةَ، رحِمه اللهُ، يُنْشِدُ:

عوَى الذئبُ فاستأنستُ للذئبِ إذ عوَى ... وصوَّتَ إنسانٌ فكِدْتُ أطيرُ

وله أيضًا:

الناسُ بالعيد قد سُرُّوا وقد فرحوا ... وما سُررتُ به والواحد الصمد
لما تيقَّنتُ أني لا أعاينكمْ ... غمَّضتُ عيني فلا أنظرْ إلى أحدَ

وقيل له: إن فلانًا مات فُجَاءةً. فأنشأ يقولُ:

قضى اللهُ في القتلَى قصاصَ دمائهم ... ولكنْ دماءُ العاشقين جُبارُ

وله أيضًا:

جُنّنا على ليلى وجُنَّتْ بغيرنا ... وأخرى بنا مجنونةٌ ما نُريدُها

وله أيضًا:

يا راحتي وعذابي من عذابي ... أنت ما بي فكيف أكتُمُ ما بي

وله أيضًا:

فلو قلتَ طَأ في النار بادرْتُ نحوَها ... سُرورًا لأني قد خطرْتُ ببالكا

ولما مرض الشِّبْليُّ بعَث إليه المُقْتَدرُ طبيبًا نصرانيًّا، فقال له الطبيبُ: فلو علمْتُ أن قطعَ بعضِ جسَدي يَشْفيك لقطعْتُه. فقال له: يَشْفيني قطعُ ما هو أيسرُ عليك من ذلك. فقال: وما هو؟ قال: قطعُ زُنّارِك. فقطعَه وأسْلَم، فبلَغ ذلك الخليفةَ فقال: بعثْنا طبيبًا إلى عليلٍ، فإذا هو عليلٌ إلى طبيبٍ.

قالوا: ولما احتُضر جعل من عندَه يقولون: قل: لا إله إلا اللهُ. فقال:

إن بيتًا أنت ساكنُه ... غيرُ مُحتاجٍ إلى السُّرُجِ
وجهُك المأمولُ حُجَّتُنا ... يومَ يأتي الناسُ بالحُججِ

وقد ذكَر ابنُ عَساكرَ أنه كان يقولُ: أخشَى أن أموتَ بينَ النَّفْي والإثْبات؛ لا إله إلا اللهُ، وإنما كان ذكرُه: اللهْ اللهْ، ويَحْتَجُّ بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩١].

وفيما نحاه نَظَرٌ، فقد قال اللهُ تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] وقال النبيُّ ﷺ: «أفضَلُ ما قلتُ أنا والنَّبيُّون قبْلي: لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له»[1].

(١) في طرقه ضعف: أخرجه الترمذي (٣٥٨٥) من طريق حماد ابن أبي حميد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعًا «خير الدعاء دعاء يوم عرفة وخير ما قلت أنا والنبيون قبلي. . . .» الحديث وزاد «وهو على كل شيء قدير» ثم قال الترمذي: غريب من هذا الوجه وحماد ابن أبي حميد هو محمد ابن أبي حميد وهو أبو إبراهيم الأنصاري المدني وليس بالقوي في الحديث وقال ابن عبد البر في «التمهيد» (٦/ ٣٦) وليس فيما دون عمرو من يحتج به فيه وله شاهد عن علي رضي الله عنه. قال ابن عبد البر: يدور على دينار أبو عمرو عن ابن الحنفية وليس دينار ممن يحتج به وله شاهد عن طلحة ابن عبيد الله بن كريز عن رسول الله ﷺ مرسلاً أخرجه مالك هكذا. قال=

ذُكر عنه أنه قال: رأيتُ مَجْنونًا على بابِ جامعِ الرُّصافةِ يومَ جمعةٍ وهو عُرْيانٌ، وهو يَقولُ: أنا مَجْنونُ اللهِ، أنا مَجنونُ اللهِ. فقلتُ: ألا تَستَتِرُ وتَدْخُلُ مع الناسِ فتُصلِّيَ، فأنشأ يقولُ:

يَقُولُونَ زُرْنا واقْضِ واجبَ حقِّنا ... وقد أسْقَطَتْ حالي حُقوقَهمُ عني
إذا أبصَروا حالي ولم يَأنَفوا لها ... ولم يَأنَفوا منها أنِفتُ لهم مني

وذكَر الخَطيبُ في «تاريخه» عنه أنه أنشَد لنَفْسه:

مضَتِ الشَّبيبةُ والحَبيبةُ فانبَرَى ... دَمْعانِ في الأجفانِ يَزْدَحِمانِ
ما أنْصَفَتْني الحادثاتُ رَمَيْنَني ... بمُوَدِّعَيْنِ وليس لي قَلْبانِ

وكانت وفاتُه، رحمهُ اللهُ، ليلةَ الجمعةِ لليلتَيْن بقِيَتا من هذه السنةِ، وله سبعٌ وثمانون سنةً، ودُفِن في مقْبَرةِ الخَيْزُرانِ ببَغْدادَ. واللهُ أعلمُ.

ثم دخلت سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة

في هذه السنةِ استَقَرَّ أمرُ الخَليفةِ المُطيعِ للهِ في دارِ الخلافةِ، واصْطَلَح مُعِزُّ الدولةِ بنُ بُوَيْه وناصرُ الدولةِ بنُ حَمْدانَ على ذلك، ثم حارَب ناصرُ الدولةِ تَكِينَ التُّرْكيَّ، فاقْتَتَلا مراتٍ مُتَعَدِّدةً، ثم ظفِر ناصرُ الدولةِ بتَكِينَ، فسَمَلَه بينَ يديه، واستَقَرَّ أمرُه بالموصلِ والجَزيرةِ.

وفيها: استَحْوَذ رُكْنُ الدولةِ بنُ بُوَيْه على الريِّ وانتَزَعها من الخُراسانيةِ، فاتَّسَعَتْ مَمْلكةُ بني بُوَيْه؛ فإنه صار بأيديهم أعمالُ الريِّ والجَبَلِ وأصْبَهانَ وفارسَ والأهْوازِ والعراقِ، ويُحْمَلُ إليهم ضَمانُ المَوْصِلِ وديارِ مُضَرَ ورَبيعةَ من الجَزيرةِ.

ثم اقْتَتَل جيشُ مُعِزِّ الدولةِ وجيشُ أبي القاسمِ ابنِ البَريديِّ، فهُزِم أصحابُ البريديِّ، وأُسِر من أعيانِهم جماعةٌ كثيرةٌ.

وفيها: وقَع الفِداءُ بينَ الرومِ والمسلمين على يدِ نصرٍ الثَّمليِّ أميرِ الثُّغورِ لسيفِ الدولةِ بنِ حَمْدانَ، فكان عِدَّةُ الأُسارَى نحوًا من ألفين وخمسمائةِ مسلمٍ. وللهِ الحمدُ والمِنَّةُ.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعيانِ:

الحسنُ بنُ حَمُّوَيْه بنِ الحسينِ، القاضي الإسْتِراباذيُّ، روى الكثيرَ وحدَّث، وكان له مَجْلسٌ

= ابن عبد البر: لا خلاف عن مالك في إرسال هذا الحديث كما رأيت، ولا أحفظه بهذا الإسناد مسند من وجه يحتج بمثله . . . ثم ذكر حديث علي وعبد الله بن عمر وتكلم فيهما ثم ذكر غيرها ثم قال: ومرسل مالك أثبت من تلك المسانيد كلها وقال البيهقي في «الكبرى» (٥/ ١١٧) عن حديث مالك المرسل: قد روي عن مالك بإسناد آخر موصولاً ووصله ضعيف وله شاهد من حديث جابر مرفوعًا بلفظ «أفضل الذكر لا إله إلا الله وخير الدعاء يوم عرفة» أخرجه ابن حبان (٨٤٦) وبعض أصحاب السنن بإسناد حسن وفيه موسى بن إبراهيم الأنصاري وهو حسن الحديث ـ على الراجح ـ.

للإملاء، وحكَم ببلده مدةً طويلةً، وكان من المُتهجِّدين بالأسحار، ويُضرَبُ به المَثَلُ في مُروءته ووَجاهته، وقد مات فَجأةً على صدرِ جاريته عندَ إنْزاله، رَحِمه اللهُ.

عبدُ الرحمن بنُ أحمدَ بن عبد الله أبو عبدِ الله الخُتَّليُّ، سمع ابنَ أبي الدنيا وغيرَه، وحدَّث عنه الدارَقُطنيُّ وخَلْقٌ، وكان ثقةً ثَبْتًا حافظًا، حدَّثَ من حفظه بخمسين ألفَ حديثٍ.

عبدُ السلام بنُ رَغْبانَ بن عبد السلام بن حبيب بن عبد الله بن رَغْبانَ بن زيد بن تميم أبو محمد الكلبيُّ، المُلَقَّبُ بديك الجنِّ، الشاعرُ الماجنُ الشِّيعيُّ، ويُقالُ إنه من موالي بني تَميم. وكانت له أشْعارٌ قويةٌ خُماريةٌ وغيرُ خُماريّةٍ، وقد استَجاد أبو نُوَاسٍ من شعره في الخُمارِيّات.

عليُّ بنُ عيسى بن داودَ بن الجرَّاح، أبو الحسن الوزيرُ، وزَر للمُقْتَدرِ والقاهرِ، وُلِد سنةَ خمسٍ وأربَعين ومائتين، وسمع الكثيرَ، وعنه الطَّبَرانيُّ وغيرُه، وكان ثقةً ثَبْتًا فاضلاً عفيفًا، كثيرَ التِّلاوةِ والصَّلاةِ والصِّيام، يُحِبُّ أهلَ العلم ويُكْثِرُ مُجالَستَهم، وكان أصْلُه من الفُرْسِ، وكان من أكبرِ القائمين على الحَلاَّجِ.

وقد رُوِي عنه أنه قال: مَلَكْتُ سبعَمائة ألفِ دينارٍ، أنْفَقْتُ منها في وُجوهِ الخيرِ ستَّمائة ألفٍ وثمانين ألفًا.

ولَمَّا دخَل مكةَ حينَ نُفِي من بَغْدادَ طاف بالبيت وبالصَّفا والمَرْوة، وكان حَرٌّ شديدٌ، فجاء المنزلَ، فألْقَى نفْسَه كالمَيِّت وقال: أشْتَهي على الله شَرْبةً بثَلْجٍ. فقال له بعضُ أصحابه: إنَّ هذا ممَّا لا يَتَهَيَّأُ ههنا. فقال: أعْرِفُ، ولكنِّي استَرْوَحْتُ إلى المُنَى. فلما كان في أثناء النهار جاءَت سحابةٌ فأمْطَرَتْ، ثُم سقَط بَرَدٌ شديدٌ كثيرٌ، فجمَع له صاحبُه ذاك من البَرَد شيئًا كثيرًا وخبَّأه له، وكان الوزيرُ صائمًا، فلما أمْسَى جاء المسجدَ، فأقْبَل إليه صاحبُه بأنواعٍ من الأشْربة كلُّها بثَلْجٍ، فجعَل يَسْقيه مَن حوله من الصُّوفية والمُجاورين، ولم يَشْرَبْ هو شيئًا من ذلك، فلمَّا رجَع إلى المَنْزل، جِئْتُه بشيءٍ من ذلك الشَّراب كنا قد خبَّأناه له، وأقْسَمْتُ عليه ليَشْرَبَنَّه، فشربه بعدَ جَهْدٍ، وقال: كنتُ أشْتَهي لو كنتُ تَمَنَّيْتُ المَغْفرةَ. رحمه اللهُ وغفَر له.

ومن شعرِ الوزيرِ أبي الحسنِ عليِّ بن عيسى قولُه:

فمَن كان عني سائلاً بشَماتةٍ ... لمَا نابَني أو شامتًا غيرَ سائلِ
فقد أبْرَزَت مني الخُطوبُ ابنَ حرَّةٍ ... صَبورًا على أهْوال تلك الزَّلازلِ

وقد روَى أبو القاسم عليُّ بنُ المُحسِّن التَّنُوخيُّ، عن أبيه، عن جَماعةٍ، أن عَطَّارًا من أهلِ الكَرْخِ كان مَشْهورًا بالسُّنَّة، ركبه ستُّمائة دينارٍ دَيْنًا، فغَلَّق دُكَّانَه، وانكسَر عن كَسْبه، ولَزِم منزلَه، وأقْبَل على الدعاء والتضرُّع والصلاة لياليَ كثيرةً، فلما كان في بعض تلك الليالي رأى رسولَ الله ﷺ في المَنام وهو يَقولُ له: اقْصِدْ عليَّ بنَ عيسى الوزيرَ، فقد أمَرْتُه لك بأربعمائة دينارٍ. فلما أصبَح الرجلُ

قصَد بابَ الوزيرِ، فلم يَعْرِفْه أحدٌ، فجلَس لعل أحدًا يستأذِنُ له عليه حتى طال عليه المَجْلِسُ، وهمَّ بالانصراف، ثُم إنه قال لبعضِ الحَجَبَة: قُلْ للوَزيرِ: إني رجلٌ رأيتُ رسولَ الله ﷺ في المَنام، وأنا أُريدُ أن أقُصَّه على الوزير. فقال له الحاجبُ: وأنت الرائي؟ إن الوزيرَ قد أنفَذ في طَلَبِك رُسُلاً مُتَعدِّدةً. ثم دخَل، فما كان بأسْرَعَ من أن أدْخَلَني عليه. فأقْبَل عليه الوَزيرُ يَسْتَعْلِمُ عن اسمِه وصفتِه ومَنْزِله، فذكَر ذلك له، فقال له الوزيرُ، إني رأيتُ رسولَ الله ﷺ وهو يأمُرُني بإعطائك أربعَمائة دينارٍ، فأصْبَحْتُ لا أدْرِي مَن أَسْأَلُ عنك، وقد أرْسَلْتُ في طَلَبِك إلى الآن عِدَّةً من الرُّسُلِ، فجَزاك اللهُ خيرًا في قَصْدِك إيايَ. ثم أمَر بإحضارِ ألفِ دينارٍ، فقال: هذه أربعُمائة دينارٍ لأمْرِ رسولِ الله ﷺ، وستُّمائة هِبَةً من عندي. فقال الرجلُ: لا واللهِ، لا أَزِيدُ على ما أمَرَني به رسولُ الله ﷺ، فإني أرْجُو الخيرَ والبركةَ فيه. ثم أخَذ منها أربعَمائة دينارٍ، فقال الوزيرُ: هذا هو الصدقُ واليقينُ. فخرَج الرجلُ، فعرَض على أربابِ الدُّيونِ أمْوالَهم فقالوا: نحن نَصْبِرُ عليك ثلاثَ سنين، وافْتَحْ بهذا الذَّهَبِ دُكّانَك، ودُمْ على كَسْبِك. فأبَى إلاَّ أن يُعْطِيَهم من أموالِهم الثُّلُثَ، فدفَع إليهم مائتَيْ دينارٍ، وفتَح الدُّكّانَ بالمائتين الأخرى، فما حال الحَوْلُ حتى كَسَب ألفَ دينارٍ.

ولعليِّ بنِ عيسى أخبارٌ كثيرةٌ صالحةٌ. وكانت وَفاتُه في هذه السنةِ عن تسعين سنةً. ويقالُ: في التي قبلَها. واللهُ أعلمُ.

محمدُ بنُ إسماعيلَ بنِ إسْحاقَ بنِ بَحْرٍ أبو عبد الله الفارسيُّ، الفَقيهُ الشافعيُّ، كان ثِقةً ثَبْتًا فاضلاً، سمع أبا زُرْعَةَ الدمشقيَّ وغيرَه، وعنه الدارَقُطْنيُّ وغَيرُه، وآخِرُ مَن حدَّث عنه أبو عمرَ بن مَهْديٍّ. وكانت وفاتُه في شَوّالٍ من هذه السنة.

هارونُ بنُ محمد بن هارونَ بن عليِّ بنِ موسى بن عَمْرِو بنِ جابرِ بنِ يَزيدَ بن جابرِ بن عامرِ بن أَسِيد ابنِ تَيْمِ بن صُبْحِ بن ذُهْلِ بن مالكِ بن بكرِ بنِ سعدِ بنِ ضَبَّةَ أبو جعفرٍ، والدُ القاضي أبي عبدِ الله الحُسينِ ابنِ هارونَ.

كان أسْلافُه مُلوكَ عُمانَ في قَديمِ الزمانِ، ويزيدُ بنُ جابرٍ أدْرَكَه الإسلامُ، فأسْلم وحسُن إسلامُه. وكان هارونُ هذا أولَ مَن انتقَل من أهلِه من عُمَانَ، فنزَل بَغْدادَ، وحدَّث بها، وروَى عنه ابنُه، وكان فاضلاً مُتَضَلِّعًا من كلِّ فنٍّ، وكانت دارُه مَجْمَعَ العلماءِ في سائرِ الفنونِ، ونَفَقاتُه دارَّةً عليهم، وكانت له مَنْزِلةٌ عاليةٌ، ومَهابةٌ وافرةٌ ببغدادَ، وقد أثْنَى عليه الدارَقُطْنيُّ ثَناءً كثيرًا، وقال: كان مُبَرِّزًا في النَّحْوِ واللغةِ والشعرِ ومعاني القرآنِ والكَلامِ.

قال ابنُ الأثيرِ: وفيها تُوُفِّي أبو بكرٍ محمدُ بنُ يحيى بنِ عبدِ اللهِ بنِ العباسِ بنِ صُولٍ الصُّوليُّ، وكان عالمًا بفُنونِ الآدابِ والأخْبارِ. وإنما ذكَره ابنُ الجَوْزيِّ في التي بعدَها، كما سيأتي.

أبو العباسِ ابنُ القاصِّ أحمدُ ابنُ أبي أحمدَ الطَّبَريُّ، الفَقيهُ الشافعيُّ، تلْميذُ ابنِ سُرَيْجٍ، له كتابُ «التَّلْخيصِ»، وكتابُ «المِفْتاحِ»، وهو مُخْتَصَرٌ شرَحه أبو عبدِ الله الخَتَنُ، وأبو عليٍّ السِّنْجِيُّ أيضًا،

وكان أبوه يَقُصُّ على الناسِ الأخبارَ والآثارَ، وأمَّا هو فتولَّى قضاءَ طَرَسوسَ، وكان يَعظُ الناسَ أيضًا فحصَل له خُشوعٌ، فسقَط مَغشيًّا عليه، فمات في سنةِ خمسٍ وثلاثين وثلاثمائةٍ. وقيل: سنةَ ستٍّ وثلاثين. فاللهُ تعالى أعلمُ.

ثم دخلت سنة ست وثلاثين وثلاثمائة

فيها: خرَج مُعِزُّ الدولةِ والمطيعُ للهِ مِن بغدادَ إلى البَصْرةِ، فاستنقذاها مِن يدِ أبي القاسمِ ابنِ البَريديِّ، وهرَب هو وأكثرُ أصحابِه، واستَولَى مُعِزُّ الدولةِ على البَصْرةِ، وبعَث يتَهدَّدُ القَرامطةَ، ويتَوعَّدُهم بأخذِ بلادِهم، وزاد في أقطاعِ الخليفةِ ضِياعًا تَعْمَلُ في السنةِ مائتَيْ ألفِ دينارٍ، ثُم سار مُعِزُّ الدولةِ لتلَقِّي أخيه عمادِ الدولةِ بالأهوازِ، فقبَّل الأرضَ بينَ يدي أخيه، وقام ماثلًا أيضًا، ويأمُرُه بالجُلوسِ فلا يَفْعَلُ. ثم عاد إلى بغدادَ، ورجَع الخليفةُ إليها أيضًا وقد تَمهَّدَتْ أُمورٌ جيدةٌ.

وفي هذه السنةِ استَحْوَذ رُكْنُ الدولةِ على بلادِ طَبَرِسْتانَ وجُرْجانَ وانتَزَعَها مِن يدِ وُشْمَكيرَ أخي مَرْداويجَ ملكِ الدَّيْلَمِ، فذهَب وُشْمَكيرُ إلى خُراسانَ يَستَنْجِدُ بصاحبِها.

وممَّن تُوفِّي فيها مِن الأعيانِ:

أبو الحسينِ ابنُ المُنادي، أحمدُ بنُ جعفرِ بنِ محمدِ بنِ عُبَيدِ اللهِ بنِ يَزيدَ، سمِع جدَّه وعباسًا الدُّوريَّ ومحمدَ بنَ إسحاقَ الصاغانيَّ. وكان ثقةً أمينًا حُجَّةً صادقًا، صنَّف كثيرًا، وجمَع عُلومًا جمَّةً، ولم يَسْمَعِ الناسُ منها إلا اليسيرَ، وذلك لشَراسةِ أخلاقِه، وآخرُ مَن روَى عنه محمدُ بنُ فارسٍ الغُوريُّ.

ونقَل ابنُ الجوزيِّ، عن أبي يوسُفَ القَزْوينيِّ أنه قال: صنَّف أبو الحسينِ ابنُ المُنادي في عُلومِ القرآنِ أربعَمائةِ كتابٍ ونَيِّفًا وأربعين كتابًا، ولا يُوجَدُ في كلامِه حَشْوٌ، بل هو نَقيُّ الكلامِ، جمَع بينَ الرِّوايةِ والدِّرايةِ.

وقال ابنُ الجوزيِّ: ومَن وقَف على مُصنَّفاتِه علِم فَضْلَه واطِّلاعَه، ووقَف على فَوائدَ لا تُوجدُ في غيرِ كُتُبِه. كانت وفاتُه في مُحَرَّمِ هذه السنةِ عن ثمانين سنةً.

الصُّوليُّ محمدُ بنُ يحيى بنِ عبدِ اللهِ بنِ العباسِ بنِ محمدِ بنِ صُولٍ أبو بكرٍ الصُّوليُّ، كان أحدَ العلماءِ بفنونِ الأدبِ، حَسَنَ المَعْرِفةِ بأخبارِ المُلوكِ وأيامِ الخُلَفاءِ ومآثرِ الأشرافِ وطَبَقاتِ الشعراءِ. روَى عن أبي داودَ السِّجِسْتانيِّ والمُبَرِّدِ وثَعْلَبٍ وأبي العَيْناءِ وغيرِهم، وكان واسعَ الرِّوايةِ، جيدَ الحِفْظِ، حاذِقًا بتَصْنيفِ الكتبِ. وله كتبٌ كثيرةٌ هائلةٌ، ونادَم جماعةً مِن الخُلَفاءِ، وحظِي عندَهم. وكان جدُّه صُولٌ وأهلُه مُلوكًا بجُرْجانَ، ثم كان أولادُه مِن أكابرِ الكُتَّابِ. وكان الصُّوليُّ هذا جيدَ الاعتقادِ، حسنَ الطَّريقةِ، وله شعرٌ حسنٌ، وقد روَى عنه الدَّارَقُطْنيُّ وغيرُه مِن الحُفَّاظِ.

ومِن شعرِه قولُه:

أحببتُ من أجله مَن كان يُشبهُهُ ... وكلُّ شيءٍ من المَعشوقِ مَعشوقُ
حتى حكيْتُ بجسمي ما بمُقْلَتِه ... كأنَّ سُقْمِيَ من عينَيْه مَسْروقُ

خرَج الصُّوليُّ من بغدادَ إلى البَصْرةِ لحاجةٍ لَحِقَتْه، فمات بها في هذه السنة.

وفيها كانت وفاةُ ابنة الشيخِ أبي الحسنِ الزاهد المكيِّ، وكانت من العابدات الناسكات المقيمات بمكةَ، وإنما كانت تقْتاتُ من كَسْبِ أبيها، مما كان يَكْتَسِبُه من عملِ الخُوصِ في كلِّ سنةٍ بثلاثين درهمًا يُرْسِلُها إليها، فاتَّفَق أن أرْسَلَها مرةً مع بعضِ أصحابه، فزاد عليها ذلك الرجلُ عشْرين درهمًا. يُريدُ بذلك برَّها وزيادةً في نفقتِها. فلما اخْتَبَرَتْها قالت: هل وضَعْتَ على هذه شيئًا؟ اصْدُقْني بحقِّ الذي حَجَجْتَ له. فقال: نعم. فقالت: ارْجِعْ بها فلا حاجةَ لي فيها، ولولا أنَّك قصَدْتَ الخيرَ لَدَعَوْتُ عليك؛ فإنَّك أجَعْتَني عامي هذا، ولم يَبْقَ لي رِزْقٌ إلا من المَزابلِ إلى قابلٍ. فقلتُ: ألا تأْخُذي منها الثلاثين درهمًا. فقالت: إنها قد اخْتَلَطَتْ بمالك، ولا أدْري ما هو. قال الرجلُ: فرجَعْتُ بها إلى أبيها، فأبَى أن يَقْبَلَها، وقال: شَقَقْتَ يا هذا عليَّ، وضيَّقْتَ عليها، ولكن اذْهَبْ فتصَدَّقْ بها.

ثم دخلت سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة

فيها: ركب مُعزُّ الدولة من بغدادَ إلى الموصلِ، فانهَزَم منه ناصرُ الدولة إلى نَصيبِينَ، فتملَّك مُعزُّ الدولة بنُ بُوَيْهِ المَوْصِلَ في رمضانَ من هذه السنة، فعسَف أهلَها، وأخَذ أموالَهم، وكثُر الدعاءُ عليه، ثم عزَم على أخذِ البلادِ كلِّها من يدِ ناصرِ الدولة بنِ حَمْدانَ، فجاءه خبرٌ من أخيه رُكْنِ الدولة يَسْتَنْجِدُه على مَن قِبَلَه من الخُراسانية، فاحْتاج إلى مُصالحةِ ناصرِ الدولة على أن يَحْمِلَ عمَّا تحتَ يدِه من بلادِ الجزيرةِ والشامِ في كلِّ سنةٍ ثمانيةَ آلافِ ألفِ درهمٍ، وأن يُخْطَبَ له ولأخويه عمادِ الدولة ورُكْنِ الدولة على منابرِ بلادِه كلِّها، ففعَل وعاد مُعزُّ الدولة إلى بغدادَ، وبعَث إلى أخيه بجيشٍ هائلٍ، وأخَذ له عهدَ الخليفة بولاية خراسانَ.

وفيها: دخَل سيفُ الدولة بنُ حَمْدانَ صاحبُ حَلَبَ إلى بلادِ الرومِ، فلقيه جَمْعٌ كثيفٌ من الرومِ، فاقْتَتَلوا قتالاً شديدًا، فانْهَزَم سيفُ الدولة، وأخَذَت الرومُ مَرْعَشَ، وأوْقَعوا بأهلِ طَرَسُوسَ بأسًا شديدًا، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قال ابنُ الجَوْزيِّ: وفي رمضانَ انْتَهَت زيادةُ دِجْلةَ إلى إحدى وعشرين ذراعًا وثُلُثٍ، فغَرِقت الضِّياعُ والدورُ التي عليها، وأشرَف الجانبُ الشرقيُّ على الغرقِ، وهَمَّ الناسُ بالهربِ منه.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

عبدُ الله بنُ محمدِ بنِ حَمْدَوَيْهِ بنِ نُعَيْمِ بنِ الحَكَمِ، أبو محمدٍ البَيِّعُ(١)، وهو والدُ الحاكمِ أبي

---

(١) ترجمته في «المنتظم» (١٤/ ٧٣).

عبد الله النَّيسابوريّ، أذَّن ثلاثًا وثلاثين سنةً، وغزا اثنتَيْن وعشرين غَزْوةً، وأنفق على العُلماء مائةَ ألف، وكان يَقومُ الليلَ، كثيرَ الصَّدَقة، أدْرَك عبدَ الله بنَ أحمدَ ومسلمَ بنَ الحَجَّاج، وروى عن ابنِ خُزَيْمةَ وغيره، وتُوُفِّي عن ثلاثٍ وتسعين سنةً.

قُدامةُ الكاتبُ المشهورُ، هو قُدامةُ بنُ جعفرِ بنِ قُدامةَ، أبو الفرج الكاتبُ، له مُصنَّفٌ في الخَراجِ وصناعةِ الكتابةِ، وبه يَقْتَدي علماءُ هذا الشأن، وقد سأل ثعلبًا عن أشياءَ.

محمدُ بنُ عليِّ بنِ عمرَ، أبو عليٍّ، المُذَكِّرُ الواعظُ بنَيسابورَ، كان كثيرَ التَّدْليسِ عن المَشايخِ الذين لم يَلْقَهم. تُوُفِّي في هذه السنة عن مائةٍ وسبعِ سنين، سامَحه اللهُ.

محمدُ بنُ مُطَهَّر بن عبد الله، أبو النَّجاء، الفَقيهُ الفَرَضيُّ الضَّريرُ المالكيُّ، له كتابٌ في الفقه على مذهبِ مالكٍ، وله مُصَنَّفاتٌ في الفرائضِ قَليلةُ النَّظيرِ، وكان أديبًا فَهِمًا فاضلاً صادقًا، رحمه اللهُ.

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة

في ربيعٍ الأول منها وقَعَت فتنةٌ بينَ الشِّيعة وأهلِ السُّنَّة، ونُهِبَت الكَرْخُ.

وفي جُمادىٰ الآخرة تقلَّد القاضي أبو السائب عُتْبةُ بنُ عُبَيد الله الهَمْدانيُّ قَضاءَ القُضاة.

وفيها: خرَج رجلٌ يُقالُ له: عِمْرانُ بنُ شاهينَ. كان قد استَوْجَب بعضَ العُقوباتِ، فهرَب مِن السلطانِ إلى ناحيةِ البَطائح، فكان يَقْتاتُ مما يَصيدُه من السمكِ والطُّيورِ، والتَفَّ عليه خَلْقٌ من الصَّيَّادين وقُطَّاعِ الطريقِ، فقويَت شَوْكتُه، واستَعْمَله أبو القاسم ابنُ البَريديِّ على جِبايةِ بعضِ تلك النَّواحي، وأرسَل إليه مُعِزُّ الدولةِ بنُ بُوَيْه جيشًا مع وزيره أبي جعفرٍ الصَّيْمَريِّ، فهُزِم الوزيرُ، لكنَّه دهَمه أمرٌ، اشتغَل به عنه، وذلك وفاةُ عماد الدولة بن بُوَيْه.

وهو أبو الحسن عليُّ بنُ بُوَيْه، أكبرُ أوْلادِ بُوَيْه، وأولُ مَن تَمَلَّك منهم، وكان عاقلاً حازمًا، حَميدَ السِّيرة، رئيسًا في نفسه، كان أولُ ظُهورِه في سنة ثنتَيْن وعشرين وثلاثمائة كما ذكَرْنا.

فلما كان في هذا العام قويَت عليه الأسقامُ وتواترَت لَديه الآلامُ، فأحَسَّ من نَفْسه بالهَلاك، ولم يعادلْ ما هو فيه من الملك وكثرة الأموال والرجال من الديالم والأتراك، ولم يُحصِّلوا له الفكاكَ، ولم يَكُنْ له ولدٌ ذَكَرٌ، فأرْسَل إلى أخيه رُكْنِ الدولة يَسْتَدْعي ولدَه عَضُدَ الدولة، ليَجْعَلَه وليَّ عهده من بعده، فلما قدِم عليه فرِح به فرَحًا شديدًا، وخرَج بنفسه في جَميع جيشه لتَلَقِّيه، فلما دخَل به دارَ المَمْلَكة أجْلَسه على السَّرير، وقام بينَ يديه كأحدِ الأُمراء؛ ليَرْفَعَ من شأنِه عندَ أُمرائه ووُزرائه وأعْوانه، ثم عقَد له البَيْعةَ على ما يَمْلكُه من البلدان والأموال وتَدْبيرِ المُلْك والرجال، وفَهِم مِن بعضِ رُءوسِ الأُمراء كراهيةً لذلك، فشرَع في القَبْضِ عليهم، وقتَل مَن شاء منهم وسجَن آخرين، حتى تمهَّدَت الأمورُ لعَضُدِ الدولة، ثم كانت وفاةُ عماد الدولة بشيرازَ في هذه السنة عن سبعٍ وخمسين سنةً، وكانت مدةُ مُلْكه ستَّ عشْرةَ سنةً، وكان من خِيارِ المُلوك في زمانه، ومِمَّن حازَ قَصَبَ السَّبْقِ

دون أقرانه، وكان هو في الحقيقة أميرَ الأمراء، وبذلك كان يُكاتبه الخُلَفاءُ، ولكنْ أخوه مُعِزُّ الدولةِ كان يَنوبُ عنه ببغدادَ والعراقِ والسَّوادِ.

ولما مات عمادُ الدولة اشْتَغل الوزيرُ أبو جعفر الصَّيْمَريُّ عن مُحارَبة عِمْرانَ بنِ شاهينَ، وقد كتَبَ إليه مُعِزُّ الدولة أن يَسيرَ إلى شيرازَ ويَضْبِطَ أمورها، فقوِيَ أمْرُ عِمْرانَ بعدَ ضَعْفِه، وكان من أمْرِه ما سيأتي بيانُه في موضعه.

ومِمَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

أبو جعفر النَّحَّاسُ النَّحْوِيُّ، أحمدُ بنُ محمد بن إسماعيلَ بن يونُسَ أبو جعفر المُراديُّ المصْريُّ النحويُّ، المَعْروفُ بالنَّحَّاسِ، اللُّغويُّ المُفسِّرُ الأديبُ، له مُصنَّفاتٌ كثيرةٌ في التَّفْسيرِ وغيرِه، وقد سمع الحديثَ ولقِيَ أصحابَ المُبَرِّد.

وكانت وفاتُه في ذي الحجَّة من هذه السنة.

قال ابنُ خلِّكانَ: لخمسٍ خَلَوْن منها يومَ السبت، وكان سببَ وفاته أنه جلَس عندَ المِقْياسِ يُقَطِّعُ شيئًا من العَروضِ، فظنَّه بعضُ العامَّةِ يَسْحَرُ النِّيلَ؛ لئلاَّ يُوفي، فرفَسَه برِجْلِه فسقَط، فغرِق ولم يُدْرَ أين ذهَب، رحمه اللهُ تعالى.

وكان قد أخَذ النَّحْوَ عن عليِّ بنِ سليمانَ الأخْفَشِ وأبي بكرِ ابنِ الأنْباريِّ وأبي إسحاقَ الزَّجَّاجِ ونِفْطَوَيْه وغيرِهم، وله مُصنَّفاتٌ كثيرةٌ مُفيدةٌ؛ منها «تَفْسيرُ القرآن»، و«الناسخُ والمَنْسوخُ»، و«شرحُ أبياتِ سِيبَوَيْه»، ولم يُصَنَّفْ مثلُه، و«شرْحُ المُعَلَّقات»، و«الدَّواوينِ العشَرة»، وغيرُ ذلك. وروَى الحديثَ عن النَّسائيِّ. وكان بَخيلاً جدًّا، وانْتَفَع الناسُ به، رحمه اللهُ.

وفيها كانت وفاة الخليفة المستكفي بالله[1]

عبد الله بن عليٍّ المكتفي بالله، وقد ولي الخلافةَ سنةً وأربعةَ أشهرٍ ويومين، ثم خُلع وسُمِلَت عيناه كما تقَدَّم ذِكْرُه، وكانت وفاتُه في هذه السنة وهو مُعْتَقَلٌ في داره، وله من العمرِ ستٌّ وأربعون سنةً وشهران.

عليُّ بنُ حَمْشاذ بن سَخْتَوَيْه بن نصر، أبو الحسن المُعَدَّلُ، مُحَدِّثُ عصْرِه بنَيْسابورَ، رحَل إلى البُلْدانِ، وسَمِعَ الكثيرَ، وحدَّث وصَنَّفَ مُسْنَدًا في أربعمائة جزءٍ، وله غيرُ ذلك مع شدةِ الإتقانِ والحفْظِ وكثرةِ العبادة والصِّيانة والخَشْيةِ لله عز وجل.

قال بعضُهم: صحِبْتُه في السَّفَرِ والحَضَرِ، فما أعْلَمُ أن الملائكةَ كتَبَت عليه خطيئةً.

وله تَفْسيرٌ في مائتَيْ جزءٍ ونَيِّفٍ، دخَل الحمَّامَ من غيرِ مرضٍ فتُوُفِّي فيه فَجأةً، وذلك يومَ الجمعةِ

---

(١) ترجمته في «السير» (١٥/ ١١١ - ١١٣).

الرابعَ عشرَ من شوالٍ من هذه السنة، رحمه اللهُ.

عليُّ بنُ محمد بن أحمدَ بن الحسن، أبو الحسن الواعظُ البَغْداديُّ، ارْتحل إلى مصْرَ، فأقام بها حتى عُرِف بالمِصْريِّ، ثم رَجع إلى بغدادَ، وقد سمعَ الكثيرَ، وروىٰ عنه الدارَقُطْنيُّ وغيرُه، وكان له مَجْلِسُ وَعْظٍ يَحضُرُ فيه الرجالُ والنساءُ، وكان يَتَكلَّمُ وهو متبَرْقعٌ؛ لئلا يَرَىٰ النساءُ حُسْنَه وجمالَه، وقد حضَر وعْظَه أبو بكر النَّقَّاشُ مُسْتَخفِيًا، فلما سمع كلامه قام قائمًا وشهر نَفْسَه، وقال له: القَصَصُ بعدَك حَرامٌ.

قال الخَطيبُ: وكان ثقةً أمينًا عارفًا، جمَع حديثَ الليثِ وابنِ لَهيعةَ، وله كتبٌ كثيرةٌ في الزُّهْد. وكانت وفاتُه في ذي القَعْدة منها وله سبعٌ وثمانون سنةً.

ثم دخلت سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة

في هذه السنة المُباركة في ذي القَعْدة منها رُدَّ الحجرُ الأسودُ المَكيُّ إلى مكانه، وكانت القَرامطةُ قد أخَذُوه في سنة سبعَ عشْرةَ وثلاثمائة كما تقدَّم، وكان ملكَهم إذ ذاك أبو طاهرٍ سليمانُ ابنُ أبي سعيدٍ الحسنِ الجَنَّابيُّ، ولما وقَع ذلك أعْظَم المسلمون ذلك جدًّا، وقد بذَل لهم الأميرُ بَجْكَمُ التركيُّ خمسين ألفَ دينارٍ ليَرُدُّوه إلى موضِعِه، فلم يَقْبَلوا، وقالوا: نحن أخَذْناه بأمْرٍ، ولا نَرُدُّه إلاَّ بأمْرِ مَن أخَذْناه بأمْرِه.

فلما كان في هذا العام حمَلوه إلى الكوفة، وعلَّقوه على الأُسْطُوانة السابعة من جامعها ليَراه الناسُ، وكتَب إخوةُ أبي طاهرٍ كتابًا فيه: إنا أخَذْنا هذا الحجرَ بأمْرٍ، وقد رَدَدْناه بأمْرِ مَن أمَرَنا بأخْذِه؛ ليَتِمَّ حجُّ الناسِ ومَناسكُهم. ثم أرْسَلوه إلى مكةَ بغيرِ شيءٍ على قَعودٍ، فوصَل في ذي القَعْدة من هذه السنة، ولله الحمدُ والمنَّةُ، وكان مُدَّةُ مُقامه عندَهم ثنتَيْن وعشرين سنةً، ففرح المسلمون بذلك فرَحًا شديدًا.

وقد ذكَر غيرُ واحدٍ أنَّ القَرامطةَ حينَ أخَذوه حمَلوه على عدة جِمالٍ، فعطِبَت تحتَه، واعتَرَىٰ أسنِمَتَها العَقْرُ، ولما ردُّوه حمَله قَعودٌ واحدٌ لم يُصبْه بأسٌ، ولله الحمدُ والمنةُ.

وفيها: دخَل سيفُ الدولة بنُ حَمْدانَ بجَيْشٍ كثيفٍ نحوٍ من ثلاثين ألفًا إلى بلادِ الروم، فوغَل فيها، وفتَح حُصونًا، وقتَل خَلْقًا، وأسَر أُممًا، وغنم شيئًا كثيرًا، ثم رجَع، فأخَذَت الرومُ عليه الدَّرْبَ الذي يخرجُ منه، فقتَلوا عامَّةَ مَن معه، وأسَروا بقيَّتَهم، واستَردُّوا ما كان أخذه لهم، ونجا سيفُ الدولةِ في نفرٍ يسيرٍ من أصحابه، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها: مات الوزيرُ أبو جعفرٍ الصَّيْمَريُّ، فاستَوْزر مُعِزُّ الدولة مكانَه أبا محمدٍ الحسنَ بنَ محمدٍ المُهَلَّبيَّ في جُمادَىٰ الأولىٰ، فاستَفْحَل أمْرُ عِمْرانَ بنِ شاهينَ الصَّيَّاد، وتفاقَم الحالُ به، وبعَث إليه مُعِزُّ الدولةِ جيشًا بعدَ جيشٍ، يَهْزِمُهم مرةً بعدَ مرةٍ، ثم عدَل مُعِزُّ الدولةِ إلى مُصالحتِه واستِعْماله له على بعضِ تلك النَّواحي.

ممَّن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

الحسنُ بنُ داودَ بن بابشاذَ أبو سعيد المصْريُّ، قدم بَغْدادَ، وكان من أفاضل الناس وعُلَمائهم بمذهب أبي حَنيفةَ، مُفْرطَ الذَّكاء، قويَّ الفَهْم، كَتَب الحديثَ، وكان ثقةً.

مات ببغدادَ في هذه السنة، ودُفن بمَقْبَرة الشُّونيزيَّة، ولم يَبْلُغ من العمر أربعين سنةً.

محمد القاهرُ بالله أميرُ المؤمنين[1] ابنُ المُعْتَضد بالله، ولي الخلافةَ سنةً وستةَ أشهر وسبعةَ أيام، وكان بطاشًا سريعَ الانتقام فخاف منه وزيرُه أبو عليٍّ ابنُ مُقْلَةَ فاستَتَر وشرَع في العمل عليه عندَ الأتراك، فخلَعوه وسمَلوا عينَيْه، وأُودع دارَ الخلافة بُرْهةً من الدهر، ثم أُخرج في سنة ثلاث وثلاثين إلى دار ابن طاهر، وقد نالتْه فاقةٌ وحاجةٌ شديدةٌ، وسأل في بعض الأيام، ثم كانت وفاتُه في هذا العام وله ثنتان وخمسون سنةً، ودُفن إلى جانب أبيه المُعْتَضد.

محمد بنُ عبد الله بن أحمدَ، أبو عبد الله الصَّفَّارُ الأصْبَهانيُّ، مُحَدِّثُ عَصْره بخُراسانَ، سمع الكثيرَ، وحدَّث عن ابن أبي الدنيا ببعض كتبه، وكان مُجابَ الدَّعْوة، ومكَث لا يَرْفَعُ رأسَه إلى السماء نَيِّفًا وأربعين سنةً.

وكان يقولُ: اسمي محمدٌ، واسمُ أبي عبدُالله، واسمُ أمي آمنةُ. يَفْرَحُ بهذه المُوافقة في الاسم واسم الأب والأم[2].

أبو نصر الفارابيُّ محمدُ بنُ محمد، أبو نصر الفارابيُّ التُّرْكيُّ الفَيْلَسوفُ، وكان من أعْلَم الناس بالموسيقَى، بحيث كان يَتَوسَّلُ بصناعته إلى التأثير في الحاضرين من مُسْتَمعيه، إن شاء حرَّك ما يُبْكي أو ما يُضْحكُ أو ما يُنَوِّمُ.

وكان حاذقًا في الفَلْسَفة، ومن كُتُبه تفقَّه ابنُ سينا.

وكان يقولُ بالمَعاد الرُّوحانيِّ لا الجُثْمانيِّ، ويُخَصِّصُ بالمَعاد الأرْواحَ العالمةَ لا الجاهلةَ، وله مَذاهبُ في ذلك يُخالفُ المسلمين والفَلاسفةَ من سَلَفه الأقْدَمين، فعليه إن كان مات على ذلك لعْنَةُ ربِّ العالمين.

مات بدمشقَ فيما قاله ابنُ الأثير في «كامله»، ولم أرَ الحافظَ ابنَ عساكرَ ذكَره في تاريخه لنَتْنه وقَباحته. فاللهُ أعْلَمُ.

سنة أربعين وثلاثمائة

فيها: قصَد صاحبُ عُمَانَ البَصْرَةَ ليَأخُذَها في مَراكبَ كثيرة، وجاء لنَصْره أبو يَعْقوبَ الهَجَريُّ، فمانَعَه عنها الوزيرُ أبو محمد المُهَلَّبيُّ وصدَّه عنها، وأسَر جماعةً من أصحابه وسبَى كثيرًا من مَراكبه،

(١) ترجمته في «السير» (١٥/ ٩٨) وما بعدها.

(٢) ترجمته في «السير» (١٥/ ٤٣٧، ٤٣٨).

فساقها معه في دِجْلَةَ، ودخَل بها إلى بغدادَ في أُبَّهَةٍ عظيمة. ولله الحمدُ.

وفيها: رُفِع إلى الوزير أبي محمدٍ المُهَلَّبيِّ رجلٌ من أتباع أبي جعفر محمد بن عليٍّ ابن أبي العزاقرِ الذي كان قُتِل على الزَّنْدَقة كما قُتِل الحَلاَّجُ، وأن هذا الرجلَ يَدَّعي ما كان يَدَّعيه ابنُ أبي العَزاقرِ، وقد اتَّبَعه جَماعةٌ من الجَهَلَة ببغدادَ، وصدَّقوه في دَعْواه الرُّبوبيةَ، وأن أرْواحَ الأنبياءِ والصِّدِّيقين انتقلت إليهم، ووُجِد في منْزلِه كتبٌ تدلُّ على ذلك.

فلما تحقَّق أنه هالكٌ ادَّعى أنه شيعيٌّ ليَحْظَى عندَ مُعزِّ الدولة بنِ بُويه، وقد كان يحبُّ الرَّافضةَ، قبَّحه اللهُ، فلما اشْتُهِر ذلك لم يَتَمكَّنِ الوزيرُ منه خوفًا على نَفْسه من مُعزِّ الدولة، وأن تقومَ عليه الشِّيعةُ، فإنا لله وإنا إليه راجعون، غيرَ أنه احْتاط على شيءٍ من أمْوالِهم، فكان يُسَمِّيها أمْوالَ الزَّنادقة.

قال ابنُ الجوْزيِّ: وفي رمضانَ وقَعَت فِتْنةٌ عظيمةٌ بسببِ المَذْهَب.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

أبو الحسن الكَرْخيُّ، عُبَيْدُ الله بنُ الحسين بن دَلاَّل بن دَلْهم، أبو الحسن الكَرْخيُّ[1]، أحدُ أئمة الحَنَفية المَشْهورين، وُلِد سنةَ ستين ومائتين، وسكَن بغدادَ، ودرَس بها فقهَ أبي حَنيفةَ، وانتَهت إليه رئاسةُ أصحابِه وانتشر أصحابُه ببغدادَ، وكان مُتَعَبِّدًا؛ كثيرَ الصَّلاةِ والصومِ، صَبورًا على الفقرِ، وعَزوفًا عما في أيْدي الناسِ، وكان مع ذلك رأْسًا في الاعْتِزالِ، وقد سمع الحديثَ من إسماعيلَ بنِ إسْحاقَ القاضي، وروى عنه ابنُ حَيُّوَيْه، وابنُ شاهينَ.

وأصابه الفالِجُ في آخرِ عمرِه، فاجتمَع عندَه بعضُ أصحابِه، واشْتَوَروا فيما بينَهم أن يكتُبوا إلى سيفِ الدولةِ بنِ حَمْدانَ؛ ليُساعدَه بشيءٍ يَستَعِينُ به في مرضِه، فلما علم بذلك رفَع رأسَه إلى السماءِ وقال: اللهم لا تَجْعَلْ رزْقي إلا من حيثُ عوَّدْتَني. فمات عقبَ ذلك قبلَ أن يَصِلَ إليه ما أرْسَل به سيفُ الدولةِ، وهو عشَرةُ آلافِ درهمٍ، فتُصدِّقَ بها بعدَ وفاته، وكانت وفاتُه في شعبانَ من هذه السنةِ عن ثمانين سنةً، وصلَّى عليه أبو تَمَّامٍ الحسنُ بنُ محمدٍ الزَّيْنَبيُّ، وكان صاحبَه، ودُفِن في دَرْبِ أبي زَيْدٍ على نهرِ الواسطِيِّين.

محمدُ بنُ صالحِ بن زيد، أبو جعفر الوَرَّاقُ، سمع الكثيرَ، وكان يَفْهَمُ ويَحْفَظُ، وكان ثقةً زاهدًا، لا يَأْكُلُ إلا من كَسْبِ يده، ولا يَقْطَعُ صلاةَ الليلِ.

وقال بعضُهم: صحبْتُه سنينَ كثيرةً، فما رأيْتُه فعَل ما لا يُرْضِي اللهَ عز وجل، ولا قال إلا ما يُسأَلُ عنه، وكان يقومُ أكثرَ الليلِ.

وفيها كانت وفاةُ منْصور بن قراتكين صاحبِ الجيوشِ الخُراسانيةِ من جهةِ الأميرِ نوحٍ السامانيِّ،

---

(١) ترجمته في «السير» (١٥/ ٤٢٦، ٤٢٧).

وكانت وفاتُه لمرضٍ حصَل له، وقيل: لأنه أدمَن شُرْبَ الخمرِ أيامًا مُتتابعةً، فهلَك بسببِ ذلك، فأُقيم بعدَه في الجُيوشِ أبو عليٍّ ابنُ مُحتاجٍ.

الزَّجَّاجيُّ مُصنِّفُ «الجُمَل»، وهو أبو القاسم عبدُ الرحمن بنُ إسْحاقَ النَّحْويُّ البغداديُّ الأصل، ثم الدمشقيُّ، مُصنِّفُ «الجُمَلِ» في النحو، وهو كتابٌ نافعٌ، كثيرُ الفائدةِ، صنَّفه بمكَّة، وكان يَطوفُ بعدَ كلِّ بابٍ منه، ويَدْعو اللهَ تعالى أن يَنْفَعَ به.

أخَذ النحوَ أولاً عن محمدِ بنِ العباسِ اليَزيديِّ، وأبي بكرِ ابنِ دُرَيْدٍ، وابنِ الأنْباريِّ.

وكانت وفاتُه في رجبٍ سنةَ سبعٍ، وقيل: سنةَ تسعٍ وثلاثين. وقيل: سنةَ أربَعين. تُوفِّيَ في دمشقَ، وقيل: بطَبَريَّةَ. وقد شُرِحت «الجُمَلُ» بشُروحٍ كثيرةٍ، مِن أحْسنِها وأجْمعِها ما وضَعه ابنُ عُصْفورٍ. واللهُ أعلمُ.

ثم دخلت سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة

فيها: ملَكَت الرومُ سَرُوجَ، وقتَلوا أهلَها وخرَّبوا مَساجدَها.

قال ابنُ الأثير: وفيها قصَد صاحبُ عُمَانَ البَصْرةَ، فمنَعه منها المُهَلَّبيُّ كما تقدَّم.

قال: وفيها نقَم مُعزُّ الدولة على وزيرِه، فضرَبه مائةً وخمسين مِقْرعةً ولم يَعْزِلْه، بل رسَم عليه.

وفيها: اختَصَم المصْريون والعراقيون بمكةَ، فخُطب لصاحبِ مصرَ، ثم غلَبهم العراقيون فخطَبوا لرُكْنِ الدولةِ بنِ بُوَيْه.

وفيها: كانت وفاةُ المنصورِ الفاطميِّ، وهو أبو طاهرٍ إسماعيلُ بنُ القائمِ بأمْرِ الله أبي القاسمِ محمدِ ابنِ عُبَيدِ الله المَهْديِّ صاحبِ المغربِ، وله من العمرِ تسْعٌ وثلاثون سنةً، وكانت خلافتُه سبعَ سنين وستةَ عشَرَ يومًا، وكان عاقلاً شُجاعًا فاتكًا، قهَر أبا يزيدَ الخارجيَّ الذي كان لا يُطاقُ شَجاعةً وإقْدامًا وصَبْرًا، وكان فَصيحًا بَليغًا، يَرْتَجِلُ الخُطْبةَ على البَديهةِ في الساعة الراهنة.

وكان سببَ موتِه ضَعْفُ الحَرارةِ الغَريزية، كما أوْردَه ابنُ الأثيرِ في «كامله»، فاخْتَلَف عليه الأطِبَّاءُ، وقد عَهِد بالأمرِ من بعدِه لولدِه المُعزِّ الفاطميِّ، وهو باني القاهرةِ المُعزِّيَّة، كما سيأْتي بَيانُ ذلك واسمُه مَعَدٌّ، وكان عمرُه إذ ذاك أربعًا وعشرين سنةً، وكان شُجاعًا عاقلاً أيضًا حازمَ الرأي، أطاعه من البَرْبرِ وأهلِ تلك النَّاحيةِ خَلْقٌ كثيرٌ، وبعَث مولاه جَوْهَرًا القائدَ فبنَى له القاهرةَ المُتاخمةَ لمصرَ، واتَّخَذ له فيها دارَ المُلْكِ، وهما القَصْران اللذان هنالك، وذلك في سنةِ أربعٍ وستين وثلاثمائةٍ كما سيأتي بيانُه.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعْيان:

أحمدُ بنُ محمدِ بنِ زيادِ بنِ بشرِ بنِ دِرْهمٍ، أبو سعيدِ ابنُ الأعرابيِّ البصريُّ[1]، سكَن مكةَ، وصار

---

(١) ترجمته في «السير» (١٥/ ٤٠٧).

شيخَ الحَرَم، وصَحب الجُنَيْدَ بنَ محمدٍ والنُّوريَّ وغيرَهما، وأسند الحديثَ، وصنَّف كُتُبًا للصوفية.

إسْماعيلُ بنُ محمد بن إسْماعيلَ بن صالح، أبو عليٍّ الصَّفَّارُ النحويُّ أحدُ المُحَدِّثين، لقي المُبَرِّدَ، واشْتَهر بصُحْبته، وكانَ مَوْلدُه في سنة سبعٍ وأربعين ومائتين، وسمع الحسنَ بنَ عَرَفَةَ وعباسًا الدُّوريَّ وغيرَهما، وروىٰ عنه جَماعةٌ، منهم الدارَقُطْنيُّ.

وقال: صام أربعةً وثمانين رَمضانًا، وقد كانت وفاتُه في هذه السنةِ عن أربعٍ وتسعين سنةً، رحمه اللهُ تعالىٰ.

إسماعيلُ بنُ القائم بن المَهْديِّ المُلَقَّبُ بالمنصور العُبَيْديِّ الذي يَزْعُمُ أنه فاطميٌّ، صاحبُ بلادِ المغرب، وهو والدُ المُعزِّ باني القاهرة، وهو باني المَنْصورية بالمغرب.

كان شجاعًا فصيحًا بليغًا، قال أبو جعفرٍ المَرْوَرُّوذِيُّ: خرَجْتُ معه لما كسَر أبا يَزيدَ الخارجيَّ، فبينما أنا أسيرُ معه إذ سقَط رُمْحُه، فنزلْتُ فناولْتُه إياه، وذهَبْتُ أُفاكهُه بقول الشاعر:

فألقَتْ عَصاها واسْتَقرَّ بها النَّوَىٰ كَما قَرَّ عَيْنًا بالإيابِ المُسافرُ

فقال: هلاَّ قلتَ كما قال اللهُ تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٧، ١١٩] قال: فقلتُ له: أنت ابنُ بنتِ رسولِ الله ﷺ، قلتَ كما علمْتَ، وأنا قلتُ بما بلَغ إليه علْمي.

قال ابنُ خَلِّكانَ: وهذا كما جرىٰ لعبدِ الملك بن مرْوانَ حينَ أمَر الحَجَّاجَ أن يَبْنيَ بابًا ببيت المَقْدس ويكْتُبَ عليه اسمَه، فبنَىٰ له بابًا، وبنَىٰ لنفسه بابًا آخرَ، فوقَعت صاعقةٌ علىٰ باب عبد الملك فأحْرَقَته، فكتَب إليه الحَجَّاجُ من العراق يُسَلِّيه عما أهَمَّه من ذلك؛ يقولُ: يا أميرَ المؤمنين، ما أنا وأنت إلا كما قال اللهُ تعالىٰ: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ ﴾ [المائدة: ٢٧].

قال: فسُرِّيَ عن الخليفة. كانت وفاةُ المنصورِ هذا في هذه السنةِ لمَّا أصابه بَرْدٌ شديدٌ فمات به.

ثم دخلت سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة

فيها دخَل سيفُ الدولة بنُ حَمْدانَ صاحبُ حَلَبَ إلىٰ بلادِ الروم، فقتَل منهم خَلْقًا كثيرًا، وأسَرَ آخَرين، وغنِم أموالاً جَزيلةً، ورجَع سالمًا غانمًا.

وفيها اخْتَلَف الحَجيجُ بمكةَ، ووقَعَت حربٌ بينَ أصحاب ابن طُغْجٍ وأصحاب مُعزِّ الدولة، فغلَبَهم العراقيون، وخطَبوا لمُعزِّ الدولة، ثم بعدَ انْقضاءِ الحجِّ اخْتَلَفوا، فغلَبَهم العراقيُّون أيضًا، وجرَت حروبٌ كثيرةٌ وخُطوبٌ كبيرةٌ بينَ الخُراسانيةِ والسامانيةِ، تقصَّىٰ ذكرَها ابنُ الأثيرِ في «كامله». واللهُ تعالىٰ أعلمُ بالصواب.

وممن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

عليُّ بنُ محمدِ ابنِ أبي الفَهْمِ، أبو القاسمِ التَّنوخيُّ، جَدُّ القاضي أبي القاسم التَّنوخيِّ شيخِ

الخَطيب، وُلد بأنطاكيَةَ، وقدم بغدادَ فتفقَّه بها على مذهب أبي حَنيفةَ، وكان يَعْرِفُ الكلامَ على طريقة المُعْتَزلة، ويَعْرِفُ النُّجومَ، ويقولُ الشعرَ، ولِي القَضاءَ بالأهوازِ وغيرِها، وقد سمع الحديثَ مِن البَغَويِّ وغيرِه، وكان فَهِمًا ذكيًّا، حفظ وهو ابنُ خمسَ عشْرةَ سنةً قَصيدةً لدعْبِلِ الشاعرِ في ليلةٍ واحدةٍ، وهي ستُّمائةِ بيتٍ، وعرَضها على أبيه صَبيحتَها، فقام إليه وضمَّه وقبَّل بينَ عينيه، وقال: يا بنيَّ، لا تُخبِرْ بهذا أحدًا لئلا تُصيبَك العينُ.

وذكر ابنُ خَلِّكان أنه كان نَديمًا للوزيرِ المُهَلَّبيِّ، ووفَد على سيفِ الدولةِ بنِ حَمْدانَ، فأكرَمه وأحْسَن إليه، وأوْرَد له مِن شعرِه أشياءَ حسَنةً، فمن ذلك قولُه في الخمرِ:

وراحٍ من الشمسِ مَخلوقةٌ	بدَت لك في قدَحٍ من نهارِ
هواءٌ ولكنه جامدٌ	وماءٌ ولكنه غيرُ جارِ
كأنَّ المُديرَ له باليمين	إذا مال للسَّقْيِ أو باليسارِ
تدرَّعَ ثوبًا من الياسَمين	له فَرْدُ كُمٍّ من الجُلَّنارِ

محمدُ بنُ إبراهيمَ بن الحسين بن الحسن بن عبد الخالق، أبو الفرج البَغداديُّ الفَقيهُ الشافعيُّ، يُعْرَفُ بابنِ سُكَّرَةَ، سكَن مصرَ وحدَّث بها، وسمع منه أبو الفتح ابنُ مَسْرورٍ، وذكَر أن فيه لينًا.

محمدُ بنُ موسى بن يعقوبَ بن المأمون بن الرشيد هارونَ، أبو بكر، ولِي إمْرةَ مكةَ في سنة ثمانٍ وستين ومائتين، وقدِم مصرَ، فحدَّث بها عن عليِّ بنِ عبدِ العزيزِ البَغَويِّ بموطأِ مالك، وكان ثقةً مأمونًا. تُوُفِّي بمصرَ في ذي الحِجَّةِ من هذه السنة.

ثم دخلت سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة

فيها كانت وَقْعةٌ بينَ سيفِ الدولة بنِ حَمْدانَ وبينَ الدُّمُسْتُقِ، فقتَل خَلْقًا من أصحابِ الدُّمُسْتُقِ، وأسَر جَماعةً من رُؤساءِ بَطارِقتِه، ولله الحمدُ. وكان في جملةِ مَن قَتَل قُسْطَنْطِينُ بنُ الدُّمُسْتُقِ، وسَبَى خَلْقًا كثيرًا وأسَر آخَرين، وذلك في ربيع الأول من هذه السنة، ثم جمَع الدُّمُسْتُقُ خَلْقًا كثيرًا، فالْتَقَوْا مع سيفِ الدولةِ في شعبانَ، فجرَت بينهم حُروبٌ عظيمةٌ وقتالٌ شديدٌ، فكانت الدائرةُ للمسلمين، وخذَل اللهُ الكافرين، فقُتِل منهم خَلْقٌ كثيرٌ، وأُسِر جَماعةٌ مِن الرُّءوسِ، وكان منهم صِهْرُ الدُّمُسْتُقِ وابنُ بنتِه أيضًا.

وفيها: حصَل للناسِ أمْراضٌ كثيرةٌ وحمياتٌ وأوْجاعٌ في الحَلْقِ.

وفيها: مات الأميرُ الحميدُ نوحُ بنُ نصرٍ السامانيُّ، صاحبُ خُراسانَ وما وراءَ النهرِ، وقام بالأمرِ من بعده ولدُه عبدُ الملك.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

الحسنُ بنُ أحمدَ، أبو عليٍّ الكاتبُ المصريُّ، صحِب أبا عليٍّ الرُّوذْباريَّ وغيرَه، وكان أبو عثمانَ

المَغْربيُّ يُعَظِّمُ أمرَه، ويقولُ: أبو عليٍّ الكاتبُ من السالكين.

ومن كلامه الذي حكاه عنه أبو عبدِ الرحمنِ السُّلَميُّ قولُه: روائحُ نَسيمِ المَحبَّةِ تفوحُ من المُحبِّين وإن كتَموها، وتظهَرُ عليهم دَلائلُها وإن أخفَوْها، وتَبْدُوا عليهم وإن ستَروها. وأنشَد:

إذا ما أسَرَّتْ أنفُسُ الناسِ ذكْرَه … تبيَّنَه فيهم ولم يتكلَّموا
تَطيبُ به أنفاسُهم فيُذيعُها … وهل سِرُّ مِسْكٍ أُودِعَ الرِّيحَ يُكْتَمُ

عليُّ بنُ محمدِ بن محمدِ بن عُقْبَةَ بن هَمَّامٍ، أبو الحسنِ الشَّيبانيُّ الكوفيُّ، قدِم بغدادَ، فحدَّث بها عن جماعةٍ، وروى عنه الدارَقُطْنيُّ.

وكان ثقةً عَدْلاً، كثيرَ التِّلاوةِ فَقيهًا، ومكَث يَشْهَدُ على الحُكَّامِ ثلاثًا وسبعين سنةً، مَقبولاً عندهم، وأذَّنَ في مسجدِ حَمْزةَ الزَّيَّاتِ نَيِّفًا وسبعين سنةً، وكذلك أبوه من قبله.

محمدُ بنُ عليِّ بن أحمدَ أبو العباسِ الكَرْخيُّ الأديبُ، كان عالمًا زاهدًا وَرِعًا، يَخْتِمُ القرآنَ كلَّ يومٍ، ويُديمُ الصومَ، سمِع الحديثَ من عَبْدانَ وأقرانِه.

أبو الخيرِ التِّيناتيُّ العابدُ الزاهدُ، أصلُه من المغربِ، وكان مُقيمًا بقريةٍ يُقالُ لها: تِيناتُ. من عملِ أنطاكِيَةَ، ويُعْرَفُ بالأقْطَعِ؛ لأنه كان مَقْطوعَ اليدِ، كان قد عاهَد اللهَ عَهْدًا، ثم نكَثه، فاتَّفق أن مُسك جَماعةٌ من اللُّصوصِ في الصَّحْراءِ وهو هناك، فأُخذ معهم، فقُطعَت يدُه معهم. وكانت له أحْوالٌ وكَراماتٌ، وكان يَنْسِجُ الخُوصَ بيدِه الواحدةِ. ودَخل عليه بعضُهم فشاهَد منه ذلك، فأخذ عليه العهدَ أن لا يُخْبِرَ به أحدًا ما دام حيًّا، فوفَّى له بذلك.

ثم دخلت سنة أربع وأربعين وثلاثمائة

قال ابنُ الجَوْزيِّ: فيها شمَل الناسَ، ببغدادَ وواسطٍ وأصْبَهانَ والأهْوازِ، داءٌ مُركَّبٌ من دمٍ وصَفْراءَ ووَباءٌ، مات بسببِ ذلك خَلقٌ كثيرٌ، بحيث كان يَموتُ في كلِّ يومٍ قريبٌ من ألفِ نَفْسٍ، وجاء فيها جَرادٌ عظيمٌ أكل الخَضْرواتِ والأشجارَ والثِّمارَ.

وفي المُحرَّمِ عقَدَ مُعِزُّ الدولةِ لابنِه أبي منصورٍ بَخْتيارَ الأمرَ من بعدِه بإمرةِ الأمراءِ.

وفيها: خرَج رجلٌ بأذْرَبيجانَ ادَّعَى أنه يَعْلَمُ الغيبَ، وكان يُحرِّمُ اللَّحمَ وما يَخْرُجُ من الحيواناتِ، فأضافه مرةً رجلٌ، فجاءه بطعامٍ كَشْكيَّةٍ بشَحْمٍ فأكَله، فقال له الرجلُ بحَضْرةِ مَن معه: إنك تَدَّعي أنك تَعلَمُ الغيبَ، وهذا الطعامُ فيه شَحْمٌ، وأنت تُحرِّمُه فلمَ لا علِمتَه؟! قال: فتفرَّق الناسُ عنه.

وفيها: جرَت حُروبٌ كثيرةٌ بينَ المُعِزِّ الفاطميِّ وبينَ صاحبِ الأنْدلُسِ عبدِ الرحمنِ الناصرِ الأُمويِّ، استَقْصاها ابنُ الأثيرِ.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

عثمانُ بنُ أحمدَ بن عبدِ الله بن يَزيدَ، أبو عمرٍو الدَّقَّاقُ، المَعْروفُ بابنِ السَّمَّاكِ، روَى عن حَنْبلِ بنِ

إسحاقَ وغيره، وعنه الدارَقُطنيُّ وغيرُه، وكان ثقةً ثبتًا، كتَب المُصنَّفات الكثيرةَ بخطِّه، تُوُفِّي في ربيعِ الأول من هذه السنة، ودُفِن بمَقْبَرةِ باب التِّبْنِ، وحضرَ جنازتَه خمسون ألفًا.

محمدُ بنُ أحمدَ بن محمد بن أحمدَ، أبو جعفر القاضي السِّمْنانيُّ، وُلِد سنةَ إحدىٰ وستين ومائتين، وسكَن بغدادَ وحدَّث بها، وكان ثقةً عالمًا سَخيًا حسَنَ الكلام، عِراقيَّ المَذْهَبِ، وكانت دارُه مَجْمَعًا للعلماء، ثم ولي قضاءَ المَوْصِلِ، وتُوُفِّي بها في هذه السنةِ في ربيعِ الأول منها.

محمدُ بنُ أحمدَ بنِ بُطَّةَ بن إسحاقَ الأصْبَهانيُّ، أبو عبد الله، سكَن نَيْسابورَ، ثم عاد إلىٰ أصْبَهانَ، وليس هذا بأبي عبد الله بن بَطَّةَ العُكْبَريِّ، وهذا بضمِّ الباءِ من بُطَّةَ، والفَقيهُ الحَنْبليُّ بفتحها. وقد كان جدُّ هذا، وهو بُطَّةُ بنُ إسحاقَ أبو سعيد، من المُحدِّثين أيضًا. ذكَره ابنُ الجَوْزيِّ في «مُنْتَظَمِه».

محمدُ بنُ محمد بن يوسُفَ بن الحَجَّاج، أبو النَّضْرِ الفَقيهُ الطُّوسيُّ، كان فقيهًا عالمًا ثقةً عابدًا، يَصومُ النَّهارَ ويَقومُ الليلَ، ويَتَصدَّقُ بالفاضلِ من قُوتِه، ويأمُرُ بالمَعْروفِ ويَنْهَىٰ عن المنكرِ، وقد رحَل في طلبِ الحديث إلىٰ الأقاليم النائية والبُلْدانِ المتباينة، وكان قد جزَّأ الليلَ ثلاثةَ أجْزاءٍ، فثُلُثٌ للنوم، وثُلُثٌ للتَّصْنيف، وثُلُثٌ للقراءة.

وقد رآه بعضُه في المنامِ بعدَ وفاته، فقال له: وصَلْتَ إلىٰ ما طلَبْتَه؟ فقال: إي واللهِ، نحن عندَ رسولِ الله ﷺ، وقد عرَضْتُ مُصنَّفاتي في الحديث عليه، فقبِلها.

أبو بكر ابنُ الحَدَّاد، الفقيهُ الشافعيُّ، هو محمدُ بنُ أحمدَ بن محمد أبو بكر ابنُ الحَدَّاد، أحدُ أئمةِ الشافعية، روَىٰ عن النَّسائيِّ، وقال: رضيتُ به حُجَّةً بيني وبينَ الله عز وجل.

وقد كان ابنُ الحَدَّاد فَقيهًا فُروعيًّا، ومُحدِّثًا ونَحْويًّا، وفَصيحًا في العبارة دَقيقَ النَّظَرِ في الفُروع، له كتابٌ في ذلك غريبُ الشَّكْلِ، وقد ولي القَضاءَ بمصرَ نيابةً عن أبي عُبَيدِ بن حَرْبُويْه، وذكَرْناه في «طبقات الشافعية».

أبو يعقوبَ الأذْرَعيُّ إسْحاقُ بنُ إبراهيمَ بن هاشم بن يعقوبَ بن إبراهيمَ النَّهْديُّ، قال ابنُ عَساكرَ: من أهلِ أذْرِعاتٍ؛ مدينةٍ بالبَلْقاءِ، أحدُ الثِّقاتِ من عبادِ الله الصالحين، رحَل وحدَّث عن جَماعةٍ، وعنه آخرون.

وقال غيرُه: كان من أجلَّةِ أهلِ دمشقَ وعُبَّادها وعُلَمائها.

وقد روَىٰ عنه ابنُ عَساكرَ أشْياءَ تَدُلُّ علىٰ صَلاحِه وخَرْقِ العادة له، فمن ذلك أنه قال: إني سَألْتُ اللهَ أن يَقْبِضَ بَصَري فعَميتُ، فلما اسْتَضْرَرْتُ بالطَّهارة سألْتُ اللهَ عَوْدَه، فردَّه عليَّ. تُوُفِّي بدمشقَ في هذه السنةِ سنةِ أربَعٍ وأربعين وثلاثمائة، وصحَّحه ابنُ عَساكرَ، وقد نَيَّف علىٰ التِّسْعين.

ثم دخلت سنة خمس وأربعين وثلاثمائة

فيها عصى الرُّوزْبَهَانُ على مُعزِّ الدولة، وانحازَ إلى الأهْوازِ، ولحق به عامَّةُ مَن كان مع المُهَلَّبِيِّ الذي كان يُحاربُه، فلما بَلغ ذلك مُعزَّ الدولة لم يُصدِّقْ؛ لأنه كان قد أحْسَن إليه، ورفَع من قَدْره بعدَ الضَّعَة والخُمول، ثم ركِب إليه لقتاله، فاتبعَه الخليفةُ المُطيعُ لله خوفًا من ناصر الدولة بنِ حَمْدانَ، فإنه بلَغه أنه قد جهَّز جيشًا مع ولده أبي المُرَجَّىٰ جابرٍ إلى بغدادَ ليَأْخُذَها حينَ بلَغَه أن معز الدولة قد خرَج منها، فأرْسَل مُعزُّ الدولة حاجِبَه سُبُكْتكِين إلى بغدادَ ليحفظَها، وقصَد مُعزُّ الدولة إلى الرُّوزْبَهَان، فاقْتَتلوا قتالاً عظيمًا، فهزَمه مُعزُّ الدولة، وفرَّق أصْحابَه، وأخَذه أسيرًا إلى بغدادَ في أُبَّهةٍ عظيمةٍ فسجَنه، ثم أخْرَجه ليلاً وغرَّقه؛ لأن الدَّيْلَم أرادوا إخْراجَه من السجن قَهْرًا، وانطَوىٰ ذِكْرُ رُوزْبَهانَ وإخوته، وكان قد اشْتَعَل اشْتعالَ النار، وحظِيَت الأتراكُ عندَ مُعزِّ الدولة، وانحطَّت الدَّيْلَمُ عندَه؛ لأنه ظَهر له خيانتُهم في أمْرِ الرُّوزْبَهان وإخْوته.

وفيها دخَل سيف الدولة إلى بلادِ الروم، فقتَل وسبَىٰ، ورجَع إلى أذَنَةَ، ثم عاد إلى حَلَبَ، فحمِيَت الرومُ، فجمَعوا وأقْبَلوا إلى مَيَّافارِقينَ، فقتَلوا وسبَوْا وحرَّقوا ورجَعوا، وركِبوا في البحرِ إلى طَرَسُوسَ، فقتَلوا من أهلها ألفًا وثمانمائة، وسبَوْا وحرَّقوا قُرًىٰ كثيرةً.

وفيها زُلْزِلَت هَمَذانُ زلزالاً عظيمًا؛ انهدَمَت البُيوتُ، وانشَقَّ قصرُ شيرينَ بصاعقةٍ، ومات تحتَ الهَدْمِ خَلْقٌ كثيرٌ لا يُحْصَوْن كثرةً، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون.

ووقَعَت فتنةٌ عظيمةٌ بينَ أهلِ أصْبَهانَ وأهْلِ قُمَّ، بسبب سَبِّ الصَّحابةِ من أهلِ قُمَّ، فثار عليهم أهلُ أصْبَهانَ فقتَلوا منهم خَلْقًا كثيرًا، ونهَبوا أمْوالَ التُّجَّار، فغضِب رُكْنُ الدولة لأهلِ قُمَّ؛ لأنَّه كان شيعيًّا، فصادَر أهْلَ أصْبَهانَ بأموالٍ كثيرةٍ، والله تعالى أعلمُ.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

غلامُ ثعلب، محمدُ بنُ عبد الواحد ابن أبي هاشم أبو عمرَ الزاهدُ، غلامُ ثَعْلبٍ، روَىٰ عن الكُدَيْميِّ وموسى بنِ سهْلٍ الوَشَّاء وغيرِهما، وروَىٰ عنه جَماعةٌ، وآخرُ مَن حدَّث عنه أبو عليٍّ بنُ شاذانَ.

وكان كثيرَ العلمِ والزُّهْد، حافظًا مُطبِّقًا، يُملي من حفْظه شيئًا كثيرًا، ضابطًا لما يحْفَظُه.

ولكثرة إغرابِه اتَّهَمه بعضهم ورماه بالكذب، وقد اتُّفِق له مع القاضي أبي عمرَ - وكان يُؤَدِّبُ ولده - أنه أمْلىٰ من حفظه ثلاثين مَسْألةً بشَواهدها وأدلَّتها من لُغة العرب، واسْتَشْهَد على بعضها ببيتَيْن غريبَيْن جدًّا، فعرضها القاضي أبو عمرَ على ابنِ دُرَيْدٍ وابنِ الأنْباريِّ وابنِ مِقْسَم، فلم يَعْرِفوا منها شيئًا، حتى قال ابنُ دُرَيْدٍ: هذا ما وضَعه أبو عمرَ من عنده. فلما جاء أبو عمرَ ذكَر له القاضي ما قاله ابنُ دُرَيْدٍ عنه، فطلَب أبو عمرَ من القاضي أن يُحضِرَ له من كُتُبِه دَواوينَ العرب. فلم يَزَلْ يأتيه بشاهدٍ لما ذكَره بعدَ شاهدٍ، حتى خرج من الثلاثين مسألةً، ثم قال: وأما البيْتان فإن ثَعْلبًا أنْشدَناهما وأنت

حاضرٌ، فكتبتَهما في دَفْترك. فطلَب القاضي دَفْترَه، فإذا هما فيه، فلما بلَغ ذلك ابنَ دُرَيْد كفَّ لسانَه عن أبي عمرَ الزاهد، فلم يَذكُرْه حتى مات.

وتُوُفِّي أبو عمرَ هذا يومَ الأحد، ودُفِن يومَ الإثنين الثالثَ عشَرَ من ذي القَعْدة، ودُفِن في الصُّفَّةِ المُقابِلة لقبرِ مَعْروفٍ الكَرْخيِّ ببغدادَ، رحمه اللهُ.

محمدُ بنُ عليِّ بن أحمدَ بن رُسْتُمَ، أبو بكر المادَرائيُّ الكاتبُ، كان مولدُه في سنة سبعٍ وخمسين ومائتين بالعراق، ثم صار إلى مصرَ هو وأخوه أحمدُ مع أبيهما، وكان على الخَراج لخُمارَوَيْه بنِ أحمدَ بنِ طُولونَ، ثم صار هذا الرجلُ من رُؤساء الناسِ وأكابرِهم، وقد سمع الحديثَ من أحمدَ بنِ عبدِ الجَبَّار وطَبَقته.

وقد روَى الخَطيبُ عنه أنه قال: كان ببابي شيخٌ كبيرٌ من الكُتَّاب قد بطَل عن وظيفته، فرأيت والدي في المنامِ وهو يَقولُ: يا بُنيَّ، أما تتَّقي اللهَ؟ أنت مشغولٌ بلَذَّاتك، والناسُ ببابِك يَهْلِكون من العُرْيِ والجُوع، هذا فلانٌ قد تقَطَّع سَراويلُه ولا يَقْدِرُ على إبْداله، فلا تُهْمِلْ أمْرَه، فاسْتَيْقَظْتُ مَذْعورًا، وأنا ناوٍ له الإحْسانَ، فنمتُ ثم استيقظتُ وقد أُنسيتُ المَنامَ، فبينا أنا أسيرُ إلى دارِ الملك، إذا بذلك الشيخ على دابَّة ضعيفة، فلما رآني أراد أن يَترَجَّلَ فبدا لي فخِذُه، وقد لبِس الخُفَّ بلا سَراويلَ، فلما رأيتُه ذكَرْتُ المَنامَ. فاسْتَدْعَى به عندَ ذلك وأطْلَق له ألفَ دينارٍ وثيابًا، ورتَّبَ له على وَظيفته مائتَيْ دينارٍ كلَّ شهر، ووَعَده بخير في الآجلِ أيضًا.

أحمدُ بنُ محمد بن إسماعيلَ بن إبراهيمَ طَبَاطَبَا بن إسماعيلَ بن إبراهيمَ بن حسن بن حسن بن عليِّ ابن أبي طالب، الشَّريفُ الحَسَنيُّ الرَّسِّيُّ - قبيلةٌ من الأشْراف - أبوالقاسم المِصْريُّ الشاعرُ، كان نَقيبَ الطالبيِّين بمصرَ.

ومن شعرِه قولُه:

قالت لطَيْفِ خَيالٍ زارني ومضَى ... باللهِ صِفْه ولا تَنْقُصْ ولا تَزِدِ
فقال أبْصَرْتُه لو ماتَ من ظَمَأٍ ... وقلتَ قِفْ لا تَرِدْ للماءِ لم يَرِدِ
قالت صدَقْتَ وفاءُ الحُبِّ عادتُه ... يا بَرْدَ ذاك الذي قالت على كَبِدي

قال ابنُ خَلِّكانَ: تُوُفِّي ليلةَ الثلاثاءِ لخمسٍ بقِين من شعبانَ من هذه السنة.

ثم دخلت سنة ستٍّ وأربعين وثلاثمائة

فيها كانت فِتْنةٌ بينَ أهلِ الكَرْخ وأهلِ السُّنَّة في المذهب، بسببِ السَّبِّ، فقُتِل من الفريقَيْن خَلْقٌ كثيرٌ.

وفيها نقَص البحرُ ثمانين ذراعًا. ويقالُ: باعًا. فبدَت فيه جبالٌ وجَزائرُ لم تَكُنْ تُرَىٰ قبلَ ذلك.

وفيها كانت بالعراقِ وبلادِ الرَّيِّ والجَبَلِ وقُمَّ ونحوها زَلازلُ كثيرةٌ مُسْتمرةٌ نحوَ أربعين يومًا،

تَسْكُنُ ثم تَعودُ، فتهدَّمَت بسببِ ذلك أبنيةٌ كثيرةٌ، وغارَت مياهٌ كثيرةٌ، ومات خَلْقٌ كثيرٌ، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها تجَهَّزَ مُعِزُّ الدولة بنُ بُوَيْه لقتالِ ناصرِ الدولة بنِ حَمْدانَ الذي بالموصلِ، فراسَله ناصرُ الدولة، والْتَزَم له بأموالٍ يَحْمِلُها إليه كلَّ سنةٍ، ثم إنه منَع حملَ ما اشْتَرَط على نَفْسِه، فقصَده معزُّ الدولة في السنة الآتية كما سيأتي.

وفيها في تَشْرينَ منها كثُرَت في الناسِ أوجاعٌ في الحلقِ، والماشرًا، وكثُر موتُ الفَجاءة، حتى إن لصًّا نقَب دارًا ليَدْخُلَها، فمات وهو في النَّقْب. ولبِس القاضي خِلْعةَ القَضاءِ ليَخْرُجَ للحُكْمِ بين الناسِ، فلبِس إحدى خُفَّيْه، فمات قبلَ أن يَلْبَسَ الأُخْرىٰ.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

أحمدُ بنُ عبدِ الله بن الحسنِ، أبو هُرَيرةَ العَدَوِيُّ، المُسْتَمْلي على المَشايخِ، كتَب عن أبي مسلمٍ الكَجِّيِّ وغيرِه، وكان ثقةً. تُوُفِّي في ربيعٍ الآخر منها.

الحسنُ بنُ خَلَف بن شاذانَ، أبو عليٍّ الواسطيُّ، روىٰ عن إسحاقَ الأزرَقِ ويزيدَ بنِ هارونَ وغيرِهما، وروىٰ عنه البُخاريُّ في «صحيحه». تُوُفِّي في هذه السنةِ. هكذا رأيتُ هذه الترجمةَ في هذه السنةِ من «المنتظم» لأبي الفرجِ ابنِ الجوزيِّ. واللهُ أعلمُ.

أبو العباسِ الأصَمُّ، محمدُ بنُ يَعْقوبَ بن يوسُفَ بن مَعْقِل بن سنانِ بن عبدِ الله الأُمَويُّ، مَوْلاهم أبو العباسِ الأصَمُّ، مَوْلِدُه في سنةِ سبعٍ وأربعين ومائتين، ورأىٰ الذُّهْليَّ، ولم يَسْمَعْ منه، ورحَل به أبوه إلى أَصْبَهانَ ومكةَ ومصرَ والشامِ والجزيرةِ وبغدادَ وغيرِها من البلادِ، فسمِع الكثيرَ عن الجَمِّ الغَفيرِ، ثم رجَع إلى خُراسانَ وهو ابنُ ثلاثين سنةً، وقد صار مُحَدِّثًا كبيرًا، ثم طرَأ عليه الصَّمَمُ واستَحْكَم حتى كان لا يَسْمَعُ نَهيقَ الحمارِ، وكان مُؤَذِّنًا في مسجدِه سبعين سنةً، وحدَّث ستًّا وسبعين سنةً، فألْحَق الأحْفادَ بالأجْدادِ، وكان ثقةً صادقًا ضابطًا لِما سمِعه ويَسْمَعُه، ثم كُفَّ بَصَرُه قبلَ موتِه بشهرٍ، وكان يُحَدِّثُ من حِفْظِه بأربعةَ عشَرَ حديثًا، وسبعِ حكاياتٍ، ومات وقد بقِي له سنةٌ من المائةِ.

ثم دخلت سنة سبع وأربعين وثلاثمائة

فيها كانت زَلْزلةٌ ببغدادَ في شهرِ نَيْسانَ وفي غيرِها من البلادِ الشرْقيةِ، فمات بسببِها خَلْقٌ كثيرٌ، وخَرِبَت دُورٌ كثيرةٌ، وظهَر في آخرِ نَيْسانَ وشهرِ أَيَّارَ جَرادٌ كثيرٌ أتْلَفَ الغَلاَّتِ الصَّيفيةَ والثِّمارَ. ودخَلَت الرومُ آمِدَ، ومَيَّافارِقينَ، فقتَلوا ألفًا وخمسمائةِ إنسانٍ، وأخَذوا مدينةَ سُمَيْساطَ وأخْرَبوها. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي المُحَرَّمِ منها ركِب مُعِزُّ الدولةِ إلى الموصلِ، فأخَذها من يدِ ناصرِ الدولةِ، وهرَب ناصرُ الدولةِ إلى نَصِيبِينَ، ثم إلى مَيَّافارِقينَ، ثم لَحِقه مُعِزُّ الدولةِ، فصار إلى أخيه سيفِ الدولةِ بحلبَ، ثم راسلَ

سيفُ الدولة مُعزَّ الدولة في المصالحة بينَه وبينَ أخيه ناصرِ الدَّولة، فوقَع الصُّلْحُ على حَمْلِ كلِّ سنةٍ ألفَي ألفٍ وتسْعَمائة ألفٍ، ورجَع مُعزُّ الدولة إلى بغدادَ بعدَ انْعقاد الصُّلْح.

وفيها بعَث المُعزُّ الفاطميُّ مولاه أبا الحسنِ جَوْهرًا القائدَ في جُيوشٍ، ومعه زِيري بنُ مَنادٍ الصِّنْهاجيُّ، ففتَحوا بلادًا كثيرةً من أقْصَى المغربِ، حتى انْتَهوا إلى البحر المُحيطِ، فأمَر جَوْهَرٌ بأن يُصْطادَ له منه سمكٌ، فأرْسَل به في قِلالِ الماءِ إلى المُعزِّ الفاطميِّ، وحظِي جَوْهَرٌ عندَه، وعظُم شأنُه حتى صار له بمَنْزلةِ الوزيرِ.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعْيان:

الزُّبيرُ بنُ عبد الواحد بن محمد بن زكريا بن صالح بن إبراهيمَ، أبو عبد الله الأسداباذيُّ، رحَل وسمع الحديثَ، وطوَّفَ الأقاليمَ، سمع الحسنَ بنَ سفيانَ وابنَ خُزَيْمةَ وأبا يَعْلَى وخَلْقًا، وكان حافظًا مُتقنًا صَدوقًا، صنَّف الشُّروحَ والأبوابَ.

أبو سعيد بنُ يُونُسَ صاحبُ «تاريخ مصرَ»: هو عبدُ الرحمن بنُ أحمدَ بن يونُسَ بن عبد الأعلى الصَّدَفيُّ المصْريُّ المُؤرِّخُ، كان حافظًا مُكْثِرًا خَبيرًا بأيامِ الناسِ وتَواريخِهم، له تاريخٌ مُفيدٌ جدًّا لأهلِ مصرَ ومَن ورَد إليها.

وله ولدٌ يُقالُ له: أبو الحسن عليٌّ. كان مُنَجِّمًا، له زيجٌ مُفيدٌ يَرْجِعُ إليه أصحابُ هذا الفنِّ، كما يَرْجِعُ المحدِّثون إلى أقوالِ أبيه وما يُؤرِّخُه ويَنْقُلُه ويَحْكيه، وُلِد سنةَ إحدى وثمانين ومائتين، وتُوُفِّي في هذه السنةِ يومَ الإثنين السادسَ والعشرين من جُمادَى الآخرةِ بالقاهرةِ، رحمَه اللهُ تعالى.

ابنُ دَرَسْتَويه النَّحْويُّ، عبدُ الله بنُ جعفر بن دَرَسْتَوَيه بن المَرْزُبان، أبو محمد الفارسيُّ النَّحْويُّ، سكَن بغدادَ، وسمع عباسًا الدُّوريَّ وابنَ قُتَيْبةَ والمُبرِّدَ، وسمع منه الدارَقُطْنيُّ وغيرُه من الحُفَّاظِ، وأثْنَى عليه غيرُ واحدٍ، منهم أبو عبد الله بنُ مَنْدَه، وكانتْ وفاتُه في صفَرٍ من هذه السنةِ، وذكَر له القاضي ابنُ خَلِّكان مُصنَّفاتٍ كثيرةً مُفيدةً، فيما يَتعَلَّقُ باللغة والنحوِ وغيرِ ذلك.

محمدُ بنُ الحسن بن عبد الله بن عليِّ بن محمد بن عبد الملك ابن أبي الشَّوارب، أبو الحسن القُرَشيُّ الأُمَويُّ قاضي بغدادَ، كان حسَنَ الأخلاقِ، طَلَّابةً للحديثِ ومع هذا نُسب إلى أخْذ الرِّشْوةِ في الأحْكامِ والولاياتِ، واللهُ تعالى أعلمُ بالصواب.

محمدُ بنُ عليٍّ، أبو عبد الله الهاشميُّ الخاطبُ الدِّمشقيُّ، وأظُنُّه الذي تُنْسَبُ إليه حارةُ الخاطبِ من نواحي بابِ الصَّغيرِ، كان خَطيبَ دمشقَ في أيامِ الإخْشيدِ، وكان شابًّا حسَنَ الوجهِ، مَليحَ الشَّكْلِ، كاملَ الخَلْقِ.

تُوُفِّي يومَ الجمعةِ السابعَ والعشرين من ربيعٍ الأولِ من هذه السنةِ، وحضَر جنازَتَه نائبُ السَّلْطنةِ وخَلْقٌ كثيرٌ لا يُحصَون كثْرةً، هكذا أرَّخه ابنُ عَساكرَ، ودُفِن ببابِ الصَّغيرِ.

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة

فيها كانت فتنةٌ بينَ الرافضة وأهلِ السُّنَّة، قُتِل فيها خَلْقٌ كثيرٌ، ووقَع حَريقٌ ببابِ الطَّاقِ، وغَرِق في دِجلةَ خَلْقٌ كثيرٌ من الحُجَّاجِ من أهلِ المَوْصِلِ، نحوٌ من ستِّمائة نفسٍ، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها دخلَت الرومُ طَرَسوسَ والرُّهَا فقتَلوا وسبَوْا، وغنموا ورجَعوا سالمين، لعنهم اللهُ.

وفيها قلَّت الأمْطارُ وغلَت الأسْعارُ، واستَسقَى الناسُ فلم يُسقَوْا، وظهَر جَرادٌ عظيمٌ في آذارَ، فأكَل ما نبَت من الخَضْرواتِ، فاشْتَدَّ الأمْرُ جدًّا، فما شاء اللهُ كان، وما لم يَشأْ لم يَكُنْ.

وفيها عاد مُعِزُّ الدولةِ إلى بغدادَ من الموصِلِ، وزوَّج ابنتَه من ابنِ أخيه مُؤيِّدِ الدولةِ بنِ مُعِزِّ الدولةِ، وسيَّرها معه إلى الرَّيِّ.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعْيان:

إبراهيمُ بنُ شَيْبانَ، أبو إسحاقَ القِرْميسينيُّ، شيخُ الصُّوفيَّةِ بالجَبَلِ، صحِب أبا عبدِ الله المَغْرِبيَّ. ومن جيدِ كلامِه قولُه: إذا سكَن الخَوْفُ القلبَ أحْرَق مواضعَ الشَّهَواتِ منه، وطرَد عنه الرَّغْبَةَ في الدنيا.

أبو بكر النَّجَّادُ، أحمدُ بنُ سلمانَ بن الحسن بن إسْرائيلَ بن يونُسَ، أبو بكرٍ النَّجَّادُ الفَقيهُ، أحدُ أئمةِ الحَنابِلةِ، وُلِد سنةَ ثلاثٍ وخمسين ومائتين، سمِع عبدَ الله بنَ أحمدَ وأبا داودَ، والباغَنْديَّ وابنَ أبي الدنيا وخَلْقًا كثيرًا، وكان يَطْلُبُ الحديثَ ماشيًا حافيًا، وقد جمَع المُسْنَدَ، وصنَّف في السُّنَنِ كتابًا كبيرًا، وكانت له بجامعِ المنصورِ حَلْقتانِ؛ واحدةٌ للفقهِ وأخرى لإمْلاءِ الحديثِ.

وحدَّث عنه الدارَقُطنيُّ وابنُ رَزْقَوَيْهِ وابنُ شاهينَ وأبو بكرِ بنُ مالكٍ القَطِيعيُّ وغيرُهم، وكان يَصومُ الدَّهْرَ، ويُفْطِرُ كلَّ ليلةٍ على رغيفٍ، ويَعْزِلُ منه لُقْمةً، فإذا كان ليلةُ الجُمعةِ أكَل تلك اللُّقَمَ، وتصَدَّق برغيفِ ليلةِ الجمعة.

وكانت وفاتُه ليلةَ الجمعةِ لعشرٍ بقينَ من ذي الحِجَّةِ عن خمسٍ وتسعين سنةً، ودُفِن قريبًا من قبرِ بِشرِ بنِ الحارثِ الحافي، رحمه اللهُ.

جعفرُ بنُ محمد بن نُصَيْر بن القاسم، أبو محمد الخَوَّاصُ المَعْروفُ بالخُلْديِّ، سمع الكثيرَ، وحدَّث كثيرًا، وحجَّ ستين حَجَّةً، وكان ثقةً صَدوقًا دَيِّنًا.

محمدُ بنُ إبراهيمَ بن يوسفَ بن محمد، أبو عَمْرٍو الزَّجَّاجيُّ النَّيْسابوريُّ، صحِب أبا عثمانَ والجُنَيْدَ والنُّوريَّ والخَوَّاصَ وغيرَهم، وأقام بمكةَ، وكان شيخَ الصُّوفيةِ بها، وحجَّ ستين حجةً، ويقالُ: إنه مكَث أربَعين سنةً لم يَتَغَوَّطْ ولم يَبُلْ إلا خارجَ الحَرَمِ بالكُلِّيَّةِ.

محمدُ بنُ جعفرِ بن محمد بن فَضالةَ بن يزيدَ بن عبد الملك، أبو بكر الأدَميُّ، صاحبُ الألْحانِ، وكان من أحسنِ الناسِ صوتًا بتلاوةِ القرآنِ، وربما سمِع أهلُ كَلْوَاذَا صوتَه من بغدادَ في الليلِ.

وحجَّ مرةً مع أبي القاسمِ البَغَويِّ، فلما كانوا بالمدينةِ رأَوْا شيخًا أعْمَى يَقُصُّ على الناسِ أخْبارًا

مَوْضوعةٌ، فقال البَغَوِيُّ: يَنْبَغي الإنكارُ عليه. فقال له بعضُ الجماعة: إنك لستَ ببَغْدادَ يَعْرِفُك الناسُ، والجَمْعُ كثيرٌ ههنا، ولكن أرى أن تأمُرَ أبا بكرٍ الآدَميَّ فيَقْرأَ لنا. فاستَفْتَح، فقرأ فانجَفَل الناسُ إليه وتركوا الأعْمَى فلم يَبْقَ عنده أحدٌ، فأخَذ الأعْمَى بيدِ قائدِه وقال له: اذْهَبْ بي، هكذا تَزُولُ النِّعَمُ.

وكانت وفاتُه يومَ الأربعاءِ لليلتَيْن بقِيَتا من ربيعٍ الأولِ من هذه السنة، عن ثمانٍ وثمانين سنةً.

وقد رآه بعضُهم في المَنام بعد موتِه بمدةٍ فقال له: ما فعَل بك ربُّك؟ فقال: أوقَفَني بين يديه، وقاسَيْتُ شَدائدَ. فقلتُ له: فتلك الليالي والمَواقفُ والقراءةُ؟ فقال: ما كان شيءٌ أضرَّ عليَّ منها؛ لأنها كانت للدنيا. فقلتُ: فإلى أيِّ شيءٍ انتهَى أمرُك. فقال: قال لي اللهُ عز وجل: آلَيْتُ على نفسي أن لا أُعَذِّبَ أبناءَ الثمانين.

أبو محمد عبدُ الله بنُ أحمدَ بن عليِّ بن الحسن بن إبراهيمَ طَباطَبَا بن إسماعيلَ بن إبراهيمَ بن الحسن ابن الحسن بن عليِّ ابن أبي طالب الهاشميُّ المصريُّ، كان من سادتِها وكُرمائِها وأجوادِها، لا تَزالُ الحَلْواءُ تُعْقَدُ بدارِه، ولا يَزالُ رجلٌ يَكْسِرُ اللَّوْزَ بسببِها كلَّ يومٍ ببابِه، وللناسِ عليه رَواتبُ الحَلْواءِ، فمنهم مَن يُهْدَى إليه كلَّ يومٍ، ومنهم في الجمعةِ، وفي الشهرِ.

وكان لكافورٍ الإخْشيديِّ في كلِّ يومٍ جامَان ورَغيفٌ من الحُوَّارَى، ولما قدِم المُعِزُّ الفاطميُّ إلى القاهرةِ، تلَقَّاه وسأله: إلى مَن يَنْتَسِبُ مولانا من أهلِ البيت؟ فقال: الجوابُ إلى أهلِ البلدِ. فلما دخَل القصرَ جمَع الأشْرافَ، وسلَّ نصفَ سيفِه، وقال: هذا نَسَبي. ثم نثَر عليهم الذهبَ، وقال: هذا حَسَبي. فقالوا: سمِعْنا وأطَعْنا. والصَّحيحُ أن القائلَ للمُعزِّ هذا الكلامَ ابنُ هذا أو شَريفٌ آخرُ، واللهُ أعلمُ؛ فإن وفاةَ هذا كانت في هذا العامِ عن ثنتين وستين سنةً، والمُعِزُّ إنما قدِم مصرَ في سنةِ ثنتين وستين وثلاثمائةٍ، كما سيأتي.

ثم دخلت سنة تسع وأربعين وثلاثمائة

فيها ظهَر رجلٌ بأذْرَبِيجانَ من أولادِ عيسى بنِ المُكْتَفِي بالله، فتَلَقَّب بالمُسْتَجيرِ بالله، ودعا إلى الرِّضا من آلِ محمدٍ، وذلك لفَسادِ دولةِ المَرْزُبانِ في ذلك الزمانِ، فاقْتَتَلوا قِتالًا كثيرًا، ثم انْهَزم أصحابُ المُسْتَجيرِ، وأُخِذ أسيرًا فمات، واضْمَحَلَّ أمرُه. ولله الحمدُ.

وفيها دخَل سيفُ الدولةِ بنُ حَمْدانَ بلادَ الرومِ، فقتَل من أهلِها خَلْقًا كثيرًا، وفتَح حُصونًا، وأحْرَق بلادًا كثيرةً، وسبَى وغنِم، وكرَّ راجعًا، فأخَذَتْ عليه الرومُ الدَّرْبَ فمنَعوه من الرُّجوعِ، ووضَعوا السيفَ في أصحابِه، فما نجا في ثلاثمائةِ فارسٍ إلا بعدَ جَهْدٍ جَهيدٍ.

وفيها كانت فتنةٌ عظيمةٌ ببغدادَ بينَ الرافضةِ والسُّنةِ، قُتِل فيها خَلْقٌ كثيرٌ.

وفيها في آخرِها تُوُفِّي أُنُوجُورُ بنُ الإخْشيدِ صاحبُ مصرَ، وقام بالأمرِ بعدَه أخوه عليٌّ.

وفيها مات أبو القاسم عبدُ الله ابنُ أبي عبد الله البَريديُّ الذي كان صاحبَ الأهْوازِ وواسط.

وفيها رجَع حَجيجُ مصرَ مِن مكةَ، فنزلوا واديًا، فجاءهم سَيْلٌ فأخَذَهم كلَّهم، فألقاهم في البحرِ عن آخرهم.

وفيها أسْلَم مِن التُّرك مائتا ألف خَرْكاه، فسمُّوا تُرْكَ إيمان، ثم خُفِّف اللفظُ بذلك، فقيل: تُرْكُمانُ.

وممَّن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

جعفرُ بنُ حرب الكاتبُ، كانت له نعْمةٌ وثَرْوةٌ عظيمةٌ تُقاربُ أُبَّهَةَ الوزراء، فاجْتاز يومًا وهو راكبٌ في مَوْكِبٍ له عظيمٍ، فسمع رجلاً يَقرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]. فصاح: اللهم بلىٰ. وكرَّرها دَفَعاتٍ، ثم بكَىٰ، ثم نزَل عن دابته، ونزَع ثيابَه ودخَل إلىٰ دجْلَةَ، فاسْتَتَر بالماء، ولم يَخرُجْ منه حتىٰ فرَّق جميعَ ماله في المَظالم التي كانت عليه، وردَّها إلىٰ أهْلِها، وتصدَّق بالباقي، ولم يَبْقَ له شيء بالكُلية، فاجْتاز به رجلٌ فتَصَدَّق عليه بثوبَيْن، فلبِسهما وخرَج، فانْقَطَع إلىٰ العلم والعبادة حتىٰ مات، رحمه اللهُ.

أبو عليٍّ الحافظُ الحسينُ بنُ عليِّ بنِ يزيدَ بنِ داودَ، أبو عليٍّ الحافظُ النَّيسابوريُّ[1]، أحدُ الأئمةِ الحُفَّاظ المُتْقنين المُكثرين المُصنِّفين.

قال الدارَقُطنيُّ: كان إمامًا مُهَذَّبًا.

وكان ابنُ عُقْدَةَ لا يَتَواضَعُ لأحدٍ كتَواضُعِه له. وكانت وفاتُه في جُمادَىٰ الآخرةِ من هذه السنةِ عن ثنتَيْن وسبعين سنةً، رحمه اللهُ.

حَسَّانُ بنُ محمدِ بنِ أحمدَ بنِ هارونَ، أبو الوليدِ القُرَشيُّ، الفقيهُ الشافعيُّ، إمامُ أهلِ الحديث بخُراسانَ في زمانه، وأزهدُهم وأعبَدُهم، أخَذ الفقهَ عن ابنِ سُرَيْجٍ، وسمع الحديثَ من الحسنِ بنِ سُفيانَ وغيرِه، وله التَّصانيفُ المُفيدةُ، وقد ذكَرْنا ترجمتَه في طبقات الشافعيِّين.

وكانت وفاته ليلةَ الجمعة لخمسٍ مضَيْن من ربيع الأول من هذه السنة، عن ثنتَيْن وسبعين سنةً.

حَمْدُ بنُ محمدِ بنِ إبراهيمَ بنِ الخطاب، أبو سليمانَ الخَطَّابيُّ، سمع الكثيرَ، وصنَّف التَّصانيفَ، منها: «المَعالمُ» شرَح فيها سننَ أبي داودَ، و«الأعْلامُ» شرَح فيه البُخاريَّ، و«غَريبُ الحديث». وله فهْمٌ مَليحٌ وعلمٌ غَزيرٌ ومَعْرفةٌ باللغة والمعاني والفقه.

ومن أشْعاره:

ما دُمْتَ حيًّا فدارِ الناسَ كلَّهمُ	فإنما أنت في دارِ المُداراةِ
مَن يَدْرِ دارَىٰ ومَن لم يَدْرِ سوف يُرَىٰ	عمَّا قليلٍ نديمًا للنَّداماتِ

(١) ترجمه في «سير أعلام النبلاء» (١٦/ ٥١) وما بعدها.

هكذا ترجَمه أبو الفرج ابنُ الجَوْزيِّ في مُنتَظَمه حرفًا بحرف.

عبدُ الواحد بنُ عمرَ بن محمد ابن أبي هاشم، كان من أعلم الناس بحُروف القرآن ووجوه القراءات، وله في ذلك مُصنَّفاتٌ، وكان من الأُمَناء الثِّقات، روى عن ابن مُجاهدٍ وأبي بكر بن أبي داودَ، وعنه أبو الحسن الحَمَّاميُّ. تُوُفِّي في شَوَّالٍ منها، ودُفِن بمَقْبَرة الخَيْزُران.

أبو أحمدَ العَسَّالُ الحافظُ محمدُ بنُ أحمدَ بن إبراهيمَ بن سليمانَ بن محمد، أبو أحمدَ العَسَّالُ الأصْبَهانيُّ، أحدُ أئمة الحُفاظ وأكابر العُلماء، سمع الحديثَ وحدَّث به.

قال ابنُ مَنْدَه: كتَبْتُ عن ألفِ شيخٍ لم أرَ فيهم أتْقَنَ من أبي أحمدَ العَسَّال. تُوُفِّي في رَمضانَ منها.

ثم دخلت سنة خمسين وثلاثمائة

في المُحرَّم منها مرِض مُعِزُّ الدولة بنُ بُوَيْه بانحصار البول، فقلِق من ذلك، وجمَع بينَ حاجبِه سُبُكْتِكين ووزيرِه المُهَلَّبيِّ، وأصْلَح بينَهما ووصَّاهما بولده بَخْتيارَ خيرًا، ثم عُوفي من ذلك، فعزَم على الرَّحيل إلى الأهواز، واعتقَد أن ما أصابه من هواء بغدادَ ومائها، فأُشير عليه بالمُقام بها، وأن يَبْنيَ بها دارًا في أعلاها حيث الهواءُ أرَقُّ والماءُ أصْفَى، فبنَى له دارًا غرِم عليها ثلاثةَ عشرَ ألفَ ألفِ درهم، فاحتاج لذلك أن يُصادرَ بعضَ أصحابِه، ويقالُ: أنْفَق على هذه الدار ألفَيْ ألفِ دينار، ومات وهو يَبْني فيها، وقد خرَّب أشياءَ كثيرةً من مَعالم بغدادَ في بنائها، وكان مما خرَّب فيها المَعْشوقُ من سُرَّ مَن رَأَى، وقلَع الأبوابَ الحديدَ التي على مدينة المنصور والرُّصافة وقَصْرها، وحوَّلَها إلى داره هذه، لا تمَّت فرحتُه بها.

وفيها مات القاضي أبو السائب عُتْبةُ بنُ عبد الله، وقُبِضَت أملاكُه، وولي بعدَه القَضاءَ أبو عبد الله الحسنُ بنُ أبي الشَّوارب، وضمِن أن يُؤَدِّيَ في كلِّ سنةٍ إلى مُعزِّ الدولة مائتَيْ ألفِ درهم، فخلَع عليه مُعِزُّ الدولة، وسار ومعه الدَّبادبُ والبُوقاتُ إلى منْزِله، وهو أولُ مَن ضمِن القَضاءَ، ولم يَأذَنْ له الخَليفةُ المُطيعُ لله في الحُضور عندَه ولا في حُضور المَوْكِب لأجلِ ذلك، ثم ضمِن مُعِزُّ الدولة الشُّرْطةَ وضَمِن الحِسْبةَ أيضًا.

وفيها سار قَفَلٌ من أنْطاكيَةَ يُريدُون طَرَسُوسَ، وفيهم نائبُ أنْطاكيَةَ، فثار عليهم الفِرَنْجُ، فأخَذوهم عن بَكْرة أبيهم، فلم يُفْلِتْ منهم سوى النائبِ جَريحًا في مَواضعَ من بدنه.

وفيها دخَل نَجا غلامُ سيفِ الدولة بلاد الروم، فقتَل وسبَى وغنِم، ورجَع سالمًا.

فيها تُوُفِّي الأميرُ عبدُ الملك بنُ نوح، صاحبُ خُراسانَ، سقَط عن فرسه فمات، فقام بالأمر من بعده أخوه منصورُ بنُ نوحٍ السامانيُّ.

وفيها تُوُفِّي الناصرُ لدين الله عبدُالرحمن الأُمَويُّ، صاحبُ الأنْدَلُس، وكانت خلافتُه خمسين سنةً وستةَ أشهر، وله من العمر يومَ مات ثلاثٌ وسبعون سنةً، وترَك أحدَ عشَرَ ولدًا، وكان أبيضَ حسَنَ

الوجه، عظيمَ الجسم، طويلَ الظهر، قصير الساقين، وهو أولُ مَن تلقَّب بأمير المؤمنين من أولاد الأمويين الداخلين إلى المَغرِب، وذلك حينَ بلَغه ضَعْفُ الخلفاء بالعراق، وتَغَلُّبُ الفاطميِّين ببلاد المغرب، فتلقَّب بأمير المؤمنين قبلَ موته بثلاث وعشرين سنةً. ولما تُوُفِّي قام بالأمر من بعده ولدُه الحَكَمُ، وتلقَّب بالمستنصر، ومن جملة أولاد الناصر عبدُ الله، وكان شافعيَّ المَذهَب، ناسكًا شاعرًا، ولا يُعرَفُ في الخُلفاء أطولُ مدةً من الناصر الأمويِّ - فإنه مكَث خمسين سنةً - سوى المُستنصر بن الحاكم الفاطميِّ صاحب مصرَ، فإنه مكَث ستين سنةً، كما سيأتي بيانُ ذلك في موضعه.

وممن تُوُفِّي فيها من الأعيان:

أبو سهل بنُ زياد القَطَّانُ، أحمدُ بنُ محمد بن عبد الله بن زياد، أبو سهل القَطَّانُ، كان ثقةً حافظًا كثيرَ التلاوة للقرآن، حسَنَ الانتزاع للمَعاني منه، فمِن ذلك أنه استَدلَّ على تكفير المُعتزلة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٥٦].

إسماعيلُ بنُ عليِّ بن إسماعيلَ بن بَيان، أبو محمد الخُطَبيُّ، سمع الحارثَ ابنَ أبي أسامةَ وعبدَ الله ابنَ أحمدَ الكُدَيْميَّ وغيرَهم، وعنه الدارقُطْنيُّ وغيرُه من الحفَّاظ، وكان ثقةً حافظًا فاضلاً نَبيلاً عارفًا بأيام الناس والخلفاء، وله تاريخٌ مُرتَّبٌ على السِّنين، وكان أديبًا لبيبًا عاقلاً صدوقًا. وكانت وفاتُه في جُمادَى الآخرة من هذه السنة عن إحدى وثمانين سنةً، رحمه اللهُ.

أحمدُ بنُ محمد بن سعيد بن عُبَيد الله بن أحمدَ بن محمد ابن سعيد ابن أبي مَرْيَمَ، أبو بكر القُرَشيُّ الوَرَّاقُ، ويُعرَفُ بابن فُطَيْس، وكان حسَنَ الكتابة مَشْهوراً بها، وكان يَكتُبُ الحديثَ لابن جَوْصا، ترْجَمه ابنُ عَساكرَ، وأرَّخ وفاتَه بثاني شوال من هذه السنة.

تمَّامُ بنُ محمد بن سليمانَ بن محمد بن عبد الله - بن عبيد الله - بن العباس بن محمد بن عليِّ بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، أبو بكر الهاشميُّ العباسيُّ، حدَّث عن عبد الله بن أحمدَ، وعنه ابنُ رَزْقَوَيْه، تُوُفِّي في هذه السنة عن إحدى وثمانين سنةً أيضًا، رحمه اللهُ.

الحسينُ بنُ القاسم، أبو عليٍّ الطَّبَريُّ[1]، الفَقيهُ الشافعيُّ، أحدُ الأئمة، له «المُحرَّرُ» في الخلاف، وهو أولُ مصنَّف فيه، وله «الإفصاحُ» في المَذهَب، وكتابٌ في الجَدَل، وكتابٌ في أُصول الفقه، وغيرُ ذلك من المُصنَّفات، وقد ذكَرْناه في «الطَّبَقات».

عبدُ الله بنُ إسماعيلَ بن إبراهيمَ بن عيسى بن جعفر ابن أبي جعفر المنصور، أبو جعفر الهاشميُّ الإمامُ، ويُعرَفُ بابن بُرَيْه، وُلد سنةَ ثلاث وستين ومائتين، روَى عن ابن أبي الدنيا وغيرِه، وعنه ابنُ رَزْقَوَيْه، وكان خَطيبًا بجامع المنصور مدةً طويلةً، وقد خطَب فيه سنةَ ثلاثين وثلاثمائة، وقبلَها بمائة

(١) ترجمه في «سير أعلام النبلاء» (١٦/ ٦٢، ٦٣).

سنة خطَب فيه الواثقُ سنةَ ثلاثين ومائتين، وهما في النَّسَبِ إلى المنصور سَواءٌ. تُوُفِّي في صفَر منها.

عُتْبةُ بنُ عبد الله بن موسى بن عبيد الله، أبو السائب الهَمَذانيُّ، القاضي، الشافعيُّ، كان فاضلاً بارعًا، تقدم. وَولِيَ القَضاءَ، وكان فيه تَخْليطٌ في الأمور وقد رآه بعضُهم في المنام فقال: ما فعَل اللهُ بك؟ قال: غفَر لي، وأمَر بي إلى الجنة على ما كان مني من التَّخْليطِ، وقال لي: إني آلَيْتُ أن لا أُعَذِّبَ أبناءَ الثمانين.

وهذا الرجلُ أولُ مَن ولِي قَضاءَ القُضاة ببغدادَ من الشافعية.

محمدُ بنُ أحمدَ بن خَنْب بن أحمدَ بن راجيانَ، أبو بكر الدِّهْقانُ[1]، بغداديٌّ، سكَن بُخارَىٰ وحدَّث بها عن يحيىٰ ابنِ أبي طالبٍ والحسنِ بنِ مُكْرَمٍ وغيرِهما، وتُوُفِّي عن سبعٍ وثمانين سنةً.

أبو عليٍّ الخازنُ، تُوُفِّي في شعبانَ منها، فوُجِد في داره من الدَّفائن وعندَ الناسِ من الوَدائعِ ما يُقارِبُ أربعَمائة ألفِ دينارٍ. واللهُ أعلمُ.

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة

دخول الروم إلى حلب

فيها دخل الدُّمُسْتُقُ ملك الروم، لعنه الله، إلىٰ حلب في مائتيْ ألف مقاتل، وكان سبب ذلك أنه ورد عليها بغتةً، فنهض إليه سيف الدولة بن حمدان بمن حضر من أصحابه فقاتله فلم يقو به لكثرة جنوده، وقتل من أصحاب سيف الدولة خلقًا كثيرًا، وكان سيف الدولة قليل الصَّبر، ففرَّ منْهزمًا في نفر يسير من أصحابه، فكان أول ما استفتح به أن استحوذ علىٰ دار سيف الدولة ظاهر البلد، فأخذ منها أموالاً عظيمةً وحواصل، وعددًا للحرب لا تحصىٰ كثرةً، ثم تدنَّى فحاصر السور، فقاتل أهل البلد دونه قتالاً عظيمًا، وقتلوا خلقًا كثيرًا من الروم، وثلمت الرومُ في السور ثلمةً عظيمةً، فوقف فيها الرومُ، فحمل المسلمون عليهم، فأزاحوهم عنها، فلمَّا جنَّ الليلُ جدَّ المسلمون في عمارتها، فما أصبح الصباحُ إلا وهي كما كانت، وحفظوا السور حفظًا عظيمًا، ثم بلغ المسلمين أن رجَّالة الشُّرط قد عاثوا في البلد ينهبون الدُّورَ، فرجع الناس إلىٰ منازلهم يمنعونها منهم، وغلبت الروم علىٰ السُّورِ، فعلوه ودخلوا البلد يقتلون من لقوه، فقتلوا من المسلمين خلقًا كثيرًا، وانتهبوا الأموال والأولاد والنساء، وخلَّصوا من كان بأيدي المسلمين من أسارىٰ الروم، وكانوا ألفًا وأربعمائة، فأخذوا السيوف فقاتلوا مع قومهم، وكانوا أضرىٰ علىٰ المسلمين، وأسروا نحوًا من بضعةَ عشرَ ألفًا ما بين صبيٍّ وصبيةٍ، ومن النساء شيئًا كثيرًا، ومن الرجال ألفين، وخرَّبوا المساجد وأحرقوها، وصبُّوا في جباب الزيت الماء حتىٰ فاض الزيتُ علىٰ وجه الأرض

(١) ترجمته في «السير» (١٥/ ٥٢٣، ٥٢٤).

وهلك، وكلُّ شيءٍ لا يقدرون على حمله أحرقوه، وأقاموا في البلد تسعة أيام يفعلون هذه المفاسد العظيمة، ثم عزم الدمستق على الانصراف خوفًا من رجوع سيف الدولة، فقال له ابن أخته: أتذهب وتتركُ القلعة وراءك؟ فقال له: إنا قد بلغنا فوق ماكنا نؤمِّله، وإن بها مقاتلةً ورجالاً غزاةً. فقال: لابدَّ لنا منها. فقال له: اذْهبْ إليها. فصَمَد إليها ليحاصرها فرمْوه بحجرٍ، فقتله في الساعة الراهنة من بين الجيش كلِّه، فغضب الدُّمُسْتُقُ عند ذلك وأمر بإحضار من كان في أيديهم من أسارىٰ المسلمين، وكانوا قريبًا من ألفين، فضربتْ أعناقهم بين يديه، ثم كرَّ راجعًا، قبَّحه الله ولعنةُ الله عليه.

وقد دخلوا عين زربة قبل ذلك في المحرَّم من هذه السنة، فاستأمنهم أهلها فأمنهم الملك، وأمر بأن يدخلوا كلُّهم إلى المسجد، ومن بقيَ في منزله قتل، فصار أهلها كلُّهم في المسجد، ومن تأخَّر منهم قتل، ثم قال: لا يبقينَّ أحدٌ منكم اليوم إلا ذهب حيثُ شاء، ومن تأخَّر قتل. فازدحموا في خروجهم من المسجد، فمات كثيرٌ منهم، وخرجوا على وجوههم لا يدرون أين يذهبون، فمات في الطُّرقات منهم خلقٌ كثيرٌ، ثم هدم الجامع، وكسر المنبر، وقطع من حول البلد أربعين ألف نخْلة، وهدم سور البلد والمنازل المشار إليها منها، وأقام بها مدةً، وفتح حولها أربعةً وخمسين حصنًا؛ بعضها بالسيف وبعضها بالأمان، وقتل خلقًا كثيرًا، وأسرت الرومُ أبا فراس بن سعيد بن حمدان نائب منبج من جهة سيف الدولة، وكان شاعرًا مطبِّقًا، له ديوانٌ حسنٌ. وكان مدَّةُ مقامه بعين زربةَ أحدًا وعشرين يومًا، ثم سار إلى قيساريَّة، فلقيه أربعةُ آلاف من أهل طرسوس مع نائبها ابن الزَّيات، فقتل أكثرهم، وأدركه صومُ النصارىٰ فاشتغل به حتىٰ فرغ منه، ثم هجم على حلبَ بغتةً، فكان من أمره ما ذكرناه أيضًا.

وفي هذه السنة: كتبت العامَّةُ من الرَّوافض على أبواب المساجد ببغداد. لعن الله معاوية ابن أبي سفيان، ولعن من غصب فاطمة فدَكَ -يعنون أبا بكر، رضي الله عنه- ومن أخرج العباس من الشُّورىٰ -يعنون عمر، رضي الله عنه- ومن نفىٰ أبا ذرٍّ -يعنون عثمان، رضي الله عنه- ومن منع دفن الحسن عند جدِّه -يعنون مروان بن الحكم-. ولَمَّا بلغ ذلك معزَّ الدولة لم ينكرْه ولم يغيِّرْه، ثم بلغه أن أهل السُّنة محوا ذلك، فأمر بأن يكتب: لعن الله الظالمين لآل محمد من الأوَّلين والآخرين. والتصريح باسم معاوية في اللعن. فكتب ذلك. قبَّح الله معزَّ الدولة وشيعتَه من الرَّوافض. وكذلك سيف الدولة بن حمدان بحلب فيه تشيُّعٌ وميْلٌ إلى الروافض، ولا جرم أن الله لا ينصر أمثال هؤلاء ويديل عليهم أعداءهم، لمتابعتهم أهواءهم، وتقليدهم سادتهم وكبراءهم وآباءهم، وترك متابعتهم أنبياءهم وعلماءهم، ولهذا لَمَّا ملكت الفاطميَّةُ بلاد الشام؛ استحوذ على سواحلها كلِّها حتىٰ بيت المقدس الفرنجُ، ولم يبق مع المسلمين سوىٰ حلب وحمص وحماة ودمشق وبعض أعمالها، وجميع السواحل مع الفرنج، والنَّواقيسُ النصرانية والقسوس الإنجيليَّةُ تنعر في الشَّواهق من الحصون

والقلاع، وتكنو في أماكن المساجد وشريف البقاع.

وفيها وقعت فتنة بين أهل البصرة بسبب المذاهب، فقتل منهم خلقٌ كثيرٌ وجمٌّ غفيرٌ.

وفيها أعاد سيف الدولة بناء عين زربَةَ، وبعث مولاه نَجَا، فدخل بلاد الروم، فقتل منهم خلقًا كثيرًا وسبى جمًّا غفيرًا، وغنم وسلم، وبعث حاجبه مع جيش طرسوس، فدخلوا بلاد الروم، فغنموا وسبوْا ورجعوا سالمين، ولله الحمد والمنَّةُ.

وفيها فتح المعزُّ الفاطميُّ حصن طبرمين من بلاد المغرب ـ وكان من أحصن بلاد الفرنج ـ افتتحه قسرًا بعد محاصرة سبعة أشهر ونصف شهر. وقصدت الفرنج جزيرة أقريطش، فاستنجد أهلها بالمعزِّ، فسيَّر إليهم جيشًا، فانتصروا على الفرنج، ولله الحمد والمنةُ.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الحسن بن محمد بن هارون، أبو محمد المهلبيُّ[1]، الوزير لمعزِّ الدولة بن بويه، مكث في وزارته ثلاث عشرة سنةً، وكان فيه حلمٌ وكرمٌ وأناةٌ.

حكى أبو إسحاق الصابئ قال: كنت يومًا عنده وقد جيء بدواةٍ قد صنعت له ومرفع قد حليا بحليةٍ كثيرةٍ، فقال لي أبو محمد الفضلُ بن عبدالرحمن الشِّيرازيُّ ـ سرًّا بيني وبينه ـ: ما كان أحوجني إليها لأبيعها وأنتفع بها. فقلت: وأيُّ شيءٍ يفعل الوزير؟ فقال: يدخل في حر أمه. فسمعها الوزير وهو مصغ إلينا ولا نشعرُ، فلما أمسى بعث بالدواة إلى أبي محمد الشيرازيِّ ومرفعها وعشرة ثياب وخمسة آلاف درهم، واصطنع له غيرها، فاجتمعنا يومًا آخر عنده، وهو يوقع من تلك الدواة الجديدة، فنظر إلينا فقال: هيهِ من منكما يريدها مع الإعفاء من الدخول؟ قال: فاستحيينا، وعلمنا أنه كان سمع كلامنا يومئذٍ، وقلنا: بل يمتِّع الله الوزير بها، ويبقيه ليَهَبَ ألفًا مثلها.

توفي أبو محمد المهلَّبيُّ في هذه السنة عن أربعٍ وستين سنةً.

دعلج بن أحمد بن دعلج بن عبدالرحمن، أبو محمد السِّجستانيُّ المعدِّل[2]، سمع بخراسان وحلوان وبغداد والبصرة والكوفة ومكة، وكان من ذوي اليسار والمشهورين بالبرِّ والإفضال، وله صدقات جاريةٌ، وأوقافٌ دارَّةٌ على أهل الحديث ببغداد ومكة وسجستان.

وكانت له دارٌ عظيمةٌ ببغداد، فكان يقول: ليس في الدنيا مثلها؛ لأنه ليس في الدنيا مثل بغداد، ولا في بغداد مثل القطيعة، ولا في القطيعة مثل درب أبي خلفٍ، وليس في درب أبي خلف مثل داري.

وصنَّف الدارقطنيُّ له مسندًا، وكان إذا شكَّ في حديث تركه، فكان الدارقطنيُّ يقول: لم أرَ في مشايخنا أثبت منه.

---

(١) ترجمته في «السير» (١٦/ ١٩٧، ١٩٨).

(٢) ترجمته في «السير» (١٦/ ٣٠) وما بعدها.

وقد أنفق في أهل العلم ذوي الحاجات أموالاً جزيلةً كثيرةً جدًا، اقترض منه بعض التُّجَّار عشرة آلاف دينار فضمن بها ضياعًا، فربح في مدة ثلاث سنين ثلاثين ألف دينار، فعزل منها عشرة آلاف دينار، وجاءه بها، فأضافه دعلجٌ ضيافةً حسنةً، فلما فرغ من شأنها قال: ما شأنك؟ قال له: هذه الدنانير التي تفضلت بها قد حضرت. فقال: يا سبحان الله! إني لم أعطكها لتردها، فحلَّ بها الأهل. فقال: إني قد ربحت ثلاثين ألف دينار، فهذه منها، فقال له دعلجٌ: اذهبْ بها، بارك الله لك. فقال له: كيف يتسع مالك لهذا؟ ومن أين أفدت هذا المال؟ فقال: إني كنت في حداثة سنِّي أطلب الحديث، فجاءني رجلٌ تاجرٌ من أهل البحر، فدفع إليَّ ألف ألف درهم، وقال: اتَّجرْ في هذه، فما كان من ربح فبيني وبينك، وما كان من خسارة فعليَّ دونك، وعليك عهد الله وميثاقه إن وجدت حاجةً أو خلَّةً فسدَّها من مالي هذا. ثم جاءني فقال: إني ساركبُ في البحر، فإن هلكت فالمال في يدك على ما شرطت عليك. فهو في يدي على ما قال. ثم قال لي: لا تخبرْ بهذا أحدًا مدة حياتي. فلم أخبرْ به أحدًا حتى مات.

وقد كانت وفاته في جمادى الآخرة من هذه السنة عن أربع أو خمسٍ وتسعين سنةً، رحمه الله.

عبدالباقي بن قانع بن مرزوقٍ أبو الحسين الأمويُّ مولاهم[1] سمع الحارث ابن أبي أسامة، وعنه الدارقطنيُّ وغيره، وكان من أهل الثقة والأمانة والحفظ، ولكنه تغيَّر في آخر عمره.

قال الدارقطنيُّ: كان يخطئُ، ويصرُّ على الخطأ. توفِّي في شوَّال منها.

أبو بكر النَّقَّاشُ المفسِّرُ، محمد بن الحسن بن محمد بن زياد بن هارون بن جعفر، أبو بكر النَّقَّاشُ[2] المفسر المقرئ، مولى أبي دجانة سماك بن خرشة، وأصله من الموصل، وكان عالمًا بالتفسير والقراءات، وسمع الكثير في بلدانٍ شتَّى عن خلقٍ من المشايخ، وحدَّث عنه أبو بكر ابن مجاهدٍ، والخُلْديُّ وابن شاهين وابن رزقويه وخلقٌ، وآخر من حدَّث عنه أبو عليٍّ ابن شاذان، وتفرَّد بأشياء منكرةٍ، وقد وقفه الدارقطنيُّ على كثير من أخطائه، فرجع عن ذلك، وصرَّح بعضهم بتكذيبه. فالله أعلم. وله كتابُ التفسير الذي سمَّاه «شفاء الصُّدور»، فقال بعضهم: «بل هو إشفاءُ الصُّدور».

وقد كان رجلاً صالحًا في نفسه عابدًا ناسكًا، حكى من حضره يجود بنفسه، وهو يدعو بدعاء، ثم رفع صوته يقول: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١] يرددها ثلاث مراتٍ، ثم خرجت روحه، رحمه الله. وكانت وفاته يوم الثلاثاء من شوالٍ منها، ودفن في داره بدار القطن.

محمد بن سعيد أبو بكر الحربي الزاهدُ، ويعرف بابن الضرير، كان ثقةً عابدًا. ومن قوله: دافعت الشهوات حتى صارت شهوتي المدافعة.

(١) ترجمته في «السير» (١٥/ ٥٢٦) وما بعدها.

(٢) ترجمته في «السير» (١٥/ ٢٦٠) وما بعدها.

ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين وثلاثمائة

في عاشر المحرَّم من هذه السنة أمر معزُّ الدولة بن بويه، قبَّحه الله، أن تغلق الأسواق وأن يلبس الناس المسوح من الشَّعْر، وأن تخرج النساء حاسرات عن وجوههن، ناشرات شعورهن في الأسواق يلطمنَ وجوههن، ينحن على الحسين بن عليٍّ، ففعل ذلك، ولم يمكنْ أهل السُّنَّة منع ذلك؛ لكثرة الشِّيعة، وكون السُّلطان معهم.

وفي ثامن عشر ذي الحجَّة منها أمر معزُّ الدولة بإظهار الزِّينة ببغداد وأن تفتح الأسواق بالليل كما في الأعياد، وأن تضرب الدبادبُ والبوقاتُ، وأن تشعل النِّيرانُ بأبواب الأمراء وعند الشُّرط؛ فرحًا بعيد الغدير - غدير خمٍّ - فكان وقتًا عجيبًا ويومًا مشهودًا، وبدعةً ظاهرةً منكرةً.

وفيها: أغارت الأرمنُ على الرُّها، فقتلوا وأسروا، ورجعوا موقرين لعنهم الله، وثارت الرومُ بملكهم فقتلوه، وولَّوا غيره، ومات الدُّمستُقُ ملك الأرمن، واسمه النِّقفُورُ، وهو الذي أخذ حلبَ ولتكتَبْ ترجمتُه في آخر الجزء.

وفيها: عزل ابن أبي الشَّوارب عن القضاء، ونقضت سجلاته، وأبطلت أحكامه مدة أيامه، ووليَ القضاء أبو بشر عمر بن أكثم بلا رزقٍ، ورفع عنه ما كان يحمله ابن أبي الشَّوارب في كلِّ سنةٍ، ولله الحمد.

وفي ذي الحجَّة استسقى الناس لتأخُّر المطر وذلك في كانون الثاني.

وحكى ابن الجوزيِّ في «المنتظم» عن ثابت بن سنان المؤرِّخ قال: حدثني جماعةٌ من أهل الموصل ممَّن أثقُ بهم أن بعض بطارقة الأرمن أنفذ في سنة ثنتين وخمسين وثلاثمائة إلى ناصر الدولة بن حمدان رجلين من الأرمن ملتصقين، سنُّهما خمسٌ وعشرون سنةً، ملتحمين، ومعهما أبوهما، ولهما سرَّتان وبطنان ومعدتان، وجوعهما يختلفُ، وكان أحدهما يميل إلى النساء، والآخرُ يميل إلى الغلمان، وكان يقع بينهما خصومةٌ وتشاجرٌ، وربما حلف أحدهما لا يكلمُ الآخر، فيمكث كذلك أيامًا، ثم يصطلحان، فوهبهما ناصر الدولة ألفيْ درهم، وخلع عليهما، ودعاهما إلى الإسلام، فيقال: إنهما أسلما. وأراد أن يبعثهما إلى بغداد، ليراهما الناس، ثم رجع عن ذلك، ثم إنهما رجعا إلى بلدهما مع أبيهما، فاعتلَّ أحدهما، ومات وأنتن ريحه، وبقي الآخر لا يمكنه التخلُّصُ منه، وكان اتِّصالُ ما بينهما من الخاصرتين، وقد كان ناصرُ الدولة أراد فصْلَ أحدهما عن الآخر، وجمع الأطبَّاء لذلك فلم يمكنْ، فلما مات أحدهما حار أبوهما في فصله عن أخيه، فاتفق اعتلالُ الآخر من غمِّه ونتنِ رائحة أخيه، فمات غمًّا، فدفنا جميعًا في قبر واحد.

ومن توفي فيها من الأعيان:

عمر بن أكثم بن أحمد بن حيّان بن بشر، أبو بشر الأسدي[1] الفقيهُ الشافعيُّ، ولد سنة أربع وثمانين ومائتين، ووليَ القضاء في زمن المطيع نيابةً عن أبي السائب عتبة بن عبيد الله، ثم ولي قضاء القضاة، وهو أول من ولي قضاء القضاة من الشافعية سوى أبي السائب، وكان محمود السِّيرة في القضاء، وكانت وفاتُه في ربيع الأول من هذه السنة.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة

في عاشر المحرَّم منها عملت الرافضة عزاء الحسين كما تقدَّم في السنة الماضية، فاقتتل الرَّوافضُ وأهلُ السُّنَّة في هذا اليوم قتالاً شديدًا، وانتهبت الأموالُ.

وفيها: عصىٰ نجا غلامُ سيف الدولة عليه، وذلك أنه كان في العام الماضي قد صادر أهل حرَّان، وأخذ منهم أموالاً كثيرةً فتمرَّد بها، وذهب إلىٰ بلاد أذربيجان، فأخذ طائفةً منها من يد رجلٍ من الأعراب يقال له: أبو الورد. فقتله وأخذ من أمواله شيئًا كثيرًا، وقويت شوكتُه بسبب ذلك، فسار إليه سيف الدولة، فأخذه، وأمر بقتله، فقتل بين يديه، وألقيت جيفته في الأقذار ومحلِّ الجيف والنتن.

وفيها بجاء الدُّمستق إلىٰ المصيصة في جيش كثيفٍ فحاصرها ونقب سورها، فدافعه أهلها، فأحرق رستاقها، وقتل ممَّن حولها خمسة عشر ألفَ إنسان، وعاثوا فسادًا في بلاد أذَنَة وطرسوسَ، وكرّوا راجعين إلىٰ بلادهم، قبَّحهم الله.

وفيها قصد معزُّ الدولة الموصل وجزيرة ابن عمر فأخذها من يد ناصر الدولة بن حمدان، ثم سار في طلب ناصر الدولة، فكرَّ ناصر الدولة في جيش قد هيَّأه، فاسترجع الملك من يد معزِّ الدولة، فعاد معزُّ الدولة فأخذ الموصل، وأقام بها، فراسله في الصلح صاحبها، فاصطلحا علىٰ أن يكون الحملُ في كل سنةٍ، وأن يكون أبو تغلب ابن ناصر الدولة وليَّ عهد أبيه من بعده، فأجاب معزُّ الدولة إلىٰ ذلك، وكرَّ راجعًا إلىٰ بغداد بعد ما جرت له خطوبٌ عظيمةٌ طويلةٌ قد استقصاها ابن الأثير في «كامله» وبسطها.

وفيها ظهر رجلٌ ببلاد الدَّيلم، وهو أبو عبدالله محمد بن الحسين من أولاد الحسن بن عليٍّ، ويعرف بابن الدّاعي، فالتفَّ عليه خلقٌ كثيرٌ، ودعا إلىٰ نفسه، وتسمَّىٰ بالمهديِّ، وكان أصله من بغداد، وعظم شأنُه بتلك البلاد، وهرب منه ابن الناصر العلويُّ.

وفيها قصد ملك الروم، وفي صحبته الدمستقُ ملك الأرمن بلاد طرسوس، فحاصروها مدةً، ثم غلت عليهم الأسعارُ، وأخذ فيهم الوباءُ، فمات كثيرٌ منهم، فكرُّوا راجعين، كما قال الله تعالىٰ:

---

(١) ترجمته في «السير» (١٦/ ١١١).

﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب: ٢٥]. وكان من عزمهم أنهم يستحوذون على البلاد كلِّها، فرجعوا خاسئين.

وفيها: كانت وقعة المجاز ببلاد صقلِّيَة، وذلك أنَّه أقبل من الرُّوم خلقٌ كثيرٌ ومن الفرنج ما يقارب المائة ألف، فبعث أهل صقلِّيَةَ إلى المعزِّ الفاطميِّ يستنجدونه، فبعث إليهم بجيوشٍ كثيرة في الأسطول، فكانت بين المسلمين والمشركين وقعةٌ عظيمةٌ صبر فيها الفريقان من أول النَّهار إلى العصر، ثم قتل أمير الروم منويلُ، وفرَّت الرومُ، وانهزموا هزيمةً قبيحةً، فقتل المسلمون منهم خلقًا كثيرًا، وسقط الفرنجُ في وادٍ من الماء عميقٍ فغرق أكثرهم، وركب الباقون في المراكب، فبعث الأمير أحمد صاحب صقلِّيَةَ في آثارهم مراكب أُخَرَ، فقتلوا أكثر المشركين في البحر أيضًا، وغنم المسلمون في هذه الغزوة شيئًا كثيرًا؛ من الأموال والحيوانات والأمتعة والأسلحة، فكان في جملة ذلك سيف مكتوبٌ عليه: هذا سيفٌ هنْديٌّ زنته مائةٌ وسبعون مثقالاً، طالما قوتل به بين يدي رسول الله ﷺ. فبعث في جملة تحف إلى المعزِّ القاطميِّ إلى إفريقيَّة.

وفيها: قصدت القرامطةُ مدينة طبريَّةَ ليأخذوها من يد الإخْشيد صاحب مصر والشام، وطلبوا من سيف الدولة أن يمدّهم بحديدٍ يتَّخذون منه سلاحًا، فقلع لهم أبواب الرَّقَّة ـ وكانت من حديدٍ، حتى أخذ أواقيَ الباعة، وأرسل بذلك كلِّه إليهم حتى قالوا: اكتفينا.

وفيها: طلب معزُّ الدولة من الخليفة المطيع لله أن يأذن له في دخول دار الخلافة ليتفرَّج فيها فأذنَ له فدخلها، فبعث خادمه وحاجبه معه، فطافوا معه فيها، وهو مسرعٌ خائفٌ، ثم خرج وقد خاف من غائلة ذلك، وخشيَ أن يقتلَ في بعض الدهاليز، فتصدَّق بعشرة آلاف لما خرج شكرًا لله على سلامته، وازداد حبًّا في الخليفة المطيع لله من يومئذٍ، فكان في جملة ما رأى من العجائب بها صنمٌ من نحاس على صورة امرأة حسناء جدًا، وحولها أصنامٌ صغارٌ في هيئة الخدَم لها، كان قد أُتي به في زمن المقتدر، فأقيم هناك ليتفرَّج عليه الجواري والنِّساء، فهمَّ المعزُّ أن يطلبه من الخليفة، ثم ارتأى فترك ذلك.

وفي ذي الحجَّة منها خرج رجلٌ بالكوفة، فادَّعى أنه علويٌّ، وكان يتبرقع، فسُمِّي المبرقع، وغلظت قضيته وبعد صيته، وذلك في غيبة معزِّ الدولة عن بغداد واشتغاله بأمر الموصل وناصر الدولة ابن حمدان، فلمَّا توطدت الأمور وعاد إلى بغداد اختفى المبرقع، وذهب في البلاد، فلم يفتحْ له أمرٌ بعد ذلك.

ممن توفي فيها من الأعيان:

بكار بن أحمد بن بكار بن بنان بن بكار بن زياد بن درستويه، أبو عيسى المقرئ روى الحديث عن عبدالله بن أحمد، وعنه أبو الحسن الحمَّاميُّ، وكان ثقة، أقرأ القرآن أزيد من ستين سنةً،

رحمه الله. وكانت وفاته في ربيع الأول منها وقد جاوز السبعين وقارب الثمانين، ودفن بمقبرة الخيزران عند قبر أبي حنيفة.

أبو إسحاق الهجيمي[1]، ولد سنة خمسين ومائتين، وسمع الحديث، وكان إذا سئل أن يحدث يقسم أن لا يحدث حتى يجاوز المائة، فأبرَّ الله قسمه، وجاوزها فأسمع. توفي عن مائة سنة وثلاث سنين، رحمه الله.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وثلاثمائة

في عاشر المحرَّم منها عملت الشِّيعة المأتم على ما تقدَّم في السنتين الأولتين، وغلِّقت الأسواق وعلقت المسوح، وخرجت النساء سافرات ناشرات، ينحن ويلطمن وجوههن في الأسواق والأزقة، وهذا تكلُّفٌ لا حاجة إليه في الدين ولا في الدنيا، ولو كان هذا أمرًا محمودًا لكان صدر هذه الأمة وخيرتها أولى به؛ إذ لو كان خيرًا لسبقونا إليه، وأهل السُّنَّة يقتدون ولا يبتدعون، وتسلطت أهل السُّنَّة على الروافض، فكبسوا مسجد براثا الذي هو عشُّ الرَّوافض، وقتلوا بعض من كان فيه من القومة.

وفيها في رجب منها جاء ملك الروم بجيوش كثيفةٍ إلى المصِّيصة، ففتحها قسرًا، وقتل من أهلها خلقًا، واستاق بقيتهم معه أسارى وكانوا قريبًا من مائتي ألف إنسان، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وجاء إلى طرسوس، فسأل أهلها منه الأمان، فأمَّنهم، وأمرهم بالجلاء عنها والانتقال منها، فاتخذ الجامع إسطبلاً لخيوله، وحرَّق المنبر، ونقل قناديله إلى كنائس بلده، وتنصَّر بعض أهلها معه، لعنه الله.

وكان أهل طرسوس والمصِّيصة قد أصابهم قبل هذا البلاء غلاءٌ عظيمٌ ووباءٌ شديدٌ بحيث كان يموت منهم في اليوم الواحد ثلاثمائة نفر، ثم دهمهم هذا الأمر الشديد، فانتقلوا من شهادة إلى شهادة أعظم منها.

وعزم ملك الروم على المقام بطرسوس ليكون أقرب إلى بلاد المسلمين، ثم عنَّ له فسار إلى القسطنطينيَّة، وفي خدمته الدمستقُ ملك الأرمن، لعنهما الله.

وفيها: جعل أمر تسفير الحجيج إلى نقيب الطالبيِّين، وكتب له منشورٌ بالنقابة والحجيج، وهو أبو أحمد الحسين بن موسى الموسويُّ، وهو والد الرَّضيِّ والمرتضى.

وفيها: توفيت أختُ معزِّ الدولة، فركب الخليفة في طيَّارة، وجاء إليه فعزاه، فقبَّل معزُّ الدولة الأرض بين يديه، وشكر له سعيه إليه، وصدقاته عليه.

---

(١) ترجمته في «السير» (١٥/ ٥٢٥).

وفي ثامن عشر ذي الحجَّة عملت الروافضُ عيد غدير خمٍّ على العادة الجارية التي ذكرناها.

وفيها: تغلَّب على أنطاكيةَ رجلٌ يقال له: رشيقٌ النُّسَيْميُّ. بمساعدة رجل يقال له: ابن الأهوازيِّ. كان يضمن الطواحين، فأعطاه أموالاً، وأطمعه في أخذ أنطاكية، وأخبره أن سيف الدولة قد اشتغل بميافارقين، وعجز عن الرجوع إلى حلب، فتمَّ لهما ما راماه من أخذ أنطاكيةَ، ثم ركبا منها في جيوش إلى حلب، فجرت بينهما وبين نائب سيف الدولة حروبٌ عظيمةٌ، ثم أخذ البلد، وتحصَّن النائب بالقلعة، وجاءت النجدةُ من سيف الدولة إلى حلب مع غلام له اسمه بشارةُ، فانهزم رشيقٌ، فسقط عن فرسه، فابتدره بعض الأعراب فقتله وأخذ رأسه، فجاء به إلى حلبَ، واستقلَّ ابن الأهوازيِّ سائرًا إلى أنطاكيةَ، فأقام رجلاً من الروم اسمه دزبرُ، فسمَّاه الأمير، وأقام آخر من العلويِّين ليجعله خليفةً، وسمَّاه الأستاذ، فقصده نائب حلب، وهو قرعويه، فاقتتلا قتالاً شديدًا، فهزمه ابن الأهوازيِّ واستقرَّ بأنطاكية، فلما عاد سيف الدولة إلى حلبَ لم يبتْ بها إلا ليلةً واحدةً حتى سار إلى أنطاكيةَ، فاقتتلوا قتالاً عظيمًا، ثم انهزم دزبرُ وابن الأهوازيِّ، وأسرا فقتلهما سيف الدولة بن حمدان.

وفيها: ثار رجلٌ من القرامطة اسمه مروان، كان يحفظ الطُّرقات لسيف الدولة بحمص، فملكها وما حولها، فقصده جيشٌ من حلب مع الأمير بدرٍ، فاقتتلوا معه، فرماه بدرٌ بسهم مسموم فأصابه، واتفق أن أسر أصحابُ مروان بدرًا، فقتله مروان بين يديه صبرًا، ومات مروان بعد أيام، وتفرَّق أصحابه، قبَّحهم الله.

وفيها: عصى أهل سجستان أميرهم خلف بن أحمد، وذلك أنه حجَّ في سنة ثلاث وخمسين، واستخلف عليهم طاهر بن الحسين، فطمع في الملك بعده، واستمال أهل البلد، فلما رجع من الحجِّ لم يسلمه البلد، وعصى عليه، فذهب إلى بخارى إلى الأمير منصور بن نوح السامانيِّ، فاستنجده، فبعث معه جيشًا، فاستنقذ البلد من طاهر، وسلَّمها إلى الأمير خلف بن أحمد - وقد كان خلفٌ عالمًا محبًّا للعلماء - فذهب طاهرٌ، فجمع جموعًا، ثم جاء فحاصر خلفًا، وأخذ منه البلد، فرجع خلفٌ إلى الأمير منصور السامانيِّ، فبعث معه من استرجع له البلد ثانيةً، وسلَّمها إليه، فلما استقرَّ خلفٌ بها وتمكن فيها منع ما كان يحمله من الهدايا والتحف والخلع إلى الأمير منصور السامانيِّ ببخارى، فبعث إليه جيشًا، فتحصَّن خلفٌ في حصن يقال له: حصن أرك. فنازله الجيشُ فيه تسع سنين لم يقدروا عليه، وذلك لمناعة هذا الحصن وصعوبته وعمق خندقه وارتفاعه، وسيأتي ما آل إليه أمره بعد ذلك.

وفيها: قصدت طائفة من التُّرْك بلاد الخزر، فاستنجد الخزرُ بأهل خوارزم، فقالوا: لو أسلمتم لنصرناكم. فأسلموا إلا ملكهم، فقاتلوا معهم التُّرْك، فأجلوهم عنهم، ثم أسلم الملك بعد ذلك. ولله الحمدُ والمنَّةُ.

وممن توفي فيها من الأعيان:

المتنبي الشاعر المشهور أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبدالصمد أبو الطيب الجعفي[١] الشاعر المعروف **بالمتنبي**، كان أبوه يعرف بعيدان السقاء، وكان يستقي الماء لأهل الكوفة على بعير له وهو شيخ كبير.

وعيدان هذا، قال ابن ماكولا والخطيب: هو بكسر العين وبعدها ياءٌ مثنَّاةٌ من تحت. وقيل: بفتح العين لا كسرها. فالله أعلم.

كان مولد المتنبي بالكوفة سنة ستٍّ وثلاثمائة، ونشأ بالشام بالبادية، وطلب الأدب، ففاق أهل زمانه فيه، ولزم جناب سيف الدولة بن حمدان وامتدحه، وحظي عنده، ثم صار إلى مصر، فامتدح كافورًا الإخشيديَّ، ثم هجاه، وهرب منه، وورد بغداد، فامتدح بعض أهلها، وقرئ عليه ديوانه فيها.

وقدم الكوفة، فامتدح ابن العميد، فوصله من جهته ثلاثون ألف دينار، ثم سار إلى فارس، فامتدح عضد الدولة بن بويه، فأطلق له أموالاً جزيلةً تقاربُ مائتيْ ألف درهم، وقيل: بل حصل له نحوٌ من ثلاثين ألف دينار. ثم دسَّ إليه من يسأله: أيُّما أحسنُ؛ عطايا عضد الدولة بن بويه أو عطايا سيف الدولة بن حمدان؟ فقال: هذه أجزلُ ولكن فيها تكلُّفٌ، وتلك أقلُّ ولكن عن طيب نفسٍ من معطيها؛ لأنها عن طبيعةٍ وهذه عن تكلُّفٍ. فذكر ذلك لعضد الدولة، فتغيَّظ عليه، ودسَّ إليه طائفةً من الأعراب، فوقفوا له في أثناء الطريق وهو راجعٌ إلى بغداد، ويقال: إنه قد كان هجا مقدَّمهم ابن فاتك الأسديَّ - وقد كانوا يقطعون الطريق - فلهذا أوعز إليهم عضدُ الدولة أن يتعرضوا له فيقتلوه، ويأخذوا ما معه من الأموال، فانتهوا إليه وهم ستون راكبًا في يوم الأربعاء، وقد بقي من رمضان ثلاثة أيام. وقيل: بل قتل في يوم الإثنين لخمس بقين من رمضان. ويقال: بل كان ذلك في شعبان. وقد نزل عند عين تحت شجرة إنجاصٍ وقد وضعت سفرته ليتغدَّىٰ ومعه ولده محسَّدٌ وخمسة عشرَ غلامًا له، فلما رآهم قال: هلمُّوا يا وجوه العرب. فلما لم يكلِّموه أحس بالشرِ فنهض إلى سلاحه وخيله، فتواقفوا ساعةً، فقتل ابنه محسَّدٌ وبعض غلمانه، وأراد هو أن ينهزم، فقال له مولى له: أين تذهب، وأنت القائل:

فالخيلُ والليلُ والبيداءُ تعرفني ... والحربُ والضربُ والقرطاسُ والقلمُ

فقال: ويحك! قتلتني. ثم كرَّ راجعًا، فطعن زعيم القوم برمح في عنقه، فقتله، فاجتمعوا عليه فشجروه بالرِّماح حتى قتلوه، وأخذوا جميع ما كان معه من الأموال، وذلك بالقرب من النعمانيَّة، وهو آيبٌ إلى بغداد، ودفن هنالك وله من العمر ثمانٍ وأربعون سنةً.

(١) ترجمته في «السير» (١٦/ ١٩٩) وما بعدها.

وذكر ابن عساكر أنه لما نزل في المنزلة التي كانت قبل منزلته هذه؛ سأله بعض الأعراب أن يعطيهم خمسين درهمًا ويخفرونه، فمنعه الشُّحُّ والكِبْرُ ودعوى الشجاعة من ذلك.

وقد كان المتنبِّي جعفيَّ النسب، صلبُه منهم، وقد ادعى حين كان مع بني كلب بأرض السَّماوة قريبًا من حمص أنه علويٌّ ثم حسنيٌّ، ثم ادَّعَى أنه نبيٌّ، فاتبعه جماعةٌ من جهلتهم وسفلتهم، وزعم أنه أنزل عليه قرآنٌ، فمن ذلك: والنَّجْم السَّيَّار، والفلك الدَّوَّار، والليل والنهار، إن الكافرَ لفي أخطار، امض على سنَّتك واقفُ أثر من كان قبلك من المرسلين، فإن الله قامعٌ بك زيغ من ألحد في دينه، وضلَّ عن سبيله. وهذا من خذلانه، وكثرة هذيانه في قرآنه، ولو لزم فاقية مدحه، والهجاء، لكان أشعرَ الشُّعراء، وأفصَحَ الفصحاء، ولكن أراد بجهله وقلة عقله أن يقول ما يشبه كلام ربِّ الأرض والسَّماء، الذي لا يشبهه شيء من الأشياء، لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله وأحواله، تعالى الله خالقُ الأشياء.

ولما اشتهر خبره بأرض السَّماوة، وأنه قد التفَّ عليه جماعةٌ من أهل الغباوة، خرج إليه نائبُ حمص من جهة بني الإخشيد، وهو الأمير لؤلؤٌ، بيَّض الله وجهه، فقاتله وشرَّد شمله، وأسره وسجنه دهرًا طويلاً فمرض في السجن، وأشرف على التَّلَف، فاستحضره واستتابه، وكتب عليه كتابًا اعترف فيه ببطلان ما ادَّعاه، وأنه قد تاب من ذلك، ورجع إلى دين الإسلام، وأطلق سراحه، فكان بعد ذلك إذا ذكِّر بهذا يجحده إن أمكنه جحده وإلا اعتذر منه واستحيا، وقد اشتهر بلفظة تدلُّ على كذبه فيما كان ادَّعاه من الإفك والبهتان، وهي لفظةُ «المُتَنبِّي»، الدالةُ على الكذب، ولله الحمد والمنَّةُ.

وقد قال بعضهم يهجوه:

أيُّ فضلٍ لشاعرٍ يطلبُ الفَضْـ	ـلَ من الناس بُكْرَةً وعشيَّا
عاش حينًا يبيعُ في الكوفة الما	ءَ وحينًا يبيعُ ماءَ المحيَّا

وللمتنبِّي ديوانٌ مشهورٌ في الشِّعر، فيه أشعارٌ رائقةٌ ومعانٍ ليست بمسبوقةٍ، بل مبتكرةٌ سابقةٌ، وهو في الشُّعراء المحدثين كامرئ القيس في الشُّعراء المتقدِّمين - وهو عندي بخط يده - فيما ذكر من له خبرةٌ بهذه الأشياء، مع تقدُّم أمره. وقد ذكر أبو الفرج ابن الجوزيِّ في «منتظمه» قطعًا رائقةً استحسنها من ديوانه، وكذلك الحافظ الكبير أبو القاسم ابن عساكر شيخ إقليمه وحافظُ زمانه.

فممَّا استملحه أستاذُ الوعاظ الشيخ أبو الفرج ابن الجوزيِّ قول المتنبِّي:

عزيزٌ أسى من داؤُه الحدقُ النُّجْلُ	عياءٌ به مات المحبُّون من قبلُ
فمن شاء فلينظرْ إليَّ فمنظري	نذيرٌ إلى من ظنَّ أن الهوى سهلُ
جرى حبُّها مجرى دمي في مفاصلي	فأصبح لي عن كله شغُلٍ بها شغْلُ
ومن جسدي لم يترك السُّقْمُ شعرةً	فما فوقها إلا وفيه له فعْلُ

كأنَّ رقيبًا منك سدَّ مسامعي عن العذل حتى ليس يدخلها العذلُ
كأنَّ سهاد الليل يعشقُ مقلتي فبينهما في كل هجرٍ لنا وصلُ

ومن ذلك قوله:

كشفتْ ثلاث ذوائب من شعرها في ليلة فأرتْ لياليَ أربَعَا
واستقبلتْ قمرَ السَّماء بوجهها فأرتْنيَ القمرينَ في وقت معا

ومن ذلك قوله:

ما نال أهلُ الجاهلية كلُّهم شعْري ولا سمعت بسحريَ بابلُ
وإذا أتتْك مذمَّتي من ناقص فهي الشَّهادةُ لي بأنيَ فاضلُ
من لي بفهمْ أهيل عصرٍ يدَّعي أن يحسبَ الهنديَّ منهم باقلُ

ومن ذلك قوله:

ومن نكد الدنيا على الحرِّ أن يرى عدوًّا له ما من صداقته بُدُّ

وقوله:

وإذا كانت النفوسُ كبارًا تعبت في مرادها الأجسامُ

وقوله:

ومن صحب الدنيا طويلاً تقلَّبت على عينه حتى يرى صدقها كذبًا

وله أيضًا:

خذْ ما تراه ودعْ شيئًا سمعت في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

وله في مدح بعض الملوك الذين كانوا يستمنحُ منهم العطاءَ:

تمضي المواكبُ والأبصارُ شاخصةٌ منها إلى الملك الميمون طائرُهُ
قد حرنَ في بشرٍ في تاجه قمر في درعه أسدٌ تدمى أظافره
حلو خلائقه شوسٍ حقائقُه يحصى الحصى قبل أن تحصى مآثرُهُ

ومنها قوله:

يا من ألوذ به فيما أؤمِّلُه ومن أعوذ به مما أحاذرُهُ
لا يجبُرُ الناسُ عظمًا أنت كاسره ولا يهيضون عظمًا أنت جابرُهُ

وقد بلغني عن شيخنا العلاَّمة أبي العباس أحمد ابن تيميَّةَ، رحمه الله، أنه كان ينكرُ على المتنبِّي هذه المبالغة ويقولُ: إنما يصلحُ هذا لجناب الله عزَّ وجلَّ.

وأخبرني العلاَّمة شمسُ الدِّينِ ابن القيِّم، رحمه الله، أنه سمع الشيخ يقول: ربما قلتُ هذين البيتَيْن في السجود.

ومما أورده الحافظ أبو القاسم ابن عساكر من شعر المتنبِّي في ترجمته قوله:

وبعين مفتقر إليك رأيتني ... فهجرتني ونزلت بي من حالق

لست الملوم أنا الملومُ لأنني ... أنزلتُ حاجاتي بغير الخالق

قال القاضي ابن خلِّكان: وهذان البيتان ليسا في ديوانه، وقد عزاهما الحافظ الكنديُّ إليه بسندٍ صحيحٍ.

ومن ذلك قوله:

إذا غامرت في شرف مرومِ ... فلا تقنعْ بما دونَ النجومِ

فطعمُ الموت في أمرٍ حقيرٍ ... كطعم الموت في أمرٍ عظيم

ومن ذلك قوله:

وما أنا بالباغي على الحُبِّ رشوة ... قبيحٌ هوًى يرجَى عليه ثوابُ

إذا نلتُ منك الودَّ فالمالُ هيِّنٌ ... وكلُّ الذي فوقَ الترابِ ترابُ

وقد تقدَّم أنه ولد بالكوفة سنة ستٍّ وثلاثمائةٍ، وأنه قتل في رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة.

قال ابن خلكان: وقد فارق سيف الدولة بن حمدان سنة ستٍّ وأربعين لما كان من ابن خالويه ما كان من ضربه إياه بمفتاح في وجهه فأدْماه، فصار إلى مصر، فامتدح كافورًا الإخشيديَّ وأقام عنده أربع سنين، وكان المُتَنبِّي يركَبُ في جماعةٍ من مماليكه، فتوهَّم منه كافورٌ فجْأةً، فخاف منه المُتنبي فهرب، فأرسل في إثره فأعجزه، فقيل لكافور: ما قيمةُ هذا حتى تتوهَّمَ منه؟ فقال: هذا رجلٌ أراد أن يكون نبيًا بعد محمدٍ ﷺ، أفلا يروم أن يكون ملكًا بديار مصر؟

ثم صار المتنبِّي إلى عضد الدولة، فامتدحه فأعطاه مالاً كثيرًا، ثم رجع من عنده، فعرض له فاتكُ ابن أبي الجهل الأسديُّ، فقتله وابنه محسَّدًا وغلامه مفلحًا يوم الأربعاء لستٍّ بقين من رمضان، وقيل: لليلتين وبقيتا من رمضان. وقيل: يوم الإثنين لثمانٍ. وقيل: لخمسٍ بقين منه. وذلك بسوادِ بغداد.

وقد رثاه الشُّعراءُ، قد شرح ديوانه العلماء بالشعر واللُّغة نحوًا من ستين شرحًا وجيزًا وبسيطًا.

ومن توفي في هذه السنة من الأعيان أيضًا:

أبو حاتم البستيُّ ابن حبَّان صاحب الصحيح.

محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد، أبو حاتم البستيُّ[1] صاحب «الأنواع والتقاسيم»، وأحد الحفَّاظ الكبار المصنفين المجتهدين، رحل إلى البلدان، وسمع الكثير من المشايخ،

(١) ترجمته في «السير» (٦/ ١٠٥).

ثم ولي قضاء بلده، ومات بها في هذه السنة، وقد حاول بعضهم الكلام فيه من جهة معتقده، ونسبه إلى القول بأنَّ النُّبوة مكتسبةٌ، وهي نزغةٌ فلسفيَّةٌ. والله أعلم بصحتها عنه. وقد ذكرته في «طبقات الشافعية».

محمد بن الحسن بن يعقوب بن الحسن بن الحسين بن مقسم، أبو بكر ابن مقسم العطارُ المقرئ، ولد سنة خمسٍ وستين ومائتين، وسمع الكثير من المشايخ، وروىٰ عنه الدارقطنيُّ وغيره، وكان من أعرف الناس بالقراءات، وله كتابٌ في النحو علىٰ طريقة الكوفيِّين، سمَّاه كتاب «الأنوار».

قال ابن الجوزيِّ: ما رأيت مثله، وله تصانيف أخرىٰ، ولكن تكلَّم الناسُ فيه بسبب تفرُّده بقراءات لا تجوزُ عند الجميع، وكان يذهبُ إلىٰ أنَّ كلَّ ما لا يخالفُ الرسم ويسوغ من حيث المعنىٰ واللفظُ تصحُّ القراءة به كقوله تعالىٰ: ﴿**فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا**﴾ [يوسف: ٨٠] أي يتناجون. قال: لو قرئ نُجبيًا، من النَّجابة لكان قويًا. وقد ادُّعي عليه، وكتب عليه مكتوبٌ أنه قد رجع عن مثل ذلك، ومع هذا لم ينته عما كان يذهب إليه حتىٰ مات. قاله ابن الجوزيِّ.

محمد بن عبدالله بن إبراهيم بن عبدويه بن موسى، أبو بكر الشافعيُّ، ولد بجبُل سنة ستين ومائتين، وسمع الكثيرَ، وسكن بغداد، وكان ثقةً ثبتًا كثير الرِّواية، سمع منه الدارقطنيُّ وغيره من الحفَّاظ، وكان يحدث بفضائل الصحابة حين منعت الدَّيلمُ من ذلك جهرةً في الجامع بمدينة المنصور مخالفةً لهم، وكذلك في مسجده بباب الشام. وتوفي في هذا السنة عن أربع وتسعين سنةً، رحمه الله تعالىٰ بمنِّه وكرمه.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وثلاثمائة

في عاشر المحرَّم عملت الروافضُ ببغداد بدعتهم الشنعاءَ وفتنتهم الصلعاء: وفيها أخذت القرامطةُ الهجريُّون عمان.

وفيها قصدت الروم آمد فحاصروها، فلم يقدروا عليها، ولكن قتلوا من أهلها ثلاثمائة وأسروا منهم أربعمائةٍ، ثم ساروا إلىٰ نصيبين وفيها سيف الدولة، فهمَّ بالهرب مع العرب، ثم تأخَّر مجيءُ الروم، فثبت مكانه، وقد كادوا يزيلون أركانه.

وفيها وردت طائفةٌ من جيش خراسان في بضعة عشر ألفًا، يظهرون أنهم يريدون غزو الروم، فأكرمهم ركن الدولة بن بويه، وأمنوا إليهم، فنهضوا إليهم، ليأخذوا الديلمَ علىٰ غرَّة فقاتلهم ركن الدولة، فظفر بهم - لأنَّ البغيَ مصرعةٌ - وهرب أكثرهم.

وفيها خرج معزُّ الدولة من بغداد إلىٰ واسطٍ لقتال عمران بن شاهين حين تفاقم الحال بأمره، واشتهر في تلك النَّواحي صيتُ ذكره، فقوي المرض بمعزِّ الدولة، فاستناب علىٰ الحرب، ورجع إلىٰ بغداد، فكانت وفاته في السنة الآتية كما سنذكره، إن شاء الله تعالىٰ.

وفيها: قوي أمر أبي عبدالله ابن الداعي ببلاد الديلم، وأظهر النُّسُك والعبادة، ولبس الصوف، وكتب إلى الآفاق ـ حتى إلى بغداد ـ يدعو إلى الجهاد.

وفيها: تمَّ الفداءُ بين سيف الدولة وبين الروم، فاستنقذ منهم أسارى كثيرةً، منهم ابن عمِّه أبو فراس بن سعيد بن حمدان، وأبو الهيثم ابن حصن القاضي، وذلك في رجبٍ منها.

وفي جمادى الآخرة نوديَ برفع المواريث الحشريَّة، وأن تردَّ إلى ذوي الأرحام.

وفيها: ابْتدأ معزُّ الدولة بن بويه في بناء مارستانٍ، وأرصد له أوقافًا جزيلةً.

وفيها: قطعت بنو سليم السابلة على الحجيج من أهل الشام ومصر والمغرب، وأخذوا منهم عشرين ألف بعير بأحمالها، وكان عليها من الأموال والأمتعة ما لا يقوم كثرةً، وكان لرجل يقال له: ابن الخواتيميِّ. قاضي طرسوس، مائةُ ألف دينار وعشرون ألف دينار عينًا، وذلك أنه أراد التحول من بلاد الشام إلى العراق بعد الحجِّ، وكذلك وقع لكثير من الناس، وحين أخذتِ الجمالُ تركوهم على برد الدِّيار لا شيء لهم، فقلَّ منهم من سلم، وما أكثرَ من عطب، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وحج بالناس في هذه السنة الشريفُ أبو أحمد نقيبُ الطالبيِّين من ناحية العراق.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الحسن بن داود بن عليٍّ بن عيسى بن محمد بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الحسن بن عليٍّ ابن أبي طالب، أبو عبدالله العلويُّ الحسنيُّ. قال الحاكم أبو عبدالله النيسابوريُّ: كان شيخ آل رسول الله ﷺ في عصره بخراسان، وسيد العلوية في زمانه، وكان من أكثر الناس صلاةً وصدقةً ومحبَّةً للصحابة، وصحبته مدةً، فما سمعته ذكر عثمان إلا قال: الشهيد. وبكى، وما سمعته ذكر عائشة إلا قال: الصديقةُ بنتُ الصدِّيق، حبيبة حبيب الله. وبكى.

وقد سمع الحديث من ابن خزيمة وطبقته، وكان آباؤه بخراسان وفي سائر بلدانهم ساداتٍ نجباء، حيث كانوا من آل بيت رسول الله ﷺ، منهم، لهم دانتْ رقاب بني معدٍّ.

محمد بن الحسين بن عليٍّ بن الحسن بن يحيى بن حسان بن الوضاح، أبو عبدالله الأنباريُّ، الشاعر المعروف بالوضاحيِّ، كان يذكر أنه سمع الحديث من المحامليِّ وابن مخلدٍ وأبي روقٍ، وروى عنه الحاكم أبو عبدالله شيئًا من شعره، وكان أشعر من في وقته.

ومن شعره:

سقى الله باب الكرخ ربعًا ومنزلاً ... ومن حلَّه صوب السَّحاب المجلجل

فلو أن باكي دمنة الدار باللِّوى ... وجارتها أمِّ الرَّباب بمأسلِ

رأى عرصات الكرخ أو حلَّ أرضها ... لأمسكَ عن ذكر الدَّخول فحوملِ

أبو بكر ابن الجعابيِّ: محمد بن عمر بن محمد بن سلم بن البراء بن سبرة بن سيَّار، أبو بكر ابن الجعابيِّ، قاضي الموصل، ولد في صفر سنة أربع وثمانين ومائتين، سمع الكثير، وتخرَّج بأبي

العباس ابن عقدة، وأخذ عنه علم الحديث وشيئًا من التشيُّع أيضًا، وكان حافظًا مكثرًا مطبقًا، يقال: إنه كان يحفظ أربعمائة ألف حديث بأسانيدها ومتونها، ويذاكر بستمائة ألف حديث، ويحفظ من المراسيل والمقاطيع والحكايات قريبًا من ذلك، ويحفظ أسماء الرجال وجرحهم وتعديلهم وأوقات وفياتهم ومذاهبهم، حتى تقدَّم على أهل زمانه، وفاق سائر أقرانه.

وكان يجلسُ للإملاء فيزدحم الناس عند منزله، وإنما كان يملي من حفظه إسناد الحديث ومتنه محرَّرًا جيدًا صحيحًا. وقد نسب إلى التشيُّع كأستاذه ابن عقدة، وكان يسكن باب البصرة عندهم.

وقد سُئل الدارقطنيُّ عنه فقال: خلَّط.

وقال أبو بكر البرقانيُّ: كان صاحب غرائب، ومذهبه معروفٌ في التشيُّع. وقد حكي عنه قلَّةُ دينٍ وشربُ خمر. فالله أعلم.

ولَمَّا احتضر أوصى أن تحرق كتبه فحرقت، وحرق معها كتب كثير من الناس كانت عنده. فبئس ما عمل. وحين أخرج بجنازته كانت سكينة نائحةُ الرافضة تنوح عليه في جنازته.

ترجمة النقفور ملك الأرمن

واسمه الدمستق

الذي توفي في سنة ثنتين - وقيل: ستٍّ - وخمسين وثلاثمائة. لا رحمه الله.

كان هذا الملعون من أغلظ الملوك قلبًا، وأشدهم كفرًا، وأقواهم بأسًا، وأحدِّهم شوكةً، وأكثرهم قتالاً للمسلمين في زمانه، استحوذ في أيامه، لعنه الله، على كثير من السواحل، أو أكثرها، وانتزعها من أيدي المسلمين قسرًا، واستمرَّت في يده قهرًا، وأضيفت إلى مملكة الروم قدرًا، وذلك لتقصير أهل ذلك الزمان، وظهور البدع الشنيعة فيهم وكثرة العصيان.

وقد ورد حلب في مائتيْ ألف مقاتل بغتةً في سنة إحدى وخمسين، وجال فيها جولةً، ففرَّ من بين يديه صاحبها سيف الدولة، ففتحها اللعين عنوةً، وقتل من أهلها من الرجال والنساء ما لا يعلمه إلا الله، وخرَّب دار سيف الدولة التي كانتْ ظاهر حلبَ، وأخذ أموالها وحواصلها وعددها، وبدد شملها، وفرق عددها، واستفحل أمر الملعون، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وبالغ في الاجتهاد في قتال الإسلام وأهله، وجدَّ في التشمير، فالحكم لله العليِّ الكبير.

وقد كان، لعنه الله، لا يدخل في بلدةٍ إلا قتل المقاتلة وبقية الرجال، وسبى النساء والأطفال، وجعل جامعها إصطبلاً لخيوله، وكسر منبرها، وأسكت مؤذنيها بخيله ورجله وطبوله، ولم يزل ذلك من دأبه وديدنه حتى سلط الله عليه زوجته، فقتلته بجواريها في وسط مسكنه، وأراح الله منه الإسلام وأهله، وأزاح عنهم قتام ذلك الغمام، ومزَّق شمله، فلله النعمةُ والإفضال، وله الحمد على كلِّ حالٍ.

واتفق في سنة وفاته موت صاحب القسطنطينيَّة، فتكاملت المسرَّاتُ وحصلت الأمنيَّةُ، فالحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات وتذهب السيئاتُ، وبرحمته تغفرُ الزلات.

والمقصود أن هذا اللعين - أعني النقفور الملقَّبَ بالدمستق ملك الأرمن - كان قد أرسل قصيدةً إلى الخليفة المطيع لله، نظمها له بعض كتابه ممن كان قد خذله الله وأذله، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوةً، وصرفه عن الإسلام وأصله، يفتخر فيها لهذا اللعين، ويتعرض لسبِّ الإسلام والمسلمين، ويتوعد فيها أهل حوزة الإسلام بأنه سيملكها كلها حتى الحرمين الشريفين، عما قريب من الأعوام، وهو أقلُّ وأذلُّ وأخسُّ وأضلُّ من الأنعام، ويزعم أنه ينتصر لدين المسيح، عليه السلام، ابن البتول. وربما يعرض فيها بجناب الرسول، عليه من ربه التحية والإكرام ودوامُ الصلاة مدى الأيام، ولم يبلغني عن أحد من أهل ذلك العصر أنه ردَّ عليه جوابه، ربما أنَّها لم تشتهرْ، أو أنهم رأوا أنه أقل من أن يردُّوا خطابه؛ لأنه كالمعاند الجاحد، ونفسُ ناظمها يدلُّ على أنه شيطانٌ ماردٌ. وقد انتخى للجواب عنها فيما بعد ذلك أبو محمد بن حزم الظاهريُّ، فأفاد وأجاد، وأجاب عن كل فصل باطل بالصواب والسَّداد، فبَلَّ الله بالرحمة ثراه، وجعل الجنة منقلبه ومثواه.

وها أنا أذكرُ القصيدة الأرمنية المخذولة الملعونة، وأتبعها بالفريدة الإسلامية المنصورة الميمونة.

قال المرتدُّ الكافرُ الأرمنيُّ على لسان ملكه - لعنهما الله وأهل ملتهم أجمعين أكتعين أبتعين أبصعين، آمين يا ربَّ العالمين. ومن خط ابن عساكر كتبتها، وقد نقلوها من كتاب «صلة الصلة» للفرغانيِّ -:

من الملك الطهر المسيحيِّ مالك ... إلى خلف الأملاكِ من آل هاشم
إلى الملكِ الفضلِ المطيعِ أخي العُلاً ... ومن يرتجى للمعضلات العظائمِ
أما سمعتْ أذْناك ما أنا صانعٌ ... بلى فدهاكَ الوهن عن فعل حازمِ
فإن تك عما قد تقلَّدْتَ نائمًا ... فإني عما همَّني غير نائم
ثغوركم لم يبق فيها لوهنكم ... وضعفكمُ إلا رسومُ المعالمِ
فتحنا الثغور الأرمنية كلها ... بفتيان صدْق كالليُّوثِ الضراغمِ
ونحن جلبنا الخيل تعلكُ لجمها ... ويبلُغُ منها قضمها للشكائمِ
إلى كلِّ ثغرٍ بالجزيرة آهلٍ ... إلى جند قنسرينكمْ فالعواصمِ
ملطيه مع سميساط من بعد كركرٍ ... وفي البحر أضعاف الفتوح التواخمِ
وبالحدث الحمراء جالت عساكري ... وكيسوم بعد الجعفريِّ المعالمِ
وكمن قد ذللنا من أعزَّة أهلها ... فصاروا لنا من بين عبد وخادمِ
وسدِّ سروجٍ إذ خربنا بجمعنا ... لمئذنة تعلو على كل قائمِ
وأهل الرُّهَا لاذوا بنا وتحزَّموا ... بمنديل مولًى جلَّ عن وصف آدمِ

وصبَّحَ رأس العين منَّا بطارقٌ ... يبيضِ غذوناها بضرب الجماجم
ودارا ومَيّافارقين وأرزنا ... صبحناهم بالخيل مثل الضَّراغِمِ
وأقريطشٌ جرت إليها مراكبي ... على ظهر بحرٍ مزبدٍ متلاطمِ
فَحُزْتُهُم أسرى وسيقت نساؤهم ... ذوات الشعور المسلاتَ الفواحم
هناك فتحنا عين زربة عنوةً ... نعم وأبدنا كلَّ طاغ وظالمِ
إلى حلب حتى استبحنا حريمها ... وهدَّم منها سورها كلُّ هادم
أخذنا النِّسا ثم البناتِ نسوقهم ... وصبيانهم مثل المماليك خادم
وقد فرَّ عنها سيفُ دولة دينكم ... وناصرها منا على رغمِ راغمِ
وملنا على طرسوس ميلة هائلٍ ... أذقنا لمن فيها لحزٍّ الحلاقمِ
فكم ذات عزٍّ حرَّةٍ علويةً ... منعَّمة الأطرافِ ريا المعاصم
سبينا فسقنا خاضعات حواسراً ... بغير مهور لا ولا حكم حاكم
وكم من قتيلٍ قد تركنا مجدَّلاً ... يصبُّ دمًا بين اللها واللهازم
وكم وقعةٍ في الدرب أفنت كماتكم ... وسقناهم قسرًا كسوق البهائم
وملنا على أرتاحكم وحريمها ... مدوَّخةٌ تحت العجاج السَّواهم
فأهوت أعاليها وبدِّل رسمها ... من الأنس وحشًا بعد بيضٍ نواعِمِ
إذا صاح فيها البومُ جاوبه الصَّدى ... وأتبعه في الربع نوحُ الحمائمِ
وأنطاك لم تبعدْ عليَّ وإنني ... سأفتحها يومًا بهتك المحارِمِ
ومسكن آبائي دمشقُ فإنني ... سأرجعُ فيها ملكنا تحتَ خاتمي
ومصرٌ سأفتحها بسيفي عنوةً ... وآخذ أموالاً بها لبهائمي
وأجزيَ كافوراً بما يستحقُّه ... بمشط ومقراضٍ ومصٍّ محاجِمِ
ألا شمروا يا أهل حرّانَ شمِّروا ... أتتكمْ جيوشُ الرومِ مثل الغمائم
فإن تهربوا تنجواْ كرامًا وتسلموا ... من الملكِ الضّاري بقتلِ المسالمِ
هناك نصيبينٌ وموصلها إلى ... جزيرةِ آبائي وملْكِ الأقادمِ
سأفتحُ سامراً وكوثَى وعكبَرَا ... وتكريتها معْ ماردين العواصم
وأقتلُ أهليها الرجال بأسرهمْ ... وأغنمُ أموالاً بها لكتايم
ألا شمروا يا أهل بغداد ويلكمْ ... فكلُّكمُ مستضعفٌ غير رائمِ
رضيتمْ بحكمِ الديلميِّ خليفةً ... فصرتم عبيداً للعبيد الديالمِ
ويا قاطني الرملات ويلكم ارجعوا ... إلى أرض صنعاءَ وأرضِ التهائمِ
وعودوا إلى أرض الحجاز أذلَّة ... وخلُّوا بلاد الرُّوم أهل المكارم
سألقي جيوشي نحو بغداد سائراً ... إلى باب طاق حيث دارُ القماقِمِ
وأحرقُ أعلاها وأهدمُ سورها ... وأسبي ذَراريها على رغم راغم

وأحرزُ أموالاً بها وأسرَةً ... وأقتل من فيها بسيف النقائم
وأسرى بجيشي نحو الأهوازِ مسرعًا ... لإحراز ديباج وخزٍّ السَّواسمِ
وأشعلها نهبًا وأخربْ قصورها ... وأسْبِي ذراريها كفعلِ الأقادم
ومنها إلى شيراز والرَّيِّ فاعْلموا ... خراسان قصدى والجيوشُ لخادمِ
إلى شاس بلخ بعدها وخواتها ... وفرغانةِ معْ مروها والمَخازِمِ
فسابور أخربها وأهدمُ حصنها ... وأوردُها يومًا كيومِ المسارمِ
إلى السوسِ أقصاها أدمِّرُ ملكها ... إلى أصبهان الأرض شرق الأعاجم
وكرمانُ لا أنسى سجستان كلَّها ... وكابلها الثاني وملك الأعاجم
من المشرق الأقصى إلى المغرب انثَنى ... إلى قيروانِ الأرض عرب الكتائم
أسيرُ بجندي نحو بصرتها التي ... لها بحرُ عاج رائعٍ متلازم
إلى واسط وسط العراق وكوفة ... بما كان يومًا جدُّنا ذو العزائم
وأسرعَ منها نحو مكة سائراً ... أجرُّ جيوشًا كالليالي السَّواجِمِ
فأملكها دهرًا عزيزًا مسلمًا ... أقيمُ بها للحقِّ كرسيَّ عالم
وأحويَ نجدًا كلَّها وتهامها ... وسرواتها من مذحج وقحاطم
وأغزو يمانًا كلَّها وزبيدها ... وصنعاءها مع صعدة والتهائم
إلى حضرموت سهلها وجبالها ... إلى هَجَرِ أحسائهاً والتَّهائِمِ
فأتركها أيضًا يبابًا بلاقعًا ... خلاء مَن الأهلين أرض نعائِمِ
وأحويَ أموالَ اليمانين كلَّها ... وما جمع القرماطُ يوم محارم
أعودُ إلى القدْس التي شرفت لنا ... بعزٍّ مكين ثابت الأصل قائم
وأعلُو سريري للسُّجود فيشتفي ... ملوكُ بني حوّا بحملِ الدراهِمِ
هنالك تخلُو الأرضُ من كلِّ مسلمٍ ... لكلِّ نقيِّ الدِّين أغلفَ ناعمِ
نصرْنا عليكم حين جار ولاتكمْ ... وأعلنتُمُ بالمنكرات العظائم
قضاتكمُ باعوا القضاء بدينهم ... كبيع ابن يعقوب ببخس الدراهم
عدولكم بالزُّور يشهد كلُّهم ... وبالبُرِّ والبرُطيل معْ كلِّ قائم
سأفتحُ أرض الله شرقًا ومغربًا ... وأنشرُ دين الصلب نشرَ العمائم
فعيسى علا فوق السموات عرشه ... ففاز الذي والاه يوم الخصائم
وصاحبكم في التربْ أودى به الثَّرَى ... فصار رفاتًا بين تلك الرمائم
تناولتمُ أصحابه بعد موته ... بسبٍّ وقذفٍ وانتهاك محارم

هذا آخرها، لعن الله ناظمها وأسكنه النار ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢]، يوم يدعو ناظمها ثبورا، ويصلىٰ سعيرا، ويباشر ذلاً طويلا، ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ

أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

وهذا جوابها لأبي محمد ابن حزم الفقيه الظاهريِّ الأندلسيِّ، قالها ارتجالاً حين بلغته هذه الملعونة؛ غضبًا لله ولرسوله، كما شاهده من رآه، فرحمه الله وأكرم مثواه، وغفر له زلله وخطاياه:

من المحتمي بالله رب العوالم … ودين رسول الله من آل هاشم
محمد الهادي إلى الله بالتُّقى … وبالرُّشْد والإسلام أفضل قائم
عليه من الله السلام مردَّدًا … إلى أن يوافي البعث كلُّ العوالم
إلى قائل بالإفك جهلاً وضلَّةً … عن النقفور المفترى في الأعاجم
دعوت إمامًّا ليس من أمر آله … بكفَّيْه إلا كالرُّسوم الطواسم
دهتْه الدواهي في خلافته كما … دهتْ قبله الأملاك دهمُ الدواهم
ولا عجبٌ من نكبةٍ أو ملمَّةٍ … تصيبُ الكريم الحرَّ وابن الأكارم
ولو أنه في حال ماضِي جدوده … لجرعتمُ منه سموم الأراقم
عسى عطفةٌ لله في أهل دينه … تجددُ منهم دارسات المعالم
فخرتمْ بما لو كان فهمٌ يريكمُ … حقائق حكم الله أحكم حاكم
إذنْ لعرتكمْ خجْلةٌ عند ذكره … وأخرس منكم كلُّ فاه مخاصم
سلبناكم كرًّا ففزتم بغرَّةٍ … من الكرِّ أفعال الضعافِ العزائم
فطرتمْ سروراً عند ذاك ونخوة … كفعل المهين الناقص المتعاظم
وما ذاك إلا في تضاعيف غفلة … عرتنا وصرف الدهر جمُّ الملاحم
ولما تنازعنا الأمور تخاذلاً … ودالت لأهل الجهل دولةُ ظالم
وقد شغلت فينا الخلائف فتنةٌ … لعبدانهم من تركهمْ والدَّيالم
بكفرِ أياديهمْ وجحد حقوقهم … بمن رفعوه من حضيض البهائم
وثبتم على أطرافنا عند ذاكمُ … وثوب لصوص عند غفلة نائم
ألم ننتزعْ منكم بأيدٍ وقوة … جميع بلاد الشام ضربة لازم
ومصرَ وأرضَ القيروانِ بأسرهاَ … وأندلسًّا قسراً بضرب الجماجم
ألم تنتصفْ منكمْ على ضعف حالها … صقليَّةٌ في بحرها المتلاطم
أحلَّتْ بقسطنطينة كلَّ نكبةٍ … وسامتكمُ سوء العذاب الملازم
مشاهدُ تقديساتكِم وبيوتهاَ … لنا وبأيدينا على رغم راغم
أما بيتُ لحم والقمامةُ بعدها … بأيدي رجال المسلمين الأعاظم
وكرسيُّكُمْ في أرض إسكندريَّةٍ … وكرسيُّكم في القدس في أورشالمِ

ضممناهم قسراً برغم أنوفكم ... كما ضمَّت الساقين سود الأداهم
وكرسيُّ أنطاكيَّة كان برهةً ... ودهراً بأيدينا بذلِّ الملاغم
فليس سوى كرسيٍّ رومةَ فيكمُ ... وكرسيّ قسطنطينة في المقادم
ولابدَّ من عودِ الجميع بأسرِه ... إلينا بعزٍّ قاهرٍ متعاظمِ
أليس يزيدٌ حلَّ وسطَ دياركمْ ... على باب قسطنطينةٍ بالصَّوارم
ومسلمةٌ قد داسها بعد ذاكمُ ... بجيشٍ لهامٍ كاللُّيوث الضَّراغمِ
وأخدمكمْ باللِّه مسجدنا الذي ... بني فيكمُ في عصره المتقادم
إلى جنب قصر الملك من دار ملككم ... ألا هذه حقًّا صريمةُ صارم
وأدَّى لهارون الرشيد مليككم ... إتاوة مغلوبٍ وجزية غارمِ
سلبناكمُ مسرى شهوراً بقوةٍ ... حبانا بها الرحمن أرحم راحمِ
إلى بيت يعقوب وأرياف دومة ... إلى لجة البحر البعيد المحارم
فهل سرتُمُ في أرضنا قطُّ جمْعةً ... أبى الله ذاكمْ يا بقايا الهزائم
فما لكمُ إلاالأمانيُّ وحدها ... بضائع نوكى تلك أحلامُ نائم
رويداً يعدْ نحو الخلافةِ نورها ... ويسفر مغبرٌّ الوجوه السواهمِ
وحينئذ تدرون كيف فرارُكمْ ... إذا صدمتكم خيلُ جيش مصادمِ
على سالف العادات منَّا ومنْكمُ ... ليالي أنتم في عداد الغنائم
سبيتم سبايا يحصر العدُّ دونها ... وسبيكمُ فينا كقطر الغمائم
فلو رام خلقٌ عدَّها رام معجزاً ... وأنَّى بتعداد لريش الحمائم
بأبناء حمدانَ وكافورَ صلتُمُ ... أراذل أنجاس قصار المعاصم
دعيٌّ وحجَّامٌ سطوتم عليهما ... وما قدر مصاصٍ دماء المحاجم
فهلاًّ على دميانة قبل ذاك أو ... على محل أربا رماةُ الضَّراغمِ
ليالي قادوكم كما اقتاد جازرٌ ... حلائب أتياس لحزٍّ الحلاقم
وساقوا على رسلٍ بناتِ ملوككم ... سبايا كما سيقت ظباءُ الصَّرائمِ
ولكن سلوا عنا هرقلاً ومن خلا ... لكم من ملوك مكرمين قماقم
يخبِّرْكم عنا المتوَّجُ منكمُ ... وقيصركمْ عن سبينا للكرائم
وعمَّا فتحنا من منيع بلادكم ... وعمّا أقمْنا فيكم من مآتم
ودعْ كلَّ نذلٍ مفتر لا تعدَّه ... إماماً ولا من محكمات الدَّعائم
فهيهاتَ سامرّا وتكْريتُ منكمُ ... إلى جبل تلكمْ أمانيٌّ هائم

متى يتمنّاها الضّعيفُ ودونها ... تطاير هامات وحزُّ الغلاصمِ

ومن دون بغداد سيوفٌ حديدةٌ ... مسيرة شهر للفنيق القواصم

محلة أهل الزهد والخير والتُّقَى ... ومنزلةٌ محتلُّها كلُّ عالم

دعوا الرملة الصهباء عنكم فدونها ... من المسلمين الصيد كلُّ مقاومِ

ودون دمشق جمع جيش كأنه ... سحائبُ طير تنتحي بالقوادم

وضربٌ يلقِّي الكفرَ كلَّ مذلة ... كما ضرب السّكِّيُّ بيض الدراهم

ومن دون أكنافِ الحجاز جحافلٌ ... كقطر الغيوث الهاملات السواجم

بها من بني عدْنان كلُّ سميدَع ... ومن حيٍّ قحطان كرام العمائم

وأموالكمْ حلٌّ لهم ودماؤُكمْ ... بها يشتفى حرُّ النفوس الحوائم

ولو قد لقيتمْ من قضاعة كبَّةً ... لقيتمْ ضرامًا في يبيس الهشائم

إذا صبحوكمْ ذكروكمْ بما خلا ... لهمْ معكمْ من مأزق متلاحم

زمان يقودون الصوافن نحوكمْ ... فجئتمْ ضمانًا أنكمْ في المغانم

سيأتيكمُ منهمْ قريبًا عصائبٌ ... تنسيكمُ تذكار أخذ العواصم

وأرضكمُ حقًا سيقتسمونها ... كما فعلوا دهرًا بعدل المقاسم

ولو طرقتكمْ من خراسان عصبةٌ ... وشيراز والرَّيِّ القلاع القوائم

لما كان منكمْ عند ذلك غير ما ... عهدنا لكمْ ذلٌّ وعضُّ الأباهمِ

فقد طال ما زاروكمُ في دياركمْ ... مسيرة عام بالخيول الصلادم

وأما سجستانٌ وكرمانُ والأُلَى ... بكابل حلُّوا بلاد البراهم

وفي فارس والسُّوس جمعٌ عرمْرَمٌ ... وفي أصبهان كلُّ أروَعَ عازم

فلو قد أتاكمْ جمعهم لغدوتم ... فرائس للآساد مثل البهائم

وبالبصرة الزهراء والكوفة التي ... سمتْ وبأدنى واسط كالكظائم

جموعٌ تسامي الرمل جمٌّ عديدها ... فما أحدٌ ينوي لقَاهمْ بسالم

ومن دون بيت الله في مكة التي ... حباها بمجد للثُّريَّا مزاحم

محلٌّ جميع الأرض منا تيقُّنًا ... محلةُ سفْل الخَفِّ من فصٍّ خاتم

دفاعٌ من الرحمن عنها بحقِّها ... فما هو عنها كرَّ طرفٍ برائمِ

بها دفع الأحبوش عنها وقبلهُمْ ... بحصباء طير في ذرا الجوِّ حائم

وجمع كموج البحر ماض عرمرمِ ... حمى سرَّةَ البطحاء ذات المحارم

ومن دون قبر المصطفى وسط طيبة ... جموعٌ كمسود من الليل فاحم

يقودهم جيش الملائكة العلاَ ... كفاحًا ودفعًا عن مصلٍّ وصائم
فلو قد لقيناكم لعدتم رمائمًا ... بمن في أعالي نجدنا والتَّهائم
وباليمن الممنوع فتيانُ غارة ... إذا ما لقوكمْ كنتمُ كالمطاعم
وفي حلتَى أرض اليمامة عصبةٌ ... مغاورُ أنجادٍ طوالُ البراجم
ستفنيكم والقرمطيِّين دولةٌ ... تعود ليمون النقيبة حازم
خليفةُ حقٍّ ينصرُ الدين حكمه ... ولا يتقي في الله لومة لائم
إلى ولد العباس تنمى جدوده ... بفخرٍ عميمٍ أو لزهر العباشم
ملوكٌ جرى بالنصر طائر سعدهم ... فأهلاً بماضٍ منهمُ وبقادمِ
محلتهم في مسجد القدس أو لدى ... منازل بغدادٍ محلُّ المكارمِ
وإن كان من عليا عديٍّ وتيْمها ... ومن أسد أهل الصَّلاح الحضارم
فأهلاً وسهلاً ثم نعمَى ومرحبًا ... بهمْ من خيار سالفين أقادمِ
همُ نصروا الإسلام نصرًا مؤزرًا ... وهم فتحوا البلدان فتح المراغمِ
رويدًا فوعدُ الله بالصدق واردٌ ... بتجريع أهل الكفر طعمَ العلاقم
سنفتحُ قسطنطينة وذواتها ... ونجعلكم قوت النُّسور القشاعم
ونملكُ أقصى أرضكم وبلادكمُ ... ونلزمكم ذلَّ الجزى والمغارم
ونفتح أرض الصين والهند عنْوةً ... بجيش لأرضِ التركِ والخزْر حاطم
مواعيد للرحمن فينا صحيحةٌ ... وليست كأمثالِ العقولِ السَّقائمِ
إلى أن يرى الإسلام قد عمَّ حكمُهُ ... جميعَ البلاد بالجيوش الصوارمِ
أتقرنُ يا مخذول دين مثلث ... بعيدًا عن المعقولِ بادي المآثمِ
تدينُ لمخلوقٍ يدينُ عبادهَ ... فيالك سحقًا ليس يخفى لكاتمِ
أناجيلكم مَصنوعةٌ بتكاذب ... كلام الألَى فيها أتوْا بالعظائمِ
وعود صليبٍ ما تزالون سجدًا ... له يا عقول الهاملات السَّوائم
تدينون تضلالاً بصلب إلهكم ... بأيْدي يهود أرذلين ألائم
إلى ملَّة الإسلام توحيد ربِّنا ... فما دين ذي دين لنا بمقاوم
وصدْق رسالات الذي جاء بالهدى ... محمْد الآتي بدفع المظالم
وأذعنت الأملاكُ طوعًا لدينه ... ببرهان صدْق ظاهر في المواسم
كما دان في صنعاء مالكُ دولةٍ ... وأهل عمان حيث رهطُ الجهاضم
وسائرُ أملاك اليمانين أسلموا ... ومن بلد البحرين قومُ اللَّهازمِ

أجابوا لدين الله دون مخافة ... ولا رغبة تحظى بها كفُّ عادم
فحلُّوا عرى التِّيجان طوعًا ورغبةً ... بحقٍّ يقين بالبراهين ناجم
وحاباهُ بالنَّصْرِ المكينِ إلهُهُ ... وصيَّرَ من عاداهُ تحت المناسم
فقيرٌ وحيدٌ لم تعنْهُ عشيرةٌ ... ولا دفعوا عنه شتيمة شاتمِ
ولا عنده مال عتيدٌ لناصر ... ولا دفع مرهوب ولا لمسالم
ولا وعَدَ الأنصارَ مالاً يخصُّهُمْ ... بلى كان معصومًا لأقْدرِ عاصم
فلم تمتهنْهُ قطُّ قوةُ آسر ... ولا مكنتْ من جسمه يد لاطم
كما يفتري إفكًا وزورًا وضلَّةً ... على وجه عيسى منكمُ كلُّ آثِمِ
على أنَّكمْ قد قلتمُ هو ربّكُمْ ... فيا لضلالٍ في الحماقة عائم
أَبى الله أن يدعَى له ابنٌ وصاحبٌ ... ستلقى دعاةُ الكفر حالة نادمِ
ولكنَّهُ عبدٌ نبيٌّ مكرَّمٌ ... من الناس مخلوقٌ ولا قول زاعم
أيلطمُ وجهُ الرَّبِّ تبًّا لنوككم ... لقد فقتمُ في ظلمكمْ كلَّ ظالم
وكم آيةٍ أبدى النبيُّ محمدٌ ... وكمْ علمٍ أبداه للشِّرْك حاطم
تساوى جميعُ الناس في نصر حقِّه ... فللكلِّ في إعظامه حال خادم
فعربٌ وأحبوشٌ وفرس وبربرٌ ... وكرديُّهمْ قد فاز قدْحُ المراحِمِ
وقبْطٌ وأنباطٌ وخزْرٌ وديلَمٌ ... ورومٌ رموْكمْ دونه بالقواصم
أبوا كفْرَ أسلاف لهمْ فتحنَّفوا ... فآبوا بحظٍّ في السعادة جاثم
به دخلوا في ملَّة الحقِّ كلُّهمْ ... ودانوا لأحكام الإلهِ اللَّوازمِ
به صحَّ تفسير المنام الذي أتَى ... به دانيالٌ قبْلهُ ختمِ خاتمِ
وسنْدٌ وهنْدٌ أسلموا وتديَّنوا ... بدين الهدى في رفض دين الأعاجمِ
وشقَّ لنا بدر السموات آيةً ... وأشبعَ من صاعٍ له كلَّ طاعم
وسالتْ عيون الماء في وسط كفِّه ... فأروى به جيشًا كثير الهماهم
وجاء بما تقضي العقولُ بصدقه ... ولا كدعاو غير ذات قوائم
عليه سلام الله ما ذرَّ شارقٌ ... تعاقبه ظلْماءُ أسحمَ قاتمِ
براهينُهُ كالشَّمسِ لا مثلُ قولكمْ ... وتخليطكمْ في جوهرٍ وأقانم
لنا كلُّ علم من قديم ومحدث ... وأنتمْ حميرٌ داميَاتُ المحازم
أتيتمْ بشعْرٍ باردٍ متخاذلٍ ... ضعيف معاني النَّظم جمٍّ البلاغمِ
فدونكها كالقدِّ فيه زمرُّدٌ ... ودُرٌّ وياقوتٌ بإحكام حاكمِ

ثم دخلت سنة ست وخمسين وثلاثمائة

استهلَّت هذه السنة والخليفة المطيع لله، والسلطان معزُّ الدولة بن بويه الدَّيلميُّ.

وعملت الروافضُ في يوم عاشوراء عزاء الحسين، على ما ابتدعوه من النَّوح.

ولَمَّا كان ثالث عشرَ ربيع الأول من هذه السنة توفي معزُّ الدولة أبو الحسن أحمد بن بويه الديلميُّ - الذي أظهر الرفض، ويقال له: معزُّ الدولة - بعلَّة الذَّرب، فصار لا يثبت في معدته شيءٌ بالكلِّية، ولما أحسَّ بالموت أظهر التَّوبة، وأناب إلى الله عزَّ وجلَّ، وردَّ كثيرًا من المظالم، وتصدَّق بكثير من أمواله، وأعتق خلقًا كثيرًا من مماليكه، وعهد إلى ابنه بختيار عزِّ الدولة.

وقد اجتمع ببعض العلماء، فكلَّمه في السُّنَّة، وأخبره أن عليًّا زوَّج ابنته أمَّ كلثوم من عمر بن الخطاب، فقال: والله ما سمعت بهذا قطُّ. ورجع إلى السُّنَّة ومتابعتها، ولَمَّا حضر وقت الصلاة خرج ذلك الرجلُ إلى الصلاة، فقال له: أما تصلِّي ههنا؟ قال: لا. قال: ولم؟ قال: لأن دارك مغصوبةٌ. فاستحسن منه ذلك.

وكان معزُّ الدولة حليمًا كريمًا عاقلاً، وكانت إحدى يديه مقطوعةً، وهو أول من أحدث السُّعاة بين يدي الملوك؛ ليبعث بأخباره إلى أخيه ركن الدولة إلى شيراز سريعًا، وحظي عنده أهل هذه الصناعة، وتعلَّم أهل بغداد ذلك، حتى كان بعضهم يجري في اليوم الواحد نيِّفًا وأربعين فرسخًا، وكان في البلد ساعيان ماهران، وهما فضلٌ ومرعوشٌ، يتعصبُ لهذا عوامُّ أهل السُّنَّة، ولهذا عوامُّ أهل الشِّيعة، وجرت لهما مناصف ومواقفُ.

ولَمَّا مات معزُّ الدولة دفن بباب التِّبن في مقابر قريش، وجلس ابنه للعزاء، وأصاب الناس مطرٌ ثلاثة أيام تباعًا، فبعث عزُّ الدولة إلى رءوس الدولة في هذه الأيام بمال جزيل؛ لئلا تجتمعَ الدولةُ على مخالفته قبل استحكام مبايعته، وهذا من عقله ودهائه.

وكان عمر معزِّ الدولة ثلاثًا وخمسين سنةً، ومدة ولايته إحدى وعشرين سنةً وأحد عشر شهرًا ويومين، وكان قد نادى في أيامه بردِّ المواريث إلى ذوي الأرحام قبل بيت المال.

وقد سمع بعض الناس ليلة توفِّي معزُّ الدولة هاتفًا يقول:

لما بلغتَ أبا الحسـ ... ـين مرادَ نفسكَ في الطَّلَبْ
وأمنتَ من حدثِ الليا ... لي واحتجبتَ عن النُّوَبْ
مُدَّتْ إليكَ يدُ الرَّدَى ... وأخذْتَ من بيتِ الذَّهَبْ

ولما مات معزُّ الدولة قام بالأمر بعده ولده عزُّ الدولة، فأقبل على اللهو واللعب والاشتغال بأمر النساء، فتفرَّق شَمْله، واختلفت الكلمةُ عليه، وطمع الأمير منصور بن نوح السامانيُّ، صاحب بلاد خراسان، في مُلك بني بويه، وأرسل الجيوش الكثيفة صحبة الملك وشمكير، فلمَّا علم بذلك ركن

الدولة بن بويه أرسل إلى ابنه عضد الدولة وابن أخيه عزِّ الدولة يستنجدهما، فأرسلا إليه بجنود كثيرةٍ، فركب فيها ركن الدولة، وبعث إليه وشمكيرُ يتهدده ويتوعده، ويقول: لئن قدرت عليك لأفعلنَّ بك ولأفعلنَّ. فكتب إليه ركن الدولة: لكنّي إن قدرْتُ عليك لأحسنَنَّ إليك ولأصفحنَّ عنك. فكانت العاقبة لهذا، فدفع الله عنه شرَّه؛ وذلك أن وشمكير ركب فرسًا صعبةً فتصيَّد عليها، فحمل عليه خنزيرٌ، فنفرتِ الفرس، فألقتْه على الأرض، فخرج الدم من أذنيه، فمات من ساعته، وتفرقت العساكرُ.

وبعث ابن وشمكيرَ يطلبُ الأمان من ركن الدولة، فأمَّنه وأرسل إليه بالمال والرجال، ووفَّى بما قال، وصرف الله عنه كيد السامانيَّة، وذلك بصدْق النيَّة وحسن الطويَّة.

وممن توفي فيها من الأعيان:

أبو الفرج عليُّ بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم بن عبدالرحمن بن مروان بن عبدالله ابن مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الأمويُّ الأصبهانيُّ، صاحب كتاب «الأغاني» وكتاب «أيام العرب» ذكر فيه ألفًا وسبعمائة يوم من أيامهم ووقائعهم، وكان شاعرًا أديبًا كاتبًا، عالمًا بالأخبار وأيام الناس، إلا أنّه كان يتشيَّعُ.

قال ابن الجوزيُّ: ومثله لا يوثق به؛ فإنه يصرح في كتبه بما يوجب عليه الفسق، ويهوِّنُ شرب الخمر، وربما حكى ذلك عن نفسه، ومن تأمَّل كتاب «الأغاني» رأى كلَّ قبيح ومنكر. وقد روى الحديث عن محمد بن عبدالله مطيَّن وخلقٍ، وروى عنه الدارقطنيُّ وغيره.

توفي في ذي الحجَّة من هذه السنة. وقال ابن خلّكان: وقيل: في التي بعدها، وكان مولده في سنة أربعٍ وثمانين ومائتين، التي توفِّي فيها البحتريُّ الشاعر. وقد ذكر له مصنَّفات عديدةً؛ منه «الأغاني»، و«الديّارات»، و«أيامُ العرب»، وغيرُ ذلك.

سيف الدولة بن حمدان، صاحب حلب، أبو الحسن عليُّ بن أبي الهيجاء عبدالله بن حمدان ابن حمدون التغلبيُّ الرَّبعيُّ(١)، الملقَّبُ بسيفِ الدولة، أحد الأمراء الشجعان، والملوك الكثيري الإحسان، على ما كان فيه من تشيُّع، وقد ملك دمشق في بعض الأوقات، واتفق له أشياءُ غريبةٌ؛ منها أن خطيبه كان مصنِّفَ «الخطب النُّباتيَّة» أحد الفصحاء البلغاء، وشاعره المتنبِّي، ومطربه أبا نصر الفارابيَّ. وكان كريمًا جوادًا معطيًا للجزيل.

ومن شعره في أخيه ناصر الدولة صاحب الموصل:

رضيتُ لك العَلْيَا وقد كنت أهلَها ... وقلتُ لهم بيني وبين أخي فرْقُ

وما كان لي عنها نُكُولٌ وإنما ... تجاوزتُ عن حقِّي فتمَّ لك الحقُّ

أما كنتَ ترضى أن أكون مصلِّيًا ... إذا كنت أرضى أن يكون لك السَّبْقُ

---

(١) ترجمته في «السير» (١٦/ ١٨٧).

وله أيضًا:

قــد جــرى في دمــعــه دمُــهُ ... فــإلى كم أنت تظلمُــهُ
ردَّ عنه الطَّرْفَ منك فـقـد ... جرحتـــه منك أسـهــمُــهُ
كــيف يـستطيعُ التَّجلُّدَ من ... خطرات الوهم تؤلمُــهُ

وكان سبب موته الفالجُ، وقيل: عسر البول. وتوفِّي بحلب، وحمل تابوته إلى ميَّافارقين فدفن بها وعمره ثلاثٌ وخمسون سنةً، وقام بملك حلب من بعده ولده سعد الدولة أبو المعالي شريفٌ، ثم تغلَّب عليه مولى أبيه قرعويه، فأخرجه من حلب إلى أمِّه بميَّافارقين، ثم عاد إليها كما سيأتي بيانه.

وذكر ابن خلِّكان شيئًا كثيرًا مما قاله سيف الدولة وقيل فيه، قال: ولم يجتمعْ بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من الشعراء. وقد أجاز لجماعة من الكبار منهم؛ كالمتنبِّي، والخالديَّين، والسَّريِّ الرَّفَّاء، والنامي، والببغاء، والوأواء، وغيرهم. وذكر ابن خلِّكان أنَّه ولد سنة ثلاثٍ. وقيل: إحدى. وثلاثمائة، وأنه ملك حلب بعد الثلاثين وثلاثمائة، وكان قبل ذلك يملك واسطًا ونواحيها، ثم تنقَّلتْ به الأحوالُ حتى ملك حلبَ. انتزعها من يد أحمد بن سعيد الكلابيِّ صاحب الإخشيد. وملك دمشق في وقت. وقد قال يومًا لندمائه: أيُّكم يجيز قولي؟ وما أظنُّ أحدًا يجيزه:

لك جسمي تعلُّهُ ... فدمي لمْ تحِلُّهُ

فقال أبو فراس أخوه بديهةً:

قال إن كنتُ مالكًا ... فلي الأمرُ كلُّهُ

وفيها: توفي كافورٌ الإخشيديُّ، مولى محمد بن طغج الإخشيد، وقد قام بالأمر من بعده مولاه لصغر أولاده، فملك كافورٌ مصر ودمشق، وناوأ سيف الدولة وغيره.

وقد كتب على قبره:

انظر إلى غِيَرِ الأيام ما صنَعتْ ... أفنتْ أُناسًا بها كانوا وما فنيتْ
دنياهمُ ضحكتْ أيام دولتهمْ ... حتى إذا فنيتْ ناحتْ لهم وبكتْ

أبو عليٍّ القاليُّ صاحب «الأمالي» إسماعيلُ بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد ابن سليمان، أبو عليٍّ القاليُّ اللُّغَويُّ الأمويُّ مولاهم؛ لأن سليمان هذا كان مولًى لعبدالملك بن مروان، والقاليُّ نسبة إلى قاليقلا، ويقال: إنها أرزَنُ الروم. فالله أعلم.

وكان مولده بمنازجرد من أرض الجزيرة من ديار بكرٍ، وسمع الحديث على أبي يعلى الموصليِّ وغيره، وأخذ النحو واللغة عن ابن دريد وأبي بكر بن الأنباريِّ ونفطويه وغيرهم، وصنف «الأمالي» وهو مشهورٌ، وكتاب «البارع» على حروف المعجم، في خمسة آلاف ورقةٍ، وغير ذلك من المصنَّفات في اللغة.

ودخل بغداد وسمع بها، ثم ارتحل إلى قرطبة، فدخلها في سنة ثلاثين وثلاثمائة واستوطنها، وصنف كتبًا كثيرةً فيها، إلى أن توفي بها في هذه السنة عن ثمان وستين سنةً. قاله ابن خلِّكان.

وفيها توفي أبو عليٍّ محمد بن إلياس صاحب بلاد كرمانَ ومعاملاتها، فأخذ عضدُ الدولة بن ركن الدولة بلاد كرمان من أولاد محمد بن إلياس، وهم ثلاثةٌ؛ اليسع، وإلياس، وسليمان.

والملك الكبيرُ وشمكيرُ، كما قدّمنا ذكره في هذه السنة.

وممن توفي فيها من الملوك:

الحسن بن الفيرزان صاحب بلاد جرجان،

ومعزُّ الدولة بن بويه الديلمي، كما تقدَّم ذكره.

وسيف الدولة بن حمدان صاحب حلب، كما قدمنا ذكر ذلك.

قال ابن الأثير: وفيها هلك النقفورُ ملك الرُّوم. يعني الدُّمُسْتُقَ صاحب بلاد الأرمن، وقد ذكرنا ترجمته وما ورد عنه من الشرِّ، وأوردنا جوابها للإمام العلاّمة أبي محمد ابن حزم الفقيه الظاهريِّ، رحمه الله تعالى.

وممَّن توفيَ بها كافورٌ الإخشيديُّ، في قول ابن خلّكان.

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وثلاثمائة

فيها شاع الخبر ببغداد وغيرها من البلاد أن رجلاً ظهر يقال له: محمد بن عبدالله. وتلقَّب بالمهديِّ، وزعم أنه الموعودُ به في الحديث الوارد في المهديِّ، وأنه يدعو إلى الخير وينهى عن الشرِّ، ودعا إليه ناسٌ ببغداد؛ فإن دعوا سنيًّا قالوا: هو من سلالة العباس. وإن كان المدعو شيعيًّا قالوا له: عَلَويٌّ وكان هذا الرجل إذ ذاك مقيمًا بمصر عند كافور الإخشيديِّ قبل أن يموت، وكان يكرمه، وكان من جملة المستحسنين له سبكتكين الحاجبُ، وكان شيعيًّا، فظنَّه علويًّا، وكتب إليه أن يقدم إلى بغداد ليأخذَ له البلاد، فترحَّل، من مصر فلقيه سبكتكين إلى قريب الأنبار، فلما رآه عرفه، وإذا هو محمد بن المستكفي بالله العباسيُّ، فلمَّا تحقق أنه عباسيٌّ وليس بعلويٍّ انثنى رأيه عنه، فتفرّق شمله، وتمزَّق أصحابه كلَّ ممزَّق، وحمل إلى عزِّ الدولة ابن معزِّ الدولة فأمَّنه، وتسلمه المطيع لله، فجدع أنفه، واختفى أمره، فلم يظهرْ له خبرٌ بالكليَّة بعد ذلك.

وفيها: وردت طائفةٌ من الروم، لعنهم الله، إلى بلاد أنطاكية، فقتلوا خلقًا من حواضرها، وسبوا اثنيْ عشر ألفًا من أهلها، ورجعوا إلى بلادهم، ولم يعرضْ لهم أحدٌ.

وعملت الرَّوافضُ في عاشوراء المأتم، وفي يوم غدير خمٍّ الهناء والسُّرور.

وفيها: عرض للناس في تشرين داءُ الماشرا، فمات به خلقٌ كثيرٌ فجأةً، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها مات أكثر جمال الحجيج في الطريق من العطش، ولم يصلْ منهم إلى مكة إلا القليلُ،

ومات أكثر من وصل منهم عامه ذلك، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها: اقتتل أبو المعالي شريف بن سيف الدولة هو وخاله وابن عمِّ أبيه أبو فراس بن سعيد بن حمدان الشاعر، عند قريةٍ يقال لها: صدرُ. فقتلَ أبو فراس في المعركة.

قال ابن الأثير: وقد صدق من قال: إن المُلْكَ عقيمٌ.

وفيها: أظهرت الشيعةُ الحزن الشديد يوم عاشوراء من المحرم وعملوا عيد غدير خمٍّ في اليوم الثامن عشر من ذي الحِجَّة وأظهروا الفرح والسرور.

وممن توفي فيها أيضًا:

إبراهيم المتقى لله بن جعفر المقتدر، وكان قد ولي الخلافة، ثم أُلجئَ إلى أنه خلع عنها في سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائةٍ، كما ذكرنا، ولزم بيته، فمات في هذه السنة، ودفن بداره عن ستين سنةً.

عمر بن جعفر بن عبدالله بن أبي السَّريِّ، أبو جعفر البصريُّ الحافظ، ولد سنة ثمانين ومائتين، وكان ينتخب على المشايخ، حدَّث عن أبي خليفة الفضل بن الحباب وغيره، وقد انتقد عليه مائة موضع. قال الدارقطنيُّ: فنظرت فيها، فإذا الصواب مع عمر بن جعفر.

محمد بن أحمد بن عليِّ بن مخلد، أبو عبدالله الجوهريُّ المحتسب، ويعرف بابن المحرم، كان أحدَ أصحاب ابن جرير الطبريِّ، وقد روى عن الكديميِّ وغيره، وقد اتفق أنه تزوَّج امرأةً، فلما أدخلت عليه جلس يكتبُ الحديث، فجاءت أمُّها، فأخذت الدَّواة فرمت بها وقالت: هذه أضرُّ على ابنتي من ثلاثمائة ضرَّةٍ. وقد توفِّي في هذه السنة عن ثلاثٍ وتسعين سنةً، وكان يضعَّفُ في الحديث.

كافور بن عبدالله الإخشيديُّ، كان مولى السلطان محمد بن طغج الإخشيديِّ، اشتراه من بعض أهل مصر بثمانية عشر دينارًا، وقربه وأدناه، واختصَّه من بين الموالي واصطفاه، ثم جعله أتابكًا حين ملك ولداه، ثم استقلَّ بالأمور بعد موتهما في سنة خمس وخمسين، واستقرَّت المملكةُ باسمه، يدعى له على المنابر بالديار المصرية والشامية وبلاد الحجاز جميعًا، وكان شهمًا ذكيًّا فاتكًا جيِّدَ السِّيرة، مدحه الشعراءُ، ووفد إليه المتنبِّي، حين ذهب مغاضبًا على سيف الدولة بن حمدان، فأوى إلى كافور وحصل له منه رفدٌ، ثم تغير عليه فأبعده كافورٌ، فهجاه ورحل عنه، وصار إلى عضد الدولة بن بويه، فكان هناك حتفه كما تقدَّم بيانه. وأما كافورٌ فإنه لما توفي دفن بتربته المشهورة به، وقام بالملك بعده أبو الحسن عليُّ بن الإخشيد، ومنه أخذ الفاطميُّون الأدعياء بلاد مصر كما سيأتي. وكانت مملكةُ كافورٍ سنتين وثلاثة أشهر رحمه الله.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة

في عاشوراء عملت الروافضُ بدعتهم، وفي يوم غدير خمٍّ عملوا الفرح المبتدع.

وحصل بالعراق غلاءٌ عظيمٌ، كان يعدم الخبزُ بالكلية. وعاثت الروم في البلاد فساداً، وحرَّقوا حمص، وأفسدوا فيها فساداً عريضاً، وسبوا من المسلمين نحواً من مائة ألف إنسان، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

دخول جوهر القائد إلى الديار المصرية

ودخل أبو الحسن جوهرٌ القائدُ الرُّوميُّ في جيشٍ كثيفٍ، من جهة المعزِّ الفاطميِّ إلى ديار مصر يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلةً بقيت من شعبان، فلما كان يوم الجمعة خطب للمعزِّ الفاطميِّ على منابر الديار المصرية وسائر أعمالها، وأمر جوهرٌ المؤذنين بالجامع العتيق وبجامع ابن طولون أن يؤذنوا بحيَّ على خير العمل، وأن يجهرَ الأئمةُ بالبسملة، وذلك أنه لما توفيَ كافورٌ الإخشيديُّ، لم يبق بمصر من تجتمع القلوب عليه، وأصابهم غلاءٌ شديدٌ أضعفهم، فلما بلغ ذلك المعزَّ وهو ببلاد إفريقيَّة بعث جوهراً القائد الرُّوميَّ مولى أبيه المنصور في جيش كثيف إلى الدِّيار المصرية، فلما بلغ ذلك أصحاب كافور هربوا منها قبل وصول جوهر إليها، فدخلها فأخذها بلا ضربةٍ ولا طعنةٍ ولا ممانعةٍ، ففعل ما ذكرنا من الأمور، واستقرَّت أيديهم على تلك البلاد بعد كافور الإخشيديِّ.

وفي هذه السنة شرع جوهرٌ القائدُ في بناء القاهرة المعزِّية، وبناء القصرين عندها، على ما سنذكره. وهيَّأ الإقامات لمولاه المعزِّ الفاطميِّ.

وأرسل جوهرٌ جعفر بن فلاح في جيش كثيف إلى الشام، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وكان بدمشق الشريفُ أبو القاسم بن أبي يعلى الهاشميُّ، وكان مطاعاً فيهم، فحاجف عن العباسيِّين مدةً طويلةً، ثم آل الحال إلى أن خطبَ للمعزِّ بدمشق، وحمل الشريف أبو القاسم إلى الديار المصرية، وأُسر الحسنُ بن عبد الله بن طغج وجماعة من الأمراء فحملوا إلى الديار المصرية فحملهم جوهرٌ إلى المعزِّ بإفريقيَّة، واستقرَّت يد الفاطميين على دمشق في سنة ستين، كما سيأتي، وأذَّن بها: حيَّ على خير العمل، أكثر من سبعين سنةً، وكتبتْ لعنةُ الشيخين - رضي الله عنهما ولعن من لعنهما - على أبواب الجوامع بها وأبواب المساجد، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولم يزلْ ذلك كذلك حتى أزالت ذلك دولةُ الأتراك، على ماسيأتي بيانه وتفصيله في موضعه، إن شاء الله تعالى.

وفيها دخلت الرومُ إلى حمص، فوجدوا أكثر أهلها قد جلوا عنها وانتقلوا منها، فحرَّقوها وأسروا ممَّن بقي فيها ومن حولها نحواً من مائة ألف إنسان، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي ذي الحجَّة نقل عزُّ الدولة والده معزَّ الدولة بن بويه من داره إلى تربته بمقابر قريش.

وممَّن توفي فيها من الأعيان على ما ذكره ابن الجوزيُّ في «منتظمه» **كافورٌ الإخشيدي**؛ قال ابن الجوزيِّ: وقد رأيت مدحَ المُتنبِّي لكافور تحملُ الذمَّ والمدح، وكأنه تلعَّب به، والله تعالى أعلمُ.

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وثلاثمائة

في عاشر المحرَّم منها عملت الروافض بدعتهم الشنعاء، فغلقت الأسواق، وتعطلت المعايش، ودارت النساءُ سافراتٍ عن وجوههنَّ ينحنَ على الحسين بن عليٍّ، ويلطمنَ وجوههن، والمسوحُ معلقةٌ في الأسواق، والتبنُ مذرورٌ فيها.

وفيها دخلت الرومُ الملاعين أنطاكيةَ، فنفوا من أهلها الشُّيوخَ والعجائز، وسبوا من النساء والأطفال نحوًا من عشرين ألفًا؛ وذلك كلُّه بتدبير ملك الأرمن نقفور، لعنه الله.

قال ابن الجوزيِّ: وكان قد قهر وطغا وتمرَّد، وقد تزوَّج مع ذلك، بامرأة الملك الذي كان قبله، ولها منه ابنان، فأراد أن يخصيهما ويجعلهما في الكنيسة؛ لئلاَّ يصلحا بعد ذلك للملك، فلما فهمت ذلك أمُّهما عملت عليه، وسللت عليه الأمراء، فقتلوه وهو نائمٌ، وملَّكوا عليهم أكبر ولديها.

وفي ربيع الأول صرف عن القضاء أبو بكر أحمد بن سيَّار وأعيد إليه أبو محمد بن معروفٍ.

قال ابن الجوزيِّ: وفي هذه السنة نقصت دجْلةُ حتى غارَت الآبارُ.

وحجَّ بالناس الشريفُ أبو أحمد النَّقيبُ.

قال: وانْقَض كوكبٌ في ذي الحجَّة، فأضاءت منه الدنيا حتى بقيَ له شعاعٌ كالشمس، ثم سمع له صوتٌ كالرَّعْد.

قال ابن الأثير: وفي المحرَّم من هذه السنة خطب للمعزِّ الفاطميِّ بدمشق عن أمر جعفر بن فلاح الذي سيَّره جوهرٌ القائدُ من مصر إلى الشام، فقاتله أبو محمد الحسن بن عبدالله بن طغج بالرملة، فغلبه ابن فلاح، وأسره وسيَّره إلى جوهرٍ، فأرسله جوهرٌ إلى المعزِّ وهو بإفريقيَّة واستقرَّت يدُ الفاطميين على دمشق أيضًا بعد حروبٍ يطول ذكرها، تطاول أمرها إلى آخر هذه السنة.

وفي هذه السنة وقعت المنافرةُ بين ناصر الدولة بن حمدان وبين ابنه أبي تغلبَ، وسببُه أنه لما مات معزُّ الدولة بن بويه ببغداد، عزم أبو تغلبَ ومن وافقه من أهل بيته على الدُّخول إلى بغدادَ وأخذِ مملكةِ العراق، فقال لهم أبوهم: إن معزَّ الدولة قد ترك لابنه أموالاً جزيلةً، لا تقدرون عليه ما دامت في يده، ولكن اصبروا حتى ينفقها فإنه مبذِّرٌ، فإذا أفلس فثوروا عليه، فإنكم تغلبونه لا محالة. فحقد عليه و لده أبو تغلبَ بسبب ذلك، ولم يزلْ بأبيه حتى سجنه بالقلعة، فاختلف أولاده بينهم، وصاروا أحزابًا، وضعفوا عن حفظ ما بأيديهم حتى بعث أبو تغلبَ إلى عزِّ الدولة فضمن منه بلاد الموصل بألف ألف درهمٍ كلَّ سنةٍ يحملها إليه، واتفق موت أبيه ناصر الدولة في هذه السنة، واستقرَّ أبو تغلبَ

بالموصل وملكها، إلا أنهم فيما بينهم مختلفون متحاربون.

وفي هذه السنة دخل ملكُ الروم إلى طرابلس، فأحرق كثيراً منها، وملك قلعة عرقة، ونهبها وسبى أهلها وكان في قلعتها صاحب طرابلس، كان لجأ إليها حين أخرجه أهل طرابلس منها لشدة ظلمه، فأسرته الروم، واستحوذوا على جميع أمواله وحواصله، وكانت كثيرةً جداً، ثم مالوا على السَّواحل، فملكوا ثمانية عشر منبراً سوى القرى، وتنصَّر خلقٌ كثيرٌ على أيديهم، لعنهم الله تعالى.

وجاءوا إلى حمص، فحرَّقوا ونهبوا. ومكث ملك الروم شهرين يأخذ ما شاء من البلاد، ويأسر من قدر عليه من العباد، وصارت له مهابةٌ عظيمةٌ في قلوب الناس، ثم عاد إلى بلاده ومعه من السبي نحوٌ من مائة ألف صبيٌّ وصبيةٍ، وكان سبب عوده إلى بلاده كثرة الأمراض في جيشه واشتياقهم إلى أولادهم وأهليهم وأوطانهم.

وبعث سريَّةً إلى الجزيرة، فنهبوا وسبوا، وكان قرعويه غلامُ سيف الدولة قد استحوذ على حلب، وأخرج منها ابن أستاذه أبا المعالي شريف بن سيف الدولة، فسار إلى حرّان، وهي تحت حكمه، فأبوا أن يدخلوه إليهم، فذهب إلى أمِّه بميَّافارقين، وهي ابنةُ سعيد بن حمدان، فمكث عندها حيناً، ثم سار إلى حماة فملكها، ثم عاد إلى حلبَ بعد سنتين كما سنذكره فيما بعد.

ولما عاثت الروم في هذه السنة بالشام صانعهم قرعويه عن حلبَ، وبعث إليهم بأموالٍ وتحفٍ، ثم عادوا إلى أنطاكيةَ، فملكوها وقتلوا خلقاً كثيراً منها، وسبوا عامَّة أهلها، وركبوا إلى حلبَ وأبو المعالي شريفٌ محاصرٌ غلامهم قرعويه بها، فخافهم أبو المعالي فهرب عنها، وحاصرها الرومُ، فأخذوا البلد، وامتنعت القلعةُ عليهم، ثم اصطلحوا مع قرعويه على هدنةٍ مؤبَّدةٍ ومالٍ يحمله إليهم كلَّ سنةٍ، وسلَّموا إليه البلد، ورجعوا عنه.

وفي هذه السنة خرج على المعزِّ الفاطميِّ وهو بإفريقيَّة، رجلٌ يقال له: أبو خزرٍ، فنهض إليه المعزُّ بنفسه وجنوده فهرب منه فأرسل في طلبه يوسف بن بلكين بن زيري فشرَّده، وطرده، ثم عاد فاستأمن، فقبل منه المعزُّ ذلك، وصفح عنه، وجاء الرسول من جوهر القائد إلى المعزِّ في هذه السنة يبشِّره بفتح الدِّيار المصرية وإقامة الدَّعْوة له بها، وطلبه إليها، ففرح بذلك المعزُّ الفاطميُّ فرحاً شديداً، وامتدحه الشعراء، فكان ممَّن امتدحه شاعره محمد بن هانئ في قصيدةٍ أولها:

يقول بنو العباس هل فتحت مصر ... فقلْ لبني العباس قد قضيَ الأمرُ

وذكر ابن الأثير أن في هذه السنة توفِّي النَّقْفور الذي كان دُمُستقاً، ثم صار ملك الروم، وأراد قتل ابني الملك الذي كان قبله. فغارت أمُّهما لهما فقتلته غيلةً. قال: وقد كان هذا اللعين من أبناء المسلمين، كان أبوه من أهل طرسوس من خيار المسلمين يعرف بابن الفقاس، فتنصَّر ولده هذا وحظي عند النصارى حتى صار من أمره ما صار، وكان من أشدِّ الناس على المسلمين، وقد أخذ بلاداً كثيرةً

عنوةً، من ذلك طرسوس، وأذنة، وعين زربة، والمصِّيصة، وغير ذلك من البلاد، وقتل خلقًا كثيرًا لا يعلمهم إلا الله عزَّ وجلَّ، وسبى من المسلمين والمسلمات ما لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم. وهذا اللعين هو الذي بعث تلك القصيدة إلى المطيع لله، وقد أوردناها في آخر الجزء الذي قبل هذا في سنة خمس وخمسين وثلاثمائة، ثم انتدب لها فيما بعد ذلك الفقيهُ الإمام أبو محمد بن حزم الظاهريُّ، فأجاب عنها جوابًا شافيًا كافيًا، فجزاه الله عن الإسلام خيرًا.

وفيها رام عزُّ الدولة صاحب بغداد محاصرة عمران بن شاهين، فلم يقدرْ عليه، فصالحه ورجع إلى بغداد.

وفيها اصطلح قرعويه وأبو المعالي شريفٌ، فخطب له قرعويه بحلب، وخطبا جميعًا في معاملتيها للمعزِّ الفاطميِّ بحلب وحمصَ، وخطب بمكة للمطيع لله وللقرامطة أيضًا، وبالمدينة للمعزِّ الفاطميِّ، وخطب أبو أحمد الموسويُّ بظاهرها للمطيع لله.

وممن توفي فيها من الأعيان:

محمد بن أحمد بن الحسن بن إسحاق بن إبراهيم بن عبدالله، أبو عليٍّ الصوَّاف، روى عن عبدالله بن أحمد وطبقته، وعنه خلقٌ؛ منهم الدارقطنيُّ وقال: ما رأت عيناي مثله في تحرُّزه ودينه. وقد بلغ تسعًا وثمانين سنةً، رحمه الله تعالى.

محارب بن محمد بن محارب، أبو العلاء القاضي الفقيه الشافعيُّ، من ذرية محارب بن دثار، وكان ثقةً عالمًا فاضلاً، روى عن جعفر الفريابيِّ وغيره.

أبو الحسين أحمد بن محمد، المعروفُ بابن القطَّان، أحد أئمة الشافعية، تفقَّه بابن سريج، ثم بالشيخ أبي إسحاق المروزيِّ، تفرَّد برياسة المذهب بعد موت أبي القاسم الداركيِّ، وصنَّف في أصول الفقه وفروعه، وكانت الرحلةُ إليه ببغداد، ودرَّس بها، وكتب شيئًا كثيرًا، وكانت وفاته، رحمه الله تعالى، في جمادي الأولى من هذه السنة.

ثم دخلت سنة ستين وثلاثمائة

في عاشر محرم منها عملت الرافضةُ بدعتهم المحرَّمة على عادتهم المتقدِّم ذكرها.

وفي ذي القعدة منها أخذت القرامطةُ دمشق، وقتلوا نائبها جعفر بن فلاح من جهة المعزِّ الفاطميِّ، وكان رئيس القرامطة وأميرهم الحسين بن أحمد بن بهرام، وقد أمدَّه عزُّ الدولة من بغداد بسلاح وعددٍ كثيرةٍ، ثم ساروا إلى الرمْلة، فأخذوها وتحصَّن من كان فيها من المغاربة بيافا، فتركوا عليها من يحصرها، ثم ساروا نحو الدِّيار المصرية في جمع كثير من الأعراب والإخشيدية والكافوريَّة، فوصلوا عين شمس، فاقتتلوا هم وجنود جوهر قتالاً شديدًا، والظفرُ للقرامطة، وحصروا المغاربة حصرًا عظيمًا.

ثم حملت المغاربة في بعض الأيام على ميمنة القرامطة فهزمتها، ورجعت القرامطةُ إلى الشام، فجدُّوا في حصار يافا، فأرسل جوهرٌ إلى أصحابه خمسة عشر مركبًا، ميرةً لأصحابه، فأخذتها مراكب القرامطة، سوى مركبين أخذتها الفرنج. وجرت خطوبٌ كثيرةٌ.

ومن شعر الحسين بن أحمد بن بهرام أمير القرامطة:

زعمت رجال الغرب أنّي هبتها فدمي إذنْ ما بينهم مطلول
يا مصر إن لم أسق أرضك من دم يروى ثراك فلا سقاني النيلُ

وفيها تزوج أبو تغلب بن حمدان ابنة بختيار عزِّ الدولة، وعمرها ثلاثُ سنين، على صداقٍ مائة ألف دينار، ووقع العقدُ في صفر.

وفيها استوزر مؤيَّدُ الدولة بن ركن الدولة الصاحبَ أبا القاسم بن عبَّادٍ، فأصلح أموره كلها وساس دولته جيدًا.

وفيها: أذَّن بدمشق وسائر الشام بحيَّ على خير العمل.

قال الحافظ ابن عساكر في ترجمة جعفر بن فلاح نائب دمشق: أول من تأمَّر بها عن الفاطميِّين وهو الذي أمر بذلك نيابةً عن المعزِّ الفاطميِّ صاحب القاهرة، أخبرنا أبو محمد بن الألهانيِّ قال: قال أبو بكر أحمد بن محمد بن شرام: وفي يوم الخميس لخمس خلون من صفر سنة ستين وثلاثمائة أعلن المؤذِّنون في الجامع بدمشق وسائر مآذن البلد، ومآذن المساجد بحيَّ على خير العمل، بعد حيَّ على الفلاح، أمرهم بذلك جعفر بن فلاح، ولم يقدروا على مخالفته، ولا وجدوا من المسارعة إلى طاعته بدًّا.

وفي يوم الجمعة، الثامن من جمادى الآخرة منها أُمر المؤذِّنون أن يثنُّوا الأذان والتكبير في الإقامة مثنى مثنى، وأن يقولوا في الإقامة: حيَّ على خير العمل. فاستعظم الناس ذلك، وصبروا على حكم الله تبارك وتعالى، والله أعلم.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الرفاء الشاعر، السريُّ بن أحمد بن السريِّ، أبو الحسن الكنديُّ الرفاءُ الشاعر الموصليُّ، أرخ وفاته ابن الأثير في هذه السنة، أعني سنة ستين وثلاثمائة، وكانت وفاته ببغداد، ذكر ابن الجوزيِّ أنه توفيَ سنة ثنتين وستين وثلاثمائة كما سيأتي.

محمد بن جعفر بن محمد بن الهيثم بن عمران بن يزيد، أبو بكر البندار، أصله أنباريٌّ، سمع من أحمد بن الخليل البرجلانيِّ، ومحمد بن أبي العوام الرياحيِّ، وجعفر بن محمد الصائغ، وأبي إسماعيل الترمذيِّ.

قال ابن الجوزيِّ: وهو آخر من روى عنهم. قالوا: وكانت أصوله جيادًا بخطِّ أبيه، وسماعه صحيحًا، وقد انتقى عليه عمر البصريُّ. وكانت وفاته فجأةً يوم عاشوراء وقد جاوز التسعين.

محمد بن الحسين بن عبدالله، أبو بكر الآجريُّ سمع جعفرًا الفريابيَّ، وأبا شعيب الحرَّانيَّ، وأبا مسلم الكجيَّ وخلقًا، وكان ثقةً صدوقًا دينًا، وله تصانيفُ كثيرةٌ مفيدةٌ، منها «الاربعون الآجُرِّيَّةُ»، وقد حدث ببغداد قبل سنة ثلاثين وثلاثمائة، ثم انتقل إلى مكة، فأقام بها حتى مات بعد إقامته بها ثلاثين سنةً، رحمه الله تعالى.

محمد بن جعفر بن محمد بن مظفر. أبو عمرو الزاهد، سمع الكثير، ورحل إلى الآفاق المتنائية، وسمع منه الحفَّاظُ الكبار، وكان فقيرًا متقللا، يضرب اللَّبِن لقبور الفقراء، ويتقوتُ برغيف بجزرة أو بصلة، ويقوم الليل كله، وكانت وفاته في جمادى الآخرة من هذه السنة عن خمس وتسعين سنةً.

محمد بن داود، أبو بكر الصُّوفيُّ، ويعرف بالدُّقيِّ أصله من الدينور، وأقام ببغداد، ثم انتقل إلى دمشق، وقد قرأ على ابن مجاهد، وسمع الحديث من محمد بن جعفر الخرائطيِّ، وصحب ابن الجلاء والدقاق، وكانت وفاته في هذه السنة، وقد جاوز المائة، رحمه الله تعالى.

محمد بن الفرخان بن روزبه، أبو الطي الدوري، دخل بغداد، وحدث بها عن أبيه بأحاديث منكرة، وروى عن الجنيد وابن مسروق، قال ابن الجوزيِّ: وكان فيه ظرفٌ ولباقةٌ، غير أنهم كانوا يتهمونه بوضع الحديث.

وممن توفي فيها من الأعيان:

الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب، أبو القاسم الطبرانيُّ اللخميُّ[1] الحافظ الكبير، صاحب المعاجم الثلاثة؛ «الكبير» و«الأوسط»، و«الصغير» وكتاب «السُّنَّة» وكتاب «مسند الشاميِّين» وغير ذلك من المصنفات المفيدة.

عمر مائة سنة، وكانت وفاته في هذه السنة بأصبهان، ودفن على بابها عند قبر حممة الدوسيِّ الصحابيِّ، رضي الله عنه، قاله أبو الفرج ابن الجوزيِّ في «المنتظم».

قال ابن خلكان: وسمع من ألف شيخ. قال: وكانت وفاته في يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة من هذه السنة، وقيل: في شوال منها.

أحمد بن محمد بن الفتح - ويقال: ابن أبي الفتح - بن خاقان، أبو العباس بن النجاد، إمام جامع دمشق.

قال ابن عساكر: كان عابدًا صالحًا. وذكر أن جماعةً جاءوا لزيارته، فسمعوه يتأوه من وجع كان به، فأنكروا عليه، فلما خرج إليهم قاله لهم: إن آه اسمٌ من أسماء الله يستروح إليه الأعلاء. قال: فزاد في أعينهم وعظموه. قلت: هذا الذي قاله لا يؤخذ عنه مسلمًا بلا دليل، بل يحتاج إلى نقل صحيح عن المعصوم، فإن أسماء الله تعالى توقيفيةٌ، على الصحيح، والله تعالى أعلم بالصواب.

(١) ترجمته في «السير» (١٦/ ١١٩).

ثم دخلت سنة إحدى وستين وثلاثمائة

في عاشر المحرَّم منها عملت الروافضُ ببغداد البدعة التي تقررت من النوح على الحسين بن عليٍّ، رضي الله عنه وقبَّحهم. وفي المحرَّم منها أغارت الرومُ على الجزيرة وديار بكر، فقتلوا خلقًا كثيرًا من أهل الرُّها، وساروا في البلاد كذلك يقتلون ويأسرون ويغنمون، إلى أن وصلوا نصيبين، وفعلوا كذلك ببلاد بكر، ولم يغن عن أهل تلك النواحي أبو تغلب بن حمدان متوليها شيئًا، ولم يكن عنده دفاعٌ ولا له قوةٌ، فعند ذلك ذهب أهل الجزيرة إلى بغداد، يستنصرون ويستصرخون، فرثى لهم أهل بغداد، وأرادوا إدخالهم على الخليفة المطيع لله فلم يمكنْ ذلك، وكان بختيارُ بن معزِّ الدولة مشغولاً بالصيد، فذهبت الرسل وراءه، فبعث الحاجب سبكتكين يستنفر الناس، فتجهَّز خلقٌ كثيرٌ من العامَّة، وكتب إلى أبي تغلب أن يعدَّ الميرة والإقامات، فأظهر السُّرور بذلك والفرح والابتهاج، ولما تجهزت العامَّة للغزاة، وقعت بينهم فتنةٌ شديدةٌ، بين الروافض والسُّنَّة، فأحرقت السُّنَّةُ دور الروافض بالكرخ وقالوا: الشرُّ كله منكم. وصارت العيارون ببغداد يأخذون أموال الناس، وتناقض النقيب أبو أحمد الموسويُّ والوزير أبو الفضل الشيرازيُّ، وأرسل بختيارُ بن معزِّ الدولة إلى الخليفة يطلب منه أموالاً يستعين بها في هذه الغزوات، فبعث إليه يقول: لو كان الخراج يجبى إليَّ لدفعت منه ما يحتاج المسلمون إليه، ولكن أنت تصرف منه ما للمسلمين به ضرورةٌ، وأمَّا أنا فليس عندي شيءٌ أبعثُ به إليك. فتردَّدت البرد بينهما، وأغلظ بختيار للخليفة في ذلك وتهدده، فاحتاج الخليفة أن يحصل له شيئًا، فباع بعض ثياب بدنه وشيئًا من أثاثه، ونقض بعض سقوف داره، وحصَّل أربعمائة ألف درهم، فصرفها بختيار في مصالح نفسه، وأبطل تلك الغزاة، فتغمَّمَ الناس للخليفة، وساءهم ما فعل ابن بويه من أخذه مال الخليفة وتركه الجهاد في سبيل الله، فلا جزاه الله خيرًا عن المسلمين، ولا عن إمامهم.

وفيها: تسلم أبو تغلب بن حمدان قلعة ماردين، فنقل حواصلها وما فيها إلى الموصل.

وفيها: اصطلح الأمير منصور بن نوح السامانيُّ صاحب خراسان هو وركن الدولة بن بويه وابنه عضد الدولة، على أن يحملا إليه في كل سنة مائة ألف دينار وخمسين ألف دينار، وتزوَّج بابنة ركن الدولة، فحمل إليه من الهدايا والتُّحف ما لا يحدُّ ولا يوصف.

وفي شوال منها خرج المعزُّ الفاطميُّ بأهله وحاشيته وجنوده من مدينة المنصورة من بلاد المغرب قاصدًا البلاد المصرية، بعدما مهَّد له مولاه جوهرٌ القائد أمرها، وأطَّدها له وبنى له بها القصرين، واستخلف المعزُّ الفاطميُّ على بلاد المغرب ونواحيها وصقلِّية وأعمالها نوَّابًا من حزبه وأنصاره من أهل تلك البلاد، واستصحب معه شاعره محمد بن هانئ الأندلسيَّ، فتوفِّي في أثناء الطريق، على ما سنذكره، وكان قدوم المعزِّ إلى القاهرة في رمضان من السنة الآتية، على ما سيأتي.

وفيها حجَّ بالناس الشريف أبو أحمد الموسويُّ النقيبُ على الطالبيين كلهم.

وممن توفي فيها من الأعيان:

سعيد بن أبي سعيد الجنَّابيُّ، أبو القاسم القرمطيُّ الهجريُّ، وقام بالأمر من بعده أخوه أبو يعقوب يوسف، ولم يبق من سلالة أبي سعيدٍ سواه.

عثمان بن عمر بن خفيف، أبو عمرو المقرئُ المعروف بالدَّراج، حدَّث عن أبي بكر بن أبي داود، وعنه ابن رزقويه، وكان من أهل القرآن والفقه والدراية والديانة والستر، جميل المذهب، وكان يعدُّ من الأبدال. وكانت وفاته يوم الجمعة في رمضان من هذه السنة، رحمه الله.

عليُّ بن إسحاق بن خلف أبو الحسن القطان، الشاعر المعروف بالزَّاهي. ومن شعره:

قم نُهنِّئ عاشقينِ ... أصبَحا مصطحبينِ
جُمِعَا بعدَ فِراقٍ ... فُجِعَا منه وبينِ
ثم عادا في سرورٍ ... من صدود آمنينِ
فهما روحٌ ولكنْ ... ركِّبتْ في بدنَينِ

محمد بن حميد بن سهل بن إسماعيل بن شداد، أبو بكر المخرِّميُّ، سمع أبا خليفة وجعفراً الفريابيَّ، وابن جرير وغيرهم، وعنه الدارقطنيُّ وابن رزقويه وأبو نعيم. وقد ضعَّفه البرقانيُّ وابن أبي الفوارس وغيرهما.

ثم دخلت سنة ثنتين وستين وثلاثمائة

عملت الروافضُ بدعتهم في عاشوراء من النياحة وتعليق المسوح وغلق الأسواق.

وفيها: اجتمع الفقيه أبو بكر الرازيُّ الحنفيُّ وأبو الحسن عليُّ بن عيسى الرُّمَّانيُّ وابن الدقاق الحنبليُّ بعزِّ الدولة بختيار بن معزِّ الدولة بن بويه، وحرضوه على غزو الروم، فبعث جيشًا لقتالهم، فأظفره الله بهم، وقتلوا منهم خلقًا كثيرًا، وبعثوا برءوسهم إلى بغداد، فسكنت أنفس الناس. ولله الحمد والمنةُ.

وفيها: سارت الروم مع الدمستق، لعنه الله، إلى حصار آمد، وعليها هزارمرد غلام أبي الهيجاء ابن حمدان، فكتب إلى أبي تغلب يستصرخه، فبعث إليه أخاه أبا القاسم هبةَ الله بن ناصر الدولة بن حمدان، فاجتمعا لقتاله، فلقياه في آخر يوم من رمضان في مكان ضيق لا مجال للخيل فيه، فاقتتلوا مع الروم قتالاً شديدًا، فعزمت الروم على الفرار، فلم تقدرْ، فاستحرَّ فيهم القتل، وأخذ الدمستق أسيرًا، فأودع في السجن، فلم يزلْ فيه حتى مرض، ومات في السنة القابلة، وقد جمع له أبو تغلبَ الأطبَّاء فلم ينفعه شيءٌ.

وفيها: احترق الكرخُ ببغداد، وكان سببه أن صاحب المعونة ضرب رجلاً من العامَّة فمات، فثار به العامَّةُ وجماعةٌ من الأتراك، فهرب منهم، فدخل دارًا، فأخرجوه مسحوبًا، وقتلوه وحرَّقوه، فركب الوزيرُ أبو الفضل الشِّيرازيُّ - وكان شديد التعصُّب للسُّنَّة - وبعث حاجبه إلى أهل الكرخ، فألقَى في دورهم النار، فاحترقت طائفةٌ كثيرةٌ من الدُّور والأموال، من ذلك ثلاثمائة دكانٍ وثلاثةٌ وثلاثون مسجدًا، وسبعة عشرَ ألف إنسان، فعند ذلك عزل عزُّ الدولة بختيار ابن معزِّ الدولة وزيره هذا عن الوزارة، وولاها محمد بن بقيَّة، فتعجب الناس من ذلك كثيرًا، وذلك أن هذا الرجل كان وضيعًا عند الناس لا حرمة له، كان أبوه فلاحًا بقرية أواناء وكان هو ممَّن يخدم عزَّ الدولة؛ يقدم له الطعام، ويحمل منديل الزفر على كتفه إلى أن وليَ الوزارة، ومع هذا كان أشدَّ ظلمًا للرعية من الذي قبله، وكثر في زمانه العيَّارون ببغداد، وفسدت الأمور ببغداد. ووقع الخلاف بين عزِّ الدولة وبين حاجبه سُبُكْتِكِين، ثم اصطلحا على دخن.

وفيها: كان دخول المعزِّ الفاطميِّ إلى الديار المصرية، وصحبته توابيت آبائه، فوصل إلى الإسكندرية في شعبان منها، وقد تلقاه أعيان مصر إليها، فخطب الناس هنالك خطبةً بليغةً ارتجالاً، ذكر فيها فضلهم وشرفهم، وقد كذب فقال فيها إن الله أغاث الرعايا بهم وبدولتهم، وحكى ذلك عنه قاضي بلاد مصر، وكان جالسًا إلى جنبه، فسأله: هل رأيت خليفةً أفضل مني؟ فقال: لم أر أحدًا من الخلائف سوى أمير المؤمنين. فقال له: أحججت؟ قال: نعم. قال: وزرت قبر رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وقبر أبي بكر وعمر؟ قال: فتحيَّرْتُ ماذا أقول، ثم نظرتُ فإذا ابنه قائمٌ مع كبار الأمراء، فقلت: شغلني عنهما رسول الله ﷺ كما شغلني أمير المؤمنين عن السلام على وليِّ العهد. ونهضت إليه، فسلمتُ عليه، ورجعتُ، فانفسح المجلس إلى غيري.

ثم سار من الإسكندرية إلى مصر، فدخلها في الخامس من رمضان من هذه السنة، فنزل القصرين، فقيل: إنه أول ما دخل إلى محلِّ ملكه خرَّ ساجدًا شكرًا لله عز وجل.

ثم كان أول حكومة انتهت إليه أن امرأة كافور الإخشيديِّ تقدمت إليه فذكرت له أنها كانت أودعت رجلاً من اليهود الصُّوَّاغ قباءً من لؤلؤ منسوج بالذهب، وأنه جحد ذلك، فاستحضره وقرره فجحد اليهوديُّ ذلك وأنكره، فأمر عند ذلك المعزُّ بأن تحفر داره، ويستخرج ما فيها، فوجدوا القباء بعينه قد جعله في جرَّةٍ ودفنها فيها، فسلَّمه المعزُّ إليها، فقدَّمته إليه وعرضته عليه، فأبى أن يقبله منها ورده عليها، فاستحسن منه ذلك الحاضرون من مؤمن وكافر. وقد ثبت في الحديث عن النبيِّ ﷺ: «**إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»[1].

---

(١) صحيح أخرجه البخاري (٤٢٠٣) وقد تقدم.

وممن توفي فيها من الأعيان:

السريُّ الرفاءُ الشاعر بن أحمد بن السَّريِّ، أبو الحسن الكنديُّ الموصليُّ، الشاعر، له مدائح في سيف الدولة بن حمدان وغيره من الملوك والأمراء وقد قدم بغداد، فاتَّفق موته بها في هذه السنة.

قال ابن خلِّكان: وقيل: في سنة أربع ـ وقيل: خمس ـ وستين. وقيل: سنة أربع وأربعين. قال: وكانت بينه وبين محمدٍ وسعيدٍ ابنيْ هاشم الخالديَّين الموصليَّين معاداةٌ، وادَّعى عليهما سرقة شعره، وكان معتنيًا بنسخ ديوان كشاجم الشاعر، وربما زاد فيه من شعر الخالديَّين ليكثر حجمه ويزنَّهما بالكذب.

وكان قد امتدح سيف الدولة فأجرى له رزقًا فلم يزل به الخالديَّان حتى قطعا رسمه من عنده، فدخل بغداد وامتدح الوزير المهلبيَّ، فرحلا وراءه فلم يزالا في ثلبه عنده حتى هجره وقلاه، فركبه الدينُ ومات في هذه السنة.

قال ابن خلِّكان: وللسَّريِّ الرفاء هذا ديوان شعر كبيرٌ جيِّدٌ، فمن شعره قوله:

يلقى الندى برقيق وجه مسفر ... فإذا التقى الجمعان عاد صفيقا

رحب المنازلِ ما أقام فإنْ سرى ... في جحفل ترك الفضاء مضيقا

وقوله:

ألبستني نعمًا رأيت بها الدُّجى ... صبحًا وكنت أرى الصباح بهيما

فغدوتُ يحسدني الصديق وقبلها ... قد كان يلقاني العدوُّ رحيما

وقوله:

بنفسي من أجودُ له بنفسي ... ويبخلُ بالتحية والسلام

وحتفي كامنٌ في مقلتيه ... كمون الموت في حدِّ الحسام

محمد بن هانئ الأندلسيُّ الشاعر[1]، كان قد استصحبه المعزُّ الفاطميُّ من بلاد القيروان وتلك النواحي حين توجَّه إلى الديار المصرية، فلمّا كان ببعض الطريق، وجد محمد بن هانئ مقتولاً مجدلاً على حافَّة البحر، وذلك في رجب منها، وقد كان شاعرًا مطبقًا قويَّ النظم، إلا أنه كفره غير واحد من العلماء في مبالغاته في مدائحه، فمن ذلك قوله يمدح المعزَّ قبّحهما الله:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحد القهَّارُ

وهذا خطأٌ كبيرٌ، وكفرٌ كثيرٌ.

وقال أيضًا، قبَّحه الله وأخزاه، وفضَّ فاه:

ولطالما زاحمتُ تحـ ... ـتَ ركابه جبريلا

---

(١) ترجمته في «السير» (١٦/ ١٣١ـ١٣٢).

ومن ذلك قوله ـ قال ابن الأثير : ولم أجدْ ذلك في ديوانه ـ :

حلّ برقادة المسيحُ ... حلّ بها آدمٌ ونوحُ
حلّ بها الله ذو المعالي ... فكلُّ شيءٍ سواه ريحُ

قال ابن الأثير : وقد شرع بعضُ المتعصِّبين في الاعتذار عنه . فالله أعلم . قلت : هذا الشعر إن صحَّ عنه ، فليس عنه اعتذارٌ ، لا في الدار الآخرة ، ولا في هذه الدار .

وممن توفي فيها:

إبراهيم بن محمد بن سختويه بن عبدالله المزكى أحد الحفاظ المبرزين ، أنفق على الحديث وأهله أموالاً جزيلةً ، وسمع الناس بتخريجه ، وعقد له مجلس الإملاء بنيسابور ، ورحل وسمع من المشايخ شرقًا وغربًا ، ومن مشايخه ابن جرير وابن أبي حاتم ، وكان يحضر مجلسه خلقٌ كثيرٌ من كبار المحدثين ، منهم أبو العباس الأصمُّ وأضرابه ، وكانت وفاته في هذه السنة عن سبع وستين سنةً .

سعيد بن القاسم بن العلاء بن خالد ، أبو عمر البرذعيُّ ، أحد الحفَّاظ ، روى عنه الدارقطنيُّ وغيره .

محمد بن الحسن بن كوثر بن عليٍّ ، أبو بحر البربهاريُّ ، روى عن إبراهيم الحربيِّ وتمتام والباغنديِّ والكديميِّ وغيرهم ، وقد روى عنه ابنُ رزقويه وأبو نعيم ، وانتخب عليه الدارقطنيُّ ، وقال : اقتصروا على ما خرَّجتُه له فقد اختلط صحيحُ سماعه بفاسده . وقد تكلَّم فيه غير واحدٍ من حفَّاظ زمانه بسبب تخليطه وغفلته ، واتهمه بعضهم بالكذب أيضًا .

القاضي الحسين بن محمد بن أحمد ، أبو عليٍّ المرورُّوذي ، أحد مشايخ المذهب في زمانه ، وله التعليقةُ المشهورةُ ، تفقَّه بأبي بكر القفَّال المروزيِّ ، وأخذ عنه جماعةٌ منهم البغويُّ صاحب «التهذيب» و «التفسير» و «شرح السُّنَّة» و «المصابيح» وغير ذلك ، وقد ذكرته في الطبقات بما فيه كفايةٌ . قال ابن خلِّكان : وإذا قال الإمام والغزّاليُّ : قال القاضي . فهو هذا . والله تعالى أعلمُ .

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وثلاثمائة

فيها : عملت البدعة الشنعاء على عادة الروافض ، ووقعت فتنةٌ عظيمةٌ ببغداد بين أهل السُّنَّة والروافض ، وكلا الفريقين قليل عقل ، بعيدٌ عن السداد ، وذلك أن جماعةً من السُّنَّة أركبوا امرأةً وسمَّوْها عائشةَ ، وتسمَّى بعضهم بطلحة ، وبعضهم بالزبير ، وقالوا : نقاتلُ أصحاب عليِّ بن أبي طالب . فقتل من الفريقين خلقٌ كثيرٌ ، وعاثت العيَّارون في البلد بالفساد ونهب الأموال وقتل الرجال ، ثم أخذ جماعةٌ منهم فقتلوا وصلبوا ، فسكنت النفوسُ .

وفيها : أخذ عزُّ الدولة بختيارُ بن معزِّ الدولة الموصل ، وزوَّج ابنته من أبي تغلبَ ابن حمدان .

وفيها : وقعت الفتنة بالبصرة بين الديالم والأتراك ، فقويت الديلمُ على الترك بسبب أن الملك

فيهم، فقتلوا منهم خلقًا كثيرًا، وحبسوا رءوسهم، ونهبوا كثيرًا من أموالهم، وكتب عزُّ الدولة إلى أهله إني سأكتبُ إليكم أني قد متُّ، فإذا وصل إليكم الكتاب فأظهروا النَّوْح، واجلسوا للعزاء، فإذا جاء سبكتكين للتعزية فاقبضوا عليه، فإنه ركن الأتراك ورأسهم. فلما جاء البريد إلى بغداد بذلك أظهروا النوح والصُّراخ، ففهم سبكتكين أن هذه مكيدةٌ فلم يقربهم، وتحقق العداوة بينه وبين عزِّ الدولة، وركب من فوره في الأتراك، فحاصروا دار عزِّ الدولة ببغداد يومين، ثم أنزل أهله منها، ونهب ما فيها، وأحدرهم من دجلة إلى واسطٍ منفيين، وكان قد عزم على بعث الخليفة إليه، فعفا عنه وأقره بداره، وقويت شوكة سبكتكين والأتراك ببغداد، ونهبت الأتراك دور الديلم، وخلع سبكتكين على رؤساء العامَّة، لأنهم كانوا معه على الديلم، وقويت السُّنَّة على الشيعة، وأحرقوا الكرخ حريقًا ثانيًا، وظهرت السُّنَّةُ على أيدي الأتراك، وخلع المطيع، وولِّي ولده الطائعُ لله، على ما سنذكره، إن شاء الله تعالى.

خلافة الطائع وخلع أبيه المطيع لله

ذكر ابن الأثير أنه لما كان اليوم الثالث عشر من ذي القعدة ـ وقال ابنُ الجوزيِّ في «منتظمه»: كان ذلك يوم الثلاثاء التاسع عشر من ذي القعدة من هذه السنة خلع المطيع لله، وذلك لفالج أصابه، فثقل لسانه، فسأله سبكتكين أن يخلع نفسه ويولي من بعده ولده الطائع، فأجاب، فعقدت البيعة للطائع بدار الخلافة على يدي الحاجب سبكتكين، وخلع أبوه المطيع بعد تسع وعشرين سنةً كانت له في الخلافة، ولكن تعوَّض منها بولاية ولده.

واسم الطائع أبو بكر عبدالكريم بن المطيع لله أبي القاسم الفضل بن المقتدر بالله جعفر بن المعتضد أبي العباس أحمد بن الأمير أبي أحمد الموفق بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد، ولم يل الخلافة من اسمه عبد الكريم سواه، ولا من أبوه حيٌّ سواه، وسوى أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، ولم يل الخلافة من بني العباس أسنُّ منه حال الولاية، كان عمره ثمانيًا وأربعين سنةً، وكانت أمُّه أمَّ ولدٍ اسمها عتبُ، وكانت تعيش أيضًا يوم بويع بالخلافة. ولما بويع الطائع ركب وعليه البردة، وبين يديه سبكتكين والجيش، ثم خلع من الغد على سبكتكين خلع الملوك، ولقَّبه نصر الدولة، وعقد له لواء الإمارة. ولَمَّا حضر الأضحى ركب الطائع وعليه السَّوادُ، فخطب الناس بعد الصلاة خطبةً خفيفةً حسنةً.

وحكى ابن الجوزيِّ في «المنتظم» أن المطيع لله كان يسمَّى بعد خلعه بالشيخ الفاضل.

ذكر الحرب بين المعز الفاطمي والحسن بن أحمد القرمطي

لما استقرَّ المعزُّ الفاطمي بالديار المصرية، وابتنى فيها القاهرة والقصرين، وتأطَّد ملكه، سار إليه الحسن بن أحمد القرمطيُّ من الأحساء في جمع كثيف من أصحابه، والتفَّ معه أمير العرب ببلاد الشام، وهو حسَّانُ بن الجرَّاح الطائيُّ، في عرب الشام بكمالهم، فلما سمع بهم المعزُّ الفاطميُّ أسقط في يده لكثرتهم، وكتب إلى القرمطيِّ يستميله ويقول له: إن دعوة آبائك إنما كانت إلى آبائي قديمًا، فدعوتنا واحدةٌ. ويذكر فيه فضله وفضل آبائه، فردَّ الجواب: وصل كتابك الذي كثر تفضيله، وقلَّ تحصيله، ونحن سائرون إليك على إثره، والسلام. فلمَّا انتهوا إلى ديار مصر عاثوا فيها قتلاً ونهبًا وإفسادًا، وحار المعزُّ ماذا يصنع؛ لكثرة من مع القرمطيِّ، وضعف جيشه عن مقاومتهم، فعدل إلى المكيدة والخديعة، فراسل حسَّان بن الجرَّاح أمير العرب، ووعده بمائة ألف دينار إن هو خذَّل بين الناس، فأرسل إليه أن ابعثْ إليَّ بما التزمت، وتعال بمن معك، فإذا التقينا انهزمت بمن معي. فأرسل إليه المعزُّ بمائة ألف دينار في أكياس، ولكن أكثرها زغلٌ؛ ضرب النحاس ولبسه الذهب، وجعله في أسفل الأكياس، ووضع في رءوس الأكياس الدنانير الخالصة، ولمَّا بعثها إليه ركب في إثرها بجيشه، فالتقى الناس، ولمَّا تواجه الفريقان ونشبت الحرب بينهم، انهزم حسان بن الجراح بالعرب، فضعف جانب القرمطيِّ، وقوي عليه المعزُّ الفاطميُّ فكسره، وانهزمت القرامطةُ بين يديه، فرجعوا إلى أذرعات في أذل حال وأفله، وبعث المعزُّ في آثارهم القائد أبا محمود إبراهيم بن جعفر في عشرة آلاف فارسٍ؛ ليحسم مادّة القرامطة.

ملك المعز الفاطمي دمشق وانتزاعه إياها من يد القرامطة

لما انهزم القرمطيُّ وأصحابه، بعث المعزُّ سريَّة، عليهم ظالم بن موهوب العُقَيليُّ أميرًا على دمشق، فتسلَّمها من القرامطة بعد حصار شديد، واعتقل متوليها أبا المنجّا القرمطيَّ وابنه، واعتقل رجلاً يقال له: أبو بكر. من أهل نابلس، كان يتكلمُ في الفاطميِّين ويقول: لو كان معي عشرةُ أسهمٍ لرميتُ الروم بسهمٍ ورميتُ المغاربة - يعني الفاطميِّين - بتسعةٍ. فسلخ بين يدي المعزِّ، وحُشيَ جلده تبنًا، وصلب بعد ذلك.

ولمَّا تفرَّغ أبو محمود القائدُ من قتال القرامطة أقبلَ نحو دمشق، فخرج إليه ظالم بن موهوب، فتلقَّاه إلى ظاهر البلد، وأكرمه وأنزله ظاهر دمشق، فأفسد أصحابه في الغوطة والمرج ونهبوا الفلاحين، وقطعوا الطرقات على الناس، وتحوَّل أهل الغوطة إلى البلد من كثرة النهب، وجيء

بجماعة من القتلى فألْقوا في الجامع فكثر الضجيج، وغلقت الأسواق، واجتمعت العامَّةُ للقتال، والتقوا مع المغاربة فقتل من الفريقين جماعةٌ، وانهزمت العامَّةُ غير مرة، وأحرقت المغاربةُ ناحية باب الفراديس، فاحترق شيءٌ كثيرٌ من الأموال والدُّور، ولبثت الحربُ بينهم إلى سنة أربع وستين، وأحرق البلد مرةً أخرى بعد عزل ظالم بن موهوب وتولية جيش بن صمصامة ابن أخت أبي محمودٍ، قبَّحه الله، وقطعت القنواتُ وسائر المياه عن البلد، ومات كثيرٌ من الفقراء في الطرقات من كثرة الجوع والعطش، ولم يزل الحال كذلك حتى وليَ عليهم الطواشي ريَّان الخادم، من جهة المعزِّ، فسكنت الأمورُ. ولله الحمد.

ولما قويت الأتراك ببغداد تحيَّر عزُّ الدولة بَخْتِيَارُ بن معزِّ الدولة في أمره وما يصنع، وهو بالأهواز، فأرسل إلى عمِّه ركن الدولة يستنجده، فأرسل إليه بعسكرٍ مع وزيره أبي الفتح بن العميد، وأرسل إلى ابن عمِّه عضد الدولة بن ركن الدولة، فتباطأ عليه، وأرسل إلى عمران بن شاهين، فلم يجبه، وإلى أبي تغلبَ ابن حمدان، فأظهر نصره، وإنما يريد في الباطن أخذ بغداد، وخرجت الأتراك من بغداد في جحفل كثير، ومعهم الخليفة الطائعُ وأبوه المطيع، فلمَّا انتهوا إلى واسطٍ توفي المطيع لله، وبعد أيام توفي سبكتكين أيضًا، فحملا إلى بغداد، فالتفت الترك على أمير يقال له: أفتكين. فاجتمع شملهم، والتقوا مع بختيار، فضعف أمره جدًا، وقوي عليه ابن عمِّه عضد الدولة، فأخذ منه ملك العراق، وتمزَّق شمله، وتفرق أمره.

وفيها: خُطِبَ للمعزِّ الفاطميِّ بالحرمين مكة والمدينة النبوية.

وفيها: خرج جمعٌ من بني هلال وطائفةٌ من العرب على الحجَّاج، فقتلوا منهم خلقًا كثيرًا، وعطلوا على من بقي منهم الحجَّ في هذا العام.

وفيها: انتهى «تاريخ» ثابت بن سنان بن ثابت بن قرَّة، وأوله من أول دولة المقتدر سنة خمسٍ وتسعين ومائتين.

وفيها: كانت زلزلةٌ شديدةٌ بواسط.

وحجَّ بالناس في هذه السنة الشَّريف أبو أحمد الموسويُّ، ولم يحصل لأحد حجٌّ في هذه السنة سوى من كان معه على درب العراق، وقد أخذ بالناس على طريق المدينة، فتمَّ حجُّهم.

وممن توفي فيها من الأعيان:

العباس بن الحسين، أبو الفضل الشيرازيُّ، الوزير لعزِّ الدولة بختيار بن معزِّ الدولة بن بويه، وكان من المتعصبين للسُّنَّة، عكس مخدومه، فعزله وولىَّ محمد ابن بقيَّة البابا كما تقدم، وحبس هذا، فقتل في محبسه في ربيع الآخر منها، عن تسع وخمسين سنةً، وكان فيه ظلمٌ وحيفٌ. فالله أعلم.

أبو بكر عبدالعزيز بن جعفر بن أحمد الفقيه الحنبلي، المعروف بغلام الخلال، أحد مشاهير الحنابلة الأعيان، وممَّن صنف وجمع وناظر، وسمع الحديث من أبي القاسم البغوي وطبقته، وكان عمره يوم توفي فوق الثمانين.

قال ابن الجوزي: وله «المقنع» في مائة جزءٍ و«الشافي» في ثمانين جزءًا، و«زاد المسافر»، و«الخلاف مع الشافعي»، وكتابُ «القولين» و«مختصرُ السُّنَّة»، وغير ذلك في التفسير والاصول.

عليُّ بن محمد، أبو الفتح البستي، الشاعر المشهور، له ديوانٌ جيدٌ قويٌّ، له في المطابقة والمجانسة يدٌ طولى، ومبتكراتٌ أولى. وقد ذكر ابن الجوزي في «المنتظم» من ذلك قطعةً كبيرةً مرتَّبةً على حروف المعجم، فمن ذلك قوله:

إذا قنعتُ بميسورٍ من القُوتِ … بقيتُ في الناس حرًّا غير ممقُوتِ
يا قوت يومي إذا ما دَرَّ خِلفك لي … فلستُ آسى على دُرٍّ وياقوتِ

وله:

يا أيها السَّائلُ عن مذهبي … ليُقتدى فيه بمنهاجي
منهاجيَ العدلُ وقمعُ الهوى … فهل لمنهاجي من هاجي

وله:

أفدْ طبعك المكدود بالجدِّ راحةً … تجمّ وعلله بشيءٍ من المزح
ولكن إذا أعطيت ذلك فليكنْ … بمقدار ما تعطي الطعام من الملح

وله:

إذا خدمتَ الملوك فالبسْ … من التوقِّي أعزَّ ملبسْ
وادخلْ عليهم وأنت أعمى … واخرجْ إذا ما خرجت أخرسْ

وله:

إذا شئتَ أن تلقَى عدوَّك راغمًا … وتقتله همًّا وتحرقه غمّا
فسام العلا وازددْ من الفضْل إنَّه … من ازداد فضلاً زاد حاسده

وله:

إن أسيافنا العضاب الدَّوامي … صيرتْ ملكنا طويل الدوام
لم نزلْ نحن في سداد ثغور … واصطلام الاعداء من وسط لام
واقتحام الاهوال من وقت حام … واقتسام الاموال من وقت سام

وله:

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته … أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبلْ على النفس واستكمل فضائلها … فأنت بالنفس لا بالجسم إنسانُ

أبو فراس بن حمدان الشاعر، له ديوانٌ مشهورٌ، استنابه أخوه سيف الدولة على حرَّان ومنبج، فقاتل مرةً الروم فأسر، ثم استنقذه سيف الدولة، واتفق موته في هذه السنة عن ثمان وأربعين سنةً، وله شعرٌ رائقٌ، ومعانٍ حسنةٌ.

وقد رثاه أخوه سيف الدولة:

المرء نَعْبُ مصائب لا تنقضي	حتى يوارى جسمُه في رمسه
فمؤجلٌ يلقى الردى في غيره	ومعجلٌ يلقى الردى في نفسه

واتفق أنه كان عند سيف الدولة رجلٌ من العرب، فقال: قلْ في معناهما. فقال الأعرابيُّ:

من يتمنَّ العمر فليتخذْ	صبرًا على فقد أحبّائه
ومن يعمر يلق في نفسه	ما يتمنَّاه لأعدائه

كذا ذكر ابن الساعي هذين البيتين من شعر سيف الدولة في أخيه أبي فراس، وإنما ذكرها ابن الجوزيُّ في «المنتظم» من شعر أبي فراس نفسه، وأن الأعرابيَّ أجازهما بالبيتين المذكورين بعدهما.

وذكر من شعر أبي فراس أشياء حسنةً؛ فمن ذلك قوله في قصيدة:

سيفقدني قومي إذا جدَّ جدُّهم	وفي الليلة الظلماء يفتقد البدرُ
ولو سدَّ غيري ما سددتُ اكتفوا به	وما كان يغلو التبر لو نفق الصفرُ

ومن ذلك قوله في قصيدة:

إلى الله أشكو أننا في منازل	تحكّمُ في آسادهنَّ كلاب
فليتك تحلو والحياةُ مريرةٌ	وليتك ترضى والأنامُ غضابُ
وليت الذي بيني وبينك عامرٌ	وبيني وبين العالمين خرابُ

ثم دخلت سنة أربع وستين وثلاثمائة

فيها: جاء عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه إلى واسط، ومعه وزيرُ أبيه أبو الفتح بن العميد، فهرب منه أفتكين في جماعة الأتراك إلى بغداد، فسار وراءهم، فنزل بالجانب الشَّرْقيِّ، وأمر بَختيارَ أن ينزل على الجانب الغربيِّ، وحصر الترك حصرًا شديدًا، وأمر أمراء الأعراب أن يغيروا على الأطراف، ويقطعوا الميرة الواصلة إلى بغداد، فغلت الأسعار ببغداد جدًا، وامتنع الناس من المعاش من كثرة العيَّارين والنَّهب، وكبس أفتكين البيوت لطلب الطعام، واشتدَّ الحال جدًا، ثم التقت الأتراك وعضد الدولة، فكسرهم وهربوا إلى تكريت، واستحوذ عضد الدولة على بغداد، وما والاها من البلاد، وكانت التُّركُ قد أخرجوا معهم الخليفة، فردَّه عضد الدولة إلى دار الخلافة مكرَّمًا، ونزل هو بدار الملك، فضعف أمر بختيار جدًا، ولم يبق معه شيءٌ بالكلية، فأغلق بابه،

وطرد الحجبة والكتبة عن بابه، واستعفى عن الإمارة، وكان ذلك بمشورة عضد الدولة، فاستعطفه عضد الدولة في الظاهر، وقد أشار عليه في الباطن أن لا يقبل، فلم يقبلْ.

وترددت الرسل بينهما، فصمَّم بختيارُ على الامتناع ظاهرًا، فألزمه عضدُ الدولة بذلك، وأظهر للناس أنه إنما يفعل هذا عجزًا منه عن القيامة بأعباء الملك، فأمر بالقبض على بختيار وعلى أهله وإخوته، ففرح بذلك الخليفة الطائعُ لله، وسرَّ به، وأظهر عضدُ الدولة من تعظيم الخلافة ما كان دارسًا، وجدَّد دار الخلافة حتى صار كلُّ محلٍّ منها آنسًا، وأرسل إلى الخليفة بالأموال الكثيرة والأمتعة الحسنة، وقتل جماعة المفسدين من مردة الترك وشطار العيارين.

قال ابن الجوزيِّ: وفي هذه السنة عظمُ البلاء بالعيارين ببغداد، وأحرقوا سوق باب الشعير، وأخذوا أموالاً كثيرةً، وركبوا الخيول، وتلقَّبوا بالقواد، وأخذوا الخفر من الأسواد والدُّروب، وعظمت المحنة بهم جدًّا، واستفحل أمرهم كثيرًا، حتى إن رجلاً منهم أسود كان مستضعفًا نجم فيهم، فكثر ماله حتى اشترى جاريةً بألف دينار، فلما حصلت عنده حاولها عن نفسها، فأبتْ عليه، فقال لها: ما تكرهين مني؟ قالت: أكرهك كلَّك. فقال: فما تحبين؟ قالت: تبيعني. قال: أو خيرٌ من ذلك؟ فحملها إلى القاضي، فأعتقها وأعطاها ألف دينار وأطلقها، فتعجَّب الناس من حلمه وكرمه مع فسقه وتمرُّده.

قال: وورد الخبر في المحرَّم بأنه خطب للمعزِّ الفاطميِّ بمكة والمدينة في الموسم، ولم يخطبْ للطائع.

قال: وفي رجب منها غلتِ الأسعار ببغداد جدًّا حتى بيع الكرُّ الدقيقُ الحوَّاريُّ بمائةٍ ونيِّفٍ وسبعين دينارًا.

قال: وفيها اضمحلَّ أمر عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه، وتفرَّق جنده عنه، ولم يبق معه سوى بغداد وحدها، فبعث إلى أبيه يشكو له ذلك، فأرسل يلومه على الغدر بابن عمِّه عزِّ الدولة، فلمَّا بلغه ذلك خرج من بغداد إلى فارس بعدما أخرج ابن عمِّه بختيار من السجن، وخلع عليه، وأعاده إلى ما كان عليه، وشرط عليه أن يكون نائبًا له بالعراق يخطب له بها، وجعل معه أخاه أبا إسحاق أمير الجيوش لضعف بختيار عن تدبير الأمور، واستمرَّ ذاهبًا إلى بلاد فارس، وذلك كلُّه عن أمر أبيه له بذلك، وغضبه عليه بسبب غدره بابن عمِّه وتكرار مكاتباته إليه في ذلك.

ولما سار عَضدُ الدولة ترك بعده وزير أبيه أبا الفتح بن العميد ليلحقه بعد ثلاث، فتشاغل بالقصف مع عزِّ الدولة واللعب واللهو، فأوجب ذلك وحشةً بين عضد الدولة وبين ابن العميد، فكان ذلك سبب هلاك ابن العميد، ولَّما استقر أمر عزِّ الدولة بختيار ببغداد وملك العراق لم يف لابن عمِّه عضد الدولة بشيءٍ مما كان عاهده عليه، ولا ما كان التزم له به بين يديه، بل تمادى في ضلاله القديم، واستمرَّ على سننه الذي هو غير مستقيم.

قال: **وفي يوم الخميس لعشر خلون من ذي القعدة تزوَّج الخليفة الطائعُ لله شاهْ ناز بنت عزِّ الدولة على صداقٍ مائة ألف دينار.**

وفي سلخ ذي القعدة عُزِلَ القاضي أبو الحسن محمد بن صالح ابن أمِّ شيبان، وقُلِّده أبو محمد بن معروفٍ.

وأقام الحجَّ في هذه السنة أصحابُ المعزِّ الفاطميِّ، وخُطِبَ له بالحرمين الشريفين دون الخليفة الطائع. والله سبحانه أعلم.

ذكر أخذ دمشق من أيدي الفاطميين

ذكر ابن الأثير في «كامله» أن أفتكين غلام معزِّ الدولة الذي كان قد خرج عن طاعته كما تقدَّم، والتفَّ عليه عساكرُ وجيوشٌ من الديلم والترك والأعراب، نزل في هذه السنة على دمشق ليأخذها من أيدي الفاطميين، وكان عليه ريَّان الخادم من جهة المعزِّ الفاطميِّ، فلما نزل بظاهرها خرج إليه كبراؤها وشيوخها، فذكروا ما هم فيه من الظلم والغشم ومخالفة الاعتقاد بسبب ملك الفاطميين عليهم، وسألوه أن يصمم على أخذ البلد ليستنقذها منهم، فعند ذلك صمم على أخذها، ولم يزلْ حتى أخذها، وأخرج ريان الخادم منها، واستقل بأمرها وكسر أهل الشرِّ، ورفع أهل الخير، ووضع العدل فيهم، وقمع أهل اللعب واللهو، وكفَّ أيدي الأعراب الذي كانوا قد عاثوا في البلاد فسادًا، وأخذوا عامَّة المرج والغوطة، ونهبوا أهلها.

ولما استقامت الأمور على يديه، وصلح أمر أهل الشام عليه كتب إليه المعزُّ الفاطميُّ من مصر يشكر سعيه، ويطلبه إليه ليخلع عليه، ويجعله نائبًا من جهته، فلم يجبه إلى ذلك وخاف غائلته، وقطع خطبته من الشام، وخطب للطائع العباسيِّ، وقصد صيدا، وبها خلقٌ من المغاربة عليهم ابن الشيخ، وفيهم ظالم بن موهوب العقيليُّ - الذي كان نائبًا على دمشق للمعزِّ الفاطميِّ كما تقدَّم، فأساء بها السيرة - فحاصرهم ولم يزلْ حتى أخذ البلد منهم، وقتل منهم نحوًا من أربعة آلاف من سراتهم، ثم قصد طبريَّة، ففعل بأهلها مثل ذلك، فعند ذلك عزم المعزُّ الفاطمي على المسير إليه وقتاله، بينما هو يجمع له ويترتب الجيوش إذ توفي المعز بمصر في سنة خمس وستين، كما سيأتي، وقام بعده ولده العزيز، فاطمأنَّ عند ذلك أفتكين بالشام، واستفحل أمره، وقويت شوكته، فتشاور المصريون في أمره، فاتفق رأيهم على أن بعثوا جوهرًا القائد إليه، وذلك عن رأي الوزير يعقوب بن كلِّس، فلمَّا تجهَّز جوهرٌ القائد لقصد الشام حلَّف أفتكين أهل دمشق على مناصرته ومناصحته، فحلفوا له بذلك، وجاء جوهر فحصر دمشق سبعة أشهر حصرًا شديدًا، ورأى من شجاعة أفتكين ما بهره، وحين طال الحال أشار من أشار من الدماشقة على أفتكين أن يكتب إلى الحسن بن أحمد القرمطيِّ وهو بالأحساء، ليجيء إليه، فلما كتب إليه أقبل لنصره، فحين سمع جوهرٌ بقدومه لم

يمكنه أن يبقى بين عدوين من داخل البلد ومن خارجها، فارتحل قاصداً الرملة، فتبعه أفتكين والقرمطيُّ في نحو من خمسين ألفاً، فتواقعوا عند نهر الطواحين على ثلاثة فراسخ من الرملة، وحصروا جوهراً بالرملة، فضاق حاله جداً من قلة الطعام والشراب، حتى أشرف هو ومن معه على الهلاك سريعاً، فسأل أن يجتمع هو وأفتكين على ظهور الخيل، فأجابه إلى ذلك، فلم يزل يترفقُ له أن يطلقه ليرجع بمن معه من أصحابه إلى أستاذه شاكراً له مثنياً عليه الخير، ولا يسمع من القرمطيِّ رأيه فيه - وكان جوهرٌ داهيةً - فأجابه إلى ذلك، فندمه القرمطيُّ وقال: الرأي أنا كنا نحصرهم حتى يموتوا عن آخرهم، فإنه الآن سيذهب إلى سيده فيخبره، ثم يخرجه إلينا، ولا طاقة لنا به. فكان الأمر كما قال؛ فإنه لما أطلقه أفتكين من الحصر لم يكنْ له دأبٌ إلا أنه حثَّ العزيز على الخروج إلى أفتكين بنفسه وجيوشه، فأقبل في جحافل أمثال الجبال، وكثرة من الرجال والعدد والأثقال والأموال، وعلى مقدمته جوهرٌ القائد. وجمع أفتكين والقرمطيُّ الجيوش والأعراب، وسارا إلى الرملة، فالتقوا في محرم سنة سبع وستين، ولما تواجهوا رأى العزيز من شجاعة أفتكين ما بهره، فأرسل إليه يعرض عليه إن أطاعه ورجع إليه أن يجعله مقدَّم عساكره، وأن يحسن إليه غاية الإحسان، فترجل أفتكين عن فرسه بين الصفين وقبَّل الأرض نحو العزيز، وأرسل إليه يقول: لو كان هذا قبل هذا لأمكنني وسارعتُ وأطعتُ، وأمَّا الآن فلا. ثم ركب فرسه، وحمل على الميسرة ففرَّق شملها، وبدَّد خيلها ورجلها، فبرز عند ذلك العزيز من القلب، وأمر الميمنة، فحملت حملةً صادقةً، فانهزم القرمطيُّ، وتبعه بقيةُ الشاميين، وركبت المغاربة أقفيتهم يقتلون ويأسرون من شاءوا، وتحول العزيز فنزل خيام الشاميين بمن معه من الجيوش، وأرسل السرايا وراءهم، وجعل العزيز لا يؤتى بأسير إلا خلع على من جاء به وجعل لمن جاءه فأفتكين مائة ألف دينار، فاتفق أنَّ أفتكين عطش وهو منهزمٌ عطشاً شديداً، فاجتاز بمفرج بن دغفل، وكان صاحبه، فاستسقاه فسقاه ماءً وأنزله عنده في بيوته، وأرسل إلى العزيز يخبره بأن الذي يطلب عنده، فليحملْ إليه الذهب، فأرسل إليه بمائة ألف دينار، وجاء من تسلَّمه منه، فلما أحيط بأفتكين لم يشكَّ أنه مقتولٌ، فما هو إلا أن حضر عند العزيز أكرمه غاية الإكرام واحترمه غاية الاحترام، وردَّ إليه حواصله وأمواله لم يفقدْ منها شيئاً، وجعله من أخصِّ أصحابه وأمرائه، وأنزله إلى جانب منزله، ورجع به إلى الديار المصرية مكرماً معظماً، وأقطعه هنالك إقطاعات جزيلةً، وأرسل إلى القرمطيِّ يعرض عليه أن يقدم عليه ويكرمه كما أكرم أفتكين، فامتنع وخاف على نفسه، فأرسل إليه بعشرين ألف دينار، وجعلها له في كل سنة، يكفُّ بها شره، ولم يزلْ أفتكين مكرماً عند العزيز حتى وقع بينه وبين الوزير يعقوب بن كلس، فعمل عليه حتى سقاه سمّاً فمات، وحين علم الخليفةُ بذلك غضب على الوزير، وحبسه بضعاً وأربعين يوماً، وأخذ منه خمسمائة ألف دينار، ثم رأى أنه لا غنى به عن الوزير، فأخرجه من السجن وأعاده إلى الوزارة وذهب أفتكين في حال سبيله، رحمه الله. هذا ملخصُ ما ذكره ابن الأثير في «كامله».

وممن توفي في هذه السنة من الأعيان:

سبكتكين الحاجب التركي، مولى المعزّ الديلمي وحاجبه، وقد ترقى في المراتب حتى آل به الحال إلى أن قلده الطائعُ الإمارة وخلع عليه، وأعطاه اللواء، ولقبه بنور الدولة، وكانت مدة دولته في هذا المقام شهرين وثلاثة عشر يومًا، ودفن ببغداد، وداره هي دار الملك ببغداد، وهي دارٌ عظيمةٌ جدًا، وقد اتفق له أنه سقط يومًا عن فرسه، فانكسر ضلعه، فداواه الطبيب حتى استقام ظهره، وقدر على الصلاة إلا أنه لم يستطع الركوع، فأعطاه شيئًا كثيرًا من الأموال، وكان يقول للطبيب: إذا ذكرت مرضي ومداواتك لي لا أقدرُ على مكافأتك، ولكن إذا تذكرت وضعك قدميك على ظهري أشتدَّ غيظي منك.

وكانت وفاته ليلة الثلاثاء لسبع بقين من المحرَّم، وقد ترك من الأموال شيئًا كثيرًا جدًا، من ذلك ألف ألف دينار وعشرة آلاف ألف درهم، وصندوقان من جوهر، وخمسة عشر صندوقًا من البلُّور، وخمسةٌ وأربعون صندوقًا من آنية الذهب، ومائةٌ وثلاثون مركبًا من ذهب، منها خمسون؛ وزن كل واحد ألف دينار، وستمائة مركب فضة، وأربعة آلاف ثوب ديباجًا، وعشرة آلاف دبيقيٌ وعتابيٌ، وثلاثمائة عدل معكومة من الفرش، وثلاثة آلاف فرس وبغل، وألف جمل، وثلاثمائة غلام وأربعون خادمًا، وذلك غير ما أودع عند أبي بكر البزَّار صاحبه، والله تعالى أعلمُ.

ثم دخلت سنة خمس وستين وثلاثمائة

فيها قسم ركن الدولة ابن بويه ممالكه بين أولاده عندما كبرت سنُّه، فجعل لولده عضد الدولة بلاد فارس وكرمان وأرجان، ولولده مؤيد الدولة الرَّيَّ وأصبهان، ولفخر الدولة همذان والدينور، وجعل ولده أبا العبَّاس في كنف عضد الدولة وأوصاه به.

وفيها جلس قاضي القضاة ببغداد أبو محمد بن معروف في دار عزّ الدولة وفي مجلسه عن أمره له في ذلك لفصل الحكومات، وحكم بين الناس بين يديه.

وفيها حجَّ بالناس أمير المصريين من جهة العزيز بن المعزّ الفاطميّ بعدما حوصر أهل مكة، ولقوا شدةً عظيمةً، وغلت الأسعارُ عندهم جدًا.

وذكر ابن الأثير أن في هذه السنة ذهب يوسف بُلُكِّين - نائبُ المعزّ الفاطميّ على بلاد إفريقيَّة - إلى سبتة، فأشرف عليها من جبلٍ مطلٍّ عليها، فجعل يتأملُ من أين يحاصرها نصف يوم، فخافه أهلها خوفًا شديدًا، ثم انصرف عنها إلى مدينة هنالك يقال لها: بصرة. في المغرب، فأمر بهدمها ونهبها، ثم سار إلى مدينة برغواطة، وبها رجلٌ يقال له: عيسى بن أمِّ الأنصار. وهو ملكها، وقد اشتدت المحنة به لسحره وشعبذته، وادعى أنه نبيٌّ، فأطاعوه، ووضع لهم شريعةً يقتدون به فيها، فقاتلهم بلكين، فهزمهم وقتل هذا الفاجر، ولله الحمد والمنةُ، ونهب أموالهم، وسبى ذراريهم، فلم ير سبيٌ

أحسن أشكالاً منهم، فيما ذكر أهل تلك البلاد في ذلك الزمان.

وممن توفي فيها من الأعيان:

أحمد بن جعفر بن محمد بن سلم، أبو بكر الختُّلي[١]، له مسندٌ كبيرٌ، روىٰ عن عبدالله بن أحمد بن حنبل وأبي محمد الكجيِّ وخلق، وروىٰ عنه الدارقطنيُّ وغيره، وكان ثقةً، قارب التسعين.

ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الصابئ، المؤرِّخ، فيما ذكره ابن الأثير في «الكامل».

الحسين بن محمد بن أحمد، أبو عليٍّ الماسرجسيُّ الحافظ، رحل وسمع الكثير، وصنف مسندًا في ألف وثلاثمائة جزء بطرقه وعلله، وله «المغازي» و «القبائل»، وخرَّج علىٰ الصحيحين وغيرهما.

قال ابن الجوزيِّ: وفي بيته وسَلفِه تسعة عشر محدثًا. توفي في رجب من هذه السنة.

الحافظ أبو أحمد عبدالله بن عدي بن عبدالله بن عدي بن عبدالله بن محمد بن أبي أحمد الجرجانيُّ الكبير المفيد الإمام العالم الجوال النقال الرحال، له كتاب «الكامل» في الجرح والتعديل، لم يسبقْ إلىٰ مثله، ولا يلحق في شكله.

قال حمزة، عن الدارقطنيِّ: فيه كفايةٌ لا يزاد عليه. ولد ابن عديٍّ في سنة سبع وسبعين ومائتين، وهي السنة التي توفي فيها أبو حاتم الرازيُّ، وتوفي ابن عديٍّ في جمادىٰ الآخرة من هذه السنة.

المعز الفاطمي[٢]

باني القاهرة المعزية، معدُّ بن إسماعيل بن سعيد بن عبيد الله أبو تميم، المدعي أنه فاطميٌّ، صاحب الديار المصرية، وهو أول من ملكها من الفاطميين، وكان ملكهم ببلاد إفريقيَّة وما والاها من بلاد المغرب، فلما كان في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، بعث بين يديه جوهرًا القائد، فأخذ له البلاد المصرية من كافور الإخشيديِّ بعد حروب تقدَّم ذكرها، واستقرت يد جوهر القائد عليها، فبنىٰ بها القاهرة المعزِّية، ونزل الملك المكان المسمَّىٰ بالقصرين، ثم أقيمت الخطبة للمعزِّ في سنة ثنتين وستين وثلاثمائة، وقدم المعزُّ، كما ذكرنا في جحافل عظيمةٍ، ومعه الأمراء من المغاربة والأكابر والقواد، وحين نزل الإسكندرية تلقاه وجوه الناس إليها فخطبهم فيها خطبةً بليغةً افتخر فيها بنسبه وملكه وادعىٰ أنه يعدل وينصف المظلوم من ظالمه، وأن الله قد رحم الأمة بهم، واستنقذهم من أيدي الظلمة إلىٰ عدلهم وإنصافهم، وهو مع ذلك يدعي ظاهر الرفض، ويبطن - كما قال القاضي الباقلانيُّ - الكفر المحض، وكذلك أهل طاعته ومن نصره ووالاه، واتبعه في مذهبه، قبحهم الله وإياه.

---

(١) ترجمته في «السير» (١٣/ ٨٢).

(٢) ترجمته في «السير» (١٥/ ١٥٩) وما بعدها.

وقد أحضر إلى بين يديه الزاهد العابد التقيُّ أبو بكر النابلسيُّ، فأوقف بين يديه، فقال له المعزُّ: بلغني أنك قلت: لو كان معي عشرة أسهم لرميتُ الروم بسهم، ورميت المعزيين بتسعة فقال: ما قلت هذا. فظنَّ أنه قد رجع، وقال: فكيف قلت؟ قال: قلت: ينبغي أن يرميكم بتسعة، ثم يرميكم بالعاشر. قال: ولم؟ قال: لأنكم غيَّرتم دين الأمة، وقتلتم الصالحين، وادعيتم نور الإلهية. فأمر بإشهاره في أول يوم، ثم ضرب بالسياط في اليوم الثاني ضربًا شديدًا مبرحًا، ثم أمر بسلخه في اليوم الثالث، فجيء بيهوديٍّ، فجعل يسلخه وهو يقرأ القرآن، قال اليهوديُّ: فأخذتني رقةٌ عليه، فلما بلغت تلقاء قلبه طعنته بالسكين فمات. رحمه الله تعالى فقيل له: الشهيدُ. وإليه ينسب بنو الشهيد من أهل نابلس إلى اليوم.

وقد كان المعزُّ ذا شهامة وقوة وشدة عزم، وله سياسةٌ، ويظهر أنه يعدل وينصر الحقَّ، ولكنه مع ذلك كان منجمًا يعتمد ما يرصد من حركات النجوم، قال له منجمه: إن عليك قُطعًا في هذه السنة فتوار عن وجه الأرض حتى تنقضيَ هذه المدة. فعمل له سردابًا، وأحضر الأمراء وأوصاهم بولده نزار، ولقبه بالعزيز، وفوض إليه الأمر حتى يعود إليهم، فبايعوه على ذلك، ودخل ذلك السرداب، فتوارى فيه سنةً، فكانت المغاربة إذا رأى الفارس منهم سحابًا ساريًا ترجل عن فرسه، وأومأ إليه بالسلام ظانِّين أن المعزَّ في ذلك الغمام، ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]. ثم برز إلى الناس بعد مضيِّ سنة، وجلس في مقام الملك، وحكم على عادته، ولكنَّه لم تطلْ مدته بعد ذلك، بل عاجله القضاء المحتوم، والحينُ المقسوم، فكانت وفاته في هذه السنة، وكانت مدة أيامه في الملك ثلاثًا وعشرين سنةً وخمسة أشهر وعشرة أيام، منها بمصر سنتان وتسعة أشهر، وجملة عمره كله خمسٌ وأربعون سنةً وستةُ أشهر؛ لأنه ولد بإفريقية في حادي عشر رمضان سنة تسع عشرة وثلاثمائة، وكانت وفاته بمصر في اليوم السابع عشر من ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلاثمائة، وهي هذه السنةُ.

ثم دخلت سنة ست وستين وثلاثمائة

فيها توفي ركنُ الدولة أبو عليٍّ بن بويه، وقد جاوز السبعين، وكانت أيام ولايته نيفًا وأربعين سنةً، وقبل موته في السنة الماضية قسم ممالكه بين أولاده كما ذكرنا، وقد عملتْ ضيافةٌ في دار ابن العميد بأصبهان حافلةٌ، حضرها ركن الدولة وبنوه وأعيان دولته، فعهد في هذا اليوم إلى ابنه عضد الدولة، وخلع عضد الدولة على إخوته وسائر الأمراء الأقبية والأكسية على عادة الديلم، وحيوه بالريحان على عادتهم أيضًا، وكان يومًا مشهودًا، ثم توفي ركن الدولة بعده بقليل في هذه السنة، وقد كان سائسًا حليمًا وقورًا، كثير الصدقات، محبًّا للعلماء، فيه إيثارٌ وكرمٌ كثيرٌ، وحسن عشرة ورياسة على أقاربه ودولته ورعيته.

وحين تمكن ابنه عضدُ الدولة قصد العراق ليأخذها من ابن عمِّه عزِّ الدولة بختيار لسوء سيرته

ورداءة سريرته، فالتقوا في هذه السنة بأرض الأهواز، فهزمه عضد الدولة، وأخذ أثقاله وأمواله، وبعث إلى البصرة فأخذها، وأصلح بين أهلها حيي ربيعة ومضر، وقد كان بينهما خلفٌ متقادمٌ من نحو مائة وعشرين سنةً، وكانت مضرُ تميلُ إليه، وربيعةُ عليه، ثم اتفق الحيان واجتمع عليه الفريقان وقويت شوكةُ عضد الدولة، فعزل عزَّ الدولة، وقبض على وزيره ابن بقية؛ لأنه استحوذ على الأمور دونه، وجبى الأموال إلى خزائنه، فاستظهر عزُّ الدولة بما وجده من الحواصل لابن بقية، ولم يبق له منها بقية.

وكذلك أمر عضدُ الدولة بالقبض على وزير أبيه أبي الفتح ابن العميد لموجدة تقدمت منه إليه، وقد سلف ذكرها. فلم يبق لبني العميد أيضًا في الأرض بقيةٌ، وقد كانت الأكابر تتقي منهم التقيَّة، وقد كان ابن العميد من الفسوق والعصيان بأوفر مكان، فخانته المقادير، وعاجله غضب السلطان، ونعوذ بالله من غضب الرحمن.

وفي منتصف شوال من هذه السنة توفي الأمير منصور بن نوح السامانيُّ - صاحب بلاد خراسان - ببخارى، وكانت ولايته خمس عشرة سنةً، وقام بالأمر بعده ولده أبو القاسم نوحٌ، وكان عمره إذ ذاك ثلاث عشرة سنةً، ولقب بالمنصور.

وفيها: توفي الحكم، ولقب المستنصر بالله بن الناصر لدين الله عبدالرحمن الأمويُّ، وقد كان هذا من خيار الملوك وعلمائهم، عالمًا بالفقه والخلاف والتواريخ، محبًّا للعلماء، محسنًا إليهم، وكانت وفاته وله من العمر ثلاثٌ وستون سنةً وسبعة أشهر، مدةُ خلافته منها خمس عشرة سنة وخمسة أشهر، وقام بالأمر من بعده ولده هشامٌ وله عشر سنين، ولقب بالمؤيد بالله، وقد اختلف عليه في أيامه، واضطربت الرعايا، وحبس مدةً، ثم أخرج وأعيد إلى الخلافة، وقام بأعباء أمره حاجبه المنصور أبو عامر محمد بن أبي عامر المعافريُّ، وابناه المظفرُ والناصر، فساس الرعايا جيدًا، وعدل فيهم، وغزا الأعداء، واستقرَّ لهم الحال كذلك نحوًا من ستٍّ وعشرين سنةً. وقد ساق ابن الأثير ههنا قطعةً من أخبارهم وأطال شرحها.

وفيها رجع ملك حلب إلى أبي المعالي شريف بن سيف الدولة بن حمدان، وذلك أنه لما مات أبوه وقام من بعده تغلَّب مولاهم قرعويه عليهم، وأخرجه منها خائفًا يترقب، فسار إلى أمِّه بميّافارقين في سنة سبع وخمسين، ثم جاء فنزل حماة، وكانت الروم قد خربت حمص، فسعى في عمارتها وترميمها وسكنها، ثم إنَّ قرعويه استناب في حلب مولى له يقال له: بكجورُ. فتغلب عليه وسجن مولاه قرعويه بقلعتها نحوًا من ستِّ سنين، فكتب أهل حلب إلى أبي المعالي وهو بحمص يسألونه أن يأتي إليهم، فسار فحاصر حلب أربعة أشهر، فافتتحها وامتنعت القلعة عليه، وقد تحصن بها بكجورُ، ثم اصطلح مع أبي المعالي على أن يؤمنه على نفسه ويستنيبه بحمص ففعل، فناب له بكجور بحمص، ثم انتقل في وقت إلى نيابة دمشق، وإليه تنسب هذه المزرعة ظاهر دمشق من غربها التي تعرف بالقصر البكجوريِّ.

ابتداء ملك سبكتكين
والد محمود صاحب غزنة

وقد كان سبكتكين هذا مولىً للأمير أبي إسحاق بن ألبتكين صاحب جيش غزنة وأعمالها للسامانية، وليس هذا بحاجب معزِّ الدولة، ذاك توفي قبل هذه السنة كما قدَّمنا، وأما هذا فإنه لما مات مولاه لم يترك أحدًا يصلحُ للملك من بعده من ولده ولا من قومه، فاصطلح الجيش على مبايعة سبكتكين هذا لخيره فيهم وحسن سيرته، وكمال عقله وشجاعته وديانته، فاستقرَّ الملك بيده، واستمرَّ من بعده في ولده السعيد محمود بن سبكتكين، وقد غزا سبكتكين هذا بلاد الهند، ففتح شيئًا كثيرًا من حصونهم، وغنم شيئًا كثيرًا من أموالهم، وكسر من أصنامهم ونذورهم أمرًا هائلاً، وباشر بمن معه من الجيوش حروبًا تشيب الولدان، وقد قصده جيبال ملك الهند بنفسه وجنوده التي تعمُّ السُّهول والجبال، فكسره مرتين، وردهم إلى بلادهم في أسوأ حال وأردأ بالٍ.

وذكر ابن الأثير في «كامله» أن سبكتكين لما التقى مع جيبال ملك الهند في بعض الغزوات كان بالقرب منهم عينٌ في عقبة غورك، من عادتهم أنه إذا وضعت فيها نجاسةٌ أو قذرٌ، اكفهرت السماء وأرعدت وأبرقت وأمطرت، ولا تزال كذلك حتى تطهر تلك العين من ذلك الشيء الذي ألقي فيها، وأنَّ سبكتكين أمر بإلقاء نجاسةٍ في تلك العين عند ذلك - وكانت قريبةً من نحر العدوِّ - فلم يزالوا في رعود وبروق وأمطار وصواعق، حتى ألجأهم ذلك الحال إلى الهرب والرجوع إلى بلادهم خائبين هاربين، وأرسل ملك الهند يطلب من سبكتكين الصلح، فأجابه بعد امتناع من ولده محمود، على مال جزيل يحمله إليه، وبلاد كثيرة يسلمها إليه، وخمسين فيلاً ورهائن من رءوس قومه يتركها عنده حتى يقوم له بما التزم له من ذلك.

وفيها توفي:

أبو يعقوب يوسف بن الحسن الجنَّابيُّ، صاحب هجرَ ومقدم القرامطة، وقام بالأمر من بعده ستةٌ من قومه، وكانوا يسمون بالسادة، وقد اتفقوا على تدبير الأمر من بعده، ولم يختلفوا فمشى حالهم.

وفيها: كانت وفاة **الحسن بن أحمد بن أبي سعيد الجنابيِّ، أبي محمد القرمطيِّ**، قال ابن عساكر: واسم أبي سعيد الحسن بن بهرام. ويقال: الحسن بن أحمد بن الحسن بن يوسف بن كوذكار. يقال: أصله من الفرس. قال: ويعرف أبو محمد هذا بالأعصم. قال: وولد بالأحساء في سنة ثمان وسبعين ومائتين. وقد تغلب على الشام في سنة سبع وخمسين وثلاثمائة، ثم عاد إلى الأحساء بعد سنةٍ، ثم عاد إلى دمشق في سنة ستين، وكسر جيش جعفر بن فلاح أول من ناب بالشام عن المعزِّ الفاطميِّ، وقتله، ثم توجه إلى مصر، فحاصرها في مستهل ربيع الأول سنة إحدى

وستين، واستمرَّ محاصرها شهوراً، وقد كان استخلف على دمشق ظالم بن موهوب العقيليَّ، ثم عاد إلى الأحساء، ثم رجع إلى الرملة، فتوفي بها في هذه السنة، وقد قارب التسعين، وهو يظهر طاعة عبدالكريم الطائع لله بن المطيع.

وقد أورد له ابن عساكر أشعاراً حسنةً رائقةً فائقةً، من ذلك ما كتب به إلى جعفر بن فلاح قبل الحرب بينهما:

الكتب معذرةٌ والرسل مخبرةٌ ... والحقُّ متبعٌ والخيرُ موجودُ
والحرب ساكنةٌ والخيل صافنةٌ ... والسِّلمُ مبتذلٌ والظلُّ ممدودُ
فإن أبيتم فمقبولٌ إنابتكم ... وإن أبيتم فهذا الكور مشدودُ
على ظهور المطايا أو تردن بنا ... دمشق والبابُ مهدومٌ ومردودُ
إني امرؤٌ ليس من شأني ولا أربي ... طبْلٌ يرنُّ ولا نايٌ ولا عودُ
ولا اعتكافٌ على خمر ومجمرة ... وذات دلٍّ لها دلٌّ وتفنيدُ
ولا أبيت بطين البطن من شبعٍ ... ولي رفيقٌ خميصُ البطن مجهودُ
ولا تسامت بي الدنيا إلى طمعٍ ... يومًا ولا غرَّني فيها المواعيدُ

ومن شعره أيضًا

يا ساكن البلد المنيف تعزُّزًا ... بقلاعه وحصونه وكهوفه
لا عزَّ إلا للعزيز بنفسه ... وبخيله وبرجله وسيوفه
وبقبَّة بيضاء قد ضربت على ... شرف الخيام بجاره وحليفه
قرمٌ إذا اشتدَّ الوغَى أردى العدا ... وشفى النفوس بضربه ووقوفه
لم يرض بالشرف التليد لنفسه ... حتى أشاد تليده بطريفه

وفيها: تملك قابوسُ بن وشمكير بلاد جرجان وطبرستان وتلك النَّواحي.

وفيها دخل الخليفة الطائعُ لله بشاهْ نازَ بنت عزِّ الدولة بن بويه، وكان عرسًا حافلاً.

وفي هذه السنة حجت جميلةُ بنت ناصر الدولة بن حمدان في تجمل عظيم، كان يضرب المثلُ بحجِّها، وذلك أنها عملت أربعمائة محمل، فلا يدرىٰ في أيها هي، ولما وصلت إلى الكعبة نثرت عليها عشرة آلاف دينار، وكست المجاورين بالحرمين كلهم، وأنفقت أموالاً جزيلةً في ذهابها وإيابها.

وحجَّ بالناس من العراق الشريف أبو عبدالله أحمد بن أبي الحسين بن محمد بن عبدالله العلويُّ، وكذلك حجَّ بالناس إلى سنة ثمانين وثلاثمائة، وكانت الخطبة في هذه السنة بالحرمين للفاطميين أصحاب مصر دون العباسيين.

وممن توفي فيها من الأعيان:

إسماعيل بن نجيد بن أحمد بن يوسف بن سالم، أبو عمرو السلمي[1] صحب الجنيد وغيره، وروى الحديث، وكان ثقةً.

ومن جيد كلامه: من لم تهذبك رؤيته فليس بمهذب.

وقد احتاج شيخه أبو عثمان مرةً إلى شيء، فسأله أصحابه فيه، فجاءه ابن نجيد بكيس فيه ألفا درهم، فقبضه منه، وجعل يشكره إلى أصحابه، فقال له ابن نجيد: يا سيدي، إن المال الذي دفعته إليك كان من مال أمي، وهي كارهةٌ، فأحبُّ أن ترده إليها. فأعطاه تلك الدراهم، فلما كان الليل جاءه بها، وقال: أحبُّ أن تصرفها في أمرك، من غير أن يعلم بذلك أحدٌ. فكان أبو عثمان يقول: أنا أخشى من همَّة أبي عمرو ابن نجيد، رحمهم الله تعالى.

الحسن بن بويه، أبو عليٍّ ركن الدولة بن بويه، عرض له قولنجٌ، فمات ليلة السبت الثامن والعشرين من المحرم منها، وكانت مدةُ إمارته أربعًا وأربعين سنةً وشهرًا وتسعة أيام، ومدة عمره ثمان وسبعون سنةً، وكان حليمًا كريمًا.

محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن أفلح بن رافع بن إبراهيم بن أفلح بن عبدالرحمن بن عبيد بن رفاعة بن رافع، أبو الحسن الأنصاري الزرقي، كان نقيب الأنصار ببغداد، وقد سمع الحديث من أبي القاسم البغويِّ وغيره، وكان ثقةً، يعرف أيام الأنصار ومناقبهم وأمورهم، وكانت وفاته في جمادى الآخرة من هذه السنة.

محمد بن الحسن بن أحمد بن إسماعيل، أبو الحسن السرَّاجُ، سمع يوسف بن يعقوب القاضي وغيره، وكان شديد الاجتهاد في العبادة، صلَّى حتى أقعد، وبكى حتى عميَ، كانت وفاته يوم عاشوراء من هذه السنة.

القاضي منذر بن سعيد، أبو الحكم البلوطيُّ، الظاهريُّ مذهبًا، قاضي قضاة الأندلس، وكان إمامًا فقيهًا عالمًا، فصيحًا خطيبًا شاعرًا دينًا، كثير الفضل، وله مصنفاتٌ واختياراتٌ، منها أن الجنة التي أدخلها آدمُ وأخرج منها كانت في الأرض، وله في ذلك مصنَّفٌ مفردٌ، له وقعٌ في النفوس، وله تفسيرُ القرآن وغير ذلك.

دخل يومًا على الناصر لدين الله عبدالرحمن الأمويِّ، وقد فرغ من بناء المدينة الزهراء وقصورها، وقد بني له فيها قصرٌ عظيمٌ منيفٌ، وزخرف بأنواع الدهانات، والسُّتور، وجلس عنده رءوس دولته وأمراؤه، وجاء القاضي، فجلس إلى جانبه، وجعل الحاضرون يثنون على هذا البناء، والقاضي ساكتٌ لا يتكلم، فالتفت إليه الملك وقال: ما تقول يا أبا الحكم؟ فبكى القاضي، وانحدرت دموعه على لحيته وقال: ما كنت أظنُّ أن الشيطان، أخزاه الله تعالى، يبلغ منك هذا

---

(١) ترجمته في «السير» (١٦/ ١٤٦) وما بعدها.

المبلغ، ولا أنّك تمكنه من قيادك هذا التمكين، مع ما آتاك الله، وفضلك به، حتى أنزلك منازل الكافرين، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥]. قال: فوجم الملك عند ذلك وبكى، وقال: جزاك الله خيرًا، وأكثر في المسلمين مثلك.

وقد قحط الناس في بعض السنين، فأمر الملكُ القاضي منذر بن سعيد البلُّوطي أن يستسقي بالناس، فلما جاءته الرسالة بذلك ليخرج من الغد، قال للرسول: كيف تركت الملك وما حاله؟ فقال: رأيته أخشع ما يكون وأكثره دعاءً. فقال القاضي: رحمتم وسقيتم والله، إذا خشع جبَّارُ الأرض رحم جبَّارُ السماء. ثم قال لغلامه: اخرجْ بالممطر معك. فلما خرج الناس، وجاء القاضي صعد المنبر، والناس ينظرون إليه، ويستمعون لما يقول، فلما أقبل عليهم كان أول ما خاطبهم به أن قال: ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٥٤] ثم أعادها، فأخذ الناس في البكاء والنحيب والتوبة والإنابة، فلم يزالوا كذلك حتى سقوا، ورجعوا يخوضون الماء. وقد صنف الحافظ أبو عمر ابن عبدالبرّ مصنفًا في مناقبه، رحمه الله.

أبو الحسن عليُّ بن أحمد بن المرزبان البغدادي الفقيه الشافعيُّ، تفقَّه بأبي الحسين بن القطان، وأخذ عنه الشيخ أبو حامدٍ الإسفرايينيُّ.

قال ابن خلكان: كان ورعًا زاهدًا، ليس لأحد عنده مظلمةٌ، وله وجهٌ في المذهب، وكان له درسٌ ببغداد. توفي في رجبٍ من هذه السنة.

ثم دخلت سنة سبع وستين وثلاثمائة

في هذه السنة دخل عضدُ الدولة إلى بغداد، وخرج منها عزُّ الدولة بختيارُ ابن معزِّ الدولة، واتبعه عضد الدولة ليقاتله، وأخذ معه الخليفة الطائع لله فاستعفاه الخليفة من الخروج فأعفاه، وسار عضد الدولة وراءه، فأخذه أسيرًا، ثم قتل سريعًا، وتصرمت دولته، واستقرَّ أمر عضد الدولة ببغداد، وخلع عليه الخليفة الخلعَ السنيَّة والأسورة في يديه والطوق في عنقه، وأعطاه لواءين؛ أحدهما فضةٌ والآخرُ ذهبٌ، ولم يكنْ هذا الثاني يصنعه إلا لأولياء العهد، وأرسل إليه الخليفة بتحفٍ سنيَّة، وبعث عضد الدولة إلى الخليفة أموالاً جزيلةً من الذهب والفضة، واستقرت يده على بغداد وما والاها من البلاد.

وزلزلت بغداد مرارًا في هذه السنة.

وزادت دجلة زيادةً كثيرةً وانبثقتْ بثوقٌ كثيرةٌ، غرق بسببها خلقٌ كثيرٌ وجمٌّ غفيرٌ.

وقيل لعضد الدولة: إن أهل بغداد قد قلُّوا كثيراً بسبب الطاعون وما وقع بينهم من الفتن بسبب الرفض والسُّنة، وأصابهم حريقٌ وغرقٌ. فقال: إنما يهيجُ بين الناس في السُّنَّة والروافض هؤلاء القصاص والوعاظُ. ثم رسم أن أحدًا لا يقصُّ ولا يعظُ في سائر بغداد، ولا يسألُ سائلٌ باسم أحد من الصحابة، وإنما يقرأ السائل القرآن، فمن أعطاه أخذ منه.

فعمل بذلك في البلد، ثم بلغه أن أبا الحسين بن سمعون الواعظ ـ وكان من الصالحين ـ قد استمرَّ يعظ الناس على عادته، فأرسل إليه من جاء به فأخذه من مجلسه، وقيل له: إذا دخلت على الملك فقبل التراب وتواضع في الخطاب والجواب فلما دخل دار الملك وجد السلطان قد جلس في حجرة وحده، لئلا يندر من ابن سمعون في حقه كلامٌ بحضرة الناس يؤثر عنه، ودخل الحاجب بين يديه، ليستأذن له عليه، فوجده قد دخل وراءه، فإذا الملك جالسٌ وحده، فتنحّى ابن سمعون بوجهه نحو دار عزِّ الدولة، ثم استفتح القراءة: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] ثم استدار نحو الملك، وقال: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤]. ثم أخذ في مخاطبة الملك ووعظه، فبكى عضد الدولة بكاءً كثيرًا، وجزاه خيرًا.

فلما خرج من عنده قال للحاجب: اذهبْ فخذْ ثلاثة آلاف درهم وعشرة أثواب، وادفعها إليه؛ لنفسه أو لنفقة أهله، فإن قبلها جئني برأسه. قال الحاجب: فجئته فقلت: هذه أثوابٌ أرسل بها إليك الملك لتلبسها. فقال: لا حاجة لي بها، هذه ثيابي من عهد أبي منذ أربعين سنةً، كلما خرجت إلى الناس لبستها، فإذا رجعتُ طويتها. قلت: وهذه نفقةٌ. فقال: لا حاجة لي فيها؛ لي دارٌ آكل من أجرتها، تركها لي أبي فأنا في غنيةٍ عنها. فقلت: فرقها في فقراء أهلك. فقال: أهله أحقُّ من أهلي، وأفقرُ إليها منهم. فرجعت إلى الملك لأشاوره وأخبره بما قال، فسكت ساعةً ثم قال: الحمد لله الذي سلمه منا، وسلمنا منه.

ثم إن عضد الدولة أخذ ابن بقية الوزير لعزِّ الدولة، فأمر به، فوضع بين قوائم الفيلة، فتخبّطته بأرجلها حتى هلك، ثم صلب على رأس الجسر في شوال منها، فرثاه أبو الحسين بن الأنباريِّ بأبياتٍ يقول فيها:

علوٌّ في الحياة وفي الممات	بحقٍّ أنت إحدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا	وفود نداك أيام الصلات
كأنك واقفٌ فيهم خطيبًا	وكلُّهمُ وقوفٌ للصلاة
مددت يديك نحوهم احتفاءً	كمدهما إليهمْ بالهبات

وهي قصيدةٌ طويلةٌ أورد كثيرًا منها ابن الأثير في «كامله».

صفة مقتل عز الدولة بختيار بن معز الدولة وأخذ عضد الدولة الموصل وأعمالها

لما دخل عضد الدولة بغداد وتسلمها من عزِّ الدولة وأخرجه منها ذليلاً طريدًا في فلٍّ من الناس، ومن عزم عزِّ الدولة أن يمضيَ إلى الشام فيأخذها، وقد حلفه عضد الدولة أن لا يتعرض لأبي تغلب صاحب الموصل؛ وذلك لمودَّة كانت بينهما ومكاتبةٍ ومراسلات منهما، فحلف له على ذلك، وحين خرج من بغداد كان معه حمدان بن ناصر الدولة بن حمدان، فحسَّن لعزِّ الدولة أخذ بلاد الموصل؛ لأنها أطيب وأكثر مالاً وأقرب إليه الآن، وكان عزُّ الدولة ضعيف العقل قليل الدِّين، فلما بلغ ذلك أبا تغلب أرسل إلى عزِّ الدولة يقول له: لئن بعثت إليَّ بأخي حمدان بن ناصر الدولة أعنتك بجيشي وبنفسي حتى أردَّك إلى ملك بغداد، وأقاتل معك عضد الدولة. فأمسك حمدان، وأرسله إلى عمِّه أبي تغلب، فسجنه في بعض القلاع، وبلغ ذلك عضد الدولة وأنهما قد اجتمعا على حربه، فركب إليهما بجيشه، وأراد إخراج الخليفة الطائع معه، فاستعفاه فأعفاه، واستمرَّ هو ذاهبًا إليهما فالتقى معها، فكسرهما، وهزمهما، وأخذ عزَّ الدولة أسيرًا، فلما جيء به لم يأذنْ له، بل أرسل إليه من قتله في الحال، ثم سار من فوره فأخذ الموصل ومعاملتها، وكان قد حمل معه ميرةً كثيرةً، وتشرَّد أبو تغلبَ في البلاد، بعث وراءه السرايا من كل جهةٍ، وأقام عضد الدولة بالموصل وضيَّق على أبي تغلب تلك البلاد، واستحوذ على أكثر تلك الناحية بصرامته وشجاعته وهمَّته وعزيمته، وأقام بالموصل إلى أواخر سنة ثمانٍ وستين، وفتح ميَّافارقين وآمدَ وغيرهما من بلاد بكر وربيعة، وتسلم بلاد مضر من أيدي نوَّاب أبي تغلبَ، وأخذ منهم الرحبة، وردَّ بقيتها على صاحب حلب سعد الدولة بن سيف الدولة بن حمدان، وتسلط سعد الدولة على بلاد عمِّه أبي تغلب يتسلمها بلدًا بلدًا، وحين رجع عضد الدولة من الموصل استناب عليها أبا الوفاء وعاد إلى بغداد، فتلقاه الخليفة الطائع لله ورءوس الناس إلى ظاهر البلد، وكان يومًا مشهودًا.

ومما وقع من الحوادث في هذه السنة الوقعةُ التي كانت بين العزيز بن المعزِّ الفاطميِّ وبين أفتكين غلام معزِّ الدولة صاحب دمشق، فهزمه وأسره، وأخذه معه إلى الديار المصرية مكرَّمًا معظمًا كما تقدَّم، وتسلم العزيزُ دمشق وأعمالها، وقد تقدَّم في سنة أربعٍ وستين بسط هذه الكائنة بما أغنى عن إعادته.

وفيها خلع على القاضي عبدالجبار بن أحمد المعتزليِّ بقضاء قضاة الريِّ وما تحت حكم مؤيد الدولة بن ركن الدولة بن بويه من البلاد، وله مصنفاتٌ حسنةٌ، منها: «دلائل النبوة» و«عمد الأدلة» وغيرهما.

وحجَّ بالناس في هذه السنة نائبُ المصريين، وهو الأمير باديس بن زيري أخو يوسف بلكين.

ولما دخل مكة اجتمع إليه اللصوص، وسألوه منه أن يضمنهم الموسم هذا العام بما شاء من

الأموال، فأظهر لهم الإجابة إلى ما سألوه، وقال لهم: اجتمعوا كلكم حتى أضمنكم كلكم. فاجتمع عنده بضعٌ وثلاثون حراميًا، فقال: هل بقي منكم أحدٌ؟ فحلفوا له أنه لم يبق منهم أحدٌ، فعند ذلك أمر بقطع أيدهم كلهم، ونعم ما فعل. وكانت الخطبةُ في هذه السنة للفاطميِّين بمكة والمدينة دون العباسيِّين.

ومن توفي فيها من الأعيان:

الملك عزُّ الدولة بختيار بن معزِّ الدولة أبي الحسين أحمد بن بويه الديلميُّ، ملك بعد أبيه، وعمره فوق العشرين سنةً بقليل، وكان حسن الجسم، شديد البطش، قويَّ القلب جدًا، يقال: إنه كان يأخذ بقوائم الثوْر الشديد، فيلقيه إلى الأرض من غير أعوان، ويتقصَّدُ الأسود في متصيَّداته، ولكنه كان كثير اللهو واللعب والإقبال على اللذات.

ولما كسره ابن عمه ببلاد الأهواز كان فيما أخذ من أمواله غلامٌ له كان يحبُّه حبًا شديدًا، فبعث يترقَّقُ لابن عمِّه فيه حتى يرده، وأرسل إليه بتحف عظيمةٍ وأموالٍ جزيلةٍ وجاريتين عوادتين لا قيمة لهما، وبعث نقيب الأشراف في ذلك، فردَّ عليه الغلام المذكور، فكثر تعنيف الناس لعزِّ الدولة، وسقط من أعين الملوك، فإنه كان يقول: ذهاب هذا الغلام أشدُّ عليَّ مما جرى من أخذ بغداد، بل وأرض العراق. ثم آل من أمره أنه أسره ابن عمِّه عضدُ الدولة، كما ذكرنا، وأمر بقتله سريعًا، فكانت مدةُ حياته ستًا وثلاثين سنةً، ومدة دولته منها إحدى عشرة سنةً وشهورٌ.

محمد بن عبدالرحمن، أبو بكر القاضي المعروف بابن قريعة، ولي القضاء بالسنديَّة، وكان فصيحًا يأتي بالكلام المسجوع من غير تكلُّفٍ ولا تردُّدٍ، وكان جميل المعاشرة ظريف المحاضرة.

ومن شعره:

لي حيلةٌ في من يَنمُّ ... وليس في الكذَّاب حيلهْ
من كان يخلقُ ما يقو ... ل فحيلتي فيه قليلهْ

وكان يقول للرجل من أصحابه إذا تماشيا: إن تقدَّمتُ فحاجبٌ، وإن تأخرت فواجبٌ. وكانت وفاته يوم السبت لعشر بقين من جمادى الآخرة منها، رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثمان وستين وثلاثمائة

في شعبان منها أمر الطائعُ لله أن يدْعىٰ لعضد الدولة بعد الخليفة على المنابر ببغداد، وأن تضرب الدبادب على بابه وقت الفجر وبعد المغرب وبعد العشاء.

قال ابن الجوزيِّ: وهذا شيءٌ لم يتفقْ لغيره من بني بويه، وقد كان معزُّ الدولة سأل من المطيع لله أن يضرب الدبادب على بابه ببغداد، فلم يأذن له في ذلك.

وقد افتتح عضد الدولة في هذه السنة ـ وهو مقيمٌ بالموصل ـ أكثر بلاد أبي تغلب بن حمدان، كآمد

وميَّافارقين والرحبة وغير ذلك من المدن الكبار والصغار، وحين عزم على العود إلى بغداد استناب على الموصل أبا الوفاء الحاجب، ورجع إلى بغداد فدخلها في سلخ ذي القعدة من هذه السنة، وتلقاه الخليفةُ والأعيانُ إلى أثناء الطريق، وكان يومًا مشهودًا.

ذكر ملك قسَّام التَّرَّاب لدمشق:

في هذه السنة، لما اتَّقع أفتكين مع العزيز بأرض الرملة، وانهزم أفتكين والحسن القرمطيُّ معه، وأسر أفتكين فذهب مع العزيز إلى ديار مصر نهض رجلٌ من أهل دمشق يقال له: قسَّامٌ التَّرَّاب. كان أفتكين يقربه ويدنيه ويأتمنه على أسراره، فاستحوذ على دمشق، وطاوعه أهلها، وقصدته عساكر العزيز من مصر، فحاصروه بها فلم يتمكنوا منه بشيءٍ، وجاء أبو تغلب بن ناصر الدولة بن حمدان فحاصره، فلم يمكنه أن يدخل دمشق، فانصرف عنه خائبًا إلى طبريَّة، فوقع بينه وبين بني عقيلٍ وغيرهم من العرب حروبٌ طويلةٌ، آل به الحال أن قتل أبو تغلب، وكانت معه أخته جميلةُ، وامرأته، وهي بنت عمِّه سيف الدولة، فردَّتا إلى سعد الدولة بن سيف الدولة بحلب، فأخذ أخته، وبعث بجميلة إلى بغداد، فحبست في دار وأخذ منها أموالٌ جزيلةٌ.

وأما قسَّامٌ - وهو الحارثيُّ، وأصله من بني الحارث بن كعب من اليمن - فأقام بدمشق يسدُّ خللها، ويقوم بمصالحها مدة سنين عديدةٍ، وكان مجلسه بالجامع، ويجتمعُ الناس عنده فيأمرهم وينهاهم، ويقوم فيمتثلون ما يرسم به.

قال ابن عساكر: أصله من قرية تلفيتا، وكان ترابًا.

قلت: والعامَّة يقولون: اسمه قسيْمٌ الزبال. وإنما هو قسَّامٌ، ولم يكن زبالاً؛ بل ترابًا من قرية تلفيتا بالقرب من قرية منين. وكان بدوُّ أمره أنه انتمى إلى رجل من أحداث دمشق يقال له: أحمد بن الجسطار. فكان من حزبه، ثم استحوذ على الأمور، وغلب الولاة والأمراء، وصارت إليه أزمَّةُ الأحكام، إلى أن قدم بُلُكِّينُ التركيُّ من مصر في يوم الخميس السابع عشر من المحرم سنة ستٍّ وسبعين وثلاثمائة، فأخذها منه ودخلها، واختفى قسَّامٌ التراب مدةً ثم ظهر، فأخذه أسيرًا وأرسله مقيدًا إلى الديار المصرية، فأطلق وأحسن إليه وأقام بها أيضًا مكرَّمًا. والله أعلمُ.

وممن توفي فيها من الأعيان:

أحمد بن جعفر بن حمدان بن مالك بن شبيب بن عبدالله، أبو بكر بن مالك القطيعيُّ[1] - من قطيعة الدقيق ببغداد - راوي «مسند أحمد» عن ابنه عبدالله، وقد روى عنه غير ذلك من مصنفات أحمد، وحدث عن غيره من المشايخ أيضًا، وكان ثقةً كثير الحديث، وقد حدث عنه الدارقطنيُّ وابن شاهين والبرقانيُّ وأبو نعيم والحاكم، ولم يمتنع أحدٌ من الرواية عنه، ولا التفتوا إلى ما شغب به

(١) ترجمته في «السير» (١٦/ ٢١٠) وما بعدها.

بعضهم من الكلام فيه، بسبب غرق بعض كتبه حين غرقت القطيعة بالماء الأسود، فاستحدث بعضها من نسخ أخر، وهذا ليس بشيء؛ لأنها قد تكون معارضةً على كتبه التي غرقت. والله أعلم. ويقال: إنه تغيَّر في آخر عمره، فكان لا يدري ما قرئ عليه. وقد جاوز التسعين، رحمه الله.

تميم بن المعز الفاطميُّ، وبه كان يكنَّى، وقد كان من أكابر أمراء دولة أبيه وأخيه العزيز، وفيه كرمٌ وله فضيلةٌ، وقد اتفقت له كائنةٌ غريبةٌ، وهي أنه أرسل إلى بغداد فاشتريت له جاريةٌ مغنِّيةٌ بمبلغ جزيل، فلما حضرت عنده أضاف أصحابه، ثم أمرها فغنَّت ـ وكانت تحبُّ شخصًا ببغداد ـ:

وبدا له من بعد ما اندمل الهوى ... برقٌ تألق موهنًا لمعانهُ
يبدو كحاشية الرداء ودونه ... صعب الذُّرى متمنِّعٌ أركانُهُ
فبدا لينظر كيف لاح فلم يطقْ ... نظرًا إليه وصدَّه أشجانهُ
فالنارُ ما اشتملت عليه ضلوعه ... والماء ما سمحتْ به أجفانُهُ

ثم غنَّته بأبياتٍ أخر، فاشتدَّ طربُ تميم وقال لها: لابد أن تسأليني حاجةً.

فقالت: عافيتك.

فقال: ومع هذا. وألحَّ عليها. فقالت: تردُّني إلى بغداد حتى أغنيَ بهذه الأبيات. فوجم، ثم لم يجد بدًّا من الوفاء، فأرسلها مع بعض أصحابه فأحجَّها، ثم سار بها إلى بغداد على طريق العراق، فلما أمسوا في الليلة التي يدخلون من صبيحتها بغداد ذهبت في الليل، فلم يدر أين ذهبت، فلما راح الخبر إلى مولاها تألَّم ألمًا شديدًا، وندم حيث لا ينفعه الندمُ.

العقيقيُّ صاحب الحمام والدار المنسوبتين إليه بمحلَّة باب البريد بدمشق، واسمه أحمد بن الحسين ابن أحمد بن عليٍّ بن محمد العقيقيُّ بن جعفر بن عبدالله بن الحسين الأصغر بن عليٍّ بن الحسين بن عليٍّ بن أبي طالب، الشريفُ أبو القاسم الحسينيُّ العقيقيُّ.

قال ابن عساكر: كان من وجوه الأشراف بدمشق، وإليه تنسب الدار والحمام بمحلَّة البريد، وقد امتدحه الوأواءُ الدمشقيُّ. وذكر أنه توفي يوم الثلاثاء لأربع خلون من جمادى الأولى من هذه السنة، وأنه دفن من الغد، وأغلق البلد بسبب جنازته، وحضرها بكجور وأصحابه ـ يعني نائب دمشق ـ ودفن خارج باب الصغير.

قلت: وقد اشترى الملك الظاهر ركن الدين بيبرس داره، وبناها مدرسةً ودارَ حديث وتربةً، وبها قبره، وذلك في حدود سنة سبعين وستمائة كما سيأتي بيانه.

أبو سعيد السيرافيُّ النحويُّ: الحسن بن عبدالله بن المرزبان، أبو سعيد السيرافيُّ النحويُّ القاضي، سكن بغداد، وولي القضاء بها نيابةً، وله «شرح كتاب سيبويه»، و «طبقات النحاة».

وروى عن أبي بكر بن دريدٍ وغيره، وكان أبوه مجوسيًّا، وكان أبو سعيد السيرافيُّ هذا عالمًا باللغة

والقراءات والنحو والعروض والفرائض والحساب وغير ذلك من فنون العلم.

وكان زاهدًا لا يأكل إلا من عمل يده، كان ينسخ كل يوم عشر ورقات بعشرة دراهم، تكون منها نفقته وقوته، رحمه الله تعالىٰ وكان من أعلم الناس بنحو البصريِّين، وينتحلُ مذهب أهل العراق في الفقه، وقرأ القرآن على ابن مجاهد، واللغة على ابن دريد، والنحو على ابن السرَّاج والمبرمان، ونسبه بعضهم إلى الاعتزال، وأنكره آخرون.

وكانت وفاته في رجب من هذه السنة عن أربع وثمانين سنةً، ودفن بمقبرة الخيزران.

عبدالله بن إبراهيم بن أبي القاسم الزنجاني، ويعرف بالآبندوني، رحل في طلب الحديث إلى الآفاق، ورافق ابن عديٍّ في بعض ذلك، ثم سكن بغداد، وحدَّث بها عن أبي يعلى والحسن بن سفيان وابن خزيمة وغيرهم.

وكان ثقةً ثبتًا له مصنفاتٌ، زاهدًا، روى عنه البرقانيُّ، وأثنى عليه خيرًا، وذكر أن أكثر أكله الخبزُ المأدوم بمرق الباقلاَّء، وذكر أشياء من تقلُّله وزهده وورعه. وتوفي عن خمس وتسعين سنةً، رحمه الله تعالى.

عبدالله بن محمد بن ورقاء، الأمير أبو حمد الشيباني، من أهل البيوتات والحشمة، بلغ التسعين، روى عن ابن الأعرابيِّ أنه أنشد في صفة النِّساء:

هي الضِّلعُ العوجاء لست تقيمها	ألا إن تقويم الضُّلوع انكسارها
أيجمعن ضعفًا واقتدارًا على الفتى	أليس عجيبًا ضعفُها واقتدارها

قلت: وهذا الشاعر أخذ هذا المعنى من الحديث الصحيح: «**إن المرأة خلقت من ضلع أعوج، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوجٌ**».

وفيها: توفي محمد بن عيسى بن عمرويه الجلودي، راوي «صحيح مسلم» عن إبراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه، عن مسلم بن الحجَّاج، وكان من الزهاد، يأكل من كسب يده من النسخ، وبلغ ثمانين سنةً، رحمه الله تعالى وإيَّانا بمنِّه وكرمه.

ثم دخلت سنة تسع وستين وثلاثمائة

في المحرم منها توفي الأمير عمران بن شاهين صاحب بلاد البطيحة منذ أربعين سنةً، تغلب عليها، وعجز عنه الأمراء والملوكُ والخلفاءُ، وبعث إليه الجنود والسرايا والجيوش غير مرة، فكلُّ ذلك يفُلُّها ويكسرها، وكلٌّ ما له في تمكنٍ وقوةٍ، ومكث كذلك هذه المدة كلها، ومع هذا كله مات على فراشه حتف أنفه، فلا نامت أعين الجبناء، وقام بالأمر من بعده ولده الحسن، فرام عضد الدولة أن ينتزع الملك من يده، فأرسل إليه سريةً فيها خلقٌ من الجنود، فكسرهم الحسن بن عمران بن شاهين وردهم خائبين، وكاد أن يتلفهم بالكلية حتى أرسل إليه عضد الدولة، فصالحه على مال يرسله إليه

كلَّ سنةٍ، وأخذوها من عضد الدولة على ذلك، وهذا من العجائب الغريبة.

وفي صفر قبض على الشريف أبي أحمد الحسين بن موسى الموسويِّ نقيب الطالبيين، واتُّهم بأنه يفشي الأسرار، وأن عزَّ الدولة أودع عنده عقداً ثميناً، وأُتيَ بكتاب أنه خطُّه في إفشاء الأسرار، فأنكر أنه خطُّه، وكان مزوَّراً عليه، واعترف بالعقد، فأخذ منه، وعزل عن النقابة، وولي غيره فيها، وكان مظلوماً في ذلك.

وفي هذا الشهر أيضاً عزل عضد الدولة قاضي القضاة أبا محمد بن معروفٍ، وولَّى غيره.

وفي شعبان ورد البريد من مصر إلى عضد الدولة بمراسلات كثيرة، فردَّ الجواب بما مضمونه صدق النِّية وحسن الطويَّة، ثم سأل عضد الدولة من الطائع أن يجدد عليه الخلع والجواهر، وأن يزيد في ألقابه تاج الدولة، فأجابه إلى ذلك كله، فخلع عليه من أنواع الملابس ما لم يتمكن من تقبيل الأرض من كثرتها، وفوض إليه ما وراء داره من الأمور ومصالح المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وحضر ذلك الرؤساءُ والأمراءُ وأعيان الناس، وكان يوماً مشهوداً.

وأرسل في رمضان إلى الدُّعَّار من الأعراب من بني شيبان وغيرهم، فعقرهم وكسرهم وقهرهم، وكان أميرهم ضبَّةُ بن محمد الأسديُّ متحصناً بعين التمر نيفاً وثلاثين سنةً، فأخذت ديارهم وأخذت أموالهم وحالت أحوالهم. ولله الحمد والمنة.

وفي يوم الثلاثاء لتسع بقين من ذي القعدة تزوَّج الخليفةُ الطائعُ لله بنت عضد الدولة الكبرى، وعقد العقد بحضرة الأعيان والرؤساء، وكان عقداً هائلاً حافلاً، على صداق مبلغه مائة ألف دينارٍ، ويقال: مائتا ألف دينار. وكان وكيل عضد الدولة الشيخُ أبي عليٍّ الحسن بن أحمد الفارسيُّ النَّحويُّ، صاحب «الإيضاح والتكملة»، وكان الذي خطب خطبة العقد القاضي أبو عليٍّ المحسن بن عليٍّ التوخيُّ، وكان يوماً مشهوداً.

وفيها: كان مقتل أبي تغلب ابن ناصر الدولة بن حمدان بالشام، قريباً من نوى وأعمالها، وكانت معه أخته جميلةُ وزوجته بنت عمِّه سيف الدولة، فردَّتا إلى ابن عمِّه سعد الدولة بن سيف الدولة صاحب حلب.

قال ابن الأثير: وفيها جدَّد عضد الدولة عمارة بغداد ومحاسنها، وجدَّد المساجد والمشاهد، وأجرى على الفقهاء والأئمة الأرزاق والجرايات، من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والأطباء والحسَّاب وغيرهم، وأطلق الصلات لأرباب البيوتات والشَّرف، وألزم أصحاب الأملاك ببغداد بعمارة بيوتهم ودورهم، ومهَّد الطرقات، وأطلق المكوس، وأصلح طريق الحجَّاج من بغداد إلى مكة، وأرسل الصدقات والصِّلات للمجاورين بالحرمين. قال: فأذن لوزيره نصر بن هارون، وكان نصرانيًّا، بعمارة البيع والديرة وإطلاق الأموال لفقرائهم.

وفيها: توفي حسنويه بن الحسين الكرديُّ، وكان قد استحوذ على نواحي بلاد الدينور وهمذان

ونهاوند مدة خمسين سنةً، وكان حسن السِّيرة، كثير الصدقة بالحرمين وغيرهما، فلما توفي اختلف أولاده من بعده، وتمزَّق شملهم، وتمكَّن عضد الدولة من أكثر بلاده، وقويت شوكته في الأرض.

وفي هذه السنة ركب عضد الدولة في جيوشٍ كثيفةٍ إلى بلاد أخيه فخرِ الدولة، وذلك لما كان بلغه من ممالآت عزِّ الدولة واتفاقهما عليه، فلما تفرغ من أعدائه ركب فتسلم بلاد أخيه فخر الدولة؛ همذان والريَّ وما بينهما من البلاد، وسلم ذلك إلى أخيه مؤيد الدولة بويه بن ركن الدولة؛ ليكون نائبه عليها، ثم سار إلى بلاد حسنويه الكرديِّ، فتسلم بلاده وأخذ حواصله وذخائره، وكانت جليلةً كبيرةً جدًّا، وحبس بعض أولاده، وأمَّر بعضهم، و أرسل إلى الأكراد الهكاريَّة، فأخذ منهم بعض بلادهم، وعظم شأن عضد الدولة وارتفع صيته وذكره، إلا أنه أصابه في هذه السَّفْرة داءُ الصَّرْع، وقد كان تقدَّم له مثله في الموصل، فكان يكتمه، ولكنَّه غلب به كثرةُ النِّسيان، فلا يذكرُ الشيءَ إلا بعد جهدٍ جهيدٍ، والدنيا لا تسرُّ بقدرِ ما تضرُّ:

دارٌ متى ما أضحكت في يومها أبكت غدًا بعدًا لها من دار

وممن توفي فيها من الأعيان:

أحمد بن عطاء بن أحمد أبو عبدالله الروذباريُّ[1] ـ ابن أخت أبي عليٍّ الرُّوذباريِّ ـ أسند الحديث، وكان يتكلم على مذهب الصوفية، وقد انتقل من بغداد، فأقام بصور، فتوفِّي بها في هذه السنة.

أحمد بن فارس بن زكريا، أبو الحسين اللغويُّ، صاحب كتاب «المُجْمَلِ» في اللغة وغيره، ومن شعره قبل موته بيومين:

يارِبِّ إنَّ ذنوبي قد أحطت بها علمًا وبي وبإعلاني وإسراري
أنا الموحِّدُ لكني المقرُّ بها فهبْ ذنوبي لتوحيدي وإقراري

ذكره ابن الأثير.

الحسن بن عليٍّ، أبو عبدالله البصريُّ، أحد مشايخ المعتزلة، ويعرفُ بالجعل، سكن بغداد، وانتحل مذهب العراقيين، فصنَّف للمعتزلة، وكان اشتغاله في الفروع على أبي الحسين الكرخيِّ وعنده دفن، وقد قارب الثمانين.

ثابت بن إبراهيم، أبو الحسنِ الحرَّانيُّ الصابئ المتطبِّبُ. الحاذق في فنِّه، توفِّي وقد جاوز الثمانين.

حسنويه بن الحسين الكردي، أمير تلك البلاد، وكان كثير الصدقات كما قدمنا، رحمه الله تعالى.

عبدالله بن إبراهيم بن أيوب بن ماسي، أبو محمد البزَّاز، أسند الكثير، وبلغ خمسًا وتسعين سنةً، وكان ثقةً ثبتًا، توفِّي في رجبٍ من هذه السنة.

---

(١) ترجمته في «السير» (١٦/ ٢٢٧) وما بعدها.

محمد بن صالح بن علي بن يحيى، أبو الحسن الهاشمي، قاضي بغداد، ويعرف بابن أمّ شيبان، وكان عالمًا فاضلاً، له تصانيف، وقد ولي الحكم ببغداد قديمًا، وكان جيد السيرة، توفي في هذه السنة وقد جاوز السبعين وقارب الثمانين، رحمه الله وإيانا بمنّه.

* * *

فهرست الجزء الحادي عشر